

الذخائر والعبريات

مُبْعَمٌ مُتَقَنٌ فِي جَامِعِ

فَنَاءِ بَنِيهِ دَقِّقَهُ أَمْسَهُ مَا قِيلَ وَأُثِرَ فِي سَبْحِ الْوَارِثِ الْمَعَانِي
مَعَ الْفِطْرِ وَالنَّحْوِ وَالنَّحْوِ وَنَحْوِ الْعَالَمِ وَمَعَانِيهِمْ رَبِّهِ بِعِ الْبَرِّ

لِخَادِمِ اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ
عبد الرحمن البرقوقي

١

مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
القاهرة / ت: ٩٣٦٢٧٧ - ٩٢٢٦٢٠

الذخائر والعبرانيات
منعجم ثنائى جامع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وسلّم على عباده الذين اصطفى

«أما بعد، فهذا مُعْجَمٌ ثَقَافِيٌّ جامعٌ لِشَيْءِ الْوَأْنِ الْمَعَانِي الَّتِي يَتَدَاوَلُهَا النَّاسُ
وَيَتَعَاوَرُونَهَا بَيْنَهُمْ، فِي شَيْءِ أَغْرَاضِهِمْ وَمَنَاحِيهِمْ، وَمُثَاقِفَاتِهِمْ وَمَحَاوِرَاتِهِمْ،
وَسَائِرِ أَسْبَابِهِمْ؛

ولقد أُلْقِيَ فِي رُوعِي^(١) أَنْ أَقُومَ بِوَضْعِ هَذَا الْمُعْجَمِ وَتَحْقِيقِهِ، فَكَانَ
بِعَدْوَنِ اللَّهِ وَتَمَامِ تَوْفِيقِهِ؛

ولقد أَسَمَيْتُهُ «الذَّخَايِرُ وَالْعَبَقَرِيَّاتُ»

ولهذا المُعْجَمِ وَتَأْلِيفِهِ قِصَّةٌ: ذَلِكَ أَنَّ وَزَارَةَ الْمَعَارِفِ الْمِصْرِيَّةَ كَانَتْ قَدْ
أَعْلَنْتْ رَغْبَتَهَا مِنْ سُلِّيَّاتٍ، فِي أَنْ يَخْتَارَ مَنْ يَرْتَقِبُ^(٢) مِنَ الْأَدْبَاءِ، أَيْمًا أَحَبُّ إِلَيْهِ
مِنْ تِلْكَ الطَّائِفَةِ مِنْ مُؤَلَّفَاتِ الْقُدَامَى الَّتِي وَقَعَ عَلَيْهَا اخْتِيَارُ الْقَائِمِينَ بِالْأَمْرِ
فِي الْوِزَارَةِ، كَيْ يَهْدُبُوهَا وَيَجْلُوهَا عَلَى التَّلَامِيذِ وَأَشْبَاءِ التَّلَامِيذِ مِنَ النِّسَاءِ

(١) أُلْحِمْتُ، وَالرُّوعُ: الْقَلْبُ وَالْعَقْلُ، وَوَقَعَ ذَلِكَ فِي رُوعِي: أَيْ فِي نَفْسِي

وَخَلَدِي وَبَالِي، وَالْمَرْقُوعُ: الْمُلْهَمُ كَأَنَّ الْأَمْرَ يَلْقَى فِي رُوعِهِ

(٢) يَرْتَقِبُ: يَرْغِبُ

الشادين^(١) جلوة حسنة تحلّولى بها فى أعينهم ، وتطّى^(٢) أهواءهم ، ويلتبّنى بها عنهم ماعسى أن تدبّوبه طباعهم ، وتتجافى أذواقهم ؛ وكان من بين هذه التّواليف التى اختارتها الوزارة كتاب محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء لأبى القاسم حسين بن محمد المشهور بالراغب الاصبهاني^(٣) ، ولما كان هذا الكتاب من الكتب القيمة بحق فى باب حُبّ إلى بادى الرأى^(٤) أن أضرب بسهم ، فى هذا العمل

(١) النشأ : تقرأ بفتح الشين جمع ناشئ. يتكادى وخدم وتقرأ بسكون الشين مثل صاحب وصاحب ، والشادى : الذى تعلم شيئاً من العلم والادب ونحوهما ، أى أخذ طرفاً منه (٢) طباه واطباه : استماله ودعاه إليه .

(٣) قال الإمام جلال الدين السيوطى فى بغية الدعاة - وقد سماه المفضل بن محمد - قال : المفضل بن محمد الاصبهاني الراغب صاحب المصنفات ، كان فى أوائل المائة الخامسة ، له مفردات القرآن وأفانين البلاغة والمحاضرات - أقول : ومن مؤلفاته : الذريعة إلى مكارم الشريعة - قال السيوطى : وقفت على الثلاثة ، وكان فى ظنى أن الراغب معتزلى حتى رأيت بخط الشيخ بدر الدين الزركشى على ظهر نسخة من القواعد الصغرى لابن عبد السلام مانصه : ذكر الإمام فخر الدين الرازى فى تأسيس التقديس فى الاصول أن أبا القاسم الراغب من أئمة السنة وقرنه بالغزالى قال : وهى فائدة حسنة فان كثيراً من الناس يظنون أنه معتزلى ، أقول : وفى كشف الظنون لكانب جلبي : إن الإمام الغزالى كان يستصحب كتاب الذريعة دائماً ويستحسنه لنفسه . أقول : وفى الحق أن كتاب الذريعة من الكتب القيمة فى معناه ، وكثيراً ما اعتمدت عليه فى هذا المعجم ، ولعل منشأ اتهامه بالاعتزال هو هذا الكتاب - الذريعة - لان طريقته فيه موفية على الغاية فى السداد ؛ وأزيد على ذلك : أن الراغب يبدو لى أنه شيعى يشبه ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة وذلك أنه يقرن اسم سيدنا على بن أبى طالب دائماً بقوله : عليه السلام ؛ وهذا وإن لم يك منكراً إلا أنا لم نألفه من غير رجال الشيعة (٤) فعلت كذا بادى الرأى : فيما بدا من الرأى وظهر

الضخم، فَأَعْمَدَ عَمَدَ عَيْنٍ إِلَيْهِ ^(١)، وَأَحَقَّقَ بِذَلِكَ مَا تَرَامَتْ وَزَارَةُ الْمَعَارِفِ إِلَيْهِ،
يَبْدُو أَنِّي لَمَّا أَنْعَمْتُ النِّظَرَ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ وَاسْتَقْرَيْتُهُ رَأَيْتُ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ
يَبْقَى عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَتَدَارَكَهُ أُدَيْبٌ ضَلِيعَ دَرَاكٍ، بِالضَّبْطِ وَالشَّرْحِ
والتَّحْرِيرِ. مِمَّا اسْتَبَدَّ بِهِ وَطَغَى عَلَيْهِ وَتَخَوَّنَهُ ^(٢)، مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّصْحِيفِ
وَالْأَخْطَاءِ الَّتِي أَلَوْتَ بِمَجَاسِنِهِ.

وَلَقَدْ تَلَامَحَ لِي، بَلْ بَدَأَ كَحَيٍّ بِأَصْرًا ^(٣) : أَنْ الرَّاعِبَ إِنَّمَا وَضَعَ هَذِهِ
الْمَحَاضِرَاتِ الْمُنْتَهَيْنِ، لَا لِلشَّادِينَ، لِأَنَّ مَخْتَارَاتِهِ تَكَادُ تَكُونُ خِدَاجًا ^(٤) مُقْتَضِبَةً
مَبْتَوْرَةً كَأَنَّهُمَا مُذَكَّرَاتٌ، أَوْ رِءُوسَ مَسَائِلٍ «أَمْلَاهَا الرَّاعِبُ لَتَكُونُ مَنِهَةً لِلأُدَيْبِ» ^(٥)
إِذَا هُوَ اسْتَذَكَّرَ بِهَا مَا قَدْ اقْتَرَأَ ^(٦)، فَتَدَاعَتْ ^(٧) الْأَشْبَادُ وَتَجَاوَبَتْ النِّظَارُ، فَطَاعَ
لَهُ الْمُرَادُ ^(٨) خَاوِرٌ وَحَاضِرٌ وَنَاقِلٌ وَنَاقِفٌ، فَبِذَلِكَ الْأَقْرَانِ، فَاشْتَرَبْتُ إِلَيْهِ الْأَعْنَاقَ،
وُثِّيتُ بِهِ - كَمَا يَقَالُ - الْخَنَاصِرُ ^(٩)؛ وَمِنْ هُنَا لَا يَكَادُ يَنْتَفَعُ بِمَحَاضِرَاتِ الرَّاعِبِ
غَيْرُ أُولَئِكَ الَّذِينَ اضْطَلَعُوا قَبْلًا بِمَا فِيهَا كَامِلًا غَيْرَ مَنْقُوصٍ فِي مَظَانِهَا

(١) إِلَيْهِ : مُتَعَلِّقٌ بِأَعْمَدٍ، أَيْ أَقْصَدُ إِلَيْهِ مُتَعَمِّدًا، وَعَمَدَ عَيْنٍ، قَالَ الزَّخَشَرِيُّ فِي
الْأَسَاسِ : فَعَلْتُ ذَلِكَ عَمَدَ عَيْنٍ : إِذَا فَعَلْتَهُ بِجَدِّ وَيَقِينُ قَالَ عُمَرُ بْنُ أَبِي رِيْعَةَ .

ثُمَّ صَدَّتْ بِوَجْهِهَا عَمَدَ عَيْنٍ زَيْنَبُ لِلْقَضَاءِ ثُمَّ الْحَبَابُ

(٢) تَخَوَّنَهُ وَخُونٌ مِنْهُ : تَنَقَّصَ (٣) لَحَا بِأَصْرًا : أَمْرًا وَاضِحًا

(٤) نَاقِصًا وَهَذَا مِنَ الْوَصْفِ بِالْمَصْدَرِ (٥) مَنِهَةٌ لِلأُدَيْبِ . تَعَلَّى قَدْرَهُ

(٦) اقْتَرَأَ : قَرَأَ (٧) تَدَاعَتْ وَتَجَاوَبَتْ : دَعَا بَعْضُهَا بَعْضًا فَاجْتَمَعَتْ

وَتَجَاوَبَتْ كَمَا تَتَجَاوَبُ الْقِمَارِيُّ . (٨) طَاعَ لَهُ الْمُرَادُ : أَنَّمَا طَاعَهَا سَهْلًا

(٩) يَقَالُ : فَلَانِ ثَنِي بِهِ الْخَنَاصِرُ : يَبْتَدَأُ بِهِ إِذَا ذَكَرَ أَشْكَالَهُ

من القرآن الكريم والحديث الشريف، وسائر كتب الأدب واللغة والتاريخ وموسوعات الثقافة العربية في شتى ألوانها.

هذا شيء، وشيء آخر، هو أن أبواب المحاضرات، أو حدوده، لم ترقى، أما تلك العناوين الصغيرة التي طواها الراغب تحت كل باب أو كل حد فقد راقني كل الرُّوق، وإن لم ترق جلال الدين السيوطي^(١)...

لهذا كله رَغِبْتُ عن مُعالجة المحاضرات على النحو الذي اقترحته وزارة المعارف، وانصرفتُ نَفْسِي عن ذلك إلى وضع مُعْجَم حاشِدٍ حافِلٍ مستقل، يهجم فيه الطالب على طَلِبَتِهِ، في أى معنى من المعاني «مَوْضُوعَةً على طَرَفِ الثَّمَامِ»^(٢) وجبل الذراع، من غير أن يحتاج في التنقيح عنها إلى الإيجاف والإيضاع.^(٣)

على أنى جَعَلْتُ محاضراتِ الراغب مُعَوَّلَى الأَوَّلَ في هذا المشوار،^(٤)

(١) اختصر السيوطي محاضرات الراغب وسمى كتابه «مختصر محاضرات الأدباء»، واقتصر فيه على ذكر الحدود، ويوجد من هذا المختصر نسخة خطية في دار الكتب المصرية، وقد توفي السيوطي سنة ٩١١ ولعل عذر السيوطي عن عدوله عن العناوين الصغيرة هو أن كتابه مختصر. (٢) الثمام: نبت ضعيف له خوص أو شبيهه بالخوص وربما حشى به وسد به خصائص البيوت، الواحدة ثمامة ويقال: هو لك على طرف الثمام وجبل الذراع إذا كان هين المتناول.

(٣) الإيجاف: ضرب من سير الإبل والخيال قال تعالى: فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب، أى ما عملتم، والإيضاع، الإسراع في السير قال تعالى: ولا وضعوا خلالكم والمراد: أن الطالب يعثر على طلبته بدون مشقة (٤) المشوار: المسكن تشار فيه الدابة أى يجربها رائضها لتعرف قوتها، وعثر يعثر عثاراً: كبا

الكثير العثار، ومنهلى العذب الذى اليه الايراد ومنه الإصدار، وعمدتي في
 لم شمل الاشياء والنظائر، وكل ما كان من المعاني قد وشجته القربات والأواصر
 ولقد تحيرت من المحاضرات سويدوات القلوب وأناسى العيون^(١)، وضممت
 إليها أولات الأرحام^(٢) مما أغفله الراغب وأنبته الآخرون، مثل ابن
 قتيبة في عيون الأخبار، وابن عبد ربّه في العقد الفريد، وأبي هلال
 العسكري في ديوان المعاني، والنويرى في نهاية الأرب، وفلان، وفلان،
 ولم أجتزئ بذلك، بل زدت خيراً ما أترسمه^(٣) مما قرأت وأدارست طوال
 هذا الدهر، فترى خير ما في الكمال للبَرّد، والأمالى لأبي عليّ القالى، وما
 لا يكاد يُخصى من الدواوين والأسفار، وما خلقه لنا الأوائل والأواخر
 من عبقرى الآثار.

«وبعد» فليسمع لى القارئ فى أن أزيده علماً بكنه هذا المعجم وحققة
 الطريقة التى اتبعتها، والجهود الجاهدة التى بذلتها، والملاحظات التى يصح
 أن تلاحظ عليه، والنقد الذى ربما يوجه إليه؛ فإنى بما أعتمل^(٤)
 جد بصير...

وأول ذلك وأولاه بالإشادة والتنويه: أنى أودعتُ هذا المعجم، كما
 أسلفت؛ خيراً ما فى محاضرات الأدباء للراغب، حتى كيصح أن يُطلق عليه

(١) أحسن ما فيه، وسويدوات القلوب: حباتها وفيه النور وإنسان العين: سوادها

(٢) المعاني التى تمت إليها بسبب وأصل، فهى من ذوات قرباها

(٣) قال الزمخشري فى أساس البلاغة: وأنا أترسم من ذلك الامر شيئاً: أى

أتذكره ولا أحققه

(٤) أعتمل: أعمل

«مختارات المحاضرات» وإن كان في هذا الإطلاق بعض الظلم «للدخائر والعبريات» لأنها في الواقع مختار المحاضرات وغير المحاضرات ، وإياك والظن أن هذا العمل وحده هينٌ لئن ، فقد علمت أن المحاضرات لقد طغى عليها التحريف والتصحيف إلى حد أن كلَّ حرف ، فضلا عن كل كلمة ، من آيةٍ كريمة ، أو حديثٍ شريف ، أو بيت من الشعر ، أو كلمة مأثورة ، لا بد أن أحققه بالرجوع إلى مصادره المختلفة حتى يستقيم ويقرَّ به القرار ، وإذ ذاك أُلقي عصا التسيار ، إذ تقرَّ عيني كما قرَّ عينا بالإياب المسافر ...

يحيُّ بعد ذلك أني كلما رأيتُ الراغب يورد في أي باب من الأبواب أثرا من آثارهم ، أكان من المنظوم أم من المنثور ، فزعتُ إلى مظانِّه ، فأكلت ما لا بد من إكاله ، وزدت ما أستحسن زيادته ، من كل ما قد يعلق بالذاكرة ، أو أتعثر عليه في أثناء مطالعاتي ومراجعاتي .

أما أبوابُ هذا المعجم فقد عدلتُ بها وانحرفتُ لآ عن أبواب المحاضرات فحسب ، بل عنها وعن سائر ما كان على غرار المحاضرات من سائر الموسوعات ، وأنت إذا تصفَّحت الدخائر والعبريات بدا لك أني ابتكرتُ طريقةً مُشَبَّهةً في تبويبها ، فقد جَهِدْتُ جَهِدِي أن تكون الأبواب متجانسةً متجاوبةً ، ومن ثمَّ كَسَرْتُ هذا المعجم على كُتُب وطَوَيْتُ السكَّاب على أبواب وأدرجت في كل باب سائر المعاني المتشابهة الأرقام ...

أما عناوين المعاني فقد انتفعت بعناوين الراغب كل الانتفاع ، فخذوت على حذوها بعد شيء من التصرف والتحوير والزيادة في أكثر العناوين ^(١)

(١) يلاحظ الناظر في الجزء الأول من «الدخائر والعبريات» أن خطي

يأتى بعد كل أولئك أنى امتزجت عن الراغب وغير الراغب بعمليْن عظيمين ، فأما أولهما فهو شرح كل ما يَجْمَلُ شَرْحُهُ من العبقریات ، وقد يُلاحَظُ أنى تبسّطت في الشرح - في كثير من المواضع - إلى الحدّ الذى قد يُتَكْرَهُ الخاصّة ، ولكن يَجْمَلُ أن يلاحظ كذلك أنى وضعتُ هذا المعجمَ الخاصّة وغير الخاصّة ، أى لكل قارئ ، على أن هذه الشروح هى الأخرى لَوْنٌ من ألوانِ الأدب والثقافة ، وقبلنا تخلو من الفوائد والعوائد ... وعلى أن هناك من العبقریات - كبعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والحكم والمواعظ ، وبعض الألفاظ المتداولة - ما حرّفه السّواد الأعظمُ عن مواضعه وجَهِلوا مغزاه الذى يغزوه قائلوه ، فكان لامندوحة عن تبيان معناه ^(١)؛ وفى هذا علاوة على ذلك امتثال لقول سيدنا رسول الله : يَجْمَلُ هذا العلم من كل خلفٍ عدوله ، يَنْفُقُونَ عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ... وأما العمل الآخر فهو تصدير كل باب بكلمة أكشف بها المراد بما عقد له هذا الباب ، وذلك كقولنا على البر والتقوى ، وعلى الصبر ، وعلى الشكر ، وهكذا وهكذا ... وهذا عمل له قيمته التى ما منها بدٌّ .

وبما امتاز به هذا المعجم أنى لم أَقْتَصِرْ على إيراد العبقریات من الأقوال

كانت أن أضع عنوان كل طائفة من المعاني فى أوائل السطور ومضيت على هذه الطريقة إلى قريب من تلك صفحات هذا الجزء ثم استحسنْتُ أن أعدل عن هذه الخطة إلى وضع العناوين وسط السطور لتسكون أدنى إلى التيسير وأعون للطالب على العثور بضالته من أقرب سبيل وهذه - كما يرى القارئ - من الهنات الهيئات التى تغفروا قد تدوركت فى سائر الكتاب

(١) يلاحظ أن الشرح يرى طوراً فى عمود الكتاب وصلبه وطوراً فى هامشه

ولإنما عَرَضْتُ فيما عَرَضْتُ لَتَرْجِمَةَ بعض العبقرين الذين نبغوا في معنى من المعاني، مثل القاضي أحمد بن أبي دواد، تلك الشخصية الضخمة التي خُلِدَتْ آثارها في اصطناع المعروف والإحسان إلى الناس، وإن كنت أوجزت القول في ذلك كل الإيجاز، وكذلك عَرَضْتُ للتعريف بالشعراء والعلماء والزهاد والحكماء الذين أوردت في هذا المعجم عبقرياتهم، وإن كان ذلك في أجزاء اختصار، وقد يلاحظ أني أغفلت التعريف بكثير من القائلين، كما أغفلت في بعض المواضع شرح كثير من أقوالهم، وذلك إما لآني عَرَفْتُ مامن يجب أن يُعَرَفَ وشرحت ما يَحْتُمِلُ أن يشرح في مواضع أخرى، وإما حَدَثَ ذلك سَهْواً رَغلةً، وقد يَحْدُثُ - وذلك في النُدرة - أن يكون الإغفال - ولا سيما إغفال التعريف بالرجال - لآني لم أَوْفَقْ إلى التَّعَرُّفِ عليهم...

هذا وكانت النِّيَّةُ أن أتوسَّع في إيراد عبقریات المعاصرين، ولكنني اقتصدت في ذلك كل الاقتصاد، لأن هذا المعجم من ناحية ليس كتاب مختارات بالمعنى المعروف وإنما هو معجم معاني، وإن كنت قد عملت ما وجدت إلى ذلك السبيل على أن يكون كتاب مطالعة بجانب أنه كتاب مراجعة، ومن ناحية تحشيتُ أن أنتم بما أنا براء منه في الواقع إذا أنا أوردت المختار من عبقریات بعض المعاصرين دون بعض، على أن آثار المعاصرين كثيرة التداول بين قراء هذا الجيل، ومن هنا أوردت فيه بعض عبقریات المعاصرين بمن استأثر الله بهم، وأوردت أيضاً ما استحسنتم إirاده بما تقبل إلى العربية من اللغات الأجنبية، وبخاصة ما نُشِرَ قديماً في مجلة البيان التي كنت أقوم

بإخراجها من سنة ١٩١١ إلى نهاية سنة ١٩٢١ ميلادية؛ وكذلك وقع اختياري على البارع كل البراعة من الكلمات الطويلة بعض الطول لبعض العبقريين من الغابرين، وإن كان ذلك في النادر الذي لا يؤبه له، لندرته، وإن كنت كذلك حذفت مما اخترت من هذا الضرب كثيراً من الفضول.

أما تسمية هذا المعجم «الذخائر والعبقریات» فلهذه التسمية مَغْزَى أَغْرُوهُ، أما العبقریات فإنی أريد بها - كما هو واضح - كلماتهم القصيرة الماثورة المتفوّقة في معناها، على أني لم آلُ جُهداً في تخيُّر العبقرى في معناه ومبناه معاً؛ وأما الذخائر فإنی لم أقصر في هذا المعجم على اختيار نوايغ الكلم، وإنما قد تُلجئُ الحالُ إلى أن أُشعِشِعَهُ كما تُشعِشِعُ الرّاح، بالماء القَرّاح^(١) فأورد بعض المباحث اللغوية والعلمية، على شريطة أن تكون بجانب مكانتها الرفيعة في بابها جميلة مستطرفة مُحذقة^(٢) قصيرة مُتجردة من الأذنان والفضول، كبعض كلمات بارعة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تراها مبعثرة ههنا وههنا في كتابه الحيوان، مثل كلامه على الخصاص والخصيان، وكلامه على العين وأفعلها في المعين، وكبعض كلمات كذلك لغيره... وأمثال لهذا كثيرة، على أن كلا الحرفين - الذخائر والعبقریات - مما يصح أن يوضع موضع الآخر، فيطلق على كل ما يؤثرو ويذخر لنفسه، سواء كان من الكلمات أم من الموضوعات، فكل عبقرى من القول هو ذخيرة من الذخائر، وكل موضوع قيم هو عبقرى من العبقریات.

(١) شعشع الشراب: مزجه، والماء القراح: الخالص الذي لا يشوبه شيء.
(٢) كلام محذف: من قولهم حذف الصانع الشيء: سواه تسوية حسنة كأنه حذف كل ما يجب حذفه حتى خلا من كل عيب وتهذب.

وهذا المعجم يقع في زهاء عشرة أجزاء ، كل جزء منها يستوعب ما يُرَبَّى على العشرين والثلاثمائة صفحة من هذا القطع ، من هذا الورق الذي ترى ...

«وبعد» فإنى على هذا الجهد الجاهد لأُبرئُ هذا الكتاب ، من العاب^(١) ، وهل يصح في الأفهام أن رجلاً يجرُّ وراءه نيفاً وستين سنة ، مَوْقَرَةً بِكُلِّ ما يُضَعِفُ المنة^(٢) ويوهن القوى ، وَيُعْصِفُ بالحَيَوية عَصْفًا ، لا تتكاثر هفواته وعثراته ، وتوافُر سَقَطَاتُه وزَلَّاتُه ، في عَمَلٍ مِثْلِ هذا يُجَاهِلُه ، وتَأليفِ تشعبِ موضوعاته ومَسَائِلُه ، وإذا كانت الموسوعات التى منها تَخَيَّرْتُ حساباً بهذا المعجم فذلِكَ ، وإذا كانت عبقرياتهم ههنا نظاماً نهى تثارُ مبددةً هنالك ، وإذا كان المؤلفون يستظهرون على إخراج مؤلفاتهم فى العادة بالوراقين^(٣) والمصححين فلقد قمت وحدى بهذا العمل دون الاستعانة بأحد من أولئك ... على أن النقصان ، عالق بالإنسان ، كان من كان ، وإنما الكمال ، للهِ الذى لا يموت ذى الجلال ...

اللهم إني أبرأ إليك من الحول والقوة ، اللهم عالم الغيب والشهادة فاطر السموات والأرض ، يامن لا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ^(٤) ، يامن وَعَدْتَ الذين هم محسنون^(٥) بحسن الجزاء وحاش لله أن يُخْلِفَ

(١) العاب : العيب

(٢) المنة : القوة

(٣) أعنى بالوراقين من يسمون اليوم « السكرتيرين الخصوصيين ،

(٤) الجد : الحظ ومعنى لا ينفعُ ذا الجد منك الجد : لا ينفعُ ذا الغنى عندك غناه ، وإنما ينفعه العمل بطاعتك ، ومنك : معناه عندك

(٥) المحسنون : أى الذين يحسنون أعمالهم ويتقنونها

الوَعْد ، سبحانه تبارك اسمك وتعالى جدك ، أسألك يا مَنْ تُجِيبُ دَعْوَةَ
الدَّاعِي إِذَا دَعَاكَ ، أَنْ تَهَبَ هَذَا الْكِتَابَ مِنْ تَوْفِيقِكَ مَا يَتَّصِلُ بِهِ بِرِضَاكَ ،
وَيَعْمُ الْإِنْتِفَاعُ بِهِ وَالْإِفَادَةُ مِنْهُ مَا اخْتَلَفَ الْمَلَوَّانِ ، وَكَرَّ الْجَدِيدَانِ ^(١) ...

ديسمبر سنة ١٩٤١

ذو القعدة سنة ١٣٦٠

عبد الرحمن البرقوقي

(١) الملوان والجديدان : الليل والنهار

استدراك

نذرت بعض أخطاء مطبعية في المقدمة وها هي ذى :

سطر	صفحة	خطأ	صواب
١٧	ط	وسويدوات القلوب حباتها وفيه النور	وسويداوات القلوب حباتها
١٧	ط	وإنسان العين سوادها	وإنسان العين سوادها وفيه النور
٦	ل	اختصار	قول
٧	ل	ما من	من

الْكِتَابُ الْأَوَّلُ

في الفضائل وصالح الأخلاق والمثل العليا
التي يحُمَلُ بِكُلِّ مَنْ يَنْشُدُ السَّعَادَةَ فِي
الدَّارَيْنِ أَنْ يَجْهَدَ جُوهْدَهُ فِي التَّحَلِّيِّ بِهَا

[وهذا الكتاب مكسورٌ على خمسة عشر باباً بينها]

[جميعاً لِحُمَةِ نَسَبٍ وَقَرَابَةِ]

الباب الأول

في البر والتقوى

البر وألوانه

قال علماؤنا ما خلاصته: إِنَّ أَصْلَ مَعْنَى الْبِرِّ: السَّعَةُ، ومنه البرُّ - بفتح الباء - مقابل البحر، ثم اشتُقَّ منه البرُّ بمعنى التوسع في فعل الخير، وكُلُّ فِعْلٍ مَرْضِيٍّ... وهكذا أطاؤه على التوسع في الإحسان إلى الناس، وهو بُرٌّ الْبِرِّ؛ وعلى صِلَةِ الرَّحِمِ، وهي دُنُوَانُ الْبِرِّ؛ وعلى التقوى، وهي جَمَاعُ الْبِرِّ^(١)، قال تعالى: **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنَجْزِيكَ أَجْرَكَ مِن دُونِ الْمَوْتِ وَمَا كُنَّا بِمُعْجِزِينَ عَنَّا** وقال كبيد:

• وَمَا الْبِرُّ إِلَّا مُضْمَرَاتٌ مِّنَ التَّقَى •

وَوَرَدَ الْبِرُّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ وَفِي شِعْرِ الْعَرَبِ مُقَابِلًا لِلْإِنْتِمِ - وَالْإِنْتِمِ: الشَّرُّ وَكُلُّ فِعْلٍ غَيْرِ مَرْضِيٍّ بِمَا يُؤْتِيهِمْ - قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنْتِمِ وَالْعُدْوَانِ**. واقتترانه بالتقوى يدلُّ على أَنَّ الْبِرَّ بِسَبِيلِ مِّنَ التَّقْوَى، وَرُوي أَنَّ سَائِلًا سَأَلَ الْمُصْطَفَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِنْتِمِ، فَقَالَ: الْبِرُّ مَا سَكَنْتَ إِلَيْهِ نَفْسُكَ وَاطْمَأَنَّ بِهِ قَلْبُكَ، وَالْإِنْتِمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَتَرَدَّدَ فِي صَدْرِكَ، وَإِنْ أَفْكَكَ النَّاسُ، أَوْ كَمَا قَالَ: «حَاكَ فِي نَفْسِكَ»: أَيْ أَثَرٌ فِيهَا وَرَسَخٌ وَحَزْرٌ

(١) ولأن البر يطابق على كل أولئك، قال الإمام البيضاوي: البر ثلاثة: برٌّ في عبادة الله، وبرٌّ في مراعاة الأقارب، وبرٌّ في معاملة الأجانب

وَقَدَحَ ، وقوله : وإن أفتاك الناس : أى وإن جعلوا لك فيه رُخصةً وجوازاً ،
وقال زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ :

وَالِإِثْمُ مِنْ شَرِّ مَا يَصَالُ بِهِ وَالْبِرُّ كَالْفَيْثِ نَبْتُهُ أَمْرُ

« ما يصال به : ما يُفتخر به ، وأمر : كثير مبارك » ، ومن أسماء الله البرّ -
بفتح الباء - ومعناه الواسع الخير ، وقوله تعالى : لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا
تَحِبُّونَ ، فمعناه : لن تنالوا برّ الله ، أى لن تنالوا خيري الدنيا والآخرة حتى
تنفقوا مما تحبون ، أمّا خير الدنيا فهو ما يسره الله للعبد من الهدى والنعمة ،
وأمّا خير الآخرة فهو الفوز بالنعيم الدائم فى الجنة ، أو تقول : لن تنالوا
حقيقة البرّ - أى الخير - حتى تنفقوا مما تحبون ... والأبرار : الأخيار ، جمع برّ ،
وقد قوبلت كلمة الأبرار بالفُجّار فى قوله تعالى : إِنَّ الْأَبْرَارَ لَنِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ
الْفُجَّارَ لَنِي جَحِيمٍ - والفجار : الذين يبعثون فى الشرور والآثام - وحج
مَبْرُور : مقبول يجازى بالبرّ ، أى الثواب ، أى خير الآخرة ؛ وبرّ فى يمينه
أى صدق ، أى كان خيراً فيه هذا الصدق .

« وبعد » فكل ما أوردوه من معانى البرّ فإلى الخير مرّده ...

ولهم فى البرّ مُطلقاً ، أى الخير غير مقيد بلون من ألوانه ، عبقریات وذخائر ،
فمن ذلك قول الحُطَيْيئة :

وَمَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
« جَوَازِيهِ : جمع جازية اسم مصدر للجزاء ، كالعاقبة ، أى لا يعدم جزاء عليه ،

قال أبو عمرو بن العلاء : لم يقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطية
هذا ، فقل له : فقول طَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ :

مَسْتَبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

فقال : هَن يَأْتِيكَ بِهَا يَمَن زَوَدَتْ أَكْثَر ، وليس بيت مما قالته الشعراء
إلا وفيه مطعن ، إلا قول الخطيئة هذا . ويُروى أَن كَعْبًا الْحِثْبَر - المشهور
بكعب الاحبار - لما سمع هذا البيت قال : والذي نفسى بيده : إِنَّ هَذَا الْبَيْتَ
لَمَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ ، ... وقال عَمِيدُ بْنُ الْأَبْرَصِ :

وَالْخَيْرُ يَبْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادٍ
« يقال : أَوْعَيْتَ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ : إِذَا جَعَلْتَهُ فِي الْوَعَاءِ »
وقال أبو العتاهية :

لَيَعْلَمَنَّ النَّاسُ أَنَّ التَّقَى وَالْبِرَّ كَانَا خَيْرَ مَا يُذْخَرُ

وَقَبْلَهُ قَالَ الْأَخْطَلُ - ورواه المبرِّد في الكامل للخليل بن أحمد واضع
علم العروض - :

وَإِذَا افْتَقَرْتَ إِلَى الذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ الْأَعْمَالِ
رَوَى صَاحِبُ الْأَغَانِي : أَنَّ دِشَامَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ لَمَّا سَمِعَ الْأَخْطَلُ وَهُوَ
يَقُولُ هَذَا الْبَيْتَ قَالَ : هَنِيأُ لَكَ أَبَا مَالِكٍ هَذَا الْإِسْلَامُ ! فَقَالَ الْأَخْطَلُ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا زِلْتُ مُسْلِمًا فِي دِينِي ؛ وَقَبْلَ هَذَا الْبَيْتِ فِي دِيْوَانِ الْأَخْطَلِ :
وَالنَّاسُ هَمُّهُمْ الْحَيَاةَ وَمَا أَرَى طُولَ الْحَيَاةِ يَزِيدُ غَيْرَ خَبَالٍ
« الخبال : الفساد ، أو هو لون من الجنون ، ... »

وقال أحمد شوقي في نهج البردة : - وهذه الآيات يصح أن تذكر في
باب التقوى وفي باب الدنيا وفي الزهد ، كما يصح أن تذكر في هذا الموضع - :
يَا نَفْسُ دُنْيَاكِ تُخْفِي كُلَّ بُكْيَةٍ وَإِنْ بَدَا لِكَ مِنْهَا حُسْنٌ مُبْتَسِمٍ -
فَضَى بِنَفْوَالِكِ فَأَمَّا كُلُّهَا فَصَحَّتْ كَمَا يُفَضُّ أَذَى الرِّقْشَاءِ بِالسَّرَمِ -
لَا تُخْزِلِي بِجَنَاحِهَا أَوْ جَنَائِبِهَا الْمَوْتُ بِالزَّهْرِ يَثْلُ الْمَوْتُ بِالْفَتَمِ -

صَلَحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ رَجْعُهُ فَقَوِّمِ النَّفْسَ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَقِمِ
وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَافِيَةٍ وَالنَّفْسُ مِنْ شَرِّهَا فِي مَرَاتِعٍ وَخِمٍ
«الجبثم: يريد الابتسام، أو موضع الابتسام، وهو الشجر. والرقشاء
من الحيات: المُنَقَّطَةُ بالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ. وأذى الرقشاء: سُتُّهَا. والثرم:
كسر السن من أصلها. والجنى: مَا يُجْنَى مِنَ الشَّجَرَةِ وَيَقْطَفُ مِنْ ثَمَرِهَا:
يقول في هذا البيت: إن سعادة الدنيا وشقاءها بمنزلة سواء، وكلاهما ألم
غير أن أحد الألمين ينزل بساحة النفس سافراً غير مُتَكْرٍ - وهو جنايتها
أى آلامها - والآخر - وهو جناها أى لذاتها - يتسرب إليها من أبواب
غفلتها فيتجمل ويَحْلُبُ حَتَّى يَنَالُ مِنْهَا، إِذْ أَنْ مِنْ وَرَائِهِ السَّمُّ نَاقِعاً، فثَلْهُمَا فِي
ذَلِكَ مَثَلُ الْمَوْتِ بِالْفَحْمِ وَالْمَوْتِ بِالزَّهْرِ، كِلَاهُمَا مَوْتٌ، وَإِنْ كَانَ هَذَا مِنْ
أَثَرِ الْإِخْتِنَاقِ بِأَرْجِ الزَّهْرِ، وَذَلِكَ مِنْ دَخَنِ الْفَحْمِ. والمرتع: مَنْ رَمَعَتْ
الْمَاشِيَةَ: أَكَلَتْ مَا شَاءَتْ، وَالْمَرْتَعُ: مَكَانُ الرِّتْوَعِ، وَالْوَحْمُ: الرَّدْيُ الْوَبِيءُ،
وَقَالَ الْمَعْرَى:

وَلْتَفْعَلِ النَّفْسُ الْجَلِيلَ لِأَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ لِلْأَجْلِ ثَوَابِهَا
«يقول المعرى: إِنْ فَعَلَ كُلُّ مَا هُوَ جَمِيلٌ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ مِنْ فَعَلِ
مَا لَيْسَ بِجَمِيلٍ، وَلَوْ لَمْ يَجْنِ الْمَرْءُ مِنْ وَرَاءِ الْجَلِيلِ وَفَعَلَهُ إِلَّا أَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ
وَأَسْمَى وَأَرْفَعُ؛ لَكَانَ فِي ذَلِكَ الْغَنَاءُ كُلُّهُ، أَمَّا فَعْلُ الْجَلِيلِ وَنُصَبُ عَيْنِ فَاعِلِهِ
ذَلِكَ الثَّوَابَ الَّذِي سَيَجَازِي بِهِ، فَإِنْ هَذَا إِسْفَافٌ بِالْإِنْسَانِيَةِ إِلَى الْحَضِيضِ
الْأَوْهَدِ، وَيُعْتَدُّ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَرْفَعُهَا اللَّهُ إِلَى أَسْفَلِ، وَجَمَلَةُ الْقَوْلِ: إِنَّهُ غَيْرُ
لَاقٍ بِالْكَالِ وَالْمَثَلِ الْأَعْلَى، أَلَيْسَ مَنْ كَانَ هَذَا شَأْنَهُمْ إِنَّمَا يَتَاجَرُونَ اللَّهَ الَّذِي
يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَالَّذِي هُوَ جَمِيلٌ يَحِبُّ الْجَمَالَ، وَتَسْتَرَى فِي بَابِ التَّقْوَى

كثيرا من عقرياتهم في هذا المعنى - منى فمل الخير حبا في الخير، وولوعا بالحق والجمال والمثالية الكامنة فيه.



وبما روى لنا من أحاديث سيدنا رسول الله في هذا الباب قوله صلوات الله عليه: رأيت الجنة والنار فلم أر مثل الخير والشر... قال ابن الأثير في النهاية: أى لم أر مثلهما لا يميز بينهما فبالغ في طلب الجنة والهرب من النار... أقول: ولعل الأظهر أن يكون المعنى: لم أر شيئا يكون وُصلةً إلى دخول الجنة مثل الخير، ولم أر شيئا يكون سبباً في دخول النار مثل الشر^(١).. هذا، وإن أبى المحدثون وأشباه المحدثين إلا أن يؤولوا الجنة بأنها الهناءة وغبطة الروح التي يشعُر بها الأخيار البررة ويرآحون لها في هذه الحياة، والنار بأنها الشقاوة التي يُعانها الأشرار الفجرة، ويتسعر لهبها في أحناء ضلوعهم، فهم وما يختارون ويحلّو لي لهم، إذ أن هذا - أى سعادة الخير في الدنيا وشقاوة الشرير فيها - حق وصحيح في ذاته، وإن لم يك مراداً لانتداء الله ورسله بالجنة والنار، حين يريدون الجنة والنار بمعناها المعروف، على أن الإسلام على ذلك يعتمد بالسعادة والشقاوة في الدنيا كما أنه يعتمد بهما فيما بعد الموت... وفي الحديث أيضا: خَيْرُكم من يُرَجى خيره ويؤمن شره، وشرُّكم من لا يُرَجى خيره ولا يؤمن شره... وقال صلوات الله عليه:

(١) ورد هذا الحديث عن أنس بن مالك هكذا: صلى لنا النبي صلى الله عليه وسلم ثم رقى المنبر، فأشار يده إلى قبة المسجد وقال: لقد رأيت الآن منذ صليت لكم الجنة والنار ممثلتين في قبة هذا الجدار فلم أر كاليوم في الخير والشر... الجامع الصغير،

خير الناس خيرهم لنفسه » وممنه : إذا جاملَ الناسَ جاملوه وإذا أحسن إليهم كافأوه بمثله » وأما الحديث : خيركم خيركم لأهله ؛ فهو حث على صلة الرحم ، وسيأتي ... وما يُؤثرُ من أحاديث سيدنا رسول الله في هذا الباب قوله صلوات الله عليه : شرُّ الناس من خافه الناس اتقاءً شره « ومثل هذا القول تبكيت للشرير ، وأنه وإن ظفر بما يظفر به من أغراض هذه الدنيا فهو خاسرٌ دائمٌ » وكان من دعاء سيدنا رسول الله : إن الخيرَ يدريك والشرُّ ليس إليك « يريد : أن الشر لا يُتقرب به إليك ولا يُبتغى به وجهك ، أو أن الشر لا يصعد إليك وإنما يصعد إليك الطيب من القول والعمل ، كما قال سبحانه : إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه . وفي هذا الدعاء إرشاد إلى استعمال الأدب في الثناء على الله والدعاء ، وأن تضاف إليه محاسن الأشياء دون مساوئها ... ومن كلمة لعلي بن أبي طالب : إن للخير والشر أهلاً ، فهما تركتموه منهما كفاكوه أهله » يقول رضى الله عنه : إنَّ لك باب من أبواب الخير وتركته فسوف يكفيك بعض الناس من جعله الله أهلاً للخير ، وإنَّ عنَّ لك بابٌ من أبواب الشر تركته فسوف يكفيك بعض الناس من جعلهم الله أهلاً للشر وأذى الناس ، فاختر لنفسك أيما أحب إليك : أن تحظى بالمحمدة والثواب وتفعل ما إن تركته فعله غيرك وحظى بحمده وثوابه ، أو أن تتركه ، وأيما أحب إليك : أن تشقى بالدم عاجلاً والعقاب آجلاً وتفعل ما إن تركته كفاكه غيرك وبلغت غرضك منه على يد غيرك ، أو أن تفعله ؛ وإذا نـجـير بالعاقل أن يُؤثرَ فعل الخير وترك الشر ما وجد إلى ذلك سبيلاً . ومن قولهم في أوصاف البررة الأخيار : فلانُ تقى الساحة من المآثم ، يرى الذمة من الجرائم ؛ إذا رضى لم يقل غير الصدق ، وإذا سخط لم يتجاوز

جَانِبَ الْحَقِّ ؛ يرجع إلى نَفْسِ أَمَارَةٍ بِالْخَيْرِ ، بعيدة من الشر ، مدلوله على سبيل البر ... ووصف أعرابي رجلا بلون من ألوان البر وبالأممية والذكاء والحصافة والآناة قال : كان - والله - الفهم منه ذا أذنين ، والجوابُ ذا لِسَانَيْنِ ، لم أرَ أحداً كان أُرْتَقَى لِخَلَلِ رَأْيٍ مِنْهُ ، ولا أبعدَ مسافة رَوَيْتِهِ وَمَرَادَ طَرَفٍ ، إنما يرمى بهمته حيث أشار إليه الكرم ، وما زال - والله - يَتَحَسَّى مَرَارَةَ أَخْلَاقِ الْإِخْوَانِ وَيُسْقِيهِمْ عُذُوبَةَ أَخْلَاقِهِ ... « كان الفهم منه ذا أذنين : يريد أنه كان يعي ويتفطن لما يرى ويسمع فطنة أوفت على الغاية ، إذ أنها فطنة مضاعفة ، فكأن له أذنين . أما قوله : والجوابُ ذا لسانين : فإنما يريد قوة العارضة واللّسن ، وهذا غير قولهم : فلان ذو وجهين وذو لسانين ، يريدون : النفاق والذبذبة . ورتق الفتق : أصلحه ، والمراد : المكان من راد يرود : إذا جاء وذهب ، ويتحسى : يقال حسا الماء : شربه ، وتحساه : إذا شرب في مهلة ، وهو هنا مجاز »

ومن كلمة لابن المقفع يصف الرجل يتلاقى البر في بُرْدِيهِ بِالْوَانِ شَتَّى مِنَ الْمُثَلِّ الْعُلَمَاءِ وَأَخْلَاقِ السَّادَةِ ، في أسلوب بديع - وقد وردت هذه الكلمة في نهج البلاغة منسوبة لعلی بن أبی طالب رضي الله عنه - : كان لي أخٌ في الله ، كان أعظم الناس في عيني ، وكان رأسَ مَا عَظَّمَهُ في عيني صَغُرَ الدُّنْيَا في عَيْنِيهِ ، كان خارجاً من سلطانِ بَطْنِهِ ؛ فلا يَنْشَهُي مَا لَا يَجِدُ ، ولا يُكْثِرُ إِذَا وَجَدَ . وكان خارجاً من سلطانِ قَرَجِهِ ؛ فلا يدعو إليه ، وَهُوَ ، ولا يَسْتَخِفُّ إِلَيْهِ رَأْيَا وَلَا بَدَنًا ، وكان لا يتأثر عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجاً من سلطانِ لِسَانِهِ ؛ فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يماري فيما علم . وكان خارجاً من سلطانِ الْجَهَالَةِ ؛ فلا يُقَدِّمُ أبداً إِلَّا عَلَى ثِقَةٍ بِنَفْسِهِ ، وكان

أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَائِماً ، إِذَا قَالَ بَرَّ الْقَائِلِينَ ، وَكَانَ ضَعِيفاً مُسْتَضْعِفاً ، إِذَا جَدَّ الْجِدُّ فَهُوَ اللَّيْثُ عَادِيًا ، وَكَانَ لَا يَدْخُلُ فِي دَعْوَى ، وَلَا يَشَارِكُ فِي مِرَاءٍ ، وَلَا يُدْلِي بِبُحْبُحَةٍ ، حَتَّى يَرَى قَاضِيَا فَهِمًّا وَشُهُودَا عَدُولًا ، وَكَانَ لَا يَلُومُ أَحَدًا فِيمَا يَكُونُ الْعَذْرُ فِي مِثْلِهِ حَتَّى يَعْلَمَ مَا عَذْرُهُ ، وَكَانَ لَا يَشْكُو وَجَعَهُ إِلَّا عِنْدَ مَنْ يَرْجُو عِنْدَهُ الْبُرَّةَ ، وَلَا يَسْتَشِيرُ صَاحِبًا إِلَّا أَنْ يَرْجُوَ مِنْهُ النَّصِيحَةَ . وَكَانَ لَا يَتَبَرَّمُ وَلَا يَتَدَخَّلُ ، وَلَا يَتَشَكَّى وَلَا يَتَشَهَّى ، وَلَا يَنْتَقِمُ مِنَ الْعَدُوِّ وَلَا يَقْبَلُ عَنِ الْوَلِيِّ ، وَلَا يُخْصُ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ دُونَ إِخْوَانِهِ ، مِنْ أَهْتَامِهِ وَحِيلَتِهِ وَقُوَّتِهِ ... فَمَلِكٌ بِهَذِهِ الْأَخْلَاقِ إِنْ أَطَقَتْهَا ، وَلَنْ تَطِيقَ ، وَلَكِنْ أَخَذَ الْقَائِلُ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الْجَمِيعِ ... قَوْلُهُ كَانَ لِي أَخٌ الْحَ : فَلَيْسَ يَعْنِي أَخَا بَعِيْنِهِ وَلَكِنْ هَذَا كَلَامٌ خَارِجٌ مَخْرَجُ الْمَثَلِ ، وَعَادَةُ الْعَرَبِ جَارِيَةٌ بِذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِهِمْ فِي الشَّعْرِ : قُلْتُ لَصَاحِبِي ، وَيَا صَاحِبِي : وَقَوْلُهُ : فَلَا يَتَشَهَّى مَا لَا يَجِدُ ، فَإِنْ ذَلِكَ لِعَمْرَى مِنْ سَقُوطِ الْمَرْوَةِ . قَالَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ : جَنَّبُوا مَجَالِسَنَا ذَكَرَ تَشَهَّى الْأَطْعَمَةِ وَحَدِيثِ الْكَاحِ : وَمِنْ طُرْفِ الْجَا حِظِّ مَارَوَاهُ عَنْ نَفْسِهِ : جَاسِنَا فِي دَارٍ بَعَلْنَا تَشَهَّى الْأَطْعَمَةِ ، فَقَالَ وَاحِدٌ : أَنَا أَشْتَهِي سِكَبَاجَةَ كَثِيرَةِ الزَّعْفَرَانِ ، وَقَالَ آخَرُ : وَأَنَا أَشْتَهِي هَرِيْسَةَ كَثِيرَةِ الدَّارِ صِينِي ... وَإِلَى جَانِبِنَا امْرَأَةٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا بَيْتُ الدَّارِ ، فَضَرَبَتِ الْحَائِطَ وَقَالَتْ : أَنَا حَامِلٌ ، فَأَعْطُونِي مِلَّةً . هَذِهِ الْغَضَارَةُ - الصَّفْحَةُ - مِنْ طَبِيعَتِكُمْ ، فَقَالَ ثُمَامَةُ بْنُ الْأَشْرَسِ : جَارَتُنَا هَذِهِ تَشْمُ رَائِحَةَ الْإِمَامَانِ وَقَوْلُهُ : وَكَانَ ضَعِيفاً مُسْتَضْعِفاً : يَرِيدُ : كَلَيْتَ الْجَانِبِ ، وَطَأَ الْإِكْنَفَ ، ... وَقَرَعَ رَجُلٌ بَابَ بَعْضِ الْخَيْرِيْنَ مِنَ السَّلَفِ ، فِي لَيْلٍ ، فَقَالَ لَجَارِيَتِهِ : أَبْصِرِي مَنْ الْقَارِعَ ، فَأَتَتْ الْبَابَ فَقَالَتْ : مَنْ ذَا ؟ قَالَ أَنَا صَدِيقُ مَوْلَاكَ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : قَوْلِي لَهُ : وَاللَّهِ إِنَّكَ لَصَدِيقٌ ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ :

والله إني لصديق ، فهض الرجل ويده سيف وكيس يسوق جارية ، وفتح الباب وقال : ماشأذك ؟ قال : راعنى أمر ، قال : لباك ماساءك ، فأتى قد قسمتُ أمرك بين صديق : فهذا المال ، وبين عدو : فهذا السيف ، أو مشوق : فهذه الجارية . فقال الرجل : لله بلادك ، ما رأيت مثلك ... « أقول : هذه لعمرى هى أخلاق السادة النبلاء ذوى البر والمروءة والوفاء والحزم والظرف ، وكونٌ - وجود - أمثال هؤلاء من ذوى الإنسانية العالية هو الذى يُحسِّنُ ظننا بالحياة ويجعلها فى أعيننا ، ويجعلها مُحتملة مطابقة ، لا كما نرى اليوم ... » وقال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يصف رجلا قليل الخير - أى لا خير فيه -^(١)

أَبَى لَكَ فِعْلَ الْخَيْرِ رَأَى مُقَصِّرٌ وَنَفْسُ أَضَاقَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ بِأَعْيَا
إِذَا مَا أَرَادَتْهُ عَلَى الْخَيْرِ مَرَّةً عَصَاهَا وَإِنْ هَمَّتْ بِشَرٍّ أَطَاعَهَا

ومن قولهم فى قليل الخير :

هُوَ فِي الْخَيْرِ قُطُوفٌ وَهُوَ فِي الشَّرِّ وَسَاعٌ

« القُطُوف من الإنسان والحيوان : البطء المتقارب الخطو ، ووساع : واسع الخطو سريع السير ، ومن قولهم فى المتسارين فى الخير والشر . هما كَفَرَسَى رَهَان ، وهذا فى الخير ، وأما فى الشر فيقال : هما كِحِمَارَى الْعِبَادَى . والعبادى : رجل من العباد ؛ وهم قوم من قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية فَأَنِفُوا أَنْ يَتَسَمَّوْا بِالْعَبِيدِ وَقَالُوا : نحن العباد ، وقد نزلوا بالحيرة ومنهم عَدَى بن زيد العبادى الشاعر المشهور . أما هذا العبادى فيروى أنه قيل له - أى حِمَارِكَ شَرٌّ ؟ فقال : هذا ، ثم هذا !

(١) كان عبد الرحمن هذا قد سأل محمد بن عمرو عامل سليمان بن عبد الملك

حاجة فلم يقضها ، فسألها عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقضاهَا ، فقال أبياتا منها هذان اليتان

وقال الأشعرُ الرِّقْبَانُ - وهو شاعر جاهلي من بني أسد - يخاطب ابن عمِّه
 له يسمى رضوان ، يصفه بالشر واللؤم والنذالة والفسولة :

بِحَسْبِكَ فِي الْقَوْمِ أَنْ يَعْلَمُوا بِأَنَّكَ فِيهِمْ غَنِيٌّ مُضِرُّ
 وَقَدْ عَلِمَ الْمَعْشَرُ الطَّارِقُوكَ بِأَنَّكَ لِلضَّيْفِ جُوعٌ وَقُرُّ
 إِذَا مَا اتَّدَى الْقَوْمُ لَمْ تَأْتِهِمْ كَأَنَّكَ قَدْ وَلَدْتَكَ الْحُمُرُ
 مَسِيخٌ مَلِيخٌ كَلْحَمِ الْخَوَارِ فَلَا أَنْتَ حُلُوٌّ وَلَا أَنْتَ مُرُّ

« قوله : غَنِيٌّ مُضِرُّ ، فالْمُضِرُّ : الذي له ضَرَّةٌ من المال ، وهي القطعة من
 المال والإبل والغنم ، أو المال الكثير ، كما هنا ، واتَّدَى القوم : اجتمعوا
 في ناديمهم ، والمسيخ : الذي لا طعم له ، والمليخ مثله ، وخصَّ به بعض اللغويين
 الخوار الذي ينجر حين يقع من بطن أمه فلا يوجد له طعم ، ونال ابن الأعرابي :
 المليخ من الرجال : الذي لا تشتهي أن تراه حينك فلا تجالسه ولا تسمع أذنك
 حديثه ، والخوار : ولد الناقة ساعة تَضَعُهُ ... وما يَحْسُنُ إِرَادَهُ فِي هَذَا
 الْبَابِ لِلْبُسْتَةِ وَاشْتِبَاهِهِ قَوْلَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَدْ قِيلَ لَهُ : فَلَنْ لَا يَرْفِ
 الشَّرَّ - فَقَالَ : ذَلِكَ أَوْقَعَ لَهُ فِيهِ ، إِذْ أَنْ مَعْنَاهُ : أَنْ لَا يَكُونَ الْإِنْسَانُ مَغْفَلًا وَإِنَّمَا
 الْوَاجِبُ الْفِطْنَةُ وَالْحَذَرُ وَسُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ ، لَمَّا جُبِلَ عَلَيْهِ سَوَادُهُمْ مِنَ الشَّرِّ
 وَاللُّؤْمِ وَالْخِدَاعِ ، وَفِي مَعْنَاهُ يَقُولُ حَكِيمُ لَابَنِهِ : اسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ
 وَكُنْ مِنْ خِيَارِهِمْ عَلَى حَذَرٍ ... وَقَدْ كَانَ الْفَارُوقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يَقْعَقَعُ
 لَهُ بِالْشَّنَانِ ^(١) وَكَانَ سَيِّئَ الظَّنِّ بِالنَّاسِ ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ شِدَّتُهُ وَصِرَامَتُهُ

(١) لَا يَقْعَقَعُ لَهُ بِالْشَّنَانِ : مَثَلٌ ، أَيْ لَا يَخْدَعُ وَلَا يَرْوِعُ ، وَأَصْلُهُ مِنْ تَحْرِيكِ الْجِلْدِ
 الْيَابِسِ لِلْبَعِيرِ لِيَفْرَعَ ، وَمَعْنَى الْقَعْقَعَةِ : التَّحْرِيكُ ، وَالشَّنَانُ : جَمْعُ شَنْ وَهُوَ الْقَرَبَةُ الْخَلْقُ
 أَوْ الْخَلْقُ - الْبَالِي - مِنْ كُلِّ وَعَاءٍ صَنَعَ مِنْ جِلْدٍ .

وحذرُهُ وسياسته الحازمة الرشيدة... «وبعد» فإنك ترى في باب طبائع الإنسان كثيرا من عقرياتهم في الشر ووصف الأشرار وحكمة امتزاج الخير بالشر في العالم ، كما أنه سيمرُّ بك قريبا كثير من عقرياتهم في التقوى وحسن الخلق...

ومن أروع وأجمع ما قيل في البر على سائر ألوانه قوله جلَّ شأنه : ليسَ البرَّ أنْ تُؤَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ...

«نزلت هذه الآية الكريمة بعد أن أكثر أهل الكتاب من يهود ونصارى ، الخوض في أمر القبلة حين حوّل رسولُ الله إلى الكعبة ، وزعم كل من الفريقين أن البرّ هو التوجّه إلى قِبَلَتِهِ ، فقنّد الله سبحانه هذا الزعم وبهرجه وقال : ليس البرُّ العظيم الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البرّ هو أمر القبلة ، ولكن البرّ الذي يجب الاهتمام به وصرف الهمة إليه هو برٌّ مَنْ آمَنَ وقام بهذه الأعمال هذا ، وقوله . ليس البرّ أنْ تُؤَلُّوا ، قال البرّ بالنّصب خبرٌ ليس مُقدّم . وأنْ تُؤَلُّوا ، وولّ بمصدر اسم ليس مؤخر ، وقوله : ولكن البرّ من آمن : إمّا مثلُ قول الخنساء ^(١) :

(١) الخنساء : هي تماضر بنت عمرو بن الشريد من سروات قبائل بني سليم من أهل نجد ، أشعر النساء في عصرها أدركت الإسلام وأسلمت توفيت سنة ٢٤ هـ وقوله فإنما هي إقبال وإدبار ، من أبيات ترى أخاها صخرًا تقول فيها :

فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ * أَوْ تَقُولُ : وَلَكِنَّ الْبِرَّ : أَيْ ذَا الْبِرِّ
 أَوْ تَقُولُ ، إِنَّهُ عَلَى حَذْفٍ مِضاف ، أَيْ بِرٍّ مِنْ آمَنَ . وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : وَالْكِتَابُ ،
 يَعْنِي جَنْسَ كِتَابِ اللَّهِ ، أَوْ الْقُرْآنَ . وَقَوْلُهُ : عَلَى حَبِّهِ ، أَيْ مَعَ حُبِّ الْمَالِ
 وَالشُّحِّ بِهِ ، وَقَدْ ذُكِرَ الْقُرْبَى لِأَنَّ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ أَفْضَلُ ، كَمَا وَرَدَ فِي
 الْآثَرِ : صَدَقْتُكَ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةً وَعَلَى ذِي رَحِمِكَ اثْنَتَانِ ، صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ ،
 وَابْنُ السَّيْلِ : الْمَسَافِرُ الْمُنْقَطِعُ ، وَقِيلَ الضَّيْفُ : لِأَنَّ السَّيْلَ يَرْغَفُ بِهِ - أَيْ
 يَتَقَدَّمُ بِهِ وَيَبْرُزُهُ لِلْمَقِيمِينَ كَمَا يَرْغَفُ الْأَنْفُ بِدَمِ الرَّعَافِ - وَقَوْلُهُ : وَفِي الرِّقَابِ : أَيْ
 وَفِي مُعَاوَنَةِ الْمَكَاتِبِينَ حَتَّى يَفْكَرُوا رِقَابَهُمْ وَقِيلَ : فِي شِرَاءِ الرِّقَابِ وَإِعْتِقَادِهَا ،
 وَقِيلَ : فِي فَكِّ الْأَسَارِيِّ . وَقَوْلُهُ : وَالْمُؤَفَّنُونَ بِعَهْدِهِمْ : عَطْفٌ عَلَى مَنْ آمَنَ
 وَقَوْلُهُ : وَالصَّابِرِينَ ، فَهُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَدْحِ ، وَلَمْ يُعْطَفْ ، لِفَضْلِ الصَّبْرِ عَلَى
 سَائِرِ الْأَعْمَالِ ، وَالْبَأْسَاءِ ، أَيْ فِي الْأَمْوَالِ كَالْفَقْرِ ، وَالضَّرَاءِ ، أَيْ فِي الْأَنْفُسِ
 كَالْمَرَضِ . وَحِينَ الْبَأْسِ : أَيْ وَقْتُ مَجَاهِدَةِ الْعَدُوِّ ... أَيْلَسَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ
 - كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الْبَيْضَاوِيُّ ، وَكَأَنَّا نَرَى - جَامِعَةً لِلْمَكَالَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِأَسْرَافِهَا ، دَالَّةٌ
 عَلَيْهَا صَرِيحًا أَوْ ضَمْنًا ، فَإِنَّهَا عَلَى تَشَعُّبِهَا مَنْحَصَرَةٌ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : صِحَّةُ الْإِعْتِقَادِ ،
 وَحُسْنُ الْمَعَاشِرَةِ ، وَتَهْذِيبُ النَّفْسِ . وَقَدْ أُشِيرَ إِلَى الْأَوَّلِ بِقَوْلِهِ : مَنْ آمَنَ

فَمَا عَجُولٌ عَلَى بَوِّ مُطِيفٍ بِهِ لَهَا حَتَيْنَانِ إِعْلَانٌ وَإِسْرَارٌ
 تَرْتَعُ مَا غَفَلْتَ حَتَّى إِذَا أَدَّكَرَتْ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ
 يَوْمًا بِأَوْجَدَ مِنِّي حِينَ فَارَقَنِي صَخْرٌ وَلِدَهْرٍ إِحْلَاءٌ وَإِمْرَارٌ
 العجول من الإبل : الواله التي فقدت ولدها ، لعجلتها في جيئتها وذهابها جزعا
 والبو : جلد ولد الناقة يحشى تبنا ونحوه ويقرب منها فتعطف عليه وتدر ، وقولها : فَإِنَّمَا
 هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ : جعلها نفس الإقبال والإدبار مبالغة ، أي أنها تنلهي عن الرعي فتقبل
 وتدر جزعا

بِالله . إلى : والنبیین ، وإلى الثاني بقوله : وآتَى الْمَالَ ... إلى : والرقاب ، وإلى الثالث بقوله : وأَقَامَ الصَّلَاةَ ... إلى آخرها . ولذلك وَصَفَ الْمُسْتَجْمِعُ لها بالصدق ، نظراً إلى إيمانه واعتقاده ، وبالتقوى : اعتباراً بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق سبحانه ، ولذلك قال عليه السلام : مَنْ عَمِلَ بِهِذِهِ الْآيَةِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ .

بِرُّ الْوَالِدَيْنِ وَصِلَةُ الرَّحِمِ

وعقوباتهم في الآباء والأبناء والأقارب من بابات شتى *

وإِلَيْكَ شَدَّوْا مِنْ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي لَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِ الْبَرِّ لَقَدْ نَرَاهُ بَادِي الرَّأْيِ قَلِيلَ الْخَطَرِ ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ الْحَقُّ ، وَلَدَى إِلْقَاءِ الْبَالِ إِلَيْهِ ، وَإِنْعَامِ النَّظَرِ فِيهِ ، عَظِيمٌ كُلُّ الْعِظَمِ ، خَطِيرٌ كُلُّ الْخَطَرِ ، ذَلِكَ هُوَ صِلَةُ الرَّحِمِ بِعَامَّةٍ ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ بِمَخَاصِصِهَا ، وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِرَّ الْوَالِدَيْنِ بِالتَّوْحِيدِ ، وَأَكْثَرَ فِي كِتَابِهِ الْمُنْزَلِ مِنَ الْحُضِّ عَلَى هَذَا الْبَرِّ بِأَسْلُوبٍ يُخَيِّلُ إِلَى السَّمْعِ إِلَيْهِ أَنَّ بِرَّ الْوَالِدَيْنِ رَكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ ، وَأَسَاسٌ مِنْ أَسَاسِ الْأَخْلَاقِ لَا يُؤْبَهُ لِسَائِرِهَا بِدُونِهِ ، وَإِنَّهُ لَكُنْكَذَا ، وَفِي الْحَقِّ إِنْ هَذِهِ الْإِشَادَةُ الْبَالِغَةُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ لَمَّا يُعْتَدُّ مِنْ فَضَائِلِ هَذَا الدِّينِ الْحَنِيفِ وَخَصَائِصِهِ الَّتِي يَنَازِلُهَا . فَلْيُلْقِ أَبْنَاءُ الْيَوْمِ بِالْهَمِّ إِلَى ذَلِكَ ، وَلِيَجْعَلُوهُ دَائِمًا نُصَبَ أَعْيُنِهِمْ ، إِنْ كَانُوا يَرِيدُونَ الْخَيْرَ لَا نَفْسَهُمْ ، وَإِلَّا فَلَا يُبْعِدُ اللَّهُ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ... هَذَا وَسَتَسْمَعُ بَادِي ذِي بَدءٍ خَيْرَ

(هـ) البابة عند العرب : الوجه ، والبابات الوجوه وأنشدوا التميم بن مقبل :

بنى عامر ما تأمرون بشاعر تخير بابات الكتاب هجائيا

معناه : تخير هجائي من وجوه الكتاب ، ويقال فلان من أهون باباته الكذب وهي أنواع خبثه ، وإذا قال الناس : هذا شئ . من بابتي ، فعناه من الوجه الذي أريده ويصلح لي .

ما قالوا في هذا اللون من البر، ثم نعبه بخير ما قالوا في الآباء والأبناء والآقارب، مما يتأشب إلى هذا المعنى، وينشعب به القول، ولا يخلو بعضه من طرفة، حتى نستوعب المنتقى من كلامهم في كل باب، وحتى يكون فيما يستطرف منه استراحة للقارئ وانتقال ينفي ملل الجِدِّ عنه... فمن ذلك ما يقول الله عز وجل - وَتَجَزَّأَ بِهِذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ الْجَامِعَةُ عَنْ سَائِرِ الْآيَاتِ الَّتِي يَزُخَّرُ بِهَا كِتَابُ اللَّهِ فِي بَابِ الْبِرِّ بِالْوَالِدِينَ - : وَاقْضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا، رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا، وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ... الْآيَاتِ

وقوله سبحانه : وَاقْضَى رَبُّكَ : أى أمر أمرا مقطوعا به... وإنها لكلمة مُرَوِّعَةٌ تَرْجُحُ النَّفْسَ رَجًّا وَتُزَلِّزُ أَرْجَاءَ هَازِلًا شَدِيدًا . ولا جَرَمَ أَنَّهُ كِتَابُ اللَّهِ الَّذِي أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ . أما قوله سبحانه : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ : أى قَضَى رَبُّكَ بَأَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ؛ لِأَنَّ غَايَةَ التَّعْظِيمِ لَا تَحِقُّ إِلَّا لِمَنْ لَهُ غَايَةُ الْعِظَمَةِ وَنَهَايَةُ الْإِنْعَامِ . وقوله : وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، أى وَقَضَى بِأَنْ تُحْسِنُوا بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وقوله : إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا ، فِيمَا : هِىَ إِنْ الشَّرْطِيَّةُ زِيدَتْ عَلَيْهِمَا مَاتَا كِيدَا لَهَا ، فَيَكُونُ قَالَ : إِنْ يَبْلُغَنَّ ، وَأَحَدُهُمَا فَاعِلٌ يَبْلُغَنَّ ، وَأَفٍ : صَوْتٌ يَدُلُّ عَلَى التَّضَجُّرِ ، وَعِنْدَكَ : قَالَ الزُّخَرِّىُّ : مَعْنَاهُ : أَنْ يَكْبُرَا وَيُعْجِزَا وَيَصِيرَا كَلَّا عَلَى وَلَدِهِمَا لَا كَافِلَ لَهُمَا غَيْرُهُ ، فُهُمَا فِي بَيْتِهِ وَكَتَفِهِ ، وَذَلِكَ أَشَقُّ عَلَيْهِ وَأَشَدُّ احْتِمَالًا وَصَبْرًا ، وَرَبَّمَا تَوَلَّى مِنْهُمَا مَا كَانَ يَتَوَلَّى مِنْهُ فِي حَالِ الطُّفُولَةِ ، فَهُوَ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَسْتَعْمَلَ مَعَهُمَا وَطَاءَةَ الْخُلُقِ وَإِينَ الْجَانِبِ

والاحتمال ، حتى لا يقول لهما - إذا أضجره ما يُستَقْدَر منهما أو يَسْتَقِل منهُما - : أَفٍ ، فضلا عما يزيد على أَفٍ ... قال : ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما كما ترى ، حيث افتتح الآية بأن شَفَعَ الإحسان إليهما بتوحيده ، ونظمهما - التوحيد والإحسان إلى الوالدين - في سلك القضاء - الأمر - بهما معا ، ثم صَيَّقَ الأمر في مراعاتهما حتى لم يُرَخَّص في أدنى كلمة تنفكت من المتضرر ، مع موجبات الضرر ومقتضياته ، ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها في الاستطاعة ... وقوله : ولا تهرهما : أى لا تنههما عما يتعاطيان مما لا يعجبك ، وقل لهما قولاً كريماً : أى جيلاً ، كما يقتضيه حسن الأدب والنزول على الروعة . وقوله سبحانه : واخفض لهما جناح الذل ، قال الإمام الزمخشري : فيه وجهان : أحدهما أن يكون المعنى : واخفض لهما جناحك كما قال : واخفض جناحك للدؤمين ، فأضافه إلى الذل أو الذل^(١) كما أضيف حاتم إلى الجود ، على معنى واخفض لهما جناحك الدليل أو الذلول ، والثاني : أن تجعل لذلّه أو لذلّه لهما جناحاً خفيصاً كما جعل لبيد - الشاعر المخضرم - للشمال يداً وللقرّة زماماً^(٢) مُبالغة في التذل والتواضع لهما ، وقوله سبحانه : من الرحمة : أى من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما ليكبريهما واقتقارهما إلى مَنْ كان أفقر خالق الله إليهما بالأمس ،

(١) الذل الأول من ذل ذلافه وذليل بمعنى الخضوع ، والذل الثاني بكسر الذال ، وبضمها أيضاً - من ذل يذل فهو ذلول بمعنى اللين (٢) في قوله من معلقته :

وَعْدَاةٍ رِيحٍ قَدْ كَشَفَتْ وَرَقَةً إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا
القرة : البرد يقول لبيد : كم من غداة تهب فيها الشمال - وهي أبرد الرياح - وبرد قد ملكت الشمال زمامه ، قد كفت عادية البرد عن الناس بنحر الجزر لهم ، وتحرير المعنى : كم من برد كفت غرب عادته بإطعام الناس .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : رَضَا اللهُ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ ، وَسُخْطُهُ فِي سُخْطِهِمَا . وَرَوَى : يَفْعَلُ الْبَارُّ مَا يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ النَّارَ ، وَيَفْعَلُ الْعَاقُ مَا يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ : وَقَالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ : إِنْ أَبَوَى بِلِغَامِنِ الْكَبِيرِ أَنْ أَلِيَّ مِنْهُمَا مَا وَلِيَا مِنِّي فِي الصَّغَرِ ، فَهَلْ قَضَيْتُهُمَا حَقَّهُمَا ؟ قَالَ : لَا ، فَإِنِهَا كَانَا يَفْعَلَانِ ذَلِكَ وَهُمَا يُحِبَّانِ بَقَاءَكَ ، وَأَنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ وَأَنْتَ تَرِيدُ مَوْتَهُمَا : وَعَنْ خُدَيْفَةَ : أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَتْلِ أَبِيهِ وَهُوَ فِي صَفِّ الْمُشْرِكِينَ ، فَقَالَ : دَعُهُ بِلَيْهِ غَيْرُكَ . وَسُئِلَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ عَنْ بِرِّ الْوَالِدَيْنِ ، فَقَالَ : أَنْ لَا تَقُومَ إِلَى خِدْمَتَيْهِمَا عَنْ كَسَلٍ ، وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ : أَنْ لَا تَرْفَعَ صَوْتَكَ عَلَيْهِمَا ، وَلَا تَنْظُرَ شَرًّا إِلَيْهِمَا ، وَلَا يَرِيَا مِنْكَ مُخَالَفَةً فِي ظَاهِرٍ وَلَا بَاطِنٍ ، وَأَنْ تَسْتَرْحِمَ عَلَيْهِمَا مَا عَاشَا ، وَتَدْعُو لَهَا إِذَا مَاتَا ، وَتَقُومَ بِخِدْمَةِ أَوْدَانِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا ، فَعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنْ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وَدِّ أَبِيهِ . . . أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : وَآتَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ . فَهَذَا تَوْصِيَةٌ بِغَيْرِ الْوَالِدَيْنِ مِنَ الْآقَارِبِ بَعْدَ التَّوَصِيَةِ بِهِمَا ، يَقُولُ سَبْحَانَهُ : آتَوْهُمْ حَقَّهُمْ ، وَحَقَّهُمْ صَلَّتُهُمْ بِالْمُودَةِ وَالزِّيَارَةِ وَحَسَنِ الْمَعَامَرَةِ وَالْمُؤَالَفَةِ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْمُعَاضَدَةِ إِنْ كَانُوا مِيَّاسِيرَ ، وَتَعَهُدُهُمْ بِالْمَالِ إِنْ كَانُوا عَاجِزِينَ عَنِ الْكَسْبِ .

« انظر التفصيلات في كتب الفقه ، وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إني أريد الغزو ، فقال عليه الصلاة والسلام : أَحْيِ أَبَوَاكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَمِنْهُمَا فَجَاهِدْ . وَسُئِلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ بِرِّ الْوَالِدَيْنِ ، فَقَالَ : أَنْ تُبَدِّلَ لَهَا مَا مَلَكَتْ ، وَتَطِيعَهُمَا فِيمَا أَمَرَكَ ، مَا لَمْ يَكُنْ مَوْصِيَةً ، وَآيَةُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ

لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعَمُهُمَا، وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ...

ومما يُؤثرُ من أخبار البررة : ما يقول المأمون بن الرشيد : لم أرَ أحداً أبرَّ من الفضل بن يحيى - البرمكى - بأبيه ، بَلَغَ من برِّه به أن يحيى كان لا يتوضأ إلا بماء مُسَخَّنٍ وهما في السجن ، فنههما السجان من إدخال الحطب في ليلة باردة ، فقام الفضل - حين أخذ يحيى مضجعه - إلى مُقْمٍ ^(١) كان يُسَخَّنُ فيه الماء ، فلاه ثم أدناه من المصباح ، فلم يزل قائماً وهو في يده حتى أصبح ... وقيل لعل بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم : إنك من أبرَّ الناس بأهلك ولنا نراك تأكلُ مع أمك في صحفة ، قال : إني أخاف أن تسبقها يدي إلى شيء سبقت عنها إليه فأكون قد عققته . وقيل لعمر بن ذر ^(٢) - وقد مات ابنه - : كيف كان برُّ أبيك بك ؟ قال : ما مَشَيْتُهُ قط نهاراً إلا مَشَى خَلْفِي ، ولا ليلاً إلا مَشَى أُمَامِي ، ولا رَقِي سَطْحاً وأنا تحته .

ومما يروى في باب العقوق وأحوال العققة : « والعقوق ضد البر »

(١) إناؤه من نحاس يسخن فيه الماء (٢) هو عمر بن عبد الله بن ذر بن زرارة بن مسعود الحمداني كان واعظاً بليغاً وعابداً صالحاً وكان ابنه - واسمه ذر - مباركا طيعا له . دخل يوما على ابنه وهو يجود بنفسه فقال : يا بني ، إنه ما علينا من موتك غضاضة - ذل وانكسار وقفور - ولا بنا إلى أحد سوى الله حاجة . فلما مات وصلى عليه وواراه وقف على قبره : وقال : يا ذر ، قد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، لانا لا ندرى ما قلت وما قيل لك . اللهم إني وهبت له ما قصر فيه مما افترضت عليه من حق ، فهب له ما قصر فيه من حق واجعل ثوابي عليه - يريد ثواب صبره - له ، وزدني من فضلك ، إني إليك من الراغبين قال ابن خلكان : وكان عمر المذكور يعد من المرجئة ، وتوفي سنة ١٥٥ هـ

وأصله من العَقِّ وهو الشق والقطع ، يقال عَقَّ الولدُ والدَه يَعُقُّه عَقًّا وعقوقا ومَعَقَّةً : إذا شَقَّ عصا طاعته ، وعَقَّ والدَيه : قطعهما ولم يصل رحمهُ منهما وقد يُعَمُّ بلفظ العقوق جميعُ الرِّجَم ، والولد عاق ، والجمع عَقَقَةٌ ، مثل كَفَرَةٍ « فمن قولهم في العقوق : العقوقُ نُكْلٌ من لا يَشْكُلُ ... » الشكل الموت والهلاك ، وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ في فقدان الرجل والمرأة ولدهما ، يعنون أن مَنْ ابتلى بولدٍ عاقٍ فكأنه نُكِلَهُ ، وقال بعضهم لابن له عاقٍ : أنت كالإصْبَعِ الزائدة ، إن تُرِكَتْ شانت وإن قُطِعتْ آذت ... وقيل لأعرابيٍّ كيف ابْشُك؟ - وكان عاقًا - فقال : عَذَابُ رَعِفَ بِهِ الدَّهْرُ ، فَأَلَيْتَنِي قَدْ أَوْدَعْتُهُ الْقَبْرَ ، فإنه بَلَاءٌ لا يقاومه الصبر ، وفائدة لا يجب فيها الشكر « قوله رَعِفَ بِهِ الدهر : يريد تقدم به الدهر وعَجِلَ ،

وأورد أبو العباس المبرد في الكامل هذه الأبيات لامرأة يقال لها أُمُّ ثَوَابِ الهَزَانِيَّةِ ، في ابنها - وكان لها عاقًا - وقد اختارها أبو تمام في حماسه :

رَيْبَتُهُ وَهُوَ مِثْلُ الْفَرْخِ أَعْظَمُهُ أُمُّ الطَّعَامِ تَرَى فِي رِيشِهِ زَغَبًا
حَتَّى إِذَا آضَ كَالْفُحَّالِ شَذَبَهُ أَبَارُهُ وَنَفَى عَنْ مَتْنِهِ الْكَرْبَا
أَنْشَا يُحْرِقُ أَثْوَابِي وَيَضْرِبُنِي أَبْعَدَ سِتِّينَ عِنْدِي يَبْتَغِي الْإِدْبَا
إِنِّي لَا أَبْصُرُ فِي تَرْجِيلِ لِمَتِهِ وَخَطَّ لِحْيَتِهِ فِي وَجْهِهِ عَجَبَا
قَالَتْ لَهُ عِرْسُهُ يَوْمًا لِتُسْمِعَنِي رِفْقًا يَا ابْنَةَ لَنَا فِي أُمْنَا أَرْبَا
لَوْ رَأَيْتَنِي فِي نَارٍ مُسْعِرَةٍ مِنَ الْجَحِيمِ لَزَادَتْ فَوْقَهَا حَطْبَا

« هذه أبيات من شعر الفطرة ، تصف في دِقَّةٍ حالَ الابنِ العاقِ يكون ضَلَمَهُ وَهَوَاهُ مع زَوْجِه على أمه ، وكذلك تصف ذلك العداء القديم بين الكَنَّةِ

وَحَمَاتِهَا^(١)، وقولها: أَعْظَمُهُ أُمُّ الطَّعَامِ، وصف للفرخ، ومعناه: أكبر
أَعْضَائِهِ أُمُّ الطَّعَامِ: أى معدته، وكذلك قولها: ترى فى ريشه زغبا: وصف
آخر للفرخ، والزَّغَب: أول ما يبدو من ريش الفرخ، تصف ضعف نشأة
ابنها، وآض: صَارَ، والفُحَّال: خال النخل، أى الذَّكْرُ منه، وأَبَارُهُ: الذى
يصاحبه يقال: أَبَرَّتْ النخل: إذا لَقَّحَتْهُ، وشَدَّ بِهِ: قطع ما عليه من الكرانيف
وهى أصول السَّعَف الغلاظ التى إذا يَدَبَسَتْ صارت أمثال الأكثاف،
ومتته: فتن كل شيء ما ظهر منه، والكرب: ما يبق من أصول السَّعَف فى النخل
تريد: حتى إذا بلغ أشده واستوى طوله، وأنشأ: أصله أنشأ، تريد: أبدأ
وأقبل، وقولها: أبعدين عندي يتغنى الأدبا، تريد: أنضربه إياها يريد تأديها
بعد أن بلغت الستين حق منه وعبت، إذ من العناء رياضة الهرم، وقولها:
إني لأبصر... البيت، فاللمة: الشعر الذى يلم بالمنكب، والترجيل: تسريح الشعر
تصفه بالحسن والجمال، وعرسه: زوجه، وأما... أضافها إلى نفسها خديعة،
وأربا: حاجة، تريد: لا ينبغي لك أن تهينا... .

وقيل لرجل أبطأ فى الزوج: لَمْ أَبْطَأْتُ؟ فقال: أريد أن أسبق أولادى
فى اليُسْم قبل أن يسبقونى فى العقوق...

وأورد المبرد أيضا عن رجل يسمى أبا المِخْش حديثا طريفا قال:
قال أبو المِخْش: كانت لى ابنة تجلس معى على المائدة فتبرز كفا كَأَنها
طَلْعَةٌ، فى ذراع كَأَنها جُمَارَةٌ، فلا تَقْعُ عَيْنُهَا عَلَى أَكْلَةٍ نَفِيسَةٍ إِلَّا خَصَّتْنِي بِهَا

(١) الكنة: امرأة الابن - وامرأة الاخ أيضا - والحماة: أم زوجها؛ قال الشاعر:

إن الحماة أولعت بالكِنَّة وأنت الكِنَّةُ إلا ضِنَّة

فَزَوَّجْتُهَا .. وصار يجلس معي على المائدة ابن لي ، فَيُسَبِّرُ كَمَا كَانَتْهَا
كَرْنَاقَةً ، فِي ذِرَاعٍ كَانَتْهَا كَرْبَةً ، فَوَاللَّهِ إِنْ تَسْبِقُ عَيْنِي إِلَى لُقْمَةٍ طَيِّبَةٍ إِلَّا
سَبَقَتْ يَدُهُ إِلَيْهَا ... « الطَّلْعَةُ فِي كَلَامِ أَبِي الْمِنْخَشِ هَذَا جَمْعُهَا طَلْعٌ ، وَهُوَ نُورُ
النَّخْلَةِ مَا دَامَ فِي الْكَافُورِ ، وَهُوَ عَاوُهُ الَّذِي يَنْشَقُّ عَنْهُ ، وَالْجَمَارَةُ : شِجْمَةُ النَّخْلَةِ
الَّتِي إِذَا قُطِعَتْ رِقَّةُ رَأْسِهَا ظَهَرَتْ كَأَنَّهَا قِطْعَةُ سَنَامٍ ، وَالْكَرْنَاقَةُ : طَرْفُ
الْكَرْبَةِ الْعَرِيضِ الَّذِي يَتَّصِلُ بِالنَّخْلَةِ كَأَنَّهُ كَتْفٌ ، وَقَوْلُهُ : إِنْ تَسْبِقُ عَيْنِي
فَإِنْ نَافِيَةٌ بِمَعْنَى مَا ،

وَأُورِدَ أَبُو تَمَامٍ فِي بَابِ الْمَجَاءِ مِنْ حِمَايَتِهِ لِأَحَدِ الشُّعْرَاءِ أَيْتَاتُهَا قِصَّةٌ
فِيهَا اعْتِبَارٌ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْتَبِرَ مِنْ عَقَقَةِ الْإِبْنَاءِ ، وَإِلَيْكَ هَذِهِ الْقِصَّةُ وَالْآيَاتُ :
كَانَ فِي زَمَنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ رَجُلٌ يُسَمَّى مُنَازِلَ بْنَ فُرْعَانَ ، وَكَانَ
لِمُنَازِلٍ هَذَا ابْنٌ يُقَالُ لَهُ خَلِيجٌ - وَهُوَ مِنْ رَهْطِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ - فَمَقَّ
خَلِيجٌ أَبَاهُ مُنَازِلًا ، فَقَدَّمَهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَرَبِيٍّ ، وَالْيَمَامَةِ ، مُسْتَعْدِيًا
عَلَيْهِ - وَقَالَ :

تَظَلَّنِي حَقِّي خَلِيجٌ وَعَقَّتِي عَلَى حِينٍ كَانَتْ كَالْحَنِيِّ عِظَامِي ^(١)
لَقَمَرِي لَقَدْ رَيْنْتُهُ فَرِحًا بِهِ فَلَا يَفْرَحُنْ بَعْدِي أَمْرٌ وَبُغْلَامٍ
وَكَيْفَ أَرْجِي النِّفْعَ مِنْهُ وَأُمُّهُ حَرَامِيَّةٌ ؟ مَا غَرَّنِي بِحَرَامٍ ^(٢)
وَرَجَّيْتُ مِنْهُ الْخَيْرَ حِينَ اسْتَزَدْتُهُ وَمَا بَعْضُ مَا يَزْدَادُ غَيْرَ غَرَامٍ ^(٣)

(١) كَانَتْ كَالْحَنِيِّ عِظَامِي : أَيُّ كَانَتْ عِظَامِي كَالْحَنِيِّ ، وَهُوَ جَمْعُ حَنِيَّةٍ ، وَهِيَ الْقَوْسُ ،
لِأَنَّهَا حَنِيَّةٌ ، أَيُّ مَعْطُوفَةٌ

(٢) حَرَامِيَّةٌ : نِسْبَةٌ إِلَى حَرَامٍ وَهِيَ قَبِيلَةٌ

(٣) الْغَرَامُ هُنَا : الْعَذَابُ وَالشَّرُّ الدَّائِمُ وَالْبَلَاءُ الَّذِي لَا يَسْتَطَاعُ أَنْ يَتَفَصَّى مِنْهُ قَالَ
تَعَالَى : إِنْ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا : أَيُّ هَلَاكَ دَائِمًا مَلْحًا

فَارَادَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَرَبِيِّ ضَرْبَهُ ، فَقَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، لَا تَعْبَلْ عَلَى
أَنْتَ عَرَفَ هَذَا ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : هَذَا مُنَازِلُ ابْنِ فُرْعَانَ ، الَّذِي عَقَّ أَبَاهُ ، وَفِيهِ
يَقُولُ أَبُوهُ :

جَزَتْ رَحِمٌ بَيْنِي وَبَيْنَ مُنَازِلٍ	جَزَاءً كَمَا يَسْتَنْزِلُ الدِّينَ طَالِبُهُ ^(١)
لَرَبِّتْنَاهُ حَتَّى إِذَا آضَ شَيْطَمًا	يَكَادُ يُسَاوِي غَارِبَ الْفَحْلِ غَارِبُهُ ^(٢)
فَلَمَّا رَأَى أَبْصَرَ الشَّخْصَ أَشْخَصًا	قَرِيبًا وَذَا الشَّخْصَ الْبَعِيدَ أَقَارِبُهُ ^(٣)
تَغَمَّدَ حَقِّي ظَالِمًا وَلَوْ يَدِي	لَوْ يَدُهُ اللَّهُ الَّذِي هُوَ غَالِبُهُ ^(٤)
وَكَانَ لَهُ عِنْدِي إِذَا جَاعَ أَوْ بَكَى	مِنْ الزَّادِ أَحْلَى زَادِنَا وَأَطَابِيهِ
وَرَبِّتْنَاهُ حَتَّى إِذَا مَا تَرَكْتُهُ	أَخَا الْقَوْمِ وَأَسْتَعْنَى عَنِ الْمَسْحِ شَارِبُهُ ^(٥)
وَجَمَعْتُهَا دُفْمًا جِلَادًا كَأَنَّهَا	أَشَاءُ نَحْيِي لَمْ تُقَطَّعْ جَوَانِبُهُ ^(٦)

(١) يدغو على ابنه منازل ، وجعل فعل الجزاء للرحم والجازى هو الله سبحانه
يقول : جرى الله منازل على الرحم أى القرابة التى بينى وبينه - فقد قطعها - جزاء
يستوفى له وعليه ، كما يستنزل صاحب الدين حقه من المدين

(٢) الشيطم : الطويل ، ولربيته : جواب قسم انطوى عليه الكلام ، وربيته وربيته
وتربته وربته تربيا : بمعنى واحد ، وآض : صار ، وأصل الغارب فى الإبل - وهو
ما يكون قد دامه السنام - ثم استعير حتى قيل لآعلى كل شيء : غوارب ، يقول : إنه رباه
حتى بلغ مبلغ الرجال

(٣) قريبا : حال ، والمعنى : أبصر الشخص مقاربا ، أى أبصره وأما قريب منه - أشخصا ،
وأقاربه : أظنه قريبا ، يقول : لما رأى شيئا كبيرا ضعفا نظره واختلفت مواقع

بصارته حتى يرى الشخص القريب منه شخصا ويرى الشخص البعيد منه قريبا
(٤) تغمد حتى : ستره وأخفاه ، وقوله : ولوى يدي : أى قتلها وأزالها عن
حالتها وهيئتها

(٥) أخا القوم : قال الإمام التبريزى : نصب أخا القوم على الحال من الهاء فى
تركته ، وجاز كونه حالا وإن كان معرفة فى اللفظ لأنه لا يعنى قوما بأعيانهم وإنما
يريد تركته قويا لاحقا بالرجال (٦) وجمعتها : الضمير إلى الخيل وإن لم

فَأَخْرَجَنِي مِنْهَا سَلِيْبًا كَأَنِّي حُسَامُ يَمَانٍ فَارَقْتُهُ مَضَارِبُهُ ^(١)
 إِنَّ أُرْعِشْتَ كَفَا أَيْكَ وَأَصْبَحْتَ يَدَاكَ يَدَيَّ لَيْتَ فَإِنَّكَ ضَارِبُهُ ^(٢)
 فقال الوالى : يا هذا ، عَقَقْتُ قَعَقَقْتُ ، فما لكَ مَثَلًا إِلَّا قَوْلُ خَالِدٍ
 لِأَبِي ذُؤَيْبٍ :

فَلَا تَجْزَعَنَّ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سِرَّتَهَا فَأُولُ رَاضِي سِيرَةٍ مَنْ يَسِيرُهَا
 قال الإمام التبريزى : وذلك أن أبا ذُؤَيْبٍ ^(٣) هذا كان غلاما ، وكان
 لِرَجُلٍ صَدِيقَةً ، فكان الرجل يبعث أبا ذُؤَيْبٍ إلى صديقته بالرسائل ، فلما
 ترعرع أبو ذُؤَيْبٍ كسرها على الصديق - يريد أفسدها وأمالها عنه إليه - ،
 ولما ترَجَّل أبو ذُؤَيْبٍ - يريد صار رجلا - مُنِعَ منها وَحُجِبَتْ عنه
 وحجب عنها ، فكان يبعث خالدا إليها بالرسائل ، وخالد يومئذ
 غلام ، فلما ترعرع خالد كسرها على أبي ذُؤَيْبٍ ، فقال أبو ذُؤَيْبٍ يعنف
 المرأة :

تُرِيدِينَ كَيْ تَجْمَعِيْنِي وَخَالِدًا وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَيُنْحَكُ فِي غَيْدٍ
 وجعل يؤنب خالدا ، فقال خالد :

يذكرها وهذا أسلوب معروف لهم ، ودعما : جمع أدم ، وهو الأسود ، وجلادا : صلابا ،
 والأشياء بالفتح والمد : صغار النخل وقيل النخل عامة واحدة أشاة (١) السليب : الذى سلب
 ماله ، استعاره من الشجر يسلب ورقه ويعزى منه ، والمضارب : جمع مضرب : حد السيف ،
 يقول : لما جمعت من الخيل الدم الجلاد ما جمعت وأعددتها لى وله ، عدا على بعد
 أن ريته وبلغ مبلغ الرجال وجردنى من الخيل وتركنى سليبا ، فأشبه حال السيف
 اليمان القاطع تفلل حده (٢) أرعشت كفا أيك : يريد : أبعد أن كبر أبوك وبلغ
 من الكبر عتيا وأصبحت أنت شابا قويا ، تجترئ عليه وتمينه وتضربه

(٣) أبو ذُؤَيْبٍ هذا هو الشاعر أبو ذُؤَيْبٍ الهذلى ، وخالد هو ابن أخته ، والمرأة
 هى امرأة رجل يقال له عبد عمرو بن عامر من بنى عامر بن صعصعة ، انظر أمثال
 الميبدانى فى شرحه هذا المثل ، ولا تجزعن من سيرة أنت سرتها ، ،

فلا تَجَزَّعَنَّ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سِرَّتَهَا البيت
 ولأُمَيَّةَ بنِ أَبِي الصَّلْتِ الشاعرِ الجاهلي ^(١) أبياتٌ حسانٌ يشكو فيها هو
 الآخرُ ابنه الذي عَقَّه وأساءَ إليه : وقد اختارها أبو تمام في حماسه قال :
 غَذَوْتُكَ مَوْلودًا وَعُلائِكَ يَابِغًا تُعَلُّ بِمَا أُذْنِي إِلَيْكَ وَتُنْهَلُ ^(٢)
 إِذَا لَيْلَةٌ نَابَتْكَ بِالشَّكْوِ لَمْ أَبْتَ إِشْكُوكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَلُّ ^(٣)
 كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي طُرِفْتَ بِهِ دُونِي وَعَيْنِي تَهْمَلُ ^(٤)
 فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أَوْمَلُ
 جَعَلْتُ جِزَائِي مِنْكَ جَبْهًا وَغُلْظَةً كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُتَمِيزُ الْمُتَفَضَّلُ ^(٥)

(١) اسمه عبد الله بن ربيعة بن عوف من بني بكر بن هوازن . وكان ممن حزم
 الخزفي الجاهلية ورفض عبادة الأوثان والتمس الدين وطمع في النبوة فلما بعث سيدنا
 رسول الله صلى الله عليه وسلم حسده وقال : إنما كنت أرجو أن أكونه
 (٢) وعلائك : من عال عياله يعولهم : كفاهم معاشهم ، ويروى : ومثلك ، من مان
 أهله يموئهم مونا : أنفق عليهم ، ويافعا : شابا ، من أيفع الغلام مثل أبقل الموضع فهو
 باقل وأورق النبت فهو وارق وأورس فهو وارس وأقرب فهو قارب : إذا
 قربت إليه من الماء ليلا ، وكلهن فزادر ، وتعل من غله يعله : سقاه ثانية ، وتهل من
 أنمله : سقاه أول سقية ، يريد ، إطعامه وسقيه مرة بعد أخرى
 (٣) الشكو : المرض نفسه قاله الليث وأنشد :

أَخِي إِنْ تَشَكَّى مِنْ أَذَى كُنْتُ رَطِبُهُ وَإِنْ كَانَ ذَاكَ الشَّكْوُ بِي فَأَخِي طِبِّي
 وأتملل : يريد يتقلب على فراشه من غمه عليه : قال اللغويون : إذا نبا بالرجل
 مضجعه من هم أو وصب قيل قد تملل ، وأصله أتملل ، من الملة وهي الرماد الحار يدفن
 فيه الخبز لينضج كأن المتقلب على فراشه من الهم يتقلب على تلك الملة
 (٤) المطروق من طرقه الهم يطرقه - بالضم - طرقا : أتاه ونزل به ، مجاز من طرق
 القوم : جاءهم ليلا ، وتمل : تسيل وتفيض وقد هملت عينه تهمل - بالضم والكسر -
 هملا وهملانا : سالت وفاضت (٥) جبها مصدر جبها بالمكروه : استقبله به ،
 وذلك مجاز من جبها : صك جبته . ويروى : جعلت جزائي غلظة وفضاظة

فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرَ حَقَّ أَبِيَّ قُلْتُ كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ^(١)
وَسَمَّيْتَنِي بِاسْمِ الْمُفْنَدِ رَأَيْهُ وَفِي رَأْيِكَ التَّفْنِيدُ لَوْ كُنْتَ تَعْقِلُ^(٢)
تَرَاهُ مُعِدًّا لِلْخِلَافِ كَأَنَّهُ بَرَدٍ عَلَى أَهْلِ الصَّرَابِ مُوَكَّلٌ^(٣)

* * *

ومن المستطرف من أقوالهم في الأولاد المتخلفين : ما يُروى أن رجلاً
بعث ابنه لِيَشْتَرِيَ حَبْلًا ، فقال له : أَجْعَلُهُ عَشْرِينَ ذِرَاعًا ، فقال الولدُ :
فِي عَرَضٍ كَمْ ؟ قال : فِي عَرَضٍ مُصِيبَتِي فِيكَ .. وكان لأبي العباس المبرِّدُ
صاحبُ الكامل ابنُ مُتَخَلِّفٍ ، فَقِيلَ لَهُ يَوْمًا : غَطَّ سَوْءَ تَعَالَى ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى
رَأْسِ ابْنِهِ .. وَقِيلَ لَصَبِي : لِمَ لَا تَتَعَلَّمُ الْآدَبَ ؟ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَكْذِبَ
وَالِدِي ، لِأَنَّهُ قَالَ لِي : إِنَّكَ لَا تَقْلُحُ أَبَدًا ...

* * *

هذا وكما أن لوالدك عليك حقًا كذلك لولدك عليك حقٌ : وما ورد
في ذلك ما جاء في الحديث : مَنْ حَقَّ الْوَلَدُ عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يُحَسِّنَ آدَبَهُ ، وَأَنْ
يُعِفَّهُ إِذَا بَلَغَ . « أَنْ يُحَسِّنَ آدَبَهُ : أَنْ يُعْنِيَ تَرْبِيَتَهُ وَتَهْذِيبَهُ وَتَعْلِيمَهُ ،
وَأَنْ يُعِفَّهُ : أَيْ يَعْمَلْ عَلَى أَنْ يَكُونَ عَفَاً عَنِ الْحَرَامِ فِي زَوْجِهِ » ... وقال حكيم
مَنْ آدَبَ وَلَدَهُ صَغِيرًا ، سُرَّ بِهِ كَبِيرًا ، وَقَالُوا : مَنْ آدَبَ وَلَدَهُ ، أَرْغَمَ حَاسِدَهُ .
وَمَنْ آدَبَ الْإِسْلَامَ : إِذَا بَلَغَ أَوْلَادُكُمْ سَبْعَ سِنِينَ فَفَرُّوهُمْ بِالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ
وَإِذَا بَلَغُوا عَشْرًا فَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا ، وَإِذَا بَلَغُوا ثَلَاثَةَ عَشْرٍ فَقَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي
الْمُضَاجَعِ ؛ وَمِنْ كَلَامِهِمْ : لَا عِبَّ ابْنُكَ سَبْعًا وَعَلَّمَهُ سَبْعًا وَجَالَسَ بِهِ إِخْوَانُكَ

(١) كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ : أَيْ كَمَا يَرَاعَى الْجَارُ حَقَّ الْجَوَارِ مِنَ الْوَفَاءِ بِهِ

(٢) الْمُفْنَدِ رَأَيْهُ : اسْمُ مَفْعُولٍ مِنْ فَنَدَ رَأَيْهُ : خَطَأَهُ (٣) مُعِدًّا : اسْمُ فَاعِلٍ ،

أَعَدَّ لِلْأَمْرِ عَدَّتَهُ : هَيَّأَ لَهُ

سبعاً يَتَّبِعَنَّ لَكَ أَخْلَافٌ هُوَ بَعْدَكَ أَمْ خَلْفٌ « الْخَلْفُ - بفتح اللام : الولد الصالح ، والخلف - بسكونها : الطالح ، تقول : أعطاك الله خَلْفاً مما ذهب لك ولا تقل خَلْفاً ، وتقول أنت خَلْفٌ سَوْءٌ من أبيك ، هذا هو الاعرف عند أهل اللغة ^(١) » وقال رجل لأبيه . يا أبت ، إن عَظِيمَ حَقِّكَ عَلَى لا يُذْهِبُ صَغِيرَ حَقِّي عَلَيْكَ ، وإن الذي تَمُتُّ بِهِ إِلَى أُمْتٍ بِمِثْلِهِ إِلَيْكَ ، ولستُ أَرْعَمُ أَنَا عَلَى سِوَاهُ ، ولكن لا يَحِلُّ الاعتداء ...

وقالوا : إِنَّ الْوَلَدَ الْبَارَّ أَبَرُّ مِنَ الْوَالِدِ ، لأنَّ رِءَ الْوَالِدَيْنِ طَبِيعَةٌ ، وَرِءَ الْوَلَدِ وَاجِبٌ ، والواجب أبداً ثَقِيلٌ ، ولعل المتنبي ينظر إلى هذا الممْنَى إِذْ يَقُولُ :

إِنَّمَا أَنْتَ وَالِدٌ وَالْأَبُ الْقَا طَعُ أَخَى مِنْ وَاصِلِ الْوِلَادِ

ومما يستطرف في هذا الباب ما يروى من احتجاج بعض العقَّقة لعقوقهم : فقد قيل لبعض الفلاسفة : لِمَ تَعُقُّ وَالِدَيْكَ ؟ قال : لأنهما أخرجاني إلى السَّكُونِ والفساد ... وضربَ رَجُلٌ أَبَاهُ ، فقيل له : أَمَا عَرَفْتَ حَقَّهُ ؟ قال : لا ، لَأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ حَقِّي ، فبلى : فما حقُّ الولد على الوالد ؟ قال : أَنْ يَتَخَيَّرَ أُمَّهُ ، وَيُحَسِّنَ اسْمَهُ ، وَيُخْتِنَهُ ، وَيُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ ، ثم كشف عن عَوْرَتِهِ فإذا هو أَقْلَفٌ - لم يُخْتَنَ - وقال : اسْمِي بُرْغُوث ... ولا أعلم حَرْفاً من القرآن ، وقد اسْتَوْلَدَنِي مِنْ زَنْجِيَّةٍ ... فقيل للوالد : احتمله ، فإنك تستأهل ...

(١) قال الله عز وجل : خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وقال لبيد :

ذهب الذين يُعَاشُ فِي أَكْنَاهِمُ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرِبِ

وعبر رجل ابنه بأمه، فقال الابن: هي والله خير لي منك، لأنها أحسنت الاختيار فولدتني من حُرٍّ، وأنت أسأت الاختيار فولدتني من أمّة ... وقال رجل لابنه: ما أطيب الشكل يا بني! فقال الابن: اليتم أطيب منه يا أبت! وقيل لبعضهم: أي ولدك أحب إليك؟ قال: صغيرهم حتى يكبر، ومربّضهم حتى يبرأ، وغائبهم حتى يقدر ...

وأقول: وإنما قال صغيرهم حتى يكبر، لأن كبير الأولاد في العادة قلما يظفر من حب أبيه بمثل ما يظفر به الصغير، وقد قالوا في ذلك ما بين عن السبب، وهو ما روى أن رجلا من العرب رأى بنه يثبون على الخيل وقد تنادوا بالغارة، فذهب يروم ذلك مرة وثانية فلم يقدر، فقال: من سرّه بنوه ساءت نفسة ... وفي ضدّ هذا المعنى يقول أكنم بن صيفي حكيم العرب:

إِنَّ بَنِي صَيْفِيٍّ صَيْفِيُّونَ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رِبْعِيُّونَ
 يقال أضاف الرجل يصيف إصافة: إذا لم يولد له حتى يُسنَّ ويكبر
 وأولاده صيفيون، والواحد صيفي، والرّبعيون: الذين ولدوا في حدائثه وأول شبابه، ولما حضرت سليمان بن عبد الملك الوفاة تمثّل بهذا البيت لأنّه لم يكن في أبنائه من يُقلّده العهد بعده، ومعنى ذلك عندهم: أن الأولاد الكبار أفضل من الصغار لدى الوالد، ولا سيما إذا كبر. وهذا على نقبض قول القائل: من سرّه بُنوه ساءت نفسة، وإن كان لكل وجه هو مولّيها،



وناول عمر بن الخطاب رجلاً شيئاً فقال له: خدّمك بنوك، فقال عمر: يل أغنانا الله عنهم.

وكان يقال: ابْنُكَ رَيْحَانُكَ سَبْعًا، وخادُكَ سَبْعًا ثم عدوٌّ أو صديقٌ...
وفي الآخر: رِيحُ الولدِ من رِيحِ الجنة...

وكان رسول الله يُقْبَلُ الحسنَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وهو حفيد المصطفى -
يوماً، فقال الأقرعُ بْنُ حَابِسٍ: إنَّ لى عشرةً من الأولادِ مائةً واحداً منهم،
فقال رسول الله: فما أصنع إن كان الله تَزَعِ الرحمةَ من قلبك!

ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا مات الرجل انقطع
عمله، إلا من ثلاث: صدقةٌ جارية، أو علمٌ يُنتفع به، أو ولدٌ صالح يدعو له.
وقالوا: خيرٌ ما أُعْطِيَ الرجلُ بعدَ الصحةِ والأمنِ والعقلِ ولدٌ موافقٌ.
من زوجةٍ موافقةٍ * ومُتعةِ العَيشِ بين الأهلِ والولدِ *

وكانت العربُ تُسمِّي مَنْ لا وَلَدَ لَهُ صُنْبُورًا، والصُنْبُورُ فى اللغةِ: الأَبْرُ
لأَعْقَبَ لَهُ ولا أَخَ، فإذا مات انقطع ذِكْرُهُ وكان كَفَّارُ قُرَيْشٍ يُطْلَقُونَ
على رسول الله: صُنْبُورًا، فأنزل الله: إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ « شَانِئَكَ:
مبغضك، والأبتر الذى لا عقب له »...

وقال حكيمٌ فى مَيِّتٍ: إن كان له ولدٌ فهو حَيٌّ وإن لم يكن له وَلَدٌ
فهو مَيِّتٌ

ومن أمثال العرب: أَبْنُكَ ابْنُ بُوْحِكَ « أى ابنُ نَفْسِكَ لامن تَبَنَيْتَهُ،
ومثله: وَلَدُكَ مَنْ دَمَى عَقَبِيكَ » يعنون: الذى نَفَسَتْ بِهِ فَادَمَى النَفَاسُ
عَقَبِيكَ، أى: ابْنُكَ من وَلَدَتِهِ لامن تَبَنَيْتَهُ، وقيل لحكيم: ما السَّعادةُ؟ قال:
أن يكون للرجل ابنٌ واحدٌ، فقليل له: الواحدُ يُخْشَى عليه الموتُ! قال:
لَمْ تَسْأَلُونِى عَنِ الشَّقَاوَةِ...

وهناك فريق من الناس يذهبون إلى ذمِّ الولد وقلة جدّواه : وما يروى في هذا الباب أنه قيلَ لبعض الزَّهادِ : هَلَّا تزوّجت ؟ فربما يكون لك خَلْفٌ ؟ فقال : كفى بالزهيد فيه قوله تعالى : إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ؛ وقوله سبحانه وتعالى : إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ... وقالوا : قِلَّةُ العيالِ أحدُ اليسارين ، وقال المتنبي :

وما الدهرُ أَهْلٌ أن يُؤمَلَ عنده حَيَاةٌ وأن يُشتاقَ فيه إلى النّسلِ
هَلِ الولدُ المَحْبُوبُ إِلَّا تَبَعْلَةٌ

وهلْ خَلْوَةٌ الحَسَنَاءِ إِلَّا أذى البَعْلِ (١)

وقد ذُكِرَتْ خَلْوَاءُ البَنِينَ على الصِّبَا فلا تَحَسَّبَنِي قُلْتُ مَا قُلْتَ عَنْ جَهْلٍ
وقال المَعْرِي - وهو إمام السّاخطين ، « أو المتشائمين كما يقولون اليوم » - :

أَرَى وَلَدَ الْفَقِي عَيْبًا عَلَيْهِ لَقَدْ سَعِدَ الَّذِي أَخْضَى عَقِيمًا
فَإِمَّا أَنْ يُرَبِّيَهُ عَدُوًّا وَإِمَّا أَنْ يُخَلِّفَهُ يَتِيمًا
وَإِمَّا أَنْ يُصَادِفَهُ حِمَامٌ فَيَسْقِي حُزْنَهُ أَبَدًا مُقِيمًا

وَبُشِّرَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ بِابْنٍ فَقَالَ : لَا مَرْحَبًا بِمَنْ إِنْ كُنْتُ غَنِيًّا أَذْهَلَنِي ،
وَإِنْ كُنْتُ فَقِيرًا أَتَعْبَى ، لَا أَرْضَى كَدِّي لَهُ كَدًّا ، وَلَا سَمِيَّ لَهُ فِي الْحَيَاةِ
سَعْيًا ، أَهْتَمُّ بِفَقْرِهِ بَعْدَ وَفَاتِي ، حِينَ لَا يَنَالُنِي بِهِ سُرُورٌ ، وَلَا يُهِمُّهُ لِي حُزْنٌ ،
وَأَصْحَرُ الْحَسَنُ يَوْمًا - أَيْ ذَهَبَ إِلَى الصَّحْرَاءِ - فَرَأَى صَيَّادًا فَقَالَ : مَا أَكْثَرُ

(١) تبعة : يقال : فلان يعمل نفسه بتبعة : أي لهاها به كما يعمل الصبي بشيء من الطعام يتجزأ به عن اللبن . يقول : إن السرور بالولد المحبوب لا يدوم وإنما هو تعليل إلى وقت ، ثم قال : وخلوتك بامرأتك أذى لك في الحقيقة لأنها تجلب لك ولدًا تعتم من أجله وتتأذى بتربيته وربما كانت العاقبة إلى الشكّل

ما يَقَعُ فِي شَبَكَتِكَ؟ قَالَ: كُلُّ طَيْرٍ زَاقٍ «أَيُّ يَزُقُّ أَفْرَاخَهُ أَيْ يُطْعِمُهَا
بِفِيهِ»، فَقَالَ الْحَسَنُ: هَلَكَ الْمُعِيلُونَ «أَيُّ الَّذِينَ لَهُمْ عِيَالٌ كَثُرَ»،
وَقَالَ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَحَدِ ابْنَيْ بِلْتِهِ: إِنَّكُمْ لَتُجَبَّنُونَ
وَأَنْتُمْ لَتُجْلُونَ وَأَنْتُمْ لَمِنْ رَيْنَحَانِ اللَّهِ، وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا: الْوَلَدُ مَجْبُتُهُ
مَجْهَلَةٌ مَبْخَلَةٌ.. «يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ الْوَلَدَ يَحْمِلُ أَبَاهُ عَلَى الْجَبَنِ، فَلَا
يُجَاهِدُ وَلَا يَشْجَعُ، لِأَنَّهُ يُحِبُّ الْبَقَاءَ لِأَجْلِهِ، وَعَلَى الْجَهْلِ، بِمُلَاعَبَتِهِ إِيَّاهُ
وَنُزُولِهِ إِلَى مُسْتَوَاهُ، وَتَرْكِ الْعَقْلِ وَمُقْتَضَاهُ، أَوْ بَاشْتِغَالِهِ بِهِ عَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ،
وَعَلَى الْبُخْلِ، لِأَنَّهُ يُبْقِي عَلَى الْمَالِ لِأَجْلِهِ وَيَبْخُلُ بِهِ وَيَشْخُ»..



وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي الْإِشْفَاقِ عَلَى الْأَوْلَادِ: فَوَلُ حِطَّانَ بْنِ الْمُعَلَّى - وَهُوَ
شَاعِرٌ إِسْلَامِي، وَأَيَّاتُهُ هَذِهِ فِي الْحَاسَةِ -:

أَنْزَلَنِي الدَّهْرُ عَلَى حُكْمِهِ مِنْ شَاخٍ عَالٍ إِلَى خَفِضٍ
وَعَالَنِي الدَّهْرُ بِوَفْرِ الْغِنَى فَلَيْسَ لِي مَالٌ سِوَى عِرْضِي
أَبْكَانِي الدَّهْرُ وَيَا رَبِّمَا أَتَحَكَّنِي الدَّهْرُ بِمَا يُرْضِي
لَوْلَا بُبَيَّاتُ كَرْغِبِ الْقَطَا رُدِدَنَ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضٍ
لَكَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَاسِعٌ فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ
وَأَمَّا أَوْلَادُنَا يَبْنِيَانَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ
لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ لَامْتَمَتَ عَيْنِي مِنَ الْقُمْضِ
«أَنْزَلَنِي الدَّهْرُ عَلَى حُكْمِهِ: أَنْزَلَهُ مِنَ الْعِزَّةِ إِلَى الذَّلَّةِ يَحْكُمُ فِيهِ بِمَا شَاءَ»
وَمِنْ شَاخٍ: مِنْ جَبَلٍ شَاهِقٍ طَوِيلٍ فِي السَّمَاءِ، وَإِلَى خَفِضٍ: إِلَى مَطَامِنٍ مِنَ
الْأَرْضِ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ. وَعَالَنِي الدَّهْرُ: أَخَذَهُ غِيْلَةً مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرَ، وَبَوَفَرِ

الغنى : يريد : فى كثرة ماله ، وقوله : فليس لى مال سوى عرضى يريد : لم يبق له الدهر شيئا إلا أنى عليه سوى عرضه فلم ينتقصه . والعرض : قال ابن الأثير : موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان فى نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره ، وقيل : هو جانبه الذى يصونه من نفسه وحسبه ويحامى عنه أن يُنتقص ويُتَلَبَّ ، وقال أبو العباس ثعلب : إذا ذكر عرض فلان فعناه أموره التى يرتفع أو يسقط من جهتها بحمد أو بدم ، فيجوز أن تكون أمورا يوصف هو بها دون أسلافه ويجوز أن تذكر أسلافه لتلحقه النقيصة بعيهم وقول الشاعر :

• وأذكرُ ميسورَ الغنى ومعنى عرضى • أى أفعالى الجميلة

وقوله : بما يرضى : أى أضحكنى أحيانا بما يرضينى . وقوله : كزغب القطا : واحدتها زغباء والذكر أزغب والصدر الزغب ، وهو أول ما يبدو من ريش الفرخ ، وكذا من شعر الصبي ، وقوله : رُذِذْن من بعض إلى بعض : تصوير لهيئة تداخل الأفراخ وانضمام بعضهن إلى بعض أول نشأتهم ، يصف بناته بأنهن ضعاف لا يستطعن القيام بشؤونهن . ومضطرب : أى اضطراب ، أى تحرك . وأكبادنا : تمثيل لمعنى الشفقة عليهن ، وقد بينها بقوله : لو هبت الريح ... البيت ... والغمض بضم الغين : النوم ،

ويقول إسحاق بن خلف ^(١) - من شعراء الدولة العباسية - فى بنت أخت له

(١) ترجم له صاحب الأغاني وإسحق هذا هو الذى يقول فى صفة السيف :

ألقى بجنايب خضره أَمْضَى من الأجل المتناح
وكأنما ذرَّ الهبا عليه أنفاس الرياح

=

تسمى أئيمة كان حديبا عليها كلفا بها ، وهى من أبيات الحماسة :

لولا أئيمَةُ لم أَجَزْعُ من العَدَمِ ولم أَفَاسِ الدُّجَى في حِنْدِسِ الظُّلَمِ
وزادنى رَغْبَةً في العَيْشِ مَعْرِفَى ذُلَّ اليَقِيمَةِ يَجْفُوها ذُورُ الرَّحِمِ
أَحَازِرُ الْفَقْرَ يَوْمًا أَنْ يُلِمَ بها فَيَهْتِكَ السَّتَرَ عن لَحْمٍ على وَضَمِ
تَهْوَى حَيَاتِي وَأَهْوَى مَوْتَهَا شَفَقًا

وَالْمَوْتُ أَكْرَمُ نَزَالٍ عَلَى الْحَرَمِ

أَخَشَى فَظَاظَةَ عَمٍّ أَوْ جَفَاءَ أَخٍ

وَكُنْتُ أُبْقِي عَلَيْهَا مِنْ أَذَى الْكَلِمِ

«العَدَمُ: الفقر، وقوله: فهتك الستر، فالهتك: جذبك الستر تقطعه من موضعه

أو تشق منه جزءا فيبدو ماوراءه ، وإسناده إلى الفقر مجاز ، وقوله عن لحم على وضَم ، فالوضم : ما وضع عليه اللحم من خشب ونحوه ، وكانت العرب في باديتها إذا نُحِرَ بغير لِّلْحَىِّ يَقتسمونه ، تقلع شجراً وتضع عليه اللحم مُقْطَعاً يأخذ منه كل شريك قِسمَهُ ولم يَعْرِضْ له أحد ، وكانت تضرب المثل في

== وهو الذى يقول فى مدح العريية من أبيات :

النحو يبسط من لسان الالكن والمرءُ تَكَرَّمُهُ إِذَا لم يَلْحَن

قال المبرد : وأحسبه أخذ قوله : والمرءُ تَكَرَّمُهُ إِذَا لم يَلْحَن من حديث حدثنا به عن الأصمعي قال : كان يقال : ثلاثة يحكم لهم بالنبل لا يدري من هم : رجل رأته راكبا في شارة حسنة ، أو سمعته يعرب ، أو شممت منه طيبا . وثلاثة يحكم عليهم بالاستصغار حتى يدري من هم : رجل شممت منه رائحة نبيذ في محفل ، أو سمعته في مصر عربي يتكلم بالفارسية - أو الفرنسية أو الانكليزية أو غيرهما من اللغات - ورجل رأته على ظهر طريق ينازع في القدر .. ما أطيب هذا الكلام وأسماء وألقه بأخلاق السادة ..

ضعف النساء وقلة امتناعهن على طَلَابِهِنَّ إِلَّا أَنْ يَدَّعَيْنَهُنَّ ، بذلك اللحم مادام مع الوضوء .
 وقوله : شفقًا ، أى خيفة ، وقد شفق يشفق - بالفتح - وأشفق عليه يشفق :
 خاف ، وقوله : والموت أكرم نزال على الحَرَمِ ؛ فالحرم ، جمع حُرمة ، وهى
 عيال الرجل ونساؤه ، يريد : أن الموت أكرمُ ضيف ينزل عليهن ، وفى هذا
 المعنى قولهم .. دَفَنُ البنات ، من المَسْكُومات ، وسيمر عليك كلامهم فى هذا المعنى
 فى باب النساء ، وقوله : وكنت أبقي عليها : من أبقيت عليه : إذا أرعيت عليه
 ورحمته ... وقال عمرانُ بنُ حِطَّانٍ - وقد كان رأسَ القَعْدِ من الصُّفْرىة
 « طائفة من الخوارج ، وكان خطيبهم وشاعرهم ، وهو من التابعين - :

أَقْدَزَادَ الْحَيَاةِ إِلَى حُبًّا بَنَاتِي أَنَّهُنَّ مِنَ الضَّعَافِ
 مَحَاقَّةَ أَنْ يَرَيْنَ الْبُؤْسَ بَعْدِي وَأَنْ يَشْرَبْنَ رَنَقًا بَعْدَ صَافٍ
 وَأَنْ يَعْرِينَ إِنْ كَسَى الْجَوَارِي فَتَلْبُو الْعَيْنُ عَنْ كَرَمِ عِجَافٍ
 وَلَوْلَا ذَاكَ قَدْ سَوَّمْتُ مُهْرِي وَفِي الرَّحْمَنِ لِلضَّعْفَاءِ كَافٍ
 أَبَا مَن لَنَا إِنْ غَبَتْ عَنَّا وَصَارَ الْحَيُّ بَعْدَكَ فِي اخْتِلَافٍ

« الرنق : الماء الكدر ، وكرم : قال ابن سيده وغيره : رَجُلٌ كَرَمٌ :
 أى كريم ، وكذلك الإِثْنَانُ والجمع والمؤنث تقول : امرأة كرم ونسوة كرم
 لأنه وصف بالمصدر ، وعجاف : جمع عَجْفَاءَ عَلَى غير قياس ، والجف : الهزال
 وسَوَّمْتُ مُهْرِي : فالخيل المسوَّمة : المرسلة وعليها ركبانها ، وفى التنزيل العزيز :
 وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ، من قولك سَوَّمْتُ فُلَانًا إِذَا خَلَيْتَهُ وَسَوَّمَهُ ، أى : وما يريد ، وقيل
 الخيل المسوَّمة : هى التى عليها السمة والسومة وهى العلامة »

وقال شاعر جاهلى يمتدح ابنه لِجَبْرِ به ، وهى من آيات الحماسة :
 رَأَيْتُ رِبَاطًا حِينَ تَمَّ شَبَابُهُ وَوَلَّى شِبَابِي لَيْسَ فِي بَرِّهِ عَثْبُ
 إِذَا كَانَ أَوْلَادُ الرِّجَالِ حَزَازَةً فَأَنْتَ الْحَلَالُ الْحُلُوُّ وَالْبَارِدُ الْعَذْبُ

لنا جانب منه دميثٌ وجانبٌ إذا رآتهُ الأعداءُ مُمتنعٌ صعبٌ
 وتأخذهُ عند المكارمِ هزةٌ كما هتزت تحت البارحِ الغصنُ الرطبُ
 «قوله ليس في يره عتبٌ : يريد ليس في بره لومٌ ولا سخط ، وقوله :
 إذا كان أولاد الرجال حرازةً ، فالحرازة : وجع في القلب من غيظٍ ونحوه
 والجمع حرازات ، وتروى : إذا كان أولاد الرجال مرارةً ، وهي الأنسبُ
 بقوله فأنت الحلال الحلو ، يكتنى به عن الرجل الذي لا رية فيه ، على المثل بالحلوى
 الحلال مما يُذاق ، يصف طيب أخلاقه ، وقوله : دميث : أى سهل لين ،
 والبارح : الريح تهب من الشمال في الصيف خاصة ،

وقال عمرو بن شأس - وهو شاعر فارس شهد مع سيدتنا رسول الله الحديبية
 وكانت امرأته تُؤذى ابنه عراراً - وكان من أمة سوداء - تُعيره بالسواد
 وتشتمه ، فلما أعت أباه عمراً أنشأ كلمة عدتها عشرون بيتاً اختار منها
 أبو تمام هذه الأبيات :

أرادت عراراً بالهوانِ ومن يُردُّ	عراراً لعمري بالهوانِ فقد ظلم
فإن كنت منى أو تريدن صحبتي	فكوني له كالسفن رب له الأدم
وإن كنت تهوين الفراقَ ظيعتي	فكوني له كالذئب ضاعت له الغنم
وإلا فسيرى مثل ماسار راكب	تجشم خسا ليس في سيره يتم
وإن عراراً إن يكن ذا شيكمة	تقاسينها منه فما أملك الشيم
وإن عراراً إن يكن غير واضح	فإن أحب الجون ذا المنكب العمم

«قوله : فإن كنت منى : نقل الكلام من الإخبار إلى الخطب ومعنى فإن كنت منى : فإن
 كنت توافقينى ، من قولهم فلان منياً ، أى : يوافقنا ، وقال المرصفي : معناه : فإن كنت
 مثل نفسى سيدة ، وقوله : أو تريدن صحبتي : أى أو تكونين مثل غيرك فى المعيشة لا حظ

لها في السيادة، وقوله: فكوني له كالسمن: أى كوني له كالسمن الذى لا يتغير،
والرب: خلاصة التمر بعد طبخه وعصره، والأدم: اسم جمع للأديم وهو الجلد
المدبوغ، يريد الأسقية التى يجعل فيها الرب. وكانت العرب تدهن وعاء السمن
بالرب لتمنع فسادَه ويزيد فى طيب ريحه، فقوله: رُبَّ له الأدم: أى جعل فيه
الرب لئلا يفسد، وقوله وإن كنت تهوين الخ يقول: وإن كنت تؤثرين
مفارقتي مصممة على ذلك فكوني له ذنباً أهملت له الغنم يعيث فيها، ويقال لزواج
الرجل: ظعينة، وهى مقيمة، والأصل فى الظعينة المرأة فى هودجها وهى سائرة،
وقوله: وإلا فسيرى الخ، فالخمس: فلاةٌ بعد ماؤها حتى إر الإبل لتدَّه فى اليوم
الرابع سوى اليوم الذى شربت فيه وصدرت، واليتم: النذور والتقصير
والإبطاء، يقول: وإلا فارقني وسيرى سير راكب تكلف ورود الماء
للخمس، وقوله: وإن عرارا... البيت، فالشكيمة: شدة النفس وإباؤها، والشيمة:
الخليقة، وكان عرار هذا حديد القلب ذرب اللسان، يقول: لا أقدر على
تغيير خلقه، فإما أن تلاميذه على ما تقاسينه من حديثه، وإما أن تفارقني فإنه أحب
إلى منك، وقوله غير واضح: أى غير أبيض: مستعار من وضع الصبح
وهو يابضه، والجون هنا: الأسود المشرب حمرة، والمنكب: مجتمع عظم
العنق والكتف، يصفه بالقوة والشدة، والعم: التام، قالوا: كان عرار
هذا أحد فصحاء العقلاء، توجه عن المهلب بن أبي صفرة إلى الحجاج رسولا
فى بعض فتوحه، فلما تثلَّ بين يدي الحجاج لم يرفء وازدراه، فلما استنطقه
أبان وأعرب ماشاء وبلغ الغاية والمراد فى كل ما سأل، فأنشد الحجاج
متمثلاً:

أرادت عراراً بالهوان ومن يرذ عراراً لعمرى بالهوان فقد ظلم

فقال عرار : أنا - أيد الله الأمير - عرار ، فأعجب به وبذلك الاتفاق .

صلة الرحم : « وبعد » فلنورد بعض ما قلوا في صلة الرحم ، والرحم في الاصل : موضع تكوين الولد ، ثم سميت القرابة رحماً ، فالرحم : خلاف الأجنبي ، وقال ابن الأثير : ذوو الرحم : هم الأقارب ، ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب - قرابة - ويطلق في الفرائض - علم المواريث - على الأقارب من جهة النساء . ويقال : رَحِمَ ورَحِمَ ورَحِمَ ، وهى مؤنثة ، قال زهير بن أبي سُلي :

خُذُوا حَظَّكُمْ يَا آلَ عِكرِمَ واذكروا

أواصِرَتَا والرَّحِمُ بِالْغَيْبِ تُذَكِّرُ (١)

ومما ورد في صلة الرحم : قوله جل شأنه : واتقوا الله الذى تَسَاءَلُونَ به والأرحام . أى واتقوا الأرحام أن تقطعوها ، وفى قراءة : والأرحام بالخفض ، وإذن يكون المعنى : تساءلون به وبالأرحام ، وهو قولهم : نشدتك بالله وبالرحم . . . ، وقال صلى الله عليه وسلم : الرحم شُجْنَةٌ من الله - وفى رواية : من الرحمن - معلقةً بالعرش تقول اللهم صلْ مَنْ وَصَّأْنِي وانقطع مَنْ قَطَعَنِي ... قال الجوهرى : الشجنة بالضم والفتح والكسر : عروق الشجر المشتبكة ، و : بينى وبينه شجنة رحم : أى قرابة مشتبكة ، ومن ذا قولهم : الحديث ذو شجون : أى ذو شُعَبٍ وامتسك بَعْضُهُ ببعض ، وعبارة أبى عبيدة فى تفسير هذا الحديث : شجنة من الله : أى قرابة من الله مشتبكة كاشتباك العروق ، شبه بذلك مجازاً واتساعاً ، وأصل الشجنة : شعبة من غصن

(١) من أبيات جميلة تراها فى خزانة البغدادى ج ٢ ص ٢٨٧ وطبعة السلفية ،

من غصون الشجر ثم استعمل اتساعاً في الرحم المشبكية ، وقال عبد الله بن أبي أوفى : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : لا يجالسنا قاطع رحم ، فقام شاب ، فأنى خالته له ، - وكان بينه وبينها شيء - فأخبرها بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستغفرت له واستغفر لها ، ثم رجع والنبي صلى الله عليه وسلم في مجلسه فأخبره ، فقال النبي : إن الرحمة لا تنزل على قاطع رحم . وفي الحديث : من أحبَّ أن يُبْسَطَ له في رزقه ، ويُنْسَأَ له في أجله ، فليصل رحمه . ينسأ : يؤخر ومنه الحديث . صلة الرحم مَثْرَاةٌ في المال مَنَسَاةٌ في الأثر . منسأة : مفعلة من النَّسَأِ أى مَظَنَّةٌ له وموضع ، والأثر : الأجل ، وفي الحديث : لا تستنسؤا الشيطان أى إذا أردتم عملاً صالحاً فلا تؤخروه إلى غد ولا تستمهلوا الشيطان ، يريد : أن ذلك مُهْلَةٌ مُسَوَّلَةٌ من الشيطان . ولعل المراد من تبسيط الرزق ومد العمر : البركة والخير والسعادة ورفاعة العيش ، وللعلماء في ذلك كلام كثير راجعه في المطولات ، ...



وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم : من كان منهم يؤثر أقرباه بالولايات والعمالات وإسناد أمور الدولة إليهم ، فإنما كان ذلك - بعد كفاية الأقرباء واستحقاقهم - للبر صرفاً ، أى امتثالاً لأمر الله في وجوب صلة الرحم ، ومن كان منهم يؤثر الأجانب ويُقْصِي الأَقَارِبَ وَيَحْرِمُهُم أعمال الدولة . فإنما كان ذلك للبر أيضاً ، إذ كان ذلك إمعاناً في التورع والتأثم وتركاً لما يريب إلى مالا يريب ... وفي ذلك يقول الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه : كان عمر يمنع أقرباه ابتغاء وجه الله ، وأنا أعطى قراباتي لوجه الله ، ولن يرى مثلي عُمر ... فنأمل قوله : ولن يرى مثلي عُمر ... أى لن يبلغ إنسان مبلغه في

الحزم والسياسة الرشيدة وَضَبِطَ النفس أَنْ تَسْتَرْسل مع ما يُشبه الهوى ...
يعنى أَنَّ عُمَرَ أَفْضَلُ مِنِّي ، رَضِيَ اللهُ عن الجميع ..

ومما يروى فى معنى حث الأقارب على التعاون : أَنَّ أَكْثَمَ بْنَ صَيْفِيٍّ
حَكِيمَ الْعَرَبِ دَعَا أَوْلَادَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ ، فَاسْتَدْعَى بِضُمَامَةَ مِنَ السَّهَامِ ، أَى حُرْمَةَ
مِنْهَا ، لِقَةِ فِي الْإِضْمَامَةِ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ أَنْ يَكْسِرَهَا ، فَلَمْ يَقْدِرْ وَاحِدٌ
عَلَى كَسْرِهَا ، ثُمَّ بَدَّهَا وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَكْسِرُوهَا ، فَاسْتَسْهَلُوا كَسْرَهَا ، فَقَالَ :
كُونُوا بِمَجْتَمِعِينَ ، لِيَقْجَزَ مِنْ نَاوَأِكُمْ ، أَى عَادَاكُمْ ، عَنْ كَسْرِكُمْ ، لِعَجْزِكُمْ ...
وقال الشاعر فى هذا المعنى :

إِنَّ الْقِدَاحَ إِذَا اجْتَمَعَ فَرَاةُهَا بِالْكَسْرِ ذُو حَرْدٍ وَبَطْشٍ أَيْدٍ ^(١)
عَزَّتْ فَلَمْ تُكْسَرْ ، وَإِنْ هِيَ بُدِّتْ فَالْوَهْنُ وَالتَّكْسِيرُ لِلْمُتَبَدِّدِ
وقال آخر فى هذا المعنى :

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ ذُلَّ قَبِيلَةٍ رَمَامَا بِتَشْقِيَتِ الْهَوَى وَالتَّخَاذُلِ
« وَهَذَا كَمَا يُقَالُ فِي الْأَقَارِبِ يُقَالُ فِي كُلِّ جَمَاعَةٍ بَيْنَهُمْ لُحْمَةٌ تَجْمَعُهُمْ ، مِنْ
وَطْنٍ وَغَيْرِ وَطْنٍ ، وَمَا يَرُوى : أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ قَتَلَ ابْنَ أَخِيهِ ، فَدَفَعَ
إِلَى أَخِيهِ لِيَقْتَادَ مِنْهُ فَلَبَّاهُ بِالسَّيْفِ أَرْعَدَتْ يَدَاهُ ، فَأَلْقَى السَّيْفَ مِنْ
مِنْ يَدِهِ وَغَفَّ عَنْهُ ، وَقَالَ : - وَالْبَيْتَانِ فِي الْحِمَاةِ - :

(١) الحرد بتسكين الراء وبفتحها لغتان : الغضب والغليظ ، قال الأشهب
ابن رُمَيْلَةَ :

أَسْوَدُ شَرِّى لَاقَتْ أَسْوَدَ خَفِيَّةً تَسَاوَوْا عَلَى حَرْدٍ دِمَاءِ الْأَسَاوِدِ
والأيد : القوى

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْسَاءً وَتَعَزِيزَةً إِحْدَى يَدَيَّ أَصَابَتْهُ وَلَمْ تُرَدِّ (١)
يَكْلَاهُمَا خَلْفَ مَنْ فَقَدْ صَاحِبُهُ هَذَا أَخِي حِينَ أَدْعُوهُ رِذَا وَلَدِي (٢)
وفي مثل هذا المعنى يقول الحارث بن وعلـة الذهلي - وهي من
آيات الحماسة - :

قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا، أُمِّيمٌ، أَخِي فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي
فَلَنْ عَفَوْتُ لَا عَفْوَنَ جَلَّالًا وَلَنْ سَطَوْتُ لِأَوْهَنْ عَظْمِي
لَا تَأْنِسَن قَوْمًا ظَلَمْتَهُمْ وَبَدَأْتَهُم بِاللَّسْمِ وَالرَّغْمِ
أَنْ يَأْبُرُوا نَخْلًا لَعَنِيهِمْ وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمِي
وَزَعَمْتُمْ أَنْ لَا حُلُومَ لَنَا إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لِذِي الْحِلْمِ
وَوَطِئْنَا وَطَأً عَلَى حَنْقٍ وَطَأَ الْمُقَيِّدِ نَابِتَ الْهَرَمِ
وَرَزَكْنَا لَحْمًا عَلَى وَضْمٍ لَوْ كُنْتَ تَسْتَبِقُ مِنَ اللَّحْمِ

• يقول في البيت الأول : قَوْمِي - يَا أُمِيمَةَ - هم الذين قَتَلُونِي بِأَخِي
وَوَتَرُونِي فِيهِ ، فإذا حاولت الانتصارَ منهم عاد ذلك بالنكابة في نفسي ،
لأن عَزَّ الرجل بعشيرته . وهذا الكلام تحزن وتفجع وليس بإخبار . وقوله :
فَلَنْ عَفَوْتُ ... البيت . يقول : إن تركتُ طلب الانتقام منهم صفحتُ
عن أمرٍ عظيم . وإن انتقمْتُ منهم أَوْهَنْتُ عَظْمِي : أي أضعفْتُه ، ويقال :

(١) تأساء: تفعال من الأسوة ، بقول : أعزى النفس عنه متأسيا بغيري من
قتل ولده، وقوله إحدى يدي: مبتدأ، وأصابتي خبر، ولم ترد: في موضع الحال، والجملة
في موضع نصب على أنه مفعول لقوله أقول

(٢) يقول : كل واحد من الأخ والواثر والابن المفقود يصلح لأن يرضى به عوضا
عن فقدان الآخر

عفوت من الذنب : إذا صفحت عنه ، والسطو : الأخذ بعنف ، والجلال :
 من الأضداد : يكون الصغير ويكون العظيم ، وهو المراد ههنا . وقوله :
 لا تأمنن قوما ... ألبيتين ، حوّل الكلام عن الإخبار إلى الخطاب مُتَوَعِّدًا ،
 والרגم : مصدر رغمت فلانا : إذا فذلت به ما يرغم أنفه ويُذله ، وقوله :
 أن يأبروا : في موضع نصب على البدل من قوما في البيت الذي قبله ، كأنه
 قال : لا تأمنن أبرّ قويم ظلمهم نخلا لغيرهم ، يقال : أبرت النخل وأبرته :
 إذا لقمته . يقول : إذا ظلمت قوما فلا تأمنهم أن يلتقموا منك فتشتفي
 أعداؤك منك : فتكون كمن أصلح أمر غيره ، وقال بعضهم : المعنى : إن
 ظلمتونا تحوّلنا عنكم ، فلا يكون لكم بعدنا مُقَامٌ - إقامة - فتتحولون أو
 يملككم العدو ، فيكون ما أبرّنا نحن وأنتم لهم دوننا ودونكم ، وقال
 أبو العلاء المدي : قد اختلف في معنى هذا البيت ، قيل : أراد أنه يُفَارِقُهُمْ
 ويَهْبِطُ هو وتوّه أرضا ذات نخل كان لغيرهم فيدفعونهم عنه ويأبرونه ،
 كأنه يتهدّد بهم بترّخله عنهم ، لأن ذلك يؤديهم إلى الذلّ ، واستدلوا على هذا
 الوجه بقوله في القصيدة :

قَوْضُ خِيَانِكَ وَالتَّمِيسُ بَلَدًا يَتَأَى عَنِ الْعَاشِيكِ بِالظُّلَمِ

وقيل : بل يريد أنه يحاربهم فيصلحهم لغيره فيجعلهم كالنخل التي قد
 أبرت ، إذ كان عدوّهم ينال غرضه منهم إذا أعانه عليهم ، وقيل : بل عني
 أنه يسبي نساءهم قوطاً فيكون ذلك كالإبار الذي هو تلقيح النخل . قال
 التبريزي : وهذا الوجه أشبه بمذهب العرب بما تقدم ، لأنهم يكونون عن
 النخلة بالمرأة . وقوله : ورعتم أن لاحلوم لنا : فأكثر ما يستعمل الزعم فيما
 كان باطلا أو فيه آرياب ، والحلوم : العقول ، وقرع العصا : كتابة عن التنبيه ،

واختلف في أول من قرعت له العصا ، ف قيل عمرو بن الظرب العدواني وقيل عمرو بن جحمة الدوسي ، وخبرهما : أن كل واحد منهما كان حاكماً للرب يتحاكمون إليه في كل مُعضلة ، قالوا : إن العرب أتوا عمرو بن جحمة يتحاكمون إليه ، فغَطَّ في حكومته - وكان قد أَسَنَ - فقالت له ابنته : إنك قد صِرْتَ تَهْمُ في حكومتك - أي تغلط - فقال : إذا رأيت ذلك مني فاقْرَعِي العصا ، فكان إذا قرعت له العصا فِطِن . يقول : زعمتم أنه لا عقول لنا وأنا سفهاء ، فإن كان الأمر على ما زعمتم فبهونا أتم ، وهذا تهكم من الشاعر بهم ، وقوله : وَوَطِئْنَا ... ألبيت ، فالحنق : الغيظ ، والهرم : شجر ، أو البقلة الحقاء - هي التي تُسَمَّى الرَّجْلَة - ، أو ضَرْبٌ من الخِمَضِ فيه مُلوحة وهو أذله وأشدّه انبساطاً على الأرض واستبطاحاً ... وفي المثل : أذل من الهرمة ، يقول : وأثرتُ فينا تأثير الحنق الغضبان كما يؤثر البعير المُقَيَّد إذا وَطِئَ هذا النبت الضعيف ، وَخَصَّ المقيد لأن وطأته أثقل ، لأنه لا يتمكن من وضع قوائمه على حسب إرادته . كما خص الحنق لأن إبقائه أقل . ومن قول العرب : أعوذ بالله من وطأة الدليل ، أي من أن يطأني ، لأن وطأته أشد لسوء مَلَكَتِهِ ، كما قال امرؤ القيس :

فإنك لم يَفْخَرْ عليك كفاخِرٍ ضعيفٍ ولم يَغْلِبْكَ مثلُ مُغْلَبٍ
وخص الثابت وأراد : الحديث الثابت ، وهو أغض له وأرق ، ويرى :
يأبِسُ الهرم ، وقوله وتركنا لحما على وضم : فالوضم : الخشبة التي يَصْعُقُ
الجزار اللحم عليها يُوقَى بها اللحم من الأرض ، أو تقول : خِوانُ الجزار ، وقد تقدم
يقول . تركنا لادفاع بنا كاللحم على الوضم يتناوله من شاء ، ثم قال : لو كنت
تستقي من اللحم ، أي لو كنت تترك بقية ، قال النربزي : جعل ذلك مثلاً

لاستفساده لهم وسماحته بهم،

والعرب تقول في العطف على القريب والحمية له وإن لم يكن وادًا:
«أَنْفَكَ مِنْكَ وَإِنْ ذَنْ»^(١) «وَعَيْصُكَ مِنْكَ وَإِنْ كَانَ أَشَبَّ»^(٢) وقال
قائلهم - وهو حريث بن جابر - :

إِذَا ظَلِمَ الْمُؤَلَّى قَزَعْتُ لِظْلَمِهِ فَحَرَّكَ أَحْشَائِي وَهَرَّتْ كِلَابِيَا^(٣)

وقيل لأعرابي: ماتقول في ابن العم؟ فقال عدوك وعدو عدوك، ولما
مات عبادة بن الصامت بكى عليه أخوه أوس بن الصامت، فقيل له: أتبكي
عليه وقد كان يريد قتلك؟ فقال: حركني للبكاء عليه ارتكاضا في بطن،
وارتضاعنا من نذري... ودخل رجل من أشراف العرب على بعض الملوك،
فسأله عن أخيه فأوقع به يعيبه ويشتمه، وفي المجلس رجل يشؤد -
يبغضه - فشرع معه في القول، فقال له: مهلاً! إني لا كل لحى ولا أدعه
لأكل... وقال الشاعر - قيل هو وزارة بن سبيع، وقيل فضلة بن خالد، وقيل
دودان بن سعد، وكلهم من بني أسد، شعراء جاهليون، والآيات من الحماسة:

لَعَمْرِي لَرَهْطُ الْمَرْءِ خَيْرُ بَقِيَّةٍ عَلَيْهِ وَإِنْ عَالُوا بِهِ كُلَّ مَرَكَبٍ
مِنَ الْجَانِبِ الْأَقْصَى وَإِنْ كَانَ ذَاغِيَّ جَزِيلٍ وَلَمْ يُخْبِرْكَ مِثْلُ مُجَرَّبٍ

(١) ذَنْ أَنْفَهُ يَذَنْ: إذا سال، والذنان والذنين: الخياط الرقيق الذي يسيل من
الاتف (٢) العيص: منبت الشجر، والأشب: الملتف، ومعنى المثل: أصلك منك
وإن كان ذا شوك مشتبك غير سهل: أي أصلك منك وإن كان أقاربك على خلاف
ما تريد، فاصبر عليهم فإنه لا بد منهم..

(٣) هر الكلب يهر هريراً: إذا نبح وكشر عن أنيابه، ومن طبع الكلب أن
يهر دون أهله ويذب عنهم

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ عَدَى لَسْتَ مِنْهُمْ فِكَلْ مَا عُلِفَتْ مِنْ خَيْثٍ وَطَيْبٍ
 « عالوا به يريد : علوا به ، كل مركب : صعب أو ذلول ، يريد : وإن
 حمله مالا يستطيع ، ومن الجانب الأقصى ، يريد : من الحى الأبد ، وقوله :
 ولم تك منهم ، يروى : * إذا كنت في قوم عدى لست منهم *
 وعدى بالكسر : غرباء ، فأما قوم عدى فقد ورد فيها الضم والكسر
 وقوله : فكل ما علفت : فهذا مثل ، يريد به : المسألة والمدارة ، ويروى للشاعر
 بعد هذا البيت :

فَإِنْ حَدَّثَكَ النَّفْسَ أَنَّكَ قَادِرٌ عَلَى مَا حَوَتْ أَيْدِي الرِّجَالِ فَكَذَّبْ

وقديما أكثروا من شكوى الأقارب : من جهة أنهم يحكم تجاورهم
 وقرابتهم أدنى إلى الحسد والعداوة ، فقالوا : الأقارب عقارب وأنهم بك
 رحما أشدهم بك لدغا ، وقال بعض حكماء العجم : ثلاث لا يُستصاح فسادهم
 بشيء من الحيل : العداوة بين الأقارب ، وتحسد الأكفاء ، والركاكة في
 الملوك ... ولذلك شكوا من أن عداوة الأقارب أشد على النفس من عداوة
 الأبعد فقالوا : - والقائل طرفة بن العبد - :

وَوَظَلُّ دَوَى الْقَرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ الْمُهَنْدِ
 ونال الشريف الرضى :

وَلِلَّذِلِّ بَيْنَ الْأَقْرَبِينَ مَضَاضَةٌ وَالَّذِلُّ مَا بَيْنَ الْأَبْعَادِ أَرْوَحُ
 وَإِذَا أَتَاكَ مِنَ الرِّجَالِ قَوَارِصُ فِسْهَامِ ذِي الْقَرْبَى الْقَرِيبَةِ أَجْرَحُ^(١)
 ففهم من يحمل ويبقى على مقتضيات القرابة ، ويتجافى عن ذنوب

(١) القوارص : جمع قارصة وهي الكلمة المؤذية قال الفرزدق :

قَوَارِصُ تَأْنِيْنِي وَتَحْتَرُونَهَا وَقَدْ يَمْلَأُ الْفَطْرُ الْإِنَاءَ فَيُفْعَمُ

أقربائه على الرغم من عدائهم ، فيقولون - والقائل محمد بن عبد الله الأزدي -
صحابي جليل - وهذه الآيات في الحاسة - :

لَا أَدْفَعُ ابْنَ الْعَمِّ يَمْشِي عَلَى شَفَا وَإِنْ بَلَغْتَنِي مِنْ أَذَاهُ الْجَنَادُ
وَلَكِنْ أُوَاسِيهِ وَأَنْسَى ذُنُوبَهُ لَتَرْجِعَهُ يَوْمًا إِلَى الرَّوَاجِعِ
وَحَسْبُكَ مِنْ ذُلِّ وَسُوءِ صَنِيعَةٍ مَنَاوَاةُ ذِي الْقُرْبَى وَإِنْ قِيلَ قَاطِعُ

« الشفا : حرف الشيء وحده ، مثل الشفير ، وقد أشفى على الهلاك : أشرف
والجناد في الأصل - كما قال أبو خنيفة الدينوري - : الجنادب الصغيرة ، وجنادب
الضب : دواب أصغر من القردان تكون عند جحره فإذا بدت هي
عُلمَ أن الضب خارج فيقال حينئذ : بدت جناده ، ثم قيل لأوائل الشر :
بدت جناده ، يقول الشاعر : لا أدفعه يمشي على حدّ الهلاك وإن بالغ في
الإساءة ، والمناواة : المداواة ، وأصله الهمز يقال : ناواه مُناوأة : أى عاده ،
وقوله : وإن قيل قاطع : يريد : وإن قيل في ذى القربى إنه قاطع لرحمه فلا
يحملك ذلك على مناوأة ، وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب :

مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مَهْلًا ذَوَالِنَا لَا تَنْبِشُوا بَيْنَنَا مَا كَانَ مَدْفُونًا
لَا تَطْمَعُوا أَنْ تُهَيِّنُوا وَنُكْرِمَكُمْ وَأَنْ نَكْفِيَ الْأَذَى عَنْكُمْ وَتُوْذُونَا
مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مِنْ تَحْتِ أَثْلَتِنَا سِيرُوا رُوبِدًا كَمَا كُتِّمْتُمْ تَسِيرُونَا
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّا لَا نُحِبُّكُمْ وَلَا نَلُومُكُمْ إِنْ لَمْ تَحْبُونَا
كُلُّهُ رِيْسَةٌ فِي بُغْضِ صَاحِبِهِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ تَقْلِيكُمْ وَتَقْلُونَا

« مهلا : يريد : رفقوا وسكونا لاتعجلوا ، ويريد بنى عمه : بنى أمية ، وقد
كان في صدورهم أحقاد ، وقوله لاتنبشوا : يريد لاتستخرجوا ما كان بيننا

من العداوة مدفونا في الصدور، وقوله: من نحت أثنتنا، فالأثلة: واحد الأثل وهو من الغضاه شجر طوال مستقيم الخشب ومنه تصنع الأقواح والجفان ونحتها: قشرها أو نشرها، يريد: هلا بني عمنا في إظهار المثالب والمعايب التي تلصقونها بنا، وقوله: كل له نية الخ يريد: إنا وإياكم لعلى طرفى نقيض نحن نبغضكم لاغتصابكم الملك واستيلائكم على أموال المسلمين وأنتم تبغضوننا على قربابتنا من النبي صلوات الله عليه، وقلاه يقلبه قلبى: أبغضه، وقد حذف نون الرفع من تقولنا ضرورة.

وقال ذو الأصبع العدواني: ^(١)

لولا أواصر قرى لست تحفظها ورهبة الله في مؤلى يعاديني
إذن برئيتك برياً لا انجبارله إني رأيتك لا تنفك تبريني

ومهم من اضطرَّ إلى الاتقام من أقاربه: أو من تربطه بهم آصرة ماثم مأسف، فقال قيس بن زهير في ذلك:

شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شقاني
قتلت يا خوتي سادات قومي وقد كانوا لنا حلى الزمان
فإن أك قد بردت بهم غليلي فلم أقطع بهم إلا بناني

وقال النمرى:

فإنك حين تبغضهم أذاه وإن ظلموا لمحترق الضمير

(١) واسمه مُحَرَّثان بن الحارث بن محز، شاعر فارس من قدماء الشعراء في الجاهلية، وبيتاه هذان من قصيدة له في ابن عم له اسمه عمرو وهي قصيدة بارعة جداً أولها:

يامن لقلب شديد الهم محزون أمتى تذكر ليلى أم هارون
وقد ترجم له صاحب الأغاني، انظر الجزء الثالث طبعة دار الكتب،

وقال المتنبي في ذلك :

وكيف يَتَمُّ بأُسْكٍ في أناسٍ تُصِيبُهُمْ فَبُؤْلُكُمْ المُصَابُ
وقال البحرى من قصيدة له يمدح بها المتوكل على الله العباسى ويذكر
صلح بنى تغلب - :

وَفِرْسَانِ هَيَجَاءِ تَجِيئُشْ صُدُورُهَا بِأَحْقَادِهَا حَتَّى تَضِيقَ دُرُوعُهَا
تُقَتِّلُ مَنْ وَرَى أَعَزَّ نَفُوسِهَا عَلَيْهَا بِأَيْدٍ مَاتَكَادُ تُطِيعُهَا
إِذَا احْتَرَبَتْ يَوْمًا فِقَاضَتْ دِمَاؤُهَا تَذَكَّرَتْ الْقُرْبَى فَمَاضَتْ دِمُوعُهَا
وقال سيدنا على كرم الله وجهه - حين تصفح القتلى يوم الجمل : شَفَيْتُ
نَفْسِي ، وَجَدَعْتُ أَنْفِي - وسيمر بك هذا الكلام بتمامه في موضع آخر من هذا
الكتاب ... ومنهم من يركب رأسه وَيُحِبُّ فِي عِدَاءِ أَقَارِبِهِ خَبًا وَلَا يِيَالِي -
وقد قال قائلهم - أوس بن حبةاء التيمي - :

إِذَا الْمَرْءُ أَوْلَاكَ الْهُوَانَ فَأُولُهُ هَوَانًا وَإِنْ كَانَتْ قَرِيبًا أَوَاصِرُهُ

ويبلغ الحق بهذا الصنف من الناس أن يظهر الأجنبي على القريب

وقد شبه العرب هذا الصنف بذئب السوء قال الفرزدق - :

وَكُنْتُ كَذَائِبِ السُّوءِ لَمَّا رَأَى دِمًا بِصَاحِبِهِ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى الدِّمِ
« وهو معلوم أن الذئب إذا رأى بصاحبه دمًا أقبل عليه ليأكله ، وإنه
لبديهي أن هذا التماؤ للآجنبي على القريب لا يشعر إلا الضرر الموبق ، وقد
قال قائلهم في ذلك - وهو أبو يعقوب الخريزمي - :

كَانُوا بَنِي أُمِّ فَرَّقَ شَمَلَهُمْ عَدَمُ الْعُقُولِ وَخِفَةُ الْأَحْلَامِ

وقد ورد في علاج العداء الذي يحدث بين الأقارب : وهو علاج مُسَكِّن ... ولكنه لا علاج غيره - قولُ أَكْثَمَ بْنِ صَيْفِيٍّ حَكِيمِ الْعَرَبِ : تَبَاعَدُوا فِي الدِّيارِ تَقَارَبُوا فِي الْمَوَدَّةِ ... وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري : مُرْ ذَوِي الْقَرَابَاتِ أَنْ يَتَزَاوَرُوا وَلَا يَتَجَاوَرُوا ... وقال في هذا المعنى وزاد شاعرٌ جاهلي من بني أسد - وكان له ابن عم يترصد له مرافع السوء - :

دَاوِ ابْنَ عَمِّ السُّوءِ بِالنَّائِي وَالْغَنَى كَفَى بِالْغَنَى وَالنَّائِي عَنْهُ مُدَاوِيَا
يَسْلُ الْغَنَى وَالنَّائِي أَدْوَاءَ صَدْرِهِ وَيُسَدِّي التَّدَانِي غِلْظَةً وَتَقَالِيَا
أَعَانَ عَلَى الدَّهْرِ إِذْ حَكَ بَرَكُهُ كَفَى الدَّهْرُ لَوَوَكَلْتُهُ بِي كَافِيَا

« النَّائِي : البعد ، والغنى : مصدر غنى عن الشيء يَغْنَى : استغنى عنه ، وأَطْرَحَ فلم يلتفت إليه ، ويسْلُ : ينتزع برفق ، وأدواء صدره : أضعافه وأحقاد ، والتَّدَانِي : يريد إظهار التقارب منه ، وتقاليا : تباغضا ، وحك بركه : فالحك : إممرار جرم على جرم ، والبرك في الأصل : كل كل البعير ، وهو صدره الذي يدكُّ به مآخذه ، استعاره لاهر ، وقوله . كفى الدهر الخ : يريد : كفى حدان الدهر وحده في الاساءة فلا تكون إعايته وحادث الدهر ماعليه »



ومن كلامهم في الإخوة : ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : حَقُّ كَبِيرِ الْإِخْوَةِ عَلَى صَغِيرِهِمْ حَقُّ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ ... وَيُرْوَى أَنَّ إِخْوَةَ حَضَرُوا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَتَكَلَّمَ أَصْغَرُهُمْ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْكَبَرُ الْكُبْرُ ... « الْكَبَرُ : جمع الأكبر ، كأخمر وأخمر : أى ليبدأ الأكبر بالكلام ، أرقده والأكبر ، إرشادا إلى الأدب في تقديم الأسن » وقيل لحكيم معه أخ أكبر منه : أهذا أخوك ؟ فقال بل أنا أخوه ...

وكان بين الحسن والحسين رضي الله عنهما كلام ، فقيل للحسين : ادخل

على أخيك فهو أكبرُ منك ، فقال : إني سمعتُ جدِّي صلى الله عليه وسلم يقول : أيما اثنين جرى بينهما كلام ، فطلب أحدهما رضا الآخر ، كان سابقه إلى الجنة ، وأنا أكره أن أسبق أخى الأكبر ، فبلغ قوله أخاه ، فأتاه عاجلا وأرضاه ...



ومما يتصل بالإخوة وينشعب به القول في هذا الباب : ما يروى في الأخوين يختلفان في النجابة والتخلف والحسن والدمامة ، فهذا كَيْسٌ رَفِيعٌ ، وهذا أَحَقُّ وضیع ؛ وهذا جميل ، وهذا دميم ، قال الأصمعي : لم يقل أحد في تفضيل أخ على أخ وهما لأب وأم مثل قول ابن المعتز لأخيه صخر :

أبوك أبى وأنت أخى ولكن تفاضلتِ المناكبُ والرؤسُ
وفي هذا المعنى يقول بعضهم :

تفرّد بالعلیاء عن أهل بيته وكلُّ يَهْدِيهِ إلى المجدِّ والدُّ
وتختلف الأثمارُ في شجراتها إذا شَرِقَتْ بالماء والماء واحدُ

وقال رجل لأخيه : لَا تُهْجُوَنَّكَ ، فقال : كيف تهجونى وأنا أخوك لأبيك وأُمك ؟ فقال :

غَلَامُ أَتَاهُ الْأَوْثَمُ مِنْ شَطْرِ نَفْسِهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ شَطْرِ أُمِّ وَلَا أَبِ
وقال رجل لآخر ، وكان هذا الآخر قبيحاً ومعه أخٌ صبيحٌ ، : مَا أَمْلَكَ إِلَّا شَجَرَةَ الْبَلُوطِ ، تحمل سنةً بَلُوطًا وسنةً عَفْصًا ^(١) وفي هذا المعنى يقول آخر :

(١) البلوط : أبو فروة ، والعفص : تتره يكون على شجرة البلوط أو ضرب منه

أَمَا رَأَيْتَ بَنِي بَذْرٍ وَقَدْ خُلِقُوا كَأَنَّهُمْ خُبْرٌ بَقَالٍ وَكِتَابٍ^(١)

قطيعة الإخوة

ومما جاء في قطيعة الإخوة وتبريرها — والقطيعة الهجران ، ضد الصلة — : ما روى أنه قيل لأعرابي : لِمَ تَقْطَعُ أَخَاكَ شَقِيقَكَ ؟ فقال : أَنَا أَقْطَعُ الْفَاسِدَ مِنْ جَسَدِي الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ إِلَيَّ مِنْهُ ، فَكَيْفَ لَا أَقْطَعُهُ إِذَا فَسَدَ ! وَكَتَبَ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ الْوَزِيرُ إِلَى الْمَأْمُونِ — الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ — : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْمَخْلُوعَ — يَرِيدُ الْأَمِينَ أَخَا الْمَأْمُونِ — وَإِنْ كَانَ قَسِيمَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الذَّنْبِ وَاللَّحْمَةِ ، فَقَدْ فَرَّقَ كِتَابُ اللَّهِ بَيْنَهُمَا فِيمَا اقْتَضَى عَلَيْنَا مِنْ نَبَا نُوحٍ ، فَقَالَ : يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا صِلَةَ لِأَحَدٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، وَلَا قَطِيعَةَ مَا كَانَتِ الْقَطِيعَةُ فِي ذَاتِ اللَّهِ ، وَالسَّلَامُ . . . وَقِيلَ لِزُرَّجِمَرٍ : أَخَوُكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ صَدِيقُكَ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا أَحَبُّ أَخِي إِذَا كَانَ صَدِيقًا . وَيَقَالُ : الْقَرَابَةُ مُحْتَاجَةٌ إِلَى الْمَوَدَّةِ ، وَالْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ الْأَنْسَابِ ، وَالْبَيْتُ الْمَشْهُورُ فِي هَذَا :

فَإِذَا الْقَرَابَةُ لَا تُقَرِّبُ قَاطِمًا وَإِذَا الْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ الْأَنْسَابِ

الناس تجاه البنات

وقد كان الأوائل نُجَاهَ الْبَنَاتِ — وَكَذَلِكَ النَّاسُ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا — قَرِيقِينَ — : فَأَمَّا فَرِيقٌ فَقَدْ كَانُوا يُفَضِّلُونَهُنَّ وَيَحْنُونَ عَلَيْهِنَّ ، وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي ذَلِكَ مَا يُرْوَى أَنَّ مَعْنَ بْنَ أُوَيْسَ الْمُعَوْنِيَّ — شَاعِرَ إِسْلَامِيٍّ مِنَ الْفُحُولِ —

(١) البقال : بائع البقول ، والكتاب : المدرسة يحفظ فيها كتاب الله وما إليه

كَانَ مِثْنًا - وَكَانَ لَهُ ثَمَانُ بَنَاتٍ ، وَكَانَ يُحْسِنُ مُحَبَّتَهُنَّ وَتَرَبَّيَتْهُنَّ ، قَوْلًا
لِبَعْضِ عَشِيرَتِهِ بَلَتْ ، فَكَرِهَهَا وَأَظْهَرَ جَزَعًا مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ مَعْنُ :

رَأَيْتُ رِجَالًا يَسْكُرُهُنَّ بَنَاتِهِمْ

وَفِيهِمْ - لَا تُكْذِبُ - نِسَاءُ صَوَالِحٍ

وَفِيهِمْ - وَالْأَيَّامُ يَعْتُرْنَ بِالْفَقَى - عَوَائِدُ لَا يَمْلِكُنَّ وَنَوَاحٍ

وَدَخَلَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى مُعَاوِيَةَ وَعِنْدَهُ ابْنَتُهُ عَائِشَةُ ، فَقَالَ : مَنْ
هَذِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ : هَذِهِ مُفَاحَةُ الْقَابِ ؛ فَقَالَ : أَنْيْذِمَا عَنْكَ ، قُلْ :
وَلَمْ ؟ قَالَ : لَا سَهْنٌ يَلِدُنَ الْإِعْدَاءَ ، وَيُقَرِّبُنَ الْبُعْدَاءَ ، وَيُورِثُنِ الضَّغَائِنَ ^(١) ،
فَقَالَ : لَا تَقُلْ ذَلِكَ يَا عَمْرُو ، فَإِنَّ اللَّهَ مَا مَرَضَ التَّرَضَى وَلَا نَدَبَ الْمَوْتَى وَلَا
أَعَانَ عَلَى الْإِحْرَانِ مِثْلَهُنَّ ، وَإِنَّكَ لَوَاجِدٌ خَالًا قَدْ نَفَعَهُ بَنُو أُخْتِهِ ؛ فَقَالَ
لَهُ عَمْرُو : مَا أَعْلَمُكَ إِلَّا حَبَبَتَهُنَّ إِلَى ..

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْبَنَاتُ حَسَنَاتٌ . وَالْبَنُونَ نَعَمٌ ، وَالْحَسَنَاتُ مُثَابٌ عَلَيْهَا ،
وَالنَّعَمُ مَسْئُولٌ عَنْهَا ...

وَأَمَّا الْفَرِيقُ الْآخَرُ فَيَكْرَهُ الْبَنَاتَ : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ
وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ - كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَقَدِيمًا قَالُوا : نِعْمَ
الْحَتَنُ الْقَبْرِ ^(٢) ... وَدَفَنُ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرَمَاتِ ...

✽ وَمَا خَتَنُ فِينَا أَعْفُ مِنَ الْقَبْرِ ✽

وَنَظَرَ أَمِيرَاجِي إِلَى بَلْتِ تَدْفِنُ ، فَقَالَ : نِعْمَ الصَّهْرُ صَاهِرُكُمْ ... وَقَالَ

(١) يُوْرَثُ : مِنْ أَرْثِ النَّارِ : أَوْقَدَهَا (٢) الْحَتْنُ : زَوْجُ الْبَنَتِ

الحسين بن علي رضي الله عنه : والد الميت مُتَّعَبٌ ، والدُ بنتَيْنِ مُثْقَلٌ ،
 ووالد ثلاث فعلى الناس أن يُعينوه ... وقال الزهري : كانوا لا يَرَوْنَ على
 صاحب ثلاث بناتِ صدقةً ولا جهاداً ... وكانت العربُ لا تأكل طعام
 صاحب البناتِ وقد قال قائلهم :

إذا ما المرءُ شبَّ له بناتٌ عَصَيْنَ برأسه عَتْنَا وَعَارَا

وأد البنات : وناهيك في هذا الباب شُنْعَةٌ وَسُوءٌ صَنِيعَةٌ بما كان العربُ يفعلون
 في الجاهلية من وأد البنات (١) ... وما فِتْنُوا إلى أن أُرْسِلَ سَيِّدُ البشرِ صلوات الله
 عليه ، فنَهَى عن ذلك ، وأزل الله عز وتقدس : وإذا المَوُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ
 ذنبٍ قُتِلَتْ ؟ وكثيراً من الآيات في هذا المعنى المُفْطِيع ... ودخل قيس بن
 عاصم المِنَقَرِيُّ - وهو سَيِّدُ أهل الوبر - على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :
 إني وأدتُ آفَئَتِي عَشْرَةَ بَنَاتٍ ، فما أَصْنَعُ ؟ فقال رسول الله : أَعْتَقْ عَنْ
 كُلِّ نَوُودَةٍ نَسَمَةً ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : فما الذي حَمَلَكَ على ذلك
 وأنت أكثرُ العربِ مالا ؟ فقال : مخَافَةٌ أَنْ يَنْكِحَهُنَّ مَثَلُكَ (٢) ، فنبسم رسول
 الله وقال : هذا سيد أهل الوبر ... قال قيس : ما وَلِدْتُ لي ابْنَةً إِلَّا وَأَدْتُهَا
 سوى بُنْيَةٍ وَلَدْتُهَا أُمُّهَا وأنا في سَفَرٍ ، فلما عُدْتُ ذَكَرْتُ أنها وَلَدَتْ ابْنَةً
 مَيِّتَةً ... فَأَوْدَعْتُهَا أَخْوَالَهَا حَتَّى كَبُرَتْ ، فَأَدْخَلْتُهَا مَنْزِلِي مُتَرَيِّنَةً ،

(١) وأد بنته يتدما وأدا : دفنها في القبر وهي حية

(٢) هذه عَجْرُفَةٌ وعَنْجَبِيَّةٌ من هذا الأعرابي الجلف في حق الصديق رضي الله عنه
 وإن كان قيس بن عاصم سَيِّدَ أهل الوبر ، وما أحلم سيدنا رسول الله الذي أرسل
 ليتم مكارم الأخلاق ، والذي أمر بأن يدعو الناس إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة
 الحسنة.

فاستَحَسَنَتُهَا ، فقلتُ : مَنْ هذه ؟ فقالت : هذه ابْنَتُكَ ، وهى التى أَخْبَرْتُكَ
أنى ولدْتُهَا مَيْتَةً ، فَأَخَذْتُهَا وَدَفَنْتُهَا حَيَّةً وهى تَصِيحُ وتَقول : ائْتِرْ كُنِ
هكذا ؟ فلم أَعْرِجْ عَلَيْهَا ، فقال صلى الله عليه وسلم : من لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ ...

الخال والخولة

بقى بعد ذلك أن نورد شيئا مما قالوا فى الخولة والخال : والقول فى ذلك
ينشعب أيضا ، فقد قالوا فى مَدْحِ الخال وَدَمِّهِ ، وقالوا فى معنى نِزَاعِ
الولد إلى خاله ^(١) ، فَلَمَنْتَقِي شيئا مما قالوا فى هذه المعانى ، فأما قولهم فى
اعتبار الخولة وكونها كالأبوة ، فمن ذلك ما روى أن الأسود بن وهب
خال رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن عليه ، فبسط صلى الله عليه وسلم له
رِدَاءَهُ ، فقال الأسود : حَسْبِي أَنْ أَجْلِسَ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ ، فقال صلى الله عليه
وسلم : أَجْلِسْ فَإِنَّ الْخَالَ وَالِدَ ... وَمِنْ طَرِيفِ هَذَا الْبَابِ مَا يُرْوَى أَنَّ الْحِجَاجَ
قَالَ لابنِ مِعْمَرٍ : إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ ابْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : وَاللَّهِ لَا قُتْلَكَ ، فقال ابنِ معمر : أليس الله يقول :
وَمَنْ ذُرِّيَّتِهِ دَارِدَ وَسُلَيْمَانَ ، إِلَى قَوْلِهِ : وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِسْمَاعِيلَ
ابْنُ مَرْيَمَ : ابْنِ بَنَتٍ ، فقال نَجْوَتَ ... وَأَمَّا مَنْ عَدَّ الْخَوْلَةَ لَيْسَتْ مِنَ النِّسْبِ
وَالْفِرَاقَةِ ، فمن قولهم فى ذلك - وَالْقَائِلُ صَمْرَةَ بنِ ضَمْرَةَ بنِ جَابِرِ بنِ قَطَنَ
- شاعر جاهلى - وقيل غيره - :

إِذَا كُنْتَ فِي سَعْدٍ وَأَمْلَكَ مِنْهُمْ غَرِيبًا فَلَا يَغُرُّكَ خَالُكَ مِنْ سَعْدٍ

(١) نزح فلان إلى أبيه أو خاله ينزع نزوعا ونزاعا : ذهب إليه وأشبهه ، ومثله نزح
الإنسان إلى أهله والبعير إلى وطنه نزاعا ونزوعا : حن واشتاق

فَإِنَّ ابْنَ أَخْتِ الْقَوْمِ مُصْغًى لِنَاوُهُ إِذَا لَمْ يُزَاجِمْ خَالَه بِأَبٍ جَلَدٍ^(١)
 وتقدم شابٌّ إلى عبد الله بن الحسين رضى الله عنه فقال : إِنَّ جَدِّي أَوْصَى
 بِثُلُثِ مَالِهِ لَوْلَدٍ وَلَدِهِ ، وَأَنَا مِنْ وَلَدِ بِنْتِهِ ، وَالْوَصَى لَيْسَ يُعْطِينِي مِنْهُ ، فَقَالَ :
 لَاحِقٌ لَكَ فِيهِ ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

بَنُونَا بَنُو أَبْنَائِنَا وَبَنَاتُنَا بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الْإِبَاعِدِ
 • يقول : إن بنى أبنائنا مثل بنينا ، أما بنو بناتنا فليسوا منا وإنما هم أبناء
 الأجانب ، فبنونا خبر مقدم وبنو أبنائنا مبتدأ مؤخر ، وهذا البيت لا يعرف
 قائله على مُهَرَّرَتِهِ . قال الإمام العيني : هذا البيت استشهد به النحاة على جَوَازِ
 تقديم الخبر ، والفرَضِيُّونَ - علماء المواريث - على دخول أبناء الأبناء
 في الميراث وأن الانتساب إلى الآباء ، والفقهَاءُ كذلك في الوصية ،
 وأهلُ المعاني والبيان في التشبيه ، ولم أر أحدا منهم عَزَّاهُ إلى قائله ،
 وقالوا في نزاع الولد إلى خاله :

عَلَيْكَ الْحَالُ إِنَّ الْحَالَ يَسْرِي إِلَى ابْنِ الْأَخْتِ بِالشَّبَةِ الْمُبِينِ
 وقالوا :

لِكُلِّ امْرِئٍ شَكْلٌ يَقَرُّ بِعَيْنِهِ
 وَقُرَّةُ عَيْنِ الْفَسْلِ أَنْ يَصْحَبَ الْفَسْلَا
 وَتَعْرِفُ فِي تَجْدِيدِ امْرِئٍ تَجْدَ خَالِهِ
 وَيَسْذُلُ أَنْ تَلْقَى أَخَا أُمِّهِ تَذَلًّا

(١) مصغى لِنَاوُهُ : نقص حظه ، يقال أصغى فلان لِنَاءِ فلان : إذا أماله ونقصه
 من حظه يقول هذا الشاعر : لا تغتر بخؤلك فإنك منقوص الحظ مالم تزاحم أخوالك
 بآباء شراف وأعمام أعزة .

«الفصل : النذل الذى لامرءة له ولا جلد» وقال رافع بن هريم:-
شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم، يخاطب بنى أخوته:-

قَهْلًا عَيْرَ عَمَّكُمْ ظَلَمْتُمْ إِذَا مَا كُنْتُمْ مُتَظَلِّينَا
عَفَارِيْنَا عَلَى وَأَكْلٍ مَالِي وَجُبْنَا عَنْ رِجَالٍ آخِرِينَا
وَلَوْ كُنْتُمْ لِمُكَيْسَةٍ أَكَاكْتُمْ وَكَيْسُ الْأَثَمِ كَيْسُ اللَّبْنِينَا
وَلَكِنْ أَمَّكُمْ حَقَّقْتُ فَجَنَّمْ غِثَانَا مَا نَرَى فِيكُمْ سَمِينَا

وموضع هذه الآيات باب إيجاب الآلهات فى كتاب الدساء وترى نظائرله هناك
«قوله متظللينا، تقول : تظلنى مالى : أى ظلمنى مالى، و«ما» فى : إذا ما كنتم :
زائدة ، والمكيسة : المرأة التى تلد أولادا أكياسا ، وأكاست المرأة : ولدت
ولدا كيسا، والكيس : خلاف الحق ، ورجل كيس : أريب ظريف ، وقوله :
ولكن أمكم حققت : أى صارت حمقاء، والغثا : جمع غثيث بمعنى مهزول ،

مدعو القرابة البعيدة

وبما يستطرف من محاسنهم فى مدعى القرابة البعيدة : قول رجل لآخر :
لست ترعى حقى وبيننا قرابة ا فقال : من أين ؟ قال : إن أباك كان قد خطب
أمى ، فلو تم الأمر لكنت أنا أنت ... فقال : هذه والله رحم مائة ...
وتعرض رجل لهشام بن عبد الملك وأدعى أنه أخوه ، فسأله : من أين ذلك ؟
قال : من آدم ! فأمر بأن يُعطى درهما ، فقال : لا يُعطى مثلك درهما ،
فقال هشام : لو قَسَمْتُ ما فى بيت المال على القرابة التى ادَّعَيْتَهَا لم يَبْلُكَ
إلا دُونَ ذلك ... وفى هذا المعنى - معنى ادعاء القرابة وانتفاؤها -
يقول حسان بن ثابت :

لَعَمْرُكَ إِنَّ لَكَ مِنْ قُرَيْشٍ كَيْلَ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النِّعَامِ ^(١)

محاسنهم في الآباء والأبناء والأقارب من بابات شتى
ولنعطف على سائر محاسنهم في الآباء والأبناء والقربات من بابات شتى :
عن ذلك تفاخرهم بالحسب وكرم المحدث ، قال عدى بن أرطاة لإياس : دُلَّنِي
على قوم من القُرَّاء أوَّلِهِمْ ، فقال : القُرَّاء ضربان : ضربٌ يعملون للدنيا ،
غما ظَنُّكَ بِهِمْ : وضربٌ يعملون للآخرة فلا يعملون لك ، ولكن عليك
بأهل البيوتات الذين يستحيون لأحسابهم ... وقال زهير بن أبي سلمى :
وما يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَتْهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وقال :

وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطُّ إِلَّا وَشِيجَهُ وَتُغْرُسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النُّحُلُ
« الخطى : الرمح ، قال أبو حنيفة الدينوري العالم النباني الأشهر : الخطى :
الرمح ، وهو نسبة قد جرى مجرى الاسم العلم ونسبته إلى الخط ، خط البحرين ،
وإليها ترقأ السفن إذا جاءت من أرض الهند ، وليس الخطى - الذي هو الرمح -
من نبات أرض العرب . وزاد الجوهري : وإنما نسبت إلى الخط لأنها تحمل
من بلاد الهند فتقوم به . وشيجه : فالوشيج شجر الرماح ، ...
ودخل بعض أولاد عبد الله بن الزبير على سليمان بن محمد ، فجلس على مُرْقَةٍ

(١) الإل : القرابة ، والسقب : ولد الناقة ، والرأل : ولد النعام ، هجو حسان
أبا سفيان الحارث بن عبد المطلب ، وزعم بعضهم أن هذا الشعر يقوله حسان لعقبة بن
أبي معيط ، وذكروا أنه كان لزنبة ولذلك قال له عمر حين أمر رسول الله بضرب
عقبة ، فقال : أقتل من بين قريش صبرا ، فقال عمر : « حَقَّ قَدْجَ لَيْسَ مِنْهَا ،

« الوسادة يتكأ عليها ، فاغناظ من ذلك وقال : « من أجلسك دهنا ؟ قال : صَفِيَّة
بنت عبد المطالب : فمكن فضبه . وقال أبو تمام :

تَسَبَّ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى ثَوْرًا وَرَمِنَ فَلَتَى الصَّبَاحِ عَمُودًا

وقالوا فيمن يشبه أباه في علاء ابنتاه : شَيْفِئَةُ أُمِّهَا مِنْ أَحْزَمٍ ^(١) وَ
وَأَنَّ امْرَأَةً فِي الْفَضْلِ أَشْبَهَ جَدُّهُ وَوَالِدَتُهُ الْأَذَى لَغَيْرِ ظُلُومِ
وقال أبو تمام فيمن مكارهته تدلُّ على كرم أسلافه :

فُرُوحٌ لَا تَرِفُ عَلَيْكَ إِلَّا شَهِدَتْ بِهَا عَلَى طِيبِ الْأَرْوَمِ ^(٢)

وَفِي الشَّرَفِ الْحَدِيثُ دَلِيلُ صِدْقِ لِمُعْتَبِرٍ عَلَى الشَّرَفِ الْقَدِيمِ
وقال عامر بن الطفيل ^(٣) في المستغنى بنفسه عن حسيبه :

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنُ فَارِسٍ عَامِرٍ وَفِي السَّرِّ مِنْهَا وَالصِّمِّ الْمُهَذَّبِ ^(٤)

فَمَا سَوْدَتْنِي عَامِرٌ عَنْ وَرَاثَةِ أَبِي اللَّهِ أَنْ أَشْتُو بَأْتَمَ وَلَا أَبِ

وَلَكِنِّي أَنَحِي جَاهَا وَأَتَقِي أَذَاهَا وَأَرْمِي مِنْ رَمَاهَا بِمَقْنَبِ ^(٥)

(١) الشفئة : العادة والطبيعة وهذا مثل ، وأصله لأن أحزم الطائي وهو جد
جندمرتين - حاتم الطائي ، وكان له ابن يقال له أحزم كان عاقاً مات وترك بنين فوثبوا يوماً
على جندم أبي أحزم فأدسموه فقال :

إِنْ بَنَى طَرَجُونِي بِالْأَدَمِ شَفْئَةُ أُمِّهَا مِنْ أَحْزَمِ

يعني أن هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق

(٢) الأروم : جمع أرومة ، وهي الأصل

(٣) شاعر مخضرم وفارس مذكور بعيد الصوت في العرب

(٤) وفي السر منها : من سر الوادي ، وهو أكرم . وضع فيه يريد أنه في

كرم موضع من نسبها (٥) مقنب كنبر : جماعة الخيل والرجال والجمع مقانب

ويروي : من رماها بمنكب ، والمنكب في الأصل : مجتمع عظم العضد والكتف ، ضربه

مثلاً للشدة والقوة

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب :
 كَسْنَا وَإِنْ كُرِمَتْ أَوَارِئُنَا يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ تَسْكِلُ
 نَبْنَى كَمَا كَانَتْ أَوَارِئُنَا تَبْنَى وَتَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا
 وقال المتنبي :

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحُلِ
 وقال :

لَا يَقْوَى شَرُفْتُ بَلْ شَرُّوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي
 وَمَا فَضَّلَ الْوَلَدَ عَلَى الْوَالِدِ بِأَحْسَنَ مِنْ قَوْلِ الْمَتْنِيِّ :
 وَإِنْ تَكُنْ تَغْلِبُ الْغَلَاءُ عُنْصَرَهَا فَإِنَّ فِي الْخَرْمَعْنَى لَيْسَ بِالْعَنْبِ
 وقوله أيضا :
 * فَإِنَّكَ مَاءُ الْوَرْدِ إِنْ ذَهَبَ الْوَرْدُ *

وقال ابن الرومي فيمن ازداد شرف آباءه به :
 وَكَمْ أَبٍ قَدْ عَلَا بِابْنٍ دُرًّا شَرِيفٍ كَمَا عَلَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ عَدْنَانُ
 يَسْمُو الرِّجَالُ بِآبَاءِ وَأَوْتَةٍ تَسْمُو الرِّجَالُ بِأَبْنَاءِ وَتَزْدَانُ



وقالوا في أنه لا اعتداد بمن شرف أصله إذا لم يشرف بنفسه :
 - والقائل المعلم الأول أرسطو طاليس - : إذا كان الإنسان خسيس الأبوين
 شريف النفس ، كانت خسته أبويه زائدة في شرفه ، وإذا كان شريف الأبوين
 خسيس النفس ، كان شرف أبويه زائدا في خسته . وقال ابن الرومي :
 وَمَا الْحَسَبُ الْمُرُوثُ لَا دَرَّ دَرُّهُ يُحْتَسَبُ إِلَّا بِأَخَرٍ مُكْتَسَبُ
 إِذَا الْعُودُ لَمْ يُشْمِرْ وَإِنْ كَانَ شُعْبَةً
 مِنَ الشُّمَيْرَاتِ اعْتَدَّ النَّاسُ فِي الْحَطَبِ

« لا دَرْدَرَة : لازكا عمله ، دعاء عليه أن لا يجعله الله نافعا ،

وقال سقراط - في الاعتذار عن شرفت نفسه ولم يشرف أصله - وقد
عَيَّرَهُ رجل بحسبه - : حَسْبِي مِنِّي ابتداءً ، وَحَسْبُكَ إِلَيْكَ انتهى ... وقال قائل
في هذا المعنى : لَأَن يَكُون الرجل شريف النفس دَنَى الأصل ، أَفْضَلُ من
أَن يَكُون دَنَى النفس شريف الأصل ، ألا ترى أَنَّ رأس الكلب خيرٌ من
ذَنَب الأسد !

ومما يستظرف من اعتذار المتخلفين الأندال ، عن تخلفهم عن آبائهم الأشراف
ماروى : أَنه قيل لأعرابي : ما أَشْبَهْتَ أَباك ! فقال : لو أَشْبَهَ كُلُّ رجل أَباه
كُنَّا كَأَدم ... وخطب رجل قَصَرَ عن أبيه إلى رجل رفيع القدر ، ابنته ، فقال
له العظيم : لو كُنْتُ مِثْلَ أَيْلِكَ ! فقال : لو كُنْتُ مِثْلَ أَبِي لم أَخْطُبْ إِلَيْكَ ...

ومن محاسنهم في ذم من قصر عن آبائه : قول بعضهم :

لَئِنْ فَخَرْتُ بِأَبَائِهِمْ لَمْ شَرَّفْ لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِنِسْمَا وَلَدُوا
وقول أبي تمام :

يَا أَكْرَمَ النَّاسِ آبَاءَ وَمُفْتَخَرًا وَالْأَمَّ النَّاسِ مَبْلُوءًا وَتَخْتَبِرًا

ونظر رجل إلى ابنٍ نذلٍ من أب كريم فقال : سبحان الله من قائل :
يُخْرِجُ الْحَبِثَ مِنَ الطَّيِّبِ . وقال شاعر في لثيم النفس كريم الأبوين :
فَلَا يَعْجَبَنَّ النَّاسُ مِنْكَ وَمِنْهُمَا فَمَا حَبَثُ مِنْ فِضَّةٍ بِعَجِيبِ
« الحَبَثُ مِنَ الحديد والفضة ونحوهما : مانفاه الكبير ولا خير فيه ،

وقالوا فيمن يَخْزَى من ذكر آبائه : فمن ذلك أن رجلاً سُئِلَ عن نسبه ، فقال : أنا ابن أخت فلان ، فقال أعرابي : الناس ينتسبون طولاً وأنت تنتسب عرضاً

ومن محاسنهم فيمن لا يُعْتَدُّ بأبيه : قول الأخطل :
وَإِذَا وَضَعْتَ أَبَاكَ فِي مِيزَانِهِمْ رَجَحُوا وَشَالَ أَبُوكَ فِي الْمِيزَانِ
« شال الميزان : ارتفعت إحدى كفتيه ، ويقال : شال أبوك في الميزان ، وهو مثل في المفاخرة يقال : فاخَرْتَهُ فشال ميزانه : أى فَخَرْتَهُ بِأَبَائِهِ وَغَلَبْتَهُ ، وقال بعض شعراء أَصْفَهَانَ :

تَبَجَّحَ بِالْكِتَابَةِ كُلُّ وَغْدٍ فَهُبُّجًا لِلْكِتَابَةِ وَالْعَمَالَةِ
أَرَى الْآبَاءَ نَسَبَتْهُمْ جَمِيعًا إِلَى الْإِبْنَاءِ مِنْ فَرَطِ النَّذَالَةِ

وقالوا في الابن يجارى أباه : العصا من العُصِيَّةِ وَ : هل تَلِدُ الحية إلا حَيَّةً
وقال شاعر :

وإنَّ أَحَقَّ النَّاسِ أَنْ لَا تَلُومَهُ عَلَى الشَّرِّ مَنْ لَمْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ وَالِدُهُ
إِذَا الْمَرْءُ أَلْفَى وَالِدِيَهُ كُلِّيهِمَا عَلَى اللَّؤْمِ فَأَعْدِرُهُ إِذَا خَابَ رَأْدُهُ^(١)

وقالت الخنساء - وقيل لها : مَا دَحَتْ أَخَاكَ حَتَّى هَجَوْتَ أَبَاكَ ؟ فقالت :

جَارَى أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهُمَا يَتَعَاوَرَانِ مُلَاعَةً الْحُضْرِ
حَتَّى إِذَا تَزَّتِ الْقُلُوبُ وَقَدِ لَزَّتْ هُنَاكَ الْعُذْرُ بِالْعُذْرِ
وَعَلَا هُتَافُ النَّاسِ أَتِيَهُمَا قَالَ الْمُجِيبُ هُنَاكَ : لَا أَدْرَى

(١) أصل الرائد : الذى يتقدم القوم يبصر لهم السكلا ومساقط الغيث

بَرَزَتْ صَحِيفَةُ وَجْهِ وَالِدِهِ وَهَضَى عَلَى غُلُوَائِهِ يَجْرِي
أَوَّلَى فَأَوَّلَى أَنْ يَسَاوِيَهُ لَوْلَا جَلَالُ السَّنِّ وَالْكِبَرِ
وَهُمَا وَقَدْ بَرَزَا كَأَنَّهُمَا صَقْرَانِ قَدْ حَطَّأَا إِلَى وَكْرٍ

«قوله: مُلَاءَةُ الْحَضَرِ: فالْحَضَرُ: العدو والجري، وإنما تريد بملاءة الحضر: الغبارَ
وكان عَدِيَّ بنَ الرَّقَاعِ نظر إلى هذا في قوله يصف حماراً وأتانا:
يتعاوران في الغبار مُلَاءَةً بيضاء مُحَدَّثَةً هُما تَسْجَاهَا

ونزت القلوب: يريد طمحت واشترأت لتعرف من السابق، ولُزَّت: قرنت.
والعذر: جمع عذار وهو ماسال من اللجام على خد الفرس، ويروى القدر
بالقدر، والقدر: المنزلة، والكبر: أظنها بضم الكاف بمعنى الأَكْبَرِ أى ولولا
جلال الأَكْبَرِ، ولك أن تقرأها الكبر بكسر الكاف أى الكِبَرِ ولكنه
أسكن الباء ضرورة،

أما الإسلام فقد عدَّ الشرف والحسب إنما هو بالثَّقَى فقال سبحانه: إِنْ
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ، قال بعضهم: ما أبقي الله بهذه الآية لأحد شَرَفَ
أَبُوَّة... ورأى عمر بن الخطاب رجلاً يقول أنا ابنُ بَطْحَاءٍ مَكَّةَ، فوقف
عليه وقال: إِنْ كَانَ لَكَ دِينَ فَلَكَ شَرَفٌ، وَإِنْ كَانَ لَكَ عَقْلٌ فَلَكَ مُرُوءَةٌ.
وإِنْ كَانَ لَكَ عِلْمٌ فَلَكَ شَرَفٌ، وَإِلَّا فَأَنْتَ وَالْحِمَارُ سَوَاءٌ، وقالوا: كَانَ
الشرف في الجاهلية بالبيان والشجاعة والسماحة، وفي الإسلام بالدين والتقى...



وقالوا في الدَّعْوَةِ: أَى ادَّعَاءِ الْوَلَدِ الدَّعِيَّ غَيْرَ أَبِيهِ، أَى اتِّسَابِهِ إِلَى
غَيْرِ أَبِيهِ، وَقَدْ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَتَنَهَى الْإِسْلَامُ عَنْهُ، وَكَانَ سَيِّدُنَا
رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَبَنَّى زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ عَتِيقَ الرَّسُولِ، فَكَانُوا يَقُولُونَ لَهُ: ابْنُ

محمد ، فأمر الله عزّ وجل أن ينسب الناس إلى آبائهم وأن لا ينسبوا إلى من
تبناهم فقال : وما جعل أديعاءكم أبناءكم ذلّكم قولكم بأفواهكم « أى للاحقيقة
له فى الواقع ، والله يقول الحق « أى ماله حقيقة عينية » وهو يهدى
السييل ، آدعوهم لا بانهم هو أقسط عند الله « هو : أى دعوتهم لا بانهم ، وأقسط :
عدل ، ومعناه البالغ فى الصدق ، فإن لم تعدلوا آباءهم فأخوانكم فى الدين
رموا اليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم ، وكان
الله غفورا رحيمًا ...

والأحاديث فى ذلك متوافرة ، فمنها قوله صلوات الله عليه : الولدُ للفراش
وللعاهر الحجرُ ... « يعنى أن الولد لصاحب الفراش ، من السيد أو الزوج ،
وللزاني الخيبة والحرمان ، وهذا كما تقول : مالك عندى شئ غير التراب ،
وما بيدك غير الحجر ، وذهب قوم إلى أنه كنى بالحجر عن الرجم ، قال ابن
الأنثير : وليس كذلك لأنه ليس كلُّ زانٍ يُرجم .. وقالوا فى التعريض بالنسب -
والقاتل أبو نواس :

إذا ذكرتَ عَدِيًّا فى بنى ثَمَلٍ فقدّم الدال قبل العين فى النسب
ودخل ابن مُكْرَم على أبى العيناء - صاحب الزوادر والمجون وكان ضريرا -
ليُهَنِّيَهُ بآبنِ وُلْدِهِ ، فوضع عنده حجرا ، فلما خرج أخبرَ أبو العيناء ،
فقال : لعن الله هذا ، أما تعلمون ماذا عَنَى ؟ إنما أراد قول رسول الله :
'الولد للفراش وللعاهر الحجر' ...

ولقى رجل رجلا فقال له : بمن أنت ؟ قال : قُرْشَى والحمد لله ، فقال :
لحمد لله فى هذا الموضع ريبة ... وقال زياد بن أبيه - وهو ابن أبي سفيان لربيّة -
لم جل : يادَعِيّ ، فقال : الدَّعوة قد تَشَرَّفَ بها المدعى على ، فكيف عَيَّرَ بها !

وفي قولهم فيمن لا يشبه والدیه وذویه خَلَقَةً :

أَلَوَانُهُمْ إِلَيْكَ عَنْ أَنْسَابِهِمْ مُعْتَذِرُهُ

وكان بأَصْبَهَانَ رجل مجنون يعرف بابن المستهام ، فقيل لأحمد بن عبد العزيز : إنه مليح ذو نوادر ، فاستحضره ، فلما تأمله قال - أي المجنون - :

في اختلاف الوجوه من آلِ عَجَلٍ لَدَلِيلٌ على فسادِ النساءِ
فأراد أحمد أن يبيّطش به ، ثم كفَّ عنه مخافة أن يتحدث الناس بذلك ...
ومن طريف ما قالوا أيضا في التعريض بالرجل أن ابنه من زنيّة ، ما يروى
أنه قيل لرجل : إن امرأة فلان ولدت بعد الزفاف بِخَمْسَةِ أَشْهُرٍ فقال : إنه
بَنَى جَدَارَهُ على أَسَسٍ غَيْرِهِ ...

وخاصم ذو الرمة رجلا من ولد زياد بن أبيه فقال له الزیادی : يادعيّ ،
فأنشد ذو الرمة :

بُئْسَنُ قَالَتْ يَا جَمِيلُ أَرَبْتَنَا قُلْتَ كَلَانَا يَا بَشِيرُ مَرِيبٌ ^(١)

ومما يصح أن يذكر في هذا الباب : كما يصح أن يذكر في كتاب النساء قولهم في أن الولد الذي يَنْسِلُ من الأقارب يخرج ضاويا ضعيفا ، فمن ذلك قوله صلوات الله عليه : « اغْتَرِبُوا لَا تُضَرُّوا » أي تزوجوا الغرائب دون القرائب فإن ولد الغريبة أنجب وأقوى من ولد القرية ، وقد أضوت المرأة إذا ولدت ولدا ضعيفا ، فعنى لا تضروا : لا تأتوا بأولاد ضاوين ، أي ضعفاء نحفاء ، الواحد : ضارٍ ، وكذلك قال صلوات الله عليه : لَا تَنْكِحُوا الْقَرَابَةَ الْقَرِيبَةَ

(١) أَرَبْتَنَا : رأينا منك ما يرينا ونكرهه منك

فإن الولد يُخلَق ضاويًا ... ونظر عمر رضى الله عنه إلى قوم من قريش صغار الأجسام فقال : ما لكم صغرتم ؟ قالوا : قُربُ أمهاتنا من آبائنا ، قال : صدقتم ، اغتربوا لاتضُّوا ... وقال العتيبي : زَوْجُ أهل بيت ، بعضهم فى بعض ، فلما بلغوا البطن الرابع بلغ بهم الضعف إلى أن كانوا يَحْبُون حَبْوًا لا يستطيعون القيام ضعفا ...

الرضاعة

وكذلك نورد هنا قولهم فى الرضاعة : قال رسول الله : يَحْرُمُ من الرضاعة ما يَحْرُمُ من النسب . انظر كتب الفقه ، ونهى رسول الله عن رضاع الحَمَاء وقال : لا تسترضعوا الحَمَاء فإن الولد يَنْزِعُ إلى اللبن ... وقال رجل فى وصف آخر نسبهِ إلى الرعونة : كيف لا يكون أرعن وقد أرضعته فلانة ! والله إنها كانت تَرْقُ الفَرْخَ - أى بفيها - فأرى الرعونة فى طيرانه .. ورووا أن الحسن البصرى رحمه الله عليه كانت أمهُ تَغْشَى أُمَّ سَلَمَةَ زوج سيدنا رسول الله ، فدرت عليه من لبنها ، فورث منه عليه وفصاحته وورعه :

الإحسان

وعقرياتهم فى الجود واصطناع المعروف وقرى الأضياف

وذم البخل والسؤال

وهذا لَوْنُ ثانٍ من ألوان البرِّ هو فى الواقع يَنْظُمُ لَوْنَيْنِ ، فأما أولهما فهو هذا الذى نحن بصددِهِ الآن ، وهو الجود واصطناع المعروف ، وسائر ما يُمْت إلى ذلك بسببِ واصل من قرى الأضياف وذم البخل ، وأما الآخر فهو حُسن الخلق ، وسنفرد له وَصْلاً تراه عقيب هذا .

تحفى الإسلام بالإحسان: وكما أنَّ صَلَاةَ الرَّحْمِ بِعَامَّةٍ، وَبِرَّ الوالدين بِخَاصَّةٍ،
 بما تَحَفَّى به الإسلام كُلَّ التحفَى، حتى قَرَنَهُ بالتوحيد وبالتقوى، ترى هذا الدينَ
 الحنيفَ، لقد تحفى كذلك كُلَّ التحفَى بالإحسانِ إلى مُسْتَحَقِّهِ، وذَمَّ الشُّحَّ ونَعَا،
 على أهلِهِ، وامتدَحَ الجودَ وآوَه به كُلَّ التَّوْبَةِ، حتى قَرَنَ ذَكَرَهُ بالإيمانِ،
 ووصفَ أهلَهُ بالفلاحِ، والفلاحُ اسمُ جامعٌ لسعادة الدارينِ، فقال سبحانه
 وتقدس: أَلَمْ، ذلك الكتاب لا ريبَ فيه هُدًى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب
 ويقيمون الصلاةَ وما رَزَقْنَاهُمْ يُنفقون، والذين يؤمنون بما أنزلَ إليك وما أنزلَ
 مِن قَبْلِكَ وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون..
 وقال فى وصف الأنصار: ويؤثرون على أَنفُسِهِمْ ولو كان بهم خِصَاصَةٌ،
 وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ... «الخصاصة: الفقر، ويرقى:
 يَصَان، وقال عزَّ وجلَّ: مَثَلُ الَّذِينَ ينفقون أَمْوَالَهُمْ فى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
 أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
 وَاسِعٌ عَلِيمٌ، إلى أن قال سبحانه: ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاءَ مرضاة
 اللَّهِ وتثبيتاً من أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ حَبَّةٍ بَرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُوفَهَا ضِعْفَيْنِ...
 الآيات... «قوله سبحانه: كمثل حبة... الآية، فإن ذلك تمثيل لا يقتضى
 وقوعه، والجنة: البستان، والربوة: الموضع المرتفع، وشجره فى العادة يكون
 أحسن منظرًا وأزكى ثمرًا، والوايل: المطر العظيم، وقال: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى
 تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ، وما تَنَفَّقُوا مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يَخْلُفُهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ.
 «والبر ههنا: فهو بِرُّ اللَّهِ، أى خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أى السَّعَادَةُ وَالْفَلَاحُ
 وَالْفُوزُ، أو تقول: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ: أى لَنْ تَنَالُوا حَقِيقَةَ الْبِرِّ حَتَّى تُنْفِقُوا
 مِمَّا تَحِبُّونَ»

قال الراغب في الذريعة : وَحَقُّ لِلْجُودِ أَنْ يُقَرَّنَ بِالْإِيمَانِ ، فَلَا شَيْءَ أَخْصُّ بِهِ ، وَأَشَدُّ مُجَانَسَةً ، مِنْهُ ، إِذْ مِنْ صِفَةِ الْمُؤْمَنِ انْشِرَاحُ الصَّدْرِ : فَمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يُبَشِّرْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُضِلَّهُ يُضَيِّقْ صَدْرَهُ حَتَّى قَدْ حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ وَهَذَا مِنْ صِفَاتِ الْجَوَادِ وَالْبَخِيلِ ، لِأَنَّ الْجَوَادَ يُوَصَّفُ بِسَعَةِ الصَّدْرِ لِلْإِنْفَاقِ ، وَالْبَخِيلَ يُوَصَّفُ بِضَيِّقِ الصَّدْرِ لِلْإِمْسَاكِ

الناس مجبولون على البخل

« وأما بعد » فَإِنَّ أَكْثَرَ هَذَا النَّاسِ لَقَدْ جُعِلُوا عَلَى الْبُخْلِ ، فَالْبُخْلُ هُوَ الْأَصْلُ ، وَلِأَنَّمَا الْجُودُ فِي سَائِرِ أَوَانِهِ ، تَكَلُّفٌ وَتَعَمُّلٌ وَحَمْلٌ لِلنَّفْسِ عَلَى مَكْرُوهِهَا وَعَلَى غَيْرِ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ ، وَقَدْ قِيلَ لِحَاتِمِ الطَّائِي الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْجُودِ : كَيْفَ تَجِدُ الْجُودَ فِي قَلْبِكَ ؟ فَقَالَ : إِنِّي لَا جِدُهُ ، كَمَا يَجِدُهُ النَّاسُ ، وَلَكِنِّي أَحْمِلُ نَفْسِي عَلَى خُطْطِ الْكَرَامِ (١) ، وَقَالَ بَعْضُ الْأَجْوَادِ : إِنَّا لَنَجِدُ كَمَا يَجِدُ الْبَخْلَاءُ وَلَكِنَّا نَصْبِرُ وَلَا يَصْبِرُونَ وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ الْبَحْتَرِيُّ : وَأَشَقُّ الْأَفْعَالِ أَنْ تَهَبَ الْأَنْفُسُ مَا أَعْيَقَتْ عَلَيْهِ إِلَّا كُفٌّ وَيَقُولُ أَبُو يَعْقُوبَ الْخَرَّيْمِيُّ :

وَدُونَ النَّدَى فِي كُلِّ قَلْبٍ ثَلِيَّةٌ بِهَا مَصْعَدُ حَزْنٍ وَمُنْحَدَرُ سَهْلٍ (٢)
ويقول أبو العتاهية :

إِطْرَحْ بِطَرَفِكَ حَيْثُ شُدَّ حِمْلُكَ فَلَنْ تَرَى إِلَّا بِخِيلًا
ويقول ابن نباتة السعدي :

(١) الخطط: جمع الخططة ، وهي الحال والامر والخطب

(٢) الثنية : المكان المرتفع الصعب المطمع ، أى أن الكرم شاق على النفس

كيف السبيلُ إلى الغنى والبخلُ في الناسِ فظنه
وأكثرُ من يتسَخَّى ويَجُودُ فإِثْمًا يَجُودُ رَغْبًا أَوْ رَهْبًا - رَغْبًا فِي عَاجِلِ
الْجَزَاءِ * كَمُلُقَى الْحَبِّ لِلطَّيْرِ لِيَصِيدَ بِهِ لَا لِيَنْفَعَهُ *
وَمَنْ يَظُنُّ نَشْرَ الْحَبِّ جُودًا وَيَنْصُبُ تَحْتَ مَا نَشَرَ الشِّبَاكَ ^(١)
وَرَهْبًا مِنْ عَابٍ يَلْتَصِقُ بِهِ أَوْ مَكْرُوهٍ يُصِيبُهُ :

مِثْلُ الْحِمَارِ الْمَوْقِعِ الظَّهْرَ لَا يُعْطِيكَ شَيْئًا إِلَّا إِذَا رَهَبَا ^(٢)
وَهَنَّاكَ صِنْفٌ مِنَ النَّاسِ يُعْطَى وَيَمْنَعُ لَا يُبْخَلُّ وَلَا كَرَمًا ، وَإِنَّمَا يَكُونُ
ذَلِكَ تَهَوُّرًا وَانْدِفَاعًا مِنْهُ مَعَ نَزْوَةٍ مِنْ نَزَوَاتِ الْفُوسِ ، كَمَا قَالَ الْأَدِيبُ
أَبُو بَكْرِ الْخَوَارِزْمِيُّ فِي الْوَزِيرِ الصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ :

لَا تَحْمَدَنَّ ابْنَ عَبَّادٍ وَإِنْ هَطَلَتْ يَدَاهُ بِالْجُودِ حَتَّى أَنْجَلَ الدِّيمَاءَ
فَانْهَا خَطَرَاتٍ مِنْ وَسَاوِسِهِ يُعْطَى وَيَمْنَعُ لَا يُبْخَلُّ وَلَا كَرَمًا
وَقَلَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَجُودُ اسْتِجَابَةً لِفَطْرَتِهِ ، وَلِدَاعِي الضَّمِيرِ ، كَمَا يَقُولُونَ ،
فَلْيَنْتَظِرْ هَذَا ، وَلْيَتَلَقَّ ذَلِكَ أَنَّ الْبُخْلَ رَذِيلَةٌ تَسْتَتِيعُ رَذَائِلَ ، وَنَاهِيكَ
بِالْجِبْنِ رَذِيلَةٌ ، هِيَ أَلْزَمُ الرَّذَائِلِ لِلْبُخْلِ : كَمَا أَنَّ الْجُودَ فَضِيلَةٌ تَسْتَتِيعُ فَضَائِلَ ،
وَحَسْبُكَ بِالشَّجَاعَةِ فَضِيلَةٌ هِيَ أَخْصُ الْفَضَائِلِ بِالْجُودِ :

(١) للبتني ، وقوله ومن يظن : عطف على كل نفس في البيت قبله وهو :

وَأَمَّا فِدَاكَ كُلِّ نَفْسٍ وَإِنْ كَانَتْ لِمَمْلُوكَةٍ مَلَاكَ

يقول : المملوك يجودون لطلب العوض كما نثر الصائد حبا تحت الشبكة ، ولا يعتد
ذلك جوداً لأنه إنما نثر لآخذ الصيد الذي هو خير من الحب

(٢) للحكم بن عبد الأسد ، والموقع الظهر : الذي يظهره آثار الدبراكثرة ما حمل
عليه وركب ، فهو ذلول .

ذَرِينِي فَإِنَّ الشَّحَّ يَا أُمَّ هَيْتَمَ - إِصْلَاحَ أَخْلَاقِ الرِّجَالِ سَرُوقٌ^(١)

وإذا اختبرت علمت غير مُدَا فِعِرْ أَنْ السَّامِحَ سَجِيَّةُ الْإِبْطَالِ
وقال أبو تمام في ذلك - من أبيات يمدح بها خالد بن يزيد الشيباني :
وإذا رأيت أبا يزيد في نَدَى وَوَعَى وَمِيدَى غَارَةٍ وَمُعِيدَا
يَقْرِى مُرَجِيهَ مُشَاشَةً مَالِهِ وَشَبَا الْأَسِنَّةِ نُفْرَةً وَوَرِيدَا
أَيَقُنْتَ أَنَّ مِنَ السَّامِحِ شَجَاعَةً تُدْمِي وَأَنَّ مِنَ الشَّجَاعَةِ جُودَا^(٢)
وقال المتنبي :

هو الشجاع يَعْدُ الْبُخْلَ مِنْ جُبْنٍ وَهُوَ الْجَوَادُ يَعْدُ الْجُبْنَ مِنْ بُخْلٍ
وقد عدوا الشجاعة لونا من الجود فقال مسلم بن الوليد :
يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ الْبَخِيلُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

(١) من أبيات جميلة نبيلة لعمر بن الازهر، وبعد البيت :

ذَرِينِي وَحُطِّي فِي هَوَايَ فَإِنِّي عَلَى الْحَسَبِ الْعَالِي الرَّفِيعِ شَفِيقٌ
وَمُسْتَمْنَحٌ بَعْدَ الْهَدُوءِ دَعْوَتُهُ وَقَدْ كَانَ مِنْ سَارِي الشَّتَاءِ طُرُوقٌ
فَقُلْتُ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذَا مَيْتٌ صَالِحٌ وَصَدِيقٌ
أَصْفَتْ فَلَمْ أَفِحْشْ عَلَيْهِ وَلَمْ أَقُلْ لِأَحْرَمَةٍ إِنَّ الْفِئَاءَ مَضِيقٌ
لَعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلَادٌ بِأَهْلِهَا وَلَكِنْ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ تَضِيقُ

(٢) الوغى : الحرب ، وقرى الضيف يقربه قرى : أضافه وأحسن اليه ، والمشاشة واحدة المشاس وهو رأس العظم الذى يمكن مضغه ، يقول : انه يطعم المجتدى ماله حتى انه ليسش العظم وهذه مبالغة في أنه يمكن المجتدى من ماله . والشبا : جمع شباة ، وشباة كل شيء : حده ، والثغرة : نقرة البحر

ولأجل هذين الملاحظين ، تظاهرت الآياتُ والأحاديثُ وما أثر عن
الأوائل من العلماء والحكماء والشعراء والربّانيين ، على ذمّ البخل وامتداح الجود
والإحسان ، وأكثروا وأفثتوا وأبدعوا ، الأمرُ الذي يدلُّ على أنهم قدروا
أثر الجودِ والبخل في الخلق حقَّ قدره ، وأنهم لذلك شنّوا هذه الغارة الشّعواء
على الإنسانِ الانانيِّ الكزّ الشحيحِ الكاين في نفس كلِّ إنسان ...

عقرياتهم في مدح الجود وذم البخل

ولنأخذ الآن في عقرياتهم في ذم البخل ومدح الجود والإحسان واصطناع
المعروف ، والكلام في هذه المعاني يدخلُ بعضه في بعض ... كتب رجلٌ من البخلاء
إلى رجلٍ من الأسخياء يُخَوِّفُهُ الفقرَ ، فأجابه : الشيطانُ يَعِدُكُمْ الفقرَ ويأمرُكم
بالفحشاء واللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً منه وفضلاً ... وإنى أكرهُ أن أتُركَ أمراً قد
وقع لِأمرٍ لَعَلَّهُ لَا يَقَعُ . ويقول سبحانه : إِنَّ الشَّيْطَانَ يَعِدُ النَّاسَ الْفَقْرَ
فِي الْإِنْفَاقِ ، أَى يقول لهم : إن عاقبة إنفاقكم أَنْ تَفْتَقِرُوا - والوعدُ كما
يُسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ يستعمل في الشَّرِّ - ويأمرُكم بالفحشاء ، أَى يغريكم بالبخلِ
ومنع الصدقات إغراءً للأمور ، فالفحشاءُ هنا : البخلُ ، والفاحشُ
عند العرب : البخيل ، قال طرفةُ بن العبد في مُعَلَّقَتِهِ :

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي

عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمَتَشَدِّدِ ^(١)

ثم قال سبحانه : والله يَعِدُكُمْ فِي الْإِنْفَاقِ مَغْفِرَةً لِّذُنُوبِكُمْ وكفارة لها ، وأن

(١) يعتام : يخنار ، والعقائل : كرائم الأموال والنساء ، الواحدة عقيلة ، والفاحش
البخيل ، يقول طرفة : إن المات لا يبقى على الأجواد والبخلاء فيصطنع الكرام وكرائم
أموال البخلاء فلا يجدى البخل على صاحبه ، فالجود أحرى لأنه أحمد .

يُخْلِفَ عَلَيْكُمْ أَفْضَلَ مِمَّا أَنْفَقْتُمْ» وقيل لإبليس : مَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيْكَ ؟ فقال : عَابِدُ بُخَيْلٍ ... قيل : فَمَنْ أَبْغَضُ النَّاسَ إِلَيْكَ ؟ قال : فَاسِقُ سَخِيٍّ ، فَإِنْ سَخَاةً يُنْجِيهِ ... أفرأيتَ ! أليس هذا الكلامُ تمثيلاً جليلاً لِحَالِي الْبُخِيلِ وَالْجَوَادِ ! حتّى إنهم فضّلوا الفاسق السخّيّ على العابد البخيل ، وأحسنُ منهما جميعاً لعمرى : العابدُ الكريمُ ، وإنّما كان العابدُ البخيلُ مفضولاً ، لأنّ العبادةَ الحقّ لا تجتمع والبُخلُ ... وقال بعضهم لآخر : إنك متلافٍ ، فقال : مَنْعُ الْجُودِ سُوءُ ظَنٍّ بِالْمَعْبُودِ ، قال تعالى : وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . ومن هذا قول بعض الحكماء : عليكم بأهل السخاء والشجاعة فإنهم أهلُ حُسْنِ ظَنٍّ بِاللّهِ ، ولو أنّ أهلَ البُخْلِ لم يَدْخُلْ عليهم من ضَرٍّ يُخْلِهِمْ ، ومَذَمَّةٍ النَّاسَ لَهُمْ ، وإطباقِ القلوب على بُغْضِهِمْ ، إلّا سوءُ ظَنِّهِمْ بربهم فى الحَلْفِ - أى العوض - لكان عظيماً ، وفى هذا المعنى يقول محمود الوراق :

مَنْ ظَنَّ بِاللّهِ خَيْرًا جَادَ مُبْتَدئًا وَالْبُخْلُ مِنْ سُوءِ ظَنِّ الْمَرْءِ بِاللّهِ
وورد فى الحديث : خَصَلَتَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فى مؤمن : الْبُخْلُ وَالْكِبَرُ
وقال بعضهم فى هذا المعنى :

أَنَاسٌ تَأْتَهُونَ لَهُمْ رُؤَاؤُهُ تَفِيمُ سَمَاوُهُمْ مِنْ غَيْرِ وَبَلٍ ^(١)
ومن أمثالهم فى ذلك : رَبُّ صَلَفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ ... « الراعدة : السحابة ذات الرعد ، والصلف قلة الخير ، وهذا المثل يضرب للبخيل مع الوُجْدِ والسعة ، ولأنّ اللغة كلام كثير فى هذا المثل رَاجِعُهُ فى مادة « صلف » بلسان

(١) تَأْتَهُونَ : من التيه وهو الزهو والكبر ، والرواء : حسن المنظر ، والوبل : المطر العظيم

العرب ... ومن قولهم في البَحِيل لا يُرْجَى خَيْرُهُ ولا يَمِضُ حَبْرُهُ :
يُعالِجُ نَفْسًا بَيْنَ جَنْبَيْهِ كَرْزَةً إِذَا هُمْ بِالْمَعْرُوفِ قَالَتْ لَهُ مَهْلًا
ومن المستطرف من كُنَايَاتِهِمْ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَا رَوَى : أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ
لِزَوْجِهَا : وَاللَّهِ مَا يُقِيمُ الْفَارُ فِي دَارِكَ إِلَّا لِحَبِّ الْوَطَنِ ... وَقَالَ رَجُلٌ : إِنِّي
أَقْصِدُ فَلَانًا رَاجِيًا نَدَاهُ ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ :
وَتَرْجُو النَّدَى مِنْ إِنْاءٍ قَلْنَا ارْتَشَحَا

كَالْمُسْتَذِيبِ لِشَحْمِ الْكَلْبِ مِنْ ذَنْبِهِ
وقال ابن الرومي - وهو من مُقَدِّعَةِ الْمُضْحِكَةِ - :

يُقْتَرُّ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ بِيَاقٍ وَلَا خَالِدٍ
وَلَوْ يَسْتَطِيعُ لِنَقْتِيرِهِ تَنْفَسُ مِنْ مَنْخَرٍ وَاحِدٍ
« الْمَنْخَرُ : ثَقْبُ الْأَنْفِ ، وَقَالَ آخَرُ :

يُحِبُّ الْمَدِيحَ أَبُو خَالِدٍ وَيَفْزَعُ مِنْ صَلَةِ الْمَادِحِ
كَبَكْرٍ تَوَدُّ لَذِيذَ النِّكَاحِ وَتَهْلَعُ مِنْ صَوْلَةِ النَّاكِحِ
وقال الْبُخْتَرِيُّ - وهو معنى بديع - :

جِدَّةٌ يَذُودُ الْبُخْلُ عَنْ أَطْرَافِهَا كَالْبَحْرِ يَدْفَعُ مَاحُهُ عَنْ مَائِهِ ^(١)
وقال بشار :

إِذَا جِشَّتْهُ فِي حَاجَةٍ سَدَّ بَابَهُ فَلَمْ تَلْقَهُ إِلَّا وَأَنْتَ تَكْمِنُ
إِذَا سَلَّمَ الْمَسْكِينُ طَارُ فَوَادُهُ مَخَافَةَ سُؤْلِ وَاعْتِرَافِ جُنُونِ

(١) الجدة : الغنى ، ويذود : يدفع

وقال ابن الرومي . وهو كذلك من هجائه المضحك :

تَجَنَّبَ سُلَيْمَانُ قُفْلَ الذِّدَى فَقَدْ يَدُوسُ النَّاسُ مِنْ فُتْحِهِ
وَلَوْ كَانَ يَمْلِكُ أَمْرًا نَسِيَهُ لَمَا طَمِعَ الْحَشُّ فِي سَلِيحِهِ

« الْحَشُّ : المستراح - موضع قضاء الحاجة - والسلح : النجس - الغائط - »

وقال ابن الرومي أيضا - وهو معنى بديع - وإن كان من بابة غير هذه البابة :

وَإِذَا أَمْرٌ مَدَحَ أَمْرًا لِنَوَالِهِ وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَرَادَ هِجَاءَهُ
لَوْ لَمْ يُتَقَدَّرْ فِيهِ بَعْدَ الْمُسْتَقَى عِنْدَ الْوُرُودِ لَمَا أَطَالَ رِشَاءَهُ

« الرشاء : جبل الدلو » وقالوا : من لم يأت الخير صغيرا لم يأت كبيراً ، وفي ذلك يقول المعلوط السعدي - وهو شاعر إسلامي - :

إِذَا الْمَرْءُ أَغْيَبَتْهُ الْمَرْوَةُ نَاشِئًا فَطَلَبُهَا كَهَلًا عَلَيْهِ شَدِيدُ^(١)

. وقالوا في البخيل كلما ازداد ثراء ازداد بخلاً وكرازة ، والفائل ابن الرومي -

والبيتان من أوابده وتوليداته البديعة :

إِذَا عَمَرَ الْمَالُ الْبَخِيلَ وَجَدَّتْهُ يَزِيدُ بِهِ يُبْسًا وَإِنْ ظَنَّ يَرْطُبُ
وَلَيْسَ عَجِيبًا ذَاكَ مِنْهُ فَإِنَّهُ إِذَا عَمَرَ الْمَاءَ الْحِجَارَةَ تَصْلُبُ
وقال :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ يُهْلِكُ أَهْلَهُ إِذَا جَمَّ آتِيهِ وَسَدَّ طَرِيقَهُ

(١) من أبيات جميلة يقول فيها :

مَتَى مَا يَرَى النَّاسُ الْغَنَى وَجَارُهُ فَقَرِيرٌ يَقُولُوا عَاجِزٌ وَجَلِيلُ
وَلَيْسَ الْغَنَى وَالْفَقْرُ مِنْ حِيلَةِ الْفَتَى وَلَكِنْ أَحَاطَ قَسَمَتْ وَجُدُودُ
فَكَمْ قَدَرْنَا مِنْ غَنَى مُذَمَّمٍ وَصُغْلُوكِ قَوْمٍ مَاتَ وَهُوَ حَمِيدُ
إِذَا الْمَرْءُ البيت

وَمَنْ جَاوَزَ الْمَاءَ الْغَزِيرَ جَمَّهُ وَسَدَّ سَبِيلُ الْمَاءِ فَهُوَ غَرِيقُهُ

وقال :

الْمَالُ يُكْسِبُ رَبَّهُ - مَا لَمْ يَفِضْ فِي الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ - سُوءُ ثَنَاءٍ

كَلِمَاءٍ تَأْسُنُ بَشْرَهُ إِلَّا إِذَا حَبَطَ السَّقَاةُ جَمَامَهُ بِدَلَاءٍ

« تأسن : تنغير ، وخبطة : ضربه ، والجمام : بتثايت الجيم : معظم الشيء »

عقرياتهم في الجود واصطناع المعروف

ولندع البُخلَ والبخلَاءَ لحظةً وننتقل إلى عقرياتهم في الجود والإحسان واصطناع المعروف : جاء في كلية ودمته : إن أحسنَ الناسَ عَيْشاً من حُسْنِ عَيْشِ الناسِ في عَيْشِهِ ، وإن من أَلَذِّ اللَّذَّةِ الإِفْضَالَ عَلَى الإِخْوَانِ ، وفي الحديث : ليس لك من مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَنْفَيْتَ ، أَوْ لَيْسَتْ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ أُعْطِيتَ فَأَمْضَيْتَ ، وما سوى ذلك فهو مِلْكُ الْوَارِثِ وقال شاعرهم :

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَمْسَكَتَهُ فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَاَلْمَالُ لَكَ

وقال سعيد بن العاص من خطبة له : مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً فَلْيُنْفِقْ مِنْهُ سِرّاً وَجَهراً حَتَّى يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يُتْرَكُ لِأَحَدِ رَجُلَيْنِ : إِمَّا مُصْلِحٍ ، فَلَا يَقْلُ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَإِمَّا مُفْسِدٍ فَلَا يَبْقَى لَهُ شَيْءٌ ... فقال معاوية : جَمَعَ أَبُو عِثْمَانَ طَرَفَيْ الْكَلَامِ ...

وقال الأحنف بن قيس : مَا شَأْنُكُمْ رَجُلًا مُذْ كُنْتُ رَجُلًا ، وَلَا زَحَمْتُ رُكْبَتَيْ رُكْبَتَيْهِ ، وَإِذَا لَمْ أَصِلْ مُجْتَدِيَّ حَتَّى يَنْتَسِحَ جَبِينُهُ عَرَفًا كَمَا يَنْتَسِحُ الْحِمِيْتُ ، فَوَاللَّهِ مَا وَصَلْتُهُ ... « قوله : مجتدى : يريد . الذي يأتيه يطلب ماله يقال : اجتداه يجتديه واعتفاه يعتفيه واعتراه يعتريه واعتثره يعتثره وعراه

يَعْرُوهُ ، : إِذَا قَصَدَهُ يَتَعَرَّضُ لِنَائِلِهِ . وَيَنْتَهِجُ كَيْضَرِبُ : يَرْشَحُ ، وَالْحَمِيْتُ :
وعاء السمن . يقول الأحنف : لِمَنَ لَا يُحَوِّجُ سَائِلَهُ إِلَى أَنْ يَتَرَشَّحَ جَبِينَهُ
عَرَقًا ، لِمَبَادِرَتِهِ بِإِعْطَائِهِ ، وَقَالَ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ لِرِزْدَانَ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ
الْعَاصِ : مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا تَلَذُّهُ ؟ قَالَ : الْعَرِيضُ الطَّوِيلُ ، قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ :
أَنْ أَتَى أَخًا قَدْ نَكَبَهُ الدَّهْرُ فَأَجْبُرَهُ ، قَالَ : نَحْنُ أَحَقُّ بِهَذَا مِنْكَ . . . قَالَ :
إِنَّ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْكَ مَنْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ . . . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ثَلَاثَةٌ لَا أَكَاثِمُهُمْ :
رَجُلٌ بَدَأَنِي بِالسَّلَامِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ لِي فِي الْمَجْلِسِ ، وَرَجُلٌ اغْتَبَرَتْ قَدَمَاهُ
فِي الْمَشْيِ إِلَى إِزَادَةِ التَّسْلِيمِ عَلَيَّ ؟ فَأَمَّا الرَّابِعُ فَلَا يَكَاثِمُهُ عَنِّي إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ،
قِيلَ : وَمَنْ هُوَ ؟ قَالَ : رَجُلٌ نَزَلَ بِهِ أَمْرٌ فَبَاتَ لَيْلَتَهُ يَفْسِكُرُ بَيْنَ يُنْزِلُهُ ، ثُمَّ
رَأَى أَهْلًا لِحَاجَتِهِ فَأَنْزَلَهَا بِي . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا : لَا يُزْهَدَنَّكَ فِي
الْمَعْرُوفِ كَفْرٌ مِنْ كَفَرِهِ ، فَإِنَّهُ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لَمْ تَصْطَنِعْهُ إِلَيْهِ : « كَفَرُ
مِنْ كَفَرِهِ » : يَرِيدُ : كَفَرُ النِّعْمَةِ ، أَيْ عَدَمُ شُكْرِهَا ، وَقَوْلُهُ : مَنْ لَمْ تَصْطَنِعْهُ إِلَيْهِ
يَرِيدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

وَأُنَشِدُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُمُفَرٍ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، أَحَدُ الْأَجْوَادِ فِي الْإِسْلَامِ
قَوْلَ الشَّاعِرِ :

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمَضْنَعِ .^(١)

فَقَالَ : هَذَا رَجُلٌ يَرِيدُ أَنْ يُبْخَلَ النَّاسُ ، أَمْ طَرِ الْمَعْرُوفِ مَطَرًا فَإِنْ
صَادَفَ مَوْضِعًا فَهُوَ الَّذِي قَصَدَتْ لَهُ ، وَإِلَّا كُنْتَ أَحَقَّ بِهِ

« وَبَعْدَ » فَهَنَّاكَ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَمَا تَرَى مَذْهَبَانِ ، فَذَهَبَ يَرَى إِعْطَاءَ

(١) الصَّنِيعَةُ : مَا أَسْدَبَتْ مِنَ الْمَعْرُوفِ ، وَبَعْدَ هَذَا الْبَيْتِ :

فَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً فَانْعَمِ بِهَا لِلَّهِ أَوْ لِدَوَى الْقَرَائِبِ أَوْ دَعِ

المستحق وغير المستحق ، الكريم ، اللئيم ، الشاكر ، والكافر : ويةقول
هذا المذهب - والقائل الشاعر محمود الوراق :

فإمّا كريمٌ صُنْتُ بالجودِ عِرْضَهُ وإمّا لئيمٌ صُنْتُ عن أَوْمِهِ عِرْضِي
وقال بعضهم : لأنْ أُخْطِئَ باذلاً ، أَحْبَبْتُ إِلَىَّ مَنْ أَنْ أُصِيبَ مانعاً ، باذلاً
ومانعاً : حالان من فاعل أُخْطِئَ وأُصِيبَ «

ومذهب آخر يرى حرمانَ اللئيمِ وَمَنْ يُسْتَخْزَرُ بِإِعْطَائِهِ ، قال قائلهم :
انْقُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ وَاللَّئِيمِ إِذَا شَبِعَ . وقالوا : اللئيمُ يَزْدَادُ بِالْعُرْفِ
خَبَالًا ، كما يزداد المريض من كثرة الطعام وبالا ، « خبالا : فسادا ،
وقال شاعر :

* ليس في مَنَعٍ غَيْرِ ذِي الْحَقِّ بُخْلُ *

وقال الآخر :

وَمَنْ يَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ مَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ

يُلَاقِي كَمَا لَاقَى مُجِيرُ أُمِّ عَامِرٍ ^(١)

(١) أم عامر : الضبع ، وكان من حديث هذا المثل أن قوما خرجوا إلى الصيد
في يوم حار ، فبينما هم كذلك إذ عرضت لهم أم عامر ، وهي الضبع ، فطردوها - أي
حاولوا صيدها - فألعبتهم حتى ألجأوها إلى خباء أعرابي فافتجمت ، فخرج إليهم
الأعرابي فقال : ما شأنكم ؟ فقالوا : صيدنا وطريدتنا . قال : كلا ، والذي نفسي بيده
لا تصلون إليها مائت سيفي بيدي . فرجعوا وتركوه ، فقام إلى لفحة - « اللفحة :
الناقة الحلوب الغزيرة اللبن ، فخلبها وقرب إليها ماء ، فأقبلت مرة تلغ من هذا ومرة
تلغ من هذا حتى عاشت واستراحت ، فبينما الأعرابي نائم في جوف بيته إذ وثبت عليه
فبقرت بطنه وشربت دمه وأكلت حشوته - أمعاه - وتركته فجاء ابن عم له فوجده
على تلك الصورة فالتفت إلى موضع الضبع فلم يرها فقال : صاحبتى والله ، وأخذ سيفه
في كنانته واتبعها فلم يزل حتى أدركها فقتلها وأنشد البيت

وأخيرا قالوا - والقائل أبو العتاهية :-

إذا المال لم يُوجِبْ عليك عطاءه صنيعة تقوى أو خليل مُخالِفُه

منعتَ وبعض المنع حزمٌ وقوة ولم يبتذلْ المالَ إلا حقائقُه^(١)

وقال الحسنُ والحُسَيْنُ رضوان الله عليهما لعبد الله بن جعفر : إنك قد

أسرَفْتَ في بذلِ المالِ ! قال : بأبي أيتها ، إن الله عَوَّدَنِي أَنْ يُفْضَلَ عَلَيَّ ،

وعودته أن أفضَلَ على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة ، فيقطع عني ...

ومرَّ يزيدُ بنُ المهَلَّبِ بأعرابية ، في خروجه من بين عمر بن عبد العزيز^(٢) ،

يريد البصرة ، فقرأته عَنَزاً فقَبِلَها ، وقال لابنه معاوية : مامعك من النفقة ؟

فقال : ثمانمائة دينار ، قال : فادفعها إليها ، فقال له ابنه : إنك تريد الرجال ،

ولا يكون الرجال إلا بالمال ، وهذه بُرْضيها اليسير ، وهي بعدُ لا تعرفُكَ ،

فقال له : إن كانت تَرْضَى باليسير فأنا لا أرضى إلا بالكثير ، وإن كانت

لا تعرفني ، فأنا أعْرِفُ نفسي ، اذْفَعْها إليها ...

وأورد المبرِّدُ في الكامل ما يأتى : وأشرف عمرُ بنُ هُبيرةَ الفَزَارِيُّ - وإلى

العراقين يزيد بن عبد الملك - من قصره بالكوفة يوماً ، فإذا هو بأعرابيٍّ

(١) حقائقه : جمع حقيقة : ما يحق عليك أن تحميه

(٢) وذلك سنة ١٠١ للهجرة ، وكان عمر بن عبد العزيز أخذه بعدة وعدما

سليمان بن عبد الملك ، وذلك أن يزيد كان عامله على حراسان ، فانتح جرجان

وطبرستان ، ثم بشره بفتحهما في كتاب أرسله إليه يقول فيه : وقد صار عندى من

خمس ما أقام الله على المسلمين بعد أن صار لكل ذى حق حقه في النى والغنيمة ستة

آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله ... ثم مات سليمان

وولى الخلافة عمر ، فسأل يزيد ، فتلک فأمر بسجنه ، ثم هرب لما بلغه شدة مرض

عمر الذى مات به مخافة من يزيد بن عبد الملك الخليفة بعده لما كان بينهما من التباغض

يُرْقَصُ جَمَلَهُ الْآلُ^(١) فقال : لحاجبه : إن أرادني هذا فأوصله إليّ ، فلما دنا الأعرابي سألّه ، فقال : قصدت الأمير ، فأدخله إليه ، فلما مثل بين يديه قال له عمر : ما خطبك ؟ فقال الأعرابي :

أَصْلَحَكَ اللَّهُ قُلَّ مَا بِيَدِي فَمَا أَطِيقُ الْغِيَالِ إِذْ كَثُرُوا
أَلَحَّ دَهْرٌ أَنَحَى بِكُلِّكِلِهِ^(٢) فَأَرْسَلُونِي إِلَيْكَ وَانْتَظَرُوا
رَجُوكَ لِلدَّهْرِ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ غَيْثَ سَحَابٍ إِنْ خَانَهُمْ مَطَرُ
فَأَخَذْتُ عَمَرَ الْأَرْبَحِيَّةَ ، فجعل يَهْتَرُ في مجلسه ، ثم قال : أرسلك إليّ وانتظروا الإذن والله لا تجلس حتى ترجع إليهم غانماً وأمر له بألف دينار ، وَرَدَّه على بعيره ... قال المبرد : وَحُدِّثُ أَنْ الْخَبَرَ لِمَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ . أقول : وقد أورده ابن خلكان منسوبا لمعن .



وهذا معن بن زائدة هو الآخر له في المكارم عُزْرٌ وأوضاع ، وهو أشهر في باب الأربحية والجود والإقدام والحلم من أن يُتَوَّه به ، ودو معن بن زائدة الشيباني ، كان في أيام بني أمية مُتَنَقِّلاً في الولايات ، ومنقطعا إلى يزيد ابن عمر بن هُبَيْرَةَ وإلى العراقيين ، فلما أدال من بني أمية بنو العباس ، وجرى بين أبي جعفر المنصور وبين يزيد بن عمر المذكور ماجرى ، أبلى يومئذ معنٌ مع يزيدَ بلاءً حسناً ، فلما قُتِلَ يزيد خاف معن من أبي جعفر المنصور ، فاستتر عنه مدة وجرى له مُدَّةٌ استتارِهِ غرائب ، وهنا يحدثنا شاعره الفحلُ مَرْوَانُ بْنُ حَفْصَةَ بحديث طريف من هذه الغرائب . قال :

(١) الْآلُ : ما تراه في الضحى كالماء بين السماء والأرض ، ويرقصه : يحمله على الرقص ، وهو نوع من السير كالخبب

(٢) أَنَحَى : اعتمد ومال ، والكلكل : الصدر ، استعاره لوطاة الدهر وثقله

أخبرني معنٌ وهو يومئذ مُتَوَلَّى بِلَادِ الْيَمَنِ : أَنَّ الْمَنْصُورَ جَدَّ فِي طَلْبِي ، وَجَعَلَ
لِمَنْ يَحْمِيْنِي إِلَيْهِ مَالًا ، قَالَ مَعْنٌ : فَاضْطَرَرْتُ لِإِلْحَاحِهِ فِي الطَّلَبِ إِلَى أَنْ
تَعَرَّضْتُ لِلشَّمْسِ حَتَّى لَوَّحَتْ وَجْهِي ، وَلَبِثْتُ جُبَّةً صُوفٍ ، وَرَكِبْتُ بُجْمَلًا
وَخَرَجْتُ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْبَادِيَةِ لِأَقِيمَ بِهَا ، فَلَمَّا خَرَجْتُُ مِنْ بَابِ حَرْبٍ -
أَحَدِ أَبْوَابِ بَغْدَادَ - تَبِعَنِي أَسْوَدٌ مُتَقَلِّدٌ سَيْفًا حَتَّى إِذَا غَبَّتْ عَنِ الْحَرَسِ ،
قَبِضَ عَلَى خِطَامِ الْجَمَلِ ، فَأَنَاحَهُ ، وَقَبِضَ عَلَى يَدِي ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا بَكَ ؟ قَالَ :
أَنْتَ طَلِيبَةٌ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قُلْتُ : وَمَنْ أَنَا حَتَّى أَطْلُبَ ؟ قَالَ : أَنْتَ مَعْنُ بْنُ
زَائِدَةَ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا هَذَا ، اتَّقِ اللَّهَ عِزَّ وَجَلَّ ، وَأَيُّنَ أَنَا مِنْ مَعْنٍ ؟ فَقَالَ :
دَعْ هَذَا ، فَإِنِّي - وَاللَّهِ - لَا أَعْرِفُ بِكَ مِنْكَ ، فَلَمَّا رَأَيْتَ مِنْهُ الْجِدَّةَ قُلْتُ لَهُ : هَذَا
عِقْدُ جَوْهَرٍ قَدْ حَمَلْتُهُ مَعِيَ بِأَضْعَافِ مَا جَمَلَهُ الْمَنْصُورُ لِمَنْ يَحْيِيهِ بِي ، فَخُذْهُ
وَلَا تَكُنْ سَيِّئًا لِسَفْكِ دَمِي ، قَالَ : هَاتِهِ ، فَأَخْرَجْتُهُ إِلَيْهِ ، فَنَظَرَ فِيهِ سَاعَةً ،
وَقَالَ صَدَقْتَ فِي قِيَمَتِهِ ، وَلَسْتُ قَابِلَهُ حَتَّى أَسْأَلَكَ عَنْ شَيْءٍ ، فَإِنْ صَدَقْتَنِي
أَطْلَقْتُكَ ، قُلْتُ : قُلْ ، قَالَ : إِنْ النَّاسُ قَدْ وَصَفُوكَ بِالْجُودِ ، فَأَخْبِرْنِي :
هَلْ وَهَبْتَ مَا لَكَ كُلَّهُ قَطْ ؟ قُلْتُ : لَا ، قَالَ فَنِصْفَهُ ، قُلْتُ : لَا ، قَالَ : فَنُكْلَهُ
قُلْتُ : لَا ، حَتَّى بَلَغَ الْعُشْرَ ، فَاسْتَحْيَيْتُ وَقُلْتُ : أَظُنُّ أَنِّي قَدْ فُكِلْتُ
هَذَا ، قَالَ : مَا ذَاكَ بِعَظِيمٍ ، أَنَا وَاللَّهُ رَاجِلٌ - يَرِيدُ مِنَ الْمَشَاةِ - وَرِزْقِي مِنْ
أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ كُلِّ شَهْرٍ عَشْرُونَ دِرْهَمًا ، وَهَذَا الْجَوْهَرُ قِيَمَتُهُ أَلُوفٌ
دِينَارٍ ، وَقَدْ وَهَبْتُهُ لَكَ وَوَهَبْتُكَ لِنَفْسِكَ وَلِجُودِكَ الْمَأْثُورِ بَيْنَ النَّاسِ
وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَنْ هُوَ أَجْوَدُ مِنْكَ ، فَلَا تُعْجِبْكَ نَفْسُكَ ، وَلَتَحْقِرَ
بَعْدَ هَذَا كُلِّ جُودٍ فِعْلَتَهُ وَلَا تَتَوَقَّفَ عَنْ مَكْرُمَةٍ ، ثُمَّ رَمَى الْعِقْدَ فِي حِجْرِي ،
وَتَرَكَ خِطَامَ الْجَمَلِ ، وَوَلَّى مُنْصَرَفًا ، فَقُلْتُ : يَا هَذَا ، وَاللَّهِ لَقَدْ فَضَحْتَنِي ،

وَأَسْفَكَ دُمِي عَلَى أَهْوَنُ مَا فَعَلْتُ ، نَحْذُ مَا دَفَعْتُهُ لَكَ ذَائِقِي غَيْثٍ عَنْهُ ، فَضَحَكَ
 وَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ تُكَذِّبَنِي فِي مَقَالِي هَذَا ! وَاللَّهِ لَا أَخْذَتُهُ وَلَا أَخَذَ لِمَعْرُوفٍ
 ثَمَنًا أَبَدًا ، وَهَضِي لِسَابِلِهِ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ طَلَبْتَهُ بَعْدَ أَنْ أَوْنْتُ ، وَبَذَلْتُ لِمَنْ يَجِيءُ
 بِهِ مَا شَاءَ فَمَا عَرَفْتُ لَهُ خَبْرًا ، وَكَأَنَّ الْأَرْضَ ابْتَلَعَتْهُ ... أَلَا تَرَى مِمِّي أَنْ
 مَا فَعَلَهُ هَذَا الْجَنْدِيُّ الْفَقِيرُ إِنْ لَمْ يَفْقُ بِهِ مَعْنَى بَنٍ زَائِدَةٍ وَأَشْبَاهَ مَعْنَى بَنٍ
 زَائِدَةٍ ، فِي بَابِ الْمَرْوَةِ وَالْفَتْوَةِ وَالنَّجْدَةِ وَالْكَرَمِ وَعَبْرِيَةِ الرُّوحِ فَإِنَّهُ لَا يَقِلُّ
 عَنْهُمْ !

جُهِدُ الْمُقِلِّ إِذَا أَدْطَاكَ نَائِلُهُ وَمُكْرَرٌ مِنْ غَيْثِ سَيَّانٍ فِي الْجُودِ
 فهو كما قال الشاعر :

وَلَمْ يَكْ أَكْثَرُ الْفَتَيَانِ مَالًا وَلَكِنْ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعًا



وَمِنْ هُنَا حَثُّوا عَلَى الْجُودِ وَالْمَرْوَةِ وَاتَّسَخَّى حَتَّى فِي حَالَةِ الْعُسْرِ وَالضُّيْقِ
 فَمِنْ ذَلِكَ مَا قَرَأْنَاهُ مَلْسُوبًا لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي حَالِدٍ الْبَرَمَكِيِّ أَوْ لَامْرَأَةٍ
 مِنَ الْعَرَبِ تَوْصِي بِهِ ابْنَهَا ، وَهُوَ : إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَيْكَ الدُّنْيَا فَأَنْفِقْ ، فَإِنَّهَا لَا تَقْفَى ،
 وَإِذَا أَذْبَرْتَ عَنْكَ فَأَنْفِقْ فَإِنَّهَا لَا تَبْقَى . أَخَذَهُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فَقَالَ :

وَأَنْفَقْ إِذَا أَنْفَقْتَ إِنْ كُنْتَ مُوسِرًا
 وَأَنْفِقْ عَلَى مَا خَيْلَكَ حِينَ تُعْسِرُ
 فَلَا الْجُودَ يُفْنِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُقْبِلٌ

وَلَا الْبَخْلُ يُبْقِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُدْبِرٌ

وقال الآخر في معناه :

لَا تَبْخُلَنَّ بِدُنْيَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ فَلَيْسَ يَنْقُصُهَا التَّجْدِيرُ وَالسَّرْفُ

فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَأَنْجِدْ أَنْ نَجُودُ بِهَا وَالشُّكْرُ مِنْهَا إِذَا مَا أَذْبَرْتَ خَلْفُ



ولا تنسَ أن مرادهم بالإففاق والجود هنا : الإففاقُ في سبيل الله والبرِّ
لا في سبيل الشيطان والإثم ، والجودُ على ذوى الحقوق ومن هم في حاجة إليك
حتى مع إدبار الدنيا عنك ، وبالحرى مرادهم بالسرف : السرفُ في الشرف ، وما
يُكسب المرءَ نعمةً ومعةً ^(١) . ويؤثر عن معاوية أو المأمون - وقد قيل
لا أحدهما : لاخير في السرف - فقال : لا سرف في الشرف ...

وقال سلم بن قتيبة : أحدكم يحقر الشيء فيأني ما هو شر منه ، يعنى المنع ،
يريد الحث على إعطاء القليل إن لم يستطع إعطاء الكثير ، وقال حماد بن عمار
في ذلك من آيات :

بُتَّ النَّوَالِ وَلَا تَمْنَعْ قَلْبُهُ فكل ما سدد فقرا فهو محمود

يقول فيها :

إِنَّ الْكَرِيمَ لِيُخْفِيَ عَنْكَ عُسْرَتَهُ حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ بِجُودٍ
إِذَا تَكَرَّمْتَ أَنْ تُعْطِيَ الْقَائِلَ وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرْ الْجُودُ
وَالْبَخِيلُ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلَلٌ زُرُقُ الْعُيُونِ عَلَيْهَا أَوْجُهُ سُودُ
أَوْزُقُ بَخِيرٍ تُرَجَّى لِلنَّوَالِ فَسَا تُرَجَّى الثَّمَارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْعُودُ

والعرب تقول : من حقر حرم ... « حقر الشيء : عده حقيراً ، أى
من حقر بسيراً يقدر عليه ولم يقدر على الكثير ضاعت لديه الحقوق ، وفي
الحديث : لا تردوا السائل ولو بظلفٍ مُحْرِقٍ « الظلف من كل ما يجتر من

الحيوانات كالبقرة والظبي بمنزلة الحافر من الفرس، ويقال : أحرق الشيء بالنار وحرّقه شدّد لكثرة ، وقال المعري :

إذا طرَقَ الْمِسْكِينُ بِأَبْكَ فَأَجِبْهُ قليلاً ولو مِقْدَارَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ
ولا تَحْتَقِرْ شيئاً تُسَاعِفُهُ به فكم من حَصَاةٍ أَيْدَتْ ظَهْرَ مَجْدَلٍ
المجدل : النضر المشرف ، وكان ابن عباس يقول : صاحب المعروف لا يقع ، فإن وقع وجد مُتَّكأً . وهذا من قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : المعروف يَبْقَى مَصَارِعُ السُّوء ... وكان ابنُ عَبَّاسٍ يقول أيضا : ما رأيت رجلاً أوليتهُ معروفاً إلا أضاع ما بيني وبينه ، ولا رأيت رجلاً أوليتهُ سوءاً إلا أظلم ما بيني وبينه ، وما يروى في هذا المعنى أن رجلاً كان في مجلس خالد بن عبد الله القسريّ ، فقام من المجلس ، فقال خالد : إني لأُبْغِضُ هذا الرجلَ وماله إلى ذنْبٍ ، فقال رجل من القوم : أوله أيُّها الأميرُ معروفاً فتعل ، فما كُنتَ أن خَفَّ على قلبه وصار أحَدَ جُلُساته . وفي هذا المعنى يقول سيّد مُوسِي قِيّ الإسلام أبو إسحاق الموصلي :

أرى الناسَ سُخْلانَ الجُودِ ولا أرى بخيلاً له في العالمين خيلاً
ومن خَيْرِ حالاتِ الفَقِي لو عَلِمَتْه إذا نال شيئاً أن يَكُونُ يُبِيلُ
فإني رأيت البخلَ يُزْرَى بأهله فأكرمت نفسي أن يُقالَ بخيلُ

وبقول المتنبّي :

وأَحْسَنُ وجهٍ في الوريّ وَجْهُ مُحْسِنٍ وأَيَّمَنُ كَيْفَ في الوريّ كَفَ مُنْعِمٍ
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ انْصَلَتْ نِعَمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ ، فمن لم يحتمل تلك المُنُونِ عُرِضَ لَزوال تلك النِّعَمِ ، وقال خالد بن عبد الله القسريّ أيضا : حوائج الناس إليكم نَعَمٌ مِنْ اللَّهِ عليكم ،

قَلَامَلُوا النَّعْمَ فَتَحَوَّلَ نِقَمًا، قال الشاعر :

بَدَا - حِينَ أَثَرَى - بِإِخْوَانِهِ قَتَلَلْ عَنْهُمْ شَبَابَ الْعَدَمِ ^(١)
وَذَكَرَهُ الْحَزْمُ غَبَّ الْأُمُورِ فَبَادَرَ قَبْلَ انْتِقَالِ النَّعْمِ
وعن سيدنا رسول الله : تَنْزِيلُ الْمَعُونَةِ عَلَى قَدَرِ الْمَثُونَةِ «ومعناه : أنه كلما
تكاثر على المرء من يحق عليه أن يعولهم ويقوم بمؤنتهم ، ففعل ، أو كلما أنفق
المرء في سبيل البر ، أعطاه الله بمقدار ذلك ، وجاء في الحديث المرفوع :
مَنْ وَسَّعَ وَسَّعَ عَلَيْهِ ، وَ : كَلِمَا كَثُرَ الْعِيَالُ كَثُرَ الرِّزْقُ ...

وقالوا في معنى النجدة وإقالة العثرات وواجبات ذوى الجاه :
بَذَلُ الْجَاهِ زَكَاةَ الشَّرَفِ . وفي الحديث : إِنْ اللَّهُ يَسْأَلُ الْعَبْدَ عَنْ جَاهِهِ كَمَا
يَسْأَلُهُ عَنْ مَالِهِ وَنَعْمِهِ ، فيقول : جعلتُ لك جَاهًا فَهَلْ تَصْرَتْ بِهِ مَظْلُومًا
أَوْ قَوَّمتَ بِهِ ظَالِمًا أَوْ أَغْنَتْ بِهِ مَكْرًا وَبَا ؟ وفي الحديث أيضا : أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ
تُعِينَ مَنْ لَاجِأَ لَهُ ... وقال أبو تمام :

وَإِذَا أَمَرُوا أَسْدَى إِلَى صُلَيْعَةٍ مِنْ جَاهِهِ فَكَأَنَّمَا مِنْ مَالِهِ
وكان زياد بن أبيه يقول لأصحابه : آشَفَعُوا لِمَنْ وَرَاءَكُمْ فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ
أَرَادَ السُّلْطَانُ - يَرِيدُ : كُلُّ مَنْ بِيَدِهِ الْأَمْرُ - وَصَلَ إِلَيْهِ ، وَلَا كُلُّ مَنْ وَصَلَ
اسْتَطَاعَ أَنْ يُكَلِّمَهُ ... وَالْأَصْلُ فِي هَذَا قَوْلُهُ سَبَّحَانَهُ : مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً
يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتِنًا . «قال المفسرون : الشفاعة الحسنة : هِيَ التَّوْبَةُ رُوعِي بِهَا
حَقُّ مُسْلِمٍ وَدُفِعَ بِهَا عَنْهُ شَرٌّ أَوْ جُلِبَ إِلَيْهِ خَيْرٌ وَابْتُغِيَ وَجْهُ اللَّهِ وَلَمْ

(١) بدا ، هـى : بدأ ، بالهزم ، فسهل للشمر ، والشابة : طرف السيف وحدث كل شيء
وفلل : كسر

تَوَخَّذْ عَلَيْهَا رِشْوَةً ، وَالسَّيِّئَةُ مَا كَانَتْ بِخِلَافِ ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : يَكُنْ لَهُ
 نَصِيبٌ مِنْهَا : فَذَلِكَ النِّصِيبُ : دُونَ ثَوَابِ الشَّفَاعَةِ وَجَزَائِهَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَقَوْلُهُ
 يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا : أَيْ نَصِيبٌ مِنْ وَزْرِهَا مُسَاوٍ لَهَا فِي الْقَدْرِ ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ :
 وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ، فَلَمَقِيتَ : الْمُقْتَدِرُ مِنْ أَقَاتِ عَلَى الشَّيْءِ :
 إِذَا قَدَّرَ ، قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ وَقِيلَ لِأَبِي قَيْسٍ بْنُ رِفَاعَةَ - :

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ

وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقِيتًا ^(١)

وُقِّرَ الْمُقِيتُ بِالْحَافِظِ وَاشْتَقَّاقُهُ مِنَ الْقُوَّةِ ، فَإِنَّهُ يَقْوَى الْبَدَنُ
 وَيَحْفَظُهُ . .

وَمَنْ أَجَلَ مَا قِيلَ فِي الْجُودِ قَوْلَ حَاتِمِ طَائِي :

أَمَاوِيٌّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنْ الْفَقْرِ

إِذَا حَشَرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

(١) رَوَى الصَّاعِقَانِي هَذَا الْبَيْتَ مَعَ آيَاتٍ أُخْرَى هَكَذَا :

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقِيتًا

يَبِيتُ اللَّيْلَ مُرْتَفِقًا ثَقِيلًا عَلَى قَرَشِ الْفَتَاةِ وَمَا أَيْتُ

نَفْسٌ إِلَى مَنْهُ تُؤْذِيَاتُ كَمَا تُؤْذِي الْجَذَائِرُ الْبُرُوتُ

وَالْمُرْتَقِقُ : الْمُتَشَكِّى عَلَى مَرَقِيهِ ، وَنَعْنُ : تَسْرِعُ وَتُظْهِرُ ، وَالْجَذْمَارُ : مَا بَقِيَ مِنْ أَصْلِ

السَّعْفَةِ ، وَالْبُرُوتُ : الْفَأْسُ ، لِقَةِ يَمَانِيهِ يَنْطَقُونَهَا الْبُرْتُ وَالْبُرْتُ ، وَالْبُرُوتُ فَاعِلٌ

تُؤْذِي ،

(٢) مَآوِي : مُنَادَى مَرَحِمٍ مَآوِيَةٍ وَهِيَ زَوْجَةُ حَاتِمٍ ، وَحَشَرَجَتْ : أَيْ النَّفْسُ وَإِنْ

لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهَا ذِكْرٌ ، لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ

أَمَاوِيَّ إِنَّ يُصِيحُ صَدَايَ بِقَفْرَةٍ
 مِنْ الْأَرْضِ لَأَمَاءٌ لَدَيَّ وَلَا خُمْرٌ ^(١)
 تَرَى أَنَّ مَا أَبْقَيْتُ لَمْ أَكُ رَبَّهُ
 وَأَبَّ يَدِي مِمَّا بَخِلْتُ بِهِ صَفْرُ ^(٢)
 أَمَاوِيَّ إِنَّ الْمَالَ غَادٍ وَرَائِحٌ
 وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الْآحَادِيثُ وَالذِّكْرُ
 غِنَيْنَا زَمَانًا بِالتَّصَعُّلِكَ وَالْغِنَى
 وَكُلًّا سَقَانَاهُ بِكَأْسَيْهِمَا الدَّهْرُ ^(٣)
 فَمَا زَادَنَا بَأَوًّا عَلَى ذِي قَرَابَةٍ
 غِنَانَا وَلَا أَزْرَى بِأَحْسَابِنَا الْفَقْرُ ^(٤)

ألست معي في أن على هذه الآيات مسحة من الجمال وأثرا بيننا من الصدق
 وأن لها لوطظة من نيم بالقباب أليس حاتم يقول : الحق أقول : إنه لا يلغى
 لك ياماوية أن تلوميني على إنفاق مالي في سبيل البر والإلطاف ، والتخريق في
 النوال وقرى الاضياف ، أما تعلمين أن مال المرء لا يغني عنه شيئا إذا
 ما الموت رماه بسهامه وغادر هذه الحياة ، أما تعلمين أن المرء متى نيز جسدُه
 بالعراء وأودع حُفْرَةً مُوحِشَةً مُقْفَرَةً ليس معه شيء مما كان يحتازُهُ في هذه
 الدنيا من مال ، بدا لك أن المال الذي تركته وبخلتُ به على مُسْتَحِقِّهِ أصبح

(١) الصدى هنا : جسد الانسان بعد موته

(٢) ربه : صاحبه ، وصفر : خلو (٣) غنينا : عشنا ، غنى كفرح : عاش ، وغنى
 بالمكان : أقام ، والمراد بالتصعلك الفقر ، وبكأسيهما : يعني الفقر والغنى
 (٤) البأو : الكبر والفخر ، يقال : بأوت على القوم أبأى بأوا ...

مما كلفى وأصبحت أنا خالي الوفاض^(١) بادي الإنفاض^(٢) لا أملك من هذا المال شروى نقير^(٣) ! أليس الأخلق بي لذلك أن أنفقهُ وأنسخي به على أهليه ، فأنفَعَ بعد موتى - إذا أنا فعلتُ - بالذكر في الناس والحديث الحسن ! وأية قيمة للبال يا ماوية ، ذلك الذى يحىء وبذهب ، ويغدو ويروح ! أليس الأخلق بالماقل الثاقب النظر أن يُفقد منه ما هو أبقي على الزمن الباقي من الزمن - أن يفقد منه الذكر من طريق إنفاقه ، والجود به في وجوه استحقاقه ! لقد عشنا يازوجتى حيناً من الدهر أغنياء كما عشنا حيناً فقراء ، وكللاً سقانا الدهر بكأسيهما ، فما أزرى الدهر بأحسابنا ، ولا أضغى إناء أعراضنا ، ولا أسفّ بأخلاقنا ، كما هو شأنه مع ضعفاء النفوس ، وكذلك إذ كنّا أغنياء ، ما أبطرتنا الغنى ، وما أطعنا ، على ذوى قربانا ، لآنا نعلم علماً ليس بالظن أن المال عرض زائل ، أما الجوهر ، أما الذكر ، أما الشرف ، أما الخلق ، فكل أولئك هو الذى عليه المعول ، وإنه لذخيرة لا تنفد ، وهى حسب العاقل الذى راض نفسه على السكون إلى الحقائق ، ولم يُخلد إلى أم دفر^(٤) باطل الأباطيل ...

«أما بعد، فلقد أذكرتنا هذه العقريات الكريمة من القول، عبقرية رجل من رجالات السلف لقد بلغ المبالغ في الإحسان واصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، وإنه لحق علينا أن نعرض شيئاً لهذه العبقرية من الفعال^(٥)، إذ أن كتابنا هذا ليس بمقصود على العبقرى من القول وإنما نعرض كذلك للعبقرى من الأناسى فى أى معنى من المعانى^(٦) على شريطة أن يكون ذلك لِمَماً، فلا

(١) فارغ الجراب (٢) ظاهر الفقر (٣) النقيير : نكتة فى النواة يكون منها منبت النخلة وشروى نقير : مثل هذه النكتة (٤) أم دفر : الدنيا وأصل الدفر : التن (٥) الفعال بفتح الفاء : الفعل الحسن (٦) فى أى معنى : متعلق بالعبقرى

نَعْقِلُ الإِغْفَالَ كُلَّهُ مَا يَعْنِينَا مِنْ سِيرِ الْعَبْقَرِيِّينَ ، وَيَمُتُّ مِنْهَا بِسَبَبٍ وَاصِلٍ إِلَى أَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ هَذَا الْكِتَابِ ، وَلَا تَبْسُطُ التَّبَسُّطَ الَّذِي يُبَاحِقُنَا بِأَصْحَابِ السَّيْرِ وَالْمُتَرَجِّحِينَ ؛ وَشَخْصِينَا الَّتِي حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْنَا أَنْ نُسَلِّمَ بِعَبَقَرِيَّتِهَا فِي بَابِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ هُوَ رَجُلٌ مِنْ رِجَالِ أَسْلَافِنَا كَمَا قُلْنَا - هُوَ قَاضِي الْقَضَاةِ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُوَادٍ

أحمد بن أبي دواد *

كَانَ هَذَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُوَادٍ تَخْصِيصَةً ضَخْمَةً ذَاتَ أَثَرٍ فَعَالٍ خَالِدٍ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ ، إِذْ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَشْيَاعِ الْمُعْتَرِلَةِ ، وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ الْقَائِلِينَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، الْعَامِلِينَ عَلَى تَرْوِيحِ هَذِهِ الْبَدْعَةِ ، مُسْتَظْهِرًا عَلَى ذَلِكَ بِجَاهِهِ وَنُفُوذِهِ لَدَى الْمَسَامُونِ وَالْمُعْتَصِمِ وَالْوَاتِقِ . وَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَعْتَمِرٍ - فِي نَظَرِ رِجَالِ الْحَدِيثِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ - إِلَّا هَذِهِ ... قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى الصُّوْلِيُّ : لَوْلَا مَا وَضَعَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ مَحَبَّةِ الْمِحْنَةِ - مِحْنَةِ الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، وَحَمَلِ النَّاسِ عَلَيْهِ - لَاجْتَمَعَتِ الْأَلْسُنُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يُضَفْ إِلَى كَرَمِهِ أَحَدٌ ... وَمَنْ أَحَبَّ الْوُقُوفَ عَلَى تَوْقِفِ ابْنِ أَبِي دُوَادٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَلْيَرْجِعْ إِلَى مَقَاتِلِهَا ... وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي مَكَاتِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، وَمَنْزِلَتِهِ مِنَ الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ ، وَرُسُوخِ قَدَمِهِ فِي الْفَضْلِ وَالنُّبْلِ وَمَكَارِمِ

(٥) قَالَ ابْنُ خُلَيْكَانَ - بَعْدَ أَنْ سَرَدَ نَسَبَهُ وَنَمَاهُ إِلَى إِيَادِ بْنِ نَزَارِ بْنِ مَعْدَنَ بْنِ عَدْنَانَ أَيْ أَنَّهُ عَرَبِيٌّ إِيَادِيٌّ - إِنَّ أَصْلَهُ مِنْ قَرْيَةٍ بِقَنْسَرِينَ ، وَاتَّجَرَ أَبُوهُ إِلَى الشَّامِ وَأَخَذَهُ مَعَهُ وَهُوَ وَحْدَهُ ، فَتَنَشَأَ أَحْمَدُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَخَاصَّةِ الْفِقْهِ وَالْكَلَامِ حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ ، وَصَحِبَ هَيَّاجُ بْنُ عَلَاءِ السُّلَمِيِّ - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ - فَصَارَ إِلَى الْإِعْزَالِ ، وَكَانَتْ وَلَادَتُهُ سَنَةَ ١٦٠ هـ بِالْبَصْرَةِ وَتَوَفَّى سَنَةَ ٢٤٠ هـ بَعْدَ أَنْ أَصِيبَ بِالْفَالَجِ فِي زَمَنِ الْمُتَوَكِّلِ

الأخلاق ، وأفاعيله المخلّدة في هذه المعاني - والكلام يدخل بعضه في بعض - : قال أبو العيّن^(١) ما رأيت رئيساً قط أفصح ولا أنطق من ابن أبي دؤاد ، وقال : كان ابن أبي دؤاد شاعراً مجيداً ، فصيحاً بليغاً : وقد ذكره دُعَيْلُ بْنُ عَلِيٍّ الْخُزَاعِيُّ - الشاعر العبقرى - في كتابه الذي جمع فيه أسماء الشعراء وروى له أبياتاً حسناً : وقال أبو بكر الجرجاني : سمعت أبا العيّن الضربري يقول : ما رأيت في الدنيا أقوم على أدب من ابن أبي دؤاد - يريد أبو العيّن بالأدب هنا : أدب النفس - ما خرجت من عنده يوماً قط فقال : يا غلام خذ بيده ، بل قال : يا غلام أخرج معه ، فكنت أتتقد هذه الكلمة عليه ، فلا يُخِلُّ بها ولا أسمعها من غيره ... قالوا : ودو أول من افتتح الكلام مع الخلفاء ، وكانوا لا يبدؤهم أحد حتى يبدؤوه . وقال إبراهيم بن الحسن : كنا عند المأمون ، فذكروا من بايع من الانصار ليلة العقبة ، فاختلفوا في ذلك ، ودخل ابن أبي دؤاد ، فمدّهم واحداً واحداً بأسمائهم وكُناههم وأنسابهم ، فقال المأمون : إذا استجلس الناس فاضلاً فمثل أحد ، فقال أحمد : بل إذا جالس العالم خليفة فمثل أمير المؤمنين ، الذي يفهم عنه ، ويكون أعلم بما يقوله منه . وقال أحمد بن عبد الرحمن الكلبي : ابن أبي دؤاد رُوح كل من قرينه إلى قدمه . وقال لازون بن اسماعيل : ما رأيت أحداً قط أطوع لأحد ، من المعتصم لابن أبي دؤاد ، كان - المعتصم - يُسَلُّ الشيء اليسير فيمتنع منه ، ثم يدخل ابن أبي دؤاد فيكلمه في أهله

(١) أبو العيّن هو أبو عبد الله محمد بن القاسم الضرير ، ولد سنة ١٩١ وتوفي سنة ٢٨٢ كان من ظرفاء العالم وفيه من اللسن وسرعة الجواب ما لم يكن لأحد من نظرائه ، وترى نواتره مبعثرة في هذا الكتاب

وفي أهل الثغور وفي الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب ، فيجيبه إلى كل ما يريد ، ولقد كلبه يوما في مقدار ألف ألف درهم ليحفر بها نهرا في أقاصي خراسان ، فقال له : وما عليّ من هذا النهر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى يسألك عن النظر في أمر أقصى رعيّتك ، كما يسألك عن النظر في أمر أدناها ، ولم يزل يرفق به حتى أطلقها . قالوا : وكان ابتداء اتصال ابن أبي دؤاد بالمأمون ما حدث به ابن أبي دؤاد نفسه ، قال : كنت أحضر مجلس القاضي يحيى بن أكثم ، مع الفقهاء ، فإني عنده يوما إذ جاءه رسول المأمون ، فقال له : يقول لك أمير المؤمنين : انتقل إلينا أنت وجميع من معك من أصحابك ، فلم يحب أن أحضر معه ، ولم يستطع أن يؤخّرني ، فحضرت مع القوم ، وتكلّمنا بحضرة المأمون ، فأقبل المأمون ينظر إليّ إذا شرعت في الكلام ، ويتفهم ما أقول ، ويستحسنه ، ثم قال لي : من تكون ؟ فانتدبت له ، فقال : ما أحرك عنا ؟ فكبرهت أن أجبل على يحيى ، فقلت : حُبسة القدر ، وبلوغ الكتاب أجله ، فقال : لا أعلم ما كان لنا من مجلس إلا حضرته ، فقلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ، ثم اتصل الأمر ، وقيل : قدّم يحيى بن أكثم قاضيا على البصرة من خراسان ، من قبل المأمون ، في آخر سنة ٢٠٢ . وهو حدث ، سنه ثيقت وعشرون سنة ، فاستصحب جماعة من أهل العلم والمروآت ، منهم ابن أبي دؤاد ، فلما قدّم المأمون ببغداد في سنة ٢٠٤ قال ليحيى : اختر لي من أصحابك جماعة يجالسونني ويكثرُونَ الدخول إليّ . فاختر منهم عشرين ، فيهم ابن أبي دؤاد ، فكثروا على المأمون ، فقال : اختر منهم ، فاختر عشرة فيهم ابن أبي دؤاد ، ثم قال : اختر منهم ، فاختر خمسة ، فيهم ابن أبي دؤاد ، واتصل أمره ... وكان من وصية المأمون إلى أخيه المتصم عند الموت :

وأبو عبدالله أحمد بن أبي دواد لا يُفَارِقُكَ الشَّرْكَاءُ فِي الْمَشُورَةِ فِي كُلِّ أَمْرٍ ،
فإنه موضع ذلك ، ولا تَتَّخِذَنَّ وزيراً ، فلما ولي المعتصم ، جعل ابن أبي دواد
قاضياً القضاة مكان يحيى بن أكرم ، وكان لا يفعل فعلاً باطلاً ولا ظاهراً إلا
برأيه ... ولما مات المعتصم وتولى بعده ولده الواثق بالله حسنت حال ابن
أبي دواد ، وما زال إلى أن ولي أخوه المتوكل ، فأصيب ابن أبي دواد بالفالج
فكانت مدة عظمة ابن أبي دواد ونفوذه وجاهه نحواً من ثمان وعشرين سنة ...
قال ابن خلكان - الذي نعتد عليه في هذا الباب - : وكان ابن أبي دواد كثيراً
ما يُنشد - ولم يذكر أنهما له أو لغيره - :

مَا أَنْتَ بِالسَّبِّ الضَّعِيفِ وَإِنَّمَا تُجَيِّحُ الْأُمُورَ بِقُوَّةِ الْأَنْسَابِ
فَالْيَوْمَ حَاجَتُنَا إِلَيْكَ وَإِنَّمَا يُدْعَى الطَّيِّبُ لِشِدَّةِ الْأَوْصَابِ
ومن كلامه : ثلاثة ينبغي أن يُجَلَّوا وتُعرف أقدارهم : العلماء ، وولاة العدل ،
والإخوان ، فمن استخفَّ بالعلماء أَهْلَكَ دِينَهُ ، ومن استخفَّ بالولاة أَهْلَكَ دُنْيَاهُ ،
ومن استخفَّ بالإخوان أَهْلَكَ رُوءِيَهُ ، ومن كلامه أيضاً : ليس بكامل من لم
يَحْمِلْ عَلَيْهِ عَلَى مَنِيرٍ وَلَوْ أَنَّهُ حَارِسٌ ، وَعَدُوَّةٌ عَلَى جَذَعٍ وَلَوْ أَنَّهُ وَزِيرٌ ^(١)

(١) هذا على حد قول عبدالله بن معاوية :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَنْفَعْ فَضَرَّ فَإِنَّمَا يُرَجَّى الْفَقِي كَمَا يَضُرُّ وَيَنْفَعُ

وقول الآخر :

وَلَكِنْ قَتَى الْفَتِيَانِ مِنْ رَاحٍ وَاعْتَدَى لَضَرَّ عَدُوٍّ أَوْ لِنَفْعِ صَدِيقٍ

وقول المتنبي :

لَمَنْ تَطْلُبِ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تُرِدْ بِهَا سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ إِسَاءَةَ مُجْرِمٍ

وقول ابن الرومي :

وكان بين ابن أبي دواد وبين الوزير الجبار محمد بن عبد الملك الزيات ، الذي
توثر عنه هذه الكلمة : الرحمةُ خورٌ في الطبيعة - منافساتٌ وشحناءٌ ، حتى إن
شخصاً كان يصحب ابن أبي دواد ويختص بقضاء حوائجه ، منعه الوزير المذكور
من التردد إليه ، فبلغ ذلك ابن أبي دواد ، فجاء إلى الوزير وقال : والله ،
ما أجيبك ، كثرت أباك من قلة ، ولا متعززا بك من ذلة ، ولكن أمير المؤمنين
رتبك مرتبة أوجببت إلقاءك ، فإن أيقيناك الله ، وإن تأخرنا عنك ذلك ... ثم
نهض من عنده ... قال ابن خلكان : وكان فيه - في ابن أبي دواد - من
المكارم والمحامد ما يستغرق الوصف ... وكان يقال : أكرم من كان في دولة
بني العباس البرامكة ثم ابن أبي دواد ... حدث الجاحظ قال : غضب المعتصم على
رجل من أهل الجزيرة الفراتية ، وأحضر اليه والنظع^(١) فقال له المعتصم :
فقلت وصنعت ، وأمر بضرب عنقه ، فقال له ابن أبي دواد : يا أمير المؤمنين ،
سبق السيف العذل^(٢) ، فتأن في أمره فإنه مظلوم ، قال : فسكن المعتصم

= وليس يصالح لاستصلاح مملكته غير امرئ نافع بالحق ضرار
وولي : يريد صديقه وكل من يمت إليه بسبب واصل ، ويريد بحمله على المنبر
فصرته والارتفاع به ، ويريد بحمل عدوه على جذع : صلبه والقضاء عليه ، وقوله : ولو
أنه حارس ، أى خفير ، يريد ولو أنه حقير ، ولعله قال هذه الكلمة وهو يعرض بابن
الزيات الوزير .

(١) النظع : بساط من جلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس وفيه لغات :

نطع ونطع ونطع ونطع والجمع نطاوع وأنطاوع

(٢) هذا مثل ، والعذل : اللوم وأصله أن الحارث بن ظالم ضرب رجلاً فقتله فأخبر

بعضه فقال : سبق السيف العذل ، يضرب لما قد فات

قليلا ، قال ابن أبي دراد : وَغَمَرَنِي الْبَوْلُ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى حَبْسِهِ ، وَعَلَيْتُ أَنِّي
 إِن مُتُّ قُتِلَ الرَّجُلُ ، فَجُمِعَتْ ثِيَابِي تَحْتِي وَبُلْتُ فِيهَا ، حَتَّى خَلَّصْتُ الرَّجُلَ
 قَالَ : فَلَمَّا قَتَلَ نَظَرَ الْمُعْتَصِمُ إِلَى ثِيَابِي رَطْبَةً فَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، أَكَانَ تَحْتِكَ
 مَاءٌ ؟ فَقُلْتُ : لَا ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ! فَضَحِكَ
 الْمُعْتَصِمُ ، وَدَعَا لِي وَقَالَ ، أَحْسَنْتَ ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَأَمَرَ لَهُ
 بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ... وَقَالَ أَبُو الْعِيَاءِ : كَانَ الْأَفْشِينُ - السَّرَكِيُّ وَكَانَ مِنْ أَجَلِّ
 قَوَادِ الْمُعْتَصِمِ ، وَأَبْلَى فِي أَمْرِ بَابِكَ الْخُرَمِيِّ بِلَاءَ حَمْدِهِ لَهُ - يَحْسُدُ أَبَا دُلْفٍ
 الْقَاسِمَ بْنَ عَيْسَى الْعِجْلِيَّ ^(١) - وَهُوَ كَذَلِكَ أَحَدُ قَوَادِ الْمَأْمُونِ ثُمَّ الْمُعْتَصِمِ
 مِنْ بَعْدِهِ . وَكَانَ تَحْتَ إِثْرَةِ الْأَفْشِينِ فِي حَرْبِ بَابِكَ - لِلْعَرَبِيَّةِ وَالشَّجَاعَةِ

(١) وهذا أبو دلف كان كذلك كريما سوريا جوادا بمدحا شجاعا مقدما فاضلا ،
 مدحه أبو تمام وعلى بن جبلة المعروف بالعكوك وبكر بن النطاح ، وفيه يقول العكوك
 قصيدته التي يقول فيها :

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلْفٍ بَيْنَ مَغْزَاهُ وَمَحْضَرِهِ
 فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلْفٍ وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ
 كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهِ
 مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرُمَةٌ يَكْتَسِبُهَا يَوْمَ مَفْتَخَرِهِ

ويقول بكر بن النطاح :

يَا طَالِبَا الْكَيْمِيَاءِ وَعَلَيْهِ مَدْحُ ابْنِ عَيْسَى الْكَيْمِيَاءِ الْأَعْظَمِ
 لَوْلَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا دِرْهَمٌ وَمَدْحَتُهُ لِأَنَّكَ ذَاكَ الدِّرْهَمَ
 وَقَدْ أَعْطَاهُ أَبُو دُلْفٍ عَلَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ... هَذَا وَدُلْفُ اسْمُ
 عِلْمٍ مَنُوعٍ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعَلْبِيَّةِ وَالْعَدْلِ لِأَنَّهُ مَعْدُولٌ عَنْ دَالْفٍ ، قَالَ ابْنُ بَرِيٍّ

فاحتال عليه حتى شهد عليه بجناية قتل ، فأخذه ببعض أسبابه ، فجلس له وأحضره ، وأحضر السيف ليقتله ، وبلغ ابن أبي دؤاد الخبر ، فركب من وقته مع من حضر من عدو له ، فدخل على الأفشين ، وقد جرى بأبي ذؤلف ليقتل ، فوقف ، ثم قال : إني رسول أمير المؤمنين إليك ، وقد أمرك أن لا تحدث في القاسم بن عيسى حديثاً حتى تسلمه إلى ، ثم انفت إلى العدول وقال : أشهدوا أنني أدت الرسالة إليه عن أمير المؤمنين والقاسم حتى معافى ، فقالوا : قد شهدنا ، وخرج ، فلم يقدر الأفشين عليه ، وسار ابن أبي دؤاد إلى المعتصم من وقته ، وقال : يا أمير المؤمنين ، قد أدت عنك رسالة لم تقلها لي ، ما أعتد بعمل خير خيراً منها ، وإني لأرجو لك الجنة بها ، ثم أخبره الخبر ، فصوب رأيه ، ووجه من أحضر القاسم ، فأطلقه وذهب له : وعنف الأفشين فيما عزم عليه ... ومن مرواته : أن المعتصم كان قد اشتد غيظه على محمد بن الجهم اليرمكي ، فأمر بضرب عنقه ، فلما رأى ابن أبي دؤاد ذلك وأن لا حيلة له فيه وقد شد برأسه وأقيم في النّطع وهز السيف قال ابن أبي دؤاد للمعتصم : وكيف تأخذ ماله إذا قتله ؟ قال المعتصم : ومن يحول بيني وبينه ؟ قال : يا بني الله تعالى ذلك ، ويأباه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأباه عدل أمير المؤمنين ، فإن المال للوارث إذا قتله حتى تقيم البيّنة على ما فعله ، وأمره باستخراج ما اختأته أقرب عليك وهو حتى ، فقال : أحبسوه حتى ينظر ، فتأخر أمره على مال حمله أي كفسله ، وخلص محمد ... وقال أبو العيناء : غضب المعتصم على خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ، وأنخصه من ولايته ، لتعجز لحقه في مال طلب منه ، وأسباب غير ذلك ، فجلس المعتصم لعقوبته ، وكان قد طرح نفسه على ابن أبي دؤاد ، فتكلم فيه فلم يجبه المعتصم ،

فلما جلس لعقوبته حضر ابن أبي دواد، جلس دون مجلسه، فقال له المعتصم: يا أبا عبد الله، جلست في غير مجلسك ١ فقال له: ما ينبغي أن أجلس إلا دون مجلسي هذا... فقال له: وكيف؟ قال: لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعي موضع من يشفع في رجل فلا يشفع، قال: فارجع إلى مجلسك، قال: مُشَفَّعاً أو غير مُشَفَّع^(١)؟ فقال: بل مُشَفَّعاً، فارتفع إلى مجلسه، ثم قال: إن الناس لا يعلون رضا أمير المؤمنين عنه إن لم يخْلَع عليه^(٢) - فأمر بالخلع عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، قد استحق هذا وأصحابه رِزْق ستة أشهر لا بد أن يقبضوها، وإن أمرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصَّلَاة، قال: قد أمرتُ لهم بها، فخرج خالد وعليه الخلع، والمال بين يديه، وإن الناس يفتظرون في الطرق الإيقاع به، وصاح رجل: الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب، فقال خالد: أسكت، سيد العرب والله أحمد بن أبي دواد... وقال الواثق يوما لابن أبي دواد - تضجراً بكثرة حوائجه: قد اختلَّت بيوت المال بطلباتك للأئذين بك والمتوسلين إليك! فقال: يا أمير المؤمنين، هي نتائجُ شُكْرُها مُتَّصِلٌ بك، وذخائرُ أجرها مكتوب لك. ومالي من ذلك إلا أن أخلِّد المدح فيك، فقال: أحسنت.

«وبعد، فلتتجزأ بهذا المقدار من مساعي ابن أبي دواد سيد العرب وعقريتها في النجدة والمروءة والكرم والأريحية والشجاعة الأدبية

- (١) يقال: شفع له وتشفع له إلى الملك مثلاً، فشفعه فيه تشفيحاً، فالطالب شفيع وشافع، والمشفع: الذي تقبل شفاعته، أما المشفع فهو الذي يقبل الشفاعة
- (٢) قال في أساس البلاغة: خلع عليه: إذا نزع ثوبه وطرحه عليه، وكساه الخلاء والخلع

وما لَفَ لَفَ هذه المعاني السَّكرية مما انبعثت له قرائحُ خولِ شعراء الإسلام، أمثالِ
أبي تمام، فأنطقتهم بالمأثور من الشعر الفخم، وامتدحوا به هذا الرجل العظيم،
فقال أبو تمام :

لقد أنستَ مساوى كلِّ دهرٍ محاسنُ أحمدَ بنِ أبي دُوادٍ
وما سافرتُ في الآفاقِ إلَّا ومن جدِّ والكَرَّاحِ حتَّى وزادِ

قال علي الرازي: رأيت أبا تمام عند ابن أبي دواد ومعه رجل يُنشدُ عنه
قصيدة منها هذان البيتان ، فلما أنشدتهما قال ابن أبي دواد لأبي تمام :
هذا المعنى تفرَّدتَ به أم أخذته ؟ فقال : هولى ، وقد أَلَمْتُ فيه بقول
أبي نواس :

وإن جَرَّتِ الالفاظُ مَنَّا بِمِدْحَةٍ لغيرِكَ إِنساناً فأنتَ الذى نَعْنِ
ومدحه أبو تمام أيضا بقصيدة التى أولها :

أَرَأَيْتَ أَىَّ سِوَالِفٍ وَخُدُودٍ عَنَّتْ لَنَا بَيْنَ اللَّوَى وَزُرُودٍ

وفى الآيات الثلاثة البديعة فى الحسد :

وإذا أَرَادَ اللهُ نَشَرَ فَضِيلَةٍ طَوِيَّتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانُ حَسُودٍ

لولا اشتعالُ النارِ فيها جاورَتْ ما كان يُعْرِفُ طِيبُ عَرَفِ العُودِ

لولا التَّخَوُّفُ لِلْعَوَاقِبِ لم تَزَلْ لِلْحَاسِدِ النُّعْمَى على المَحْسُودِ

ودخل أبو تمام عليه يوما ، وقد طالَت أيامه فى الوقوف ببابه ولا يصل
إليه ، ولما وصل قال له ابن أبي دواد : أَحَسْبُكَ عَاتِباً يا أبا تمام ، فقال
أبو تمام : إِنَّمَا يُنْتَبَ على واحدٍ وَأَنْتَ النَّاسُ جَمِيعاً ، فكيف يُعْتَبُ عليه !
فقال له : مِنْ أَيْنَ لك هذا يا أبا تمام ؟ فقال من قول الحاذِقِ - يعنى
أبا نواس - فى الفضل بن الربيع :

وليس على الله بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ^(١)
ولمَّا وَلَّى ابْنُ أَبِي دَوَادٍ الْمَظَالِمَ قَالَ أَبُو تَمَامٍ قَصِيدَةً يَتَظَلَّمُ إِلَيْهِ، مِنْ جَمَلَتِهَا
قوله :

إِذَا أَنْتَ ضَيَّعْتَ الْقَرِيضَ وَأَهْلَهُ فَلَا عَجَبٌ إِنْ ضَيَّعْتَهُ الْآعَاجِمُ
فَنَدَّ هَرَّ عِظْفَيْهِ الْقَرِيضُ تَوَقُّعًا لِعَدْلِكَ مُذْ صَارَتْ إِلَيْكَ الْمَظَالِمُ
وَلَوْ لَا خِلَالُ سَنِّهَا الشَّعْرُ مَا دَرَى بُغَاةَ الْعُلَى مِنْ أَيْنَ تَوَقَّى الْمَكَارِمُ

وَمَدَانِحُ أَبِي تَمَامٍ وَغَيْرِ أَبِي تَمَامٍ فِيهِ كَثِيرَةٌ مُتَوَافِرَةٌ ... وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ
دَرِيدٍ : كَانَ ابْنُ أَبِي دَوَادٍ مُؤَالِفًا لِأَهْلِ الْآدَبِ مِنْ أَىِّ بَلَدٍ كَانُوا ، وَكَانَ
قَدْ ضَمَّ مِنْهُمْ جَمَاعَةً يَعُولُهُمْ وَيَمُونُهُمْ ، فَلَمَّا مَاتَ حَضَرَ بِيَاهُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ
وَقَالُوا يُدْفِنُ مَنْ كَانَ سَائِقَةَ الْكَرَمِ^(٢) وَتَارِيخَ الْآدَبِ وَلَا نَتَكَلَّمُ فِيهِ إِلَّا إِنْ
هَذَا وَهْنٌ^(٣) وَتَقْصِيرٌ ، فَلَمَّا طَلَعَ سَرِيرُهُ قَامَ إِلَيْهِ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ :
الْيَوْمَ مَاتَ نِظَامُ الْمَلِكِ وَاللَّسَنِ وَمَاتَ مَنْ كَانَ يُسْتَعْدَى عَلَى الزَّمَنِ^(٤)

(١) وَأَخَذَهُ أَبُو نَوَاسٍ مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابًا

(٢) السَّاقَةُ : جَمْعُ سَائِقٍ وَهِيَ الَّذِينَ يَسُوقُونَ جَيْشَ الْغَزَاةِ وَيَكُونُونَ مِنْ وَرَائِهِ
يَحْفَظُونَهُ ، فَلَعَلَّ هَؤُلَاءِ الْآدِبَاءِ يَرِيدُونَ يَقُولُهُمْ مَنْ كَانَ سَائِقَةَ الْكَرَمِ : أَنَّهُ كَانَ يَحْوَطُ
الْكَرَمَ وَيَحْفَظُهُ فَكَانَ الْجَيْشَ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ جِيُوشَ الْكَرَمِ ، وَالْمُرَادُ : أَنَّهُ أَمِيرُ الْكَرَمِ
إِذْ أَنَّهُ يَحْوَطُهُ وَيَحْفَظُهُ

(٣) وَهْنٌ : ضَعْفٌ

(٤) يُقَالُ : اسْتَعْدَيْتُ الْإِمِيرَ عَلَى فُلَانٍ فَأَعْدَانِي : أَيْ اسْتَعْنَيْتُ بِهِ عَلَيْهِ فَأَعَانَنِي
وَالْإِسْمُ مِنْهُ الْعُدُوٌّ وَهِيَ الْمَعُونَةُ

وَأَظْلَمْتُ سُبُلُ الْآدَابِ إِذْ حُجِبَتْ شَمْسُ الْمَكَارِمِ فِي غَيْمٍ مِنَ الْكَفَنِ
وتقدم الثاني فقال :

تَرَكَ الْمَنَابِرَ وَالسَّرِيرَ تَوَاضَعَا وَلَهُ مَنَابِرُ لَوْ يَشَاءُ وَسَرِيرٌ
ولغيره يُجَنَّبِي الْخِرَاجَ وَإِنَّمَا تُجَنَّبِي إِلَيْهِ تَحَامِدٌ وَأُجُورٌ^(١)
وتقدم الثالث فقال :

وَلَيْسَ قَتِيقُ الْمَسْكِ رِيحٌ خُيُوطِهِ وَلَكِنَّهُ ذَاكَ الشَّاءُ الْمُخْلَفُ^(٢)
وَلَيْسَ صَرِيرُ النَّعْشِ مَا تَسْمَعُونَهُ وَلَكِنَّهُ أَصْلَابُ قَوْمٍ تَقْصَفُ^(٣)

رسالة للجاحظ ينضح فيها عن الجود

«وبعد، فلننظف على كلامهم في الجود وذم البخل : أورد الجاحظ في كتابه «البخلاء» رسالة جميلة جداً نسبها إلى أبي العاصي بن عبد الوهاب ابن عبد المجيد الثقفي - أرسلها إلى رجل من عشيرته، وقد سمع بأنه يجلس إلى قوم من البخلاء، أمثال سهل بن هارون والأصمعي، وقد تأثر بمذهبهم في البخل وامتداحهم إياه، فكتب إليه هذه الرسالة ينعى فيها على البخلاء مذهبهم، ويذم البخل ويتوهم بالجود - ونحن فإننا نقطف من هذه الرسالة تفتاً ونترك سائرها لمن يحب أن يراجعها في كتاب البخلاء - قال :

(١) أجور : جمع أجر وهو الثواب

(٢) قَتِيقُ الْمَسْكِ : استخراج رائحته بشيء نخلطه به، ومسك قتيق : مستخرج الرائحة بخله في غيره - كما يفعلون اليوم به وبالعنبر .

(٣) الاصلاب : جمع صلب وهو العظم من لدن الكاهل إلى العقب، وتقصف : يحذف إحدى التامين أى تقصف والتقصف : التكرس

وهل تزيد حال مَنْ أنفق جميع ماله ، ورأى المكروة في عياله ، وظهر فقره ، وشمت به عدوه ، على أكثر من انصراف المؤمنين عنه ، وعلى بغض عياله ^(١) ، وعلى خشونة اللبس ، وجشوبة المأكل ^(٢) ؟ وهذا كله ، يجتمع في مسك ^(٣) البخيل ، ومضروب على هامة ^(٤) الشحيح ، ومُعجل للثيم ^(٥) ومُلازم للنوع ؛ ألا إن المُنفق قد ربح المحمدة ، وتمتع بالنعمة ، ولم يُعطَل المقدرة ^(٦) ، ووَقَّى كُلَّ خَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ حَقَّهَا ، ووفرَ عليها نصيبها ، والممسك معذب ، يحضر نفسه ، وبالكد لغيره ؛ مع لزوم الحجة ^(٧) ، وسقوط الهمة ^(٨) ، والتعرض للذم والإهانة ، ومع تحكيم العرة السوداء في نفسه ^(٩) وتسليطها على عرضه ، وتمكينها من عيشه ، وسرور قلبه ^(١٠)

إنَّ الله جوادٌ لا يَبخلُ ، وصدوقٌ لا يكذب ، ووَقَّى لا يَغدير ، وحكيمٌ لا يَعجل ، وعدلٌ لا يظلم . وقد أمرنا بالجود ، ونهانا عن البخل ؛ وأمرنا بالصدق ، ونهانا عن الكذب ؛ وأمرنا بالحلم ، ونهانا عن العجلة ؛ وأمرنا بالعدل ، ونهانا عن الظلم ؛ وأمرنا بالوفاء ، ونهانا عن الغدر .

-
- (١) أى بغضهم له (٢) جشوبة المأكل : غلظه وخشونته أو قلة إدامه
 (٣) المسك : الجلد والمراد : النفس والشخص (٤) الهامة : الرأس
 والجمع : هام (٥) اللثيم : الشحيح النفس (٦) أى لم يعطل المقدرة على فعل الخير وكسب الثناء (٧) مع لزوم الحجة : أى مع قيام الحجة عليه في بخله وعجزه عن الزيادة عن نفسه (٨) سقوط الهمة : العجز عن جلائل الأعمال
 (٩) المرة : خلط من أخلاط البدن ، والمزاج الأسود : هو المزاج المضطرب الكثير المخاوف والوساوس
 (١٠) وتسليطها : يعنى أنه بمخاوفه ووساوسه يستهدف للذم ، وتتمكن هذه المرة من نفسه فتتنقص عليه عيشه وتعصف بسروره

فَلَمْ يَأْمُرْنَا إِلَّا بِمَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَزُجِّرْنَا إِلَّا عَمَّا لَمْ يَرْضَهُ لِنَفْسِهِ : وَقَدْ
 قَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ : إِنَّ اللَّهَ أَجودُ الْأَجودِينَ ، وَأَجْدُ الْأَجْدِينَ ؛ كَمَا قَالُوا : أَرْحَمُ
 الرَّاحِمِينَ ، وَأَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . وَقَالُوا فِي التَّأْدِيبِ لِسَائِلِهِمْ ، وَالتَّعْلِيمِ لِأَجْوَادِهِمْ :
 لَا تَجَاوِدُوا اللَّهَ ^(١) فَإِنَّ اللَّهَ - جَلَّ ذِكْرُهُ - أَجودُ وَأَجْدُ . وَذَكَرَ نَفْسَهُ جَلَّ
 جَلَالُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ - فَقَالَ : « ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » ، وَ « ذُو الطَّوْلِ » ^(٢)
 لِإِلَهِهِ إِلَّا هُوَ ، وَقَالَ : « ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » ،



وَذَكَرُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالُوا : لَمْ يَضَعْ دِرْهَمًا عَلَى دَرَمٍ ،
 وَلَا لَيْتَةً عَلَى لَيْتَةٍ . وَمَلَكَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ ، فَقَبَضَ الصَّدَقَاتِ ، وَجُبَيْتُ لَهُ
 الْأَمْوَالُ ، مَا بَيْنَ عُذْرَانَ الْعِرَاقِ إِلَى شَجَرِ عُثْمَانَ ^(٣) إِلَى أَقْصَى خَلِيفِ ^(٤) الْبَيْنِ
 ثُمَّ تُوفِّيَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ ، وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ . وَلَمْ يُسْأَلْ حَاجَةً قَطُّ فَقَالَ : لَا .
 وَكَانَ إِذَا سُئِلَ أَعْطَى ، وَإِذَا وَعِدَ أَرَأَطَمَعَ ، كَانَ وَعْدُهُ كَالْعِيَانِ ^(٥) ، وَإِطَاعُهُ
 كَالْإِنْجَازِ . وَمَدَحَتُهُ الشُّعْرَاءُ بِالْجُودِ . وَذَكَرَتْهُ الْخُطَبَاءُ بِالسَّمَاحِ . وَلَقَدْ كَانَ
 يَهْبُ لِلرَّجُلِ الْوَاحِدِ الضَّاجِعَةَ مِنَ الشَّاءِ ^(٦) وَالْعَرَجَ مِنَ الْإِبِلِ ^(٧) - وَكَانَ
 أَكْثَرُ مَا يَهْبُ الْمَلِكُ مِنَ الْعَرَبِ مِائَةً بَعِيرٍ ، فَيَقَالُ : وَهَبْ هُنَيْدَةً ^(٨) . وَإِنَّمَا

(١) أى لتحاولوا أن تصلوا في الجود إلى مثل جود الله (٢) الطول :
 الإفضال والإنعام (٣) ساحل البحرين عمان وعدن (٤) الخلاف : الكورة
 وهو عند أهل اليمن واحد الخاليف وهي كورها أى المدن والأصقاع
 (٥) العيان : مصدر عاين الشيء : أبصره والمعنى : أن وعده في الوثوق بتحقيقه
 كالشيء المشاهد (٦) الضاجعة : الغنم الكثيرة (٧) العرج من الإبل : ما بين
 السبعين إلى الثمانين وقيل : ما بين الثمانين إلى التسعين ، وقيل : مائة وخمسون وفوق
 ذلك ، وقيل : من خمسمائة إلى الألف (٨) هند وهنيدة : اسم للمائة من الإبل خاصة

يقال ذلك ، إذا أريد بالقول غاية المدح ، ولقد وَهَبَ لرجل ألف بعير .
فلما رآها تزدهم في الهوادي ^(١) قال : أشهد أنك نبى . وما هذا مما تجودُ
به الأنفس .

وأجمعت الأمم كلها بحيلها وسخيتها ومزوجها ، ^(٢) على ذم البخل ، وحمد
الجود ، كما أجمعوا على ذم الكذب وحمد الصدق .

فمن أراد أن يخالف ما وصف الله - جل ذكره - به نفسه ، وما منح من
ذلك نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، وما فطر على تفضيله العرب قاطبة ،
والأمم كافة ، لم يكن عندنا فيه إلا إكفاره واستسقاطه ^(٣)

ولم نزالامة أبغضت جواداً قط ولا حقّرتُهُ ، بل أحبّته وأعظمتُهُ ، بل
أحبّت عقبة وأعظمت من أجله رهطه . ولا وجدناهم أبغضوا جواداً ،
لمجاوزته حمد الجود إلى السرف ، ولا حقّرتُهُ ، بل وجدناهم يتعللون
مناقبه ، ويتدارسون محاسنه ، وحتى أضافوا إليه من نوادر الجليل ^(٤) ما لم يفعله
وتحلّوه ^(٥) من غرائب الكرم ما لم يكن ليبلغه ، ولذلك زعموا أن الشاء في الدنيا
يُضاعف ^(٦) كما تُضاعف الحسنات في الآخرة . نعم ، وحتى أضافوا إليه

(١) الهادية والهادى : العنق ، والهادية من كل شيء : أوله وما تقدم منه فيكون
معنى تزدهم في الهوادي : تزدهم بأعناقها وهذا ما يشاهد في الإبل . أو يكون المعنى :
تزدهم في أوائها وهذا ما شاهد أيضاً في كل قطع
(٢) مزوجها : من امتزج فيه السخاء والبخل فكان وسطاً بين الكريم والبخل
(٣) في اللسان : وأكفرت الرجل : دعوته كافراً ، واستسقاطه : إسقاطه من
بين العقلاء

(٤) الفعل الجليل (٥) نحلوه : نسبوا إليه (٦) يضاعفه الناس أضغافاً
كثيرة بما يضيفون إليه ويزيدون عليه

كل مدح شارد ^(١)، وكل معروف مجهول صاحب . ثم وجدنا هؤلاء بأعيانهم للبخل على ضد هذه الصفة ، وعلى خلاف هذا المذهب : وجدناهم يُغضونه مرة ، ويُحَقِّرونه مرة ، ويُغضون بفضل بغضه ولده ، ويحتقرون بفضل احتقارهم له رَهْطَه ، ويُضيفون إليه من نوادر اللوم ما لم يبلغه ، ومن غرائب البخل ما لم يفعله ، وحتى ضاعفوا عليه من سوء الثناء بقدر ماضعفوا للجواد من حسن الثناء .

وعلى أننا لا نجد الجوانح ^(٢) إلى أمثال الاسخياء ، أسرع منها إلى أموال البخلاء ، ولا رأينا عدد من افقر من البخلاء أقل .

والبخل عند الناس ليس هو الذي يَبْخُلُ على نفسه فقط ؛ فقد يستحق عندهم اسم البخل ويستوجب الذم ، من لا يدع لنفسه هوى إلا ركيه ، ولا حاجة إلا قضاها ، ولا شهوة إلا ركبها وبلغ فيها غايته . وإنما يقع عليه اسم البخل ، إذا كان زاهداً في كل ما أوجب الشكر ، ونوّه بالذكر ، وأدخر الأجر

وقد يُعَاقَبُ البخل ^(٣) على نفسه من المؤن ، ويلزمها من الكلف ، ويتخذ من الجوارى والخدم ، ومن الدواب والخشم ^(٤) ، ومن الآنية العجيبة ، ومن البزة الفاخرة ^(٥) . والشارية الحسنة ^(٦) ، ما بُرِّيَ على نفقة السخي المثرى ^(٧) ويضعف على جود الجواد الكريم ^(٨) فيذهب ماله وهو مذموم ، ويتغير

(١) شارد : نافر ، يريد المدح الغريب الذي لا يخطر عادة بالبال

(٢) الجوانح : جمع جانحة وهي الآفة

(٣) يعلق : يوجب ويكلف (٤) الخشم : الخدم وهي كلمة في معنى الجمع ولا واحد لها من لفظها (٥) البزة : الهيئة : يقال : هو حسن البزة

(٦) الشارة هنا : الزينة واللباس

(٧) برى : يقال : أربى الشيء على كذا : زاد عليه

(٨) ضعف يضعف : من باب كرم ، زاد

حاله وهو ملوم . وربما غَابَ عليه حُبُّ الْقِيَانِ ^(١) واستُهْتِرَ بِالْخِصْيَانِ ^(٢) .
 وربما أَفْرَطَ فِي حُبِّ الصِّيدِ ، واستولى عليه حُبُّ المراكبِ ^(٣) ، وربما كانَ
 إِتْلَافَهُ فِي العُرْسِ وَالْخُرْسِ ^(٤) والوليمة ، وإِسْرَافُهُ فِي الإِعْذَارِ ^(٥) وفي العَقِيقَةِ ^(٦)
 والوكيرة ^(٧) ، وربما ذهبَتِ أَوَالُهُ فِي الوَضَائِعِ ^(٨) والودائع . وربما كانَ
 شَدِيدُ البُخْلِ ، شَدِيدَ الحُبِّ لِلذِّكْرِ ^(٩) ويكونُ يُخْلِعُهُ أَرْشَجٌ ^(١٠) ولوْهه أَقْبَحُ ،
 فَيُنْفِقُ أَوَالَهُ وَيُتْلِفُ خَزَائِنَهُ ، وَلَمْ يَخْرُجْ كَفَافًا ^(١١) وَلَمْ يَنْجُ سَلِيمًا
 كَأَنَّكَ لَمْ تَرَبِّ بِخَيْلًا مَخْدُوعًا ^(١٢) ، وَبِخَيْلًا مَضْعُوفًا ، وَبِخَيْلًا مِضْيَاعًا ، وَبِخَيْلًا

-
- (١) القيان : جمع قينة . بفتح فسكون ، الأمة البيضاء مغنية أو غير مغنية
 (٢) استهتر بالشئ . بالبناء للجهول . : أولع به : والولوع بالخصيان نوع من السرف
 والترف كان شائعا في أيامهم
 (٣) المراكب : جمع مركب والمراد ما يركب من الخيل ونحوها
 (٤) الخرس بالضم والخراس بالكسر : طعام يصنع ابتهاجا بالولادة
 (٥) الإعذار : وليمة الختان وطعام البناء ، الدخلة ،
 (٦) العقيقة : الشاة تذبح في اليوم السابع من ولادة المولود
 (٧) الوكيرة : الطعام يتخذه الرجل ويدعو إليه عند انتهاء ما كان يبنيه
 (٨) الوضائع : جمع وضيفة وهي ما يرفعه الدائن عن المدين من الدين
 (٩) شديد الحب لأن يذكر بما ينفقه من مال في هذه السبيل
 (١٠) أى أعلق بنفسه

- (١١) الأصل في معنى الكفاف : ما يكف عن سؤال الناس ويغنى ، ومعنى لم يخرج كفافا هنا : لم يخرج خاليا من الذم وهو في معنى : ولم ينج سليما
 (١٢) يتخيل كاتب الرسالة أن المخاطب ينكر ما ذهب إليه فهو يتجه إليه
 قائلا : كأنك الخ ، والمضغوف : ضعيف الرأي

نَقَاجَا ^(١) وبخيلة ذهب ماله في البناء، وبخيلة ذهب ماله في الكيمياء ^(٢) ،
وبخيلة أنفق ماله في طمع كاذب ، وعلى أمل خائب ، وفي طلب الولايات ،
والدخول في القَبَالَات ^(٣) ، وكانت فتنته بما يؤمل من الإمرة ^(٤) ، فوق
فتنته بما قد حواه من الذهب والفضة ، وقد رأينا ^(٥) يُنفق على مائدته وفاكهته
ألفَ دِرْهم في كل يوم ، وعنده في كل يوم عُرْسٌ ^(٦) ، وَلَآنَ يَطْعَنَ طَاعِنٌ
في الإسلام ، أهونُ عليه من أن يطعن طاعن في الرغيف الثاني ، وأشقُّ
عصا الدين ، أهونُ عليه من شقِّ رغيف ، لا يَعدُّ الثَّأْمَةَ في عِرْضه ثلثة ،
ويعدّها في ثريدته من أعظم الثَّلَمِ ^(٧)

وإنما صارت الآفاتُ إلى أموال البخلاء أسرعَ والجوائحُ عليهم أكلَبَ ^(٨) ؛

(١) النجاج : المدعى المتباهي بما ليس له

(٢) الكيمياء في ذعهم : تحويل المامدان الخبيسة - بالصناعة - إلى معادن نفيسة ،
أقول : وقد رأيت بعيني رأسي رجلا ثريا من ذوى قرابتنا كان يضرب به المثل في البخل
ولكنه في أواخر أيامه أضاع ثروته التي كانت تبلغ ثلثمائة فدان من أجود أطيان
مديرية الغريبة في سبيل هذا الكيمياء بعد أن تعرف على رجل مغربي قد اشتهر بهذه
الصناعة التي كم خربت من بيوت أمثال هؤلاء البخلاء المخبولين

(٣) القباله - بالفتح - الكفالة ، واسم لما يلتزمه الإنسان من عمل ودين ونحوها ،

والقييل : الكفيل والضامن

(٤) الإمرة : اسم مصدر، من أمر علينا : إذا ولى

(٥) يريد بخيلة من البخلاء

(٦) العرس من معانيه : الوليمة

(٧) الثلثة : الفرجة في الشيء المهْدوم أو المكسور

(٨) أكلب : أضرى وأولع وأشد

لأنهم أقلُّ توكلًا، وأسوأ بالله ظنًا. والجوادُ إما أن يكون متوكلاً، وإما أن يكون أحسنَ بالله ظنًا، وهو على كل حال المتوكل أشبه، وإلى ما أشبهه أنزع^(١)، وكيف أدار أمره، فليس من يتَّكل على خزونه، ويلجأ إلى كَيْفِيسه^(٢) ويرجع إلى جَوْدَةِ احتياطة وشدة احتراسه.

واعْتِلَالُ البَخِيلِ بالحدثان، وسوء الظن بتقلب الزمان، إنما هو كناية عن سوء الظن بخالق الحدثان^(٣)، وبالذي يُحدث الأزمان وأهل الزمان. ولا تجري الأحداث إلا على تقدير المحدث لها؟ وهل تختلف الأزمنة إلا على تصرف من دبرها؟ أولسنا وإن جهلنا أسبابها فقد أيقنَّا بأنها تجري إلى غاياتها؟^(٤) والدليل على أنه ليس بهم خوف الفقر، وأن الجمع والمنع إما أن يكون عادةً منهم، أو طبيعةً فيهم، أنك قد تجد المَلِكَ بخيلاً، وملكته أوسع، وتخرجه أدر، وعدوه أسكن^(٥) وقد علمنا أن الزنج أقصرُ الناسِ مرَّةً^(٦) ورويةً وأذهلهم عن معرفة العاقبة^(٧) : فلو كان سخاؤهم إنما هو لِكَلالِ حُدْمِهم^(٨)،

(١) الضمير في أشبهه يعود إلى المتوكل وأنزع : أميل

(٢) كيفه : عقله وفطنته

(٣) حدثان الدهر : نوابه . واعتلال البخيل بالحدثان : أى تلبسه العطل والأعذار

بالخوف من نواب الدهر الخ

(٤) الفاء من فقد : زائدة، لأن جملة فقد أيقنَّا : خبر ليس

(٥) الخرج والخراج : ما يحصل من غلة الأرض، وأدر : أكثر، وعدوه أسكن :

أى غير متحفز لقتاله وإذن فالمسال موفور لديه

(٦) المرّة : العقل والإحكام

(٧) أى وهم مع ذلك أسخياء

(٨) كلال الحد : أصله فى السيف والسكين ونحوهما والمراد هنا النباء وقلة الذكاء والفطنة

وَتَقْعِمْ عَتْوَهُمْ ، وَقَلَّةَ مَعْرِقَتِهِمْ ، لَكَانَ يَنْبَغِي لِفَارَسٍ أَنْ تَمَكُونَ أَبْخَلَ
 مِنَ الرُّومِ وَتَمَكُونَ الرُّومُ أَبْخَلَ مِنَ الصَّقَالِبَةِ ^(١) ؛ وَكَانَ يَنْبَغِي فِي الرِّجَالِ ، فِي
 الْجَمَلَةِ ، أَنْ يَكُونُوا أَبْخَلَ مِنَ النِّسَاءِ ، فِي الْجَمَلَةِ ، وَكَانَ يَنْبَغِي لِلصِّيَّانِ أَنْ يَكُونُوا
 أَسْحَنَ مِنَ النِّسَاءِ ، وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَقْلُ الْبَخْلَاءِ عَقْلًا ، أَعْقَلُ مِنْ أَشَدُّ
 الْأَجْوَادِ عَقْلًا ؛ وَكَانَ يَنْبَغِي لِلْكَلبِ - وَهُوَ الْمَضْرُوبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي اللَّوْمِ - أَنْ
 يَكُونَ أَعْرَفَ بِالْأُمُورِ مِنَ الدِّيكِ ، الْمَضْرُوبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْجُودِ ^(٢)

وَنَحْنُ لَا نَجِدُ الْجَوَادَ يَفِرُّ مِنْ اسْمِ السَّرَفِ إِلَى الْجُودِ ، كَمَا نَجِدُ الْبَخِيلَ
 يَفِرُّ مِنْ اسْمِ الْبُخْلِ إِلَى الْاِقْتِصَادِ ^(٣) . وَنَجِدُ الشَّجَاعَ يَفِرُّ مِنْ اسْمِ الْمُنْهَزَمِ ،
 وَالْمُسْتَحْيَ يَفِرُّ مِنْ اسْمِ الْحِجْلِ . وَلَوْ قِيلَ لَخَطِيبُ ثَابِتِ الْجَنَانِ : وَقَاحٌ ^(٤) لَجَزِعَ
 - فَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ فَضِيلَةِ الْجُودِ إِلَّا أَنْ جَمِيعَ الْمُتَجَاوِزِينَ لِحُدُودِ أَصْنَافِ
 الْخَيْرِ يَكْرَهُونَ اسْمَ تِلْكَ الْفَضِيلَةِ ^(٥) - إِلَّا الْجَوَادُ ^(٦) ، لَقَدْ كَانَ فِي ذَلِكَ مَا يُبَيِّنُ
 قَدْرَهُ ، وَيُظْهِرُ فَضْلَهُ .

وَلَوْ كَانُوا لِأَوَّلَادِهِمْ يَجْمَعُونَ ، وَلَهُمْ يَكْدُونَ ، وَمَنْ أَجْلِهِمْ يَحْرِصُونَ ،
 لَجَعَلُوا لَهُمْ كَثِيرًا مِمَّا يَطْلُبُونَ ، وَلَتَرَكُوا مُحَاسِبَتَهُمْ فِي كَثِيرٍ مِمَّا يَشْتَهَوْنَ .

(١) الصَّقَالِبَةُ : جَيْلٌ تَتَاخَمُ بِلَادُهُمْ بِلَادُ الْخَزَرِ - فِي الرُّوسِيَا - وَبَحْرُ الْخَزَرِ هُوَ
 بَحْرُ قَزْوِينَ

(٢) وَصَفَ الدِّيكُ بِالْجُودِ لِأَنَّهُ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَدْعُو الدَّجَاجَ وَيُثِيرُ لَهَا الْحَبَّ

(٣) وَنَحْنُ الْخُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْجَوَادَ لَا يَخَافُ مِنْ اسْمِ السَّرَفِ خَوْفَ الْبَخِيلِ مِنْ

اسْمِ الْبَخْلِ لِأَنَّ السَّرَفَ فِي رَأْيِ الْجَوَادِ يَكَادُ يَلْحَقُ بِالْجُودِ

(٤) الْوَقَاحُ : الْقَلِيلُ الْحَبِّ .

(٥) الْفَضِيلَةُ هُنَا : تَجَاوُزُ الْحَدِّ فِي الْفَضِيلَةِ

(٦) إِلَّا الْجَوَادُ ، أَيْ لِإِنَّهُ لَا يَكْرَهُ أَنْ يُلَقَّبَ بِالسَّرَفِ

وهذا بعض ما بقى بعض المورثين إلى الوارثين ، وزهد الأخلاف ^(١) في طول عمر الأسلاف ...

ولو كانوا لأولادهم يمهّدون ، ولهم يجمعون ، لمّا جمع الخِصيانُ
الأوال ، ولمّا كنز الرهبانُ الكنوز ، ولا سترّاح العاقر من ذلّ الرّغبة ^(٢)
ولسليم العقيم من كد الحرص . وكيف ؟ ونحن نجده بعد أن يموت ابنه
الذى كان يعتل به ^(٣) ، والذى من أجله كان يجمع ، على حاله ^(٤) في الطلب
والحرص ، وعلى مثل ما كان عليه من الجمع والمنع

والعامّة لم تُقصر في الطلب والحسرة ^(٥) ، والبُخلاء لم يحدّوا شيئا من جهدهم ^(٦)
ولا أعفوا بعد قدرتهم ^(٧) ، ولا قصرُوا في شيء من الحرص والتحصّر ^(٨) ،
لأنهم في دار قلعة ، بعرض نقلة ^(٩) . حتى لو كانوا بالخلود موقنين ،
لأغفلوا تلك الفضول ^(١٠)

(١) الأخلاف : جمع خلف وهم أبناء الانسان الذين يخلفونه بعد موته
(٢) ذل الطمع والحرص (٣) يعتل به : يتخذة علة وسببا للجمع والمنع
(٤) على حاله : متعلق الجار والمجرور مفعول ثان لتجد (٥) والعامّة الخ كأنه
الحق العامة بالبخلاء ، لصفات البخل فيهم ، والحسرة هنا : الجمع والإمساك
(٦) أى لم يحدّوا جهودهم في سبيل جمع الاموال (٧) اعنى : أنفق العفو من
ماله وهو ما يفضل عن النفقة وبعد قدرتهم : أى بعد اقتدارهم وإيسارهم
(٨) الحصر : البخل

(٩) يقال : الدنيا دار قلعة : أى انقلاع وارتحال ، وقوله : وبعرض نقلة : أى أن
الدنيا دار يعرض فيها انتقال فلا تدوم على حال (١٠) حتى لو كانوا الخ هذا من
الترقي في الدليل يقول : لو كتب لهم الخلود ، لوجب أن يغفلوا طلب ما يزيد على عيشهم
وحالتهم ولجادوا به لو حصل في أيديهم ولكنهم لا يعقلون بسبب ماركب فيهم من
الحرص والجشع

فالبخلُ مجتهد ، والعاميُّ غير مقصِّر . ^(١) فمن لم يَسْتَعِنْ على ما وصفنا بطبيعة قوية ، وبشهوة شديدة ، وبنظر شافٍ ، كان إما عامياً ، وإما بخيلاً شقيماً ^(٢) - فقيم اغذالهم بأولادهم ، واحتجاجهم بخوف التلوث من أزمئتهم ^(٣) ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أفيد كذب عنده كذبة ، وكان جواداً : لولا خصلةٌ ومفكٌ الله عليها ، لشردت بك من وأفيد قوم ^(٤) ... وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : هل لك في بيض اللسَاء وأدم الإبل ^(٥) ، قال : ومن هم ؟ قال : بنو مدلج ^(٦) . قال : يمتنعني من ذاك قراهم الضيف ، وصيلتهم الرحم . وقال لهم أيضاً : إذا نحرُوا ثَجُوا ^(٧) ، وإذا لبوا عَجُوا ^(٨) . وقال الأنصار : مَنْ سَيِّدُكُمْ ؟ قالوا : الحرُّ بنُ قيس ، على أنه يَزَنُّ ^(٩) . فينا يبخل ، فقال : وأى داء أدوا من البخل ؟ جعله من أدوا الداء .

(١) معنى اجتهد البخل هنا أنه يفعل ما يفعل عن احتجاج واقتناع بصواب ما يفعل . أما العامي فليس له من العقل ما به يقيم الحجة على حكرته وإنما هو مسوق إلى ذلك بطبيعته فهو ملحق بالبخل .

(٢) فمن لم يستعن الخ ، على ما وصفنا : على ما بينا من تمكن البخل والجشع من النفوس . والطبيعة القوية : السليمة من العلل النفسية ، أما الشهوة الشديدة : فهو يريد بها الميل الشديد للتخلص من هذا الضعف ، وقوله وبنظر شافٍ : يقصد به التفكير الصحيح المؤسس على البرهان القويم لا السفسة

(٣) تلوث الأزمئة : تغلبها وتنكرها ^(٤) ومقه يمه ، كوثق يثق : أحبه . وشردت بك : أبعدتك وطردتك ، وقوله من وافد قوم : هو بيان للكاف في « بك » . (٥) الأدم : جمع آدم وأدماء ، والأدم في الإبل : لون مشرب سواداً أو بياضاً أو هو البياض الواضح والتقدير : هل لك في قوم الخ أى هل لك في غزو قوم الخ كما يفهم من المقام (٦) بنو مدلج قبيلة من كنانة ^(٧) وقال لهم : أى قال في حقهم ، وثجوا : أسالوا دماء الذبائح في الحج (٨) التلية في الحج قول : ليك اللهم ليك الخ وعج يعج : بالكسر والفتح ، صاح ورفع صوته (٩) يزن : يتهم

وقال الأنصار : أنا والله ، ما علمتكم إلا لتكثروا عند الفزع وتقولون عند الطمع ^(١) ، وقال : كفى بالمرء حرصا رُكوبه البحر ^(٢) . - وقال : لو أن لابن آدم واديين من مال لا يتغنى ثالثا ، ولا يشبع ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب ^(٣) . وقال : السخاء من الحياء ، والحياء من الإيمان وقال : إن الله جواد يحب الجود . وقال : أنفق يا بلال ، ولا تحش من ذى العرش إقلا ^(٤)

هذا ما رأينا اختياره من هذه الرسالة الجاحظية البارعة الجامعة . ونعود إلى سائر معقرياتهم فى الجود والإحسان

كلمة علوية لسيدنا رسول الله

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال : إني أخاف عليكم بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ... قال : فقال رجل : أو يأتى الخير بالشر يا رسول الله ؟ قال : فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأينا أنه ينزل عليه ^(٥) ، فأفاق يمشح عنه الرخصاء ^(٦) وقال : أين هذا السائل - وكأنه حمده - فقال : إنه لا يأتى

(١) لتكثروا الخ : أى لتجتمعوا بجموعكم للنجدة والدود ، وقتلهم عند الطمع : لساقتهم وكرمهم وقلة حرصهم ، والمراد : الطمع فى مغنم حرب أو نحوه
(٢) كفى بالمرء الخ يذم صلى الله عليه وسلم الجشع والحرص على جمع المال ولا سيما عند توقع الخطر كركوب البحر فى تلك الأيام وليس المراد ذم السعى على الرزق الحلال من أى وجه كان ، كما هو ظاهر
(٣) واديين : نهدين (٤) أنفق الخ ، بلال : هو بلال بن حمزة الحبشى مؤذن سيدنا رسول الله
(٥) ينزل عليه : يوحى إليه (٦) الرخصاء : العرق الكثير وكثيرا ما يستعمل

(٥) ينزل عليه : يوحى إليه (٦) الرخصاء : العرق الكثير وكثيرا ما يستعمل

الخير بالشر، وإن مما يُبْذَبُ الربيعُ ما يَقْتُلُ حَبْطاً أو يُبْلِمُ^(١)، إلا آكلةَ
الخَضِرِ^(٢)، فإنها أَكَلَتْ حتى إِذْ اِمْتَلَأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ
فَتَأْكَلَتْ^(٣) وبالت ثم رتعت. وإن هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، ونِعْمَ صاحبُ
المسلمِ دو، إن أعطى المسكينَ واليتيمَ وابنَ السبيلِ. أو كما قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم.



وقال الإمام اللغوي أبو منصور الأزهري^(٤): في هذا الحديث، ثَلان، ضرب
أحدهما للمفرط في جمع الدنيا مع منع ما جمع من حقه، والآخر ضربه للمقتصد
في جمع المال وبذله في حقه، فأما قوله صلى الله عليه وسلم: وإن مما يَنْبِتُ
الربيع ما يَمُتِلُ حَبْطاً، فهو مَثَلُ الحريص المفرط في الجمع والمنع، وذلك أن الربيع
يَنْبِتُ أحرارَ العشبِ^(٥) التي تَحْلُو لَهَا الماشية فتستكثر منها حتى تَنْتَفِخَ بطونها
وتَهْلِكُ، كذلك الذي يجمع الدنيا ويحرص عليها ويشع على ما جمع حتى يمنع ذا
الحق حقه منها، يهلك في الآخرة بدخول النار واستيجاب العذاب - أقول: ويهلك في الدنيا كذلك، وهل لا يعد هلاكاً لمن هذه حاله ما يلاقيه من إزاء
الناس به وازورارهم عنه وانطوائهم له على البغض والحقد والحسد وصنوف
الأذى وعدّهم إياه خنزيراً من خنازير البشر أو مجنوناً من صرعى الأثرة
والأنانية وحب الذات، وبالْحَرِيِّ لا خير فيه لأحد ولا لنفسه وإنما هو لا يعدو

في عرق الحى والمرض (١) الحبط - كما سيمر بك - أن تأكل الماشية فتكثر حتى
تنتفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها فتملك، ويبلغ: يقرب ويدنو من الهلاك
(٢) الخضِر بفتح فكسر جمع خضرة: ضرب من الجنبه أى عروق العشب الغامضة
في الأرض كما سيأتى (٣) ثلّطت: تغوطت وأكثر ما يقال للإبل والبقر والغنم
(٤) هو محمد بن أحمد بن الأزهري، الإمام المشهور في اللغة، صاحب التهذيب
ولد سنة ٢٨٢ وتوفي سنة ٣٧٠ بمدينة هراة إحدى مدن خراسان، فالأزهري نسبة
جده أزهري (٥) أحرار العشب: الرقيق الرطب منه

أن يكون صيرفاً أو حارس مال ليس غير :

يَجْنِي الْغَنَى لِلثَّامِ لَوْ عَقَلُوا مَا لَيْسَ يَجْنِي عَلَيْهِمُ الْعَدَمُ
هُمْ لَا مَوَالِهِمْ وَلَكِنَّ لَهُمْ وَالْعَارُ يَبْقَى وَالْجُرْحُ يَبْلُغُ

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَمْسَكَتَهُ فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَاَلْمَالُ لَكَ

هذا إذا أضاف الشَّحَّ على نفسه إلى الشَّحِّ على ذوى الحقوق

أما إذا آثر نفسه بالتمتع بلذات الدنيا فأى هلاك بعد الذى يصيبه من
الاسقام والالوجاع وسائر أدواء الترف والسرف واجتواء المحرومين إياه
وحقنهم عليه وما عساه يتولد من ذلك كله من الفوائل الاجتماعية التى نرى
أفاعيلها اليوم - قال الأزهرى : وأما مثل المقتصد المحمود فقولته صلى الله
عليه وسلم : **إِلَّا آكَلَةُ الْخَضِرِ فَإِنَّمَا أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلَأَتْ خَاصَرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ**
عَيْنَ الشَّمْسِ فَتَلَطَّتْ وَبَالَتْ ثُمَّ رَتَعَتْ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْخَضِرَ لَيْسَ مِنْ أَحْرَارِ
الْبَقُولِ الَّتِي تَسْتَكْثِرُ مِنْهَا الْمَاشِيَةُ فَتَهْلِكُهَا أَكْلًا وَلَكِنَّهُ مِنَ الْجَنْبَةِ (١) الَّتِي
تَرَعَاهَا بَعْدَ هَبِجِ الشَّجَرِ وَيُبْنِسُهُ ، وَالْمَاشِيَةُ تَرَعُ مِنْهَا شَيْئًا شَيْئًا وَلَا تَسْتَكْثِرُ
مِنْهَا فَلَا تَحْبُطُ بِطَوْنِهَا عَنْهُ . فَضَرَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آكَلَةَ
الْخَضِرِ مَثَلًا لِمَنْ يَقْتَصِدُ فِي اخْتِادِ الدُّنْيَا وَجَمْعِهَا وَلَا يَسْرِفُ فِي الْحِرْصِ عَلَيْهَا
وَأَنَّهُ يَنْجُو مِنْ وَبَالِهَا كَمَا نَجَتْ آكَلَةُ الْخَضِرِ ، أَلَا تَرَاهُ قَالَ : فَإِنَّمَا إِذَا أَصَابَتْ
مِنْ الْخَضِرِ اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ فَتَلَطَّتْ وَبَالَتْ ، وَإِذَا تَلَطَّتْ فَقَدْ ذَهَبَ

(١) أسلفنا أن الجنبه هى الكلال الذى له عروق فى الارض، قال أبو حنيفة الدينورى:
الجنبه ما كان فى نبتته بين البقل والشجر فيكون فوق البقل ودون الشجر مثل الحائط
عما يبقى أصله فى الشتاء ويبيد فرعه ، وسمى جنبه لأنها كما قال الأزهرى صغرت عن
الشجر الكبار وارتفعت عن التى لأرومة لها فى الارض

حبطها، وإنما تحبط الماشية إذا لم تثلط ولم تبل ، ثم حث صلوات الله عليه على إعطاء المسكين واليتيم من هذا المال ، مع حلاوته ورغبة الناس فيه ، ليقبّه الله تبارك وتعالى وبال نعمتها في دنياه وآخرته .



هيهات أن أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى

ومن كلمة لسيدنا على رضى الله عنه في كتاب له إلى عثمان بن حنيف الأنصارى عامله على البصرة: ولو شئت لأهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ، ولباب هذا القمح ، ونسأج هذا القز ، ولكن هيهات أن يغلبتنى هواى ، ويقودنى جشعى إلى تخير الأطعمة ، ولعلّ بالحجاز وباليمامة من لا طمع له فى القرص ، ولا عهد له بالشبع أو أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى ،^(١) وأكبأد حرى ، أو أكون كما قال القائل :

وَحَسْبُكَ عَارًا أَنْ تَبَيْتُ بِيْطَنَةً وَحَوْلَكَ أَكْبَادُ تَحِنْ إِلَى الْقَدِّ^(٢)
أَفْتَعُ مِنْ نَفْسِي بَأْنَ يَقَالُ : هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ
الدَّهْرِ ، أَوْ أَكُونُ أَسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ^(٣) ، فَاخُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ ،
كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّهَا عُلْفُهَا ، أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغْلُهَا تَقَمُّمُهَا ، تَكْتَرِشُ مِنْ
أَعْلَافِهَا ، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا ...

(١) المبطان : الذى لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل ، وغرثى : جائعة

(٢) البيطنة : الكظة ، وذلك أن يمتلئ الإنسان من الطعام امتلاء شديداً ، والقَد : سيور قد - تقطع - من جلد غير مدبوغ . وهذا البيت من أبيات لحاتم الطائي المشهور بالجود (٣) جشوبة العيش : خشونته وغلظه

وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم - وكان من قبلهم مؤدبهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - يَرَوْنَ - وَنِعَمًا رَأَوْا - أن السياسة الرشيدة ، وأن الطريق إلى الإحسان - ولا طريق غيرها - إنما تتحقق بالرغبة عن شهوات الحياة الدنيا ، وتنكّب السرف والترف ، وكانوا يريدون عُملهم على هذه السياسة التي لا سياسة غيرها .

كان الخلفاء الراشدون مُثلاً علياً في الرغبة عن شهوات الحياة الدنيا

قال الربيع بن زياد الحارثي : كنت عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين ، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأمره بالقدوم عليه هو وعماله ، وأن يستخلفوا جميعاً . قال : فلما قدمنا أتيت يَرْفَأَ «مولى عمر» فقلت : يا يرفأُ مُسْتَرَشِدٌ وابن سبيل ... أى الهيئات أحب إلى أمير المؤمنين أن يَرَى فيها عماله ، فأولاً إلى بالخشونة . فاتخذتُ خُفَيْنِ مُطَارِقَيْنِ ^(١) «وايستُ جُبَّةً صوف ولثتُ عمامتى على رأسى» ^(٢) . فدخلنا على عمر ، فصفا بين يديه ، فصعد فينا وصوب ^(٣) فلم تأخذ عينه أحداً غيرى ، فدعاني فقل : مَنْ أنت ؟ قلت : الربيع ابن زياد الحارثي ، قال : وما تتولى من أعمالنا ؟ قلت : البحرين ، قال : كم ترزق ؟ ^(٤) قلت : ألفاً ، قال : كثيرٌ ... فما تصنع به ؟ قلت : أتقوت منه شيئاً وأعود به على أقاربى ، فما فضل عنهم فعلى قراء المسلمين ، قال : فلا بأس ، ارجع إلى موضعك ، فرجعت إلى موضعى من الصف ، فصعد فينا وصوب فلم تقع

(١) طراق النعل : ما أطبقت عليه فخرزت به ، بمعنى مطارقين : خصفت إحداهما

فوق الأخرى (٢) أى أدت بعضها على بعض على غير استواء

(٣) صعد فينا : رفع رأسه فنظر الأعلى ، وصوب : خفض رأسه فنظر الأسفل

(٤) أى كم مرتبك

عينه إلا على فدعاني فقال : كم سنك ؟ قلت : خمس وأربعون سنة ، قال :
الآن - حين استحكمت .^(١) ثم دعا بالطعام وأصحابي حديث عهدهم بلبين العيش ،
وقد تجوّعت له ، فأُتيَ بخُبْزٍ وأكسار بعير^(٢) فجعل أصحابي يعافون ذلك
وجعلت أكل فأجيد ، فجعلت أنظر إليه يا حظي من بينهم ، ثم سبقت في كلمة
تمنيت أني سُخِيتُ في الأرض^(٣) قلت : يا أمير المؤمنين ، إن الناس يحتاجون
إلى صلاحك ، فلو عمدت إلى طعام ألين من هذا ! فرجرتي ، ثم قال :
كيف قلت ! فقلت : أقول - يا أمير المؤمنين - : أن تنظر إلى قوتك من
الطحين فيخبز لك قبل إرادتك إياه يوم ويُطبخ لك اللحم كذلك ، فتؤتى
بالخبز لينا واللحم غريضا^(٤) . . . فسكن من غريبه^(٥) وقال : أههنا غرت ؟^(٦)
قلت : نعم ، فقال : ياربيع ، إننا لو نشاء ملأنا هذه الرحاب من صلاتق
وسباتك وصناب^(٧) ، ولكني رأيت الله عز وجل نعى على قومه شهواتهم

(١) استحكمت : تناهيت عما يضرك في دينك ودنياك

(٢) أكسار : جمع كسر ، والكسر : عظم ليس عليه كثير لحم

(٣) ساخ في الأرض : غاص فيها ودخل

(٤) غريضا : طريا (٥) يريد حديثه (٦) غرت : أى ذهبت يقال : غار

الرجل : إذا أقي الغور وناحيته مما انخفاض من الأرض ، وأنجد : إذا أقي نجدا أو ناحيته

مما ارتفع من الأرض (٧) صلاتق جمع صليقة وهي القطعة المشوية من اللحم

والسباتك : ما يسبك أى ينخل من الدقيق فيؤخذ خالصة وهو ما يسمى الحواري أى

ما يتقى من لباب البر . والصناب : صباغ يتخذ من الخردل والزبيب

(٨) نعى على قوم شهواتهم : عابها ووبخهم عليها . أما الآية التي ذكرها الفاروق

بعد فهي : وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَذَّيْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ

الدنيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ

في الأرض بغير الحق وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ

فقال : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا... ثُمَّ أُمَرَ أَبَا مُوسَى بِإِقْرَارِي وَأَنْ يَسْتَبْدِلَ بِأَصْحَابِي... وهذا من الفاروق هو - فضلا عن أنه الأليق بكل من وُلِّيَ أمر الناس - غاية في السداد والسياسة لرشيدة الحازمة كما قلنا

عظمة الفاروق

في زهده وتقواه

هذا والله المَلِكُ الهنيء

وعما يصح إirاده هنا ما يأتي : لما أتى بالهَرْمُزَان صاحبُ نُسْتَر، إلى عمر ابن الخطاب - وكان هذا الهَرْمُزَان من أعظم تَوَادِ الفُرس ، وكان على مَيْمَنَةِ جيشِ رُسْتَمَ وزير ملك فارس يَزْدَجِرْدَ بن شهریار بن ابرويز في حرب القادسية سنة ١٤ من الهجرة، فلما قتل رستم وانتصر المسلمون فرَّ الهَرْمُزَان بمن بقي من جُنْدِهِ، وما زال المسلمون يتابعونه الغارة بعد الغارة حتى لجأ إلى مدينة نُسْتَر^(١)، وتحصَّن بها، فحاصروه أشدَّ حِصَار، ثم أنزلوه على حُكْمِ الفاروق، فأسلمه قائد جيش المسلمين أبو سَبْرَةَ بن أبي رُفْهم إلى وفد فيهم أنس بن مالك والاحنف بن قيس، فأتوا به إلى الفاروق - وكان الفاروق يلتف في كِسائه وينام في ناحية المسجد، فجعلوا يسألون عنه فيقال : مَرَّ هُنَا آنفاً قَيْضَغُرُ في قلب الهَرْمُزَان، إذ رآه كَبَعَضِ السُّوقِ^(٢)... حتى انتهوا به إلى عمر وهو نائم في ناحية المسجد... فقال الهَرْمُزَان : هذا والله المَلِكُ الهنيء...^(٣) فلما جلس عمر امتلأ قلبُ العِلْجِ^(٤) منه هيبة، لما رأى عنده

(١) نُسْتَر : مدينة عظيمة جعلها عمر بن الخطاب من أرض البصرة لقربها منها
(٢) السُّوق : جمع سوقة كغرفة وغرف، وهم الرعية (٣) إذ لا يحتاج إلى أحراس ولا عدد (٤) العِلْج في الأصل : الحمار الوحشي : وقد أطلقه المسلمون على الرجل من كفار العجم ومن يشبه العجم

من الجِدِّ والاجتهاد، وألَيْسَ مِنْ هَيْبَةِ التَّقْوَى ... ثم نظر عمر إليه وقال :
أَلْهَرُمُزَانُ ! قال : نعم ، فقال عمر : الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشباهه ،
وأمر بنزع ما عليه من الديباج المذهب ، والناج المكلل بالياقوت ، وأمر له
يثوب صفيق^(١) ، وهم بقتله ، فطلب الهرمزان ماء ، وقال : أخاف أن أُقتل
وأنا أشرب ! فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشرب ، فأراقه ، فقال عمر :
والله لا أنخدعُ حَتَّى تُسَلِّمَ ، فأسلم ، وفرض له فى العطاء ألفين ، وأقام
بالمدينة .

نعود إلى عبقرياتهم فى الجود من بابات شتى ... ولقد أسلفنا أن الأرائل
لم يَتَرَكُوا مَعْنَى الْإِطْرَاقِ : * وهل غادرَ الثُّمراءُ من مُتَرَدِّمٍ *^(٢)
وهو معلوم أن الخمر تُنَحِّثُ فى شاربها إذا انتشى هِزَّةً وطرباً وأريجاً
وقد تُحِيلُ البَخِيلَ كَرِيماً ، فإذا قالوا فى ذلك ؟ قالوا : - والقائلُ الْبُخْتَرِيُّ - :
تَكْرَمْتَ مِنْ قَبْلِ الْكُؤُسِ عَلَيْهِمْ فَمَا آسَطَعَنْ أَنْ يُحْدِثَنَّ فَيْكَ تَكْرُماً
وقال أبو نواس :
فَى لَا تُذِيبُ الْخَمْرُ شَحْمَةَ مَالِهِ وَلَكِنْ أَيْادِ عُرْوَدٍ وَبَوَادِي^(٣)
وقال المتنبي :

(١) صفيق : جيد النسيج (٢) صدر يبت لعنرة وتماه :

* أم دل عَرَفْتَ الدار بعد توهم *

وهذا البيت مطلع معلقته ، يقول عنبرة : إن الشعراء قد سبقونا إلى القول ، فلم يدعوا
مجالاً لقائل ، والمتروك فى الأصل : الموضع الذى يرقع ويستصلح
(٣) شحمة ماله : أطيه ، وقوله : ولكن أيا دعود وبوادي ، يقول : ولكنه يعطى
عطاياه قبل الخمر وبعد الخمر ودائماً ، فعطاياه تبتدأ وتعاد

لا تَجِدُ الخمرَ في مَكَارِمِهِ إِذَا انْتَشَى - خَلَّةٌ تَلَا فَاها (١)

والأصل في هذا قول عنتره في معلقته :

وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتَ شِمَائِلِي وَتَكَرَّرِي
وَقَالَ زُهَيْر :

أَخْوِيقَةُ لَا تُهْلِكُ الخمرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ المَالُ نَائِلُهُ
وقد غَضُوا من قول عمرو بن كلثوم :

✽ إِذَا مَا المَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا (٢) ✽

ومعنى ذلك كله أنهم لا يَعُدُّونَ جودَ السَّكرَانِ جُوداً ، وإنما الجودُ
عندهم ما كان من كَرَمٍ فطَرِي لا تَبَعُهُ خمرٌ وما يُشبه الخمرَ . وإذا هم وَصَفُوا
الخمرَ بأنها تُورِثُ شاربها شيئاً يُشبه الكرمَ ، فذاك من باب استِقْصائِهِم
لمعاني الخمرِ وما تحدِّثه في شاربها ، كما قد سيمر بك في بابهِ ...

ولقد سَمَت مَكَارِمُ الأخلاقِ بكثيرٍ مِنْ ذَوِي الأَرِيحِيَّةِ إِلَى أَنَّهُمْ لَا يَقْطَعُونَ
نَوَالِهِمْ عَنْ يَغْضُبُونَ عليهم وَيَنْبِسُ النَّزَى بَيْنَهُمْ ، وقد رَوَى في ذلك أَنَّ

(١) الخلَّة : الخصلة والثلة ، وتلافاها — بحذف إحدى التامين : تلافاها ، أى
تداركها

(٢) عجز : بيت من معلقته وصدره :

✽ مُشْعَشَعَةٌ كَأَنَّ الحَصَّ فِيهَا ✽

يصف الخمر يقول : اسقني الخمر مشعشة ، أى مزوجة بالماء ، فإنها من شدة حررتها
كأنما أُلْقِيَ فيها الحَصّ - وهو الورس - نبات أحمر يشبه الزعفران - وإذا شربناها وسكرنا
جدنا بعقائل أموالنا وسمحنا بذخائر أعلاقنا ، فسخينا : فعل من سخى يسخى سخاء —
وهذه لغة - ولغة فيها وهى سخا يسخو سخاوة ، وثالثة وهى سخو يسخو - ويجوز أن تكون
سخينا صفة ومعناها الحار فيكون المعنى : كأنها حال امتزاجها بالماء وكون الماء حاراً
نور هذا البيت ، وإذن فلا مطعن عليه

بعض النبلاء كان يُجرى على رجلٍ شيئاً ، ثم غَضِبَ عليه ، وحدث أن كتب
أبْنُه إطلاقاتٍ ، ورفِعت إليه الإطلاقاتُ ، وترك اسمَ المَغضوبِ عليه ، فقال له
أبوه : فأين ذِكرُ رِزقِ فلانٍ ؟ فقال : إنَّكَ قد كنتَ غَضِبتَ عليه ، فقال :
يا بُنَيَّ ، غَضِبِي لَا يُسْقِطُ هَبْنِي ... إِنَّ أَبَاكَ لَا يَغْضُبُ فِي النَّوَالِ ...

وحتى المحتاجين المَغضوبِ عليهم كانت أنفُسُهم كريمةً أَيْبَةً ، فقد رُوِيَ
أنَّ بعضهم كان يُجرى على رجلٍ شيئاً ، فغَضِبَ عليه ، فقطَّعه ، ثم رَضِيَ عنه
فردَّه ، فأبى الرجل أن يَقْبَلَه وقال : إني كنتُ أَظُنُّ أن عطاءه مَكْرُمَةٌ ؛ فأما
وقد صار غَضْبُه يَقْطَعُه ، فلا حاجة لي فيه ... وكذلك بَلَغَتْ بهم مكارمُ
الْإِخْلَاق أن يُعْطُوا الْمُعْتَزِّينَ ، أَكَانُوا فُقَرَاءَ أَمْ أَغْنِيَاءَ ، فَلَا يَخْضُونَ ،
وقد رُوِيَ في الخبر : أَعْطُوا السَّائِلَ ولو جاء على فرس ، وروى أيضاً :
كُلُّ مَرْوُوفٍ صَدَقَ ، لَغْنِيٍّ أَوْ فَقِيرٍ ؛ وَيُسَبِّهُونَ مَنْ هَذَا حَالُهُ بِالْغَيْثِ ، قَالَ
ابْنُ الْمُعْتَزِّ :

وَيُصِيبُ بِالْجُودِ الْفَقِيرَ وَذَا الْغْنَى كَالْغَيْثِ يَسْقِي مُجْدِبًا وَمَرِيحًا
وقال المتنبي :

وَيَدُّ لَهَا كَرْمُ الْغَمَامِ لِأَنَّهُ يَسْقِي الْعِمَارَةَ وَالْمَكَانَ الْبَلَقَمَا
وكذلك تَسَامَوْا وَبَاغَوْا مِنْ عِبْقَرِيَةِ الرُّوحِ أَنْ صَارُوا يُعْذُونَ الْإِنْخِدَاعَ
عَنِ الْمَالِ وَالنَّبَالَةِ فِي ابْتِذَالِهِ كَرَمًا ، وَقَالُوا : إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا مَا خَادَعْتَهُ
انْخَدَعَا ... وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْبَحْرِيُّ :

وَإِذَا خَادَعْتَهُ عَنْ مَالِهِ عَرَفَ الْمَسْلَكَ فِيهِ فَانْخَدَعْ

ويقول :

وقد يتغابى المرء عن عظم ماله ومن تحت برّديه المغيرة أو عمرو
 « المغيرة : هو المغيرة بن شعبة ، وعمرو : هو عمرو بن العاص وكانا من
 الدهاة ، ... وقيل لبعضهم : ما الشرف ؟ فقال : الانخداع عن المال ، ولا تجد
 أحداً يتغافل عن ماله إلا وجدت له في قلبه فضيلة لا تقدر على دفعها ،
 وقد أدبنا نبينا صلى الله عليه وسلم بقوله : رحم الله سهل البيع سهل الشراء ،
 وهذا خلاف قول الناس : المغبون غير محمود ولا مأجور ، وقد قال صلى
 الله عليه وسلم : ألا أدلكم على شيء يحبّه الله ورسوله ؟ قالوا : بلى يا رسول
 الله ، قال : التغابن للضعيف ... ومما يروى في هذا الباب ما أورده ابن
 خلكان في ترجمة الوزير الخطير أبي الحسن علي بن الفرات وزير المقتدر بالله
 ابن المعتض بالله العباسي - وكانت وفاته سنة ٣٢٧ هـ - وهو : أن رجلا اتصلت
 عظمته ، وانقطعت مآذنه ، فزور كتابا من أبي الحسن بن الفرات إلى أبي
 زُبَور المارِ داني عامل مصر ، يتضمن الوصاة به والتأكيد في الإقبال عليه
 والإحسان إليه ، وخرج إلى مصر ، فلقّيه به ، فارتاب أبو زُبَور في أمره
 لتغير الخطاب على ما جرت به العادة ، وكون الدعاء أكثر مما يقضيه تحله
 فراعاه مراعاة قريبة ووصله بصلة قليلة ، واحتبسّه عنده على وعد وعده به
 وكتب إلى أبي الحسن بن الفرات يذكر الكتاب الوارد عليه ، وأنفذه بعينه
 إليه ، واستثبته فيه ، فوقف ابن الفرات على الكتاب المزور ، فوجد فيه
 ذكر الرجل وأنه من ذوى الحرّمات والحقوق الواجة عليه ، وعرضه على
 كتابه وعرفهم الصورة فيه وعجب إليهم منها ومما أندم عليه الرجل ، وقال
 لهم : ما الرأي في أمر هذا الرجل عنكم ؟ فقال بعضهم : تأديبه أو حبسه ،
 وقال آخر : قطع إهابه لئلا يعاود مثل هذا ، ولئلا يقتدى به غيره فيما هو

أكثر من هذا، وقال أجمعهم محضراً : يُكشَفُ لأبي زُبَور قصته ، ويُرسَمُ له طَرْدُهُ وحرمانه ، فقال ابن الفرات : ما أبعدكم من الحرية والخيرية : وأنقرَ طباعكم عنها رجل توَّسل بنا وتحمل المشقة إلى مصر في تأميل الصلاح بجَاهِنَا ، واستمداد صنَّع الله عز وجل بالانتساب إلينا ، ويكون أحسن أحواله عند أحسنكم محضراً تكذيب ظَنِّه وتخييب سَعْيِه ! والله لا كان هذا أبداً ، ثم إنه أخذ القلم من دواته ووقع على الكتاب المزور : هذا كتابي ، ولست أعلم لم أنكرت أمره واعتصمتك شبهة فيه ! وليس كلُّ مَنْ خَدَمْنَا وأوجب حقَّنا علينا نعرفه ! وهذا رجل خَدَمَنِي في أيام نَكَبَتِي ، وما أعتقده في قضاء حقِّه أكثر مما كَلَّفْتُكَ في أمره من القيام به ، فأحسن تفقُّده ووفِّر رِفْدَه وصَرَّفَه فيما يعود عليه نفعه ... ورَدَّه إلى أبي زُبَور من يومه ؛ فلما مضت على ذلك مدة طويلة دخل على أبي الحسن بن الفرات رجل ذو هيئة مقبولة وبِزَّة جميلة ، وأقبل يدعو له ويُثني عليه ويُبكي ويُقبل الأرض ، فقال له ابن الفرات : من أنت بارك الله فيك ! - وكانت هذه كلمته - فقال : صاحب الكتاب المزور إلى أبي زُبَور ، الذي صَحَّحَهُ كرمُ الوزير وتفضُّله ، فعل الله به وصنع ، فضحك ابن الفرات ، وقال : كم وصل إليك منه ؟ قال : وصل إلى من ماله ومما قسَّطه على عُمَّالِه وعملِ صرْفَتِي فيه ، عشرون ألف دينار ، فقال ابن الفرات : الحمد لله ، الزَّمنُا ، فإنَّا نُعرِّضُك لما يزدادُ به صلاحُ حالكِ ، ثم اختبره فوجده كاتباً مُبِيناً ، فاستخدمه وأكسبه مالا جزيلاً ...

قِرَى الأضياف

وهناك لون من ألوان الجود، لقد أكثروا فيه القول وافتنوا، وأطالوا في التفاخر به والإشادة بمحاسنه، وجعلوه عنوان الكرم والنجدة والمروءة ووضعوا له آداباً ودساتير. ذلك هو قِرَى الأضياف، ونحن فإننا نختار ذرواً من عقرياتهم في هذا المعنى. وفيما يتأشب إليه وينشعب منه والله المستعان ...

معنى قِرَى الضيف: قال علماء اللغة: يقال: قِرَى الضيف قِرَى وقراء: أضافه وأحسن إليه، واستقراني وأقراني وأقراني: طلب مني القِرَى، وإنه لَقِرَى للضيف، والآثى قِرَى، وكذلك: إنه لِمَقِرَى للضيف ومِقراء، والآثى مِقراءة ومِقراء ...

«وأما بعد، فقد قلنا في البخل إنه جِسْلَةٌ وإنه الأصل وإن الناس لقد حَلَقُوا بخلاء، إلى آخر ما قلنا صدر هذا الباب، وهذا الذي قلنا يقال في قِرَى الأضياف، وأن الأصل هو البُخل بالقِرَى؛ فلنورد عليك شيئاً مما قالوا في البخل بالقِرَى ثم نردفه بالقول على الجود بالقِرَى وحشم عليه، والكلام يدخل بعضه في بعض.

طَرَفٌ مِنْ مُلَحِّهِمْ فِي ذَلِكَ: قال بعض البخلاء لعلامة: هاتِ الطعام، وأَغْلِقِ الباب، فقال الغلام: يا مولاي، ليس هذا بحزم وإنما أُغْلِقُ الباب، وأُقَدِّمُ الطعام، فقال له: أَنْتَ حُرٌّ لَوَجْهِ اللَّهِ ... وطبخ بعض البخلاء قِدْرًا، وجلس يأكل مع زوجته فقال: ما أَطْيَبَ هذا الطعام لولا كَثْرَةُ الزَّحَامِ! فقالت: وأى زحام وما نَمَّ إلا أنا وأنت! قال: أَحِبُّ أَنْ

أكون أنا والقِدْر ... وَعَزَمَ بعضُ إخوانِ أَشْعَبَ عليه ليأكل عنده ، فقال :
 إِنِّي أَخَافُ مِنْ ثَقِيلٍ يَأْكُلُ مَعَنَا فَيُنْقَضُ لَذَّتُنَا ، فقال : ليس عندي إلا ما تُحِبُّ ،
 فَمَضَى معه ، فبينما هما يأكُلان ، إذا بالبَاب قد طُرِقَ ، فقال أَشْعَبُ : ما أَرَانَا إِلَّا
 قَدِ صِرْنَا لِمَا نَكْرَهُ ، فقال صاحبُ المنزل : إِنَّهُ صَدِيقٌ لِي : وفيهِ عَشْرُ خِصَالٍ
 إِن كَرِهْتَ مِنْهَا وَاحِدَةً لَمْ آذَنْ لَهُ ، قال أَشْعَبُ : هَاتِ ، قال : أَوَّلُهَا أَنَّهُ
 لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ ، فقال : التَّسْعُ لَكَ وَدَعُهُ يَدْخُلُ ، فَقَدْ أَمِنَّا مِنْهُ مَا نَخَافُهُ ...
 وَأَكَلَ رَجُلٌ مَعَ بعضِ الْبُخْلَاءِ ، وَكَانَ عَلَى مَائِدَتِهِ أَرْغِفَةٌ هُنَا وَهَنَّاكَ ، فَلَمَّا
 فَرَغَ مِنْ رَغِيفِهِ قَالَ : يَا غُلَامُ ، قِيَمِي ، فَقَالَ الدَّاعِي الْبَخِيلُ : وَمَا تَصْنَعُ بِهِ ؟
 قَالَ : أُرَكِّبُهُ إِلَى ذَلِكَ الرَغِيفِ ... وَحَدَّثَ أَبُو ثُوَّاسٍ قَالَ : قُلْتُ لِرَجُلٍ مِنْ
 أَهْلِ خِرَاسَانَ : لِمَ تَأْكُلُ وَحَدِّكَ ؟ قَالَ : لَيْسَ عَلَيَّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ سُؤَالٌ ،
 إِنَّمَا السُّؤَالُ عَلَى مَنْ أَكَلَ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، لِأَنَّ ذَاكَ تَكْلُفٌ ، وَأَكَلِي وَحْدِي هُوَ
 الْأَكْلُ الْأَصْلِيُّ ... وَأَضَافَ رَجُلٌ أَعْرَابِيًّا ، فَلَمْ يَأْتِهِ بِشَيْءٍ يَأْكُلُهُ حَتَّى غَشِيَ
 عَلَيْهِ مِنَ الْجُوعِ ، فَأَخَذَ يَقْرَأُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ ، فَقَالَ :

لِحُسْبُزٍ يَا أَخِي عَلَيْهِ لَحْمٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حَسَنِ الْقُرْآنِ

تَظَلُّ تُدْهِدُهُ الْقُرْآنَ حَوْلِي كَأَنِّي مِنْ عَفَارِيثِ الزَّمَانِ

وقيل للجِمَاز : مَنْ يَحْضُرُ مَائِدَةَ فُلَانٍ ؟ فقال : أَكْرَمُ خَلْقِ اللَّهِ : الْكِرَامُ
 الْكَاتِبُونَ ... وَاصْطَحَبَ رَجُلَانِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ : نَعَالَ حَتَّى نَأْكُلَ
 مَعًا ، فقال : مَعِيَ خَبِزٌ وَمَعَكَ خَبِزٌ ، فَلَوْلَا أَنَّكَ تَرِيدُ الشَّرَّ لَا كَلْتُمْ وَحَدِّكَ ...
 وقيل لآخر : أَلَا تَأْكُلُ مَعَنَا ؟ فقال : الْجَمَاعَةُ بَجَاعَةٌ ... وَدَخَلَ عَلَى
 ابْنِ لِرْجُلٍ مِنَ الْأَشْرَافِ دَاخِلٌ وَبَيْنَ يَدَيْهِ فَرَارِيجُ ، فَغَطَّى الطَّبَقَ بِمِنْدِيلِهِ
 وَأَدْخَلَ رَأْسَهُ فِي جَنْبِهِ وَقَالَ لِلدَّاخِلِ عَلَيْهِ : كُنْ فِي الْحَجَرَةِ الْآخَرَى حَتَّى

أَفْرَغَ مِنْ بَحُورِي ... وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ يَوْمًا وَالْمَائِدَةُ مَوْضُوعَةٌ
وَالْقَوْمُ يَأْكُلُونَ وَقَدْ رَفَعَ بِمُضْمِهِ يَدَهُ ، فَمَدَّ يَدَهُ لِيَأْكُلَ ، فَقَالَ : أَجْهَزْ عَلَى
الْجَرَحِي ، وَلَا تَتَعَرَّضْ لِلْأَصْحَاءِ ... « يريد : كُلْ مَا كُسِرَ وَنِيلَ مِنْهُ وَلَا
تَعْرِضْ إِلَى الصَّحِيحِ ، وَرَأَى رَجُلٌ الْحُطَيْمَةَ - الشَّاعِرَ الْمَخْضَرَمَ الْعَبْقَرِيَّ اللَّثِيمَ -
وَبِيْدَهُ عَصًا فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ قَالَ : عَجْرَاءٌ مِنْ سَلَمٍ ^(١) ، قَالَ : إِنِّي ضَيْفٌ ، قَالَ :
لِلضَّيْفَانِ أَعْدَدْتُهَا ... وَوَصَفَ أَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : أَلْغُوا مِنَ الصَّلَاةِ الْآذَانَ ،
خَافَةَ أَنْ تَسْمَعَهُ الْآذَانُ ، فَيَهْلَ عَلَيْهِ الضَّيْفَانِ ... وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ شَاعِرٌ :
تَرَأَوْهُمْ خَشْيَةَ الْأَضْيَافِ خُرْسًا يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ بِلَا آذَانٍ

وَكَانُوا يَعُدُّونَ أَنَّ بَيْتَ الرَّجُلِ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَوْعَانٌ ، عَارًا وَشَنَارًا
وَلَوْ مَا رَنَدَالَةٌ ، وَيَتَهَاجِرُونَ بِذَلِكَ ، وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هَذَا قَوْلُ الْأَعَشَى -
مِيمُونِ بْنِ قَيْسٍ - فِي عُلُقَمَةَ بْنِ عُلاَثَةَ :
تَبْتَئُونَ فِي الْمَشَى مِلَاءً يُطُونُكُمْ وَجَارَاتِكُمْ غَرْنِي يَبْنِينَ خَمَائِصًا ^(٢)
وَقَوْلُ بَشَارِ بْنِ بُرْدٍ :
وَضَيْفٌ غَمِرُوا وَغَمِرُوا يَسْهَرَانِ مَعًا غَمِرُوا لِبَطْنِهِ وَالضَّيْفُ لِلْجُوعِ
وَقَالَ شَاعِرٌ :

وَجِيرَةٌ لَا تَرَى فِي النَّاسِ مِثْلَهُمْ إِذَا يَكُونُ لَهُمْ عِيدٌ وَإِفْطَارُ
إِنْ بُوْقِدُوا يُوسِعُونَ مِنْ دُخَانِهِمْ وَلَيْسَ يَبْلُغُنَا مَا تُنْضِجُ النَّارُ

وَمِنْ مُأْجِهِمْ فَمِنْ لَا يُظْفَرُ بِخُبْرِهِ . قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :

(١) العجراة : العصا التي فيها إِبْنٌ - عَقْدٌ - ، وَالسَّلْمُ : شَجَرٌ

(٢) رَوَوْا أَنَّ عُلُقَمَةَ لَمَّا سَمِعَ هَذَا الْبَيْتَ قَالَ : فَضَحْنِي وَاللَّهِ ، اللَّهُمَّ أَخْزِهِ إِنْ لَمْ

يَكُنْ صَادِقًا ، وَغَرْنِي : جَائِعَاتٌ ، وَمِثْلُهُ خَمَائِصُ

وما خُبزُهُ إِلَّا كَعَنْقَاءٍ مُّغْرَبٍ ^(١) نُصَوِّرُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ وَفِي الْمَنَازِلِ
وقال الآخر :

قد فرّ من منزله فأرهُ وعاذَ بالجيران مرتزقا
وهذا من قول امرأة لزوجها : والله ما يقيم الفأر في دارك إلا لب
الوطن ، وقد تقدم آنفا ... وقيل لبخيل : إنك تُكريم خبزك وتهين
لإكرامه نفسك ! فقال : كيف لأفعل ذلك والخبز هو الذي أخرج آدمَ
وحواءَ وإبليسَ والطاؤُسَ من الجنة ... وتعدى الجواز عند هاشميّ ، فر الغلام
بصحفة فقطر منها قطرة على ثوب الجواز ، فقال الهاشمي : آتته بطست يغسلها ،
فقال الجواز : دعه ، فرقتكم لا تُغيّر الثياب ... يريد : لادسمَ فيها ،

تفاخرهم بالإحسان إلى الضيف والجار : ولأنهم يعدُّون شِيعَ المرءِ
وجارهُ جائع ، عارا - كما تقدم - تراهم يتفاخرون بإكرام الضيف والجار ،
ومن أحسن ما قيل في ذلك قول عروة بن الورد :

وإني امرؤٌ عافٍ إناثي شِرْكَةً وأنت امرؤٌ عافٍ إناثك واحدٌ

(١) عنقاء مغرب وعنقاء مغربٌ . مغربة : طائر معروف الاسم مجهول
الجسم ، قال ابن الكلبي : كان لأهل الرس نبي يقال له حنظلة بن صفوان ، وكان
بأرضهم جبل يقال له دح مضعده في السماء ميل ، فكان ينتابه طائفة كأعظم ما يكون
لها عنق طويل ، من أحسن الطائر ، فيها من كل لون ، وكانت تقع منقضة فكانت
تنقض على الطير فتأكلها فجاءت وانقضت على صبي فذهبت به فسميت عنقاء مغربا
لأنها تغرب - تبعد - بكل ما أخذته ، ثم انقضت على جارية ترعرعت وضمتهما إلى
جناحين لها صغيرين سوى جناحيها الكبيرين ، ثم طارت بها فشكوا ذلك إلى نبيهم ،
فدعا عليها فساط الله عليها آفة فهلكت ، فضربتها العرب مثلا في أشعارها ويقال :
ألوت به العنقاء المغرب ، وطارت به العنقاء ...

أَقْسَمُ جِسْمِي فِي جِسْمٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَّاحَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدٌ
 « العافى : طالب المعروف ، يريد بالبيت الأول : أنه ليس من شرار
 الناس يأكل وحده ، وقوله : والماء بارد : كنى بذلك عن تحمله ضرر نفسه
 وعبرة بعض الشراح : يقول عروة : إن قُوَّتَهُ الذى هو قِوَامُ رَمَقِهِ ومُقيم
 جِسْمِهِ ، يطعمه ويؤثر به على نفسه ، وأنه عند الجهد وشدة الزمان يَحْسُو
 الماء وَيَسْقَى اللبن ، فإنما رَغْبَةُ الجِوَادِ فى المَالِ لِيَهَبَهُ ، وطلبُهُ لَهُ لِيُنْهَبَهُ . »
 وفى هذا المعنى يقول مِسْكِينُ الدارِمى - وهو شاعر شجاع من أهل العراق
 كان فى زمن معاوية بن أبى سفيان - :

إِنِّ أَدْعُ مِسْكِينًا فَمَا قَصَرْتُ قَدَرِي يَبُوتُ الْحَيَّ وَالْجُدْرُ^(١)
 مَامَسَ رَحْلِي الْعَنْكَبُوتُ وَلَا جَدِيَاتُهُ مِنْ وَضْعِهِ غُبْرُ^(٢)
 لَا أَخْذُ الصَّيَّانَ أَلْتَمُهُمْ وَالْأَمْرُ قَدْ يُغْزَى بِهِ الْأَمْرُ^(٣)
 وَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ تَرَكْتُ وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَ لِقَائِهِ سِتْرُ
 لَا يَزْهَبُ الْجِيرَانُ غَدَرَتْنَا حَتَّى يُوَارِيَ ذِكْرُنَا الْقَبْرُ

(١) قوله فَمَا قَصَرْتُ قَدَرِي الخ : فَيَبُوتُ فاعل قصرت ، يقول : إن قدرى بارزة
 لاتحجبها السواتر والحيطان ، يصف نفسه بأنه مضياف جواد محسن إلى جيرانه
 (٢) قوله مَامَسَ رَحْلِي الْعَنْكَبُوتُ الخ : كناية مليحة عن مواصلته السير لأن
 العنكبوت إنما ينسج على مالا تناله الأيدي ولا يكثر استعماله ، والجديات جمع جدية
 بسكون الدال وهى باطن دقة الرجل ، يقول : إن جديات رحله ليست غبراء
 لكثرة ترحاله

(٣) يقول : لَا أَقْبِلُ الصَّبِيَّ وَأَنَا أُرِيدُ التَّعَرُّضَ لَامِهِ ، وَمَا أَحْلَى قَوْلَهُ : وَالْأَمْرُ قَدْ
 يُغْزَى بِهِ الْأَمْرُ . ويُغْزَى : يقصد ، ومثل هذا قول عقيل بن علفة :

وَلَا أَلْقِي لِذِي الْوَدَاعَاتِ سَوَاطِي أَلَا عِبُهُ وَزَلَّتْهُ أُرِيدُ
 وزلته يروى وغزته يروى وربته ، والأعبه يروى لآلهيه . وللشعراء فى هذا المعنى
 كثير ، وهو معنى يدل على أن العرب غاية فى الفطنة ودقة الملاحظة وأنهم لاتخذعهم

لَسْنَا كَأَنفُوسٍ إِذَا كَلَّخَتْ إِحْدَى السَّنِينَ فَجَارَهُمْ تَمَرٌ^(١)
 مَوْلَاهُمْ لَحْمٌ عَلَى وَضْمٍ^(٢) تَنْتَابُهُ الْعِقَابُ وَالنَّسْرُ
 نَارِي وَنَارُ الْجَارِ وَاحِدَةٌ وَإِلَيْهِ قَبْلِي تُنْزَلُ الْقِدْرُ^(٣)
 مَاضِرٌ جَارِي إِذْ أُجَاوِرُهُ أَنْ لَا يَكُونَ لَبِيَّتِهِ سِتْرُ
 أَغْشَى إِذَا مَا جَارَتِي تَحَرَّجَتْ حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي الْحِذْرُ^(٤)
 وَيَصْمُ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا سَمْعِي وَمَا بِي غَيْرُهُ وَقَرُّ^(٥)

ظواهر الأمور عما تخفى وراءها . وغواة الناس إلى يومنا هذا قد استغلوا هذا المعنى استغلالا مكشوفاً فبجهم الله .

(١) جَارَهُمْ تَمَرٌ : أى يستحلى الغدر به كما يستحلى التمر
 (٢) الوضْمُ : خشبة الجزار التى يقطع عليها اللحم ، وتركهم لحما على وضْمٍ : أى أذلم
 (٣) يروى أنه كان لمسكين هذا امرأة تماضه - تلاحيه وتنازعه - فلما قال : نَارِي
 ونَارُ الجَارِ واحدة قالت له : أجل ، إنما ناره ونارك واحدة لأنه أوقد ولم توقد ، والقدر
 تنزل إليه قلبك ، لأنه طبخ ولم تطبخ وأنت تستطعمه ، ولما قال أن لا يكون لبيته ستر
 قالت له : أجل ، إن كان له ستر هتكته
 (٤) من دقائق هذه اللغة ما قاله صاحب الكشف فى تفسير قوله تعالى : ومن يعش
 عن ذكر الرحمن ، قال : بضم الشين وفتحها ، والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة فى
 بصره قبل عَشَى - أى والمضارع يَعْشَى ، وإذا نظر نظر العُشَى ولا آفة به قيل عشا -
 والمضارع يَعْشُو - ونظيره عَرَجَ لمن به آفة وعَرَجَ لمن مشى مشية العرجان من غير
 عرج قال الخطيئة :

مَتَى نَأْتِيهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرٌ مَوْقِدٍ
 أى تنظر إليها نظر العُشَى لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء ، فعنى
 الفتح : ومن يعم عن ذكر الرحمن وهو القرآن ، وأما القراءة بالضم فمعناها ومن يتعام
 عن ذكره ، أى يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغافل . (٥) الوقر : الثقل فى الأذن

وصية بخيل لابنه

وهاك وصية بخيل لابنه أراد بها أن ينصح ابنه بالتقليل من الطعام ،
شحاً وكرازةً ، ولكنه أودعها على الرغم منه نصائح قيمة يجمل أن نتخذ
دستوراً في الطعام لمن أراد أن يصح ويعافى ، فهي حق أريد بها باطل ، ومن
ثم اخترناها ، وهى وصية جاحظية أوردها الجاحظ في كتابه البخلاء ونسبها
إلى رجل يسمى أبا عبد الرحمن الثورى كان يحب الرأس - رأس الضأن وغير
الضأن - قال الثورى لابنه - :

إياك ونهم الصبيان ^(١) ، وشرة الزراع ^(٢) ، وأخلاق النوايح ^(٣) ودع
عنك خبط الملاحين ^(٤) والفعلة ^(٥) ونهش الأعراب والمهنة ^(٥) . وكل ما بين
يديك ؛ فإتما هو حقك الذى وقع لك ، وصار أقرب إليك ؛ وأعلم أنه إذا كان
فى الطعام شئ طريف ، ولقمة كريمة ، وضغمة شهية ، فإنما ذلك للشيخ
المعظم ، والصبي المدلل . واست واحداً منهما . فأنت قد تأتى الدعوات

-
- (١) النهم : إفراط الشهوة فى الطعام (٢) الشرة : غلبة الحرص على الطعام .
ولما خص شره الزراع لأنهم أهل كد ونصب وحركة فيشرهون إلى الطعام لفرط
ما يذلون من قواهم البدنية (٣) النوايح جمع نائحة : اسم يقع على النساء يجتمعن
فى مناحة ، ولعله يريد أن النوايح ينحن ما ينحن فإذا حضر الطعام أقبلن عليه شرهات
ونسين ما كن فيه من بكاء وعويل (٤) الملاح : نوق السفينة ، والخبط : السير
على غير هدى ، والفعلة : عملة الطين ونحوه . يقول : لا تذهب فى الطعام على غير هدى .
كالملاحين ، ولا تكن غنياً فى أكلك كما تفعل المفعله
(٥) يقول : لا تنهش اللحم كما ينهش الأعراب الجفاة وكما ينهش المهنة : جمع ماهن .
وهو العبد الخادم

والولائم، وتدخل منازل الإخوان، وعهدك باللحم قريب. وإخوانك أشد قَرَمًا إليه منك، وإنما هو رأس واحد، فلا عليك أن تتجافى عن بعض وتُصيب بعضا. وأنا - بعد - أكره لك الموالاة بين اللحم، فإن الله يُبغض أهل البيت اللّحمين^(١) وكان يقول: إياكم وهذه المجازر فإن لها ضراوة كضراوة الخمر^(٢) وكان يقول: مُدْمِنُ اللحم كُدْمِنِ الخمر. وقال الشيخ - ورأى رجلا يأكل اللحم، فقال: لحمٌ يأكلُ لحماً... أف لهذا عملاً!

وقال الأول: أهلك الرجال الأحران: اللحم والخمر، وأهلك النساء الأحران الذهب والزعفران^(٣)... أى بُنى، عَوْدَ نَفْسِكَ الأثرية^(٤)، ومجاهدة الهوى والشهوة.^(٥) ولا تنهش نهش الأفاعى، ولا تخضم خضم البراذين^(٦)، ولا تديم الأكل لإدامة النعاج، ولا تَلْقَمَ لَقَمَ الجمال، إن

(١) هذا حديث أورده ابن الأثير في النهاية هكذا: إن الله يبغض أهل البيت اللحمين، قيل هم الذين يكثرون أكل لحوم الناس بالغيبة: وقيل: هم الذين يكثرون أكل اللحم ويدمنونه، وهو أشبه...

(٢) في اللسان: وفي حديث عمر: اتقوا هذه المجازر فإن لها ضراوة كضراوة الخمر، أراد مواضع الجزارين التي تنجر فيها الإبل وتنزع البقر والشاة ويبيع لحانها وإنما نهام عنها لأنه كره لهم إدمان أكل اللحوم، وجعل لها ضراوة كضراوة الخمر، أى عادة كماداتها، لأن من اعتاد أكل اللحوم أسرف في النفقة فجعل العادة في أكل اللحوم كالعادة في شرب الخمر، لما في الدوام عليها من السرف في النفقة والفساد

(٣) فالذهب للحلية والزعفران للتطيب

(٤) الأثرية: اسم مصدر من أثر بؤثر إثثاراً، أى عَوْدَ نَفْسِكَ أن تؤثر غيرك على نفسك (٥) ومجاهدة الخ: لما أنه يريد المعنى العام وإما يريد: لا تطلق لنفسك العنان فيما تشتهيه وتمواه من ألوان الطعام (٦) الخضم: الأكل بجميع الفم والبراذين: جمع برذون كفرعون وهو من الخيل العظيم الخلقة الجافيا الغليظ الأعضاء

الله قد فضلك ، فجعلك إنساناً ؛ فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعا ، واحذر
سرعة الكظة ^(١) ، وسرف البطن ، وقد قال بعض الحكماء : إذا كنت بطينا
فعد نفسك في الزمى ^(٢) . وقال الأعشى :

• والبطن مما تُسفه الأحلاما ^(٣) •

واعلم أن الشبع داعية البشم ^(٤) ، وأن البشم داعية السقم ، وأن السقم
داعية الموت . ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة . وهو قاتل نفسه ،
وقاتل نفسه ألوم من قاتل غيره ^(٥) أى بُنى ، إن القاتل والمقتول في النار ^(٦)
ولو سألت حذاق الأطباء لأخبروك أن عامة أهل القبور إنما ماتوا بالتخمر
وآعرف خطأ من قال : أكلة وموتة ! وأخذ بقول من قال : رب أكلة تمنع
أكلات ^(٧) . وقد قال الحسن البصري - : يا ابن آدم كل في ثلك بطنك ، واشرب في
ثلك بطنك ، ودع الثلك للتفكر والتنفس . وقال بكر بن عبدالله المزني ^(٨) :
ما وجدت طعم العيش حتى استبدلت الخمص بالكظة ^(٩) ، وحتى لم ألبس من

(١) الكظة : الامتلاء من الطعام ، وسرعة الكظة أن يسرع إليه الامتلاء وهو لا يزال
يتناول الطعام فيتفاقم عليه الأمر

(٢) البطن : عظيم البطن من كثرة ما يأكل . والزمى : ذور العاهات الذين يدوم
مرضهم زمنا طويلا (٣) الأحلام : العقول وتسفه الأحلام : تطيشها والبيت :

يأبى المنذر بن عبدان والبطن سنة مما تسفه الأحلاما
(٤) البشم : التخممة من كثرة الأكل (٥) ألوم من قاتل غيره : أحق منه
بأن يلام (٦) يقول : إن من مات بالتخممة فقد قتل نفسه فهو قاتل ومقتول في
وقت معا فهو في النار على رأيه

(٧) أى لما ينشأ عنها من الأمراض (٨) كان من أفاضل التابعين صالحا
عتيا قال الجاحظ : وكانوا إذا ذكروا البصرة قالوا : شيخها الحسن وقتاها بكر ...
مات سنة ١٠٨ هـ (٩) الخمص : الجوع أى حتى اتخذت الجوع بدل الكظة

ثيَابِي مَا يَسْتَعْدِمُنِي^(١)، وَحَتَّى لَمْ أَكُلْ إِلَّا مَا لَا أُغْسِلُ يَدِي مِنْهُ ! يَا بُنَيَّ، وَاللَّهِ مَا أَتَى
حَقَّ الرُّكُوعِ، وَلَا وَظِيفَةَ السَّجُودِ، ذَرِ كِبَظَةً، وَلَا خَشَعَ لَهِ ذُو بَطْنَةٍ^(٢)،
وَالصُّومَ مَصَحَّةً^(٣)، وَالوَجَبَاتُ عَيْشَ الصَّالِحِينَ^(٤)، ثُمَّ قَالَ : لِأَمْرِ مَا^(٥)،
طَالَتْ أَعْمَارُ الْهِنْدِ^(٦)، وَتَحَتَّ أَبْدَانُ الْأَعْرَابِ . لِلَّهِ دَرُّ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ^(٧)،
حِينَ زَعَمَ أَنَّ الدَّوَاءَ هُوَ الْأَزْمُ^(٨)، وَأَنَّ الدَّاءَ هُوَ ادِّخَالُ الطَّعَامِ فِي أَثَرِ الطَّعَامِ !
أَيُّ بُنَيَّ لِمَ صَفَّتَ أَذْهَانَ الْعَرَبِ؟ وَلِمَ صَدَقْتَ أَحْسَاسُ الْأَعْرَابِ^(٩)؟ وَلِمَ صَحَّتْ
أَبْدَانُ الرُّهْبَانِ، مَعَ طَوْلِ الْإِقَامَةِ فِي الصَّوَامِ؟ وَحَتَّى لَمْ تَعْرِفِ التَّقَرُّسَ،
وَلَا وَجَعَ الْمَفَاصِلِ، وَلَا الْأَوْرَامِ؛ إِلَّا لِقَلَّةِ الرِّزْقِ^(١٠) مِنَ الطَّعَامِ، وَخِيفَةِ الرَّادِ،
وَالْتَبَلُّغِ بِالْيَسِيرِ^(١١)

أَيُّ بُنَيَّ، إِنْ نَسِمْ الدُّنْيَا وَرَوْحَ الْحَيَاةِ^(١٢) أَفْضَلَ مِنْ أَنْ تَبْدِثَ كَطِيفًا،

(١) يَسْتَعْدِمُنِي : أَيُّ يَجْدَانِي خَادِمًا لَهُ أَيُّ بِالْمَحَافَظَةِ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ ثَمِينٌ
(٢) يَقُولُ : إِنْ الْمَمْتَلِيَّ طَعَامًا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَرْكُعَ فِي الصَّلَاةِ تَمَامَ الرُّكُوعِ وَلَا أَنْ
يَسْجُدَ تَمَامَ السَّجُودِ، وَالْخُشُوعَ وَتَفْرِيقَ الْقَلْبِ لِلَّهِ تَعَالَى لَا يَكُونُ مَعَ التَّخَمُّعِ وَالْعَنَاءِ مِنْهَا
(٣) مَصْحَةٌ : يَصْحُ عَلَيْهِ (٤) الْوَجَبَاتُ جَمْعُ وَجْبَةٍ وَهِيَ الْإِكْلَةُ الْوَاحِدَةُ
فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ

(٥) لِأَمْرِ مَا : أَيُّ لِأَمْرِ عَظِيمٍ (٦) أَيُّ أَعْمَارِ أَهْلِهَا (٧) طَيْبُ الْعَرَبِ
سَافِرٌ إِلَى فَارِسٍ وَتَعَلَّمَ هُنَاكَ الطَّبَّ وَاشْتَهَرَ فِيهِ وَتَالَ بِهِ مَا لَا وَادْرَكَ الْإِسْلَامُ
(٨) أَزْمُ، مِنْ بَابِ ضَرْبٍ : أَمْسَكَ عَنِ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ رَوَى أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ
سَأَلَ الْحَارِثَ بْنَ كَلْدَةَ عَنِ الطَّبِّ، فَقَالَ : هُوَ الْأَزْمُ، يَعْنِي : الْحَيَاةُ

(٩) الْإِحْسَاسُ جَمْعُ حَسٍّ وَهُوَ الشُّعُورُ بِالشَّيْءِ (١٠) الرِّزْقُ هُنَا : مَا يَصِيبُهُ الْإِنْسَانُ
مِنْ طَعَامٍ (١١) التَّبَلُّغُ بِالْيَسِيرِ : الْإِكْتِفَاءُ بِهِ (١٢) رَوْحُ الْحَيَاةِ : رَاحَتُهَا وَمَا
يَسْتَرْوِحُ إِلَيْهِ

وَأَنْ تَكُونَ لِقِصْرِ الْعُمْرِ حَافِظًا . وَكَيْفَ لَا تَرْغَبُ فِي تَدْيِيرِ بِجَمْعٍ لَكَ صِحَّةَ
الْبَدَنِ ، وَذِكَاةَ الذَّهْنِ ، وَصَلَاحِ الْمَعْنَى ، وَكَثْرَةَ الْمَالِ ، وَالْقُرْبَ مِنْ عَيْشِ
الْمَلَائِكَةِ^(١) ؟ أَى بَنَى ، لَمْ صَارَ الضُّبُّ أَطْوَلَ شَيْءٍ عُمرًا ؛ إِلَّا لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَعِيشُ
بِالنَّسِيمِ^(٢) ؟ وَلَمْ قَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الصَّوْمَ وَجَاءَ^(٣) ، إِلَّا لِیَجْعَلَ
الْجُوعَ حِجَازًا دُونَ الشَّهَوَاتِ . أَى بَنَى . قَدْ بَلَغَتْ تِسْعِينَ عَامًا مَا نَعَضَ لِي^(٤)
سِنَّةً ، وَلَا تَحْرَكَ لِي عَظْمٌ^(٥) ، وَلَا انْتَشَرَ بِي عَصَبٌ^(٦) ، وَلَا عَرَفْتُ ذَنْبَ
أَنْفٍ^(٧) ، وَلَا سَيَّلَانَ عَيْنٍ^(٨) ، وَلَا سَلَسَ بُولٌ^(٩) ، مَا ذَلِكَ عِدَّةٌ إِلَّا التَّخْفِيفُ
مِنَ الزَّادِ . فَإِنْ كُنْتَ تُحِبُّ الْحَيَاةَ فَهَذِهِ سَبِيلُ الْحَيَاةِ ، وَإِنْ كُنْتَ تُحِبُّ
الْمَوْتَ ، فَلَا يُبْعِدُ اللَّهُ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ .



بخيل يبيع القرى

ونزل جريرٌ - الشاعر الإسلامي الأشهر - بقوم من بني العنبر بن عمرو
ابن تميم فلم يقرؤهُ ، حتى اشترى منهم القرى ، فأنصرف وهو يقول :

(١) إذم : لا يأكرون ولا يشربون (٢) كون الضب لا يعيش إلا بالنسيم ولا
يأكل ألبسة غير صحيح ولكن الثوري نقل خرافة قديمة (٣) وجاء : مانع
من الشهوات

(٤) نفخ : اضطرب وتحرك ويروى نقص (٥) لعله يريد بالتحرك
الانواء كاحديداب الظهر (٦) الانتشار : الانتفاخ في العصب للإلتعاب
(٧) الذنين : المخاط الرقيق الذى يسيل من الأنف ويروى ذنين أذن والذنين صوت
الذباب ونحوه من هينة الكلام الذى لا يفهم والمراد ما يشبه هذا الصوت فى الأذن
من الكبر (٨) هو ما يحدث فى الكبر من ضعف العينين فتسيل منها دموع وسوائل
أخرى (٩) سلس البول : استرساله وعدم استمساكه لحدوث مرض بصاحبه

يَا مَالِكُ ابْنَ طَرِيفٍ إِنَّ بَيْعَكُمْ رَفَدَ الْقَرَى مُفْسِدٌ لِلدِّينِ وَالْحَسْبِ
 قَالُوا نَبِيعُكُمْ بَيْعًا فَقُلْتُ لَهُمْ بَيْعُوا الْمَوَالِي وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْعَرَبِ
 لَوْلَا كِرَامُ طَرِيفٍ مَا غَفَرْتُ لَكُمْ بَيْعِي قِرَائِي وَلَا أَنْسَأْتُكُمْ غَضَبِي
 هَلْ أَنْتُمْ غَيْرُ أَوْشَابٍ زَعَانِفَةٍ رِيَشُ الذَّنَابِي وَلَيْسَ الرَّأْسُ كَالذَّنَبِ
 «قوله : بَيْعُوا الْمَوَالِي وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْعَرَبِ ، قال المبرد : تزعم الرواة : أَنَّ
 جِلَّةَ الْمَوَالِي - عُظَمَاءَهُمْ - أَتَوْا مِنْ هَذَا الْبَيْتِ ، لِأَنَّهُ حَطَّهُمْ وَوَضَعَهُمْ وَرَأَى
 أَنَّ الْإِسَاءَةَ إِلَيْهِمْ غَيْرُ مُحْسوبةٍ عَيْنًا ... وقوله : وَلَا أَنْسَأْتُكُمْ غَضَبِي ، يقول :
 لَمْ أُؤَخِّرْهُ عَنْكُمْ ، وقوله : هَلْ أَنْتُمْ غَيْرُ أَوْشَابٍ زَعَانِفَةٍ ، فالأشابة الجماعة تدخل
 فِي قَوْمٍ وَلَيْسَتْ مِنْهُمْ وَقَدْ تَطْلُقُ الْأَوْشَابُ عَلَى أَخْلَاطِ النَّاسِ تَجْتَمِعُ مِنْ كُلِّ
 أَوْبٍ ، مَاخُودٌ مِنْ أَشْبِ الشَّيْءِ كَضَرْبٍ . خَلَطَهُ ، وَأَمَّا الزَّعَانِفُ فَأَصْلُهَا
 أَجْنَحَةُ السَّمَكِ ، سُمِّيَ بِذَلِكَ الْأَدْعِيَاءُ لِأَنَّهُمْ انْصَقُوا بِالصَّمِيمِ كَمَا انْصَقَتْ تِلْكَ
 الْأَجْنَحَةُ بِعِظَامِ السَّمَكِ ،

عقرياتهم في قرى الأضياف

قال الله جلَّ شأنه في مدح قوم : وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا
 وَيَتِيمًا وَأُسِيرًا ... وقال سيدنا رسول الله : أَيُّمَا رَجُلٍ ضَافَ قَوْمًا فَأَصْبَحَ
 الضَّيْفُ مُحَرُّومًا ، فَإِنْ نَصَرَهُ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ حَتَّى يَأْخُذَ بِقَرَى لَيْلَتِهِ مِنْ
 زُرْعِهِ وَمَالِهِ ^(١) ...

(١) قال الإمام العلقمي : قال شيخنا : هذا الحديث وما هو بسبيل منه كان في أول
 الأمر حين كانت الضيافة واجبة ، وقد نسخ وجوبها . أقول : وعلى أنه نسخ وجوبها
 فلا تزال معدودة في باب الفضائل الإنسانية المرغوب فيها والمثاب عليها والدالة على
 النجيزة البازة الكريمة

وفي الحديث أيضا : الخَيْرُ أَسْرَعُ إِلَى مُطْعِمِ الطَّعَامِ مِنَ الشَّفَرَةِ فِي سَنَامِ
 البعير « الشَّفَرَةُ : السكين العظيمة العريضة » وقال صلوات الله عليه : ليس
 منا من بات شعبانَ وَضِيفَهُ بَطْنُهُ طَاوٍ . وقال تعالى في مدح القائم بخدمة
 ضيفه : هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرممين ؟ قيل وصفهم بذلك لأنه
 قام بخدمتهم بنفسه ... ونزل ضيف على جعفر بن أبي طالب ، فتخفف هو
 وغلبلانه عند نزوله وعاونوه في حلولة ، فلما أراد الارتحال عنهم لم يُعِضْهُ
 غلبانُهُ ، فشكاهم فقال : إن غلباتنا لا يعينون على الارتحال ... وقالوا : أمدح
 بيت قاله العرب قول حسان بن ثابت :

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهْرُ كَلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
 « يقول : قد أنست كلابهم بالزوار فهي لا تتبجهم ، وهم من شجاعتهم
 لا يسألون عن جيش يقبل نحوهم لقلة اكترائهم ولثقتهم ببسالة أنفسهم
 وشدتهم على أعدائهم ، ومثل هذا قول أبي تمام :

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لآية حرب أو لآية مكان
 أو تقول : لا يسألون عن السواد المقبل ، أى أنهم في سعة لا يهولهم الجمع
 الكثير ، لستهم وسخائهم »

وقال إبراهيم بن هرمة من أبيات في ابتهاج الكلب بالضيف :
 يكاد إذا ما أبصرَ الضيفَ مُقْبِلًا يُكَلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمُ
 وقال حاتم الطائي وهو سيد الأجراد بالطعام :
 أضحك ضيفي قبل إنزال رجليه ويُخِصُّ عِنْدِي وَالْمَحَلُّ جَدِيدُ
 وما الخِصُّ إلا ضياف أن يكثر القرى
 ولكنما وجه الكريم خِصيبُ

ومن قولهم في الحث على ترك التكلف وتعجيل الحاضر: سُئِلَ أَقْرَى
أهل اليمامة للضيف: كيف صَبَطْتُمُ الْقَرَى؟ قال: بأن لا تتكَلَّفَ مَا لَيْسَ
عِنْدَنَا... وقال بعضهم: الضيفُ إلى القليل العاجل أحوَجُ منه إلى الكثير
الآجل، أما سمعت قول الله تعالى: فَمَا كَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَنِيذٍ^(١) وقال
تعالى: إلى طعامٍ غيرِ ناظرينِ إِيَّاهُ... «أى غير متظرين نُضِجَهُ وإدراكه
وبلوغه، يقال: أنى يأنى: إذا نُضِجَ»

ومن قولهم فيمن أثر على نفسه: قولُ صوفيٍّ لآخر: كيف يعمل
فقراؤكم؟ قال: إذا وجدوا أكلوا، وإذا عَدِمُوا صَبَرُوا، فقال: هذا فِعْلُ
الكلاب، إن الفقير منا إذا عَدِمَ صَبَرَ، وإذا وَجَدَ طعاماً أثر به غيره...
وقالوا في وصف الرجل الكريم يَسُوءُ خلقه مع أهله خوف التقصير:
والقائل زنبب بنت الطَّيْزِية ترى أخاها يزيد:

إذا نَزَلَ الْأَضْيَافُ كَانَ عَذَوْرًا عَلَى الْأَهْلِ حَتَّى تَسْتَقِلَّ مَرَاجِلُهُ
يُعِينُكَ مَظْلُومًا وَيُنْجِيكَ ظَالِمًا وَكُلُّ الَّذِي حُمِّلَتْهُ فَهُوَ حَامِلُهُ
«العَذَوْر: السبي الخلق القليل الصبر فيما يريد به، وإنما جعلته
عَذَوْرًا لشدّة تهّمه بأمر الأضياف وحرصه على تعجيل قِراهم حتى تستقل
المراحل على الأثافي^(٢)، والمراجل: القُدُور واحدُها مِرْجَل. وقوله:
وينجيك ظالماً، أى إِنْ ظَلَمْتَ فَطَوَّلْتَ بِظُلْمِكَ حَاكَ وَمَنَعَ مِنْكَ،

(١) حذ الشاة: شواها وجعل فوقها حجارة لحماية لتضجها نهى حنيد

(٢) الأثافي: جمع أثفية: وهى الحجر توضع عليه القدر وثلاثة الأثافي: القطعة
من الجبل يجعل القدر عليها وعلى حجرين أَمَاهَا ويقال: رماه بثلاثة الأثافي: أى
بالشر كله

هذا؛ ومن السنة - كما ورد في الحديث - أن يَمْشِيَ الرجل مع ضيفه إلى باب الدار .

وقد كان الأضياف يُعطون النُدْلَ وَيَرْضَخُونَ لهم بالمال ^(١) فقد رَوَى بعضهم قال : رأيت ابن عباس في وَلِيمة فأكل وألقى للخباز درهما .

محادثة الضيف

وكانوا يُجَاه محادثة الضيف على الطعام فربقن ، فربقن يَسْتَجِبُهُ ويستحسنه ، ومن صاحب الدعوة أَحْسَنُ ، وقالوا في ذلك : محادثة الإخوان - تزيد في لذة الطعام . وقال شاعرهم :

وأكثر ما أَلَذُّ به وأَلْهُو محادثة الضيف على الطعام

وأما الفريق الآخر فيكره الحديث على المائدة وقالوا في ذلك : مَنْ أَكثَرَ الكلام على طعامه غَشَّ بطنه وَثَقُلَ على إخوانه . وقال الجاحظ في كتابه « التاج » : وَلِشَيْءٍ مَا كَانَتْ ملوك آل ساسان - إذا قُدِّمَتْ مَوَائِدُهُمْ - زَمَزَمُوا عليها ^(٢) ، فلم يَنْطِقْ نَارِطٌ بِحَرْفٍ حَتَّى تَرْفَعَ ، فإن اضْطُرُّوا إلى كلام ، كان مكانه إشارة أو إيماء يدلُّ على الغرض الذي أرادوا والمعنى الذي قصدوا . . . وكانوا يقولون إنَّ هذه الأطعمة بها حياة هذا العالم ، فينبغي للإنسان أَنْ يَجْعَلَ ذِهنَه في مَطْعَمِهِ وَيَشْغَلَ رُوحَه وَجَوَارِحُه فِيهِ ، حتى تَأْخُذَ كُلُّ جَارِحَةٍ بِقِسْطِهَا من الطعام ، فيَتَغَذَّى بها البدنُ وَالرُّوحُ الحيوانية التي في القلب والطبيعة التي في الكبد ، اغتذاءً تاماً ، وتقبُّله الطبيعة قبولاً جامعاً . قال الجاحظ : وفي تركِ الكلام على الطعام فضائل كثيرة هي في آيئهم ^(٣) . . .

(١) النُدْل : خدم الضيافة : ويقال : رَضَخَ له من ماله رَضْخَةً : أعطاه قليلاً من كثير

(٢) الزمزمة : تراطن الملوِّج على أكلهم وهم صموت (٣) آيئهم : قانُونهم ودستورهم

وقال المسعودى فى مروج الذهب : ذكروا أن كيرمرث هو أول من أمر بالسكوت عند الطعام ، لتأخذ الطبيعة بقسطها ، فيصلح البدن بما يرد إليه من الغذاء ، وتسكن النفس عند ذلك ، فتدبر لكل عضو من الأعضاء تدبيرا يؤدى إلى ما فيه صلاح الجسم من أخذ صفو الطعام ، فيكون الذى يرد إلى الكبد وغيره من الأعضاء القابلة للغذاء ما يناسبها وما فيه صلاحها ، وإن الإنسان متى شغل عن طعامه بضرب من الضروب ، انصرف قسطن من التدبير وجزء من التغذى إلى حيث انصباب الهمة ووقوع الاشتراك ، فأضر ذلك بالنفس الحيوانية والقوى الإنسانية ، وإذا كان ذلك دائما أدى ذلك إلى مفارقة النفس الناطقة المميّزة الفكرية لهذا الجسد المرنى ، وفى ذلك ترك للحكمة وخروج عن الصواب ... أقول : وقد أبدت التجارب الحديثة هذا المذهب ، إذ تحققت أن الكلام على الطعام مدرّجته لسوء الهضم ... ولأنى بحمد الله لعلّى هذا المذهب مذّنشأتى ، أى أنى بفطرتى لا أتحدّث على الطعام ، حتى عدّ ذلك أهلى ومن يخاطونى مغمّرا فى يشف عما وراءه ، بما يشبه النّهم وليس به يعلم الله وإنماهى الفطرة التى فطرنى الله عليها ، ومن خلّقى أنى أعدّ الكلام على الطعام ضربا من التكلف الذى لا أستسيغه ... على أن الأكل مهمة حيوانية سخيّة يجمّل أن لا يحتفل بها هذا الاحتفال الكسروى الذى نراه هذه الأيام ، ورحم الله جمال الدين الأفغانى إذ يقول : ودّدت لو أنى خلقت مضمّتا^(١) وقبله قال الخليل بن أحمد : أثقل ساعاتى الساعة التى آكل فيها ، أو كما قال :

أما محادثة الأضياف على غير الطعام : فمن المجمع على استحسانه ، وفى

(١) المصمت : الذى لا جوف له

ذلك يقول مسكين الدارمي أو عتبة بن بحير :

لِحَافِي لِحَافِ الضَّيْفِ وَالْبَيْتُ بَيْتُهُ وَلَمْ يُلْهِني عَنْهُ الْغَزَالُ الْمُنْعَعُ
أُحَدِّثُهُ إِنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقُرَى وَتَعَلَّمُ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ
« الغزال المنفع : زوجته ، ويهجع : ينام ، يريد أنه يحديثه ويقرّيه بهذا
الحديث حتى ينام »

وكانوا لكرمهم يُفضلون الاجتماع على الأكل ويستقبحون التفرد :
شكا رجل إلى سيدنا رسول الله قلة البركة في طعامهم ، فقال : لعلمكم تنفرون
على طعامكم ! قال : نعم ، قال : اجتمعوا عليه واذكروا اسم الله لديه ...
وفي الحديث أيضا : أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ ؟ : من أكل وحده ، وضرب
عَبْدَهُ ، ومنع رِفْدَهُ ، « الرّفْد : العطاء » ... وقال قيس بن عاصم المِنقرى :
إِذَا مَا ضَنَعْتُ الزَّادَ فَالْتِمِسِي لَهُ أَكِيلًا فَإِنِّي لَسْتُ أَكِلُهُ وَحْدِي ^(١)

(١) بعده :

قَصِيًّا كَرِيمًا أَوْ قَرِيبًا فَإِنِّي أَخَافُ، ذَمَّاتِ الْأَحَادِيثِ مِنْ بَعْدِي
وَكَيْفَ يُسْبِغُ الْمَرْءُ زَادًا وَجَارَهُ خَفِيفُ الْمَتَى بَادِيَ الْخَصَاصَةِ وَالْجَهْدِ
وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ يُبْلِغُ أَطْرَافَ الْأَكِيلِ عَلَى عَمْدِ
وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلًا وَمَا فِي إِلَّا تِلْكَ مِنْ شِبَعَةِ الْعَبْدِ
وقوله قصيا كريما أو قريبا فإني : هذا من طريق المعاني وذلك أنه لم يحتج
إلى أن يشترط في نسبته الكرم لأنه ضمن ذلك واشترط في القصي أن يكون كريما
لأنه كره أن يكون مؤاكلة غير كريم . ورواية الاغانى :

« أَخَا طَارِقًا أَوْ جَارِ بَيْتِ فَإِنِّي »

وروا أن قيسا لما قال فالتسي له أكيلاً : أرسلت زوجته جارية فأتته بأكيل وقالت :
أبي المرء قيس أن يذوق طعامه بغير أكيل لأنه لكريم

وقال عبد الله بن المعتز في اجتماع الأيدي على الطعام:
 كَانَ أَكْفَ الْقَوْمِ فِي جَفَنَاتِهِ قَطَا لَمْ يُنْفَرُهُ عَنِ الْمَاءِ صَارُخٌ ^(١)
 وكانت العرب تعدّ التفرد بالأكل احتقَابَ وَزِرٍ ^(٢) حتى أنزل الله عز
 و تقدّس : ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ^(٣)...

السؤال

وعبقرياتهم فيه ، من جميع نواحيه

ذَمّ السؤال : لما احتضر قيس بن عاصم المنقري ^(٤) سيد أدل الورّ ، قال

(١) الجفّنات : جمع جفنة : القصعة الكبيرة

(٢) يقال : احتقَب فلان الإثم والوزر : احتمله ، كأنه جمعه واحتمبه من خلفه ،
 أى جعله في حتمية ، والحتمية الوعاء الذي يجعل الرجل فيه زاده وكانوا يجعلونها خلفهم
 على الراحلة (٣) قال البيضاوي : نزلت هذه الآية في بني ليث بن عمرو من كنانة ،
 كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده ؛ أو في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف
 لا يأكلون إلا معه ؛ أو في قوم تخرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطبائع في
 الفذارة والنهم

(٤) تقدم له ذكر فيما أسلفنا وهذا قيس هو الذي يقول فيه عبدة بن الطيب يرثيه
 - وعبدة شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم وكان في جيش النعمان بن مقرن الذين
 حاربوا معه الفرس بالمداين - :

وما كَانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هَلْكَ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهْدِمًا
 وعبدة هذا هو صاحب الآيات التي روى أن عبد الملك بن مروان قال يوماً لجلسائه : أى
 المناديل أفضل ؟ فقال قائل منهم : مناديل مصر كأنها غرقى البيض ، وقال آخرون
 مناديل اليمن ، كأنها نور الربيع ، فقال عبد الملك : بل مناديل أخى بنى تميم : عبدة بن
 الطيب حيث يقول :

لبنيه : يَا بَنِيَّ ، احفظوا عَنِّي ثَلَاثًا ، فَلَا أَحَدٌ أَتَصَحَّ لَكُمْ مِنِّي ، إِذَا أَنَا مِتُّ
 فَسَوِّدُوا كِبَارَكُمْ وَلَا تُسَوِّدُوا صِغَارَكُمْ ، فَيَحَقَّرَ النَّاسُ كِبَارَكُمْ وَتَهُونُوا
 عَلَيْهِمْ ، وَعَلَيْكُمْ بِحِفْظِ الْمَالِ ، فَإِنَّهُ مَنبَهَةٌ لِلْكَرِيمِ وَيُسْتَفْنَى بِهِ عَنِ اللَّئِيمِ ،
 وَإِيَّاكُمْ وَالْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهَا آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ ... سَوِّدُوا كِبَارَكُمْ : فَالسَّيِّدُ هُنَا
 الرَّئِيسُ أَيْ أَسَدُوا رِيَاسَتَكُمْ إِلَى كِبَارَكُمْ ، وَمَنبَهَةٌ لِلْكَرِيمِ : أَيْ مُشْعِرٌ بِقُدْرِهِ
 وَمُغْلٍ لَهُ ، وَقَوْلُهُ : فَإِنَّهَا آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ فَأَحْرُ بِقَصْرِ الْمَهْذَةِ : أَيْ أَذْنِ
 وَأَرْدَلِ ، وَإِذَا مُدَّ فَمَعْنَاهُ : أَنَّ السُّؤَالَ آخِرُ مَا يَكْتَسِبُ بِهِ الْمَرْءُ عِنْدَ الْعِجْزِ عَنِ
 الْكَسْبِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ إِيَّاكُمْ وَالْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهَا آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ ،
 فَلَعَلَّ قَيْسًا أَخَذَهَا مِنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ، لِأَنَّهُ قَيْسًا مَنِ اسْلَمَ وَنَزَلَ الْبَصْرَةَ
 وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا : مَنْ سَأَلَ وَهُوَ غَنِيٌّ جَاءَتْ مَسْأَلَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَدُوشًا
 أَوْ نُخُوشًا أَوْ كُدُوحًا فِي وَجْهِهِ «الْكُدُوحُ : الْخَدُوشُ ، وَكُلُّ أَثَرٍ مِنْ خَدَشَ
 أَوْ عَضَّ فَهُوَ كَدَحٌ ، وَقَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : إِنْ أَحَدُكُمْ يَخْرُجُ بِمَسْأَلَتِهِ مِنْ
 عِنْدِي مُتَأَبِّطًا ، وَمَا هِيَ إِلَّا النَّارُ ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَلِمَ تُعْطِيهِ
 وَهِيَ نَارٌ ؟ فَقَالَ : يَأْتُونَ إِلَّا أَنْ يَسْأَلُوا وَيَأْتِي اللَّهَ لِي الْبُخْلُ ... وَقَالُوا :
 إِيَّاكَ وَطَلَبَ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ فَإِنَّهُ فَقَرٌّ حَاضِرٌ ، وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ : السَّخَاءُ
 سَخَاءَانِ : سَخَاؤُكَ بِمَا فِي يَدِكَ ، وَسَخَاؤُكَ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، وَهُوَ أَمَحْضٌ فِي

لَمَّا نَزَلْنَا ضَرَبْنَا ظِلَّ أَخِيَّةٍ وَفَارَ لِلْقَوْمِ بِاللَّحْمِ الْمَرَاجِيلُ
 وَرَدَّ وَأَشَقَرُ مَا يُؤْنِيهِ طَابَخُهُ مَاغِيرَ الْغَلَى مِنْهُ فَهُوَ مَا كَوُلُ
 نُمَتَّ قُنَا إِلَى جُرْدٍ مُسَوْنَةٍ أَعْرَافُهُنَّ لَا يَدِينَا مَنَادِيلُ

«يعني بالمراجيل : المراحل فزاد فيها الياء ضرورة ، وما يؤنيه : ما ينضجه ، والجرد

المسومة : الخيل

الكرم، وأبعدُ من الدّنس، ومن جمعهما فقد استكمل الفضل... وقال شاعرٌ :
 لَا تَحْسَبَنَّ الْمَوْتَ مَوْتَ الْبَلَى وإنما الموتُ سُؤالُ الرِّجَالِ
 كِلَاهُمَا مَوْتُ وَلَكِنَّ ذَا أَشَدُّ مِنْ ذَاكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ
 وقد كانوا يتحملون المكارةَ تفادياً من السؤال : روى الأصمعي قال : مررت
 بكنّاس بالبصرة يَكْنُسُ كنيفاً وَيُغْنِي :

أضاعوني وأَيَّ قَتَى أضاعوا لِيَوْمِ كَرِيمَةٍ وَسِدَادٍ تُغِيرُ ^(١)
 فقلت له : أما سِدَادُ الكنيفِ فأنت مَلِيٌّ بِهِ ^(٢) ، فلا عِلْمَ لِي بِكَ كَيْفَ
 أَنْتَ فِيهِ ، وكنتُ حَدِيثَ السَّنِّ فَأردت العَبَثَ بِهِ - فَأعرض عَنِّي مَلِيّاً ثُمَّ أَقْبَلَ
 عَلَيَّ وَأَنشد مُتَمَثِّلاً :

وَأُكْرِمُ نَفْسِي إِنِّي إِنْ أَهْنَيْتُهَا وَحَقَّقَ لَمْ تَكْرُمْ عَلَيَّ أَحَدٌ بَعْدِي
 قال الأصمعي : فقلت له : والله ، ما يكون من الهوانِ شيءٌ أَكْثَرَ مِمَّا بَذَلْتُمُ الْهَـ ،
 فَبأَيِّ شَيْءٍ أَكْرَمْتُمَهَا؟ فقال : بَلَى ، والله ، إِنْ مِنْ الْهَوَانِ لَشَرٌّ أَمَا أَنَا فِيهِ ، فقلت : وما هو؟
 فقال : الْحَاجَةُ إِلَيْكَ وَإِلَى أَمْثَالِكَ مِنَ النَّاسِ ، فأنصرفتُ عَنْهُ أَخْزَى النَّاسِ... ومثله
 ما روى أَنَّ أَبَا عَمْرٍو بْنَ الْعَلَاءِ قَالَ : اجْتَزَتْ بِكَنَّاسٍ يُنْشِدُ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْرِفْ لِنَفْسِكَ قَدْرَهَا هَوَانًا لَهَا كَانَتْ عَلَى النَّاسِ أَهْوَانًا
 فقلت : سبحان الله ، أَتَنْشِدُ مِثْلَ هَذَا وَتَتَعَاطَى مِثْلَ هَذَا الْفِعْلِ؟ فقال :
 إِنْ إِنْشَادِي لِمِثْلِهِ أَصَارَنِي إِلَى هَذَا ، فَرَارًا مِنْ ذُلِّ السُّؤَالِ ...



(١) سيمر بك حديث طريف عن هذا البيت في موضع آخر من هذا الكتاب

(٢) مَلِيٌّ بِهِ : مضطلع به

ذم الإلحاح والحث على الإجمال في الطلب :

في الحديث : إن الله يُبْغِضُ من عباده السائل المُلْحِفَ ، وقال حكيم :
لَا يُكْثِرَنَّ الرَّجُلُ عَلَى أَخِيهِ الْمَسْأَلَةَ ، فَإِنَّ الْعِجْلَ إِذَا أَفْرَطَ فِي مَصِّ أُمِّهِ
نَطَخَتْهُ وَنَحَّتَهُ ، وقال بشار بن برد : * وَلَيْسَ لِلْمُلْحِفِ مِثْلُ الرَّدِّ *
ووقع بعض الكبار في قصة مُلْحِحٍ مُكْثِرٍ للسؤال : دَغَ هَذَا الضَّرْعُ
يَدِرَّ لغيرك كما دَرَاكَ . وقالوا : اطلبوا الحاجات بعِزَّةِ النفس فإن يَسُدَّ الله
قضاءها ... وقال ابن الرومي في الإحسان يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِهِوَان :

إِذَا أَنَا نَالْتَنِي فَوَاضِلُ مُفْضِلٍ فَأَهْلًا بِهَا مَا لَمْ تَكُنْ بِهِوَانِ
فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْهُوَانُ قَرِيبَهَا فَبُعْدًا لَهَا مَا يَنْقُضِي لِأَوَانِ
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَلْتَذُّ شَهْدًا بِعَلَقَمِ أَبَتْ لَهَوَاتِي ذَاكَ وَالشَّفَتَانِ
يَدُ مَكَانًا مِنْ كَرِيمٍ يَصُونُنِي وَإِلَّا فِلي رِزْقٍ بِكُلِّ مَكَانِ

دقة موقف السائل : ومن عبقرياتهم في صعوبة موقف من يسأل لنفسه
شيئا ولا سيما إذا كان ممن يُكْرَمُونَ أَنْفُسَهُمْ :

قال سعيد بن العاص : موطنان لَا أَعْتَدِرُ مِنَ الْعِيِّ فِيهِمَا : إِذَا سَأَلْتُ
حَاجَةً لِنَفْسِي ، وَإِذَا كَلَّمْتُ جَاهِلًا ... وسار الفضل بن الربيع - الوزير كان - إلى
أبي عباد في نكبتِهِ يسأله حاجة ، فَأَرْتَجَّ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو عِبَادَ : هَذَا
اللِّسَانُ خَدَمَتْ خَلِيفَتَيْنِ ! فَقَالَ الْفَضْلُ : إِنَّا تَوَدُّنَا أَنْ نُسْأَلَ لَا أَنْ
نُسْأَلَ ... وَكَلَّمَ أَعْرَابِيٌّ خَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ، وَتَلَجَّجَ فِي كَلَامِهِ ، فَقَالَ :
لَا تَلْنِي عَلَى الْاِخْتِلَاطِ ، فَإِنَّ مَعِيَ ذُلَّ الْحَاجَةِ وَمَعَكَ عِزُّ الْاِسْتِغْنَاءِ ...

عقبرياتهم في آداب السؤال واستنجاح الحوائج

ولهم في السؤال وآدابه واستنجاح الحوائج ودستوره، تحاسن رأينا أن ننيل بها، إتماماً لهذا الباب، فمن ذلك حثهم على سؤال الشبان دون الشيوخ، والصباح دون القباح، والكريم الفقير دون الغني اللثيم. وهذا لعمري من حذق الأوائل وتفطنهم إلى طبائع النفوس...

قال حكيم: طلب الحوائج عند الشبان أسهل منها عند الشيوخ، ألا ترى أن يعقوب عليه السلام لما سأله بنوه أن يستغفر لهم قال: سوف أستغفر لكم ربى، وقال يوسف عليه السلام: لا تريب عليكم اليوم... وفى الأثر: اطلبوا الحوائج إلى حسان الوجوه^(١)... وسئل ابن عائشة عن هذا الحديث فقال: معناه: اطلبوها من الوجوه التى يحسن بالمرء أن يطلبها منها... وقال البهترى:

مَنْ حَسَنَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَسَجَا بَاهُ وَأَعْطَاهُ كُلَّ الْكُلْفَا

وقال السرى الرقاء:

صَرَفْتُ عَنِ الْكَثِيرِ الْوَفْرِ طَرْفِي وَهَا أَنَا لِلْقَلِيلِ الْوَفْرِ رَاجٍ^(٢)

وَكَمْ مِنْ نُظْفَةٍ عَذَبَتْ وَكَانَتْ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ بَحْرِ أَجَاجٍ^(٣)

وقالت امرأة من ولد حسان بن ثابت:

(١) فى الجامع الصغير: اطلبوا الخير إلى حسان الوجوه

(٢) الوفّر: المال الكثير (٣) النطفة: الماء القليل الصافى يبقى فى الدلو

أو القربة ونحوها، وأجاج: ملح مُر

سَلِ الْخَيْرَ أَهْلَ الْخَيْرِ قَدَمًا وَلَا تَسَلْ

فَتَى ذَاقَ طَنَمَ الْعَيْشِ مُنْذُ قَرِيبٍ

وقال مسلم بن قتيبة : لَا تَطْلُبَنَّ حَاجَتَكَ إِلَى كَذَابٍ ، فَإِنَّهُ يُقَرِّبُهَا وَهِيَ بَعِيدٌ ، وَيُبَعِّدُهَا وَهِيَ قَرِيبٌ ^(١) ، وَلَا إِلَى أَحَقِّ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيُضُرُّكَ . وَلَا إِلَى رَجُلٍ لَهُ عِنْدَ مَنْ تَسْأَلُهُ الْحَاجَّةَ حَاجَّةٌ ، فَإِنَّهُ لَا يُؤَثِّرُكَ عَلَى نَفْسِهِ . وقال شاعر :

لَا تَطْلُبَنَّ إِلَى لَيْمٍ حَاجَةً وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ قَائِمًا كَالْقَاعِدِ

يَا خَادِعَ الْبُخْلَاءِ عَنْ أَمْوَالِهِمْ هَيْهَاتَ تَضْرِبُ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ

وقال بعض الأدباء : عَلَيْكَ بِذِي الْحَصْرِ الْبَيْكِيِّ ^(٢) ، وَبَذِي الْحَيْمِ الرِّضِيِّ ^(٣)

فَإِنَّ مَثَالًا مِنْ شِدَّةِ الْحَيَاءِ وَالْعِيَّ ، أَنْفَعُ فِي الْحَاجَةِ مِنْ قِطَارٍ مِنْ لِسَانِ سَلِيلٍ وَعَقْلٍ ذَكِيٍّ ، وَعَلَيْكَ بِالشَّهْمِ النَّذْبِ ^(٤) الَّذِي إِنْ عَجَزَ أَيَّاسُكَ ، وَإِنْ أَطْمَعَكَ ... وقال الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَا تَسْتَعِنْ عَلَى حَاجَتِكَ إِلَّا بِمَا يُحِبُّ نَجَاحَهَا لَكَ ... وقال ابن عباس : لَا تَسْأَلَنَّ حَاجَةً بِاللَّيْلِ ، وَلَا تَسْأَلَنَّ أَنْعَمِي ، فَإِنَّ الْحَيَاءَ فِي الْعَيْنَيْنِ .

ومن آداب السؤال عندهم أَنْ لَا يُتَجَاوَزَ الْحَدُّ فِيهِ : قَالُوا : مَنْ سَأَلَ

(١) بعيد وقريب : يوصف بهما المذكر والمؤنث والمفرد والجمع ومنه قوله تعالى : وَإِنْ رَحِمَ اللَّهُ قَرِيبَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ،

(٢) الحصر : ضرب من العي ، والبكي : القليل الكلام

(٣) الحيم : الخلق والطبيعة والسجية والأصل ، قال :

وَمَنْ يَتَّبِعْ مَا لَيْسَ مِنْ حَيْمٍ نَفْسَهُ يَدْعُهُ وَيَغْلِبُهُ عَلَى النَّفْسِ حَيْمُهَا

(٤) الشهم : الذكي الفؤاد ، المتوقد النجد النافذ في الأمور ، والنذب : الخفيف

في الحاجة

فوق قدره ، فقد استوجب الرد ، ومن لم يرج إلا ما هو مستحق له ، فإلى الرد ... وقال الشاعر :

إِنَّكَ إِنْ كَلَفْتَنِي مَالِمَ أُطِيقَ سَاءَكَ مَا سَرَّكَ مِنِّي مِنْ خُلُقٍ
وكانوا لا يرون بأسا بسؤال الملوك وسؤال الابن أباه : فقالوا : مسألة
الرجل السلطان ، ومسألة الابن أباه ، لا تنقصه ولا تشينه :

وَإِذَا ابْتُلِيتَ بِبَذَلٍ وَجْهَكَ سَائِلًا فَأَبْذُلْهُ لِلْمُتَكَرِّمِ الْفِضَالِ
وقال أبو جعفر المنصور لرجل أخدمته أمرا : سل حاجتك فقال :
يُبيِّتُكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قال : سل ، فليس يمكنك ذلك في كل وقت ؛
فقال : ولم يا أمير المؤمنين ؟ فوالله ، لا أستقصر عمرك ولا أرهبُ بخلك
ولا أغتني مالك ، وإن سؤالك لزين وإن عطائك لأشرف ، وما على أحد
بذّل وجهه إليك نقص ولا شين ، فأمر حتى ملئ فوه دُرّاً ... وقال العتّابي :
إن طلبت حاجة إلى ذي سلطان ، فأجمل في الطلب إليه ، وإياك والإلحاح
عليه ، فإن إلحاحك يكلم عِرضك ، ويريق ماء وجهك ، فلا تأخذ منه
عِوضاً لما يأخذ منك ، ولعل الإلحاح يجمع عليك إخلاق ماء الوجه وحرمان
النجاح فإنه ربما ملّ المطلوب إليه حتى يستخفّ الطالب .

ومن قولهم في الحث على الحِذْق واللاطافة في المسألة : قال رجل لآخر :
لَوْ أَنَا مِتُّ مَا كُنْتَ تَفْعَلُ ؟ قال : كُنْتُ أَكْفُّنُكَ وَأَدْرِفُنُكَ ، قال : فاكسني
الساعة بما تكفّنتني به ، وإذا مِتُّ فأذِفني عُريانا ... وقال شاعر :

أَحْلُبُ لَبُونَكَ إِبْسَاسًا وَتَمْرِيةً لَا يَقْطَعُ الدَّرُّ إِلَّا عُنفُ مُحْتَلِبِهِ
« اللبون : الناقة أو الشاة ذات اللبن ، والإبساس : أن يسمح بضرع الناقة
يسكنها لتدرّ ، ومثله التمرية ، والدّر : اللبن ، ... وسأل أعرابي عبد الملك بن مروان -

وكان بخيلا وكانوا يطلقون عليه : رَشَح الحجر - فقال له : سل الله ، فقال : سألتُه فأحالي عليك ، فضحك منه وأعطاه .. وأتى رجل بعضَ الولاة ، وكان صديقه ، فتشاعل عنه ، فترأى له يوما ، فقال : أعذرني فإني مشغول ، فقال لولا الشغل ما أتيتك ، لا بل أغنى الله يوم فراغك . وفي هذا المعنى يقول أبو علي البصير :

لَا تُصَيِّرْ شُغْلَكَ الْيَوْمَ مَاعِذَارًا لِمَطَالِكَ

إِنَّمَا يُحَمَّدُ أَنْ تَقْرَعَ فِي وَقْتِ اشْتِغَالِكَ

لَوْ تَقَرَّرْتَ مِنَ الشُّغْلِ آتُونَا فِي الْمَسَالِكِ

وقال بعض الأدباء للصاحب بن عباد : إن جرذاً ن داري ^(١) يمشين بالعصا هزاً ، فقال : بشرهن بمجيء الحنطة ... وقسم بعضهم مالا بين بنيه فقال له عبد صغير : فأعطني أولاً ، فقال له : ولمه ؟ قال : لأن الله تعالى يقول : المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، فبدأ بالمال ، وأناماك ، فأعطاه وقدمه ... ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم ، فقال له : إني أتيتك في حاجة ، فإن شئت قضيتها وكنا جميعا كريمين ، وإن شئت منعتها وكنا جميعا لثيمين . وقال ابن عبد ربه صاحب العقد : أراد : إن قضيتها كنت أنت كريما بقضائها ، وكنت أنا كريما بسؤالك إياها لأنني وضعتُ طليقتي في موضعها ، فإن لم تقضها كنت أنت لثيما بمنحك ، وكنت أنا لثيما بسوء اختياري لك ، وسرق حبيب - أبو تمام - هذا المعنى فقال :

عِيَّاشُ إِنَّكَ لِلْثِّيمِ وَإِنِّي مُذْ صِرْتَ مَوْضِعَ مَطْلَبِي لِلثِّيمِ

ومن ملاح المكدنين ووصاياهم : قيل لرجل مكدي : متى تعلت الكدية والسؤال ؟ قال : يوم ولدت ، مُنِعْتُ الثدني فصحت ، وبكيت فأعطيت

(١) الجرذان جمع جرذ : الفأر

الثدى، فسكت... وقال رجل لآخر: قد وَّضَعَ مِنْكَ سَوَآلُكَ؟ فقال: لقد
سأل موسى والخضرُ عليهما السلام أهلَ قرية، فأَبَوْا أن يُضيفوهما، فوالله
ما وُضِعَ هذا من نبيِّ الله وعالمِهِ، فكيف يضع مني؟ وقال بعض المُكِدِّينَ:
مكتوبٌ على باب الجنة: مَنْ صَبَرَ عِبرَ... وقال آخر: كَلَّبَ طَائِفٌ، خَيْرٌ
من أَسَدٍ رَابِضٍ، وقالوا: الهية خيبة، وقال سَلَمُ الخاسر:
من رَأَى النَّاسَ ماتَ غَمًّا وفازَ بِاللَّذَّةِ الجَسورُ
وقال أَشْجَعُ السُّلَى:

ليس للحاجات إلا مَنْ له وَجْهٌ وَقَاحٌ

وقال أبو تمام:

وَحُذِّفَ بِالرُّقَى إِنَّ المَهَارَى يُهَيِّجُهَا عَلَى السَّيْرِ الحِدَاءِ

وقال ابن الرومي:

وإنَّ الأئِمَّ لم تُرَضَّعْ صَبِيًّا مع الإشفاق لو سَكَتَ الغُلامُ
ومن قولهم في الحث على معاودة السؤال: قولُ عمر رضى الله عنه: إذا
سألتونا حاجةً فعاودونا فيها، فإنما سميت القلوب قلوباً لتقلبها... وقال
عبد الملك بن مروان في خطبة له: لا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا سأل اليوم شيئاً فَمَنَعْتُهُ،
أن يسأل غداً؛ فإنَّ الأمورَ بيدَ الله لا يدي. وقال شاعرٌ:

لا يُؤَيِّسُكَ مِنْ كَرِيمِ نَبَوَّةٍ يَنْبُو الْفَتَى وَهَوَ الْجَوَادُ الْخَضِرُ^(١)
فَإِذَا تَبَا فَاسْتَبْقِهِ وَتَأَنَّهُ حَتَّى يَجِيَّ بَهِمَا الطَّبَاعُ الْاَكْرَمُ^(٢)

(١) النبوة: الجنة والتباعد ويقال: نباعه بصره ينبو: تجافى ولم ينظر إليه كأنه
حقره. والخضر بالكسر: الجواد الكثير العطاء أو السيد الحور

(٢) يقال: تأنيبك حتى لا أناة بي، أى تنظرتك حتى لا انتظر بي، والطباع كالغرار
واحد طباع الإنسان أى الخليفة والسجية التى طبع عليها قال الزجاجي الطباع واحد

وقالوا : إذا سألتَ كريماً حاجة فدعه وسؤمَ نفسه ^(١) فإنه لا يُفكرُ
إلا في خير ، وإذا سألتَ لثيماً حاجةً فعاقصه ^(٢) ولا تدعه يتفكر
فيمتّع ، وقال بعضهم في ضد ذلك : إذا سألتَ لثيماً حاجةً فأجّله حتى يروض
نفسه ... « أى يعالج نفسه الكزة اللثيمة »

ولهم في الاعتذار عن سؤال اللثيم وأخذهم منه : قال أبو تمام :
أُحَذِّدُ مَا أَتَاكَ مِنَ اللَّثَا مَ إِذَا نَأَى أَهْلُ الْكَرَمِ
فَلَا تُسَدِّ تَفْتَرِسُ الْكِلَا بَ إِذَا تَعَذَّرَتِ الْغَنَمُ

وقال المتنبي :

غَيْرَ اخْتِيَارٍ قَبْلْتُ بِرِّكَ بِي وَالْجَوْعُ يُرِضِي الْأَسْوَدَ بِالْجِيفِ
وقال المهلبى الوزير :

مَا كُنْتُ إِلَّا كَلْعَمٍ مَيِّتٍ دَعَا إِلَى أَكْلِهِ اضْطِرَارُ
ولأبى على البصير :

لَعَمْرُ أَيْكَ مَا نُسِبَ الْمُعَلَّى إِلَى كَرَمٍ وَفِي الدُّنْيَا كَرِيمُ
وَلَكِنَّ الْبِلَادَ إِذَا اقْشَعَرَّتْ وَصَوَّحَ نَبْتُهَا رُعَى الْمَشِيمُ

« اقشعرت : قال الأزهرى : يقال : اقشعرت الأرض من المَحَل - الجذب -
وفي الحديث : إن الأرض إذا لم ينزل عليها المطر اربدتْ واقشعرت : أى
تقبضت وتجمعت ، وصَوَّحَ نَبْتُهَا : يبس »

ومن قولهم في التعريض بالسؤال : قال أمية بن أبى الصلت :
أَذْكَرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ إِنَّ شَيْمَتَكَ الْحَيَاءُ

مذكر كالنجار - الأصل - (١) أى وما يريد ويتجه إليه

(٢) فعاقصه : فاسلك معه مسلكاً ملتوياً بعزّة

إذا أثنى عليك المرء يوماً كَفَاهُ مِنْ تَعْرِضِهِ الثَّنَاءُ
وقال ابن الرومي :

يَأْمَنُ إِذَا التَّعْرِيزُ صَافَحَ نَفْسَهُ أَغْنَى الْفُفَاةَ بِهِ عَنِ التَّصْرِيحِ
وقال المتنبي :

أَقْلُ سَلَامِي حُبِّ مَا خَفَّ عَنْكُمْ وَأَسْكُتُ كَمَا لَا يَكُونُ جَوَابُ
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ قَطَانَةٌ
وقال أبو بكر الخوارزمي :

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَى كَرِيمٍ حَاجَةً فَلِقَاؤُهُ يَكْفِيكَ وَالتَّسْلِيمُ
فَإِذَا رَأَاكَ مُسْلِمًا عَرَفَ الَّذِي حَمَلَتْهُ فَكَأَنَّهُ مَلْزُومُ

المسئول تُجَاهَ السَّائِلِ

قال شُريح^(١) : مَنْ سَأَلَ حَاجَةً فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ عَلَى الرَّقِّ ، فَإِنْ قَضَاهَا

(١) هو القاضي شريح بن الحارث ، استقضاه عمر بن الخطاب على الكوفة فأقام قاضياً خمساً وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بالفضاء ، ذا فطنة وذكا. ومعرفة وعقل وإصابة ، وكان شاعراً محسناً وكان مزاحاً ، دخل عليه عدي بن أرطاة فقال له : أين أنت أصلحك الله فقال : بينك وبين الحائط ، قال : استمع مني ، قال : قل أسمع ، قال : إني رجل من الشام ، قال : من مكان صحيح ، قال : تزوجت عندكم ، قال : بالرقاء والبنين قال : وأردت أن أرحلها ، قال : الرجل أحق بأهله ، قال : وشرطت لها دارها قال : الشرط أملك قال : فاحكم الآن بيننا ، قال : قد فلتت ، قال : فعلى من حكمت ؟ قال : على ابن أملك ، قال : بشهادة من ؟ قال : بشهادة ابن أخت خالتك ... ويُروى أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه دخل مع خصم له ذى إلى القاضي شريح هذا فقام له ، فقال علي : هذا أول جورك ، ثم أسند ظهره إلى الجدار وقال : أما لو أن خصمي كان مسلماً لجلست بجانبه ... وتزوج شريح امرأة من بني تميم تسمى زنبب فلقم عليها شيئاً فضر بها ثم ندم وقال :

المسؤلُ استعبده بها ، وإن رَدَّه ، رجع حُرّاً ، وهما ذليلان ، هذا بِذِلِّ التَّوَمِ
وهذا بِذِلِّ السَّوَالِ . وقال أبو تمام :

ماماءُ كَفَّكَ - إن جَادَتْ وإن بَخِلَتْ من ماءٍ وَجْهِي إذا أَفْنَيْتُهُ - عَوْضُ

وقالوا : العَجَبُ لمن يَشْتَرِي العبيدَ بالآموال ولا يَشْتَرِي الأحرارَ بالآوال ...
وسئل خالدُ بن يزيدَ : ما الجود ؟ قال : أن تُعْطِيَ مَنْ سَأَلَكَ ، فقال ابنه :
يا أَبَتِ ، هذا هو الكَدُّ ، إنما الجودُ أن تُعْطِيَ مَنْ سَأَلَكَ ومن لم يَسْأَلْكَ ...
وقالوا : أهنأُ المعروفُ أَعْجَلُهُ . وقال بعضُ الناس : إذا أوليتني نِعْمَةً فَعَجَّلْهَا ،
فإن النفسَ مَوَلَةٌ بِحُبِّ العاجِلِ ، وإن الله تعالى قد أخبر عما في نفوسنا فقال :
كَلَّا ، بل تُحِبُّونَ العاجِلَةَ ... ولزم بعضُ الحكماء بابَ بعضِ ملوك العجم دَهْرًا
فلم يَصِلْ إليه ، فتَطَلَّفَ للحاجِبِ في إيصالِ رُقْعَةٍ ، ففعل ، وكان فيها أربعة أسطر
السطر الأول : « الأمل والضرورة أُنْذِمَانِي عَلَيْكَ »

والسطر الثاني : « والعُدْمُ لا يكون معه صَبْرٌ عَلَى المَطَالَبَةِ »

والسطر الثالث : « الانصرافُ بلا فائدة شِمَاتَةٌ للأعداء »

والسطر الرابع : « فإِذَا تَعَمَّ مُشْمِرَةٌ ، وإِذَا لا مُرِيحَةٌ ،

فلما قرأها وَقَعَ في كل سطرٍ زَهْرَةٌ ؛ فَأَعْطِيَ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ مِثْقَالٍ فِضَّةً -

« زَهْرَةٌ في لغة الفرس معناها : أحسنت ، ... ووقفتُ عِجُوزٌ عَلَى قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ فَقَالَتْ :

رَأَيْتُ رِجَالًا يَضْرِبُونَ نِسَاءَهُمْ فَشَلَّتْ يَمِينِي يَوْمَ أَضْرَبْتُ زَيْنَبًا

أَأَضْرِبُهَا مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ أَتَقَى بِهِ فَمَا الْعَدْلُ مِنِّي ضَرْبُ مَنْ لَيْسَ مُذْنِبًا

فَزَيْنَبُ شَمْسٌ وَالنِّسَاءُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ تُبْقِ مِنْهُنَّ كَوَكِبًا

توفي شريح سنة ٨٧ هـ وهو ابن مائة سنة .

أشكو إليك فلة الجرذان : قال : ما أحسن هذه الكناية ؟ أملتوا بيتها خبزاً ولحماً
وسمناً وتمراً . وقد تقدم مثلها .

الاعتذار عن المسئول إن لم يعط

قال أبو نواس :

فإن توريتني منك الجميل فأهله وإلا فإني عاذر وشكور

وقال ابن الرومي :

وإن عاق القضاء نذاك عني فليست أراك في منعى ملياً^(١)

وما غيث إذا يجتاز أرضاً إلى أخرى بمعد كئيباً

وكتب أبو العيناء إلى ابن أبي دؤاد : سنا وأهلنا اضرب ، وبضاعتنا المودة
والشكر ، فإن تمطينا أنت أهل لذاك ، وإن لم تمطينا فلسنا بمن يلزك في
الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون^(٢) وهناك
من لا يعذر ، رَوَوْا أن الحجاج لما دخل مكة قال لأهلها : أتيناكم وقد غاض
الماء لكثرة الزواجب ، فاعذرونا ، فقال رجل : لا عذر الله من عذرك ، وأنت
أمير المصيرين وابن عظيم القرينين^(٣) فقال : صدقت ، واستقرض ما لا من
التجار فقرق فيهم ، وقال أبو تمام :

فلو حاردت شول عذرت لِقاحها

ولكن حُرمت اندر والضرع حافل^(٤)

(١) ملياً : فاعلاً ما يلام عليه (٢) اللز : العيب والوقوع في الناس . يشير إلى

آية الكريمة (٣) القرينان : مكة والطائف

(٤) حاردت الافة : قل لبها ، والشول جمع شاة والناالة من الإبل التي أتى عليها

من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبها ، واللحاق : جمع نفحة : الحامل والمراد : عذرتها

طلب الكثير والرضا بالقليل

قال أعرابي لخالد بن عبد الله من أبيات :

أخالدُ بين الحمد والاجر حاجتي فأُثِمَا تأتي فأنت عمادُ

فقال له خالد : سَلْ ما بَدالك ، فقال : مائة ألف درهم ، قال : أسرفت ، قال :

ألف درهم ، قال خالد : ما أدري أَمِنْ إِسرافِكَ أَتَعْجَبُ أَمْ مِنْ حَظِّكَ ، فقال :

إني سألتُك على قدرِك ، فلما أبيتَ سألتُ على قدرِي ، فقال : إذن والله لا تغلبني

على معروفى ...

من يسأل حاجة يزعمها صغيرة

قال رجل لعمارة بن حمزة : أتيتُك في حَويجة ، فقال : اطلب لها رُجِيلاً ...

وقال آخر مثل هذا فقال : دَعها حتى تكبُر ... وقال رجل لعبد الله بن عباس

رضي الله عنه : أتيتُك في حاجة صغيرة ، فقال : هايتها ، فالحرُّ لا يَصْغُرُ عن

كبير أخيه ولا يكبُرُ عن صغيره ...

الحث على الصبر والآناة في طلب الحاجات

قال الشاعر :

إن الأمورَ إذا اتسَدَتْ مَسارِكُها فالصبرُ يَفْتَحُ منها كلَّ مَارِئٍ تَجَا^(١)

أَخْلَقَ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظِيَ بِحاجته ومُذْمِنُ القَرعِ الأبوابُ أَنْ يَلْجَا

لَا تَأْتِيسُنْ وَإِنْ طالَتْ مُطالِبَةُ إذا اسْتَعْنَتْ بِصَبْرٍ أَنْ تَرى فَرَجَا

وقال أبو نواس :

هذه الشول والدر : اللبن ، وحافل : ملآن (١) كل مارتج : كل ما غلق

ولا يُدْرِك الحاجاتِ مِنْ حَيْثُ تُبْتَغَى
 مِنَ النَّاسِ إِلَّا الْمَصْبُحُونَ عَلَى رِجْلِ^(١)
 تَأَنَّ مَوَاعِيدَ الْكِرَامِ فُرُبَمَا
 أَصْدَتْ مِنَ الْإِلْحَاحِ سَمَحًا عَلَى مُبْخَلٍ
 وَقَالَ الْقَطَامِيُّ :

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْدَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعِجِلِ الزَّلَلُ
 وَالْعَرَبُ تَقُولُ : رَبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثًا ؛ يَرِيدُونَ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَخْرُقُ
 وَيَحْمُقُ فَيَعْجَلُ فِي حَاجَتِهِ فَتَأْخُرُ أَوْ تَبْطُلُ بِذَلِكَ .

العطية لا تجدى في غير وقتها

قال البحتري :

وَأَعْلَمَ أَنَّ الْغَيْثَ لَيْسَ بِنَافِعٍ لِلْمَرْءِ مَا لَمْ يَأْتِ فِي إِبَانِهِ
 وَقَالَ : * يُرْجَى الطَّيِّبُ لِسَاعَةِ الْأَوْصَابِ * .

المسئول أهل لأن يسأل

قَالَ عَلْقَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْقَحْلِ مِنَ قَصِيدَةٍ يَخَاطِبُ الْحَارِثَ بْنَ أَبِي شَمْرٍ
 الْغَسَّانِي - وَكَانَ أَسْرَ أَخَاهُ شَأْسًا فَرَحَلَ إِلَيْهِ يَطْلُبُهُ مِنْهُ - :
 وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبِطَتْ بِنِعْمَةٍ فُحِقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنْوُبُ^(٢)
 وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي طَاهِرٍ - :

أَتَيْتُكَ لَمْ أَطْمَعِ إِلَى غَيْرِ طَمَعٍ كَرِيمٍ وَلَمْ أَفْزَعْ إِلَى غَيْرِ مَفْزَعٍ^(٣)

(١) يقول : إنما يقضيها المشمرون القيام لا المتزملون النيام

(٢) خطبه بخير : أعطاه من غير معرفة بينهما ، شبه بخابط الليل . والذنوب :

الحظ والنصيب (٣) فزع إليه : لجأ إليه

التأسف على الحرمان

قال البحرى من أبيات يمدح بها الفتح بن خاقان ويعاتبه :
 سحابٌ حَطَّائِي جَوْدُهُ وَهُوَ مُسْبِلٌ وَبَحْرٌ عَدَائِي قَيْضُهُ وَهُوَ مُفْعَمٌ^(١)
 وَبَدْرٌ أَضَاءَ الْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
 وَمَوْضِعُ رَحْلِي مِنْهُ أَسْوَدُ مُظْلِمٌ^(٢)
 أَأَشْكُو نَدَاهُ بَعْدَ أَنْ وَسِعَ الْوَرَى
 وَمَا إِنْ يَذُمُ الْغَيْثَ إِلَّا مُدَمَّمٌ

تعريضهم بمن خيبهم

وَقَفَّ أَعْرَابِيٌّ عَلَى دَارٍ سَائِلًا : فَقَالَ لَهُ صَبِيٌّ مِنَ الدَّارِ : بورك فيك ، فقال
 له : قَبِّحَ اللَّهُ هَذَا النِّفَمَ ، فَقَدْ تَعَلَّمَ الشَّرَّ صَغِيرًا ... وَوَقَفَّ سَائِلٌ عَلَى قَوْمٍ
 فَقَالَ أَحَدُهُمْ : صَنَاعَتُنَا وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ السَّائِلُ : فَأَنَا قَوَادُّ فَهَلْ أَنْتُمْ قَوَادُّونَ ؟

يَرُونَ الْهَدَايَا وَالرِّشَى مَدْرَجَةً لِلنَّجَاحِ

كانت العرب تقول : مَنْ صَانَعَ لَمْ يَحْتَشِمْ مِنْ طَلَبِ الْحَاجَةِ «صانع : هادى» ...
 وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : نِعَمَ الشَّيْءُ : الْهَدِيَّةُ أَمَامَ الْحَاجَةِ ... وَكَانَ
 سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَتَزَوَّجَ فَاهْدِ إِلَى الْأُمِّ ... وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ :
 مَنْ يَحْتَطِبُ الْحَسَنَاءَ يُعْطِي مَهْرًا ... «يريدون من طلب حاجة مُهِمَّةٍ بِذَلِكَ
 فيها» وقال شاعرهم :

(١) الجود : المطر الغزير ، ومسبل : هائل (٢) الرحل : المنزل ، ومفعم : مالىء

مَا مِنْ صَدِيقٍ وَإِنْ تَمَّتْ صِدَائَتُهُ

يَوْمًا بِأَجَحَّ فِي الْحَاجَاتِ مِنْ طَبِئِي

إِذَا تَقَنَّعَ بِالْمِنْدِيلِ مُنْطَلِقًا لَمْ يَخْشَ نَبْوَةَ بَوَابٍ وَلَا غَلَقِ

لَا تُكَذِّبَنَّ فَإِنَّ النَّاسَ مُذْخَلِقُونَ لِرَغْبَةِ يُكْرِمُونَ النَّاسَ أَوْ فَرَقِ

«نبوة: جفوة، وفرق: خوف» وقال رؤبة بن العجاج:

لَمَّا رَأَيْتُ الشُّفَعَاءَ بَلَدُوا وَسَأَلُوا أُمِيرَهُمْ فَأَنْكَدُوا

نَامَسْتَهُمْ بِرِشْوَةٍ فَأَفْرَدُوا وَسَهَّلَ اللَّهُ بِهَا مَا شَدَّدُوا

«بَلَدُوا: يقال: بَلَدَ الرجل: إذا لم يَتَجَهْ لشيء، وبَلَدَ: إذا نَكَسَ في

العمل وضعف حتى في الجري. وقوله: فَأَنْكَدُوا: أى وجدوه عِيراً

مُقَللاً إذ لم يجدوا عنده إلا نزرأ قليلاً، وقوله: نَامَسْتَهُمْ بِرِشْوَةٍ: يقول:

أَفْهَمْتُهُمْ أَنْ يَلْجَأُوا إِلَى رِشْوَةِ الْأَمِيرِ وَيُخْتَالُوا بِذَلِكَ، قَالَ فِي اللِّسَانِ: نَامَسَ

الرَّجُلُ صَاحِبَهُ: سَارَهُ، وَمِنْهُ النَّامُوسُ، وَهُوَ صَاحِبُ سَرِّ الرَّجُلِ - وَيُقَالُ لَهُ

الْيَوْمَ السَّكْرَتِيرُ الْخَاصُّ - وَقَوْلُهُ: فَأَفْرَدُوا: أَيْ خَصَّصُوا، وَفِي الْحَدِيثِ: إِيَّاكُمْ

وَالْإِفْرَادَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْإِفْرَادُ؟ قَالَ: الرَّجُلُ يَكُونُ مِنْكُمْ أَمِيرًا

أَوْ عَامِلًا فَيَأْتِيهِ الْمَسْكِينُ وَالْأَرْمَلَةُ فَيَقُولُ لَهُمْ: مَكَانَكُمْ، وَيَأْتِيهِ الشَّرِيفُ

وَالْغَنِيُّ فَيُذْنِيهِ وَيَقُولُ: عَجَلُوا قِضَاءَ حَاجَتِهِ وَيُسْتَرْكُ الْآخَرُونَ مُقَرَّدِينَ

«أى ساكنين ذُلًا»

قطع العادة

ومن أحسن ما قيل في قطع العادة قول أعرابي - وقد سأل قوماً، فَرَّقَ لَهُ

بِرَجُلٍ مِنْهُمْ فَضَمَهُ إِلَيْهِ وَأَجْرَكَ لَهُ رِزْقًا أَيَامًا ثُمَّ قَطَعَ عَنْهُ - فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ:

تَسَرَّى فَلَمَّا حَاسِبَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ رَأَى أَنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ لَهُ السَّرُّ
« تَسَرَّى : أى تكلف السُّرُوء ، والمَرْءُ : السخاء » وقال شاعر - قيل هو
أبو الأسود الدؤلى ، وقيل أنس بن أبي أنس الليثى - :

لَيْتَ شِعْرَى عَنْ أَمِيرِى مَا الَّذِى غَالَهُ فِي الْوَدِّ حَتَّى وَدَّعَهُ
لَا يُنْهَى بَعْدَ إِذْ أَكْرَمْتَنِ وَشَدِيدُ عَادَةٍ مُنْتَزَعَةٍ
لَا يَكُنْ بَرُّكَ بَرًّا خُلْبًا إِنَّ خَيْرَ الْبَرِّ مَا الْغَيْثُ مَعَهُ

« البرق الخلب : الذى لا مطر معه » ، وفى الحديث : الخير عادة والشرُّ لجاجة . يقال :
لَجَّ فى الأمرِ يَلْجُ ويلج لجاجة ولجاجة ولججا : إذا تمالى عليه وأبى أن ينصرف
عنه وهو يعلم أنه شر وأن غيره خير منه ، وتقول العرب فيمن اصطنع معروفا ثم
أفسده بالئ أو قطعه حين كاد يئتم : شوى أخوك حتى إذا أنضج رمد
« رمد : ألقى الشيء فى الرماد »

شكوى العافين

من تفضيل بعضهم على بعض فى العطاء

قَدِمَ عَلَى سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفُتُّ مِنَ الْعَرَبِ ، فَأَعْطَاهُمْ
وَفَضَّلَ رَجُلًا مِنْهُمْ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : كُلُّ الْقَوْمِ عِيَالٌ عَلَيْهِ .
وَأَعْطَى سَيِّدِنَا رَسُولُ اللَّهِ يَوْمَ حُتَيْنِ الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ ، وَكَانُوا أَشْرَافًا ،
بِالْفَهْمِ وَيَتَأَلَّفُ بِهِمْ تَوْمُهُمْ ، فَأَعْطَى فِيمَنْ أَعْطَى ، عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ الْفَزَارِيِّ ،
وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسِ التَّمِيمِ ، أَعْطَى كُلًّا مِنْهُمَا مِائَةَ بَعِيرٍ ، وَأَعْطَى عَبَّاسَ بْنَ
مِرْدَاسٍ أَبَا عَرَّ ، وَكَانَ كَذَلِكَ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَكَانَ شَاعِرًا ، فَسَخِطَهَا وَقَالَ
يَعَاتِبُ سَيِّدِنَا رَسُولُ اللَّهِ :

أَتَجْعَلُ لُتَيْي وَنَهَبَ الْعُبَيْدُ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ ^(١)
وما كان حصنٌ ولا حابسٌ يفوقان مرداس في بجمع ^(٢)
وما كنتُ دون امرئٍ منهما ومن تَضَعُ اليوم لا يُرْفَعُ
وقد كنتُ في الحربِ ذا تُدْرَأُ فلم أعطَ شيئاً ولم أَمْنَعُ ^(٣)
إلا أفاثلَ أعطيتها عديدَ قوائمه الأربع ^(٤)
فلما أنشدهما بين يدي رسول الله قال لعلي بن أبي طالب : يا علي ، أقطع
عني لسانه ، فقبض على يده وخرج به فقال : أقطعُ أنت لساني يا أبا الحسن ؟
فقال : إني لمُضٍ فيك ما أمرت ، ثم مضى به إلى إبل الصدقة فقال خذ
ما أحببت ...

بلاغة المكدين

سأل أعرابيُّ فقال في مسأله : اتقد جُعتُ حتى أكلتُ الذوى المُحَرَّق ،
ولقد مَشَيْتُ حتى اتتَعَلْتُ الدم ، وحتى سقط من رجلي بَخْصُ لحمٍ ، وحتى تَمَنَّيْتُ
أن وجهي حذاءٌ لقدمي ، فهل من أخ يرَحُّنا ؟ « البنخص : اللحم يخالطه بياض
من فساد يحل به » ... ووقف أعرابي على حلقة الحسن البصري فقال : رحم
الله امرءاً أعطى من سعةٍ وواتى من كفافٍ وآثر من قوت . فقال الحسن :

- (١) النهب : الغنيمة ، والعبيد بالتصغير اسم فرس العباس ، وكان يدعى فارس العبيد .
(٢) مرداس مصروف ولكنه هنا ممنوع من الصرف للضرورة ، وانظر كتب النحاة .
(٣) تدراً : من الدرء وهو الدفع قال في الصحاح : وقولهم : السلطان ذو تدراً ،
أي ذو عدة وقوة على دفع أعدائه عن نفسه ، وهذا اسم موضع للدفع ، وقوله : فلم
أعط شيئاً الخ أي لم أعط شيئاً طائلاً أو لم أعط شيئاً استحقه وهو المائة : ولم أمنع
من الإعطاء لأنني أعطيت بعضاً

(٤) الأفاثل : جمع أفيل بالغاء كالفصيل وزنا ومعنى

ما ترك أحداً منكم حتى سألته... وقال المازني : وقف علينا أعرابي فقال :
 رحم الله امرأة لم تمجج أذناه كلامي ، وقدم لنفسه معاذاً من سوء مقامى ،
 فإن البلاد مجذبة والحال مضربة ^(١) والحياء زاجر يمنع من كلامكم ، والعذم
 عاذر يدعو إلى إخباركم ، والدعاء أحد الصدقتين ، فرحم الله امرأة أمرت بمخير
 ودعا بخير . فقال له رجل من القوم : بمن الرجل ؟ فقال : اللهم غفراً بمن
 لا تضرك جهالته ، ولا تفعلك معرفته ، ذل الاكتساب ، يمنع من
 عز الانتساب .

حسن الخلق

وعقرياتهم فيه وفيما يتأشب إليه

وهذا هو أحد لوني الإحسان إلى الناس ، وإن شئت قلت هو اللون
 الثالث من ألوان البر ، أعني حسن الخلق

تحضيضهم على حسن الخلق

قال الله عز وجل : واخفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .
 وقال : خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . « خذ العفو :
 فالعفو : السهل الميسر ، يقول سبحانه : احْتَمِلْ أَخْلَاقَ النَّاسِ وَاقْبَلْ مَا سَهَّلَ
 مِنْهَا وَتَيْسَّرَ ، وَلَا تَسْتَقْصِ عَلَيْهِمْ فَيَسْتَقْصِ اللَّهُ عَلَيْكَ ، مع ما فيه من العداوة
 والبغضاء قال سُرْمَح :

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوَرَتِي حِينَ أَغْضَبُ

(١) يقال صعب الامر وأصعب : صار صعباً

فإني رأيتُ الحبَّ في الصَّدرِ والأذى

إذا اجتمعَا لم يلبثِ الحبُّ يذهبُ

وقوله سبحانه وتعالى : وأعرض عن الجاهلين : فالجهل هنا ما قابل العقل والجاهلون : الخمى الأشرار السيئوا الأخلاق ، أمر الله نبيه بأن لا يمارى الجاهلين ولا يكافئهم بمثل أفعالهم .

وقال سيدنا رسول الله : إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم . ومن ذا قول حكيم وقد قيل له : هل من جود يتناول به الخلق ؟ فقال : نعم ، أن تحسن الخلق وتنوي الخير لكل أحد ... وقال صلوات الله عليه : ألا أخبركم بأحبكم إلى وأقربكم منى مجلس يوم القيامة ! : أحاسنكم أخلاقا المؤطون أكنافا ، الذين يالفون ويؤلفون ، ألا أخبركم بأبغضكم إلى وأبعدكم منى مجلس يوم القيامة ! : الثرثارون المتفهبون ... « قوله : أحاسنكم أخلاقا يريد : الأحاسن منكم على إرادة التفضيل لا الوصف ، وذلك أن العرب تقول فى الوصف : رجلٌ حسنٌ ولم تقل رجلاً أحسن ، مع قولهم امرأة حسنة . ونظيره فى عكسه : غلامٌ أمردٌ ولم يقولوا جاريةً مرداء . وقوله : المؤطون أكنافا : يريد دمانه الخلق ولين الجانب وأن ناحيته يتمكن فيها صاحبه غير مؤذى ولا ناب به موضعه . وأصل التوطئة : التذليل والتهدى يقال : فرائش وطىء إذا كان وثيراً - أى ليناً - والثرثارون : الذين يكثرون الكلام تكلفاً وتجاوزاً وخروجاً عن الحق ، وأصل هذه اللفظة من العين الواسعة من عيون الماء يقال : عينٌ ثرثرة وثرارة : إذا كانت كثيرة الماء ... والمتفهبون : بسبيل من « الثرثارون » ، وهو تأسيس له ، واشتقاقه من قولهم : فوق الغدير يفهق : إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد : يصفهم

بأنهم يوسعون أشداقهم ويملاؤها بالكلام . قال أبو العباس المبرد بعد ما أورد ما أوردناه من تفسير هذا الحديث : وتصديق ما فسرناه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يريد الصدق في المنطق والقصد وترك ما لا يحتاج إليه : قوله لجريز بن عبد الله البجلي : يا جريز : إذا قلت فأوجز وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف ، وقال الله جل شأنه في الحث على لين الكلام : وقولوا للناس حسناً . وقال : فقولا له قولاً ليناً ، وقال : وقُلْ لَهَا قولاً كريماً . وقال : فقلْ لهن قولاً ميسوراً ... وقالوا : من لانت كلمته وجبت محبته . وقالت جدة سفيان بن عيينة له :

بُنَى ابْنِ الْبَرِّ شَيْءٌ هَيْنٌ الْمَفْرُشُ اللَّيْنُ وَالطُّعْمُ

وَمَنْطِقٌ إِذَا نَطَقْتَ لَيْنٌ ٥

« قولها هَيْنٌ : فالعرب تقول : رَجُلٌ هَيْنٌ لَيْنٌ وَهَيْنٌ لَيْنٌ ، وفي الحديث : الْمُؤْمِنُونَ هَيْنُونَ لَيِّنُونَ كَالْجِلِّ الْأَنْفِ إِنْ قُدَّتْهُ انْقَادَ وَإِنْ أَنْخَتَتْهُ عَلَى صَخْرَةٍ اسْتَنَاحَ » جل أنف : أى مأنوف ، أى يشتكى أنفه من خِشَاشٍ أَوْبَرَةٍ ^(١) أو خِزَامَةٍ فى أنفه فلا يمتنع على قائده فى شىء للوجع ، فهو ذلول مُنْقَادٌ ، ومعنى المؤمنون كالجل الأنف : أنهم لا يريمون التشكى ، أى يُدِيمُونَ التشكى بما بهم إلى الله وحده لا إلى سواه . أقول : وأحسن من هذا التفسير قول بعضهم : الجلل الأنف : الدليل المُواقِى الذى يَأْتِفُ من الزجر ومن الضرب ويُعْطَى ما عنده من السير عَفْوَاً سهلاً ، كذلك المؤمن ، لا يحتاج إلى زجر ولا

(١) الخشاش : عويد من خشب يُدْخَلُ فى عِظَمِ أنف البعير يشد به الزمام ليكون أسرع لانتقياده . والبرة : ما يوضع فى لحم أنف البعير ويكون من صفر - نحاس أبيض - أما الخِزَامَةُ فهى من شعر

عتاب ، وما لَزِمَهُ من حَقٍّ صَبَرَ عَلَيْهِ وقَامَ بِهِ ، وهذا تفسير جميل ، وهو أليق
بِكلام سيدنا رسول الله ، . وَسُئِلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن خُلقِ النبي صلى
الله عليه وسلم فقالت : أوما تَقْرؤون القرآن : وإنك لعلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ... وقالوا :
صفاءُ الأخلاق من نَقَاءِ الأعراق . «الأعراق جمع عِرْق وهو الأصل يقال رجل
مُعْرِقٌ في الحسب والكرم قالت قُتَيْبَةُ بنت النضر بن الحارث أو أخته :

أُحَمَّدٌ وَلَآنَتْ ضَنْءٌ نَجِيَّةٌ فِي قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فُحْلٌ مُعْرِقٌ

أى عريق النسب أصيل ، ويستعمل في اللؤم أيضا تقول : إن فلانا لَمُعْرِقٌ في
الكرم ، ومُعْرِقٌ في اللؤم . والضنء : الولد والأصل والمعدن ، وقال البحترى :

سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ الْخَلَائِقِ إِنَّمَا مُسَلَّةٌ مِنْ كُلِّ عَارٍ وَمَأْتَمٌ

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : ثلاثة من قريش أحسنها أخلاقا وأصحبها
وجوها وأشدّها حياءً ، إن حَدَّثْتُكَ لم يَكْذِبْكَ ، وإن حَدَّثْتَهُمْ بِحَقٍّ أو باطل
لم يَكْذِبْكَ : أبو بكر الصديق ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعثمان بن عفان
رضي الله عنهم ...

وفي الآثار أيضا : أن حُسْنَ الخُلُقِ وحُسْنَ الجوار يُعَمِّرَانِ الديار وَيَزِيدَانِ
فِي الأعمار . وفي كتاب للهند : مَنْ تَزَوَّدَ خَمْساً بَلَّغْتَهُ وَآتَسْتَهُ : كَفُّ الأذى ،
وحسن الخلق ، ومُجَانَبَةُ الرِّيبِ ، والنَّبِيلُ فِي العمل ، وحسن الأدب

نهيهم عن سوء الخلق

وقالوا : سوء الخُلُقِ يَنْسُدُ العمل كما يُنْسَدُ الصَّبْرُ العَسَلُ « الصبر هو هذا
الدواء المر ولا يسكن إلا في ضرورة الشعر » وفي الحديث : مَنْ سَاءَ
خُلُقُهُ عَذَّبَ نَفْسَهُ ، وقال العتّابي :

وَكُنْتُ امْرَأً لَوْ شِئْتُ أَنْ تَبْلُغَ الْمَتَى بَلَغْتَ بِأَذْنِي غَايَةَ تَسْتَدِيمِهَا
 وَلَكِنْ فِطَامُ النَّفْسِ أَثْقَلُ تَحْمِيلاً مِنْ الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ حِينَ تَرُومُهَا
 وَقَالَ عِقَالُ بْنُ شَبَّةَ : كُنْتُ رَدِيفَ أَبِي ، فَلَقِيَهُ جَرِيرٌ عَلَى بَغْلٍ ، خِيَامَ
 أَبِي وَالْطَّفَةِ ، فَلَمَّا مَضَى قُلْتُ : أَبْعَدُ مَا نَالَ لَنَا مَا قَالَ ! قَالَ : يَا بُنَيَّ ، أَنَا وَسَّعُ
 مُجْرَحِي ١ . وقال ابن الحنفية : قد يُدْفَعُ بِاحْتِمَالِ مَكْرُوهِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ ...
 وقال أبو الدرداء : إنا لنكثيرُ في وجوه قوم وإن قلوبنا لتقلِّمُ (١)
 وقالوا : لا مُدَارَاةَ لِلْخَلْقِ السَّيِّئِ الْقَبِيحِ ، كَالشَّجَرَةِ الْمُرَّةِ لَوْ طَلَيْتَ بِالْعَسَلِ
 لَمْ تُشْمَرْ إِلَّا مُرًّا ، وَكَذَنْبُ الْكَلْبِ لَوْ أَدْخَلْتَهُ الْقَالَبَ سَنِينَ لَعَادَ إِلَى أَعْوِجَاجِهِ .
 وَمِنْ طُرْفِهِمْ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ بَعْضِهِمْ لِأَحْمَدَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ : لَقَدْ أُعْطِيتَ مَا لَمْ
 يُعْطَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : إِنْ لَمْ تَخْرُجْ مِنْ ذَلِكَ لِأَضْرِبَكَ ،
 فَقَالَ الرَّجُلُ : إِنْ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ : وَلَوْ كُنْتُ فُظًّا غَلِظَ الْقَلْبُ لَا نَفْضُوا
 مِنْ حَوْلِكَ وَأَنْتَ فُظٌّ وَنَحْنُ لَا نَنْفُضُ مِنْ حَوْلِكَ . وقال بعضهم : خَطَبْتُ
 امْرَأَةً ، فَأَجَابَتْنِي فَقَالَتْ : إِنْ بَيَّ الْخُفَّاقُ ؛ فَقَالَتْ : أَسْوَأُ خُلُقًا مِنْكَ مِنْ يُلْحِثُكَ
 إِلَى سُوءِ الْخُفَّاقِ ... وقال بعضهم لِرَجُلٍ بَيَّ الْخُفَّاقُ : إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَغْيِرَ
 خُلُقَكَ وَإِلَّا فَلْيَسْعُكَ مِنْ أَخْلَاقِنَا مَا ضَاقَ بِهِ ذَرْعُكَ ...

صعوبة تغيير الطباع والمتخاق يرجع إلى شيمته

قالوا في ذلك : تَأْبَى الطَّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ ؛ وَ : الْعَادَةُ طَبِيعَةٌ ثَانِيَةٌ ، وَ :
 ظَلَمْتُ امْرَأَةً كَلَّفْتُهُ غَيْرَ خُلُقِهِ . وَهَلْ كَانَتْ الْأَخْلَاقُ إِلَّا غَرَارِزًا
 وَ : كُلُّ إِنَاءٍ بِمَا فِيهِ يَرْتَشِحُ

(١) نكشر في وجوه قوم : أى نبيس في وجوههم وأصل الكشر : بدو الانسان
 يكون ذلك في الضحك وغيره ؛ ونقلهم : نبغضهم

و : * إِنَّ الْخَلْقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ *

وقال ذو الإصبع العذواني :

وَمَنْ يَبْتَدِعْ مَا لَيْسَ مِنْ خَيْرِ نَفْسِهِ يَدْعُهُ وَيَغْلِبُهُ عَلَى النَّفْسِ خَيْرُهَا

« الخيم : الدجية والطبيعة والأصل » وقال زهير بن أبي سُلي :

وَهُمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخَفَى دَلَى النَّاسِ تُعَلِّمُ

وقال أبو تمام :

وَالسِّيفُ مَا لَمْ يُلَفَّ فِيهِ صَقِيلٌ مِنْ سِنِّهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِصِقَالٍ

« السنخ : الأصل ، والصقال : الجلاء » وقال المتنبي :

وَكُلُّ يَرَى طُرُقَ الشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَلَكِنْ طَبَعَ النَّفْسَ لِلنَّفْسِ قَائِدُ

وقال :

وَلِلنَّفْسِ أَخْلَاقٌ تَدُلُّ عَلَى الْفَقَى أَكَانَ سَخَاءً مَا أُنِيَ أَمْ تَسَاخِيَا

مداراة الناس

قال النّظام^(١) : مَا يَسُرُّنِي تَرْكُ الْمُدَارَاةِ وَلِي حُرْمُ النِّعَمِ ، فَقِيلَ لَهُ : وَلِمَ ؟

قال : لِأَنَّ الْأَمْرَ إِذَا غَشِيَكَ فَشَخَصَتْ لَهُ أُرْدَاكَ ، وَإِذَا طَاطَأَتْ لَهُ

تَخَطَّاتُكَ ... وقال شاعر :

وَأَنْزَلَنِي طُولُ النَّوَى دَارَ غُرْبَةٍ إِذَا شِئْتَ لَا قَيْتُ امْرَأَةً لَا أَشَاكِلُهُ

خَافَتُهُ حَتَّى يَقَالَ سَجِيَّةٌ وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لَكُنْتُ أَعَاقِلُهُ

وقال بشار بن برد :

وَمَا أَنَا إِلَّا كَالزَّمَانِ إِذَا صَحَّاحَا صَحَوْتُ وَإِنْ مَاقَ الزَّمَانُ أَمُوقُ

« ماق يموق موقا وموقا وُوقا واستمق ، كل أولئك : حَقٌّ في

(١) هو إبراهيم بن سيار شيخ الجاحظ وأحد كبار المعتزلة .

غباوة، ويقال : فلان أحمق مائق : والعرب تقول : أنت تمق وأنا متق، أى أنت تمتلئ غضبا وأنا سيئ الخلق، فلا تنفق، وقال معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه : لو كان بينى وبين الناس شجرة ما انقطعت، لأنهم إذا جذبوها أرسلتها، وإذا أرسلوها جذبتها، وهكذا كان معاوية نبي الحلم والأناة والكياسة والرياسة والسياسة .

من حسن خلقه وخلقه ومن اختلف خلقه وخلقه

قال ابن الرومي :

كل الخلال التي فيكم محاسنكم تشابهت فيكم الأخلاق والخلق
 كأنكم شجر الأترج طاب معاً حملاً ونوراً وطاب العود والورق
 ، الأترج والشرج : ثمر من فصيلة الليمون ويسميه أهل الشام الكبداء،
 والحل بفتح الحاء - والكسر لغة - ثمر الشجرة ؛ ومن دقئ هذه اللغة الكريمة
 أنها تفرق بين الحمل الذي يحمل على ظهر أو رأس، وبين الحمل الذي يحمل
 في البطن من الأولاد في جميع الحيوانات، فالأول يكسرون حاءه، والآخر
 يفتحون حاءه، قائلين : ما كان لازماً للشئ فهو حمل وما كان بائناً فهو حمل
 وأما حمل الشجرة فلما كان شديداً بحمل المرأة لاتصاله فتحوا حاءه ولم كان
 يشبه حمل الشئ على الرأس لبروزه من جهة ولأنه ليس مستبطناً كحمل المرأة
 من جهة أخرى كسروا حاءه ؛ والنور بفتح النون : الزهر ، وفي الأثر :
 ما أحسن الله حاق أحد وخلق فأطعمه النار... ووصف بعضهم رجلاً فقال :
 يقرى العين جمالا والأذن بياناً^(١)... وقال قتادة :^(٢) ما بعث الله نبياً إلا حسن

(١) يقرى يريد : يطعم، ولك أن تضع مكان يقرى : يفترق، من قولهم في الحسناء إنما تغترق العين أى لاتدعها تنظر إلى غيرها جمالا (٢) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة

الْخُلُقِ حَسَنَ الْوَجْهِ ... وقال الفلاسفة: قَلَّ صُورَةُ حَسَنَةٍ تَتَّبِعُهَا نَفْسٌ رَدِيقَةً.
وقال جالينوس: يَنْبَغِي الرَّجُلُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَجْهِهِ فِي الْمِرْآةِ، فَإِنْ كَانَ
حَسَنَ الْوَجْهِ جَعَلَ عَنَاقِيتهُ أَنْ يُضَمَّ إِلَى جَمَالِ وَجْهِهِ كَمَا لَخُلُقِهِ وَكَمَا لِنَفْسِهِ،
وَأِنْ رَأَى صُورَةَ سَمِيحَةٍ تَحَرَّزَ مِنْ أَنْ يَكُونَ دَمِيمَ الْخُلُقِ ذَمِيمَ الْخُلُقِ ...
ونظر فيلسوف إلى غلام حَسَنَ الْوَجْهِ يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ فَقَالَ: أَحْسَنْتَ، إِذْ قَرَنْتَ
بِحُسْنِ خُلُقِكَ حُسْنَ خُلُقِكَ ... ونظر فيلسوف إلى رجل حسن الوجه خبيث
النفس فقال: بَيْتٌ حَسَنٌ وَفِيهِ سَاكِنٌ نَذْلٌ ... ورأى آخرُ شاباً جميلاً فقال:
سَلَبْتَ بِحَاسِنِ وَجْهِكَ فَمَنَائِلَ نَفْسِكَ ... وقالوا:

فَلَا تَجْمَلِ الْحُسْنَ الدَّلِيلَ عَلَى الْفَتَى فَمَا كُلُّ مُشْقُولِ الْحَدِيدِ يَمَانِ
و: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَاءَ يَخْلُفُ طَعْمَهُ

وإن كان لَوْنُ الْمَاءِ فِي الْعَيْنِ صَافِياً^(١)

واستعرض المأمون الجُندَ فَرَّ بِهِ رَجُلٌ ذَمِيمٌ، فَاسْتَنْطَقَهُ، فَرَأَاهُ الْكَنَّ،
فَأَمَرَ بِإِسْقَاطِهِ وَقَالَ: إِنَّ الرُّوحَ إِذَا كَانَتْ ظَاهِرَةً كَانَتْ وَسَامَةً، وَإِذَا كَانَتْ بَاطِنَةً
كَانَتْ فَصَاحَةً، وَأَرَاهُ لَا ظَاهَرَ لَهُ وَلَا بَاطِنَ ...

«وبعد» فسيمرُّ بك كثير من عبقرياتهم فيما يتصل بهذه المعاني ويمتُّ إليها بسبب
واصل، في باب الطبائع ... وباب الصداقة والصديق ... وباب عبقرياتهم
في معاني شتى ...

التقوى

وَهَاكَ اللَّوْنُ الْأَخِيرَ مِنَ أَلْوَانِ الْبِرِّ، وَلَقَدْ أَسْمَعْنَاكَ فِيمَا أَسْلَفْنَا أَنَّ التَّقْوَى

الْأَكْثَرُ كَانَ مِنْ كِبَارِ عُلَمَاءِ التَّابِعِينَ وَلَدَ سَنَةِ ٦٠ وَتُوفِيَ سَنَةَ ١١٨ هـ

(١) خلف الماء واللبن والطعام من باب دخل: إذا تغير طعمه أو ريحه

هي عماد البر وقوامه، على جميع ألوانه، أى أنه مادام هناك تقوى بمعناها الصحيح كان هناك صلة الرحيم، وكان هناك الإحسان، وكان هناك مكارم الأخلاق، وكان هناك الخير كله والبر في جميع ما يشتمل عليه وينتظمه، ولنورد عليك بادئ ذي بدء قولهم في التقوى والمراد بها، ثم نردف ذلك بعقرياتهم في التقوى وما يتأشب إليها... ويجرى منها على عرق...

معنى التقوى

التقوى في اللغة من الاتقاء، بمعنى اتخاذ الوقاية، وفي اصطلاحهم: صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك، وقال أبو البقاء في كلياته: التقوى - على ما قاله على رضى الله عنه - ترك المعصية وترك الاعتراض بالطاعة، وهي التي تحصل بها الوقاية من النار والفوز بدار القرار، وغاية النقي البراءة من كل شيء سوى الله، ومبدؤها اتقاء الشرك، وأوسطها انقاء الحرام، وغايتها منتهى الطاعات، قال: وقد تسمى التقوى خوفاً وخشية... أقول:

فإن لا يَكُنْها أو تَكُنْها فإنه أخوها غَدَتْهُ أُمُّهُ بِلَبَانِهَا^(١)

وقد عقد الإمام أبو حامد الغزالي للخوف كتاباً في كتابه الإحياء جاء فيه: إن التقوى والورع أسام اشتقت من معانٍ شرطها الخوف، فإن خات من الخوف لم تُسم بهذه الاسامى... أقول: ومن أروع ما قيل في الخوف قوله تعالى: إنما يخشى الله من عباده العلماء... أقول: وإذن يكون: كلما ازداد المرء علماً بالله سبحانه ازداد منه خوفاً، كما جاء في الأثر: أعلمكم بالله أشدكم له.

(١) لابي الاسود الدؤلى في نبيذ التمر، واللبن بكسر اللام، يقال: هو أخوم. بلبان أمه ولا يقال بلبن أمه، إنما اللبن: الذي يشرب من ناقة أو شاة أو غيرهما من البهائم.

خشية... ومن كان من العلماء لا يخشى الله ولا يرأفُهُ في سائر أحواله ، فليس من العلم بالله في كثير ولا قليل... وما أجل ما يقول عبد الله بن ممام السلولي^(١) في وصف هذا الصنف من العلماء :

إذا تقبوا للقول قالوا فأحسنوا ولكن حُسن القول خالفه الفعل
وَذُئِبُوا لِنَا الدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضَعُونَهَا أَطْوَيْقَ حَتَّى مَا يَدِرُّ لَهَا تُعَلُّ
« قوله : إذا نصبوا الخ يريد : إذا تقبوا أنفسهم للقول وأعدوها له ،
والأصل في التَّصَبُّبِ : أن يقوم رافعاً رأسه ؛ ورضع برضع كضرب يضرب
في لغة قيس ، وكسميع يسمع في لغة أهل الحجاز ، وقوله : يرضعونها : قرأ

(١) من التابعين ، وعداده في أهل الكوفة ، ويثناه المذكوران من آيات له قالها
للنعمان بن بشير الأنصاري عامل معاوية على الكوفة ، وكان معاوية أمر لاهل
الكوفة بزيادة عشرة دنانير في أعطياتهم فأبى النعمان أن ينفذها لهم فقال عبادة :

زِيَادَتُنَا نِعْمَانُ لَا تَحْزِنُنَا خَفِ اللَّهُ فِينَا وَالْكِتَابَ الَّذِي تَتْلُو
فَانْكَ قَدْ حُلْتَ مِنَّا أَمَانَةً بِمَا عَجَّزَتْ عَنْ الصَّلَاحَةِ الْبُزْلُ
وَأَنْ يَكُ بَابُ الشَّرِّ يُحْسِنُ فَتَحَهُ فَلَا يَكُ بَابُ الْخَيْرِ مِنْكَ لَهُ قُفْلُ
فَقَدْ زِلْتَ سُلْطَانًا عَظِيمًا فَلَا يَكُنْ لِغَيْرِكَ جَمَاتُ النَّدَى وَلَكَ الْبُخْلُ
وَأَنْتَ امْرُؤٌ حُلُوُ الْإِسَانِ بَلِيغُهُ فَمَا بَالُهُ عِنْدَ الزِّيَادَةِ لَا يَحْلُو
وَقَبْلَكَ قَدْ كَانُوا عَلَيْنَا أَيْمَةً بِهِمُ تَقْوِينَا وَهُمْ عُصْلُ

«الصلاحه : الصلاب المسانعة وفي الحديث : عرضت الأمانة على الجبال الصم الصلاخيم
وأصل الصلخيم : البعير الجسم الشديد الماضي ، والبزل : جمع بازل ، ويقال رجل بازل
على التشبيه بالبعير ، يعنون بذلك كمال عقله وتجربته واستكمال قوته . وجات : كثيرات ،
وقوله : كانوا علينا أئمة فائمة فاعل كانوا وهذا على لغة أكلوني البراغيث وإذا أرجعت
الضمير في كانوا إلى المذكورين في البيت الثاني فتكون أئمة خبر كانوا ، وعصل : فالعصل
الاعوجاج وكل معوج فيه صلابه : أعصل .

بكسر الضاد وفتحها؛ وأفارق جمع أفراق جمع فيقه بكسر الفاء ، وهو اسم
للبن الذي يجتمع بين الحلبتين ، يريد : أنهم يرضعونها ثم يتركونها مقدار
ما يجتمع اللبن فيرضعونها ، وهكذا ، والشعل بضم الشاء وفتحها : خلف زائد
صغير من أخلاف الناقة وضرع الشاة لا يدرك من اللبن شيئاً ، يصفهم بأنهم
أحرص الناس على طلب المال يستنزفونه من خزائنه حتى لم يبق منه شيء ،
وإنما ذكر الشعل للبالغة في الارتضاع ، والشعل لا يدرك ، وهي مبالغة حسنة في
معنى الاستفصال والنفاذ ،



ومما جاء في الخوف أيضاً قوله سبحانه : وأما من خاف مقام ربه ونهى
النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ، وقوله جل شأنه : وخافون إن
كنتم مؤمنين ، وقوله : وهدي ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ، وقوله تعالى :
إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته
زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون
أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ؛
وقال عز وتقدس : واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ... قال سفيان بن
عيينة : لولم ينزل الله تعالى علينا إلا هذه الآية لكان قد أعذر ، أعذر :
بلغ أقصى الغاية في العذر ، أي صار معذوراً عندك إذ حذرك أن لا تحذره
وهو يعلم ما في أنفسنا ؛ ومن هذا المثل : من أنذر فقد أعذر ،
ومما يؤثر في باب الخوف قوله صلى الله عليه وسلم : رأس الحكمة مخافة الله .

الحكمة

وهذا الحديث الشريف - على وضوحه وجماله وإشراقه وإنارته، وعلى أنه مما كنا نستظهره إبانَ الحداثة، إذ يلقنونا إياه أوائل التعليم في المكاتيب لابدَّ من التبسط في القول عليه . قال صاحب القاموس : الحكمة تأتي بمعنى العدل ^(١) والعلم ^(٢) والحلم ^(٣) والنُّبُوَّة والقرآن والإنجيل ^(٤) ووضع الشيء في موضعه وصواب الأمر وسداده ، وقال أبو البقاء في كلياته - بعد أن أورد ما قال صاحب القاموس - : والحكمة في عرف العلماء : استكمال النفس الإنسانية ، باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة النامة على الأفعال الفاضلة قدرَ طاقتها ، قال : وقال بعضهم : الحكمة هي : معرفة الحقائق على ما هي عليه بقدر الاستطاعة ، وهي العلم النافع المُعَبَّرُ عنه بمعرفة مالها وما عليها ، المُشار إليه بقوله تعالى : ومن يُؤْتَ الحكمة فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً . وإفراطها التجرُّبة ^(٥) وهي استعمال الفكر فيما لا ينبغي كالمُتشابهات ^(٦) ، وعلى وجه لا ينبغي كمخالفة

(١) ضد الجور ، فلا يميل بصاحبه الهوى حتى يجر في الحكم

(٢) أى العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها

(٣) هو ضبط النفس عندهيجان الغضب (٤) فالحكمة في قوله تعالى : ويعلمه الكتاب والحكمة وقوله : وآتاه الله الملك والحكمة وقوله : وآتيناها الحكمة : بمعنى النبوة والرسالة ، كما أنها تأتي بمعنى القرآن والإنجيل ، لتضمن كل منهما الحكمة في لونها - العملية والعملية .

(٥) يقال في اللغة : رجل مُجرَّب : خب خداع خيث منكر والظاهر أن الجرِّبة

والجرِّب والقربز معربات (٦) قال صاحب اللسان - بعد أن أورد كلاماً كثيراً في معنى المتشابه من القرآن وفي الحديث - في صفة القرآن : آمنوا بمتشابهه واعملوا بحكمه :

الشرائع؛ وتغريطها : الغباوة التي هي : تعطيل القوة الفكرية والوقوف عن اكتساب العلم ... انتهى .

« وبعد » إن المُستَقْصَى لكل ما أوردوه من معاني هذه الكلمة - الحكمة - يرجع إلى إحكام الشيء ، أى إتقانه ، كيلا يتسرب إليه خلل أو فساد ، وكى يبلغ ذروة الكمال جهد الاستطاعة ، حتى قيل لكل من يُحسن دقائق الصناعات ويُتقِنُها : حكيم ، ومن ثم يقال للعالم العامل بعلمه : حكيم ، والرجل العاقل المُهْتَدِّبُ المُوَفَّق : حكيم ، وللقاضى العادل فى أحكامه : حكيم ، وللرجل المجرب الذى حنكته التجارب ووثقتة حتى لا يصدر عنه إلا كل ما هو سداد : حكيم ، ويقال للمواعظ والأمثال التى يفتنع الناس بها : حكمة ، ولكل كلام نافع يمنع من الجهل والسفه : حكمة ، ومن ذا تسمية القرآن والإنجيل وسائر الكتب المنزلة ، وكل ما يحذرو على حذوها ، مما يتضمن مراعاة وآداباً وأخلاقاً فاضلة : حكمة ، إذ كل أولئك يرتدُّ إلى معنى الإتيقان والتوثيق والإصابة والسداد ... وإذن يكون معنى قوله صلى الله عليه وسلم : رأس الحكمة مخافة الله : أس الحكمة وقواها : الخرف منه سبحانه ، لأن الحكمة من شأنها أن تمتنع النفس عن كل ما نهينا عنه ، ولا يحذر المرء على العمل بها إلا الخوف منه ، عز وتقدس ، ومتى كان هذا الخوف شعاره حاسب نفسه على كل خطرة ونظرة ولذة ؛ وبذلك تكون مخافة الله آكد أسباب النجاة ولا تيم الحكمة إلا بها ...



المشابه : ما لم يتلق معناه من لفظه ، وهو على ضربين : أحدهما إذا رُدَّ إلى الحكم عرف معناه الآخر ، مالا سبيل إلى معرفة حقيقته ، فالمتبع له متبع للامته لأنه لا يكاد ينتهى إلى شيء تسكن نفسه إليه . راجع اللسان مادة شبه .

هذا، ويُعجِنِي من الشعر في باب الخوف من الله قول محمود الورَّاق^(١) :

يَا نَاطِرًا يَرْنُو بَعِيْنِي رَافِدٍ وَمُشَاهِدًا لِأَمْرٍ غَيْرِ مُشَاهِدٍ^(٢)
مَتَّيْتُ نَفْسَكَ ضَلَّةً وَأَبْجَتَهَا طُرُقَ الرَّجَاءِ وَهَنْ غَيْرُ قَوَاصِدٍ^(٣)
تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي دَرَكَ الْجِنَانِ بِهَا وَفُوزَ الْعَابِدِ^(٤)
وَنَسِيتَ أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمًا مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدٍ

وقال الحسن البصري : إن خوفك حتى تَلْقَى الْأَمْنَ ، خير من أَمْنِكَ حتى تَلْقَى الْخَوْفَ ... وقال : ينبغي أن يكون الخوفُ أَغْلَبَ على الرجاء ، فإن الرِّجَاءَ إذا غلب الخوفُ فَسَدَ القلب ... وقال بعضهم : قلت لِسُفْيَانَ : بلغني في قول الله تعالى : (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) أنه الذي يَلْقَى رَبَّهُ وليس فيه أحد غيره ، فبكى وقال : مسمعت منذ ثلاثين سنة أحسنَ من هذا التفسير ... وقالوا : من خاف الله أخاف الله منه كلَّ شيء ، ومن لم يخَفِ الله أخافه الله من كلَّ شيء ... وقال الفضيل بن عياض : إني لَا أَسْتَحِي من الله أن أقول تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ، ولو تَوَكَّلْتُ عَلَيْهِ حَقَّ التَّوَكُّلِ ، مَا خِفْتُ وَلَا رَجَوْتُ غَيْرَهُ .

« وأما بعد » فهو معلوم من الدين بالضرورة أن الله سبحانه خلق الإنسان وهو يعلم ما تَوَسَّوَسَ به نفسه ، وهو أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ^(٥) ما يَلْفُظُ من قولٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ^(٦) ، وإنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ

(١) هو محمود بن الحسن الوزاق البغدادي مولى بني زهرة يكنى أبا حسن ، شاعر كثير الشعر جيده ، وواقته في الحكم والمواعظ والزهد : ترجم له صاحب فوات الوفيات .

(٢) يرنو : ينظر (٣) غير قراصد ، يريد : وهي حائرة غير مستقيمة

(٤) درك : اسم من الإدراك

(٥) حبل الوريد : عرق في العنق (٦) عتيد : حاضر

يعلمون ما تفعلون^(١) :

إِنْ مَنْ يَرْكَبُ الْفَوَاحِشَ سِرًّا حِينَ يَخْلُو بِسِرِّهِ غَيْرُ خَالٍ
كَيْفَ يَخْلُو وَعِنْدَهُ كَاتِبَاهُ شَاهِدَاهُ، وَرَبُّهُ ذُو الْجَلَالِ^(٢)

وكذلك هو معلوم ، أن الناس قَوَارِي الله في أرضه^(٣) ، أى أن الناس ولا سيما الصالحون منهم - شهودُ الله في أرضه - لأنهم يتَّبَعُ بعضهم أحوالَ بعض ، فإذا شَهِدُوا لإنسان بخير أو بِشِرٍّ فقد أَوْجَبَ^(٤) ... وبعبارة أخرى : إن على كلِّ إنسانٍ رُقْبَاءَ هُمْ لَهُ بِالْمِرْصَادِ ، يُزْتَوْنُ عَلَيْهِ^(٥) ، وَيَجْعَلُونَ بِالْهَمِّ إِلَيْهِ ، وَلَا تَكَادُ تَخْفَى عَلَيْهِمْ خَلِيقَةٌ لَدَيْهِ :

وَهُمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ ، تَعْلَمُ أَلَيْسَ فِي نَفْسِ كُلِّ إِنْسَانٍ قَبَسٌ مِنْ نَوْرِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ نَوْرُ السَّمَرَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ وَالنَّاسُ بِهَذَا النُّورِ - وَلَا سِيَّما الصَّالِحُونَ مِنْهُمْ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يَبْدُو فِيهِمْ هَذَا النُّورُ خَالِصاً غَيْرَ مُشَوَّبٍ بِرَيْنٍ وَطَبَعٍ وَغَيْمٍ - يَرَوْنَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ مَا قَدْ يَتَوَقَّعُ الْجَاهِلُونَ أَنَّهُ لَا يُرَى ، فَكَأَنَّ النَّاسَ لَذَلِكَ شُهُودُ اللَّهِ فِي

(١) كل هذه آيات كريمة مقتبسة من القرآن الكريم (٢) هذان اليتان لناطقة بنى شيان واسمه عبد الله بن الخارق بن سليمان ، شاعر بدوى كان يفد إلى ملوك بنى أمية بالشام وأكثر من مدح منهم الوليد بن يزيد (٣) حديث شريف ، وقوارى : أخذ من أن الناس يقررون الناس ، أى يتبعونهم فيظفرون إلى أعمالهم ، وقال الزخشرى : المسلمون قوارى الله في الأرض ، أى أمناؤه وشهداؤه الميامين ، شبهوا بالقوارى من الطائر وهى الخضر التى يتيمينون بها

(٤) يقال : أوجب الرجل : إذا عمل عملاً يوجب له الجنة أو النار ، والموجبة : الكلمة أو الفعلة توجب لقائلها الجنة أو النار

(٥) زناً عليه : إذا ضيق عليه ، وعامة المصريين يستعملون اليوم هذا الحرف بمعناه الصحيح

الأرض ، فإذا شهدوا لإنسان بخير أو بشر ، فلكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وكلٌّ يجزى بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وهذا كله حقٌّ لاسبيل إلى الإلحاد فيه ... وشيء آخر ، وهو أن من كان شعاره خوف الله في السرِّ والعلَن وحسنت سيرته ، رشَد وحسنت سيرته ، ومن عراه الله من هذا الشعار وساءت سيرته ، غيَّ وساءت سيرته . وجلة القول : أن خوف الله وما يستتبعه من قلة الاكتراث لما سواه من الخلق في سبيل الحق ، مما يورث صاحبه ما يطلو قرن عليه اليوم « الشجاعة الأدبية » فضلاً عن الجرأة والإقدام وسائر الخلال الكريمة النبيلة . تخوف الله كما ترى أس من أسس الأخلاق ، وهذا مصداق الحديث الشريف ، رأس الحكمة مخافة الله ، ...

هذا ، وقد يظنُّ ظان أن مخافة الله مغزاها الخوف من عقابه والطمع في ثوابه ، فمن عمل صالحاً فلكي يُثاب ويَجْزَى الجزاء الآوِي ، ومن أُنْعِم فلكي ينجو من عذاب النار ، وهذا لَمَرى ، وإن عُدَّ خوفاً ، بيد أنه أذنى درجات الخوف ، وهو خوف العامة وأشبه العامة . قال بعض الحكماء : إني لأستحي من ربي أن أعيبه رجاء الجنة فأكون كالاجير ، أو خوف النار فأكون كعبد السوء ، إن خاف عَمِلَ وإن لم يَخَفْ لم يعمل ، لكن يستخرج من حب ربي ما لا يستخرجه غيره .. وقال بعضهم : من عبد الله بعوض فهو لثيم . وقال بعض الصوفيَّة : لو لم يكن لله ثواب يُرَجى ولا عقاب يُخشى لكان أهلاً أن لا يُعصى ، ويُذكر فلا يُنسى ، بلا رَغَب في ثواب ولا رَهَب من عقاب ، لكن لِحُبِّه ، وهو أعلى الدرجات ، أما تسمع قول موسى عليه السلام : وَجَعَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لَتَرْضَى ، أقول : : إذن فأفضل الأعمال . ما كان

للحقِّ والخير والجمال والمثل الأعلى في ذات الله العليّ الأقدس الذي له
الاسماء الحسنى (١).

وَلْتَفْعِلِ النَّفْسُ الْجَمِيلَ لِأَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ لِلْأَجْلِ نَوَائِهَا (٢)
أما الثواب والعقاب فالله سبحانه وما يُعَدُّ لعبده من ذلك، وحقيق بالعبد أن
يُحَسِّنَ ظَنَّهُ بربه ويرجو لديه رحمته التي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وليكن كما قال محمد بن
وهيب :

وإني لأرجو الله حتى كأنني أرى بجميل الظَّنِّ ما الله صانع
وسيمُرُّ عليك تريراً طَرْفٌ من قولهم في الرجاء.

عقرياتهم في التقوى

ولناخذ الآن في عقرياتهم في التقوى : قال الله سبحانه : « إن أكرمكم عند
الله اتقاكم » قال الإمام البيضاوي في تفسيره : فإن التقوى بها تكمل النفوس
وتفاضل الأشخاص ، فمن أراد شرفاً فليلتزمه فيها ، كما قال عليه الصلاة والسلام :
« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَامٌ فَلْيَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ
بِمَا فِي يَدَيْهِ ... » أقول : هذا كلامٌ عُلُوٌّ مُعَرِّقٌ له في الصدق والحق والكمال
والمثل الأعلى.

(١) الحسنى : تأنيث الاحسن يقال : الاسم الاحسن والاسماء الحسنى . والاسماء
الحسنى معروفة وهي ٩٩ اسماً ، انظر نهاية الأرب ج ٥ ص ٢٢٦ ، ومرادنا بقولنا
« والله الاسماء الحسنى : الصفات ، وهي الوحدانية والقدرة الى آخر مسميات هذه الاسماء
الحسنى ... » وقد جاء في القرآن الكريم : « والله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين
يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » سورة الاعراف ،
(٢) للعمرى ، وقد تقدم هذا البيت صدر باب البر والتقوى .

كَلِمَةٌ فِي التَّوَكُّلِ

«وبعد» فللمناسبة ذكر التوكل وإقترانه بالتقوى فيما أوردنا عليك من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وإشادة الإسلام به، والحث على أن يكون شعار المؤمن في كل أسبابه، رأينا أن نُنِيلَ به وبحقيقته إماماً. فنقول : التوكل : كلمة يراد بها أمران ، لا يُعَدُّ التوكل توكلًا على الحقيقة إلا إذا تحقَّقا معاً . فأما أول الأمرين فهو : الاعتقاد بأن الله عزَّ وتقدَّس هو وحده الذي بيده كلُّ شيء ، وأنه لا سواه الذي له مقاليد السموات والأرض ، وأن جميع الخلق فقراء كلُّ الفقير إلى عونه سبحانه ، وأنه :

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنُ اللَّهِ لَلْفَتَى فَأُولَ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ
وكل هذا مما لا خفاء بأنه مما تقتضيه عقيدة التوحيد التي قام عليها الإسلام ؛
وأما الأمر الآخر فهو : أن لا يكون المرء وكَلَّةً ، فلا يعتمد بعد الله إلا على نفسه ،
وهذا الأمر الثاني يكاد يكون ضَرْبَ قولهم اليوم « الاعتماد على النفس » ، أو
قول الطغرائي :

وَإِنَّمَا رَجُلٌ الدُّنْيَا وَوَاحِدُهَا مَنْ لَا يُعَوِّلُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلٍ
والشرط الأول ، يقتضى الاعتقاد بالقدر خير وشر ، والشرط الآخر
يقتضى السعى والاحتياط لأمره ، ولاننا فر بينهما أَلْبَتَّةً ، وإنما هما ، لدى إنعام
النظر ، شيء واحد يُعَبَّرُ عنه بالتوكل ...

جاء رجل إلى سيدنا رسول الله فقال له : إني أُرْسِلُ نَاقِيً وأتوكل ؛ فقال صلوات
الله عليه : بل اُعْظِمْهَا وتوكل ... ومَرَّ الشَّعْبِيُّ بِإِبِلٍ قَدْ فُشَا فِيهَا الْجَرَبُ ، فقال لصاحبها :
أَمَا تَدَاوِي إِبِلَكَ ؟ فقال : إِنْ لَنَا مَجْزُؤٌ تَتَكَلَّى عَلَى دَعَائِهَا فَقَالَ : اجْعَلْ مَعَ دَعَائِهَا

شيئا من القَطْران ... وقال أبو عبيدة بن الجراح لعمر رضى الله عنه حين كره طواعين الشام ورجع إلى المدينة : أَتَفِرُّ من قَدَرِ الله ؟ قال : نعم ، إلى قَدَرِ الله ... فقال له أينفع الحذرُ من القَدَر ؟ فقال : لَسْنَا بِمَا هُنَاكَ فِي شَيْءٍ « نَأْمَل » ، إِنَّ الله لَا يَأْمُرُ بِمَا لَا يَنْفَعُ وَلَا يَنْهَى عَمَّا لَا يَضُرُّ ، أَلَيْسَ بِكَ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، وَقَالَ تَعَالَى : خُذُوا حِذْرَكُمْ ... وَفِي كِتَابِ كَلِيلَةِ : لَا يَمْنَعُ الْعَاقِلَ يَقِينُهُ بِالْقَدَرِ مَنْ تَوَقَّى الْخَوْفَ ، بَلْ لِيَجْمَعَ تَصَدِيقًا بِالْقَدَرِ وَأُخْذًا بِالْحَزَمِ ، وَقَالَ شَاعِرٌ :

وَالْمَرْءُ تَلْقَاهُ مِضْيَاعًا لِفُرْصَتِهِ حَتَّى إِذَا فَاتَ أَمْرٌ دَانَبَ الْقَدَرَا
وَقَالَ آخَرُ :

إِذَا عُبِّرُوا قَالُوا مَقَادِيرُ قُدِّرَتْ وَمَا الْعَارُ إِلَّا مَا تَجَسَّرُ الْمَقَادِيرُ
وَقَالَ آخَرُ :

وَأَوَّلُ عَجْزٍ انْقَوْمَ عَمَّا يَنْوِبُهُمْ تَدَا فُعُهُمْ عَنْهُ وَطُولُ التَّوَاكُلِ
وَقَالُوا فِي الْمَثَلِ : مِنَ الْعَجْزِ الْإِحَالَةُ عَلَى الْمَقَادِيرِ ...

وإليك ما قاله الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرحه على صحيح البخاري المسمى فتح الباري ^(١) تأييداً لهذا الذي قلنا في التوكل : والمراد بالتوكل : اعتقاد ما دلت عليه الآية : وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، وليس المراد به ترك التَّسَبُّبِ ، والاعتماد على ما يأتي من المخلوقين ، لأن ذلك قد يجرُّ إلى ضدِّ ما يُرَادُ من التوكل ، وقد سُئِلَ أحمد - بن حنبل - عن رجلٍ جلس في بيته أو في المسجد وقال : لَا أَعْمَلُ شَيْئًا حَتَّى يَأْتِيَنِي رِزْقِي ، فقال : هَذَا رَجُلٌ جَهْلُ الْعِلْمِ . « نَأْمَل » ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُجْحِي .

وقال: لو توكلتم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يُرزق الطير تَغْدُو خِصَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا^(١)، فذكر أنها تغدو وتروح في طلب الرزق؛ قال: وكان الصعابة يتَجَرَّون ويعملون في نَحْلِهِمْ، والقُدْوَةُ بهم... انتهى. (وبعد، فإن التوكل كما ترى وعلى ضوء هذا الذي قلنا: أُسُّ من أُسِّس الأخلاق، إذ أنه يَكْسِبُ صاحبه الجُرْأَةَ والإقدام والشجاعة الأدبية، وأن لا يَخْشَى في الحقِّ لومة لائم، وَيَنْفِي عنه الجُبْنَ والتخاذل والخوف من الموت والجزع لدى نزول المصائب وما يجري هذا المجرى؛ وَيَكْسِبُ صاحبه كذلك خُلُقَ الاعتماد على النفس وأن لا يَتَّكِلَ بعد الله إلا على نفسه. ومصدق هذا كله قوله صلى الله عليه وسلم: من سرّه أن يكون أعزّ الناس فليكن بما في يَدِ الله أوثق منه بما في يده، ومن سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله.

عود إلى عبقرياتهم في التقوى

وقال سبحانه: ومن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ، إن الله بالغُ أمره قد جعل الله لكل شيء قَدْرًا مَخْرَجًا: مَخْلَصًا من مضايق الدهر، وقوله سبحانه: من حيث لا يحسب، أي من وجه لا يخطر بباله ولا يقع في حسابه، وبالغ أمره: يبلغ ما يريد ولا يفوته مراد ولا يُعْجِزُه مطلوب، وجعل لكل شيء قَدْرًا: أي تقديرًا وتوقيتًا، وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه، لأنه إذا عَلِمَ أن كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته لم يَبْقَ إلا التسليمُ للقدر والتوكل، ولا معنى للسخط وعدم الرضا، وعنه صلى الله عليه وسلم: إني لأعلم

(١) أي تغدو بكرة وهي جياح وتروح عشاء وهي غملة الاجواف.

آيَةً لِّوَأَخِذَ النَّاسَ بِهَا لِكُفَّتِهِمْ : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ ... الْآيَةُ . وَقَالَ سُبْحَانَهُ : يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . « حَقُّ تَقَاتِهِ
أَيُّ حَقِّ تَقْوَاهُ ، وَدَوَّ اسْتِفْرَاغِ الْوُسْعِ فِي الْقِيَامِ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَاجْتِنَابِ مَا نَهَى
اللَّهُ عَنْهُ ، وَمِثْلُهُ : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، يَرِيدُ : بِالْإِقْوَا فِي التَّقْوَى حَتَّى لَا تَتْرَكُوا
مِنَ الْمُسْتَطَاعِ شَيْئًا ، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ : هُوَ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى وَيُشْكَرَ
فَلَا يُكْفَرُ وَيُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى ، وَقِيلَ : هُوَ أَنْ تُنْزَعَ الطَّاعَاتُ عَنِ الْإِلْتِفَاتِ
لِأَيِّهَا ، وَعَنْ تَوَقُّعِ الْمَجَازَةِ عَلَيْهَا ، وَقِيلَ : هُوَ أَنْ لَا نَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْنُهُ لِأَنَّهُ
وَأَنْ يَقُومَ بِالْقِسْطِ - الْعَدْلِ - وَلَوْ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ ابْنِهِ أَوْ أَبِيهِ ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ :
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ « مُحْسِنُونَ : أَيُّ فِي أَعْمَالِهِمْ ، مِنْ أَحْسَنِ
الشَّيْءِ : أَنْفَعُهُ ، ... وَقَالَ بَزْرُجْمِهْرٍ : مَنْ قَوِيَ فَلْيَقْوِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَمَنْ
ضَعُفَ فَلْيَضْعُفْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ ... قَالَ ابْنُ الْمُقَفِّعِ : لِيُحْرِصَ الْبَلَاءُ أَنْ يَزِيدُوا
عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ - كَلِمَةِ بَزْرُجْمِهْرٍ - حَرْفًا ، « يَرِيدُ : أَنَّهَا كَلِمَةُ جَامِعَةٍ ، وَقَالَ
عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ لِبْنِهِ فِي مَرَّضِهِ : أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، فَإِنَّهَا أَزِينُ حُلَّةٍ
وَأَحْصَنُ كَهْفٍ ، فَقَالَ مُسْلِمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ - وَكَانَ حَاضِرًا - وَأَثَرُ إِلَى
الصَّوَابِ ، وَأَنْفَعُ فِي الْمَذَاقِ : فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : هَاتَانِ لَا إِلَّا وَلِيَانِ ... « الْحُلَّةُ :
كُلُّ ثَوْبٍ جَدِيدٍ ، وَلَا يَقَالُ لَهُ حُلَّةٌ إِلَّا إِذَا اجْتَمَعَ مَعَهُ ثَوْبٌ آخَرُ وَعِمَامَةٌ ،
وَالْكَهْفُ : الْمَلْجَأُ ، وَأَصْلُهُ كَالْيَتِ الْمُنْقَوِرِ فِي الْجَبَلِ ، وَقَالَ الْخَطِيبِيُّ :

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمَعَ مَالٍ وَلَكِنْ التَّقَى هُوَ السَّعِيدُ

وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ ذُخْرًا وَعِنْدَ اللَّهِ لِلْآنَفَى مَزِيدٌ

وَمَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ : قَرِيبٌ وَلَكِنْ الَّذِي يَمْنَعُنِي بَعِيدٌ

وقال الأعشى في أبياته التي مدح بها سيدنا رسول الله :

أَجِدُّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ نَبِيَّ الْإِلَهِ حَيْثُ أَوْصَى وَأَشْهَدَا
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْتَحِلْ بَزَادٍ مِنَ الثُّنَى وَلَا قَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونُ مَكَانَهُ فَتُرْصِدَ لِلْمَوْتِ الَّذِي كَانَ أَرْصَدَا
« قوله : أجدك قال سيديوه : هو مصدر كأنه قل . أجدا منك ، ولكنه
لا يستعمل إلا مضافا ، وقال الأصمعي : أجدك ، معناه : أجعد هذا منك ونصبا
بطرح الباء ، وقال الليث : من : أجدك بكسر الجيم فإنه يستحلفه
بجده وحقيقته ، وإذا فتح الجيم استحلفه بجده ، وهو بجته تقول : أجدك
لا تفعل كرا ، وأجدك لا تفعل كذا . وأرصد : أعد ، وقال كبيد :

إِنَّ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرُ نَفْلٍ وَيَا ذَنْ اللَّهَ رَبِّي وَعَجَلُ
أَحْمَدُ اللَّهَ فَلَا رَدَّ لَهُ بِيَدَيْهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلُ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلُ

« الذنل : الغنيمة والجمع أنمال ، ثم قل ليده : ويأذن الله وتسميله ربِّي ، أى
بطئى ، وعجل : أى سرعتى ، فحذف ياء الإضافة للوزن : يقول ، إن الحركة
والسكون بيد الله ، ولا ند له : لا مثل له ، ويديه الخير : أى بقدرته التى هى
كآلة فى أفعاله تعالى ، كاليدى فى أفعالنا ، وثنية اليد للبالغة فى التشبيه ، وما
شاء فعل : أى ما أَرَادَهُ فعله وبين ذلك بالبيت الثالث ، ... وقال أبو نواس :

أَخِي مَا بَالُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَنْتَقَى كَأَنَّكَ لَا تَنْظُرُ الْمَوْتَ حَقًّا
أَلَا يَا بَنَ الَّذِينَ فَنُوا وَبَادُوا أَمَّا وَاللَّهِ مَا ذَهَبُوا لَتَبَقَى
وَمَا أَحَدٌ بَزَادِكَ مِنْكَ أَحْظَى وَمَا أَحَدٌ بَزَادِكَ مِنْكَ أَشَقَى
وَلَا لَكَ غَيْرَ تَقْوَى اللَّهِ زَادٌ إِذَا جَعَلْتَ إِلَى اللَّهِ هَوَاتٍ تَرْتَقَى

« جعلت : يريد النفس أو الروح وإن لم يتقدم لذلك ذكر ، واللهوات
جمع لهاة وهي : لحمه حمراء في الحنك معانة على عكدة اللسان ، وقال أبو المتاهية :

أَطِيعِ اللَّهَ بِجُهِدِكَ عَامِداً أَوْ دُونَ جُهِدِكَ
أَعْطِ مَوْلَاكَ كَمَا تَطْلُبُ مِنْ طَاعَةِ عَبْدِكَ

وقال بعض المتصوفة : من كان مع الله فقد هلك ، وإنما نجاح من كان الله معه ، وقال
رجل للشبلي : متى يقربُ العبد من ربه ؟ فزعم ثم أنشد :

مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْوَصَالِ أَهْلًا فَكُلُّ إِحْسَانِهِ ذُنُوبٌ

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى ابنه عبد الله في غيبة غابها :
أما بعد ، فإنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكره زاده ،
ومن أقرضه جزاه ، فاجعل التقوى جلاء بصرك ، وعماد ظهرك ، فإنه
لا عمل لمن لا نيّة له ، ولا أجر لمن لا حسنة له ، ولا جديد لمن لا خلق له ...
« قوله : ومن شكره زاده : فسيمر عليك قريباً معنى الشكر ، وقوله : ومن
أقرضه جزاه ، فالقرض في الأصل : ما يُعطيه الرجل أو يفعله ليجازى عليه ،
ولما كان الله سبحانه لا يستقرض من عوز فقد قالوا في مثل قوله تعالى :
وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، و : من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له :
إن القرض معناه الفعل الحسن من اتباع أمر الله وطاعته ، والعرب تقول لكل
من فعل إليه خيراً : قد أحسنت قرضى وقد أقرضتني قرضاً حسناً ، وفي
الحديث : أقرض من عريضك ليوم فقرك ... يقول صلوات الله عليه : إذا
نال عريضك رجل فلا تجازه ، ولكن استبق أجره مؤمراً لك قرضاً في ذمته
لتأخذه منه يوم حاجتك إليه ، ... وقال عمر بن عبد العزيز : ليست التقوى
قيام الليل ولا صيام النهار والتخليط فيما بين ذلك ، ولكن التقوى ترك

مأحرّم الله وأداء ما افترض الله ، فمن رُزق خيراً بعد ذلك فهو خيرٌ ... وقال رجل لحكيم : أوصني : فقال : إن استطعت أن لا تُسيءَ إلى من تُحِبُّ فافعل ، فقال : وهل يُسيءُ المرءُ إلى من يُحِبُّ ؟ قال : نعم : نفيسُك إن عصيت الله .

التقوى مع الجهل

قال الحسن البصري : أدركتُ قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : مَنْ عَمِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُهُ أَكْثَرَ مما يُصْلِحُهُ ... وقال أيضاً : قَصَمَ ظَهْرِي عَالِمٌ لَزُحْدِهِ مَعَهُ ، وَزَاهَدٌ لِعِلْمِهِ مَعَهُ ، هَذَا يَدْعُو إِلَى جَهْلِهِ بِزُحْدِهِ ، وَهَذَا يُنْقَرُ عَنْ عِلْمِهِ بِحِرْصِهِ . وقيل لأنوشروان : أى الناس أولاهم بالسعادة ؟ فقال : أقلهم ذنباً ، قيل : ومن أقلهم ذنباً ؟ قال : أكملهم عقلاً ... وسيد الكلام في هذا المعنى قوله تعالى : إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ أَكْمَلُهُمْ عَقْلاً ... وقد تقدم آنفاً . وفي الأثر : يكون في آخر الزمان قُرَاءُ فَسَقَةٍ وَعُبَادَةٌ جَهْلَةٍ ، وَرَكْعَةٌ مِنْ عَالِمٍ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ رَكْعَةً مِنْ عَابِدٍ لَّا عِلْمَ مَعَهُ .

التماوت والإفراط في الخشوع

والأصل في هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم لرجلٍ جَدَّ في العبادة حتى غارت عيناه : إن هذا الدينَ متينٌ ، فأَوْغِلْ فيه برفق ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ رَبِّكَ ، فَإِنَّ الْمُتَنَبِّتَ لَا أَرْضًا تَقْطَعُ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى ، وَلَنْ يُشَادَّ هَذَا الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ... «متينٌ» أى شديد ، من متن متانة : أَشَدُّ وَقْوَى ، قال تعالى : وَأُمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ، وقوله : فَأَوْغِلْ فيه برفق : أى ادخل ، وأصل الإيغال : الإمعانُ في السَّيرِ والإبعاد فيه يقول : يَسِرُّ في الدين برفق ولا تَحْمِلُ

على نفسك فتكفها ما لا تطيق فتعجز وتترك العمل ، والمنبت : الذي أتعب
 دَابَّتُهُ حَتَّى عَطِبَ ظَهْرُهُ فَبَقِيَ مُنْقَطِعاً بِهِ ، من الانبتات وهو الانقطاع ...
 ورأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلاً مُطْأِطِئاً رَأْسَهُ ، فقال له : ارفعْ
 رَأْسَكَ ، فإن الإسلام ليس بمريض ... ونظر يوماً إلى رجلٍ مُظْهِرِ النَّسَكِ
 مُتَمَامٍ ^(١) خَفَقَهُ بِالِدَّرَّةِ وقال : لَا تُمِثْ عَلَيْنَا دِينَنَا أَمَا تَكُ اللَّهُ ... ونظرت
 السيدة عائشة رضى الله عنها إلى رجلٍ كَادَ يَمُوتُ تَخَافُتَا ^(٢) فقالت : ما لهذا ؟
 فقالوا : أَحَدُ الْقُرَاءِ ، فقالت : قد كان عمر بن الخطاب سَيِّدَ الْقُرَاءِ ، فكان إذا
 قَالَ أَسْمَعُ ، وَإِذَا مَشَى أَسْرَعَ ، وَإِذَا ضَرَبَ أَوْجَعَ ... وقال صلى الله عليه وسلم :
 إِنْ اللَّهُ بَعَثَنِي بِالْخَيْفَةِ السَّمْحَةِ وَلَمْ يَبْعَثْنِي بِالرَّهْبَانِيَةِ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي
 فَلَيْسَ مِنِّي ...

قوله اليقين في الناس

قال الشعبي : لم يَقْسِمِ اللَّهُ بَيْنَ النَّاسِ أَقْلًا مِنَ الْيَقِينِ ... وقال ابن الرومي من
 همزيته البارة التي يعاتب فيها أبا القاسم الشطرنجي - ونذكر من أياتها المختارة
 ما يصح أن يذكر هنا ، كما يصح أن يذكر في باب القناعة قال :

مَرْحَباً بِالْكَفَافِ يَأْتِي هَنِئاً وَعَلَى الْمُتَعَبَاتِ ذَيْلُ الْعَفَاءِ ^(٣)

ضَلَّةَ لَا مَرِيٍّ يُشْمَرُ فِي الْجَمْعِ لِعَيْشٍ مُشْمَرٍ لِلْفَنَاءِ ^(٤)

(١) المتماوت : الذي يظهر من نفسه الضعف من العبادة والزهد والصوم

(٢) التخافت : تكلف الخفوت ، وهو : الضعف والسكون

(٣) الكفاف من الرزق : القوت وما كف عن الناس أى أغنى عنهم ، والمتعبات :

الامور التي تتعب صاحبها في تحصيلها ، والعفاء : الدروس واهاء الاثر

(٤) ضل من يكبد في جمع المال لعيش يسرع في الزوال

دَائِباً يَكُونُ الْقَنَاظِيرُ لِلْوَا
رِثِ وَالْعُمُرُ دَائِبٌ فِي انْقِضَاءِ^(١)
حَبْذَا كَثْرَةُ الْقَنَاظِيرِ لَوْكَ
نَتِ لِرَبِّ الْكَنُوزِ كُنْزَ بَقَاءِ
أَنْ قَالَ :

حَسْبُ ذِي إِرْبَةٍ وَرَأْيٍ جَلِيلٍ
صَحَّةُ الدِّينِ وَالْجَوَارِحِ وَالْعِرْ
تِلْكَ خَيْرٌ لِعَارَفِ الْخَيْرِ مِمَّا
وَلَهَا مِنْ ذَوِي الْأَصَالَةِ عِشَاءُ
لَيْسَ لِلْمُكْثِرِ الْمُتَغَفِّصِ عَيْشٌ
أَنْ قَالَ:

ظَلِمْتُ حَاجَتِي فَلَاذَتْ بِحَقْوَرٍ
وَقَضَاءُ الْإِلَهِ أَحْوَجُ لِلنَّاسِ
غَيْرِ أَنْ الْيَقِينَ أَضْحَى مَرِيضًا
مَا رَجَدْتُ أَمْرًا يُرَى أَنَّهُ بُو
لَوْ يَصِحُّ الْيَقِينُ مَا رَغِبَ الرَّأ
وَعَسِيرُ بُلُوغِ هَاتِيكَ جَدَا

(١) دأبنا من دأب في عمله : مضى فيه بجد وتعب ، ويكنز من باب ضرب ونصر : يحوز الأموال ، والمناطير : يعني من الذهب والفضة وما إلها

(٢) الإلبة : الدهاء ، والغلواء : الغلو (٣) أى والحصول على ما يملك الابدان من الغذاء والشراب ، والخوانم : النفس (٤) لاذت : لجأت واحتضنت ، والحقو بفتح الحاء وكسرهما : الإزار أو معقده يقول : فتعلمت بأهدابك أى التجأت إليك فسلمتها وتركتها للقضاء (٥) أحوط : أعظم حفظاً وصيانة (٦) يقول : لم أجد أحداً يظن أن عنده يقينا بالله إلا وفي نفسه شوب من الشك

وقال حكيم : من الدلالة على قلة اليقين ، أنك تَخَيَّرَ يوماً عن خير الدنيا بالنسيئة : طمعاً في الربح ، طفيف ربح مع ما فيه من الخطر ، وتأبى أن تُقرَضَ اللهَ درهماً بثمانمائة ، مع زَعْمِكَ وقولك إن مُسْتَقْرِضَهُ مَلِيءٌ وفى هكذا وردت هذه الكلمة في محاضرات الأدباء ، ويظهر أنها إما مُحَرَّفَةٌ وإما أنها معاطلة^(١) وهى على الرغم من ذلك تكاد تكون مفهومة ، فالظاهر أن قائلها يريد أن يقول : إن ما يدلُّ على قلة اليقين أنك لو خيَّرت بين ربح كثير آجل نسيئةً عند الله ، بأن تُقرَضَ مثلاً درهماً بثمانمائة ، وبين ربح طفيف عاجل في الدنيا قد حُفَّ بالخطر ، لاخترت الثانى على الاول ، مع زَعْمِكَ بأن من تقرضه - وهو الله عز وجل - مضطلع بمضاعفة القرض وتوفيتك حقك وإعطائك إياه وافياً ...

إصلاح الضمير

دخل حميد الطويل على سليمان بن علي وإلى البصرة فقال له : عِظْنِي ، قل حميد : لئن كنت حين عصيت ربك ظننت أنه يراك فقد اجترأت على الله ، ولئن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرت ... وقالوا : إذا فسمدت التية وقعت البلية ، وقال رجل لسيدنا رسول الله : لقد سمعناك يا رسول الله تقول : شَيَّبَتْنِي هود^(٢) ، فما الذى شَيَّبَكَ منها ؟ قال : قوله تعالى : فاستقم كما أمرت ... ورووا أن السيد المسيح صلوات الله عليه قال : ياربِّ ، مَنْ أَشْرَفُ النَّاسِ ؟ قال : من إذا خَلَا عِلْمَ أَنَّى ثَانِيهِ فَأَجَلَ قَدْرِي عَنْ أَنْ يُظْهِرَنِي عَلَى مَعَاصِيهِ ... وَمَرَّ

(١) معاطلة : أى عاظلتها قائلها : أى عقدها عجزاً عن الإفصاح أو قصداً

(٢) هود : أى سورة هود وفيها يقول الله جل شأنه لسيدنا رسول الله : فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ، ولما كان العمل بمضمون هذه الآية الكريمة في غاية العسر قال سيدنا رسول الله : شَيَّبَتْنِي هود

عمر رضى الله عنه بمملوك يرعى غنما، فقال : أَتَدْبِعُنِي مِنْهَا شاةً ؟ قال : ليست لي ، قال : فأين العِلْلُ ؟ قال : فأين الله : فاشتراه عمر وأعتقه ، فقال المملوك : اللهم قد رزقتني العِتَقَ الأصغر فارزقني العِتَقَ الأكبر ، أعوذ بك من قلب غائب عنك ... وقال السري السقطي ^(١) : بتصحیح الضمائر تُغْفَرُ الكبائر ؛ وفي الأثر : تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة « أى تعرّف إليه في الرخاء بالشكر وذكّر الآلاء يعرفك في الشدة بالعصمة ... » وقال بعض المتصوفة : إن الله لا يشغله عنك شيء فإن استطعت أن لا يشغلك عنه شيء فافعل ...

احتمال المكاره في العاجل رجاء المسار في الآجل

ورمن جوامع الكلم في ذلك قول سيدنا رسول الله : حُفَّتِ الجنة بالمكاره وحُفَّتِ النار بالشهوات وحُفَّتْ : أحيطت ، والمكاره جمع مكروهة وهى : ما يكرهه المرء ويشق عليه ، والشهوات : كل ما يوافق النفس وتصبو إليه . قال الإمام القرطبي : أصل الحَفِّ : الدائر بالشئ المحيط به الذى لا يتوصّل إليه إلا بعد أن يُتَخَطَّى ، فمثل المصطفى المكاره والشهواتِ بذلك ، فالجنة لا تنال إلا بقطع مفاوز المكاره والصبر عليها ، والنار لا يُنَجَّى منها إلا بقطم النفس عن مطلوباتها ، وقال ابن حجر : هذا من جوامع كلم المصطفى وبديع بلاغته في ذم الشهوات وإن مالت إليها النفوس ، والحث على الطاعات وإن كرهتها وشقت عليها « ولما تاب بعض الصوفية كان لا يَتَهَنَأُ بطعام ولا شراب فقالت له أمه : أرفق بنفسك ، فقال : الرِّفْقُ أطلب لها ... وهذا كقول الربيع بن خثيم وقد صلى طول ليلته حتى أصبح وقال له رجل : أتعبت نفسك فقال : راحتها أطلب ...

(١) أحذر رجال الطريقة وخال أبى القاسم الجنيد ، ترجم له ابن خلكان

ومثل هذا - وإن كان من بابة أخرى - قول العباس بن الأحنف :

سَأَطْلُبُ بَعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكُبَ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا^(١)

وقول الآخر :

تَقُولُ سَلِمَتِي لَوْ أَقَمْتَ بِأَرْضِنَا وَلَمْ تَدْرِ أَنِّي لِلْمَقَامِ أَطُوفُ

مرعاة الدين والدنيا معاً

قال تعالى : وَلَا تَذَسْ نَفْسِيكَ مِنَ الدُّنْيَا ... وقال سيدنا رسول الله : ليس بخيركم من ترك دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ ، وَلَا آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ ، حَتَّى يُصِيبَ مِنْهُمَا جَمِيعًا ، فَإِنَّ الدُّنْيَا بَلَاغٌ إِلَى الْآخِرَةِ ، وَلَا تَكُونُوا كَلَاءً عَلَى النَّاسِ ... « كَلَاءٌ : عِيَالًا وَثِقَلًا ، وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى الدُّنْيَا بِالْغِنَى ، وَعَلَى الْآخِرَةِ بِالتَّقْوَى . وقال مروان بن أبي حفصة لِعِمَارَةَ بْنِ حَمْزَةَ^(٢) : أَنْشَدْتُ الْمَأْمُونَ قَوْلِي :

أَضْحَى إِمَامُ الْهُدَى الْمَأْمُونُ مُشْتَغِلًا بِالْدِّينِ وَالنَّاسِ بِالدُّنْيَا مَشَاغِلُ
فَلَمْ يَهْتَمَّ لِذَلِكَ إِقْفَالِ عِمَارَةٍ : مَا زِدْتُ عَلَى أَنْ صَيَّرْتَهُ عَجُوزًا مُعْتَكِفَةً فِي مَحَارِبِهَا ،

(١) كنى بالجود عن السرور ... وللقاد في هذه الكناية كلام حسن انظره إذا شئت في شرحنا على التلخيص

(٢) شخصية ضخمة ، كان أدبياً وكان كاتباً وكان جواداً كريماً وكان من سروات الناس وكان تياماً معجباً معتدلاً بنفسه وكان في زمن السفاح والمنصور وبقى إلى زمن المأمون وتولى الولايات العظيمة في أيامهم وكان من شدة اعتداده بنفسه إذا أخطأ يعضى على خطائه ويأنف من الرجوع ويقول : نقض وإبرام في ساعة واحدة ! الخطأ أهون من ذلك ! انظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت وهي زاخرة بكل ما يطرب ويعجب من سيرة هذا عمار بن حمزة ،

ثُمَّ لَا مَوْرَ الْمُسْلِمِينَ أَهْلًا قُلْتَ كَمَا قَالَ جَرِيرٌ :

فَلَا هُوَ فِي الدُّنْيَا مُضِيعٌ نَصِيْبُهُ

وَلَا عَرَضُ الدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ شَاغِلُهُ !

والمشهور في هذا المعنى قول الفاروق رضي الله عنه : اَعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ

تَأْبِداً وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غداً... وقال الشاعر :

وَلِلَّهِ مِنِّي جَانِبٌ لَا أُضِيعُهُ وَلِلَّهِ وَمِنِّي وَالْخَلَاةُ جَانِبٌ

وسيمر بك كثير من عبقرياتهم في هذا المعنى، في مواضع أخرى من

هذا الكتاب .

الرجاء والجمع بينه وبين الخوف من الله

قال تعالى : فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ : يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، وقال حكيم :

أَرْجُ إِذَا خِفْتُ وَخَفْتُ إِذَا رَجَوْتُ ، وَكُنْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ لَيْسَ رَجَاؤُهَا أَنْ تَلِدَ

وَلَدًا ذَكَرًا بَأَكْثَرِ مِنْ خَوْفِهَا أَنْ تَلِدَ أَثْمًا . وقريب من هذا قول رجل لابنه :

خَفِ اللَّهَ خَوْفًا لَا يَمْنَعُكَ مِنَ الرَّجَاءِ ، وَارْجُهُ رَجَاءً لَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْخَوْفِ ، فالمؤمن

له قلبان : يرجوه أحدهما ويخافه الآخر وقال :

أَنَا بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ مِنْهُ وَاقِفٌ بَيْنَ وَعْدِهِ وَالْوَعْدِ

وقال أبو نُوَاس :

لَا تَحْطَرِ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ امْرَأَةً أَحْرَجًا فَإِنْ حَظَرَكَ بِالْذَّنْبِ إِزْرَاءُ

وقال أيضا :

يَا كَثِيرَ الذَّنْبِ عَفْوِ اللَّهِ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْثَرُ

وقال :

تَبَسَّطْنَا عَلَى الْآثَامِ لَمَّا رَأَيْنَا الْعَفْوَ مِنْ ثَمَرِ الذَّنُوبِ

وقال :

تَكْثُرُ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا فَإِنَّكَ بِالْإِسْخِ رَبًّا غَفُورًا

سَتُبْصِرُ إِنْ وَرَدَتْ عَلَيْهِ عَفْوًا وَتَلْقَى سَيِّدًا مَلِكًا كَبِيرًا

تَعُوضُ نَدَامَةً كَفَيْكَ مِمَّا تَرَكْتَ مَخَافَةَ النَّارِ السُّرُورًا

وفي الأثر : مَا أَحْبَبُّ أَنْ لِيَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ... وقال ابن عباس لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما : أَى آيَةٍ أَرْجَى ؟ قال : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، فقال : إِنَّ هَذِهِ لِمَرْجُوءَةٌ ، وَأَرْجَى مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّ اللَّهَ لَذُوْ مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ... وقال أعرابي لابن عباس : مَنْ يَحَاسِبُ الْخَلْقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قال : يَحَاسِبُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى قُلُوبًا : نَحْنُ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ ، فقال : كَيْفَ ؟ قال : إِنْ الْكَرِيمُ إِذَا قَدَرَ غَفَرَ ... وَسَمِعَ أَعْرَابِيٌّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةِ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا أَنْقَذَنَا مِنْهَا وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يُبَلِّغَنَا فِيهَا ! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : خَذُوهُ مِنْ غَيْرِ قَبِيحَةٍ ...

العبادة لا طلبا للثواب ولا خوفا من العقاب

وقد تقدم لنا آثافا قول في ذلك وتزويد فؤورٍ دَطَرًا من عبقرياتهم في هذا المعنى : قال الشَّيْبَلِيُّ : مَنْ عَبَدَهُ رَجَاءَ الْجَنَّةِ فَهُوَ عَبْدُهَا ، أَوْ خَوْفَ النَّارِ ، فَهُوَ عَبْدُهَا ، لِأَنَّهُ مِنْ خَافَ شَيْئًا أَوْ رَجَاهُ فَهُوَ مَعْبُودُهُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَنْ عَبَدَ

الله يعوض فهو لثيم، وقال آخر : اللهم إن كنت تعلم أني أعبدك خوفاً من نارك فأحرّقني ، أو طمعا في جنتك فأحرّقنيها ، وإن كنت تعلم أني أعبدك حباً لك وشوقاً إلى لقائك فأبجّنيه ... وقيل لراية العدوية : مالك لاتسألين الله الجنة في دعائك ؟ فقالت : الجار ثم الدار ... « تعنى بالجار : ذا الجلال والإكرام » وقد أوردنا بيت المعري :

ولتفعل النفسُ الجليلَ لأنه خيرٌ وأحسنُ للأجلِ ثوابها

غير مرة فيما أسلفنا، وقال بعضهم في قوله صلى الله عليه وسلم : أكثرُ أهلِ الجنة البُلهُ ، قال : لأنهم في سُغُلٍ فأكهون ، شغلهم النعيم عن المنعم ، وعن رضى بالجنة عن الله فهو أبله . أقول : حديث : أكثرُ أهل الجنة البُله : حديث ضعيف « انظر شرح الجامع الصغير للناوى » وعلى أنه ضعيف فقد أولوه تأريلاً حسناً : فقال الأزهري : الأبله : الذى طبع على الخير ، فهو غافلٌ عن الشرِّ لا يعرفه - أقول : أرى يعرفه ولكن يتجنبه - وقال النضر بن شميل : الأبله : الميتُ الداء ، أى أن شره ميت لا ينبته له . والمرأة باهاء ، قال الشاعر :

ولقد هَوَتْ بِطِفْلَةٍ بَيَّالَةٍ بلهاء تُطْلَعُنِي عَلَى أَسْرَارِهَا

أراد : أنها غر لا دهاء لها فهي تخبرني بأسرارها ولا تفطن لما في ذلك عليها . وقال الزبير بن بذر : خيرُ أولادنا الأبلهُ المقول ، يعنى : أنه لشدة حياته كالأبله وهو عقول مُبالغ من العقل ، وقال الزمخشري في صفة الصلحاء : هم يُنُون ، غير أن لا هراة في الحق ولا دهانة ، بله ، غوصهم على الحقائق يُعمُر الألباب والأذهان ، وذلك لأنهم أغفلوا أمر دنيائهم فجهلوا حذق التصرف فيها فأقبلوا على آخرتهم فُشغلوا بها فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهلها ،

الرياء

الرياء : ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه ؛ ومن عقوباتهم فيه : قال سيدنا رسول الله : **إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافَ عَلَى أُمَّتِي الرِّيَاءُ الظَّاهِرُ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ** . وقالوا : **أَعْظَمُ الرِّيَاءِ حُبُّ الْمُحَمَّدَةِ** . وقالوا إذا عمل الرجل العمل وكنتمه وأحب إعلام الناس أنه كنتمه ، فذلك أقبح الرياء ، وقال أبو نواس :

وإذا نزعْتَ عن الغواية فليكن لله ذاك السَّزَعُ لِلنَّاسِ
وقال لقمان لابنه : **اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُرَيِّ النَّاسَ أَنْكَ تَخْشَاهُ لِيُكْرِمُوكَ ...**
وقال بعضهم : **كَانَ النَّاسُ يَرَاؤُنَ بِمَا يَفْعَلُونَ فَمَسَارُوا يَرَاؤُنَ بِمَا لَا يَفْعَلُونَ** .
وقالوا : **مَا الدِّخَانُ بِأَدَلَّ عَلَى النَّارِ مِنْ ظَاهِرٍ أَمْرُ الرَّجُلِ عَلَى بَاطِنِهِ ...** وقالوا
في وصف المرائي : **لَهُ سَمْتُ أَبِي ذَرٍّ عَلَى قَلْبِ أَبِي جَهْلٍ ^(٢)** وقال صلى الله
عليه وسلم **فِي مَنْ تَذَسَّكَ طَمَعًا فِي عَرَضِ الدُّنْيَا : أَكْثَرُ مُنَافِقِي هَذِهِ الْأُمَّةِ**
قَرَأُوهَا ، قال ابن الأثير : **أَيُّ أَنَّهُمْ يَحْفَظُونَ الْقُرْآنَ نَفْيًا لِلتَّهْمَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ**
وَهُمْ مُعْتَقِدُونَ تَضْيِيقَهُ ^(٣) ، وكان المنافقون في عصر النبي بهذه الصفة . وقال

(١) إذا أردت التوسع في القول على الرياء وحقيقته وأنواعه وعلاجه فمليك يا حياء
علوم الدين للغزالي

(٢) أبو ذر الغفاري هو الصحابي الجليل الزاهد الورع الصادق للهجة الذي قال
فيه سيدنا رسول الله : **مَا أَقَلَّتْ الْغِبْرَاءُ وَلَا أَظَلَّتْ الْخِضْرَاءُ أَصْدَقَ لُحْجَةٍ مِنْ أَبِي ذَرٍّ** وقال فيه
سيدنا علي : **أَبُو ذَرٍّ عَوَاءٌ مَلِيٌّ عَلِمَانٌ أَوْكِيٌّ عَلَيْهِ أَوْكِيٌّ عَلَيْهِ أَيُّ شَذِّ بِالْوَكَا** . وهو الخيط
يشد به قم القربة ، توفي سنة ٣١ هـ أما أبو جهل فهو عمرو بن هشام أعدى أعداء سيدنا
رسول الله قتل في غزوة بدر (٣) أي مضربون عدم العمل به

الزخشرى : أراد بالنفاق الرياء ، لأن كلا منهما إرادة مافى الظاهر خلاف مافى الباطن . وقال الغزالي : أحذر من خصال القراء الأربعة : الأمل والعجلة والكبر والحسد ، قال : وهى عللٌ تعترى سائر الناس عموماً والقراء خصوصاً ، ترى القارئ يطول الأمل فيوقعه في الكسل ، وراه يستعجل الخير فيقطع عنه ، وراه يحسد نظراءه على ما آتاهم الله من فضله فربما يباغ به مبالغاً يحمله على فضائح وقبايح لا يقدم عليها فاسق ولا فاجر . وقال الفضيل بن عياض لابنه : اشترُوا داراً بعيدة عن القراء ، مالى والقوم إن ظهرت منى زلة فتلوني ، وإن ظهرت على حسنة حسدوني ، ولذلك ترى الواحد منهم يتكبر على الناس ويستخف بهم مُعَبِّساً وجهه كأنما يمنُّ على الناس بما يُصَلِّي زيادة ركعتين ، أو كأنما جاءه من الله منشوراً بالجنة والبراءة من النار ، أو كأنه استيقن السعادة لنفسه والشقاوة لسائر الناس ، ثم دو مع ذلك يلبس لباس المتواضعين ويتماوت ، وهذا لا يليق بالتكبر والترفع ولا يلائمه لكن الأعمى لا يُبصر ... أقول : كل ما قالوه فى القراء مما يصح أن يقال فى علماء الدين وفى المتتسكين ، لأنه يقال تقرأ فلان أى تنمقه ، ويقال : تقرأ : أى تنسك ، قال زيد بن تركي الزبيدي ، وقال القراء : أنشدني أبو صدقة الديري :

ولقد عَجِبْتُ لكَاعِبٍ مَوْدُونَةٍ أطرافها بالحنى والحناء
بيضاء تضطاد القوى وتنتهي بالحسن قلب المسلم القراء

« مودونة : مُلَيَّنَةٌ وأطرافها نائب فاعل مودونة ، ورووا أن بلال بن أبي بردة وفد على عمر بن عبد العزيز فجعل يُدِيمُ الصلاة فقال عمر : ذلك التضع ، فقال له العلاء : أنا آتيك بخبره ، فجاءه وهو يصلي فقال له : مالى عندك إن بعثت أمير المؤمنين على توليتك العراق ؟ قال عمالتي سنة أى وظيفتي ومُرَّتِي - وكان مبلغه عشرين

ألف درهم ، فقال : اكتبْ به خطك ، فكتب إليه ، لجاء الملاء إلى عمر فأخبره ، فقال : أراد أن يُغَرَّنَا بالله ... ودخل على أبي جعفر المنصور رجلٌ بين عيديه كركبة البعير - وذلك يكون من أثر السجود - يريد القضاء ، فقال المنصور : إن كنت أبررت الله بهذا فما ينبغي أن تشغلك عنه ، وإن كنت أردت خداعنا فما ينبغي أن نتخذ لك . وقال شاعر :

لا تَصْـمَـهـ بِنِّ صَحَابَةٍ حَلَقُوا الشَّوَارِبَ لِلطَّمَعِ
يَكِي وَجُلُّ بُكَائِهِ مَا لِلْفَرِيَةِ لَا تَقَعِ

وقال آخر :

عَمَّرُوا وَضَعُ التَّقْصِيرِ مِنْهُمْ وَمَكَانُ الصَّلَاحِ مِنْهُمْ خَرَابٌ
وَيُرَوَّى هَذَا الْبَيْتُ عَلَى وَجْهِ آخَرٍ ...

وَرَوَوْا أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ كَانَ يَدْعُ زَكَاتَهُ مِنَ الْفَقِيرِ وَيَسْتَرْجِعُهَا مِنْهُ بِدَرَاهِمٍ أَوْ دَرَاهِمِينَ . وَيُرَوَّى أَغْرَبُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقْعَدُ فِي بَابِ الْحَيْلِ الشَّرْعِيَةِ الْحَرَمَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَ مَشِيخَتِنَا الَّذِينَ تَوَلَّوْا مَشِيخَةَ الْإِسْلَامِ وَالْإِفْتَاءِ فِي الْجِيلِ الْغَابِرِ بِمِصْرَ - وَكَانَ غَنِيًّا مَثْرِيًّا - كَانَ يَحْتَالُ فِي زَكَاةِ الْمَالِ بِأَنْ يَضَعَ قِيَمَةً مَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُزَكِّيَهُ - عَنْ مَالِهِ فِي الْعِيَابِ وَالزَّكَاةِ ، الْمَمْلُوءَةِ قِحَاثٍ يُفْهَمُ الْفُقَرَاءُ أَنَّ هَذِهِ زَكَاتُهُمْ ثُمَّ يَشْتَرِيهَا مِنْهُمْ بِشَمْنٍ مُغَرٍّ ، وَبِذَلِكَ يَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ قَامَ بِفَرِيضَةِ الزَّكَاةِ بِخَادِعُونَ ، اللَّهُ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ،

التوبة

التَّوْبَةُ : الرَّجُوعُ عَنِ الذَّنْبِ ، يُقَالُ : تَابَ إِلَى اللَّهِ يَتُوبُ تَوْبَةً وَتَوَّابًا وَمَتَابًا : أَنَابَ وَرَجَعَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ ، وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ : وَفَّقَهُ إِلَى التَّوْبَةِ أَوْ

عاد عليه بالمغفرة ، وقال عليُّ بن أبي طالب رضى الله عنه : التوبة على أربعة دعائم : استغفار باللسان ونية بالقلب وترك بالجوارح وإضمار أن لا يعود .
 وفى الحديث : من تاب قبل موته بفواق ناقة حرم الله وجهه على النار .
 « الفواق : أن تُحلب الناقة ثم تُترك لحظة يرصعها الفصيل لتدرك ثم تحلب »
 وقال عز وجل : يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا . التوبة النصوح : الخالصة التي لا يُعاود بعدها الذنب ، وقال تعالى : إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ، يقول سبحانه : إنما قبول التوبة كالمحتوم على الله لمن أذنب بجهالة وسفه . فإن ارتكاب الذنب سَفَهٌ وتجاهل ، ومن ثم قيل : من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالة . ثم يتوبون قبل الموت قال عليه السلام : إن الله يقبل توبة عبده ما لم يُغرغر ، قال المفسرون : وسماه قريبا لأن أمد الحياة قريب ، أو قبل أن يُشرب في قلوبهم حُبُه فيتعذر عليهم الرجوع ،

المبادرة إلى التوبة

وقد حثوا مع ذلك على المبادرة بالتوبة والإقلاع عن المعاصي فرووا أنه قيل لرجل : أوص ، فقال : أحذركم سوف ، وقال شاعر :
 والمرءُ مُزَنُّ بِسَوْفٍ وَلَيْمَتِي وهلاكه في سَوْفِهِ وَاللَّيْمِ
 وقال آخر :

أَسَوْفُ تَوْبَتِي خَمْسِينَ عَامًا وَظَنِّي أَنِّ مِثْلِي لَا يَتُوبُ

وقال بعضهم : نحن لا نزيد أن نموتَ حتى نتوبَ ولا نتوبُ حتى نموتَ ...
وقال بعضهم لرجل : عِظْنِي ، فقال : قد قطعتَ عامَّةَ سَفَرِكَ ، فإن استطعتَ
ألا تَضِلَّ في آخره فافعل ... وقال مُصْعَبُ بْنُ الزَّيْرِ : ادفع سَطْوَةَ اللَّهِ
بسرعة التَّزَوُّعِ ، وحسن الرجوع ، فَيُوشِكُ أَنْ الْمَنَابِيا تَسْبِقُ الوصايا ، وقالوا في
قوله تعالى : بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ : يُكْثِرُ الذُّنُوبَ وَيُوَخِّرُ التَّوْبَةَ
أَوْ يُسَوِّفُ بِالتَّوْبَةِ وَيَقْدِمُ الْأَعْمَالَ السَّيِّئَةَ ، وقال مُورِّجُ السَّدُوسِي ^(١) : فَجَرَ :
إِذَا رَكِبَ رَأْسَهُ ، فَمَضَى غَيْرَ مُكْتَثِرٍ ، وقوله : لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ : لِيَبْضُ أَمَامَهُ رَاكِبًا
رَأْسَهُ ... وقال سيدنا رسولُ اللَّهِ لرجل وهو يَعِظُهُ : اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ :
حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَشَبَابَكَ
قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ . « اغتنم حياتك قبل موتك : اغتنم ماتاقي
نَفْعَهُ ، وَثَوَابَهُ بَعْدَ مَوْتِكَ . وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ : اغتنم العمل حال الصحة
فَقَدْ يَمْنَعُ مَانِعٌ كَالْمَرَضِ فَتُقَدِّمُ بِهِ زَادَ . وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ : اغتنم فَرَاغَكَ
فِي هَذِهِ الدَّارِ قَبْلَ شُغْلِكَ بِأَهْوَالِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، أَيْ اغتنم فُرْصَةَ الْإِمْكَانِ
لِعَالِكَ تَسْلَمَ مِنَ الْهَوَانِ . وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ : اغتنم الطَّاعَةَ وَفِعْلَ الْخَيْرِ حَالِ
قُدْرَتِكَ قَبْلَ هَجُومِ عَجْزِ الْكِبَرِ عَلَيْكَ فَتَتَدَمَّ عَلَى مَا فَرَّطْتَ فِي جَنْبِ اللَّهِ .
وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ : اغتنم الْإِحْسَانَ وَالتَّصَدَّقْ بِفَضُولِ مَالِكَ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ
جَائِحَةٌ تُفْقِرُكَ . وَلَكَ أَنْ تَقُولَ : إِنَّ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ الْكَرِيمَةَ مَمَّا زَاها عَامٌّ شَامِلٌ
يُرَادُ بِهَا الْمُبَادَرَةُ إِلَى الْعَمَلِ وَاتِّهَازِ الْفُرْصِ قَبْلَ فَوَاتِهَا ، وَقَالَ الشَّاعِرُ .
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَزْرَعْ وَأَبْصَرْتَ حَاصِدًا نَدَيْتَ عَلَى التَّفْرِيطِ فِي زَمَنِ الْبَذْرِ
وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :

فَوَاعِبًا كَيْفَ يُفْصَى الْمَلِيكَ أَمْ كَيْفَ يَجْعَدُهُ الْجَاهِدُ

(١) نحوى بصرى ، أخذ عن الخليل ؛ توفي هو وأبو نواس في يوم واحد سنة ١٩٥

وَاللَّهُ فِي كُلِّ تَحْرِيكِكَ وَتَسْكِينَةٍ فِي الْوَرَى شَاهِدٌ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

وقال الآخر:

تَرْجُو النَّاجَةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ
وجاء حبيب بن الحارث إلى سيدنا رسول الله فقال: إني مُقَارِفٌ للذنوب،
فقال: ثُبِّ، فقال: إني أتوب ثم أعود، فقال: كلما أذنبت ذنباً ثُبِّ، فمَعْفُو
الله أكبر من ذنوبك. وفي الحديث: إن الرجل لِيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ،
فَقِيلَ: وَكَيْفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: يَكُونُ نُصَبٌ عَيْنِهِ خَائِفًا مِنْهُ حَتَّى يَدْخُلَ
الْجَنَّةَ... واجتمع ثلاثة من الحكماء عند كِسْرَى فَنَذَاكَرُوا فِي شَرِّ الْأَشْيَاءِ فَقَالَ
أَحَدُهُمُ: الْهَمُّ يَقْتَرِنُ بِالْعُذْمِ - الْفَقْرُ - وَقَالَ الثَّانِي: سُقْمُ الْبَدَنِ وَدَوَامُ الْحُزَنِ،
وَقَالَ الثَّلَاثُ: دُنُوُّ أَجَلٍ وَسُوءُ عَمَلٍ... فَخُتِمَ لَهُذَا... وَدَعَا بَعْضُ الصَّالِحِينَ
فَقَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ وَقُوعِ الْعَنِيَّةِ وَلِمَا آتَاكَ الْإِثْمِيَّةِ... وَقَالَ حَكِيمٌ:
الْأَيَّامُ صَحَائِفُ أَجَالِكُمْ فَأَوْدِعُوهَا أَجَلَ أَفْعَالِكُمْ... وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا: عَجِبْتُ لِمَنْ يَحْتَمِي عَنِ الطَّعَامِ لِمَ ضَرَّتْهُ وَلَا يَحْتَمِي عَنِ الذَّنْبِ لِمَ مَرَّتْهُ!
وَقَالَ بَعْضُهُمْ حَضَرْتُ مَجْلِسَ الشُّبْلِيِّ^(١) فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَقَالَ لَهُ:
أَوْصِنِي، فَقَالَ لَهُ: لَقَدْ أَوْصَاكَ الشَّاعِرُ بِقَوْلِهِ:

قَالُوا تَوَقَّ دِيَارَ الْحَيِّ إِنْ لَمْ يَمُتْ
عَيْنَا عَلَيْكَ إِذَا مَا نِمْتَ لَمْ تَمُتْ

(١) الشبلي - وقد تكرر ذكره في هذا الكتاب - هو أبو بكر دلف بن جحدر، والشبلي:
نسبة إلى شبله، بلدة من بلاد ما وراء النهر - سمرقند وبخارى وما إليها - كان في مبدأ
أمره واليا لإحدى الولايات ثم تاب وتصفى وبلغ المبالغ في ذلك، كان جليل القدر
مالكي المذهب وصحب الشيخ أبا القاسم الجنيدي ومن في عصره من الصالحين توفي سنة
٣٣٤ هـ ببغداد وعمره سبع وثمانون سنة

وقال يحيى بن معاذ : اجتنب السيئات أشد من اكتساب الحسنات ...
وسمع الحسن البصري رجلا يقول : اللهم اجعلنا منك على حذر ، فقال : إنه فعل
ذلك ، أليس قد سترَ عنك أجلك ، فليست من حياة ساعة على يقين !

الاستغفار

قال علي بن أبي طالب : العَجَبُ لِمَنْ يَقْطَعُ ومعه النجاة : الاستغفار ... وقالوا
لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار . وقال حكيم : أيها السلاطين ،
لا بدَّ لكم من المعاصي الكبار فافعلوا بإزائها طاعات عظيمة ، أيها الأوساط ،
يُمْسِكُكم الطاعات العظيمة ، كالمصالح التي لا يقدِّر عليها إلا الساطان ، فلا تركبوا
المعاصي الكبيرة ... وقال بعضهم : سمعني راهبٌ أقول : أستغفر الله ، فقال :
يا قتي ، سرِّعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين ... ويدل على ما قاله قوله صلى
الله عليه وسلم : المستغفر باللسان المُصِرُّ على الذنب كالمُسْتَهْزِئِ بربه . وقال
الربيع بن خثيم : لا يقولنَّ أحدكم : أستغفر الله وأتوب إليه فيكون ذنباً
جديداً إذا لم يفعل ، ولكن ليقل : اللهم ، تُبْ عليّ واغفر لي ، فقل : ولم ؟
فقال : أنته عما ينهك عنه فإنه يغفر لك ... وقال عمر رضى الله عنه : لم أرَ
أشدَّ طلباً وأسرعَ دَرَكاً من حسنةٍ حديثةٍ لذنْبٍ قديم . « دركا بسكون الراء
وتحها : الحافوا وإدراكا » ... وسئل بعض المجَّان : كيف أنت في دينك ؟ قال : أخرِّقه
بالمعاصي وأرْقعه بالاستغفار ...

« وأما بعد ، فلو يؤخذ الله النَّاسَ بما كَسَبُوا مترك على ظهرها
من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجلٍ مُسمًى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان
بعبادته بصيراً ^(١) .

(١) آية كريمة والآية : ولو يؤخذ الله الناس... الآية

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبُعُوضِ جَنَاحَهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَلِيلِ
وَيَرَى عُروْقَ نِيَاطِهَا فِي نَحْرِهَا وَالْمُخَّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النَّحْلِ
أَغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ قَرَطَاتِهِ مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ (١)

عبقريات شتى

في الخوف والتقوى

ورد في الحديث الصحيح : لو تعدّون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبسكنتم كثيرا ، ولما ساء لكم الطعام ولا الشراب ، لضحكتم قليلا : أى لم تضحكوا ألبتة إذ القلبيل ههنا بمعنى العدم ، ... وجاء في خطبة لسيدنا رسول الله : أبها الناس ، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، فإن العبد بين مخافتين : أجل قد مضى لا يدري ما الله فاعل فيه ، وأجل باق لا يدري ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الممات ، فوالذى نفس محمد بيده ، ما بعد الموت من مستعقب ، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة والنار ... معالم جمع معمل ، وهو ما جعل علامة للطرق والحدود ، ضربه مثلا لأحكام الله وحدوده

(١) هذه الآيات لجار الله الزمخشري أنشدها في الكشف عند تفسير قوله تعالى : إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، ونسبها إلى بعضهم ، وكان قد أوصى أن تكتب على لوح قبره ، يقول : يا الله ، يابصر الخفيات حتى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل ، اغفر لي الخ والبهيم : المظلم ، لانهم الاشياء فيه ، والليل أفل تفضيل من الليل وإن كان جامدا ، للبالغة في الظلمة ، والنياط : عرق غليظ منوط بالقلب تتصل به عروق دقيقة ، والنحر : أسفل العنق ، والمخ : ما في وسط العظام ، والنحل : جمع ناحل أى دقيق ، والقرطات : ذنوبه التى قرطت منه ، وما كان : مفعول اغفر ، الزمان الاول : زمن الشباب ، وقد تمثل المؤلف بهذه الآيات كما تمثل الزمخشري

« ومن يتعدَّ حدودَ الله فقد ظلم نفسه »، ومستعتب : مصدره يمي معناه طلبه الرضا ، تقول : استعبت فلانا : إذا طلبت منه العتي ، وهي الرضا ، يريد : ليس بعدالموت من استرضاه ، لأن الأعمال بطلت وانقضت زمانها ، وما بعدالموت دار جزاء لا دار عمل ،

وقال أبو العتاهية :

يا عجباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها فإنما الدنيا لهم مغبر
الخير مما ليس يخفى هو المعروف والشر هو المنكر
والوعد الموت وما بعده الحشر فذاك الموعد الأكبر
لا تنخر إلا غر أهل الثقي غدا إذا ضمهم المحشر
ليعلمن الناس أن الثقي والبر كانا خيراً ما يذخر
عجبت الإنسان في خيره وهو غدا في قبره يقبر
مابال من أوله نظفة وجيفة آخره يفتخر
أصبح لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر
وأصبح الأمر إلى غيره في كل ما يقضى وما يقدر

أما قوله : يا عجباً للناس لو فكروا... ألبيت ، فأخوذ من قولهم : الفكرة مرآة تريك حسنك من قبيحك ؛ ومن قول لقمان لابنه : يا بني ، لا ينبغي لعاقل أن يخجل نفسه من أربعة أوقات ، فرقت منها يناجي فيه ربه ، ووقت يحاسب فيه نفسه ، ووقت يكسب فيه لمعاشه ، ووقت يخجل فيه بين نفسه وبين لذتها ليستعين بذلك على سائر الأوقات . وقوله : وعبروا الدنيا إلى غيرها... ألبيت ، مأخوذ من قول الحسن البصري : اجعل الدنيا كالقنطرة تجوز عليها ولا تعمرها .

وقوله: الخير مما ليس يخفى ... ألبيت ، مأخوذ من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله ، كيف بك إذا بقيت في حُثالة من الناس ^(١) مَرَجْتَ عُهُودَهُمْ وَأَمَانَتَهُمْ ^(٢) وصَارَ النَّاسُ هَكَذَا ، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ؟ قُلْتُ : مُرَّنِي ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : خُذْ مَا عَرَفْتَ وَدَعْ مَا أَنْكَرْتَ وَعَلَيْكَ بِخُوبِصَةِ نَفْسِكَ وَإِيَّاكَ وَعَوَامَّهَا ^(٣) ... وقوله : لِيَعْلَمَنَّ النَّاسُ ... ألبيت ، مأخوذ من حديث أبي هريرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا حُشِرَ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ نَادَى مُنَادٍ مِنْ قِبَلِ الْعَرْشِ : لِيَعْلَمَنَّ أَهْلُ الْمَوْقِفِ مَنْ أَهْلُ الْكَرَمِ الْيَوْمَ ؟ رَلَيْتُمْ الْمُتَّقُونَ ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ : إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ صَدْرَ بَابِ الْبِرِّ أَنَّ الْإِخْطَالَ سَبَقَ أَبَا الْعَتَاهِيَةِ فِي هَذَا بِقَوْلِهِ :

وإذا انْفَتَقَرْتَ إِلَى الذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ الْأَعْمَالِ
وقوله : ما بال من أوله نطفة ... ألبيت ، مأخوذ من قول علي رضي الله عنه : وما ابنُ آدمَ والفخر وإنما أولُه نطفة وآخره جيفة ، لا يَرْزُقُ نَفْسَهُ ، وَلَا يَدْفَعُ حَتْفَهُ ، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه يقول : أيها الناس إنما خُلِقْتُمُ اللَّابِدَ ، وَلَسْكُمْ تُنْفَقُونَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ ... وقال مالك بن دينار ^(٤) :

- (١) أصل الحُثَالَة : ما يبقى في الإناث من ردى الطعام ، وحُثَالَة الثمر : أردؤه وما لا خير فيه ، ضربه رسول الله لردال الناس وشرارهم
(٢) مَرَجْتَ عُهُودَهُمْ : اختلطت وذهبت بهم كل مذهب ، ومرج : كطرب ، أما مرج الماء بمعنى سال فلم يكن له مانع ، فبابه نصر .
(٣) خُوبِصَة : تصغير خاصة ، يأمره صلى الله عليه وسلم بمجاهدة نفسه ويحذر مشاركة العامة في أعمالها (٤) كان عالما زاهدا لا يأكل إلا من عمل يده مات سنة إحدى وثلاثين بالبصرة .

جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم... وقال على رضى الله عنه : مَنْ سَرَهُ
الْغِنَى بِأَمْوَالٍ ، وَالْعِزُّ بِأَسْطَانٍ ، وَالكَثْرَةُ بِأَعَشِيرَةٍ ، فَلْيَخْرُجْ مِنْ ذَلِكَ
مَعْصِيَةَ اللَّهِ إِلَى عِزِّ طَاعَتِهِ ، فَإِنَّهُ وَاجِدُ ذَلِكَ كُلِّهِ ... وقال يزيد بن الصَّقِيلِ الْعَقِيلِيُّ -
وكان يسرق الإبل في عهد بنى أمية ثم تاب وقُتِلَ في سبيل الله - :

أَلَا قُلْ لِأَرْبَابِ الْخَائِضِ أَهْمِلُوا فَقَدْ تَابَ يَمَّا تَعْلَمُونَ يَزِيدُ
وَلِنْ أَمْرًا يَنْجُو مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا تَزُودَ مِنْ أَعْمَالِهَا لَسَعِيدُ

« الخائض جمع مخاض - ومخاض واحد خِلْفَةٌ - الناقة اسمُ بَنانٍ حملها - فخائض
جمع الجمع ، ومخاض : جمع على غير واحد ، كما تقول : امرأة ونساء ، وقوله : أهملوا :
أى أَسْرَحُوا إِبَالَكُمْ - ، وفي هذا الشعر :

إِذَا مَا الْمَنَائِيَا أَخْطَأَتْكَ وَصَادَفَتْ حَمِيمَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهَا سَتَعُودُ

وفي معنى هذا البيت ما يروى عن محمد بن الحنفية - ابن الإمام على - أنه
كان يقول - إذا مات له جار أو حميم - : أَوْلَى لِي ، كِدْتُ وَاللَّهِ أَكُونُ
السَّوَادَ الْمُخْتَرَمَ ... « أولى لى ، مثله : أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ، وهى
كلمة تهديد ووعد ، معناها : قاربك ماتكره ، أو الشرُّ أقرب إليك ، والسوادُ :
شخص الإنسان وكلُّ شيء من متاع وغيره ، وفي الحديث : إذا رأى أحدكم سواداً
بليس فلا يكن أجبن السَّوَادِينَ ، فإنه يخافُكَ كما تخافُهُ ، والمحترم - من اخترمته
المنية : أخذته من بين أصحابه ... »

وقال أبو نواس :

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ الْغَوَاةِ بَدْلَهُمْ وَأَسْمَتُ سُرْحَ اللَّهِ وَحَيْثُ أَسَامُوا
وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ امْرُؤٌ بِشَبَابِهِ فَإِذَا عُصَاةٌ كُلُّ ذَلِكَ أَقَامُ

« أُنَام كَسَلَام : عقاب الإثم وجزاؤه ، ونهزت بدلهم يقال : نهزت بالدلو في البئر : إذا حركتها لتتلى ... وهو هنا على المثل ... يقول أبو نواس : لقد غَوَيْتُ زماناً مع الغَوَاةِ وَلَهَوْتُ كَمَا لَهَوُوا وَخَلَعْتُ عِذَارِي كَمَا خَلَعُوا عِذَارَهُمْ وَبَلَغْتُ شَبَابِي الْمُبَايَعِ ، مِنَ اللّهُوِّ وَالبَغْيِ وَالفَسَادِ ، وَأَنْلَيْتُهُ أَقْصَى مَا يَشْتَهِي مِنْ شَهَوَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَوَجَدْتُ كُلَّ ذَلِكَ ضَلَالاً فِي ضَلَالٍ وَعَبَثاً فِي عَبَثٍ وَظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، وَمَا جَنَيْتُ مِنْ وِرَائِهِ إِلَّا الْمُرَّ وَالْحَنْظَلَ ، مِنَ الْأَدْوَاءِ وَالْأَسْقَامِ وَالبُعْدِ عَنْ مَلَكُوتِ اللَّهِ وَقُدْسِيَّتِهِ ، وَكُلَّ مَا تُورِثُهُ الْمُعَاصِي مِنَ الدَّنَسِ وَالتَّطَبُّعِ وَالرَّيْنِ ، وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ اعْتَبَرَ »

وقال هشام بن عبد الملك - وهو من الآيات المنفردة القائمة بنفسها - :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَغِصِ الْهَوَى قَادَكَ الْهَوَى

إلى بعض ما فيه عليك مقال

وهذا بكلام الملوك أشبه ، ومن كلمة للسيدة عائشة رضي الله عنها : مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِاسْخَاطِ النَّاسِ ، كَفَاهُ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِاسْخَاطِ اللَّهِ ، وَكَفَاهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ ، وَمَنْ أَصْلَحَ سِرِّيَّتَهُ ، أَصْلَحَ اللَّهُ عِلَانِيَتَهُ . وفي حديث الدعاء : لَا تَسْكُنْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ فَأَهْلِكَ ... تَوَلَّانا اللَّهُ بِرِعَايَتِهِ الصَّمَدَانِيَّةُ إِنَّهُ سَمِيعُ الدَّعَاءِ ...

الباب الثاني

في الشكر والحمد والثناء

وهذا بابُ الشكر بابٌ له مكانته فيما خلفوه لنا من آدابٍ وذخائرٍ، وإنَّ بينه وبين البر على جميع ألوانه لرحماً ماسةً وقرابةً قريبةً، ومن ثم جعلناه ردِّقاً له، وأفردنا له هذا الباب.

معنى الشكر

والشكر: مُقَابَلَةُ النعمة بالقول والفعل والنَّيَّةُ، فَيُثْنِي المُنْعَمُ عَلَيْهِ على المُنْعِمِ بِلِسَانِهِ، وَيُذِيبُ نَفْسَهُ فِي طَاعَتِهِ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُوَالِيهَا؛ وَهُوَ مِنْ شَكَرَتِ الْإِبِلُ تَشْكُرُ: إِذَا أَصَابَتْ مَرَعَى فَسَمِنَتْ عَلَيْهِ. وَإِذَنْ يَكُونُ مَعْنَى شُكْرِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ: أَنْ يَجْهَدَ الْعَبْدُ جُهْدَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَيُؤَدِّي مَا وَظَّفَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ وَلِيُّ نِعْمَتِهِ، وَأَنْ يُكْثِرَ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ عَزَّ وَتَقَدَّسَ... وَقَدْ جَاءَ الشُّكُورُ وَصْفًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَزْكُو عِنْدَهُ الْقَلِيلُ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ فَيُضَاعِفُ لَهُمُ الْجَزَاءَ، وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَاهُ: الْمَغْفِرَةُ... هَذَا؛ وَإِنْ فُرْقًا بَيْنَ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ، فَالشُّكْرُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ يَدٍ، وَالْحَمْدُ عَنْ يَدٍ وَعَنْ غَيْرِ يَدٍ وَأَنْشَدُوا لِأَبِي نُحَيْلَةَ (١):

(١) شاعر إسلامي، وكان أسود، والرجز أغلب عليه من الشعر، وسمى أبا نُحَيْلَةَ لَانَّ أُمَّهُ وَلَدَتْهُ تَحْتَ نُحْلَةٍ فَهِيَ اسْمُهُ، وَيَمْدَحُ بِهَذَا الشَّعْرَ مُسْلِمَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَلِكِ يَقُولُ فِي أَوَّلِهَا:
أَمْسَلَمَ إِنِّي يَا ابْنَ كُلِّ خَلِيفَةٍ وَيَا فَارِسَ الْهَيْجَا وَيَا قَمَرَ الْأَرْضِ
وقوله: فَنَبِهَتْ مِنْ ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَامِلًا: أَخَذَهُ أَبُو تَمَامٍ فَكَشَفَ مَعْنَاهُ وَحُسْنَهُ بِالصَّنَاعَةِ

شَكَرْتُكَ إِنَّ الشُّكْرَ حَبْلٌ مِنَ الثَّقَى وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضَى
فَنَبَهْتَ مِنْ ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَامِلًا وَلَكِنْ بَعْضُ الذِّكْرِ أَنْبَاءُ مِنْ بَعْضٍ
قَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشُّكْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ يَدٍ ، أَلَا
تَرَاهُ يَقُولُ : وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضَى ؟ أَيْ لَيْسَ كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً
يَشْكُرُكَ عَلَيْهَا وَيُقَالُ : شَكَرَهُ وَشَكَرَ لَهُ ، وَبِاللَّامِ أَفْصَحُ ، وَتَقُولُ : شَكَرْتُ
نِعْمَةَ اللَّهِ ، وَلِنِعْمَتِهِ ، وَتَشْكُرُ لَهُ بِلَاءَهُ ، كَشَكَرَهُ ، وَتَشْكُرُ لَهُ مِثْلَ شُكْرٍ لَهُ ،
هَذَا خِلَاصَةُ مَا قَالَهُ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ . وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ فِيهَا قَالَ ، إِذَا طَالَ : الشُّكْرُ :
عِرْفَانُ الْإِحْسَانِ ، وَمِنْ اللَّهِ الْحِجَازَةُ ، وَأَصْلُ الشُّكْرِ : تَهَوُّرُ النِّعْمَةِ وَإِظْهَارُهَا
وَحَقِيقَتُهُ : الْعِجْزُ عَنِ الشُّكْرِ ، إِلَى أَنْ قَالَ : وَالشُّكْرُ الْعُرْفُ : صَرَفُ الْعَبْدِ
جَمِيعَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَغَيْرِهَا ، إِلَى مَا خَلَقَ لَهُ
وَأَعْطَاهُ لِأَجْلِهِ ، كَصَرَفِ النَّظَرِ إِلَى مَصْنُوعَاتِهِ ، وَالسَّمْعِ إِلَى تَلَقُّي إِنْذَارَاتِهِ ،
وَالذَّهْنِ إِلَى فَهْمِ مَعَانِيهَا ، وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ، إِلَى أَنْ قَالَ :
وَتَوْفِيَّةُ شُكْرِ اللَّهِ صَعْبٌ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُبَيِّنْ بِالشُّكْرِ مِنْ أَوْلِيَانِهِ إِلَّا عَلَى إِبْرَاهِيمَ
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، إِذْ قَالَ سُبْحَانَهُ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ
يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؛ وَعَلَى

فَقَالَ مِنْ آيَاتِ يَمْدَحِهَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الزُّبَيْرِيُّ :

لَقَدْ زِدْتُ أَوْضَاحِي امْتِدَادًا وَلَمْ أَكُنْ

بِهَا وَلَا أَرْضِي مِنَ الْأَرْضِ بِجَهْلًا

وَلَكِنْ أَبَادٍ صَادَفْتَنِي جِسَامُهَا أَغْرَّ فَأَوْفَتْ بِي أَغْرَّ مُحْجَلًا

وَالْأَوْضَاحُ جَمْعُ وَضَحٍ وَهُوَ الْيَاضُ ، وَالْبَهِيمُ : الْأَسْوَدُ ، وَالْمُجْهَلُ : أَرْضُ بِلَا أَعْلَامٍ
وَهَذَا عَلَى الْمَثَلِ ،

نُوح عليه السلام إذ قال : إنه كان عبداً شكوراً ... ونَزِيد هذا توكيداً وتبييناً
 ليراد كلمة الراغب في الذريعة ، قال الراغب - مع شيء من التصرف - :
 الشكر تصوُّرُ الْمُنْعَمِ عليه النعمة ، وإظهارُها ، ويضادُّه الكُفْرُ ، وهو - أى الكفر -
 من كَفَرَ الشيء : غَطَّاه ، ودَابَّه شكور : أى مُظْهِرٌ بِسْمِهَا إِسْدَاءَ صاحبها
 إليها ؛ وقيل : أصله من عينٌ شَكَرَى : أى مُتَمَلِّئَةٌ ، فالشكر هو : الامتلاء من
 ذكر المنعم عليه الْمُنْعَمِ ، ومن هذا الوجه قيل : هو أبلغُ من الحمد ، لأن الحمد
 ذِكْرُ الشيء بصفاته ، والشكر : ذكر الشيء بصفاته وبنعمه ، فالشكر على ثلاثة
 أَضْرِبٍ : شكرٌ بالقلب ، وهو تصوُّرُ النعمة ، وشكرٌ باللسان ، وهو الثناء على المنعم ،
 وشكرٌ بسائر الجوارح ، وهو مكافأته بقدر استحقاقه ؛ وهو أيضاً باعتبار الشاكر
 والمشكور : ثلاثة أَضْرِبٍ : شكر الإنسان لِمَنْ هو فوقه ، وذلك يكونُ بالخدمةِ
 والثناء والدُّعاء ، وشكرٌ لنظيره ، وهو بالمكافأة ، وشكر لمن هو دُونَه ، وهو
 بالثواب والإفضال . وشكرُ العبد لله سبحانه هو : معرفتهُ نعمته وحِفْظُ جوارحه
 بمنعها من استعمال ما لا ينبغي . ثم قال : وشكرُ المنعم في الجملة واجبٌ بالعقل ،
 كما هو بالشرع ، - وهذه مسألة كلامية انظرها في كليات أبي البقاء ، - وأوجبها
 شكرُ البارئ تعالى ، ثم شكرُ مَنْ جعله سبيلاً لوصول خير إليك على يده ، ولهذا
 قال عليه الصلاة والسلام : لا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لم يَشْكُرِ الناسَ ؛ قال : وقال
 بعضهم : كلُّ نعمةٍ يُمكنُ شكرُها إلا نعمةَ الله ، فإنَّ شُكْرَ نعمته نعمةٌ منه ،
 فيحتاج العبد أن يَشْكُرَ نعمةَ الشكر ، كما شكر أصل النعمة ، وهكذا حتى يُؤدَّى
 ذلك إلى ما لا يتناهى ، ومن هذا أخذ الشاعر الذى يقول :

إذا كان شُكْرَى نعمةَ الله نعمةً علىَّ له في مثلها يجب الشُكْرُ
 فكيف بلوغُ الشكر إلا بفضله وإن طالَّتْ الأيامُ واتَّصلَ العمرُ

ولهذا قيل: غايةُ شكر الله تعالى الاعترافُ بالتعجزِ عنه، بل قد قال الله تعالى: **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، وأيضاً فكل ما يفعل الله بعبده فهو نعمة منه، وإن كان بعض ذلك يُعَدُّ بليّةً، ولهذا قال بعض الصالحين: ياتن منعه عطاءً وبلاؤه نعمة** ^(١) ... ولأجل صعوبة شكر الله قال عز وجل: **وقليل من عبادي الشكور ...**

عقوباتهم في الشكر

حُثُّهم على الشكر

قال حكيم: إذا قُصِرَتْ يدُك عن المكافأة فليُطَلِّسْ لِسَانُكَ بالشكر؛ وقالوا: **النِّعَمُ إِذَا شُكِرَتْ قَرَّتْ وَإِذَا كُفِرَتْ فَارَتْ. والأصل في هذا قوله تعالى: وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ...** وقالوا: **النِّعْمُ وَحْشِيَّةٌ فَاشْكُرْهَا بالشكر**؛ يقال: شُكِلَ الدابة يشكُلُها: شدَّ قوائمها بجبل، واسم ذلك الجبل: الشِّكَالُ، وقال ابن المقفع: **استوثقوا عرى النعم بالشكر**. «الْعُرَى جمع عُرْوَة، والعُرْوَة في الأصل تقال لعُرْوَة الدلو والكوز ونحوه، أى مقبضه. والعُرْوَة المازدة أى أذنها. والعُرْوَة القميص: مدخل زرّه، ولعُرْوَة النَّبات: ما بقى له خضرة في الشتاء ترعاها الإبل إذا أجذب الناس، ومن

(١) هذا كلام بعيد الغور غاية في النفاسة، وقديما قرأت كلاماً لا أذكر لفظه بيدان معناه لا يزال عالقا بذهنى، وهو أن الإنسان قد يظن أن حرمانه الجاه أو المال أو ما لهما، شرونة، ولكنه في الحقيقة نعمة، إذ لو أعطى ما يشتهيه من المال أو الجاه لسات حاله وكان هذا المال أو الجاه مما يفسده لئما يصلحه ومن ثم حثوا على أن يرضى الإنسان بما أعطى ويعتد ذلك مدرجة إلى صلاحه وحسن حاله وأن ما أعطاه الله إياه مهما كان قليلاً هو الخير كل الخير في الواقع ولا خير في غيره ولا صلاح ...

هذا استعاروا العروة لكل ما يلجأ إليه ويُعَوَّل عليه ويوثق به ويُتَمَسَّك؛ فيقال لقادة الجيش: العُرى، والصحابة رضوان الله عليهم: عُرى الإسلام، وقوله تعالى: فقد آتَمَسَكَ بالعروة الوثقى لا انفصام لها؛ شَبَّه ما يُعْتَصِم به من الدين بالعروة التي يُتَمَسَّك بها ويلجأ إليها، والوُثْقَى: المُحْكَمَة، فقول ابن المقفع: استوثقوا: أى أحكموها، وقال البخترى:

يزيد تفضلاً وأزيد سُكراً وذلك دأبه أبداً ودأبى
وقال عمرو بن مَسْعُودَة: لا تَصْحَب من يكون استمتاعه بمالكٍ وجاهك
أكثرَ من إمتاعه لك بشكر لسانه وفرائد عمليه. وقال يحيى بن أكرم: كنت
عند المأمون فأنى برجل تُرْعِد فرائضه، فلما مثَّل بين يديه قال المأمون:
كفرتَ نعمتى ولم تشكر معروفى! فقال: يا أمير المؤمنين، وأين يقع سُكْرِى
فى جنب ما أنعم الله بك علىَّ! قال يحيى: فنظر إلى المأمون وقال مُتَمَثِّلاً:

ولو كان يَسْتَفْتِى عن الشكر ماجدٌ لرفقه نذرٌ أو عُلوٌّ مكانٍ
لما أمرَ اللهُ العبادَ بِشُكْرِهِ فقال: اشكروا لى أيها الثقلانِ
ثم التفتَ إلى الرجل وقال: هَلَّا قلتَ كما قال أضرَمُ بنُ حُمَيد:

مُلِكْتُ حَمْدِي حَتَّى إِنَّنِى رَجُلٌ كُلِّى بِكُلِّ ثَنَاءٍ فِيكَ مُسْتَعِلاً
خَوَّلْتُ سُكْرِى لِمَا خَوَّلْتَنِي نِعَمٍ فُحِرْتُ سُكْرِى لِمَا خَوَّلْتَنِي خَدَمٍ
وقرب من هذا قول أبى الفتح البُستى:

لئن عَجَزْتُ عن شُكْرِ بَرِّكَ فُوتِى وأقوى الورى عن شُكْرِ بَرِّكَ عاجزُ
بأنَّ ثَنائى واعتقادى وطاقتى لأفلاكِ ما أوايتَها مراكزُ
ومن أروع ما قيل فى الشكر قول البُخترى:

ف لو كان للشُكْرِ شَخْصٌ يَبِينُ إذا ما تَأَمَّلَهُ الناظرُ

لَبِئْسَ لَكَ حَتَّى تَرَاهُ فَتَسْلَمَ أَنِّي أَمْرُو شَاكِرٍ
ولكنه ساكنٌ في الضمير يُحَرِّكُهُ السَّائِرُ

وقال عبد الله بن الزبير الأسدي في عمرو بن عثمان بن عفان - لما زاره فَنَظَرَ
عمرو فرأى تحت ثيابه ثوباً رثياً ، فدعا وكيله وقال : اقترض لنا مالاً ، فقال : هيات
ما يُعْطِينَا التُّجَّارَ شَيْئاً ، قال : فأرْبَحْهُمْ مَا شَاءُوا : فاقترض له عشرة آلاف فَرَجَّه
بها إليه مع تَحْتِ ثِيَابٍ « التخت : وعاء تصان فيه الثياب » - :

سَأَشْكُرُ عَمْرًا مَا تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي أَبَادِي لَمْ تَمْنَنْ وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ
فَتَى غَيْرُ مُحْجُوبِ الْغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ وَلَا مُظْهِرِ الشُّكُوفِ إِذَا النُّعْلُ زَلَّتِ
رَأَى خَلَّتْ مِنْ حَيْثُ يُخْفَى مَكَانُهَا فَكَانَتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتِ

« قوله : سأشكر : فالعرب تستعمل السين إذا أرادت تكرار الفعل
وتأكيده ولا تريد التنفيس فيه . ولم تمنن : لم يتبعها من ، وإذا النعل زلت :
يريد : إذا زلت قدمه في مزالق الدهر فلا يجد مركباً يقيه مصرع السوء
ولا متكأ يعتمد عليه في نهضته ، والخلة : الحاجة ، وقوله من حيث يخفى
مكانها : أى من حيث لا يدركها لحاظ غيره ، وفكانت قذى عينيه : أبرع كلمة
في معنى الاهتمام بالحاجة » ...

وقال ابن عَنَقَاءُ الْفَزَارِيُّ فِي عُجْمَةِ الْفَزَارِيِّ - وَكَانَ قَدْ وَصَلَهُ بِنِصْفِ مَا !

لَمَّا رَأَى مِنْ رِثَاثَةِ حَالِهِ ، وَكَانَ عُجْمَةً غَلَامًا جَمِيلًا - :

رَأَى عَلَى مَانِي عُجْمَةٍ فَاشْتَكَى إِلَى مَالِهِ حَالِي أَسْرًا كَمَا جَهَرَ
دَعَايَ فَأَسَانَى وَلَوْ ضَنَّ لَمْ أَلَمْ عَلَى حِينٍ لَا بَدْوُ يُرْجَى وَلَا حَضَرُ
غُلَامٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْخَيْرِ يَا فَعَا لَهُ سَيِّمِيَاءُ لَا تَشْقُ عَلَى الْبَصَرِ
كَأَنَّ الثَّرِيَاءَ عُلِقَتْ فِي جَبِينِهِ وَفِي خَدِّهِ الشُّعْرَى وَفِي وَجْهِهِ الْقَمَرُ

إِذَا قِيلَتِ الْعُورَاءُ أَغْضَىٰ كَأَنَّهُ ذَلِيلٌ بِإِلَازِلٍ وَلَوْ شَاءَ لَا تَنْتَصِرُ
وَلَمَّا رَأَى الْمَجْدُ اسْتُعِيرَتْ ثِيَابُهُ تَرَدَّى رِدَاءُ وَاسِعِ الذَّلِيلِ وَأُتْرِرَ
فَقُلْتَ لَهُ خَيْرًا وَأَنْتَيْتُ فِعْلَهُ وَأَوْفَاكَ مَا أَسَدَيْتَ مَنْ ذَمَّ أَوْ شَكَرَ

« السِّمَا والسِّمِيَا والسِّمَاء والسِّمِيَاء : العلامة يُعرف بها الخير والشر ،
وقوله : لَا تَشْقُ عَلَى الْبَصْرِ يَرِيدُ : لَا تَوْذِيهِ بِلِ يُسْرِهَا ، وَالتُّرِيًّا : مِنَ الْكُوكَبِ
كَثِيرَةِ الْأَنْجَمِ مَعَ صَغُرِ مَرَاتِنَهَا ، وَالشَّعْرَى يَرِيدُ بِهَا الشَّعْرَى الْعَبُورُ ، وَهُوَ كُوكَبُ
نِيرٍ خَلْفَ الْجُوزَاءِ يُطْلَعُ فِي صَمِيمِ الْحَرِّ . وَالْعُورَاءُ : الْكَلِمَةُ الْقَبِيحَةُ ،
وَأَغْضَى : أَطْبَقَ أَجْفَانَهُ حَيَاءً وَنَبَلًا ؛ وَاسْتُعِيرَتْ ثِيَابُهُ : كُنِيَ بِذَلِكَ عَنْ
قَلَّةِ الْأَجَادِ »

العجز عن الشكر

قال بعضهم :

أَيَادِي لَا أَسْطِيعُ كُنَّةَ صِفَاتِهَا وَلَوْ أَنَّ أَعْضَائِي جَمِيعًا تَكَلَّمُ
وقال آخر :

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ نَمِيَّةٍ شَعْرَةٌ لِسَانًا يَبُثُّ الشُّكْرَ فِيكَ لَقَصَّرَا
وقال بعضهم : شُكْرِي لَا يَقَعُ مِنْ نِعْمَةِ الظَّاهِرَةِ : مَوْقِعِ النُّقْطَةِ مِنَ الدَّائِرَةِ .
وقال أبو نُوَاس :

قَدْ قُلْتُ لِلْعَبَاسِ مُعْتَذِرًا عَنْ ضَعْفِ شُكْرِيهِ وَمُعْتَرِفًا
أَنْتَ أَمْرٌ جَلَلْتَنِي نِعْمًا أَوْهَتْ قُوَى شُكْرِي فَقَدْ ضَعُفَا
فَالْيَكُ مِنِّي الْيَوْمَ تَقْدِمَةً تَلْقَاكَ بِالتَّضَرُّجِ مُنْكَشِفًا
لَا تُسَدِّدِينَ إِلَيَّ عَارِيَةً حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

«شكريه : شكرى إياه» وقال المتنبي :

ولم تَمَلَّ تَقْدُكَ المَوَالِي ولم نَذْمُ أَيَادِيكَ الجِسامَا

ولكن الغُيُوثَ إذا تَوَالَتْ بأَرْضِ مُسَافِرٍ كِرَةِ المَقَامَا

«الموالى جمع، ولى : العبد، وتروى الموالى : أى الذى يلى بعضه بعضاً، والآيدى النعم، والجسام : العظام، وقوله ولكن الغيوث ... البيت، فالغيوث جمع غيث : المطر، وتوالت : تابعت، والمقام : الإقامة؛ يقول : إن المسافر إذا كثر عليه المطر ملّ إقامته واحتباسه، لأجل المطر، كذلك نحن، عطايك تتوالى علينا وأنت قيدتنا يا حسنك وأنا مسافر أريد الارتحال ولولا هذا لم أملّ نعمتك، والمطر يسأله كل أحد إلا المسافر...» وقال البُحْتَرى وأبدع :

أَحْجَلَّتْ بِنْدَى يَدَيْكَ فَسَوَّدَتْ مَا بَيْنَنَا تِلْكَ اليَدُ البَيْضَاءُ

وَقَطَعْتَنِي بِالْجُودِ حَتَّى لَأَنَّى مُتَخَوِّفٌ أَنْ لَا يَكُونَ لِقَاءُ

صِلَّةٍ عَدَدَتْ فِي النَّاسِ وَهِيَ طَبِيعَةٌ عَجَبٌ، وَبِرٌّ رَاحَ وَهُوَ جَفَاءُ

وقال أيضاً :

إِسْهَأْ بِالْفَضْلِ شُكْرِي مِنْكَ فِي نَصَبٍ أَقْصِرْ فَا لِي فِي جَدِّوَاكَ مَنْ أَرَبِ

لَا أَقْبَلُ الدَّهْرَ نَيْلًا لَا يَقُومُ بِهِ شُكْرِي وَلَوْ كَانَ مُسْئِدِيهِ إِلَى أَبِي

ومن أفاضلهم فى ذلك : شُكْرُهُ شَاوٍ بَعِيدٌ لَا تَبْلُغُهُ أَشْوَاطِي ، وَلَا أَتْلَفُ فِي

التفريط فيه يا فراطى « الأشواط جمع شوط : الجرى مرة إلى غاية تقول : عدا

جَرَى - شوطاً ، أى طَلَقاً » وعندى له مَبَارٌ أعجزنى شكرها ، كما أعوزنى حَضْرُهَا

« مبار جمع مبرة » وقال بعض الشعراء فى الصاحب بن عباد :

وَقَدْ نَا لِنَشْكُرَكَ كَافِيَ الكُفَاةِ وَنَسْأَلُهُ السَّكْفَ عَنْ بَرِّنَا

فقال بعض الحاضرين : قد كُفِّيت ، فإن الصاحب صار لَا يُعْطَى شيئاً...

من لا تخفى أياديه

قال نصيب^(١) :

فَعَا جُوا فَأَتَوْا بِالذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنْتُ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ
وقال بعضهم :

وَكَيْفَ بَكَفَرَانِي صَنَائِدُهُ الَّتِي إِذَا جُحِدَتْ يَوْمًا أَقْرَبَهَا جِلْدِي
ومثله :

وَإِذَا سَكَتُ فَإِنَّ أَنْطَقَ مِنِّي فِي عَنِّي يَدُ الْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ
وقالوا في أمثالهم : لسانُ الحال أفصح من لسانِ الشكر ... ومن كلمة
للجاءظ : نحنُ نَزَخِرُفُ باللسانِ ، والناسُ يَقْضُونَ بِالْعِيَانِ ، وفي أمرنا أثرُ
يَنْطِقُ عَنَا ، ويتكلم إذا سكتنا ...

الشكر بقدر الاستحقاق

وَعَتَبُهُمْ مَن شَكَرُوهُ وَلَمَّا يَنْتَوِجُ

قال علي بن أبي طالب : انشاء من غير الاستحقاق مَلَقٌ ، والتقصير عن

(١) هو نصيب بن رباح من أهل ودان وكان عبداً لرجل من كنانة هو وأهل
بيته ، وكان أهل البادية يدعونه « النصيب » تفخيماً له وكانت أمه أمة سوداء وكان شاعراً
فحلاً نصيحاً مقدماً في النسيب والمدح وكان أثيراً عند الملوك ، وهذا البيت من أبيات له
في سليمان بن عبد الملك وأول الأبيات :

أَقُولُ لِرَكْبٍ صَادِرِينَ لَقِيَتُهُمْ تَقَاذَاتِ أَوْشَالٍ وَمِرْلَاكَ قَارِبُ
قَفُّوا خَبْرُوتِي عَنْ سُلَيْمَانَ إِنِّي لِمَعْرُوفِهِ مِنْ أَهْلِ وَدَّانَ طَالِبُ
فَعَا جُوا البيت

وتقا : أي خلف والعرب تقول : لقيت فلاناً تقا العمة أو الثانية : أي خلفها ، ومولاك
يخاطب سليمان ويريد بالمولى نفسه ولعله يريد بذات أوشال : موضعاً بعينه ، والقارب
في الأصل : طالب الماء ليلاً ،

الاستحقاق عني وحسده، وقال رجل لابن الأعرابي: إن نُضِيْباً - الشاعر الذي تقدم ذكره - يقول: إنما تُمدح الرجال على قدر ثوابها، فقال: إن العرب تقول: على قدر رِيحِكُمُ تَمَطُّرون... وقال الصاحب بن عباد:

وَإِذَا الصَّدِيقُ أَدَامَ شُكْرِي لِلَّتِي لَمْ آتِهَا إِلَّا عَلَى التَّقْدِيرِ
أَيَقِنْتُ أَنَّ الْعَتَبَ بَاطِنُ أَمْرِهِ فَسَكَتُ مُحْتَشِمًا عَلَى التَّقْصِيرِ

من لم يَرَدِّعْهُ خَوْفُهُ عَنِ الشُّكْرِ

بَعَثَ أَبُو جَعْفَرِ الْمَنْصُورُ إِلَى شَيْخٍ مِنْ بَطَانَةِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَاسْتَحْضَرَهُ وَسَأَلَهُ عَنْ تَدْبِيرِ هِشَامِ وَأَحْوَالِهِ، فَأَقْبَلَ الشَّيْخُ يَقُولُ: قَتَلَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقَالَ يَوْمَ كَذَا رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقَالَ الْمَنْصُورُ: قُمْ لِعَنْتِكَ اللَّهُ، أَتَطَّأُ بِسَاطِي وَتَتَرَحَّمُ عَلَيَّ عَدُوِّي! فَقَالَ الشَّيْخُ: إِنْ نِعْمَةً عَدُوِّكَ لِقِلَادَةٍ فِي عُنُقِي لَا يَنْزِعُهَا إِلَّا غَاسِلِي، فَقَالَ الْمَنْصُورُ: أَرْجِعْ إِلَى حَدِيثِكَ، فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ غَرَسَ شَرِيفَ وَابْنُ حُرَّةٍ... وَلَمَّا قَتَلَ مَسْلُةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَاجِرِ أَمْرَبَانَ يَحْضُرُ الشُّعْرَاءُ لِيَقُولُوا فِي ذَلِكَ، فَلَمْ يَأْلُوا أَنْ ذَكَرُوهُ بِأَقْبَحِ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ، مَا خَلَا رَجُلًا مِنْ بَنِي دَارِمٍ فَإِنَّهُ قَالَ: لَا أَذُمَّ رَجُلًا لَا أَمْلِكُ رَيْعًا وَلَا مَالًا وَلَا أَثَمًا إِلَّا مِنْهُ وَلَوْ قُطِّعَتْ إِرْبَابُ إِرْبَابًا^(١)، وَاقْدَرْتُ نَيْتَهُ بِأَحْسَنِ مَا يُرْتَى بِهِ رَجُلٌ - وَأَنْشَدَ آيَاتًا رَائِعَةً - فَجَزَاهُ مَسْلُةٌ خَيْرًا وَقَالَ: إِذَا اضْطَرَّعَ فَلْيُضْطَنِّعْ مِثْلُ هَذَا... أَقُولُ: لَا أَدْرِي: أَمْ يَقِفُ هَؤُلَاءِ الْبَرَّةَ الْوَفَاءَ الشَّجْعَانَ الصَّرْحَاءَ يُعْجِبُ الْمَرْءَ، أَمْ بِأَوْلَئِكَ الْمُلُوكِ الَّذِي يَقْدَرُونَ هَذَا الْوَفَاءَ وَيَطْرَبُونَ لَهُ وَلَوْ كَانَ فِي جَانِبِ أَعْدَائِهِمْ أَفَلَهُ دَرُّ أَوْلَئِكَ النَّاسِ الَّذِينَ شَرَفُوا الْإِنْسَانِيَّةَ بِهَذِهِ الْخُلَاقِ الْكَرِيمَةِ النَّبِيلَةِ، يَنْبَغِي غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالْجَبَنِ وَالزَّلَالَةِ قَدْ كَلَّمُوا^(٢) الْإِنْسَانِيَّةَ

(٢) كَلَّمُوا: جَرَحُوا

(١) إِرْبَابُ إِرْبَابٍ: عَضَاوُا

وهو رابها إلى الحضيض الأوهـد...

شكر من همَّ بإحسان ولم يفعل
وقالوا : من لم يشكرك على حُسن النية ، لم يشكرك على إسداء العطية .
وقال شاعر :

لأشكرنَّكَ معروفًا همَّتَ به إنَّ اهْتِمَانَكَ بالمعروفِ معروفُ
ولا أذُمنَّكَ إن لم يُمنِّهِ قدرُ فالشيءُ بالقدر المحترِّمِ مصروفُ

ثقلُ الشكر والحمد

وقال أبو تمام في ثقل الشكر والحمد من آيات له في الحسن بن وهب :
والحمدُ شَهدٌ لا ترى مُشارَه ينجيه إلا من نقيع الحنظل^(١)
عُلَّ لحامله ويَحسبُه الذي لم يؤه عاتقه خفيف الحمل^(٢)
وقيل لبعض الصالحين : مالك لا تطلب الدنيا ؟ فقال : من خاف السؤالَ
عن الشكر طابت نفسه عن المال ...
وقال أبو العتاهية :

ما فاتني خيرُ امرئٍ وَضَعْتُ عنيَّ يدهُ مؤونة الشكرِ

ترغيبهم في الثناء ووصفهم إياه بالبقاء

وتفضيلهم إياه على المال والعطاء

قال عمر بن الخطاب لابنة هَرَم بن سنانٍ ممدوح زهير بن أبي سلمى :

(١) المشتار : مستخرج العسل ، والشهد : بفتح الشين وضمها : العسل في شمعها

(٢) الغل : القيد ، والحمل : الحمل

ما وَهَبَ أبوكَ لُزْهَيْرَ؟ فَنَالَتْ: أَمْوَالاً فَنِدَتْ وَأَتَوَا بِأَبَا بَلَيْتٍ وَأَشْيَاءَ انْتَسَبَتْ،
فَقَالَ الْفَارُوقُ: لَكِنْ مَا أَعْطَاكَوْهُ زُهَيْرٌ لَا يُفْنَى وَلَا يُنْسَى ... وَكُتِبَ
أَرِسْطُو إِلَى الْإِسْكَانْدَرِ الْمُقْدُونِي: إِنَّ كُلَّ عَقِيلَةٍ ^(١) يَأْتِي عَلَيْهَا الدَّهْرُ، فَيُخْلِقُ
أَثَرَهَا وَيُمِيتُ ذِكْرَهَا، إِلَّا مَا رَسَخَ فِي الْقُلُوبِ، مِنَ الذِّكْرِ الْحَسَنِ يَتَوَارَثُهُ
الْأَعْقَابُ. وَقَالُوا: فِي الثَّنَاءِ الْبَاقِي عَلَى الدَّهْرِ، خَلَفٌ مِنْ نَفَادِ الْعَمْرِ.
قَالَ الشَّاعِرُ:

وَإِنِّي أَحِبُّ الْخُلْدَ لَوْ اسْتَطَعْتُهُ وَكَالْخُلْدِ عِنْدِي أَنْ أَبَيْتَ وَلَمْ أَلَمْ
وَقِيلَ لِبُزْرِ جَهْرٍ حِينَ كَانَ يُقْتَلُ: تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ تَذْكُرُهُ، فَقَالَ: الْكَلَامُ
كَثِيرٌ، وَلَكِنْ إِنْ أَمَكَّنَكَ أَنْ تَكُونَ حَدِيثًا حَسَنًا فَافْعَلْ.

وَلَمَّا رَضِعَ الْوَزِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ فِي التَّثْوَرِ قَالَ لَهُ خَادِمُهُ:
يَاسِنْدِي، قَدْ صِرْتَ إِلَى مَا صِرْتَ وَلَيْسَ لَكَ حَامِدٌ أَقَالَ: وَمَا تَنْفَعُ الْبَرَامِكَةَ
مِنْ صَنِيعِهِمْ، قَالَ: ذِكْرُكَ لِهَمِّ السَّاعَةِ، فَقَالَ: صَدَقْتَ ... وَقَالَ شَاعِرٌ:

لَمَنْ طَبَّتْ نَفْسًا عَنْ ثَنَائِي فَإِنِّي لَا طَيْبُ نَفْسًا عَنْ تَذَاكَ عَلَى عُسْرِي
فَاسْتُ إِلَى جَدِّوَاكَ أَعْظَمَ حَاجَةً عَلَى شِدَّةِ الْإِسَارِ مِنْكَ إِلَى سُكْرِي
وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ:

وَمُحْجَبٌ حَارَلَتْهُ فَوَجَدَتْهُ نَجْمًا عَنِ الرَّكْبِ الْعُقَاةِ شَسُوعَا
أَعْدَمْتُهُ - لَمَّا عَدِمْتُ نَوَالَهُ - سُكْرِي فَرُخَا مُعْدِمِينَ جَمِيعَا
وَقَالَ عَرَفُ بْنُ مَحْمَدٍ الشَّيْبَانِي:

قَتَى يَتَقَى أَنْ يَخْدِشَ الذَّمُّ عِرْضَهُ وَلَا يَتَقَى حَدَّ السُّبُوفِ الْبَوَاثِرِ

(١) العقيلة في الأصل: المرأة الكريمة النفيسة ثم استعمل في الكريم من كل شيء.
في الذوات والمعاني. وعقائل الإنسان: كرائم أمواله، وهو المراد هنا

وقال حكيم : من أحبَّ الثناء ، فليصبر على بَذلِ العطاء ، وليؤْطِنْ نفسه
على الحقوق المُرَّة ، وعلى احتمال المؤنة ... وقال الشاعر في هذا المعنى :
ما أعلم الناس أن الجودَ مكسبةٌ للحمْدِ اكنته يأتي على المشبِّ

تسهيل القول على الشاكرين

بتوافر ما يشكر عليه وعكس ذلك

قيل للفرزدق : أحسن الكَيْتُ في الهاشميات ، فقال : وَجَدَ آجُرًا وَجِصًّا
فَبَنَى ... وقال شاعر :

ما لقينا من جودِ فضلِ بنِ يَحْيَى ترك الناس كلَّهم شعراءَ
وقال ابنُ الرومي :

كرمتُمُ بَغَاشِ المُفَحِّمُونَ لِمَدِّحِكُمْ إذا رَجَزُوا فيكم أَيْنُتُمْ فَقَصَدُوا
كما أزهتُ جناتُ عَدْنٍ وَأَثْمَرَتْ فَأَضْحَتْ وَعُجِمَ الطَّيْرُ فِيهَا تُغَرَّدُ
ومما كتبه بعضهم : فَتَحَتْ شَيْئُهُ عَلَى الْمُدَّاحِ مُسْتَغْلَقَاتِ الْكَلَامِ ...
وقال أبو تمام :

مَلِكٌ إِذَا مَا الشُّعْرُ حَارَ بَيْلَدَةٍ كَانَ الطَّرِيقَ لَطَرَفِهِ الْمُتَحِيرِ
وقال المتنبي :

يَا أَيُّهَا الْمَحْسِنُ الْمَشْكُورُ مِنْ جِهَتِي وَالشُّكْرُ مِنْ قِبَلِ الْإِحْسَانِ لَا قِبَلِي
وقال ابن طباطبا ^(١) فيمن يُستفاد منه ما يُمدح به :

(١) ابن طباطبا : هو أبو القاسم أحمد الشريف الحسيني المصري نقيب الطالبين
بمصر، ترجم له ابن خلكان، وطباطبا : لقب جده إبراهيم، وذكره الثعالبي في النونية توفي
سنة ٣٤٥ هـ

لَا تُنْكِرُنْ إِهْدَاءَنَا لَكَ مِنْطَقًا مِنْكَ اسْتَفَدْنَا حُسْنَهُ وَنِظَامَهُ
فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَشْكُرُ فِعْلَ مَنْ يَتَلَوُ عَلَيْهِ وَحْيَهُ وَكَلَامَهُ
وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ^(١) فيمن يليق به مدحه :
وَأَرَى الْمَدِيحَ إِذَا عَدَاكَ نَقِصَةً فَأَعَافَاهُ وَلَوْ أَنَّهُ فِي حَاتِمِ
فَإِذَا امْتَدَحْتَ سِوَاكَ قَالَ الشَّعْرَى لَمْ تَرْنَعِ حَقِّي إِذْ أَبْجَتَ بَحَارِي
ووصف أعرابي رجلاً مجمعاً على مدحه : كَأَنَّ الْأَلْسَنَ وَالْقُلُوبَ رِيضَتْ
لَهُ ، فَمَا تُعَقِّدُ إِلَّا عَلَى وَدِّهِ ، وَلَا تَنْطِقُ إِلَّا بِحَمْدِهِ . وقال البحرى :
وَأَرَى الْخَلْقَ مُجْمِعِينَ عَلَى فَضْلِهِ مِنْ بَيْنِ سَيِّدٍ وَمَسُودٍ
عَرَفَ الْجَاهِلُونَ فَضْلَكَ بِالْعِ لَمْ وَقَالَ الْجُهَّالُ بِالتَّقْلِيدِ
وقال ابن الرومي :

يَأْمَنُ إِذَا قَالَتْ فِيهِ صَالِحَةٌ عِنْدَ عَدُوٍّ أَقْرَ وَاعْتَرَفَا
وقال البحرى في المُسْتَعْنَى عن المدح لكثرة فضله :
جَلَّ عَنْ مَذْهَبِ الْمَدِيحِ فَقَدْ كَادَ يَكُونُ الْمَدِيحُ فِيهِ هِجَاءُ
وقال المتنبي :

تَجَاوَزَ قَدْرَ الْمَدْحِ حَتَّى كَانَهُ بِأَكْثَرِ مَا يُنْتَقَى عَلَيْهِ يُعَابُ

حَبُّ الْمُنْعِمِ أَنْ يُرَى أَثَرُ إِعْنَامِهِ

قال سيدنا رسول الله صلوات الله عليه : إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ

(١) هو القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الفقيه الأديب الشاعر صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه وصاحب الآيات المشهورة التي أولها : يقولون لي فيك أنقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً
توفي سنة ٤٣٦٦ هـ

نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ ... قَالَ الْإِمَامُ الْمَنَازِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى الْجَامِعِ الصَّغِيرِ :
 قِيلَ مَعْنَى يُرَى : مُزِيدُ الشُّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى ، بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالنَّشَاءِ وَالذِّكْرِ لَهُ بِمَا
 هُوَ أَهْلُهُ ، وَالْعَطْفُ وَالتَّرَحُّمُ ، وَالْإِتِّفَاقُ مِنْ فَضْلِ مَا عِنْدَهُ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ
 اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَالْحَقُّ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ ، فَيُرَى أَثَرُ
 الْجِدَّةِ عَلَيْهِ زِيَاً وَإِنْفَاقاً وَشُكْراً ، إِلَى آخِرِ مَا قَال ، وَهَكَذَا يُحِبُّ النَّاسُ أَنْ
 يُرَى أَثَرُ إِنْعَائِهِمْ عَلَى مَنْ يُنْعِمُونَ عَلَيْهِمْ ، رَوَى أَبُو هِلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ عَنْ
 الْعُتْبِيِّ مَا يَلِ : أَرَادَ جَعْفَرُ بْنُ يُحْيَى حَاجَةً كَانَ طَرِيقُهُ إِلَيْهَا عَلَى بَابِ الْأَصْمَعِيِّ
 فَوَدَّعَ إِلَى خَادِمٍ لَهُ كَيْسًا فِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ وَقَالَ : إِنِّي سَأَعْرِجُ فِي رَجْعَتِي عَلَى
 الْأَصْمَعِيِّ ، ثُمَّ سَيَحْدِثُنِي وَيُضِحِّكُنِي ، فَإِذَا ضَحِكْتُ فَضَعِرَ الْكَيْسُ بَيْنَ يَدَيْهِ ،
 فَلَمَّا رَجَعَ وَدَخَلَ إِلَيْهِ رَأَى جُبًّا مَكْسُورًا^(١) الرُّأْسَ وَجَرَّةً مَكْسُورَةً الْعُنُقُ ،
 وَقِصْعَةً مُشْعَبَةً ، وَجَفْنَةً أَعْشَارًا ، وَرَأَى عَلَى مُصْلَى بَالٍ وَعَلَيْهِ بَرْنُكَانٌ^(٢)
 أَجْرَدٌ ، فَمَمَزَ عَلَامَتَهُ أَنْ لَا يَضَعُ الْكَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَلَمْ يَدَعِ الْأَصْمَعِيُّ شَيْئًا
 مِمَّا يُضْحِكُ النَّكْلَانَ وَالنُّضْبَانَ إِلَّا أَوْرَدَهُ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَتَبَسَّمْ ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ
 لِرَجُلٍ يُسَازِرُهُ : مَنْ اسْتَرْعَى الذُّنْبَ ظَلَمَ ، وَمَزَزَعَ السِّمِيخَةَ^(٣) حَصَدَ الْفَقْرَ ،
 إِنِّي وَاللَّهِ لَمَّا عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا يَكْتُمُ الْمَعْرُوفَ بِالْفِعْلِ مَا حَفِلْتُ بِشَرْهِ
 لَهُ بِاللِّسَانِ ، وَأَيْنَ يَقَعُ مَدِيحُ اللِّسَانِ مِنْ آثَارِ الْعِيَانِ ! إِنْ اللِّسَانُ قَدْ
 يَكْذِبُ ، وَالْحَالُ لَا تَكْذِبُ ، وَلِلَّهِ دَرُّ نُصَيْبٍ حَيْثُ يَقُولُ :

فَعَاوُجُوا فَأَنْتَوُا بِالذِّى أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَنُوا أَثْنْتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

ثُمَّ قَالَ : أَعْلِمْتُ أَنَّ نَاوُوسَ أَبْرِيزَ أَمْدَحُ لَأَبْرُويزَ مِنْ زَهِيرِ لَّالِ سِنَانٍ !

(١) الحب : الخاتية ، فارسي معرب (٢) برنكان على وزن زعفران :

ضرب من الأكسبة . (٣) أرض سبخة : ذات ملح ووزن

وقالت الحكماء : لسان الحال أصدق من لسان الشكر : وقد أجاد ابن الرومي في هذا المعنى فقال :

حَالِي تَبُوحٌ بِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنِ فَكُلُّ مَا تَدْعِيهِ غَيْرُ مَرْدُودٍ
كُلِّي هِجَاءٌ وَقَتْلِي لَا يَحِلُّ لَكُمْ فَمَا يُدَاوِيكُمْ مَنِّي سِوَى الْجُودِ
وقالوا : شهادات الأحوال أعدل من شهادات الرجال

لَا يَمْدَحُونَ إِلَّا إِذَا أُعْطُوا

واعتذارهم عن ذلك

قالت بنو تميم لسلامة بن جندل : مجّدنا بشعرك ، فقال : افعلوا حتى أثنى ، ونحوه قول عمر بن مَعْدِيكَرِبَ :

فَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنِ الرَّمَاحُ أَجَرَّتْ
وَأَجَرَّتْ : قطعت ، يقول : لو قاتل قومي أو آبأوا لَدَكَ كَرْتُ ذَلِكَ وَغَفَرْتُ
به ، ولكن رماحهم أَجَرَّتْنِي : أى قطعت لسانى عن الكلام بفرارهم ، أراد
أنهم لم يقاتلوا .

وقال بعض الأكابر لأبى هفان ^(١) : مَالَكَ لَا تَمْدَحْنِي ؟ فقال :

لِسَانُ الشُّكْرِ تُنْطِقُهُ الْعَطَايَا وَيَخْرُسُ عِنْدَ مُنْقَطِعِ النِّوَالِ
وعاتب يوماً محمد بن عبد الملك الزيات الوزير أبا تمام على مدحه سواء
فاعتذر إليه بأبيات يقول فيها :

أَمَّا الْقَوَافِي فَقَدْ حَصَلَتْ عُذْرَتُهَا فَمَا يُصَابُ دَمٌ مِنْهَا وَلَا سَلَبُ

(١) أبو هفان : هو عبد الله بن أحمد بن حرب المهزى العبدى ، راوية عالم بالشعر والغريب ، وشعره جيد إلا أنه مقل وهو من شعراء الدولة الهاشمية .

مَنَعَتْ إِلَّا مِنْ الْأَكْفَاءِ نَاكِحَهَا وَكَانَ مِنْكَ عَلَيْهَا الْعَطْفُ وَالْحَدَبُ
 وَلَوْ عَصَلَتْ عَنِ الْأَكْفَاءِ أَيْمَهَا وَلَمْ يَكُنْ لَكَ فِي أَظْهَارِهَا أَرْبُ
 كَانَتْ بَنَاتٍ نُصِيبُ حِينَ ضَنَّ بِهَا عَلَى الْمَوَالِي وَلَمْ تَحْفَلِ بِهَا الْعَرَبُ

« العذرة : البكارة ، والحذب : الإشفاق ، وعضل الأيتم : فالأيتم : التي
 لأزواج لها بكرا كانت أو ثيبا والجمع : أيايم وأيايم ، وعضل الرجل أيمه
 يعضلها ويعضلها عضلا : منعهما الزواج طُلُبها قال تعالى : فلا تعضلوهنَّ أن
 ينسكحن أزواجهنَّ ، نزلت في معقل بن يسار المزني - وكان زوج أخته
 رجلا فطلّقها ، فلما انقضت عدتها خطبها ، فآلى أن لا يزوجه إياها ورغبت
 فيه أخته فنزلت الآية ... وكان نصيب الشاعر الأسود له بنات وكان يرغب
 عن أن يزوجهن من الموالى ، والعرب لا ترغب فيهن ، فبقين بلا زواج ،
 قيل له يوما : ما حال بناتك ؟ فقال : صبت عليهن من جلدى فكسدن على ... ،
 وكتب هذا الوزير الزيات إلى أبي تمام يوما يحتج عليه بأنه يمدح غيره وأنه
 لو اقتصر عليه لأغناه وأن كثرة مدحه الناس زهدته فيه :

رَأَيْتُكَ تَسْمَحُ بِبَيْعِ سَهْلٍ وَإِنَّمَا يُغَالِي إِذَا مَاضٍ بِالشَّيْءِ بَائِعُهُ
 هُوَ الْمَاءُ إِنْ أَجْمَعْتَهُ طَابَ وَرُدُّهُ وَيَفْسُدُ مِنْهُ مَا تَبَاحَ شَرَائِعُهُ
 فكتب إليه أبو تمام :

أَبَا جَعْفَرٍ إِنْ كُنْتَ أَصْبَحْتَ شَاعِرًا أَسْأَلُ فِي بَيْعِي لَهُ عَنْ أَبَائِهِ
 فَتَدَّ كُنْتَ قَبْلِي شَاعِرًا ذَارِوِيَّةً نَسْأَلُ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ بَضَائِعُهُ
 وَصِرْتَ وَزِيرًا وَالْوِزَارَةُ مَشْرَبٌ يَغْصُ بِهِ بَعْدَ الْأَذَاذَةِ كَارِعُهُ
 وَكَمْ مِنْ وَزِيرٍ قَدْ رَأَيْنَا مُسَلِّطًا رَأَيْنَاهُ قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهِ مَطَالِعُهُ
 وَلِلَّهِ قَوْسٌ لَا تَطِيشُ سِهَامُهَا وَلِلَّهِ سَيْفٌ لَا تُقْلُ مَقَامِلُهُ

« يقول : إن سِهامَ الله مُصِيبَةٌ لَا تُخْطِئُ وَسِيفُهُ لَا يَئِثُّهُ ، فَهُوَ الَّذِي جَعَلَكَ
مُوزِيراً وَلَوْ شَاءَ لَأَنْزَلَكَ عَنْ دَسَنِكَ »

حُثِّمُوا عَلَى الشُّكْرِ وَلَوْ لَمَنْ لَيْسَ عَلَى دِينِهِمْ

قال رجلٌ لسعيد بن جُبَيْر : المَجُورُ سَيُّئٌ يُؤَلِّينِي خَيْرًا فَأَشْكُرُهُ ، وَيُسَلِّمُ عَلَيَّ
فَأُرْدُّ عَلَيْهِ ؟ فقال سعيد : سألتُ ابنَ عَبَّاسٍ عَنْ نَحْوِ هَذَا ، فَقَالَ لِي : لَوْ قَالَ لِي
فِرْعَوْنُ خَيْرًا لَرَدَدْتُ عَلَيْهِ ... وَسَلَّمَ نَصْرَانِي عَلَى الشَّعْبِيِّ ، فَقَالَ الشَّعْبِيُّ :
وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، تَقُولُ لِهَذَا النَّصْرَانِي
وَرَحْمَةُ اللَّهِ ! فَقَالَ الشَّعْبِيُّ : أَلَيْسَ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ يَعْيشُ ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : فَا
وَجْهَ الْإِنْكَارِ عَلَى عَافَاكَ اللَّهُ وَرَحِمَنَا وَإِيَّاكَ بِرَحْمَتِهِ ؟

استحيواؤهم من المديح

ولا سيما إذا كان مُتَكَلِّفًا أَوْ مُبَالَغًا فِيهِ

سمع سيدنا رسول الله رجلاً يُثْنِي عَلَى آخَرٍ ، فَقَالَ : قَطَعْتَ مَظَاهِ ، لَوْ سَمِعَ
مَاءً فَالَحَ « المَطَا : الظُّهْر » وَقَالُوا : اسْتَحْيَاءُ الْكَرِيمِ مِنَ الْمَدْحِ أَكْثَرُ مِنْ اسْتَحْيَاءِ
اللَّيْمِ مِنَ الذَّمِّ ... وَأَتْنِي رَجُلٌ عَلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَقَالَ : إِنَّا نَكْرَهُ الْمَدْحَ ،
فَقَالَ : لَسْتُ أَمْدُحُكَ وَلَكِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ فِيكَ ... وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِّيقُ
رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقُولُ إِذَا مُدِّحٌ : اللَّهُمَّ ، أَنْتَ أَعْلَمُ مِنِّي بِنَفْسِي مِنْهُمْ ،
اللَّهُمَّ ، اجْعَلْنِي خَيْرًا مِمَّا يَحْسِبُونَ ، وَاعْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ ، وَلَا تَوَاخِذْنِي
بِمَا يَقُولُونَ ... وَكَانَ رَجُلٌ يُكْثِرُ الثَّنَاءَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ ، وَعَلِمَ مِنْ قَلْبِهِ خِلَافَ قَوْلِهِ ، فَقَالَ لَهُ : أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ ، وَفَوْقَ
مَا فِي نَفْسِكَ ؛ وَقَالَ الْجَاهِظُ : شَرُّ الشُّكْرِ ، ثَنَاءُ الْمُوَاجِهِ لِكَ الْمُسْرِفِ فِي مَدْحِكَ ،

وخَيْرُهُ، ثناء الغائب عنك ، المقتصد في وَصْفِكَ . وقالوا : كنْ من أفرط في
تزكيتك أَحَدَر من أفرط في الزراية بك . وقالوا : مَنْ مَدَحَ الرجل بما ليس
فيه فقد بالغ في ذمِّه . وقال أبو فراس الحمداني :

ولا تَقْبَلَنَّ القولَ من كلِّ قائلٍ سأَرْضِيكَ مَرَأًى لست أَرْضِيكَ مَسْمَعاً
وقال الفضيل بن عياض : لو شَمَّمْتُمْ رائحة الذنوب مني ما قَرِبْتُمُونِي ...
وأثني على زاهدٍ ، فقال : لو عَرَفْتَ مني ما عَرَفْتَ من نَفْسِي لَا بَغَضْتَنِي .
وقال المتنبي :

يُحَدِّثُ عن فضيله مُكْرَهاً كأنَّ له منه قلباً حَسُوداً

من يمدح نفسه

خطب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه خُطبةً حَسَنَةً ، فقال : هل من
خليل ؟ فقال رجل من عُرضِ الناس : خَلَّيْ لِحَلَلِي المُنْخَلِ ، فاستدعاه وقال :
ماذا لك الخلل ؟ قال : إعجابك به ومدحك له ... وقيل للحكيم : ما الذي لَا يَحْسُنُ
وإن كان حقاً ؟ قال : مدحُ الرجل نفسه ... وقال معاوية لرجلٍ : مَنْ سَيِّدُ
قومك ؟ فقال : أنا ، فقال له : لو كُنْتَ كذلك لَمْ تَقُلْهُ ... ومن طُرْفِهِمْ
في ذلك ما رَوَى عن بعض الشعراء أَنَّهُ سُئِلَ : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحتُ
والله أَظَرَفَ الناس وأشعرَ الناس وأدَبَ الناس ، فقال السائل : آسكتَ حتى
يقول الناس ذلك ، فقال : أنا مُنْذُ ثلاثين سنة أَتَظَرُّ أن يقولَ الناس وليُسُوا
يقولون ... ومدَحَ أعرابي نفسه فعُوتِبَ في ذلك ، فقال : أَأَكَلُهُ إِلَيْكُمْ إِذْنُ وَاللهِ
لَا تَقُولُوا أَبداً ...

عذر من يُضطرّ إلى مدح نفسه

قال ابن الرومي في ذلك :

وَعَزِيزٌ عَلَى مَدْحِي لِنَفْسِي غَيْرَ أَنِّي جُشِّمْتُهُ الدَّلَالَةَ
وَهُوَ عَيْبٌ يَكَادُ يَسْقُطُ فِيهِ كُلُّ حُرٍّ يُرِيدُ يُظْهِرُ حَالَهُ

ووصف لابي جعفر المنصور بعض الأفاضل ، فأمر بإشخاصه إليه ؛ فلما دخل
قال له : أعالم أنت ؟ فقال : أكره أن أقول : نعم ، وفيه مافيه ، أو أقول : لا ،
فأكون جاهلا . فأعجب المنصور بحوايه وألزمه المهدي

نهيهم عن المدح قبل الاختبار

قالوا : لا تعرف قبل أن تعرف ، أى لا تمدح قبل التجربة ، وأصل الهزف :
الهذيان قال الازهرى : الهزف : شبه الهذيان من الإعجاب بالشئ . يقال : هو
يهرف بفلان نهاره كله هزفا ، وقالوا : لا تحمدن أمة عام شرايها ، ولا حرة
قبل بنائها ، قبل الدخول بها ، ... وقال رجل لعمر رضى الله عنه : إن فلانا
رجل صدق ، فقال : هل سافرت معه ، أو ائتمنته ؟ قال : لا ، فقال :
إذن لا تمدحه ، فلا علم لك به ، لعلك رأيته يرفع رأسه ويخفيه في المسجد

ختام الباب

عقريات شتى في الشكر

قال أبو ذر : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : الرجل يعمل العمل ويحببه
الناس ؟ قال : تلك عاجل بشرى المؤمن ... وقال صلوات الله عليه :
إذا أردتم أن تعملوا مالا لعبد عند الله فانظروا ماذا يتبعه من الشاء ...

وقال شاعر :

عُثْمَانُ يَعْلَمُ أَنَّ الْحَمْدَ ذُو ثَمَنِ لَكِنَّهُ يَشْتَهِي حَمْدًا بِمَجَانٍ
وَالنَّاسُ أَكْثَرُ مَنْ أَنْ يُحَمَّدُوا رَجُلًا

حتى يَرَوْا قَبْلَهُ آثَارَ إِحْسَانٍ

وقال معاوية بن أبي سفيان يُعَارِبُ قُرَيْشًا :

إِذَا أَنَا أُعْطِيتُ الْقَلِيلَ شَكَوْتُمْ وَإِن أَنَا أُعْطِيتُ الْكَثِيرَ فَلَا شُكْرُ
وَمَا لُمْتُ نَفْسِي فِي قَضَاءِ حُقُوقِكُمْ وَقَدْ كَانَ لِي فِيهَا اعْتَذَرْتُ بِهِ عُذْرُ
وَأَمْنَحُكُمْ مَالِي وَتُكَنَّرُ نِعْمَتِي وَتَشْتِمُ عَرِضِي فِي مَجَالِهَا فَهَرُ^(١)
إِذَا الْعُذْرُ لَمْ يُقْبَلْ وَلَمْ يَنْفَعِ الْآسَى وَضَاقَتْ قُلُوبُ مَنْهُمْ حَشْوُهَا الْغَمْرُ^(٢)
فَكَيْفَ أَدَاوِي دَاءَكُمْ وَدَوَاؤُكُمْ يَزِيدُكُمْ غَيًّا ! فَقَدْ عَظُمَ الْأَمْرُ^(٣)
سَاحِرُكُمْ حَتَّى يَذِلَّ صِعَابُكُمْ وَأَبَاحُ شَيْءٍ فِي صَلَاحِكُمُ الْفَقْرُ^(٤)
وقال ابن الرومي :

كَمْ مِنْ يَدٍ بَيْضَاءَ قَدْ أَسَدَيْتَهَا تَنَنِي إِلَيْكَ عِنَانٌ كُلُّ وَدَادٍ
شَكَرَ إِلَهَهُ صَنَائِمًا أَوْلَيْتَهَا سَلَكَتْ مَعَ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَادِ
وقال الشريف الرضي :

أَلْبَسْتَنِي نِعْمًا عَلَى نِعَمٍ وَرَفَعْتَ لِي عِلْمًا عَلَى عِلْمٍ
وَعَلَوْتَ بِي حَتَّى مَشَيْتُ عَلَى بُسْطٍ مِنَ الْأَعْنَاقِ وَالْقِمَمِ
فَلَا شُكْرَ نِيْدِيكَ مَا شَكَرْتُ خُضِرَ الرِّيَاضُ مَصَانِعَ الدِّيمِ

(١) فهر : هو فهر بن غالب بن النضر بن كنانة ثم سمي به القبيلة وقريش كلهم ينسبون إليه (٢) الآسى : العلاج والدواء والإصلاح والعدل ، والغمر : الحقد (٣) الغي : الضلال (٤) يذل : ينقاد

فَالْحَمْدُ يُبْقِي ذِكْرَ كُلِّ قَتِيٍّ وَبَيْنَ قَدَرٍ وَوَاقِعِ الْكَرَمِ
وَالشُّكْرُ مَهْرٌ لِلصَّنِيعَةِ إِنْ طَلَبْتَ مُهُورَ عَقَائِلِ النَّعَمِ.

« القم جمع قمة : أعلى الرأس وأعلى كل شيء ، والديم جمع ديمة : المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق يدوم ثلث نهار أو ثلث ليل فأكثر ، والصنعة : ما أسديت من معروف ، والعقائل : كرائم الأموال ، وقال رجل لبعض ذوى السلطان : المواجهة بالشكر ضرب من الملق ، منسوب من عُرف به إلى التَخَلُّقِ ، وأنت تمنعني من ذلك ، وترفع الحال بيننا عنه ، ولذلك تَرَكْتُ إِقَاءَكَ بِهِ ، غيرَ أَنِي مِنَ الْإِعْتِرَافِ بِمَعْرِفِكَ ، ونَشَرِ مَا نَطَوَى مِنْهُ ، والإشادة بذكره عند إخوانك ، والانتساب إلى التقصير مع الإطنا ب في وصفه ، على ما أرجو أن أكون قد بلغتُ به حالَ الْمُحْتَمَلِ لِلصَّنِيعَةِ النَّاهِيضِ بِحَقِّ النَّعْمَةِ . وقال أبو يعقوب الخَرَيْمِيُّ :

زَادَ مَعْرِفَكَ عِنْدِي عِظَمًا أَنَّهُ عِنْدَكَ مَخْفُورٌ صَغِيرُ
تَنَاسَاهُ كَانَ لَمْ تَأْتِهِ وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورٌ كَبِيرُ
وقال بعضهم : لا تَتَّقِ بِشُكْرٍ مِنْ تُعْطِيهِ حَتَّى تَمْنَعَهُ ، فإن الصابر هو الشاكر ، والجازع هو الكافر ... وقال الشاعر :

إِذَا أَنَا لَمْ أَشْكُرْ عَلَى الْخَيْرِ أَهْلُهُ وَلَمْ أَذْمَعْ الْجَبَسَ اللَّيْمَ الْمَذْمُومًا^(١)
فَقِيمَ عَرَفْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ بِاسْمِهِ وَشَقَّ لِيَ اللَّهُ الْمَسَاسِعَ وَالْقَمَا
وقال ابنُ التَّوَعَمِ^(٢) : كُلُّ مَنْ كَانَ ، جُودُهُ يَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَلَوْلَا رُجُوعُهُ
إِلَيْهِ لَمَا جَادَ عِيَالُكَ ، وَلَوْ تَيَّأَ لَهُ ذَلِكَ الْمَعْنَى فِي مَوَاكِلَ مَا قَصَدَ إِلَيْكَ ،
فَلَيْسَ يَجِبُ لَهُ عَلَيْكَ شُكْرٌ ، وَإِنَّمَا يُوصَفُ بِالْجُودِ فِي الْحَقِيقَةِ وَيُشْكَرُ عَلَى

(١) الجبس : النذل الذوم (٢) هو عقبة بن التوم من رجال الحديث

النَّفْعَ فِي حُجَّةِ الْعَقْلِ ، الَّذِي إِنْ جَادَ عَلَيْكَ فَلَكَ جَادٌ ، وَنَفْعَكَ أَرَادَ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ جُودُهُ بِشَيْءٍ مِنَ النَّفْعِ عَلَى جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ ، وَهُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَإِنْ شَكَرْنَا النَّاسَ عَلَى بَعْضِ مَا جَرَى لَنَا عَلَى أَيْدِيهِمْ ، فَلَا مَرَيْنَ : أَحَدُهُمَا التَّعَبُّدُ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَعْظِيمِ الْوَالِدِينَ وَإِنْ كَانَا شَيْطَانَيْنِ ، وَتَعْظِيمِ مَنْ هُوَ أَسْنُّ مِنَّا وَإِنْ كُنَّا أَفْضَلَ مِنْهُ . وَالْآخَرُ : لِأَنَّ النَّفْسَ مَا لَا تُحْصِلُ الْأُمُورَ وَتُمَيِّزُ الْمَعَانِيَ ، فَالسَّابِقُ إِلَيْهَا حُبٌّ ، مَنْ جَرَى لَهَا عَلَى يَدَيْهِ الْخَيْرُ وَإِنْ كَانَ لَمْ يُرِذْهَا وَلَمْ يَقْصِدْ إِلَيْهَا . أَلَا تَرَى أَنَّ عَطِيَّةَ الرَّجُلِ صَاحِبَهُ لَا تَخْلُو أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ أَوْ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ كَانَتْ لِلَّهِ فَثَوَابُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَكَيْفَ يَجِبُ فِي حُجَّةِ الْعَقْلِ شُكْرُهُ وَهُوَ لَوْ صَادَفَ ابْنَ سَبِيلٍ غَيْرِي لَمَا أُعْطَانِي ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ إِيَّايَ لِلذِّكْرِ ، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّمَا جَعَلَنِي سُلْبًا إِلَى حَاجَتِهِ وَسَبِيلًا إِلَى بُغْيَتِهِ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ إِيَّايَ طَلِبًا لِلْمُكَافَأَةِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ تِجَارَةٌ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ لِحَرْفِ يَدِي أَوْ لِسَانِي أَوْ اجْتِرَارِ مَعُونَتِي وَنُصْرَتِي ، وَسَبِيلٌ هَذَا مَعْرُوفٌ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ لِلرَّحْمَةِ وَالرِّفْقَةِ وَلِمَا يَجِدُ فِي فَوَادِهِ مِنَ انْتِصَارِ وَالْأَلَمِ ، فَإِنَّمَا ذَاوِي بَيْتِكَ الْعَطِيَّةُ مِنْ دَانِهِ ، وَرَفَّةٌ مِنْ خِنَاقِهِ ... وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

أُنْثِيَ عَلَيْكَ وَلِيَّ حَالٍ تُكَذِّبُنِي فَمَا أَقُولُ فَاسْتَجِبِي مِنَ النَّاسِ

قَدْ قُلْتَ إِنَّ أَبَا حَفِصٍ لَا كَرَمَ مِنْ بَمَشْيِ خِفَاصِنِي فِي ذَاكَ إِفْلَاسِي

وَكَانَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَثِيرًا مَا تَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

يَجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنْ مِنْ أَثْنِي عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى

وَقَالُوا : خَمْسَةُ أَشْيَاءَ ضَائِعَةٌ : سِرَاجٌ يُوقَدُ فِي شَمْسٍ ، وَمَطَرٌ جَوْدٌ فِي

سَبْخَةٍ ، وَحَسَنَاءُ تُزْفُ إِلَى عَنِينٍ ، وَطَعَامٌ اسْتُجِيدَ وَفُتِّمَ إِلَى سُكْرَانٍ ،

وَمَعْرُوفٌ صُنِعَ إِلَى مَنْ لَا شُكْرَ لَهُ ...

الباب الثالث

في الصبر وعقوباتهم فيه ، وفي الدنيا وأكدارها ، وفي هادم اللذات
ماذا يراد بالصبر في هذا الباب ؟

قال علماء اللغة : الصبرُ : نقيضُ الجزع ، أو حبسُ النفس عند الجزع ،
يقال : صبرَ فلانٌ عند المصيبة يصبرُ صبراً ، وصبرتهُ أنا : حبستهُ ، والتصبرُ :
تكلفُ الصبر ، قال عمر رضي الله عنه : أفضلُ الصبر : التصبرُ ... وقال الراغب
الأصفهاني في الذريعة : الصبرُ ضربان : جَسَمِيٌّ ونَفْسِيٌّ ، فالجَسَمِيُّ : هو تحملُ
المشاقِّ بقدرِ القوة البدنية ، وأكثرُها لذوى الجسوم الحسنة ، وليس ذلك
لفضيلة تامة ، وذلك في الفعل كالمشي ورفع الحجر ، وفي الانفعال كالصبر
على المرض ، والنفسِيُّ - وبه تُسلَّقُ الفضيلة - ضربان : صبرٌ عن تناول
مُشْتَهَى ، ويقال له : العِفَّةُ ؛ وصبر على تحمل مكرهه أو تحبُّوب ، وهذا
تختلف أسماؤه بحسب اختلاف مواقفه ، فإذا كان في نزول مُصِيبَةٍ فإنه مما
استبَدَّ به اسم الصبر ، وضده الجزع والهلع والحزن ، وإن كان في احتمال
عَنَى فقد سُمِّيَ ضبط النفس ويضادُّه الدَّقَعُ والبطَرُ ، ^(١) وإن كان في محاربة
سُمِّيَ شجاعة ويضادُّه : الجبن ، وإن كان في إمساك النفس عن قضاء وطر
الغضب سُمِّيَ حِلْماً ، ويضادُّه : التذمُّرُ ^(٢) ، وإن كان في نائبة مُضْجِرَةٍ سُمِّيَ
سَعَةً الصدر ؛ ويضادُّه ضيق الصدر والضجر والتبرُّم ، وإن كان في إمساك كلام

(١) الدقع : الرضا بالدون من المعيشة وسوء احتمال الفقر ، والبطر : الطغيان في النعمة

(٢) التذمر : الغضب ومنه : فلان حامى الذمار وهو كل ما يلزمك حفظه وحياطة .
وحمايته وما يجب على أهله التذمر له والغضب من أن ينال منه

في الضمير سُمِّيَ كتمان سرٍّ ، ويضادُّه : الإفشاء ، وإن كان في الإمساك عن فضولات العيش سمي قناعة وزهداً ، وهذا يضادُّه : الحرص والشره ...

«وبعد ، فها أنت ذا ترى بما أوردنا عليك من كلام الراغب : أن الصبر ألوانٌ ، ومن أخص ألوانه : الصبر على المصائب ، ذلك الذي يضادُّه الجزع وهذا اللون هو الذي سوف تتصدى له في هذا الباب ، أمّا سائر الألوان فإن لكل منها باباً لقد عقدناه فيما يلي هذا الباب من الأبواب .

عقرياتهم في الصبر

قال الراغب في فصل عنوانه «مداواة الغم وإزالة الخوف» مع شيء من التصرف : خُلِقَ بالإنسان أن يعلم أن الدنيا جَمَّةُ المصائب رَنَقَةُ المشارب تُثْمِرُ لِلْبَرِيَّةِ أضعافَ البلية^(١) ، فيها مع كلِّ لُقْمَةٍ عُصَّة^(٢) ، ومع كلِّ جُرْعَةٍ شَرَقَةٌ^(٣) ، فهي عَدُوَّةٌ ومُحِبُّوبَةٌ كما قال أبو نواس :

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَيْبٌ تَكْشَفَتْ لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ
وَمَا رَوَى عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : مَا مِثْلُنَا مَعَ الدُّنْيَا إِلَّا كَمَا قَالَ كَثِيرٌ :

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَامِلُومَةٌ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتْ^(٤)

(١) البرية : الخلق ، وأضعاف البلية يريد البلية مضاعفة والبلية : المحنة

(٢) العصاة : الشجى - ما ينشب في الخلق من عظم وغيره

(٣) الجرعة من الماء : حسوة منه ، والشرقة : الغصة ولكنه بالماء والريق ونحوهما

قال عدي بن زيد :

لَوْ بَغَيْرِ الْمَاءِ حَلَقِي شَرِقُ كُنْتُ كَالْغَصَانِ بِأَمَاءٍ ائْتَصَارِي

(٤) مقليّة : مكروهة ، وهتات بحذف إحدى التامين وتقلب الشيء : تبغض ، خاطب

كثيرهم غايب

فما أحَدٌ فيها إلا وهو في كلِّ حالاته غَرَضٌ لِسَماهاها :

تُناضِلُهُ الآفاتُ مِنْ كُلِّ جانبٍ فُتُخِطُّهُ يوماً ويوماً تَصِيبُهُ ^(١)

وقال بعض الحكماء : أسباب الحزن فُقْدُ محبوبٍ أو فوتُ مطلوبٍ ، ولا يَسَلِّمُ منهما إنسان ، لأن الثبات والدوام معدومان في عالم الكون والفساد فمن أَحَبَّ أن يعيش هو وأهله وأحبابه سالمين فهوَ غيرُ عاقل ، لأنه يريدُ أن يَمْلِكَ ما لا يُمْلِكُ ، ويُوجِدَ له ما لا يُوجَدُ ، فَحَقِيقٌ بالمرء أن لا يُخْلِى قلبه من الاعتبار بما يَرى ، من ارتجاع لودائعها من أربابها ، وحلول لنوائبها بأصحابها .

ثم من حَقَّه أن يَقْلُ من اقتناء ما يُورِثُه الحزن ، فقد قيل للحكيم : لم لا نَعْتَمُ ؟ فقال : لأنى لم أَقْتِنِ ما يَغْنَمُ فَقْدُهُ ، أَخَذَهُ الشاعر فقال :

فَمَنْ سَرَّهُ أن لا يَرى ما يَسُوؤُهُ فلا يَتَّخِذْ شيئاً يَخافُ له فَقْداً

وقيل للحكيم : هل الإنسان أن يعيش آمناً ؟ قال : نعم ، إذا احتسب من الخطيئة ، وقنع بحلاله ، ولم يحزن لما هو واقع به لاحالة . واعلم أنَّ الجزع على ما فات لا يُلِمُّ ما شَعَتْ ولا يُبْرِمُ ما انتَكَتْ ؛ فأما غمُّه على المستقبل فلا يخلو من ثلاثة أوجه : إمَّا في شيء ممتنع كونه ، أو واجب كونه ، أو ممكن ، فإن كان على ما هو ممتنع كونه فليس ذلك من شأن العقلاء ، وكذلك إذا كان من قبيل الواجب كونه ، كالموت الذى هو حتمٌ في رقاب العباد ، وإن كان ممكناً كونه فإن كان من الممكن الذى لا سبيل إلى دفعه كما كان الموت قبل الهرم فالحزن له جهل ، واستجلابٌ غمٍّ ، وإن كان من الممكن الذى يصحُّ دفعه فالوجه أن يحتال إلى دفعه بفعلٍ غير مشوبٍ بحزن ، فإن دفعه وإلا

(١) ناضله مناضلة فضله : باراه في الرى نغله

تلقاه بصبرٍ، وليتحقق قوله عز وجل: ما أصاب من مُصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسكم، فمن عَلِمَ أنَّ ما جرى في حكمه، وسَبَقَ في عِلْمِهِ لاسيلا إلى أن لا يكون، هانت عليه الذُّوبُ، واعلم أن الذي يُغَرُّ النَّاسُ هو حسنُ ظَنِّهم باغترارِ الآفات، واغترارُهم حالة بعد حالة بصفاء الأوقات، ولو تأملوها لتحققت أنها كما قال عليُّ رضي الله تعالى عنه: ما قال الناس لقرم طوبى لكم إلا وقد خبأ الدهرُ لهم يومَ سوءٍ:

إِنَّ اللَّيَالِيَّ لَمْ تُحْسِنْ إِلَى أَحَدٍ إِلَّا أَسَاءَتْ إِلَيْهِ بِمَدَّةٍ إِحْسَانٍ

انتهى كلام الراغب، ومن أبدع ما قيل في الصبر والجزع قول ابن الرومي:

أَرَى الصَّبْرَ مَحْمُودًا وَعَنهُ مَذَاهِبٌ فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْهُ مَذْهَبٌ^(١)
هُنَاكَ يَحِقُّ الصَّبْرُ وَالصَّبْرُ وَاجِبٌ وَمَا كَانَ مِنْهُ كَالضَّرُورَةِ أَوْجِبُ^(٢)
فَقَدْ أَمَرُوا بِالصَّبْرِ كَمَا فَإِنَّهُ لَهُ عِصْمَةٌ أَسَابُهَا لَا تَقْضُبُ^(٣)
هُوَ الْمَهْرَبُ الْمُتَنَجِّي لِمَنْ أَحْدَقَتْ بِهِ مَكَارِهِ دَهْرِ لَيْسَ مِنْهُمْ مَهْرَبُ^(٤)
أَعْدُو خِلَالًا فِيهِ لَيْسَ لِعَاقِلٍ

من الناس - إن أنصفن - عنهن مرغب^(٥)

لبؤس جمال، جُنَّةٌ من شماتة شفاء أسي يُثْقَى به ويُشَوَّبُ^(٦)

(٢٠١) يقول: إن صبر الإنسان على ما يناله من مكروه أو عما يريد نيله من محبوب: محمود، ولو أنه يجد طرقا كثيرة يتخلص بها من المكروه أو يحصل بها على الرغائب، فكيف إذا لم يجد وسيلة إلى إزالة المكروه أو إدراك المرغوب؟ لا شك أن الصبر إذن واجب وما كان منه أشبه بالضرورة أعظم وجوبا

(٤٠٣) فشد أمرؤ بالصبر كفا يقول: خُلق بالمرء أن يستظهر بالصبر على تحمل المكروه، إذ أن الصبر عصمة وثيقة لا تنقطع حبالها فتعم الملاجأ هو لمن أحاطت به نوائب الدهر التي لا محيص عنها

(٦٠٥) يقول: إن في الصبر خلا لا يليق بعاقل أن يتركها إذا كان هناك إنصاف

فَيَا عَجَبًا لِلشَّيْءِ هَذَا خِلَالَهُ وَتَارَكَ مَا فِيهِ مِنَ الْحِظِّ أَعْجَبُ
 وَقَدْ يَتَظَنَّى النَّاسُ أَنَّ أَسَافَهُمْ وَصَبْرَهُمْ فِيهِمْ طِبَاعٌ مُرَكَّبٌ ^(١)
 وَأَنَّهُمَا لَيْسَا كَشَيْءٍ مُصَرَّفٍ يُصَرِّفُهُ ذُو نَكْبَةٍ حِينَ يُنْكَبُ
 فَإِنْ شَاءَ أَنْ يَأْسَى أَطَاعَ لَهُ الْآسَى وَإِنْ شَاءَ صَبَرَ أَجَادَهُ الصَّبْرُ يُجَلِّبُ
 وَلَكِنْ ضَرُورِيَانِ كَالشَّيْءِ يُبْتَلَى بِهِ الْمَرْءُ مَغْلُوبًا وَكَالشَّيْءِ يَذْهَبُ
 وَأَيْسَا كَمَا ظَنُّوهُمَا ، بَلْ كِلَاهُمَا لِكُلِّ لَيْبٍ مُسْتَطَاعٌ مُسَبَّبٌ ^(٢)
 يُصَرِّفُهُ الْمُخْتَارُ مِنَّا ، فَتَارَةً يُرَادُ فِيهَا أَنْ أَوْ يُذَادُ فَيَذْهَبُ ^(٣)

ومعدلة، وهذه الخلال هي : أن الصبر لبوس جمال ، أى أنه زينة وحلية جميلة ، وأنه
 جنة من شتامة ، أى وقاية من فرح الإعدام بما يصاب به المرء :

وَتَجَلَّدِي لِلشَّامِتِينَ أَرْبَهُمْ أَنْ لَرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ
 وأنه شفاء أسى ، أى مذهب للحزن ، وأنه يثنى به ، أى أنه مدرجة للحصول على
 الثناء ، وأنه يشوب ، أى يجازى عليه

(١) يتظنى أصلها : يتظن ، أى يعملون الظن ، أى يذهبون مع ظنهم ، والآسى :
 الحزن ، وطباع : أى طبع ، يقول : وقد يظن الناس أن الحزن والصبر طبع ، لا حيلة
 لمن طبعه الحزن في أن يصبر ، ولا لمن طبعه الصبر أن يحزن ، ثم قال في البيت التالى : وأن
 كلا الحزن والصبر ليسا من الأشياء التى يمكن تحويلها من حال إلى حال حتى يحولها
 المنكوب المصاب فإذا أراد الحزن أطاعه الحزن وإن أراد الصبر والتجلد جلبا إليه -
 وهذا معنى قوله فإن شاء ... البيت ، ثم قال : ولكن يظن الناس أن كلا من الآسى
 والصبر ضروريان كأن الحزن شئ يملك على الإنسان أمره لا حيلة له فى التخلص عنه
 وكذلك الصبر ترى الإنسان يصبر كما لو ضاع منه شئ لا بد أن يتحمل فقدسه أى
 يصبر على ضياعه ثم فند هذا بقوله : وليس كما ظنوهما ... الايات

(٢) يقول : وليس الحزن والصبر كما يظنهما الناس وإنماهما بما يقدر عليه ومن
 المستطاع التصرف فيهما والتسبب لتحويل كل منهما وتركه إلى الآخر
 (٣) المختار : ذو الإرادة ، ويزاد : يدفع ويبعد

إذا احتجَّ مُخْجَجٌ عَلَى النَّفْسِ لَمْ تَكُنْ عَلَى قَدَرٍ يُمْنِي لَهَا تَتَعَبُّ (١)

وساعدها الصبرُ الجميلُ فأقبلتُ إليها طَوْعاً جَنَائِبُ تُجَنَّبُ (٢)

وإنَّ هُوَ مَنَّاها الأباطيلَ لَمْ تَزَلْ تُقَارِلُ بِالْعَتَبِ الْقَضَاءُ وَتُغَلَّبُ (٣)

فَتُضْحِي جَزَوْعاً إِنْ أَصَابَتْ مُصِيبَةٌ وَتُسْمِي هَلَوْعاً إِنْ تَعَذَّرَ مَطْلَبُ (٤)

فَلَا يَعْدِرَنَّ التَّارِكُ الصَّبْرَ نَفْسَهُ بِأَنْ قِيلَ: إِنْ الصَّبْرُ لَا يُتَكَسَّبُ (٥)

وقال الأصمعيُّ: أحسنُ ما قيلَ في الصبرِ مع الشرحِ قولُ أبي ذؤيبِ الهذلي:

وَتَجَلَّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيَهُمْ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ

حَتَّى كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرُوءَةٌ بِصَفَا الْمُشَقَّرِ كُلِّ يَوْمٍ تُقْرَعُ

ولا أتضعع: لا أذلُّ ولا أخضع، وريب الدهر: صرْفُهُ، والمرُوءة واحدة

المرُوءة وهي: حجارة بيض براقه يقدح منها النار: ومرُوءة المَسْعَى التي تذكر مع

الصفا في الحج- وهي أحد رأسيه اللذين ينتهي السعي إليهما- سميت بذلك، وبصفا

(١) يعني: يقدر يقول: إذا أقمت للنفس الدليل على أن الصبر اختياري مكتسب

ثم أمت بها المصائب فإنها تقنع ولا تعتب على القضاء والقدر

(٢) الجنائب جمع جنيب وهو الفرس يجنب إلى الفرس حتى إذا فتر المركوب ركب

المجنوب، وله متعاقب بجنائب أي جنائب للصبر، يقول: متى اطمأنت النفس إلى الدليل

على أن الصبر مكتسب وتركت عتاب القدر ساعدها على تحمل مصائبها صبر جميل

يواتها مسعفا

(٣) يقول: أما إذا تركت النفس تذهب مع الأوهام والأباطيل فإنها لا تزال في

عتب على القضاء والقدر مما أصابها ولا تزال أعتب عبتا وبلا فائدة حتى تقهر وتغلب

(٤) الهلوع: الجزوع جزعا شديدا يقول: فيشتد جزعها إذا أصابها مصيبة ويشتد

أكثر إذا فاتها مطلب من مطالبها

(٥) يقول: لا عذر لمن يترك الصبر اغترارا بقول القائل: إن الصبر طبع غير

مكتسب إذ ظهر أن هذا القول باطل وأن الحق أن الصبر اكتسابي

المَشْقَر يروى : بَصَفا المَشْرَق ، أما المَشْقَر فهو : موضع أو حصن بالبحرين قديم بناه كسرى ، والمَشْرَق فهو : جبل يسوق الطائف ، والصفاء : جمع صفاة : صخرة ملساء وبه سمي أحد جبلي المسعى ؛ وهذان البتان من قصيدة أبي ذؤيب ^(١) التي يرثي بها بنيه الخمسة وقدماتوا في عام واحد ، وأولها :

أَمِنَ الْمَوْتَ وَرَبِيهِ تَوَجَّعُ وَالذَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبَرٍ مَن يَجْزَعُ ^(٢)
قَالَتْ أُمَامَةُ : مَا لِيْجْسِمِكَ شَارِحًا مُنْذُ ابْتُلَيْتَ وَمِثْلُ مَا لِكَ يَنْفَعُ ^(٣)
أَمْ مَا لِيْجْسِمِكَ لَا يَلَاثُمُ مَضْجَعًا إِلَّا أَقْضَ عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعُ ^(٤)

يروى أن عبد الله بن عباس رضى الله عنه استأذن على معاوية في مرض موته ليعودته ، فأذهن واكنحل - أى معاوية - وأمر أن يُقعدَ ويسند وقال : إندنوا له ، وأيسلم قائما ولينصرف ، فلما سلم عليه وولى ، أنشد معاوية قول أبي ذؤيب : وتجلدى للشامتين ... أليت : فاجابه ابن عباس على الفور :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
ثم ماخرج من داره حتى سمع نعيه ... وقال ضابط بن الحارث البرجمي من أبيات قالها في سجن عثمان بن عفان رضى الله عنه :

وَرُبَّ أُمُورٍ لَا تَضِيرُكَ ضَيْرَةٌ وَلِلْقَلْبِ مِنْ تَخْشَايَيْنَ وَجِيبُ
وَلَا خَيْرَ فِى مَنْ لَا يُوْطِنُ نَفْسَهُ عَلَى نَائِبَاتِ الذَّهْرِ حِينَ تَنْوُبُ

-
- (١) أبو ذؤيب الهذلى : شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم
(٢) المتن هنا : الدهر فلذلك ذكره ، ومن أراد به المنية آتته ، معتب : مزيل عتبة ، أى مريض
(٣) ومثل مالك ينفع ، يقول : ما لجسمك شاحبا ومثل مالك لا يكون معه هزال ولا شحوب لأنه واسع مبذول
(٤) إلا أقض عليك ذاك المضجع : أى تجده كأن فيه قضة وهي : الحصى الصغار

« قوله : لا تضيرك ضيرة ، فالعرب تقول : ضارُهُ يضيرُهُ ضيراً وضيرةً -
 المرة من الضير - ولا ضيرٌ عليك ، وضرةٌ يضُرُّه ولا ضررٌ عليه ، والمحشاة :
 مصدر خشية يحشاه خشية ومحشاة ومحشية : خافه ، وفي معنى هذا البيت يقول
 أبو العتاهية :

وقد يهلك الإنسان من بابٍ أتته وينجو بإذن الله من حيث يحذرُ
 والأصل في هذا قوله عز وجل : وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله
 فيه خيراً كثيراً ، وقوله : ولا خير فيمن لا يوطن نفسه ... البيت : نظيره
 قول كثير عزة :

أقول لها : يا عَزْزُ ، كلُّ مُصِيبَةٍ إذا وُطِّئَتْ يوماً لها النفسُ ذَلَّتْ

قال عبد الملك : لو قال كثير هذا البيت في صفة الحرب لكان أشعر الناس ،
 وفي الأثر : للمحن أوقاتٌ ولها غايات ، واجتهاد العبد في محنته قبل إزالة الله لها ،
 زيادة فيها قال تعالى : إن أرادني الله بضيرٍ هل هُنَّ كاشفاتُ ضرِّه أو أرادني
 برحمةٍ هل هُنَّ مُنْسِكَاتُ رحمته ، قلْ حَسْبِيَ اللهُ عليه يتوكلُّ المتوكلون ...
 وقولوا : المُمْتَحَنُ كالمُحْتَنَقِ كلما ازدادَ اضطراباً ازدادَ اختناقاً ... وحكى عن
 بعض الصالحين : أذا بنا له مات فلم يرَ به جزئٌ ، فقيل له في ذلك فقال : هذا أمرٌ
 كنا نتوقعه ، فلما وقع لم نُنْكِرْه ... وقالوا : من أراد طولَ البقاء فليوطن نفسه
 على المصائب ؛ وقالوا : المصيبة للصابر واحدة وللجازع اثنتان ، وقال أكرم بن
 صَيْفِي : حيلةٌ من لا حيلةَ له : الصبر . وسيد الكلام في الصبر قول المصطفى
 صلوات الله عليه : لو كان الصبرُ رجلاً لكان رجلاً كريماً الكريم ضد اللئيم ،

عود إلى أسباب الحزن

وقال الفيلسوف أبو يعقوب الكِنْدِيُّ : أسباب الحزن : فَقَدْ محبوب ، أُرِ
 بُوتُ مطلوب ، ولا يَسْلُمُ منهما إنسانٌ ، لأن الثباتَ والدوامَ معدومان في
 عالم الكَوْنِ والفساد ؛ وقال الحسن البصري : الدنيا دارُ غُمرٍ ، فمن عُوِجَلْ
 فُجِعَ بنفسه ، ومن أَجَلْ فُجِعَ بأجابه ؛ وقال بعض الفلاسفة : مَنْ أراد أن
 لا يُصابَ بِمُصِيبَةٍ ، فقد أرادَ ما لا يكون ، لأن المصائبَ في عالم الكون والفساد
 طبع بالطبع ؛ فيدبغى أن يكون منا على بال : أن جميع الأشياء التي تَصِلُ إلينا
 كانت قَبْلَنا لغيرنا ، فانتقلت إلينا على شريطة ما كان لمن قَبْلَنا ... وقيل لُسُقراطُ :
 مالك لا تجرُع ؟ قال : لأنني لا أفنني ما يحزُنُنِي فَقَدُهُ ... وقال ابن الرومي في
 هذا المعنى :

وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ لَا يَرَى مَا يَسُوؤُهُ فَلَا يَتَّخِذْ شَيْئًا يَخَافُ لَهُ فَقْدًا
 أَقول : يريدون بذلك : أنه لا بُدَّ في هذه الدنيا من المصائب مادام ، هناك
 قُنْيَةٌ من مال وولد وما إليهما من كل ما هو مُسْتَهْدَفٌ لِسَهَامِ الأَيام ، ومن
 أراد أن لا يصابَ فَلَا يَقْتَنِي ما يَسُوؤُهُ فَقْدُهُ - وَالْقُنْيَةُ لا بُدَّ منها في هذه الحياة
 الدنيا ، وإذن لا بد من توطين النفس وإعدادها لتَلْقَى المصائب ... وإذا كان
 هناك مَنْ يترامى بمثل هذا الكلام إلى الحثِّ على الزهد ، فهذا مَرْمَى آخر ،
 منهم مَنْ يفرِّعُ إليه لمثل هذا الغرض - تَوَقَّى المصائب ما أمكن - ولا غراض
 أخرى تراها بعد ... وقالوا : الجزعُ مَنْقَصَةٌ للحياة ، ومن أعان على نُقْصَانِ
 حياته ، فقد عَظُمَتْ خطيئته ... وقالوا : التأسف على الفائت تضييع وقتٍ
 ثانٍ ، إن كنتَ جازِعًا لما أَفَلَتْ منك فاجزَعْ على ما لم يَصِلْ إليك ؛ وقال

على كَرَمِ اللَّهِ وجهه : الصبر مَطِيَّةٌ لَا تَكْبُو ، والقنَاعَةُ سَيْفٌ لَا يَنْبُو . وقال
عمر رضى الله عنه : لو كان الصبرُ والشكرُ بَعِيرَيْنِ مَابَايْتُ أَيُّهُمَا رَكِبْتُ ؛
وقيل : الصبرُ يُنَاضِلُ الحَدَثَانِ ، والجَزَعُ من أَعْوَانِ الزَمَانِ ، وما فى الشكوى
إِلَّا أَنْ تُحْزِنَ صَدِيقَكَ وَتُشْمِتَ عَدُوَّكَ ؛ وقيل : اجْعَلْ صَبْرَكَ عَلَى النَوَائِبِ
كَفَاءً شُكْرَكَ عَلَى الْمَوَاهِبِ ، الصبرُ عِنْدَ النِّقَمِ ، والشكرُ عِنْدَ النِّعَمِ ، وقال
حكيم : جَمِيعُ مَكَارِهِ الدُّنْيَا تَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ ، ضَرْبٌ فِيهِ حِيلَةٌ ، فَالْأَضْطِرَابُ ^(١)
دِرَاوَةٌ ، وَضَرْبٌ لَاحِيلَةٌ فِيهِ ، فَالصَّبْرُ شِفَاؤُهُ ، وَقَالَتِ الْفُرْسُ : كَلِمَتَانِ
يَقُولُهُمَا الْعَاقِلُ عِنْدَ نَائِبَتِهِ : إِحْدَاهُمَا : هَذِهِ الْحَالُ خَيْرٌ مِمَّا هُوَ شَرٌّ مِنْهَا ،
وَالْآخَرَى : اءَلَّ اللَّهُ أَنْ يَحْمَلَ فِي هَذَا الْمَكْرُوهِ خَيْرًا وَكَلِمَتَانِ يَقُولُهُمَا الْجَاهِلُ :
لَعَلَّ مَا أَصَابَنِي يَدْعُو إِلَى شَرٍّ مِنْهُ ! وَالْآخَرَى : لَوْ كَانَ بَدَلُ كَذَا مِنْ
الْمُصِيبَةِ ! وَقَالُوا : الصبر على مرارة العاجل ، يُفِضُ إِلَى حَلَاوَةِ الْآجِلِ ،
إِنَّكَ لَا تَنَالُ قَلِيلَ مَا تُحِبُّ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى كَثِيرِ مَا تَكْرَهُ ، وَقَالُوا : لِكُلِّ شَيْءٍ
ثَمَرَةٌ ، وَثَمَرَةُ الصَّبْرِ الطَّفَرُ ، وَالصَّبْرُ كَاسِحُهُ ، وَعَاقِبَتُهُ الْعَسَلُ ، . وَالصَّبْرُ عَلَى
الْمُصِيبَةِ مُصِيبَةٌ عَلَى الشَّامِتِ . وَقَالَ عَلِيٌّ : إِنْ صَبَرْتَ فَأَنْتَ مُأْجِرٌ ، وَإِنْ جَزِعْتَ
جَزَى عَلَيْكَ الْمَقْدُورُ .

حُثُّهُمْ عَلَى تَصَوُّرِ الْمَصَائِبِ

وَالِاسْتِعْدَادَ لَهَا كَيْ تَخِفَّ وَطَأُهَا

وَقَالُوا فِي ذَلِكَ : مَنْ كَانَ مُتَوَقِّعًا ، لَمْ يُلَفَّ مُتَوَجِّعًا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ

(١) الاضطراب : يريد : الحركة والاحتياال في دفعه

- قيل لابن الرومي، ولم أرها في ديوانه، وإن كانت أشبه بمذهب ابن الرومي - :

أَلَمْ تَرَ رُزْءَ الدَّهْرِ مِنْ قَبْلِ كَوْنِهِ كِفَاحًا إِذَا فَكَّرْتَ فِي الْخَلَوَاتِ
فَمَا لَكَ كَالرَّيِّ فِي مَأْمَنِ لَهُ يَبْتَلِ أَتَنَّهُ غَيْرَ مُرْتَقَاتِ
فَإِنْ قُلْتَ مَكْرُوهٌ أَنَا فِي فُجَاءَةٍ فَمَا فُوجِئْتُ نَفْسٌ مَعَ الْخَطَرَاتِ
وَلَا عُوقِبْتُ نَفْسٌ يَبْلُوِي وَقَدَرَاتِ عِظَاتٍ مِنَ الْإِيَّامِ بَعْدَ عِظَاتِ
إِذَا بُعِثَتْ أَشْيَاءٌ قَدْ كَانَ مِثْلُهَا قَدِيمًا فَلَا تَعْتَدُهَا بَغَاتِ
وهذه الآيات من الوضوح والإنارة بحيث لا يعوزها شرح ، وقالوا :
ما أمتع الدهرُ إلا ليمع ، ولا أعطى إلا ليسترِد ، ولولا اغترارُ الجاهل
بعوائده ، لحلَّتِ النفوسُ من الحسرة على نواتبه ، وقالوا : لا تُخِلْ فِكْرَكَ
من عوارض الفكر وخواطر الذكر فيما تعروك به الأيام ، من ارتجاع
ودائرها ، وحلول وقائدها ، - وهذا ما قاله ابن الرومي آنفا ،

الغمّ يورث السقم والهَرَمَ

قال المتنبي :

وَالْهَمُّ يَخْتَرِمُ الْجِسْمَ نَحَافَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ
« يخترم : يستأصل ويقتطع ، والجسيم : العظيم الجسم ، والنحافة : الهزال ،
والناصية : شعر مقدم الرأس ، يقول : إن الحزن إذا استولى على
المرء أذهب جسمَ العظيم الجسد وهزله حتى يأتي عليه من الهزال ، ويشيب
الصبي قبل الأوان حتى يصير كالهرم من الضعف والعجز » ... وسئل عبد الله
ابن عباس عن الحزن والغضب فقال : أصلاهما واحد ، وذلك وقوع الأمر

على خلاف المحبة ، فأما فرعاها فخذلان ، فالمكروهُ مَنْ فوقك ينتج حزنا
ومنْ دونك يُنتجُ غضبا

هـ فحزنُ كلِّ أخِي حُزنِ أخو الغضبِ ^(١) *

الحزن يَبْلَى بتقادم العهد

وقالوا في الحزن يَبْلَى بعد انقضاء مُدَّة : الحُزنُ يَنْضُو عن ابن آدم كما
يَنْضُو الصَّبْغُ عن الثوب ^(٢) ولو بَقِيَ لَقَتَلَهُ .

وقال المتنبي :

إذا اسْتَقْبَلَتْ نَفْسُ الْكَرِيمِ مُصَابَهَا يَحْبُثُ ثَلَتْ فَاسْتَدْبَرَتْهُ إِطْيَبِ
وَالْوَاجِدِ الْمَكْرُوبِ مِنْ زَفَرَاتِهِ سُكُونٌ عَزَاءٍ أَوْ سُكُونٌ لُغُوبِ

هـ قوله : إذا استقبلت ... ألبت ، فالمصاب مصدر بمعنى الإصابة ، والحبث
هنا : الجزع ، والطيب هنا : الصبر وترك الجزع ، وثنت : صرقه - أى الجزع -
النفس ، يقول : إذا جزع الكريم - ضد اللثيم - فى أول نزول المصيبة ،
وراجع أمره ، عاد إلى الصبر والتسليم ، ومن لم يُوطِّن نفسه على المصيبة فى
أول الأمر صُعِبَ عليه عند وقوعها . وقوله : وللواجد المكروب ... ألبت

(١) للمتنبي فى مراثيه التى يرنى بها أخت سيف الدولة وأوله :

جَزَاكَ رَبُّكَ بِالْأَحْزَانِ مَغْفِرَةً حُزْنُ كُلِّ أَخِي حُزْنُ أَخِي الْغَضَبِ
يقول : غفر الله لك أحزانك إذا حزنت مما يستغفر منه ، لأن الحزن كالغضب من هو دونك إذا
أصابك بما تذكره والحزن من هو فوقك ، والإنسان إذا حزن على مصيبة تصديه فكأنه يغضب
على القدر حيث لم يجر بمراده ، والغضب على المقدور مما يستغفر منه

(٢) يقال : نضاً الخضاب ونضوا : ذهب لونه ونصل

يقول : لا بُدَّ للمحزون من سكون ، إما أن يَسْكُنَ عَزَاءً ، أو يَسْكُنَ إعياءً ،
وإذن تحقيق بالعافل أن يَسْكُنَ نَعْرِيًا ، كما قال محمود الوراق :
إذا أنت لم تَسَلْ اضطِباراً وحِسْبَةً سلوت على الأيام مثل البهائم
وكما قال أبو تمام :

أَتَصْبِرُ لِلْبَسَلَوَى عَزَاءً وَحِسْبَةً فَتُوجِرَ أَمْ تَسْلُوا سُلُوَ الْبَهَائِمِ
« الحسبة : طلب الأجر والثواب ،

ومن أحسن ما قيل من الشعر القديم ، في أن الحزن يبلى إذا تقادم عهده ،
قول أبي خراش الهذلي - شاعر مخضرم أسلم وهو شيخ كبير ، يوم حنين - :
على أنها تَعْفُو السُّكُومُ ، وإنما تُوكَلُّ بِالْأَذَى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي
وقبل هذا البيت :

حَدَّثَ إِلَهِي بَعْدَ عُرْوَةٍ إِذْ نَجَا خِرَاشٌ ، وَبَعْضُ الشَّرَّاهُونَ مِنْ بَعْضِ
فَوَالله : مَا أَتَيْتَنِي قَبِيلاً رُزْنَتُهُ بِجَانِبِ قَوْسِي مَا مَشَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ
على أنها تغفو الكلام ... البيت

ولم أَدِرْ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ سُلَّ عَنْ مَا جَدَّ مُحْضٍ
وكان من حديث هذا الشعر ، أَنَّ عُرْوَةَ بِنَ مَرْةَ أَخَا أَبِي خِرَاشٍ ، وَخِرَاشُ
ابْنُ أَبِي خِرَاشٍ ، اصْطَحَبَا فِي مُتَصَرِّفٍ لهُمَا : فَأَسْرَمَا بَطْنَانِ مِنْ
ثَمَالَةَ : بَنُو رَازِمٍ وَبَنُو بِلَالٍ - وَكَانَا مَوْتُورَيْنِ - فَاخْتَلَفَا فِي الْإِبْقَاءِ
عَلَيْهِمَا وَقَتْلَهُمَا ، فَقَالَ بَنُو بِلَالٍ إِلَى قَتْلِهِمَا ، وَتَفَاقَمَ الْأَمْرُ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ ، إِلَى
أَنْ صَارَ يُودَى إِلَى الْمَقَاتِلَةِ ، فَتَفَرَّدَ أُولَئِكَ بِعُرْوَةَ قَتَلُوهُ ، وَتَفَرَّدَ هُوَ لِبَخْرَاشِ
غُلَاظِهِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ : مُسْتَهْزِئاً لِلْفُرْصَةِ فِي الْإِسْدَاءِ ، فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ دَلِيلَاكَ ؟
فَقَالَ : قِطَاةٌ ، فَأَلْقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ وَقَالَ : أَنْجُ ، فَمَرَّ لِطَيْتِهِ ، فَلَمَّا انْحَرَفُوا لِلنَّظَرِ

في أمره قال لهم مُسِكُّهُ ! إنه أفلتَ ، فطردوه - أى تَبِعُوا خراشا - فأعيامهم ، فلما وصل خراش إلى أبيه وخبرته بما جرى على عُرْوَةٍ وبما آتفق من صاحبه في بابه ، اقتَصَّ قِصَّتَهُ في هذه الآيات ... وقوسى اسم مكان ، وقوله : على أنها تعفو الكلام ... أليبت فإن هذا يجري مجرى الاعتذار منه والاستدراك على نفسه فيما أطلقه من قوله : « لا أنسى قتيلا رُزئتَه ما مشيت على الأرض » أى مدة حياتي ؛ والضمير في أنها : للقصة ، وخبر أن : الجملة بعدها ؛ والعفاء : الدروس والذهاب ؛ والكلام جمع كلم ؛ ويعني به : الحز عند ابتداء الفجیعة ، وجلَّ : عَظُمَ ؛ يقول : لا أنساه ولو طال عهده وعفت آثاره ؛ وإنما قال هذا لأن الإنسان يُؤَكِّلُ بالجزع المصيبة القريبة العهد ؛ فأما المتقادم من الارزاء فإن مُضَيَّ الزَمَن يُغْفِيهِ . وقوله : ولم أدر ... أليبت ؛ قال الاصمعي وأبو عبيدة لانعرف من مدح من لا يعرفه غير أبي خراش ،

التأسي بمن مصابه كمصاب المصاب أو يُرَبِّي عليه

وقولهم في عكس ذلك

أما قولهم في عكس ذلك فأحسن ما قيل فيه قول ابن الرومي :

ليس تأسو كلوم غيري كلومي مابه مابه وماي وماي

« تأسو : تداوى ، والكلام : الجروح ، وقبل هذا البيت - وهي آيات يندب بها الشباب - :

بها الشباب - :

ياشبابي ! وأين مني شبابي ؟ أذنتي حباله بانقصاب

لطف نفسي على نعيمى ولهوئى تحت أفنايه اللدان الرطاب

ومعز عن الشباب مؤس بمشيب اللدات والتراب

قلت - لما انتحى يعدُّ أساه من مُصابٍ شبابه فمُصاب :
 ليس نأسو كلوم غیری کلومی ألييت
 وأما قولهم في التأسي بمن مصيبتهم كمصاب المصاب أو تُربى عليه فمن ذلك
 قول أفلاطون لرجل رآه مغموماً : لو أحضرت قلبك ما فيه الناس من
 المصائب ، لقلَّ همُّك ... « انظر مقالة الكاتب أديسون آخر هذا الباب » ...
 وقالت الخدساء :

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
 وما يبيكون مثل أخي ولكن أسألي النفس عنه بالتأسي
 وقال حرث بن سلة بن مُرارة بن مُحفص ، أحد بني خزاعي بن مازن -
 شاعر جاهلي - :

ولولا الاثني ما عشت في الناس بعده ولكن إذا ما شئتُ جاؤ بني مثلي

« عروة بن الزبير »

« مثل أعلى للصبر والتأسي »

كان عروة بن الزبير ، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، وابن الزبير بن العوام
 - أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وابنِ صفية عمّة سيدنا رسول الله - وشقيق
 عبد الله بن الزبير - الذي ولي الخلافة في الحجاز حينما من الدهر أزمان بني أمية
 والذي تولى قتله الحجاج - وأُم عروة أسماء بنت أبي بكر الصديق - وهي ذات
 النطاقين ^(١) ، وغالته عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها ، وكان عالماً صالحاً ،

(١) النطاق : شقة أو ثوب تلبسه المرأة ثم تشد وسطها بحبل ثم ترسل الأعلى على
 الأسفل إلى الركبة عند معاناة الأشغال لئلا تعثر في ذيلها ، وكان لاسماء نطاقان تلبس

أقول : كان عروة هذا من قوة الإيمان والتسليم والرضا بالقدر خيريه وشره ورجحان العقل ، بحيث يُعَدُّ مثلاً أعلى للصبر والتسلي ، وذلك أنه وقد من المديته على الوليد بن عبد الملك بِدِمَشَقَ - عاصمة الأمويين - وكان معه ابنه محمد - وكان من أجل الناس ، فيقال : إن الوليد عانته - أصابه بعينه - فدخل محمد دار الدواب ، فضربته دابةً فخر ميتيناً ، ووقعت في رجل عروة الأكلة - داء في العضو يأكل منه - ولم يدع ورده تلك الليلة ، فقال له الوليد : أقطعها وإلا أفسدت عليك جسديك ، فلما دعى الجزار ليقطعها قال له : نسقيك الخمر حتى لا تجرد لك ألباً ، فقال : لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية ، قالوا : نسقيك المُرْقِدَ « دواء يُرْقِدُ شاربَه كالأفيون » قال : ما أحب أن أَسْلَبَ عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه « احتسبه : أطلب به الأجر » . ودخل عليه قوم أنكرهم فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : يُمسكونك فإن الألم ربما يعزب مع الصبر « يعزب : يبعد » قال : أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي ، ففُطِعت كعُبه بالسكين ، حتى إذا بلغ العظم وُضِعَ عليها المِشْمار ، ففُطِعت وهو يُهلل ويُسكبر « يهلل : يقول : لا إله إلا الله ، ويسكبر : يقول : الله أكبر » ثم إنه أُغِلِّيَ له الزيت في مغارف الحديد ، فحَسِمَ به ، ففُشِيَ عليه ، فأفاق وهو يَمْسَحُ العرق عن وجهه ، ولما رأى القدم بأيديهم دعا بها فقلبها

أحدهما وتحمل في الآخر الزاد إلى سيدنا رسول الله وأبي بكر وهما في الغار ، فلذلك سميت ذات النطاقين ، وروت عائشة : أن النبي صلوات الله عليه لما خرج مع أبي بكر مهاجرين صنعنا له مسفرة ، طعام المسافر ، في جراب « وعاء من جلد » ففُطِعت أسماء بنت أبي بكر من نطاقها وأوكت به الجراب « شدته بالوكاء : الحبل الذي يشد الوعاء » ، فلذلك كانت تسمى ذات النطاقين

في يده ، ثم قال : أما والذي حَمَلَنِي عَلَيْكَ ، إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنِّي مَامَشَيْتُ بِكَ إِلَى حَرَامٍ ، وَلَمَّا دَخَلَ ابْنُهُ إِصْطَبِلَ الْوَلِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَقَتَلَتْهُ الدَّابَّةُ كَمَا تَقَدَّمَ لَمْ يُسْمَعْ فِي ذَلِكَ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا قَوْلُهُ « لَقَدْ لَقَيْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ، وَلَمَّا قُطِعَتْ رِجْلُهُ قَالَ : اللَّهُمَّ ، إِنَّهُ كَانَ لِي أَطْرَافُ أَرْبَعَةٍ فَأَخَذْتُ وَاحِدًا وَأَبْقَيْتُ لِي ثَلَاثَةً ، فَكَانَ الْحَمْدُ ، وَأَيُّمُ اللَّهِ ، لَنَنْ أَخَذْتُ لَقَدْ أَبْقَيْتُ ، وَلَئِنْ أَبْتَلَيْتُ لَقَدْ عَافَيْتُ ... وَلَمَّا مَاتَ ابْنُهُ وَقُطِعَتْ رِجْلُهُ ، وَقَدْ فِي هَذِهِ الْإِيَامِ عَلَى الْوَلِيدِ قَوْمٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ فِيهِمْ رَجُلٌ ضَرِيرٌ ، فَسَأَلَهُ الْوَلِيدُ عَنْ عَيْنِيهِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، بَتُّ لَيْلَةً فِي بَطْنٍ وَادٍ وَلَا أَعْلَمُ عَبْسِيًّا يَزِيدُ مَالَهُ عَلَى مَالِي ، فَطَرَقْنَا سَيْلٌ فَذَهَبَ بِمَا كَانَ لِي مِنْ أَهْلٍ وَوَلَدٍ وَمَالٍ ، غَيْرَ بَعِيرٍ وَصَبِيٍّ مَوْلُودٍ ، وَكَانَ الْبَعِيرُ صَعْبًا ، فَتَدَّ ، فَوَضَعْتُ الصَّبِيَّ وَاتَّبَعْتُ الْبَعِيرَ لَمْ أَجَاوِزْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى سَمِعْتُ صَيْحَةَ ابْنِي وَرَأْسَهُ فِي فَمِ الذَّنْبِ وَهُوَ يَأْكُلُهُ ، فَلَحَقْتُ الْبَعِيرَ لِأَحْبِسَهُ فَتَفَخَّنِي بِرِجْلِهِ « ضَرْبُهُ بِحَدِّ خُفِّهِ » عَلَى وَجْهِهِ ، فَخَطَمَهُ وَذَهَبَ بَعِينِي ؛ فَأَصْبَحْتُ لَا مَالَ لِي وَلَا أَهْلًا وَلَا وَلَدًا وَلَا بَصَرَ ؛ فَقَالَ الْوَلِيدُ : انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى عُرْوَةَ لِيَعْلَمَ أَنَّ فِي النَّاسِ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ بِلَاءً ...

وَمَنْ عَزَى عُرْوَةَ : إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ طَاهِرَةَ قَالَ لَهُ : وَاللَّهِ مَا بَكَ حَاجَةٌ إِلَى الْمَشْيِ وَلَا أَرَبُ فِي السَّعْيِ ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَكَ عُضْوٌ مِنْ أَعْضَائِكَ وَإِنْ مِنْ أَبْنَائِكَ ؛ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْكُلُّ تَبِعُ لِلْبَعْضِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ؛ وَقَدْ أَبْقَى اللَّهُ لِنَامِكَ مَا كُنَّا إِلَيْهِ فَقَرَاءَ ؛ وَعَنْهُ غَيْرُ أَغْنَاءَ ، مِنْ عِلْمِكَ وَرَأْيِكَ ؛ نَفْعَكَ اللَّهُ وَإِيَانَا بِهِ وَاللَّهُ وَلِيُّ ثَوَابِكَ ؛ وَالضَّمِينُ بِحَسَابِكَ ...

مطرح الهموم

وهذه كلمة طريفة في معنى ما نحن بصدده، كتبها الكاتب «أديسون» ونقلها المرحوم محمد السباعي إلى مجلة البيان التي كان يقوم بإخراجها مؤلف هذا الكتاب، قال أديسون :

«مَا يُؤْثِرُ عَنْ الْحَكِيمِ سُقْرَاطُ أَنَّهُ قَالَ : إِذَا جُمِعَتْ مَصَائِبُ الْبَشَرِ كُلُّهَا فِي وَاحِدٍ ، ثُمَّ قُسِمَتْ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ بِالسَّوَاءِ لَأَصْبَحَ مَنْ كَانَ يَحْسِبُ نَفْسَهُ أَشَقَى النَّاسِ وَأَخْسَرَهُمْ يُفَضِّلُ أُولَى الْحَالَتَيْنِ عَلَى الثَّانِيَةِ ، وَجَاءَ بَعْدُ سُقْرَاطُ الشَّاعِرِ الرُّومَانِيِّ «هُورَاسُ» ، فَعَدَّلَ هَذَا الْمَعْنَى فَقَالَ : إِنْ مَا يُكَابِدُ أَحَدُنَا مِنَ الْمَصَائِبِ أَخْفُ عَلَيْهِ مِنْ مَصَائِبِ أَى إِنْسَانٍ آخَرَ إِذَا وَقَعَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ تَبَادُلٌ... فَبَيْنَا أَنَا ذَاتَ يَوْمٍ مُتَّكِئٌ فِي خَلْوَتِي أَفَكَّرْتُ فِي هَاتَيْنِ الْحِكْمَتَيْنِ وَقَدْ أَخَذْتَنِي سِنَةٌ مِنَ النَّوْمِ إِذْ نُحِيلُ إِلَى أَنَّهُ بِأَمْرِ إِلَهٍ الْإِلَهَةِ قَدْ نُودِيَ فِي النَّاسِ : أَنْ يَحْمِلَ كُلُّ امْرِئٍ مَصَائِبَهُ فَيَأْتُوا بِهَا جَمِيعاً فَيَطْرَحُوهَا بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، فِي سَهْلٍ فَسِيحٍ ، فَرَقَقْتُ وَنَسِطْتُ ذَلِكَ السَّهْلَ ، وَسَرَنِي أَنْ أَرَى النَّاسَ طُرّاً يَأْتُونَ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ يُلْقُونَ أَثْقَالَهُمُ الْقَدِيدَةَ ، حَتَّى ارْتَفَعَ مِنْ بِجْمُوعِهَا جَبَلٌ طَالَتْ ^(١) ذَوَابِتُهُ السَّحَابِ ..

وكان هنالك امرأة نحيلة خفيفة قد شَمَرَتْ عَنْ سَاعِدِ الْجِدِّ وَشَطَطَ هَذِهِ

(١) سميت فوق السحاب قال :

إِنَّ الْفِرْزْدَقَ صَخْرَةً عَادِيَةً طَالَتْ - فَلَيْسَ تَنَالُهَا - الْأَجْبَالَا

فليس تنالها جملة معترضة والأجبالا مفعول طالت والتقدير : طالت الأجبالا فليس تنالها الأجبالا .

الخلائق، تحمِل في إحدى يديها مجَهْرًا، وعليها ثوبٌ تفضفاضٌ هفهافٌ سابِغٌ
الذَّيلُ مُوَسَّى بعددٍ عديدٍ من تصاوير الجان والعفاريت، كلما ضربت الريح
الجلبابَ تَلَوْنَتْ وتشكَّلت تلك التهاويلُ أشكالًا وألوانًا؛ وكان في عينها وآهٌ
وتلهُفٌ وحيرةٌ، وكان اسمُها «الوهم» وهي التي كانت تسوقُ كلَّ فردٍ من
البشر إلى المكان المعين بعد إغاثتها إياه على ربط حُزْمَتِهِ وحَبْكِيهَا وإلقائها على
عاتِقِهِ، فأذاب قلبُ رُؤْيَاهُ إِخْوَتِي وأبناء أُمِّي وأبى ينوونَ بأحلامهم. ويذُنون
تحت أُنْقَالِهِمْ؛ وَفَتَتْ كَيْدِي أَنْ أَبْصَرَ ذَلِكَ الْجَبَلَ الْبَاذِخَ الَّذِي مِنْ أَحْزَانِهِمْ
تَسْكُونُ، ومن آلامهم تألَّف، على أَنَّهُ أَلْهَانِي عِنْدَ ذَلِكَ، وَسَلَّانِي هُنَاكَ؛
عِدَّةٌ مِنَ الْقَوْمِ، لغريب أحوالهم وَعَجِيب هَيْئَاتِهِمْ؛ فَمِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ رَجُلٌ فِي
حُلَّةٍ مُطَرَّزَةٍ أَقْبَلَ يَسْعَى حَتَّى جَاءَ الْمَكَانَ، فَأَخْرَجَ مِنْ تَحْتِ حُلَّتِهِ الْمَوْشَاةَ
الْمَرْكَشَةَ خَمَلًا، فَأَلْقَاهُ فَحَدَّجَتْ بَيْصَرِي أَتْبَيْنُهُ، فَإِذَا هُوَ: الْفَقْرُ؛ وَأَقْبَلَ
آخَرُ يَرْزُحُ تَحْتَ ثِقَلِهِ، وَبَعْدَ كَثِيرٍ مِنَ التَّنَفُّسِ وَالزَّفِيرِ أَلْقَى خَمَلَهُ؛
فَنَظَرْتُ؛ فَإِذَا هُوَ: زَوْجَتِي؛ وَرَأَيْتُ عِدَدًا عَدِيدًا مِنَ الْعُشَّاقِ عَلَى كَوَاهِلِهِمْ
أُنْقَالُ عَجِيبةٍ مِنْ سَهَامٍ وَسُعْلٍ؛ وَلَكِنْ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ بَرَّغَمَ مَا رَأَيْتُهُ يَكَادُ
يُمَزِّقُ قُلُوبَهُمْ مِنْ غُلَواءِ الْوَجْدِ وَبُرْهَاءِ الْكَمَدِ؛ وَبَرَّغَمَ زَفَرَةَ لَهُمْ تَرَقَّى؛
وَعَبْرَةَ لَا تَرَقَا^(١) كَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ مَطَاوَعَةَ عَقُولِهِمْ عَلَى إِقَاءِ تِلْكَ الْأَثْقَالِ
عِنْدَ مَا بَلَّغُوا الْكَثِيبَ؛ وَلَكِنَّهُمْ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الْمَحَاوَلَةِ — مَحَاوَلَةِ الْمُتَشَاوِلِ
الْمُتَكَرِّرِ — هَزُّوا رُؤُسَهُمْ وَرَجَعُوا بِأَثْقَالِهِمْ أَشَدَّ ثِقَلًا وَأَفْدَحَ
خَمَلًا، وَأَبْصَرْتُ كَثِيرًا مِنَ الْعَجَائِزِ يُلْقِينَ تَغَايِضِينَ وَجُوهَهُنَّ

(١) أى: لا تفيض ولا تنجف وأصل ترقا: ترقا فخفف، وترقى الأولى: ترتفع

وكثيراً من الفتيات يُلقين سُمرَ جلودهنّ . ورأيت كوماً ^(١) من أنوف حمراء
 وأسنان قلعاء ^(٢) وشفاةٍ فلعاء ^(٣) . والعجب العجائب أني رأيت معظم الجبل
 مؤلفاً من غاماتٍ بدنية . وآفاتٍ جسدية ، ثم لحثُ من بعيد رجلاً على ظهره
 رجلٌ لم أرَ في سائر الاحمال ما يُدانيه عظاماً ، فأنعمتُ النظرُ فإذا هي حذبة ،
 فألقاها - فرحاً بذلك - بين سائر البلايا الآدمية . ورأيت كذلك عملاً وأمراضاً
 من كلِّ ضربٍ وصنّفٍ ، غير أني رأيت الوهمي من ذلك أكثر من الحقيقي
 وشاهدتُ بين هذه نوعاً قد أُلّف من جميع الأمراض والعِلل يحمله في الأكف
 عددٌ عظيمٌ من ذوى النعمة والرفاهية ، واسمُ هذا الداءِ : المَلَلُ ، وأعظمُ
 عَجبي وحيرتي أني لم أرَ أحداً قطُّ أُلقي بين هذه الآفاتِ والمصائبِ شيئاً مما
 ابتليتُ به نفوسُ البشر من الرذائل والحماقات والأضاليل والنقائص والسخافاتِ
 والباطيل ، فأدهشني ذلك أيّما دهش ، إذ كنتُ قد ظننتُ أنها فرصةٌ لا يدعُها
 أحدٌ حتى يظهرَ نفسه من أدران الأهواءِ والشهوات . ويُخلصُ طبعه من
 أكدار العيوب والعورات . ورأيت في الجماعة رجلاً فاسقاً لم أشك في أنه جاء
 مُثَقلاً بأوزاره وآثامه : قلباً أقبلتُ على مارماه أفتشهُ أَلقيتُ أنه لم يَرِم شيئاً
 من تلك الذنوب والآثام وإنما رَمَى ذاكرته ، وتبعه رجلٌ ساططٌ جاهلٌ ،
 فنظرته فإذا هو قد نبذَ حياته لا جهله ... ولما فرغ الناس من طَرَجِ ألقاهم
 وفرغتِ الجنيّة النحيلة الخفيفة ^(٤) من عملها ، وكانت قد رأت مني رجلاً ينظرُ

(١) جمع كومة ، يقال : كَوم كومة بالضم : إذا جمع قطعة من تراب ورفع رأسها
 ونظيره : الصبرة من الطعام

(٢) القلح : صفرة في الأسنان

(٣) فلعاء : مشقوقة

(٤) الوهم كما يذكر التماري

وَلَا يَعْمَلُ، دَنَتْ مَنِّي، فَلَمْ يَرْغَبْ إِلَّا رَفْعَهَا الْمِجْهَرُ إِزَاءَ عَيْنِي، وَكُنْتُ أَعْرِفُ فِي وَجْهِ الْقِصْرِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ تَنَاهَى قَصْرَ أَحْتَى عَادَ أَبْشَعَ شَيْءٍ، فَسَاءَ فِي مَنْظَرِهِ، فَأَلْقَيْتُهُ كَمَا يُلْقَى الْقِنَاعَ. وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ بِيْرُهُ أَبْصَرْتُ رَجُلًا رَمَى بِوَجْهِهِ لِفَرْطِ طَوْلِهِ، وَكَانَ أَطْوَلَ وَجْهِهِ حَتَّى لَذَقْتُهُ وَحَدَّاهَا تَطَوَّلُ^(١) وَجْهِهُ بِأَكْمَلِهِ، فَاسْتَرَاحَ مِنْ مَصِيبَتِهِ وَاسْتَرَحْتُ، وَاسْتَرَاحَ الْخَلْقُ طُرًّا؛ وَأُطْلِقَ لِكُلِّ أَمْرٍ أَنْ يَسْتَبْدِلَ يَكْلُوهُ مِحْنَةً غَيْرَهُ.

على أنه لم يبق في الجمع إلا متعجب من هذه المحن كيف عدها أهلها محناً وكيف كان قد غرَّبها وُحْدِعَ فيها، خَسِبَهَا نَعْمًا وفوائدنا وبيننا نحن تتأمل خليط المصائب، ومزيج التوائب، صدر أمر الإله الأكبر أن يستبدل كل امرئ بمصائبه ويرجع إلى مثواه بحظه الجديد، عند ذلك تحركت «الوهم»، وقسمت الكتيب في أخف نشاط وأكمل سرعة، فأعطت كلاً نصيبه، - وكان بالبراع يعجز أن ينعت ما حدث إذ ذاك من هرج ومرج^(٢)، ثم كانت أمور كثيرة أذكر الآن بعضها:

رَمَى شَيْخٌ كَبِيرٌ عَلَى كَثِيبِ الْمَصَائِبِ عِلَّةً كَانَتْ فِي بَطْنِهِ، وَكَانَ عَاقِرًا، يَتَمَنَّى وَلَدًا يَكُونُ عِمَادَ شَيْخْرَتِهِ وَوَارِثَ ثَرْوَتِهِ، فَدَّ يَدَهُ لِيَتَعْتَاضَ مِنْ دَائِهِ الَّذِي طَرَحَهُ فَاخْتَطَفَ وَلَدًا فَاجِرًا عَاقًا، كَانَ آفَةً أَبٍ لَهُ، وَكَانَ ذَلِكَ الْآبُ قَدْ نَبَذَهُ فِي النَّبَاتِ^(٣) يَرِيدُ بِهِ بَدِيلًا، وَقَدْ أَخَذَ بَدْلَهُ مَرَضَ الْبَطْنِ الَّذِي رَمَى بِهِ الرَّجُلُ الْأَوَّلُ. فَلَمْ تَمُضْ إِلَّا بَرَّةٌ حَتَّى رَأَيْتَ ذَلِكَ الْغَلَامَ قَدْ ثَارَ بِالشَّيْخِ الْكَبِيرِ فَأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ وَنَاصِيَتِهِ، وَهَمَّ أَنْ يَفْلِقَ رَأْسَهُ. فَاهُوَ إِلَّا أَنْ أَبْصَرَ الْآبُ

(١) يزيد عليه طولاً (٢) اختلاط (٣) المنبذات، أى: الأشياء المنبوذة
يعنى بها الآفات التي كان الناس يرمونها تخلصاً منها وليتناقضوا بدوها

الأصلي، وكان يسعى نحوَه بمسكا بحشاه من وجع المعدة حتى صاح به :
يرحمك الله وإيانا، خذْ ولذلك بارك الله فيه وأعطى عِلَّتِي، ولكن قُضِيَ
الامر، وكان مالا يكونُ تبديله، ولا يُستطاع تحويله ...

يا ابنُ بُورَان لا مفرَّ منَ الله ولا منَ قضائه المحتوم

ورأيت أسيراً مُقَيَّدًا خُلعَ قَيْدِه، وقُلعَ صَفْدِه، فاعتاض منه النِقِرِسُ^(١)
ولكن أبَدَى من التَّأَوِه والتَّأَقِّفِ والتَّلَوَى والتَّنَزَّى ما دَلَّ على أنه لم يكن
في تجارتِه تلك بالراجح الصَّفقة .

ولقد كان من المُمْتِنِعِ اللَّأَذَّ أَنْ تُبَصِّرَ ما وقع إِذْ ذاك من المبادلاتِ
والمقايضاتِ، من عِلَّةٍ بِخَلَّةٍ^(٢) وجوعٍ يَفْقِدَانِ شهوةً، وهَمٍّ وتسهيده، بأَمْرِ
وتقييدٍ . أما النساءُ فكنَّ من تبادُلِ الأَعْضاء - أعضاء الوجه والجسم - في
شُغْلِ شَاغِلٍ، فواحدةٌ تَسْتَعِضُ لِمَّةً شَمَطَاءَ، من جلدةٍ سَمراءَ، وثانيةٌ تأخذ
عُنقا قصيرا، وتُعْطَى أنفًا كبيراً، وثالثةٌ تَرْمِي عِرْضاً مَفْضُوحاً . وتَلَقِطُ وجهها
مقبوحاً، وما مِنْهُنَّ إِلَّا من تُدْرِكُ في الحال أنها اعتاضت من سَيِّئٍ أسوأ،
ومن رديءٍ أَرْدَأَ، وكذلك حال سائرِ الجمعِ في كلِّ بليَّةٍ وآفةٍ، لَعَلَّه لَأَنَّ
ما أَصابنا به الله مُنَاسِبٌ لمقدارِ صَبْرِنَا واحْتِمَالِنَا، أو لَأَنَّ كلَّ مُصِيبَةٍ تَدُلُّهَا
العادة ...

فقلت لها : يَا عَزُّ، كُلِّ مُصِيبَةٍ إِذَا وَطَّئَتْ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتْ
ولقد رَحِمْتُ من صميمِ مُهْجَتِي ذلكَ الاحْدَبَ الْإِنْفَ الذَّكْرَ، إِذْ راح معتدلاً
القامَةِ وَافِيَ الشَّطَاطِ، لكن يَداءَ في كُلاه؛ وعِلَّةٌ في حَشَاه، كما رَحِمْتُ مُعَاقِدَهُ
وَمُبَايَعَهُ الَّذِي راح مُخْدَوِدَ الظَّهْرِ يَطَّاعُ وَسْطِ رَبِّ من الفتياتِ كُنَّ قَبْلَ به مَوَاعَاتِ

(١) من مرض بفقر (٢) داء في الرجلين يمنعهما من الحركة .

وفيه هائمات . ولست ناسياً ذِكرَ شأني وشأنِ ذِي الوجهِ الطويل ، فإن ذلك الرفيقَ ما كادَ يأخذُ وجهي القصيرَ حتى أضحى فيه أعجوبةً الأعاجيب ، فاستلقيتُ ضاحِكاً من وجهي حتى أخجلتُ وجهي ، وأدرك الرجلُ المسكينُ خطيئته وعَرَفَ غَلَطَته ، فحجل واستحى ، غير أني ما لبثتُ أن فُتُّ^(١) إلى نفسي فعلمتُ أنه ليس لي أن أزهى وأختال وأسخرَ من الغيرِ وأنا سُخرَةٌ ، وأضحك منهم وأنا ضُحكة^(٢) ، وإن لي في غرابية هيتي لشُغلاً عن اللهو بهيناتِ الناسِ ومندوحةً ، وذلك ، أيها القارئ ، أني رفعتُ يدي أريدُ جَنَهي فلم تقعِ لِطولِ وجهي إلا على الشَّفةِ العليا ، وكذلك بينا أنا أُجِيلُ يدي في وجهي أريدُ إحدى عيني صَكَتْ يدي أنفي ، لِبروزِهِ وضخامَتِهِ ، مِراراً .

ثم نظرتُ ناحيةً مني فأبصرتُ رَجُلين في مثلِ حالِنا من السُّخرية قد أحداثا تبادلًا في زوجين من الأرْجُل ، زوج غليظ أعوج قصير ، وزوج طويل نحيل ، فكان صاحبُ الرَجُلين النحيلين كأنما قد رُفِعَ في الهواءِ على عمودَي بيتٍ ، فهامته تدورُ مع الرِّيح حينما دارت ، وأما صاحبُ الرَجُلين العَوَجَوينِ القصيرين فكُلما حاولَ السَّيرَ دارَ في مكانِهِ لا يَبْرُحُهُ . ولما رأيتُ على نُحْيَاهِ سِيباً الحِلْمِ والظُّرفِ والفكاهةِ أقبلتُ عليه أمارحُه فقلتُ له : سأجعلُ لك كذا وكذا إنِ استطعتَ أن تبلغَ هذا ، ورسمتُ له خَطًّا على مسافةِ ذِرَاعينِ من مُرَمِّي قَدَمَيْهِ ، في مُدَّةِ نصفِ ساعة .



وأخيراً تمَّ توزيعُ كَثِيبِ الْحَبِّ والآفاتِ على أهلِها ، من ذِكرٍ وأنثى .

(١) رجعت (٢) يقال : فلان مخررة كسفرة : يسخر منه ، وسخره كهزة :

يسخر من الناس ، وضحكة يسكون الحياء : يضحك منه ويفتحها : كثير الضحك

وأقبلوا جميعاً تحت أنفائها الجديدة رُزحاً حَسْرَى . وَلَهَا حَيْرَى . وقد مَأْوَا
السَّهْلَ وَالْحَزْنَ صَجَّةً وَأَيْنَا . وَرَنَّةً وَحَيْنَا . ثم أدركتهم رحمة الله ، فأمرهم
بَطَرْحِ أَنْفَائِهِمْ كَرَّةً أُخْرَى ، فالتقوا فَرِحِينَ بِإِقَاتِهِمْ مَسْرُورِينَ . وَأَمَرَ الْوَهْمَ ،
تلك الشيطانة التي غَرَرَتْ بِهِمْ وَضَلَّتْهُمْ ، أَنْ تَنْصَرِفَ ، فَانصرفتْ ، وَأَرْسَلَ
الْإِلَهُ بِدَلِّهَا مَلَكًا كَرِيمًا ، جِدَّ مُخَالَفٍ لَهَا هَيْئَةً وَشَكْلًا . مُبَايِنًا لَهَا خُلُقًا وَخُلُقًا ،
رَزِينَ الْحَرَكَاتِ ثَابِتَ الْجَنَانِ ، قَدْ جَمَعَ فِي هَيْئَتِهِ بَيْنَ الطَّلَاقِ وَالْجِدِّ وَالْوَقَارِ وَالْبِشْرِ ،
لَا يَنْفَكُ مِنْ حِينَ إِلَى آخِرٍ يَرْفَعُ نَحْوَ السَّمَاءِ طَرْفَهُ ، وَيُسْمُو إِلَى عَرْشِ اللَّهِ
بِأَسْمِهِ ؛ وَأَسْمُ هَذَا الْمَلِكِ . الصَّبْرُ ، وَأَعْجَبُ مَا رَأَيْتُ أَنْ هَذَا الْمَلِكُ مَا قَامَ بِجَانِبِ
جَبَلِ الْأَلَامِ إِلَّا وَأَخَذَ الْجَبَلَ يَهْبِطُ وَيَضُولُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ رُبْعِهِ ،
ثُمَّ أَعَادَ مَلِكُ الصَّبْرِ إِلَى كُلِّ حَظَّةٍ الْأَوَّلَ ، وَأَلْهَمَهُ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ ، وَأَشْعَرَ نَلْبَهُ
قُوَّةَ الْجَلْدِ وَنُورَ الْيَقِينِ ، فَرَأَحَ مُغْتَبِطًا سَعِيدًا يَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ مَا عَاطَاهُ ، ثَابِتًا بِمَا
أَقْرَفَهُ مِنَ الْجَهْلِ وَجَنَاهُ .

فَمَا أَفَدْتُ مِنْ هَذِهِ الْعِظَاتِ وَالْعِبَرِ أَنِّي لَسْتُ حَقِيقًا أَنْ أَتَبَرَّمَ بِشَيْءٍ مِنْهَا
يُصِيبُنِي بِهِ اللَّهُ أَوْ أَنْفَسَ عَلَى امْرِئٍ هِبَةٌ أَوْ نِعْمَةٌ ، إِذْ كَانَ مُسْتَحِيلًا عَلَى امْرِئٍ
أَنْ يَعْلَمَ حَقِيقَةَ جَارِهِ وَيَعْرِفَ سِرَّ صَاحِبِهِ وَيَقِفَ عَلَى مَبَايِغِ أَحْزَانِهِ وَأَشْجَانِهِ
وَكُرْبِهِ ، وَنُوبِهِ ، وَبَلَايَاهُ ، وَرَزَايَاهُ ، فَكُلُّ لُكْلٍ سِرٌّ غَائِضٌ وَخِزَانَةٌ مُقْفَلَةٌ
وَسِفَرٌ مُطَبَّقٌ . وَلَكِنِّي آلَيْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَخَذَ نَفْسِي ثَلَاثَ : كِتَابَانَ الْعِلَّةِ ،
وَكِتَابَانَ الْفَاقَةِ ، وَكِتَابَانَ الْمَصِيبَةِ ، مَعَ الصَّبْرِ عَلَيْهَا جَمِيعًا ، وَأَنْ لَا أَحْسُدَ أَمْرًا عَلَى
شَيْءٍ ، وَأَنْ أَكُونَ أَبَدًا حَاضِرَ الصَّفْحِ لِلنَّاسِ ، وَاسِعَ الْعَفْوِ ، إِذْ كَانَ أَعْقَلُ
النَّاسِ أَعْذَرَهُمُ لِلنَّاسِ ...

عقرياتهم في الدنيا

وأنها دار يحن وأكدار

ولأن الدنيا التي أَسَمَّاها سيدنا رسول الله : أَمَّ دَفْرٍ - والدَّفْرُ ، النَّتْنُ ، دَفْرًا دافراً لهذه الدنيا - أقول : لما كانت هذه الدنيا دارَ مَصَائِبَ وَحَيْنٍ وأكدار ، وحسبك بهادم اللذات - الموت - الذي فَضَحَ هذه الدنيا وبَيَّهَا أَيْمًا فضيحة والذي هو نهاية كل حي ، من مصيبة أى مصيبة - لأجل هذا قال الأوائل والأواخر في هذه الدنيا وأبدعوا وافتنوا كلَّ الافتنان ؛ ونحن فسوف نورد عليك أطيب ما قالوا في ذلك ، لما بينه وبين الصبر من وإشجة الرحم ، ولأنه كلامٌ خالد ، لأنه حق وصدق ، لا يلىق بعاقِلٍ أن لا يكثر له ، وإنما الواجب أن يجعله دائماً نُصَبَ عينيه ، وأن ينظر إليه نظرة رجل ثاقب الرأى بعيد أفق الفكر . لانظرة رجل أحق مُمْتَآخِ العقل أعمته أباطيل هذه الحياة وألْهُهُ التَّكَاثُرُ وَهَرَجُهَا عن كُنْهها فارتطم في أوحالها وصار يَمْلَخُ في لذائذها تَمْلَخاً ، لاهياً عن المنهاة المؤسفة التي تنتظرنا جميعاً ، جالِباً بنفسه على نفسه ما يضاعف آلامها ، لا ما يخفف أحزانها ويهون ما أمكن شدائدها وأكدارها . ونحن إذ نورد في هذا الكتاب ما قالوا في الدنيا فإننا لاندعو إلى الزهد فيها وفي تعميرها - كما سيمر عليك في هذا الفصل - ولكن مادام كِتَابُنَا في عقريات الأوائل والأواخر ، في كل شيء ، كان واجبا علينا أن نورد عقرياتهم في الدنيا ، وفي الموت ، كما نورد عقرياتهم في سائر المماني التي يعالجها الناس ويتداولونها فيما بينهم ، على أنهم إذ ذموا الدنيا إنما يترامون بذلك دَوَّلاً ، إلى أن يَصْدَدُوا بالحقيقة قهرى أن الدنيا في الواقع دار أحزان وأكدار ، ودثانياء إلى حت الناس على الإجمال في الإقبال عليها ، والتعقل في

التهافت على شهواتها، والاعتبار بعبثها، والتزود فيها لما بعدها، ومن يُنكر أن ذلك جميل ونافع ! ذم رجل الدنيا بحضرة علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال علي: آسكت، إني الدنيا دارُ صديق لمن صدقها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مهبط وحى الله، ومَنجى أوليائه... إلى آخر ما قال. ومن كلامه أيضا رضوان الله عليه: الناس أبناء الدنيا ولا يُلام المرء على حُب أمه... وسيمر عليك كثير من أمثال هذا...

أسماء الدنيا

الدنيا: اسم لهذه الحياة، وتُكنى الدنيا: أم دُفْر، أسماها بذلك - كما أسلفنا - سيدنا رسول الله، والدُفْر: النَّنْ، وتُكنى كذلك: أم شملة، أنشد ابن الأعرابي:

مِنْ أُمِّ شَمْلَةٍ تَرْمِينَا بِذَانِفِهَا غَرَارَةً زَيْلَتْ مِنْهَا التَّهَاقُلُ

وكذلك تُكنى: أم شملة. قال أبو عمرو بن العلاء: إنما سُميت الدنيا والخر بذلك - كما سلفنا - لأنهما يشتملان على عقل الإنسان فيغيبانه... أقول: ومن يُنكر أن أبناء الدنيا، من شدة تعلقهم بها وتكالبهم عليها، وضراوتهم بشهواتها، وافتتانهم بزينةا وخوضهم غمراتها، بحيث يُعدون كأنهم مُنزفون مُستلبو العقول حتى إذا رماهم هاذم اللذات بسهامه تحووا وأفاقوا... وصدق سيدنا رسول الله إذ يقول صلوات الله عليه: الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا... أما الدهر - وهو اسم لزمان متصل، والزمان اسم لدهر منفصل - فقد سمّوه أبا العجب قال:

❖ وما الدهر في فِعله إلا أبو العجب ❖

والنسبة إلى الدنيا: دنيوى، ويقال: دُنْيَوِيٌّ ودُنْيِيٌّ - وجمها دُنَى، وإنما

سميت دنيا : لِذُنُوهَا ، لِأَنهَا ذَنَتْ وَقُرُبَتْ ، وتأخرت الآخرة ، أما الدهر فالنسبة إليه دَهْرِيٌّ بضم الدال تقول : رجل دَهْرِيٌّ : أى قديم مُسِنَّ ، أما رجل دَهْرِيٌّ بفتح الدال فمعناه : ملحد لا يؤمن بالآخرة يقول ببقاء الدهر ، وقوله صلى الله عليه وسلم : لَا تُسَبِّرُوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ ، فمعناه : أن العرب كان من شأنها أن تَدُمَّ الدهرَ وتُسَبِّهه عند الحوادث والنوازل تنزل بهم من موتٍ أو هَرَمٍ فيقولون : أصابتهم تواريع الدهر وحوادثه وأبادهم الدهر ، فيجدلون الدهر الذى يفعل ذلك فيذمونه ، وقد أخبر الله بذلك فى كتابه العزيز ثم كَذَّبَهُمْ فقال : وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، ثم قال الله : وما لهم بذلك من علم إن هُمُ إِلَّا يَظُنُّونَ ، وجمع الدهر أدهر ودهور ، أما الدهارير فهى تصارييف الدهر ، وقيل جمع للدهر على غير قياس ، قال الشاعر القديم (١) :

فَاسْتَقْدِرِ اللَّهَ خَيْرًا وَأَرْضَيْنِ بِهِ فَبَيْنَمَا الْعُسْرُ إِذْ دَارَتْ مَيَاسِيرُ
وَبَيْنَمَا الْمَرْءُ فِي الْأَحْيَاءِ مُغْتَبِطٌ إِذَا هُوَ الرَّمْسُ تَعْفُوهُ الْأَعَاصِيرُ
يَبْكِي عَلَيْهِ غَرِيبٌ لَيْسَ يَعْرِفُهُ وَذُو قَرَابَتِهِ فِي الْحَيِّ مُشْرَرُ
حَتَّى كَانَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَذَكُّرُهُ وَالدهرُ أَيَّتَنَا حِينَ دَهَارِيرُ

« قوله : فاستقدر الله خيراً : أى اطلب منه أن يقدر لك خيراً ، وقوله :

فبينما العسر : فالعسر مبتدأ خبره محذوف تقديره فبينما العسر كائن أو حاضر ، إذ دارت مياسير : أى حدثت وحلت ، والمياسير جمع ميسور ، ومغتبط أى فى غبطة : أى مسرة وحسن حال ، والرَّمْسُ : القبر ، وتعفوه : تدرسه وتمحو أثره ،

(١) قال أبو عمرو بن العلاء : لرجل من أهل نجد . وقال ابن برقي : لعثير بن ليبد العذري ، قال : وقيل لحريث بن جبلة العذري

والأعاصير جمع إعصار وهي : الريحُ تهُبُّ بشدةٍ ، وقوله ؛ كأن لم يكن إلا تذكره فيمكن تاءه وإلا تذكره فاعل بها واسم كأن مضمَر تقديره كأنه لم يكن إلا تذكره والهاء في تذكره عائدة على الهاء المقدرة ، والدر مبدأ ودهارير خبره وأيتما حال ظرف زمان والعامل فيه ما في دهارير من معنى الشدة ، والدهارير قال الزمخشري : تصارييف الدهر ونوائبه ، مشتق من لفظ الدهر ليس له واحد من لفظه كعبايد

قِلة لبث الإنسان في الدنيا

قال المصطفى صلوات الله عليه : يَفِمْ أَنَا من الدنيا ؟ ومالي ولها ! وإنما مثلي ومثلها كراكب سار في يوم صائف ، فَرُقِمَتْ له شجرةٌ فقال تحتها ساعة من نهار ، ثم راح وتركها ، قال : من القيلولة وهي الاستراحة نصف النهار وإن لم يكن معها نوم ، يقال : قال يقيل قيلولة فهو قائل ،

وقال علي بن أبي طالب : الدنيا دارٌ يمرُّ لا دارٌ مَقَرٌّ والناس فيها رُجُلانِ رَجُلٌ باعَ نفسه فأوبَقَهَا ورَجُلٌ ابتاعَ نفسه فأعتَقَهَا « أوبَقَهَا : أهلكها بسبب تهاوته على الدنيا وإعراضه عن الآخرة ، وابتاع : اشترى ، وأعتَقَهَا أي من النار ، بتجنبيه المعاصي وشهوات الدنيا » وقيل لنوح عليه السلام - وهو الذي عاش ألف سنة إلا خمسين عاماً - : كيف وجدت الدنيا ؟ قال : كدار لها بابان دخلتُ من أحدهما وخرَجْتُ من الآخر

قِلة متاع الدنيا

قال الله تعالى : « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى » قليل : سريع النفضي ، وقال سبحانه : إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كماءٍ أُنْزِلْنَاهُ مِنْ

السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَانَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادُونَ عَلَيْهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَنْعَامِ،

« قوله سبحانه: إنما مثل الحياة الدنيا، أى فى سرعة تَقْضِيَّهَا وَذَهَابِ نَعِيمِهَا بعد إقبالها واغترار الناس بها، وزخرفها: حسنها وبهجتها، وقادرون عليها: أى متمكنون من حصدها، وأنها أمرنا، أى نزل بزرعها ما يحتاجه فجعلها الله كأنها حُصِدَتْ من أصلها فصار زرعها كأنه لم يكن، وقال أبو جعفر المنصور حين حَضَرَتْهُ الوفاة: يَعْثَا الْآخِرَةُ بِتَوَمَةٍ ... وقال شاعر:

أَرَاهَا وَإِنْ كَانَتْ تُحِبُّ فَإِنَّهَا سَحَابَةٌ صَافِيَةٌ عَنْ قَلِيلٍ تَقْشَعُ
وقال أعرابي: ما كانت الدنيا على بنى فُـلانٍ إِلَّا طَيفًا لَمَّا انْتَبَهَوْا وَلَىٰ
عَنهم، وقال آخر:

مَرَرْتُ بِدُورِ بَنِي مُضْعَبٍ بِدُورِ السَّرُورِ وَدُورِ الْفَرَحِ
فَشَبَّهْتُ سُرْعَةَ أَيَّامِهِمْ بِسُرْعَةِ قَوَيْسٍ يُسَمَّى فُزَحَ
تَلَوْنَ مُعْتَرِضًا فِي السَّمَاءِ فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهَا نَزَحَ

الماضى والحاضر والمستقبل

قال الحسنُ البَصْرِيُّ: أَمْسَ أَجَلٌ، واليوم عمل، وغدا أمل...، وقال حكيم: بَيْنِي وَبَيْنَ الْمُلُوكِ يَوْمٌ وَاحِدٌ؛ أَمَا أَمْسَ فَلَا يَجِدُونَ لِدَنِّهِ وَلَا أَجْدُ شِدَّتَهُ وَأَمَا غَدَا فَنَاقِىَ وَإِيَّاهُمْ يَنُوقُ عَلَى خَطَرٍ، وما هو إِلَّا الْيَوْمُ، فما عسى أَنْ يَكُونَ!

تحذيرهم من تضييع الأيام

قال حكيم: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ يَعْمَلَانِ فِيكَ فَاعْمَلْ فِيهِمَا

وقال الحسن البصري: ما وَعَظَنِي شَيْءٌ مِثْلُ ما وَعَظَنِي كَلَامُ الْحِجَاجِ فِي خُطْبَتِهِ: إِنَّ امْرَأً أَتَتْ عَلَيْهِ سَاعَةٌ مِنْ عُمْرِهِ لَمْ يَذْكُرْ فِيهَا رَبَّهُ أَوْ يَسْتَغْفِرَ مِنْ ذَنْبِهِ أَوْ يُفَكِّرَ فِي مَعَادِهِ، لَجْدِيرٌ أَنْ تَطُولَ حَسْرَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... وكان الحجاج بليغاً ومن مصاقع الخطباء، ومن كلماته التي تشبه كلمات الحسن البصري، وهي مما قاله على ذؤابة المنبر: أيها الناس؛ ائذعوا هذه الأنفُسَ، فإنها أَسْأَلُ شَيْءٍ إِذَا أُعْطِيَتْ، وَأَمْنَعُ شَيْءٍ إِذَا سُبِّحَتْ، فَارْحِمَ اللَّهُ امْرَأً جَعَلَ لِنَفْسِهِ خِطَامًا وَزِمَامًا، فَقَادَهَا بِخَطَايَاهَا فِي اللَّهِ، وَعَظَفَهَا بِزِمَامِهَا عَنْ مَغْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الصَّبْرَ عَنْ مُحَارِمِ اللَّهِ أَيْسَرَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عَذَابِهِ... « ائذعوا: أى ائمتوا، والخطام: حبل من ليف أو شعر أو كنان يُشْنَى طَرَفُهُ عَلَى مِحْطَمٍ البعير ليقاد به، والزمام: حبلٌ دقيقٌ يُجْعَلُ فِي أَنْفِهِ »

الأيام تهدم الحياة

قال حكيم: مَنْ كَانَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَطِيَّةً، سَارَا بِهِ وَإِنْ لَمْ يَسِرْ، أَخَذَهُ الشَّاعِرُ فَقَالَ:

رَأَيْتُ أَخَا الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ خَائِضًا أَخَا سَفَرٍ يُسْرَى بِهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي
« خَائِضًا: يريد مقبلاً في خفض ودعة »

وقالوا: أَنفَاسُ الْمَرْءِ خُطَاهُ إِلَى أَجَلِهِ، وَأَمَلُهُ خَادِعُهُ عَنْ عَمَلِهِ؛

وقال الشاعر:

مَا زِلْتُ طَرَفُ امْرِئٍ بِلَحْظَتِهِ إِلَّا وَشَيْءٌ يَمُوتُ مِنْ جَسَدِهِ

وقال أبو العتاهية:

تَظَلُّ تَفَرُّحُ بِالْأَيَّامِ تَقْطَعُهَا وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الْآجِلِ

وقال عمرو بن قميئة - شاعر قديم في الجاهلية - :

كَأَنِّي وَقَدْ جَاوَزْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً خَلَعْتُ بِهَا عَنِّي عِذَارَ لَجَائِي
عَلَى الرَّاحَتَيْنِ مَرَّةً وَعَلَى الْعَصَا أَنْوَأُ ثَلَاثًا بَعْدَهُنَّ قِيَامِي
رَمَتْنِي بَنَاتُ الدَّهْرِ مِنْ حَيْثُ لَا أَرَى فَكَيْفَ بِمَنْ يُرَمَى وَلَيْسَ بِرَامٍ
فَلَوْ أَنَّهَا تَبْسَلُ إِذْنًا لَا تَقِيْتُهَا وَلَكِنِّي أُرَمَى بِغَيْرِ سِهَامٍ

« قوله : خلعت بها عني عذار لجائي : فالعرب تقول : خلع فلان العذار يريد : خلع الحياء ، مثل للشاب المنمك في غيئه كما يخلع الفرس العذار فيجمع ويطمح لأن اللجام يمسكه ، والعذار : الذي يضم حبل الخطام إلى رأس البعير والناقة وعلى ذلك يكون معنى قوله : أنه أسام سرح اللهو حيث أسام الغواة في هذا العمر المديد ، ولعله يريد بذلك عدم التفاسك كما بينه في البيت الثاني ، وقوله : « أنوَأُ ثلاثا يعني : أنه ينهض ثلاث مرات بانحناء ثم يستقيم ، وبنات الدهر : نوبه »

البقاء في الدنيا سبب الفناء

قال سيدنا رسول الله : لو لم يكنسب ابن آدم إلا الصحة والسلامة لكفى بهما داء « لأن السلامة تُنسب إليه إلى الهرم وما يستتبعه من الهم والسقم ، وقيل لأعرابي : كيف حالك ؟ فقال : محال أن يفتي ببقائه ، ويسقم بسلامته ، ويؤتى من مآتمه ، ! وقال حميد بن ثور الهلالي - وهو شاعر إسلامي ترجم له أبو الفرج في الجزء الرابع من أغانيه - :

أَرَى بَصَرِي قَدْ رَابَتْ بَعْدَ صِحَّةٍ وَحُسْبِكَ دَاءٌ أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا
وَلَا يَلْبِثُ الْعَصْرَانِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكَمَا تَيْمَمًا

وقال أبو حية الثُمَيْرِيُّ - من شعراء الدولتين - :

أَلَا حَتَّى مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الْمَغَانِيَا لَبِسْنَ اللَّيْلِيَّ يَمَّا لَبِسْنَ اللَّيْلِيَا
إِذَا مَا تَقَاضَى الْمَرَّةُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لَا يَمَلُّ التَّقَاضِيَا

وقال بعض شعراء الجاهلية - وقيل : القائل عبد الرحمن بن سُويدِ العُمَرِيُّ -

كَانَتْ قَنَاتِي لَا تَلِينُ لِغَازِمٍ فَأَلَانَهَا الْإِصْبَاحُ وَالْإِمْسَاءُ
وَدَعَوْتُ رَبِّي فِي السَّلَامَةِ جَاهِدًا لِيُصَحِّحَنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءُ

« كانت قناتي لا تلين لغازمٍ : من الغمز ، وهو العُصْرُ باليد وهو مثلُ يريد : أنه كان صُلبَ العود شديد القوة على من يشتد ويجتري عليه » وقال النَّمِرُ بنُ تَوَّابٍ - شاعر جاهلي إسلامي ، وقد على سيدنا رسول الله وحسن إسلامه ، ومن قوله : صومُ شهر الصبر ، وصومُ ثلاثة أيام يُذهِبُن كثيرًا من وَحَرِ الصَّدْرِ - قال :

تَدَارَكَ مَا قَبْلَ الشَّبَابِ وَبَعْدَهُ حَوَادِثُ أَيَّامٍ تَمَرُّ وَأَغْفُلُ
يَسُرُّ الْفَتَى طُولُ السَّلَامَةِ وَالْبَقَا فَكَيْفَ يَرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ
يَرُدُّ الْفَتَى بَعْدَ اعْتِدَالٍ وَصِحَّةٍ يَنْوُءُ إِذَا رَامَ الْقِيَامَ وَيُحْمَلُ
« والبقاء مقصورٌ لضرورة الشعر وتروى : والغنى ... » وقال الصَّلْتَانُ

العَبْدِيُّ - شاعر إسلامي كان في زمن جرير والفرزدق - :

إِذَا لَيْلَةٌ هَرَمَتْ يَوْمَهَا أَنَّى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ قَتَى
وهذا البيت من أبيات جميلة للصَّلْتَان اختارها أبو تمام في حماسه يقول فيها :

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبَرَ يَرَكُرُ الْغَدَاةَ وَمُرَّ الْقَشَى
إِذَا لَيْلَةٌ ... الْبَيْت

نُروُحُ وَتَعْدُو لِحَاجَاتِنَا وَحَاجَةٌ مِّنْ عَاشٍ لَا تَنْقُضِي
تَمُوتُ مَعَ الْمَرَّةِ حَاجَاتُهُ وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِيَ

فرح الدنيا مشوب بالترح

مُعَقَّبٌ بِالْهُمُومِ

نَظَرَ كِسْرَى أَنُو شَرَوَانَ إِلَى مُلْكِهِ يَوْمًا فَأَعْجَبَهُ فَقَالَ : هَذَا مُلْكٌ إِلَّا أَنَّهُ
هُلُكٌ ، وَنَعِيمٌ إِلَّا أَنَّهُ عَدِيمٌ ، وَغَنَاءٌ لَّوْلَا أَنَّهُ عَنَاءٌ ، وَسُرُورٌ لَّوْلَا أَنَّهُ سُورُورٌ ،
وَيَوْمٌ لَّوْكَانَ يُوثِقُ لَهُ بَعْدُ... وَقَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ حَبْنَاءَ - هُوَ وَأَخْرَاهُ صَخْرٌ وَيَزِيدٌ
كَانُوا شَعْرَاءَ ، وَكَانَ الْمُغِيرَةُ مِنْ رِجَالِ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ تَوَفَّى سَنَةَ ٩١ هـ :
وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ مَا تَمُّهُ أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ مِنْ عُرْسِهِ

الدنيا هموم وغموم

سَمِعَ حَكِيمٌ رَجُلًا يَقُولُ لِأَخَرٍ : لَا أَرَاكَ اللَّهُ مَكْرُوهًا ، فَقَالَ : دَعَوْتُ
عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ ، مَنَ عَاشَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَكْرُوهٍ ، وَقِيلَ لِلنَّظَامِ - إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَيَّارٍ
الْمَعْتَزَلِيَّ - وَفِي يَدِهِ قَدْحُ دَوَاءٍ - : كَيْفَ هَالِكٌ ؟ فَقَالَ :

أَصْبَحْتُ فِي دَارِ بَلِيَّاتٍ أَذْفَعُ آفَاتٍ بَاقَاتٍ

وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّهْمِيُّ الْمَتْوَرِيُّ سَنَةَ ٤١٦ هـ يَصِفُ الدُّنْيَا - :
طَبِيعَتُ عَلٍ كَدَّرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفْوًا مِنَ الْأَفْدَاءِ وَالْأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبُ فِي الْمَاءِ جُذُودَ نَارٍ
وَإِذَا رَجَوْتَ الْمُسْتَحِيلَ فَإِنَّمَا تَبْنِي الرِّجَاءَ عَلَى شَفِيرِ هَارٍ

« الجذوة : الجرة ، والشفير : ناحية الوادى من أعلاه ، وهار : يقال : هار
الجرف والبناء : انهار وانهدم ،

وقال شاعر :

أَمَرَ الزَّمَانُ لَنَا طَعْمَهُ فَمَا إِنْ تَرَى سَاعَةً عَذْبَهُ

وقال آخر :

أُفٍّ مِنَ الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا فَإِنَّمَا لِلْحُزَنِ تَخْلُوقُهُ
هُدْمُهَا مَا تَقْضِي سَاعَةً عَنْ مَلِكٍ فِيهَا وَلَا سُوقَهُ

وقال آخر :

تَأْتِي الْمَكَارِهِ حِينَ تَأْتِي جُمْلَةً وَتَرَى الشُّرُورَ يَجِيءُ فِي الْفَلَتَاتِ
وقال ابن نباتة السعدي :

وَمَا خَيْرُ عَيْنٍ نَصَفَهُ سِنَّةُ الْكَرَى وَنَصَفَ بِهِ نَعْتَلٌ أَوْ تَنَوَّجَعُ
مَعَ الْوَقْتِ يَمْضِي بُؤْسُهُ وَنَعِيمُهُ كَأَنْ لَمْ يَكُنِ وَالْوَقْتُ عُمْرُكَ أَجْمَعُ
وقال الشريف الرضي :

يَا أَمِنْ الْأَقْدَارِ بَادِرُ صَرْفِهَا وَاعْلَمْ أَنَّ الطَّالِبِينَ حِثَّاتُ
تُخَذُّ مِنْ ثَرَايِكَ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّمَا شُرَكَاءُكَ الْإَيَّامُ وَالْوَرَاثُ
لَمْ يَقْضِ حَقَّ الْمَالِ إِلَّا مَعْشَرُ وَجَدُوا الزَّمَانَ يَعْثُ فِيهِ فَعَاثُوا
تَحْشُو عَلَى عَيْبِ الْغِنَى يَدُ الْغِنَى وَالْفَقْرُ عَنْ عَيْبِ الْفَقْرِ بَحَاثُ
الْمَالُ مَالُ الْمَرْءِ مَا بَلَغَتْ بِهِ الشَّدَّ هَوَاتُ أَوْ دَفَعَتْ بِهِ الْأَحْدَاثُ
مَا كَانَ مِنْهُ فَاضِلًا عَنْ قُوَّتِهِ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ مِيرَاثُ
مَالِي إِلَى الدُّنْيَا الْغُرُورِ حَاجَةٌ فَلْيَخْزِ سَاحِرُ كَيْدِهَا النَّفَاثُ
سَكَنَاتُهَا مَحْذُورَةٌ وَعُهُودُهَا مَنَقُوضَةٌ وَجِبَالُهَا أَنْكَاثُ

أَمْ الْمَصَائِبِ لَا يَزَالُ يَرْوَعُنَا مِنْهَا ذُكُورُ نَوَائِبِ وَإِنَّا
إِنِّي لَا عَجَبٌ مِنْ رَجَالٍ أَمْسَكُوا بِجَبَائِلِ الدُّنْيَا وَهُمْ رِثَاءُ
كَتَبُوا السُّكُودَ وَأَغْلَوْا شَهَوَاتِهِمْ فَالْأَرْضُ تَشْبَعُ وَالْبُطُونُ غِرَاثُ
«صَرَفَهَا: حَذَّنَاهَا وَنَوَائِبَهَا، وَحِثَّاتٍ: سِرَاطٍ، وَحَثَا التُّرَابَ: صَبَّهَ، يَقُولُ
فِي هَذَا الْبَيْتِ: إِنَّ الْغَنَى يَفْطِي عَيُوبَ الْأَغْنِيَاءِ أَمَا الْفَقْرُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى أَنْ
يَفْتَشُوا عَنْ عَيُوبِ الْفُقَرَاءِ وَيُلْصِقُوا بِهِمُ الْعَيُوبَ الْإِصَافًا. وَنَكْتُ الْحَبْلَ:
نَقَضَهُ، وَرِثَاءُ جَمْعُ رِثٍ: بَالٍ، وَغِرَاثُ: جَانَعَاتُ...»

النقصان بعد التمام

قَالُوا: مَنْ بَلَغَ غَايَةَ مَا يُحِبُّ فَلْيَتَوَقَّعْ غَايَةَ مَا يَكْرَهُ... وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ:
وَجَدْتُ لِبَعْضِ الْعَرَبِ بَيَّتَيْنِ كَانَهُمَا أَخِذَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: حَتَّى إِذَا فَرِحُوا
بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً، وَهِيَ:

أَحْسَنْتَ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حُسِنَتْ وَلَمْ تَتَخَفْ غِبًّا مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَأَلْتَنِيكَ اللَّيَالِي فَانْتَرَزْتَ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ السُّكْدُ
وَمِنْ دُعَاءِ بَعْضِهِمْ: صَرَفَ اللَّهُ عَنْكَ آفَاتِ التَّمَامِ...

وَالْبَيْتُ الْمَشْهُورُ فِي هَذَا الْمَعْنَى:

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ بَدَأَ نَقْضُهُ تَوَقَّعْ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: عَرَضُ الدُّنْيَا عَارِيَّةٌ، وَمَنْ فِيهَا ضَيْفٌ،
وَالْعَارِيَّةُ مُؤَدَّاةٌ، وَالضَّيْفُ مُرْتَحِّلٌ «الْعَارِيَّةُ: مَا تَسْتَعِيرُهُ مِنْ قَرِيْبِكَ أَوْ صَدِيقِكَ
أَوْ جَارِكَ لِتَنْتَفِعَ بِهِ حِينَئِثُمْ تَرُدُّهُ إِلَى صَاحِبِهِ، وَعَرَضُ الدُّنْيَا: مَا نِيلَ مِنْهَا
مِنْ مَتَاعِهَا وَحُطَّاءِهَا،

وقال حكيم : الدنيا تُطعمُ أولادها ، وتأكلُ أولادها . وقال الشاعر :
وما المالُ والأهلون إلا ودائعُ ولا بُدَّ يوماً أن تُردَّ الودائعُ
وقال المتنبي :

أبدأ تسترِدُّ ماتمُّب الدنيا فياليتَ جودَها كانَ بُحلاً
فكفَّتْ كَوْنُ فرحةٍ تُورِثُ الغمَّ ويخِلُ يُغادرُ الوجودَ خِلاً
ويقول المتنبي : شيمة الدنيا أن تسترِدَّ ماتمُّب وتعطى ، فليتها بخلت وما
جاءت إذ لو بخلت . ولم تُعطِ لكففتنا الفرح بوجود شيء يُعقب لنقده الغم ،
والفرح بوجود خليل يُؤنس بقربه ثم نخترمه المنية فيغادرُ الهمَّ خليلاً للحازن
عليه ، وفي هذه القصيدة يقول المتنبي :

ولذيذ الحياة أنفُسُ في النَّفْسِ وأشهى من أن يُملَّ وأُحلى
وإذا الشيخُ قال أفٍ فما ملَّ حياةٍ وإنما الضَّعْفُ ملاً
آلهُ العيشِ سحرةٌ وشبابُ فإذا وألبا عن المرءِ ولى

الدنيا لا يدوم فيها فرح ولا ترح

قال شاعر :
هل الدهر إلا ساعةٌ ثم تنقضي بما كان فيها من بلاءٍ ومن خَفَضِ
فهو نك لا تحفلُ إساءةٍ عارِضٍ ولا فرحةً تأتي فيكَلتاها تمضي
والخفَضُ : الدَّعةُ ولينُ العيشِ وسَعتهُ ، والهُونُ مُصدرُ الهَيْنِ في معنى
السكينة والتثبُّت والوقار والرفق قال :

فهو نك لا يردُّ الدهرُ ما فاتنا لا تهلكا أسفا في إثرِ مَنْ ماتنا

وقال آخر :

وما اُكْتُبَتْ نَفْسٌ قَدَامَ اِكْتِنَابِهَا وَلَا ابْتِهَاجَتْ نَفْسٌ قَدَامَ ابْتِهَاجِهَا
 ودخل أعرابيٌّ عُمَرَ مائةً وعشرين سنةً على معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فقال لهُ :
 صِفْ لَنَا الدُّنْيَا ، فقال : سُنَيَاتُ بَلَاءٍ وَسُنَيَاتُ رَخَاءٍ ، يُولَدُ مَوْلُودٌ وَيَهْلِكُ هَالِكٌ
 ولولا المولود بَادَ الخلقُ ، ولولا الهالك ضاقت الأرض .

الدنيا غُرارة

قال بعضهم : هذه الدُّنْيَا قَحْبَةٌ يَوْمًا عند عطار ، ويومًا عند بيطار ...
 وقال المتنبي :

فَذِي الدَّارِ أَخُونُ مِنْ مُومِسٍ وَأَخْدَعُ مِنْ كَفَّةِ الْحَايِلِ
 تَفَانِي الرِّجَالُ عَلَى حُبِّهَا وَمَا يَحْصُلُونَ عَلَى طَائِلِ

« الحايِل : الصائدُ ذو الجبالة ، وهى الشَّرَك ، والطائل : ما كان له قدر .
 يقول المتنبي : إن هذه الدنيا فاجرة خَوَانَةٌ لبِذْيَا كالْمُومِسِ تُخْلِفُ مَنْ وُثِقَ بِهَا ،
 وهى كذلك أَخْدَعُ مِنْ جِبَالَةِ الصائِدِ تَصْرَعُ مَنْ اطْمَأَنَ إِلَيْهَا ، ثم قال فى البيت
 الثانى : تفانى الناس على حُبِّهَا ومع ذلك لم يَحْصُلُوا مِنْ أَمْرِهَا عَلَى طَائِلٍ لَأَنَّهَا
 تَسْتَرِدُّ مَا تَعْطِيهِ وَتَهْدِمُ مَا تَبْنِيهِ ، وَتَمُرُّ بَعْدَ حِلَاوَتِهَا وَتَعُوجُ بَعْدَ اسْتِقَامَتِهَا .
 وقالوا : مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ آيِنُ مَشْهَائِهَا فِي جَوْفِهَا السُّمُّ النَّاظِعُ ، يَهْوِي إِلَيْهَا
 الصَّبِيُّ الْجَاهِلُ ، وَيَحْذَرُهَا الْحَاظِمُ الْعَاقِلُ . يَهْوِي إِلَيْهَا : يُسْرِعُ وذلك كما تقول
 رأيت فلانا يَهْوِي نحوكَ ، معناه : يريدك ، قال تعالى : فاجعل أَفئدةً مِنَ النَّاسِ
 يَهْوِي إِلَيْهِمْ : أى تريدهم وتسرع » وقال أبو عمرو بن العلاء : كُنْتُ أَدُورُ فِي
 ضَيْعَتِي فِي شِدَّةِ الْحَرِّ فَسَمِعْتُ هَاتِفًا يَقُولُ :

وَلَا أَمْرًا دُنْيَاءَ أَكْبَرُ مِنْهُ لَسْتَمْسِكُ مِنْهَا بِجَنْبِلِ غُرُورِ

فَنَقَشْتُ ذَلِكَ عَلَى خَاتَمِي . وقال الشاعر :
وَمَنْ عَرَفَ الْإِيَّامَ لَمْ يَرْخَفْضَهَا نَعِيمًا وَلَمْ يَعُدْذُ تَصَرُّفَهَا بَلْوَى

حب الدنيا على الرغم من عيوبها

قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه - وقد ذُكِرَ له قَوْمٌ يُحِبُّونَ الدُّنْيَا - :
هُمْ أَبْنَاؤُهَا ، أَفِيلَاُمُ الرَّجُلِ عَلَى حُبِّ الدِّينِ ! وقال الشعبي : مَا أَعْلَمُ لَنَا وَلِلدُّنْيَا
كَقَوْلِ كَثِيرِ عَزَّةَ :

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةَ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِبَةَ إِنْ تَقَلَّتْ
• وقد تقدم ، وقال شاعر :

يَذْمُونَ دُنْيَا لَا يُرِيحُونَ دَرَّهَا وَلَمْ أَرَ كَالدُّنْيَا يُدَمُّ وَيُحْلَبُّ
• لَا يَرِيحُونَ دَرَّهَا قَالِدَرٌّ : الابن يقول : لِمَن مَعَ ذَمِّهِمْ لِمَا هَا يُلْحُونَ فِي
الإقبال عليها ويكلبون ويشرِّهون حتى ما يتركون دَرَّهَا يستريح ، وهذا على
المثل . . .

وقال أبو العتاهية :

كُنَّا يُكْثِرُ الْمَذَمَّةَ لِلدُّنْيَا وَكُلُّ بِحْبُهَا مَفْتُونُ

الدنيا تضر محبيها

قالوا في ذلك : الدُّنْيَا تُضَرُّ مُحِبِّيهَا ، وَمَا كُرِّمَتْ عَلَى أَحَدٍ نَفْسُهُ إِلَّا هَانَتْ
عَلَيْهِ الدُّنْيَا ، وَقَالُوا : أَوْحَى اللَّهُ إِلَى الدُّنْيَا : أَنْ آخِذِي مَنْ إِيْجْفَاكِ وَاسْتَخِذِي
مَنْ يَهْوَاكِ • وَهَذَا تَمْثِيلٌ جَمِيلٌ وَحَقٌّ ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : الدُّنْيَا
لَا تُضَرُّ إِلَّا مَنْ أَمِنَهَا وَلَا تَنْفَعُ إِلَّا مَنْ حَذَرَهَا . وَقَالَ الْفَارُوقُ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ : مَا كَانَتْ الدُّنْيَا بِهَمِّ امْرِئٍ إِلَّا لَزِمَ قَلْبُهُ خِصَالُ أَرْبَعٍ : فَقَرُّ لَا يَذْرُكُ

غناه، وَهَمْ لَا يَنْقِضِي مَدَاهُ، وَشُغْلٌ لَا يَنْفَدُ أَوَّلَاهُ، وَأَمَلٌ لَا يُدْرِكُ مُنْتَاهَهُ .
وقال الشاعر :

أَرَى الدُّنْيَا لِمَنْ هِيَ فِي يَدَيْهِ عَذَابًا كُلُّهَا كَثُرَتْ لَدَيْهِ
تُهِنُ الْمُكْرِمِينَ لَهَا بُصْغٌ وَتُكْرِمُ كُلَّ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ
« الصَّغَرُ : الصَّغَارُ ، أَيْ الذِّلُّ وَالضَّيْمُ ،

وقال المتنبي :

وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا ؟ وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوِصَالِ

« مَنْ : استفهامية ، يقول المتنبي : مَنْ ذَا الَّذِي لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا مِنْ قَدِيمِ
الدَّهْرِ ؟ كُلُّ أَحَدٍ يَهْوَى الدُّنْيَا وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى دَوَامِ وَصَالِهَا ، أَيْ أَنْ
كَثِيرًا مِنْ عُشَّاقِهَا وَاصِلَهَا وَوَاصِلَتِهِ وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى دَوَامِ الْوِصَالِ فَإِنَّ
وِصَالَهَا يَعْقِبُهُ الْهَجْرُ وَسُرُورُهَا يَعْقِبُهُ الْحُزْنُ وَأَيَادُهَا تَنْتَهِي بِالْمَوْتِ »

بنو الدنيا أغراض لضروب المحن

قيل لأحسن البصري : كيف أصبحت ؟ فقال : كيف يُصْبِحُ مَنْ دُو
غَرَضٍ لثَلَاثَةِ أَشْهُمٍ : سَهْمُ رِزْيَةٍ ، وَسَهْمُ بَلِيَّةٍ ، وَسَهْمُ مَنِيَّةٍ . وقالوا : مَنْ
أَخْطَاهُ سَهْمُ الْمَنِيَّةِ لَمْ يُخْطِئْهُ سَهْمُ الرِّزْيَةِ ، وقال ابن المعتز :

الدَّهْرُ يَطْرِفُ بِالْعَنَاءِ وَالنَّاسُ بَيْنَ جُفْوَنِهِ

« يَقَالُ : طَرَفَ بَصَرَهُ يَطْرِفُهُ طَرَفًا : إِذَا أَطْبَقَ أَحَدٌ جَفْنَيْهِ عَلَى الْآخَرِ ؛

وَالْعَنَاءُ هُوَ الْعَنَاءُ أَيْ النَّصَبُ » وقال أبو العتاهية :

أَفِ لِدُنْيَا تَلَاعَبَتْ بِي تَلَاعَبَ الْمَوْجِ بِالْغَرِيقِ

الأيام تمضى فى تراذلها

سَمِعَ زِيَادُ بْنُ أَبِيهِ امْرَأَةً تَقُولُ : اللَّهُمَّ اغْزِلْ عَنَّا زِيَادًا ، فَقَالَ : زَيْدِي
فِي دَعَائِكَ : وَأَبْدِلْنَا خَيْرًا مِنْهُ ، فَإِنَّ الْآخِرَ أَبَدًا شَرٌّ ... وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ^(١) :
مَعْرُوفُ زَمَانِنَا مُنْكَرُ زَمَانٍ قَدْ فَاتَ ، وَمُنْكَرُهُ مَعْرُوفُ زَمَانٍ لَمْ يَأْتِ ،

حمدهم ماضى الزمان وذمهم حاضره

كَانَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَثِيرًا مَا تُنْشِدُ قَوْلَ لَبِيدٍ :
ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ
وَتَقُولُ : رَحِمَ اللَّهُ كَيْدَا ، كَيْفَ لَوْعَاشٌ إِلَى زَمَانِنَا ! وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
الزُّبَيْرِ يُنْشِدُ هَذَا الْبَيْتَ وَيَقُولُ : رَحِمَ اللَّهُ عَائِشَةَ ، كَيْفَ لَوْعَاشَتْ إِلَى
زَمَانِنَا ! وَمِنْ كَلَامِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ : كَانَ النَّاسُ وَرَقًا بَلَا شَوْكٍ فَصَارُوا شَوْكًا
بَلَا وَرَقٍ ... وَقَالُوا :

رُبَّ يَوْمٍ بَكَيتُ فِيهِ فَلَمَّا صِرْتُ فِي غَيْرِهِ بَكَيتُ عَلَيْهِ
وَهُنَاكَ مَنْ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ مَاضِيَ الزَّمَانِ كَحَاضِرِهِ ، لَا يُفْضَلُ قَدِيمُ الزَّمَانِ
حَدِيثُهُ ، وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ كُلُّهَا ، أَوِ النَّاسُ جَمِيعًا ، قُدَامَاهُمْ وَمُحَدَّثُوهُمْ وَأَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ
سَوَاسِيَّةٌ فِي أَنَّهُمْ خَلْفٌ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ ، وَمَنْ أَحْسَنَ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ تِلْكَ
الْكَلِمَةُ الَّتِي كَتَبَهَا بَدِيعُ الزَّمَانِ الْهَمْدَانِيُّ فِي رِسَالَةٍ لَهُ إِلَى أَسَازِهِ أَبِي الْحَسَنِ
ابْنِ فَارَسٍ صَاحِبِ الْمَجْمَلِ فِي اللُّغَةِ ، جَوَابًا عَلَى رِسَالَةِ كَتَبَهَا ابْنُ فَارَسٍ إِلَى الْبَدِيعِ

(١) هُوَ عُوَيْمَرُ بْنُ قَيْسِ بْنِ زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ ، الصَّحَابِيُّ الْمَشْهُورُ ، شَهِدَ مَعَ سَيِّدِنَا
رَسُولِ اللَّهِ وَقَعَةَ أَحَدٍ وَمَا بَعْدَهَا وَتَوَفَّى فِي آخِرِ خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ

في ذمّ الزمان ^(١)، قال البديع: نعم أطال الله بقاء الشيخ الإمام، إنه الخمائم المسنون ^(٢)، وإن طُنّت الظنون، والناس لآدم، وإن كان العهد قد تقدم، وارتبكت الاضداد، واختلط الميلاد؛ والشيخ يقول: فَنَسَدَ الزَّمانَ، أَفْلا يقول: متى كان صالحا؟ أفي الدولة العباسية وقد رأينا آخرها وسَمِعنا أولها؟ أم المدة المروانية وفي أخبارها « لا تَكْتَسِعِ الشَّوْلُ بِأَغْبَارِها » ^(٣)... أم السنين الحريرية ^(٤):

وَالسَّيْفُ يُعْمَلُ فِي الطَّلَى وَالرَّمْحُ يُرَكَّزُ فِي السَّكَلَى ^(٥)

- (١) قيل: ذكر الهمداني في مجلس ابن فارس فقال مامعناه: إن البديع قد نسي حق تعليمنا إياه، وعقنا وشمخ بأنفه عنا، فالحمد لله على فساد الزمان، وتغير نوع الإنسان، فبلغ ذلك، البديع، فكتب إلى ابن فارس هذه الرسالة.
- (٢) الحما: الطين الأسود. والمسنون: المتغير المتن.
- (٣) هذا من قول الحارث بن حلزة:

لَا تَكْتَسِعِ الشَّوْلُ بِأَغْبَارِها إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَنِ النَّاتِجُ

وَاحْلُبْ لِأَضْيَافِكَ أَلْبَانِها فَإِنَّ شَرَّ اللَّسَنِ الْوَاجِحُ

والكسع: ترك بقية من اللبن في خلف الناقة يراد بذلك تغزيرها، وهو أشد لها والشول من النوق: مامضى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فقل لبنها وخف ضرعها والأغبار: جمع الغبر وهو بقية اللبن في الضرع، والواجح: الذي يلج في ظهورها من اللبن المكسوع يقول الحارث: لا تغزري إبلك تطلب بذلك قوة نسلها واحلبها لأضيافك فاعل عدوا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك. ولعل البديع يشير بهذا إلى بخل بني مروان وقلة الخير في أيامهم

- (٤) الحريرية: نسبة إلى حرب بن أمية بن عبد شمس، يريد بذلك خلافة معاوية ويزيد ابنة
- (٥) الطلى: الاعتاق واحده طلية بضم الطاء، وركز الرمح. دفعه وأثبتته والسكلى: جمع كلىة وكلاوة، والكليتان أو الكلاوتان معروفتان

وَمَبِيتُ حُجْرٍ فِي الْفَلَا وَالْحَرَّتَانِ وَكَزْبَلَا ^(١)

أُمُّ الْبَيْعَةِ الْهَاشِمِيَّةِ وَعَلَى يَقُولُ : لَيْتَ الْعَشْرَةَ مِنْكُمْ بَرَّاسُ ، مِنْ بَنِي فِرَاسٍ ؛
أُمُّ الْأَيَّامِ الْأُمَوِيَّةِ ^(٢) وَالنَّفِيرُ إِلَى الْحِجَازِ ، وَالْعَيُونُ إِلَى الْأَعْجَازِ ؛ أُمُّ الْإِمَارَةِ
الْعَدَوِيَّةِ ^(٣) وَصَاحِبُهَا يَقُولُ : وَهَلْ بَعْدَ الْبُزُولِ إِلَّا النُّزُولُ ؛ ^(٤) أُمُّ الْخِلَافَةِ النِّسْمِيَّةِ ^(٥)
وَهُوَ يَقُولُ : طُوبَى لِمَنْ مَاتَ فِي نَائِثَةِ الْإِسْلَامِ ^(٦) أُمُّ عَلَى عَهْدِ الرِّسَالَةِ
وَيَوْمَ الْفَتْحِ قِيلَ : اسْكُنِي يَا فُلَانَةَ ، فَقَدْ ذَهَبَتِ الْأَمَانَةُ ؛ أُمُّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ
وَلَيْدٌ يَقُولُ :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْثَانِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كِلْدَ الْأَجْرِبِ

(١) حجر : هو حجر بن عدى الكندى من أهل العراق وقد قتله معاوية بن أبي
سفيان سنة إحدى وخمسين لإظهاره التشيع إلى علي ولعنه معاوية وأصحابه والبراءة
منهم ، وكان يجتمع عليه كل من وافقه في هذا الرأي من أهل المصريين حتى ولى زياد
على العراق فكتب إلى معاوية في أمر حجر وأكثر فأمر معاوية زياداً أن يبعث به
إليه مشدوداً بالحديد ، ففعل ، فلما قدم عليه أمر به معاوية فضربت عنقه ، وكان
حجر من أشرف العراق وخياره ، انظر تاريخ الطبرى في حوادث سنة إحدى
وخمسين ، ويشير بقوله والحزتان إلى وقعة الحزة التي كانت بين جنود يزيد بن معاوية
وأهل المدينة سنة ثلاث وستين وكانت هذه الوقعة في حزة واقم وهى شرقي المدينة
وقد قتل فيها من أهل المدينة خلق كثير ، وكر بلاه موضع في طرف البرية عند الكوفة
وهو الذى قتل فيه الحسين بن علي رضى الله عنه في خلافة يزيد بن معاوية

(٢) يريد خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه لأن أمية رهطه

(٣) يريد خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والعدوية نسبة إلى عدى بن كعب
ابن لؤى ، وهم رهط عمر

(٤) البزول : تشقق ناب البعير ، وذلك في السنة التاسعة ، يريد بهذا : وهل بعد
الوصول إلى الغاية إلا الأخذ في النقصان ؟ (٥) يريد خلافة أبي بكر رضى الله عنه .
والنسيبة : نسبة إلى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى ، وهم رهط أبي بكر

(٦) النائثة : أول الإسلام قال الزمخشري : ومعناها : الضعف قبل أن يقوى ويعز

أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَأَخُو عَادٍ يَقُولُ :
 بِلَادُهَا كُنَّا وَكُنَّا نَحِبُّهَا إِذِ النَّاسُ نَاسٌ وَالزَّمَانُ زَمَانٌ
 أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَيُرْوَى لَأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :
 تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا فَوَجَّهَ الْأَرْضَ مُعَبَّرًا قَبِيحُ
 أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَالْمَلَائِكَةُ تَقُولُ لِبَارِيهَا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ
 الدِّمَاءَ ؛ ^(١) مَا فَتَسِدُ النَّاسَ ، وَلَكِنْ أَطَرَدَ الْقِيَاسُ ؛ وَلَا أَظَلَمَتِ الْأَيَّامُ ،
 وَإِنَّمَا امْتَدَّ الْإِظْلَامُ ؛ وَهَلْ يَفْسُدُ الشَّيْءُ إِلَّا عَنْ صِلَاحٍ ، وَيُمْسَى الْمَرْءُ إِلَّا
 عَنْ صَبَاحٍ !

إنكار ذم الدهر

رَوَّاهُ النَّاعَنُ سَيِّدُ النَّاسِ رَسُولُ اللَّهِ ، لَا تُسَبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ الدَّهْرَ هُوَ اللَّهُ ، وَفِي رِوَايَةٍ :
 فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ ، يَقُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : إِنْ مَا أَصَابَكَ مِنَ الدَّهْرِ فَأَلِّهِ
 فَاعْلَمْ لَيْسَ الدَّهْرُ ، فَإِذَا شَتَمْتَ الدَّهْرَ فَكَأَنَّكَ أَرَدْتَ بِهِ اللَّهَ : وَكَانَ مِنْ شَأْنِ
 الْعَرَبِ أَنْ تَذُمَّ الدَّهْرَ وَتُسَبِّهَ عِنْدَ الْحَوَادِثِ وَالنَّوَازِلِ تَنْزِلَ بِهِمْ مِنْ مَوْتٍ
 أَوْ هَرَمٍ وَيَقُولُونَ : أَبَادَهُمُ الدَّهْرُ وَأَصَابَتْهُمْ قَوَارِعُ الدَّهْرِ وَحَوَادِثُهُ ، فَيَجْعَلُونَ
 الدَّهْرَ الَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ فَيَذُمُّونَهُ ، وَقَدْ ذَكَرُوا ذَلِكَ فِي أَشْعَارِهِمْ وَأَخْبَرَ اللَّهُ
 تَعَالَى عَنْهُمْ بِذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ثُمَّ كَذَّبَهُمْ فَقَالَ : وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
 الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَمَا لَهُمْ

(١) قَالَ الشَّيْخُ صِلَاحُ الدِّينِ الصَّفْدِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى لَامِيَةِ الْعَجْمِ لِلطُّغْرَانِيِّ : اسْتَدَلَّ
 بَعْضُهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ خَلَقَ آخِرَ فِي الْأَرْضِ وَأَنَّهُمْ
 أَفْسَدُوا فِيهَا وَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَتْ : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا !

بذلك من عِلْمٍ إِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ، والدهرُ : الزمانُ الطويلُ ومُدَّةُ الحياةِ الدنيا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لَا تُسَبُّوا الدهرَ ، على تأويل : لَا تُسَبُّوا الذي يفعل بكم هذه الأشياء فإنكم إذا سَبَبْتُمْ فاعِلَهَا فَإِنَّمَا يَقَعُ السَّبُّ عَلَى الله تعالى لأنه الفاعلُ لها لا الدهر... « وقد تقدم ذلك »

وقال أبو بكر الخوارزمي تريبا من هذا المعنى الذي نعالجه :

وَكَمْ نَكْنِي وَكَمْ نَهْجُو أَلْيَالِي وَلَيْسَ بِخَصْمِنَا إِلَّا الْقَضَاءُ ^(١)

وقال رجلٌ للأصمعي : قَسَدَ الزَّمانَ ، فقال :

إِنَّ الْجَدِيدَيْنِ فِي طَوْلِ اخْتِلَافِهِمَا لَا يَفْسُدَانِ وَلَكِنْ يَفْسُدُ النَّاسُ ^(٢)
والبيت المشهور في هذا هو قول بعضهم :

نَعِيبُ زَمَانِنَا وَالْعَيْبُ فِينَا وَلَوْ نَطَقَ الزَّمانُ بَنَّا هَجَانَا

وقال المتنبي :

أَلَا لَا أَرَى الْأَحْدَاثَ حَمْدًا وَلَا ذَمًّا فَمَا يَبْطِشُهَا جَهْلًا وَلَا كَفُّهَا حِلْمًا ^(٣)

وقال بعض الصالحين لأبي العتاهية : أَيُّ خَلْقٍ اللهُ أَصْغَرُ عِنْدَهُ ؟ قال :

الدنيا ، لَا تُساوِي عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، قال : أَصْغَرُ مِنْهَا مُجِبُّهَا ...

المسرة من حيث تُخَشِّي المصرة

قال أبو عمرو بن العلاء : طَلَبَ الْحِجَاجُ بْنُ يُونُسَ التَّقْفِيَّ أَيْ ، نَفَرَ

(١) يقال . كنى عن الامر بغيره يكنى كناية وهو : أن تتكلم بشيء وتريد غيره

(٢) الجديدان : الليل والنهار وذلك لأنهما لا يلبيان أبدا

(٣) يقول المتنبي ، لأحمد الحوادث السارة ولا أذم الضارة فإنها إذا بطشت بنا

أو آذتنا لم يكن ذلك جهلا منها وإذا كفت عن البطش والضرر لم يكن ذلك حِلْمًا ،

يعنى : أن الفعل في جميع ذلك ليس لها

منه هاربا إلى اليمن ، فإننا لَدَسِيرِ بَصْحَاءِ الْيَمَنِ إِذْ لَحِقْنَا لِاحِقٍ يُلْشِدُ :
 رُبَّمَا تَكَرَّرَهُ النُّفُوسُ مِنَ الْأُمْرِ لَهُ فَرَجَةٌ كَخَلِّ الْعِقَالِ
 فقال أبي : ما الخبر ؟ قال : مات الحجاج ، قال أبو عمرو . فانا بقوله :
 له فَرَجَةٌ أَشَدُّ سُرُورًا مِنِّي بِمَوْتِ الْحِجَّاجِ ، قال : فقال أبي : أَصْرِفْ رُكَابَنَا
 إِلَى الْبَصْرَةِ ، قال : وكنت يومئذ قد خَنَقْتُ بِضْعًا وَعَشْرِينَ سَنَةً ... ربما
 تكره النفوس ... ألبت هو لَأَمَّةٍ بِنِ أَبِي الصَّلْتِ وَقَبْلَهُ :

لَا تَضِيقَنَّ فِي الْأَدُورِ فَقَدْ تَكْشَفُ غَمَّاؤُهَا بِغَيْرِ احْتِيَالٍ
 ومن بديع هذه اللغة العربية الكريمة أنها تَفَرِّقُ بَيْنَ فَرَجَةٍ «بفتح الفاء»
 وبينها بالضم ، فالأولى : التَّفَقُّصُ مِنَ الْهَمِّ ، وَالْآخَرَى ، أَى الْفُرْجَةِ بِالضَّمِّ : كُلٌّ
 مِنْفَرَجٍ بَيْنَ جَبَلَيْنِ وَنَحْوَهُمَا . وَالْغَمَاءُ : الْكَرْبُ ، وَقَالُوا : خَفِ الْمَضَارُّ مِنْ
 خَلَلِ الْمَسَارِ ^(١) ، وَارْجُ التَّنْفَعِ مِنْ مَوْضِعِ الْمَنْعِ ، فَأَكْثَرُ مَا يَأْتِي الْأَنْ مِنْ
 حَلِّ الْفَرْعِ ؛ وَقَالُوا : أَعْنَأَى الْأُمُورِ تَنْشَابُهُ ، فَرُبَّ مَحْبُوبٍ فِي مَكْرُوهٍ وَمَكْرُوهٍ
 فِي مَحْبُوبٍ وَمَغْبُوطٌ بِنِعْمَةٍ هِيَ دَاوَاهُ وَمَرْحُومٌ مِنْ دَاءٍ فِيهِ شِفَاؤُهُ ... وَقَالُوا :
 رُبَّ سَلَامَةٍ تَكُونُ لِلتَّلَافِ سَبَابًا ، وَمَكْرُوهٍ يَكُونُ لِلنَّجَاةِ مِفْتَاحًا :

وَقَدْ يَأْسَفُ الْمَرْءُ مِنْ قُوْتِ مَا لَعَلَّ السَّلَامَةَ فِي قُوْتِهِ
 وقال حكيم : اللَّهُ مَصَالِحُ فِي مَكَارِهِ عِبَادِهِ ، وَقَالُوا : الْعَاقِلُ لَا يَجْزَعُ
 لِأَوَّلِ نَكْبَةٍ وَلَا يَفْرَحُ بِأَوَّلِ نِعْمَةٍ فَرُبَّمَا أَقْلَعَ الْمَحْبُوبُ عَمَّا يُضَرُّ وَأَسْفَرَ
 الْمَكْرُوهَ عَمَّا يُسَرُّ ... وَقَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ « اَشْدَدُّي أَرْزَمَةُ تَنْفَرِجِي ،
 « الْأَرْزَمَةُ : الشَّدَّةُ وَالْفَحْطُ » وَيُقَالُ فِي ذَلِكَ : إِنَّ الشَّدَّةَ إِذَا تَابَعْتَ انْفَرَجَتْ
 وَإِذَا تَوَالَتْ تَوَلَّتْ ... وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ « فَتَسَى
 أَنْ تَكَرَّهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا »

(١) من خلل المسار : أى من خلاها .

الفرج بعد الشدة

أَتَى يَزِيدُ بِخَارِجِي، فَهَمَّ بِقَتْلِهِ فَقَالَ الْخَارِجِيُّ:
 عَسَى فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ إِنَّهُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي خَلِيقَتِهِ أَمْرٌ
 فقال يزيد : والله ، لَا ضَرِيبَ عُنُقِكَ ، أَقَاتُوه ، فدخل الهيثمُ بن الأسود
 النَّخَعِيُّ ، فقال : أَمْسِكُوهُ قَلِيلًا ، فَذَنَا مِنْهُ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَبْ
 مُجْرِمَ قَوْمٍ لَوْ أَفْدَيْهِمْ ، فقال : هُوَ لَكَ ، فخرج الخارِجِيُّ وهو يقول : تَأْتِي عَلَى
 اللَّهِ فَأَتِي إِلَّا أَنْ يُكْذِبَهُ وَغَالِبَهُ فَأَتِي إِلَّا أَنْ يَغْلِبَهُ ... وَأُحْضِرَ رَجُلٌ
 أَمَامَ بَعْضِ الْمُلُوكِ ، فدعا بطعام فَأَخَذَ يَأْكُلُ وَيَضْحَكُ ، فَقِيلَ لَهُ : تَضْحَكُ
 وَأَنْتَ مَقْتُولٌ ؟ فقال : مِنْ السَّاعَةِ إِلَى السَّاعَةِ فَرَجٌ ، فَسَمِعَتْ صَيْحَةً فَقِيلَ :
 مَاتَ الْمَلِكُ ، فغَلَّوْا الرَّجُلَ ... وَشَدَّ بَعْضُ الْعُمَّالِ - الْوَلَاةِ - رُجُلًا إِلَى أَسْطُوَانَةٍ
 - عُمُودٍ - يُرِيدُ ضَرْبَهُ ، فَقَالَ حُلَّتِي مِنْ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ ، فَخَلَّه ، فَاحْلَلْهُ إِلَّا وَقَدْ
 عَزَلَ وَشَدَّ إِلَى الْأَسْطُوَانَةِ بَعِينَهَا ...

من زال كربُه فَنَسِيَ صُنْعَ اللَّهِ

قالوا : مَا صَاحِبُ الْبَلَاءِ الَّذِي طَالَ بِلَاؤُهُ بِأَحَقَّ بِالِدُعَاءِ مِنَ الْمُعَاتَى . وَقِيلَ :
 مَنْ سَبَّحَ فِي النَّهْرِ الَّذِي فِيهِ التَّمَسَّاحُ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَكَةِ . وَشَكََا يَوْسُفَ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ طُولَ الْحَبْسِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : أَنْتَ حَبَسْتَ نَفْسَكَ
 حَيْثُ قُلْتَ : السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ . وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَتَعَالَى : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ
 الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُهَا
 إِلَى ضُرِّ مَسِّهِ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ... وَقَالَ سُبْحَانَهُ :
 قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنًا أَنْجَانَا

من هذه لتكوننَّ من الشاكرين ، قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كُلَّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ .

لَا تُعْرِفُ النِّعْمَةَ إِلَّا عِنْدَ فَقْدِهَا

قالوا : كم من نعمة عُرِفَتْ بِبَلِيَّةٍ نَزَلَتْ ، وَنِعْمَةٍ جُهِلَتْ بِسَلَامَةٍ لَبِثَتْ .
وقالوا : شيْثَان لا يَعْرِفُ فَضْلَهُمَا إِلَّا مَنْ فَقَدَهُمَا : الْغِنَى وَالْعَافِيَةُ ... وقال الشاعر - :

فَالْوَجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مُبَيِّضٌ وَالشَّعْرُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسَوَّدٌ
ضِدَّانٍ لَمَّا اسْتَجْمَعَا حُسْنًا وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضُّدِّ
وقال المتنبي :

« وَبِضْدِهَا تَتَبَيَّنُ الْأَشْيَاءُ »

وقال أبو تمام :

وَلَيْسَ يَعْرِفُ طَيْبَ الْوَصْلِ صَاحِبُهُ حَتَّى يُصَابَ بِنَأْيٍ أَوْ بِهِجْرَانٍ
وقال المتنبي :

وَلَوْلَا أَيَادِي الدَّهْرِ فِي الْجَمْعِ بَيْنَنَا غَفَلْنَا فَلَمْ تَشْعُرْ لَهُ بِذُنُوبٍ
« يَقُولُ الْمَتَنَّبِيُّ : إِنَّ الدَّهْرَ قَارَةٌ يُحْسِنُ وَتَارَةٌ يَسِيءُ فَلَوْلَمْ يُحْسِنْ إِلَيْنَا
بِالْجَمْعِ بَيْنَنَا لَمَّا شَعَرْنَا بِذُنُوبِهِ فِي تَفْرِيقِنَا ، فَيَا حَسَنَةً عَرَفْنَا إِسَاءَتَهُ »

فَضْلُ الْعَافِيَةِ وَسَلَامَةِ الدِّينِ

قال سيدنا رسول الله « مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ عِنْدَهُ قُوَّةٌ
يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حَبِرَتْ لَهُ الدُّنْيَا »

« قَالَ ابْنُ بَرِيٍّ : قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ : السَّرْبُ : النَّفْسُ قَالَ : وَأَنْكَرَ

ابنُ دَرَسْتَوِيَه قولَ من قال في نَفْسِه قال : وإنما المعنى : آمِنُ في أهله وماله وولده ، ولو آمن على نفسه وحدها دون أهله وماله وولده لم يُقَلْ هو آمِنٌ في سِرْبِه ، وإنما السَّرْبُ هُهنا : مال الرجل من أهل ومالٍ ، ولذلك سمي قطع البقر والظباء والقطا والنساء سِرْبًا ، وكان الأصلُ في ذلك أن يكون الراعي آمناً في سِرْبِه والفحلُ آمناً في سِرْبِه ، ثم استُعْمِلَ في غير الرعاة استعارةً فيما شَبَّه به . وحيزت : جُمِعَتْ وُضِّمَتْ ، وبِحِذا فيرها : بأَسْرِها »
وقال ابن الرومي :

إذا ما كساكَ اللهُ سِرْبَالاً صِحَّةً ولم تَحُلْ مِنْ قُوْتٍ يَحِلُّ وَيَعْدُبُ
فلا تَغِيظَنَّ الْمُتَرَفِّينَ فَإِنَّهُمْ على حَسْبِ مَا يُعْطِيهِمُ الدَّهْرُ يَسْأُبُ
« السربال : القميص ، وحلٌ : من الحلال مقابل الحرام ، والغبطة : أن تتمنى مثل حال المغبوط - الحسن الحال - من غير أن تريد زوالها ، وعلى حسب : على قدر وعدد ، وقالوا : مَنْ أَوْقَى الْعَافِيَةَ فَظَنَّ أَنَّ أَحَدًا أَوْقَى أَكْثَرَ مِنْهُ فَقَدْ قَلَّلَ كَثِيرًا وَكَثَّرَ قَلِيلًا » كثر قليلا ، لأن ما عدا العافية فهو قليل بالإضافة إليها ، ...

عقريات شتى في الدنيا

قال أبو حازم : وما الدنيا ، أَمَّا مَا ضَيَّ فُحِلْمٌ وَأَمَّا مَا بَقِيَ فَأَمَانِي . وقال بكر بن عبد الله : المستغنى عن الدنيا بالدنيا كالْمُطْفِئِ النَّارَ بِالتَّبَنِ . وقال ابن مسعود : الدنيا كُلُّهَا غُومٌ ، فما كان فيها من سرور فهو رَيْجٌ . وقال بعض الحكماء : مثلُ الدنيا والآخرة مثلُ رجلٍ له ضَرَّتَانِ إِنْ أَرْضَى إِحْدَاهُمَا أَضْحَكَ الْآخَرَى ... وقال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : تَرَكَ الْمُلُوكُ لَكُمْ الْحِكْمَةَ فَاتْرُكُوا لَهُمُ الدُّنْيَا . وقال يحيى بن خالد البرمكي : دَخَلْنَا فِي الدُّنْيَا دُخُولًا

أَخْرَجَنَا مِنْهَا . وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ كَثِيرًا مَا يَتَمَثَّلُ كُلَّمَا جَرَى ذِكْرُ الدُّنْيَا - :

الْيَوْمَ عِنْدَكَ دَلُّهَا وَحَدِيثُهَا وَغَدًا لَغَيْرِكَ كَفُّهَا وَالْمِعْصَمُ
وَهَذَا الْبَيْتُ كَذَلِكَ يُقَالُ فِي غَدْرِ الْمَرْأَةِ وَفَلَةِ وَقَاتِهَا . وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ آدَمَ
الْعَجَلِيُّ يَقُولُ :

نُرَقِّعُ دُنْيَانَا بِتَمْرِ بَقِ دِينِنَا . فَلَا دِينَئِيَّتِي وَلَا مَا نُرَقِّعُ
وَقَالَ السَّيِّدُ الْمَسِيحُ : أَنَا الَّذِي كَفَّأْتُ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهَيْهَا ، فَلَيْسَتْ لِي زَوْجَةٌ
تَمُوتُ وَلَا بَيْتٌ يَخْرُبُ . وَقِيلَ لِمُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ : إِنَّكَ لَتَرْضَى بِالْدُّنْيِ فَقَالَ :
إِنَّمَا رَضِيَ بِالْدُّنْيِ مَنْ رَضِيَ بِالدُّنْيَا ... وَقَالَتْ امْرَأَةٌ لَزَوْجِهَا وَرَأَتْهُ مُهْمُومًا :
مِمَّ هَمُّكَ ؟ أِبَالِدُنْيَا فَتَنْدَرُغَ اللَّهُ مِنْهَا أَمْ بِالْآخِرَةِ فَرَادَكَ اللَّهُ هَمًّا ؟ وَقَالَ السَّيِّدُ
الْمَسِيحُ : حُبُّ الدُّنْيَا أَصْلُ كُلِّ خَطِيئَةٍ وَالْمَالُ فِيهَا دَاءٌ كَثِيرٌ ، قِيلَ : مَا دَاوُهُ ؟
قَالَ : لَا يَسْلُمُ صَاحِبُهُ مِنَ الْفَخْرِ وَالْكِبَرِ ، قِيلَ : وَإِنْ سَلِمَ ؟ قَالَ : يَشْفُلُهُ
إِصْلَاحُهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ . وَقَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ : مَنْ أَصْبَحَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ
وَسَدَمَهُ ^(١) نَزَعَ اللَّهُ الْغِنَى مِنْ قَلْبِهِ ، وَصَيَّرَ الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا
إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ ؛ وَمَنْ أَصْبَحَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ وَسَدَمَهُ نَزَعَ اللَّهُ الْفَقْرَ مِنْ قَلْبِهِ
وَصَيَّرَ الْغِنَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ... وَقَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ
لِلضَّحَّاكِ بْنِ سُفْيَانَ : مَا طَعَامُكَ ؟ قَالَ : اللَّحْمُ وَاللَّبَنُ قَالَ : ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى
مَاذَا ؟ قَالَ : ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى مَا قَدْ عَلِمْتُ ، قَالَ : فَإِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ مَا يَخْرُجُ مِنْ
ابْنِ آدَمَ مِثْلًا لِلدُّنْيَا ... وَكَانَ بَشْرُ بْنُ كَعْبٍ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ إِذَا قَرَّغَ مِنْ
حَدِيثِهِ : انْطَلِقُوا حَتَّى أُرِيَكُمْ الدُّنْيَا ، فَيَجِيءُ فَيَقِفُ بِهِمْ عَلَى الشُّوقِ ، وَهِيَ
يَوْمَئِذٍ مَزْبَلَةٌ ، فَيَقُولُ : انْظُرُوا إِلَى عَسَلِهِمْ وَسَمْنِهِمْ وَإِلَى دَجَاجِهِمْ وَبَطْنِهِمْ

(١) السدم : الولوج بالشئ ..

صارَ إلى ما ترون...

وقال محمد بن وهيب: ^(١)

نُراعُ لِدِكْرِ الموتِ ساعةَ ذِكْرِهِ وَتَعْرِضُ الدُّنيا فَنَلْهُو وَنَلْعَبُ
وَنَحْنُ بَنُو الدُّنيا حُلُقِنَا لِغَيْرِهَا وَما كُنْتَ مِنْهُ فَهُوَ شَيْءٌ مُحَبَّبٌ ^(٢)
يَقِينُ كَأَنَّ الشَّكَّ غَالِبُ أَمْرِهِ عَلَيْهِ وَعِرفانُ إلى الجَهْلِ يُنسَبُ
أقول: لعله ينظر إلى قول جرير:

تُرَوِّعُنَا الجَنائِزُ مُقِيلَاتٍ فَتَلْهُو حينَ تَذْهَبُ مُدِيرَاتٍ
كَرْوَعَةٍ ثَلَاثَةٍ لُمُغَارٍ ذِيْبٍ فَلَمَّا غَابَ عادتُ راتِعَاتٍ ^(٣)
قال أبو عمرو بن العلاء: جلستُ إلى جرير وهو يُملي:

• وَدَخَ أَمَامَةَ حَانَ مِنْكَ رَجِيلٌ •

ثم طلعت جنازة فأمسك وقال: شَيَّبَتْنِي هذه الجنائزُ، قلتُ: فلم تُسابِ
الناسُ! قال: يبدأونني ثم لا أعفو وأعتدى ولا أبتدى، ثم قال هــذين
البيتين... وقول محمد بن وهيب: يقين كأن الشك أغلب أمره... أبيت
فأخوذ من قول الحسن البصري: ما رأيتُ يقيناً لا شك فيه أشبه بشك
لا يقين فيه، إلا الموت...

(١) شاعر بصرى من أهل بغداد مدح المأمون والمعتصم ويعتد وسطاً في طبقة
دعل وأبي سعيد الخزومي، وكان يتشيع ويستمتع الناس بشعره، انظر ترجمته في
معاهد التنصيص

(٢) يقول: إننا أبناء الدنيا وما دمنا كذلك كانت الدنيا محبوبة لنا.

(٣) الثلاثة: بفتح الـاء. جماعة الغنم، أما الثلاثة بضم الـاء فالجماعة من الناس، وهذا
من غرائب هذه اللغة الكريمة.

وقال أحد الظُرَفَاء : إن الدنيا قدِ اسْتَوَدَّقتْ وأتَعَطَّ الناس : « استودقت يقال : ودَّقت الفرس تَدُقُّ ودَقًّا واستودقت : إذا طلبت الفحل » وقال حكيم : من أراد الدنيا فليَتَهَيَّأْ للذل . ومن كلمة لعلي بن أبي طالب : أهل الدنيا كَرَّ كَبٍ يُسَارُّ بهم وهم نيام .. ومن كلامه رضى الله عنه - وقد قال له رجلٌ وهو فى خُطبة : يا أمير المؤمنين ، صِفْ لنا الدنيا فقال : ما أَصْفُ من دارٍ أوَّلُها عَناءٌ وآخِرُها فَناءٌ ، فى حَلالِها حسابٌ وفى حَرَامِها عِقَابٌ ، مَن صَحَّ فيها ما أَمِنَ ، ومن مَرِضَ نَدِمَ ومن استَغْنى فُتِنَ ، ومن افْتَقَرَ فيها حَزِنَ . وقال أيضاً : إنما المرءُ فى الدنيا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فيه المَنابِيا ، وتَنهَبُ للهِصَابِ ، ومع كلِّ جِرْعَةٍ شَرَقٌ ، وفى كلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ ، ولا يَنالُ العَبْدُ فيها نِعْمَةً إلا بفراقٍ أُخْرى ، ولا يَسْتَقْبِلُ يوماً من عمره إلا بهذِمَ آخَرٌ من أَجَلِه ، فنحنُ أَعوانُ الحُتوفِ ، وأنفُسنا تسوِّقُنا إلى الفَناءِ ، فمن أين نرجو البقاء ؟ وهذا الليلُ والنهارُ لم يَرُفعا من شىءٍ شَرَفًا إلا أسرعا السَكْرَةَ فى هَدمِ ما بَلَّيا ، وتفريقِ ما جَمعا ، فاطلبوا الخيرَ وأَهْلِهِ ، واعلموا أن خيراً من الخيرِ مُعْطِيهِ ، وشرًّا من الشرِّ فاعِلُهُ ... « الغرض : المَهْدَفُ ، والنهب : المال المنهوب غنيمةً واجمع نهباً وقد تقدم شرح الجرعة والشرق والغصص ، وقوله : فنحنُ أَعوانُ الحُتوفِ فالخُتف : الموت ، ومعنى أننا أَعوانُ الموت : أنا نأكل ونشرب ونجامع ونركب الخيل والسفن والطائرات ونحوها وتتصرف فى أسبابنا وحاجتنا وما رَبَّنا ، والموت إنما يكون بأحد هذه الأمور إما من أخلاط تُحْدِثُها المَآكلُ والمشاربُ ، أو من سَقَطَةٍ يسقط الإنسان من دابةٍ هو راكِبُها أو من ضَعْفٍ يلاحقه من الجَماعِ المفرط أو مصادماتِ واصطكاكاتِ تصيبُه عند تصرفه فى ما رَبَّه وحركته وسعيه ونحو ذلك ،

فكاننا نحن أعنا الموت على أنفسنا»

وقال علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم : مالك من عيشك إلا لذة تزديف بك إلى حمامك وتقربك من يومك ، فأية أكلة ليس معها غصص أو شربة ليس معها شرق ! فنأمل أمرك فكانك قد صرت الحبيب المفقود والخيال المحترم ، أهل الدنيا أهل سفر لا يحلون عقد رحلهم إلا في غيرها « قوله : تزديف بك إلى حمامك : أى تقربك إلى موتك ، والمحترم المستاصل والمقتطع » .

وقال حكيم : من ذا الذى يبنى على موج البحر داراً ، تلکم الدنيا ، فلا تتخذوها قراراً ... وقيل لبعض الرهبان : كيف ترى الدهر ؟ قال : يُخلق الابدان ، ويُجدد الآمال ، ويُقربُ المنية ، ويُبعد الآمنية ، قيل : فما حال أهله ؟ قال : من ظفر به تعب ، ومن فاته اكتاب ، وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

ومن يحمّد الدنيا لِعَيشِ يُسره فسوف لِعَمْرِى عن قليل يلوها
إذا أدبرت كانت على المرء حَسرة وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

قال حكيم : من عيب الدنيا أنها لا تعطى أحدا ما يستحق ، إما أن تزيد له وإما أن تنقص ... وقال أبو العتاهية :

تعالى الله يا سَلْمُ بنَ عمرو أذلَّ الحِرْصُ أعناقَ الرجال
هَبِ الدنيا تُساقُ إليك عَفْوا أليس مَصيرُ ذاك إلى الزَّوالِ
وما دُنْيَاكَ إلا مِثْلُ قِيءٍ أَظَلَّكَ ثُمَّ آذَنَ بِاتِّعَالِ
ولنجزئ بهذا المقدار قَبقرياتهم فى الدنيا لا يكاد يبلغها الإحصاء .

عقرياتهم في الموت

أسماء الموت ووصفه

الموت : ضد الحياة ، ويقال : مات يَمُوتُ وَيَمَاتُ - لغة طائية - وقالوا : مَيِّتَ تَمُوتُ ؛ قال ابن سيده ؛ ولا نظير لها مِنْ المعتَلِّ ، وَرَجُلٌ مَيِّتٌ وَمَيِّتٌ ، وقيل : المَيِّتُ : الذى مات ، والمَيِّت والمائت : الذى لم يَمُتْ بعدُ ، يقال : هو مَيِّتٌ غدا ومائت ولا يقال : مَيِّتٌ ، قالوا : وهذا خطأ ، وإنما مَيِّتٌ يصلح لما قد مات ولما سيموت ، وقد جمع بين اللغتين عدي بن الرِّعْلَاء الغساني - والرِّعْلَاء أمه - فقال :

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميتُ مَيِّتُ الأحياءِ
إنما الميتُ من يعيش كثيراً كاسفاً بأله قليل الرجاء
فأناسٌ يُصَّصُونَ نِمَاداً^(١) وأناسٌ حُلُوفُهُمْ في الماءِ

فجعل الميتَ كالميت ... ويقال للموت : الهَمِيعُ ، وقيل : الهَمِيعُ : الموتُ المُعْجَلُ : أقول : ولعله سُمي كذلك لأن الروح تَهْمَعُ : أى تسيل ، من هَمَعَ الدمعُ والماء : سال . ومن أسماء الموت أيضاً : النَيْطُ ، روى عن علي رضي الله عنه أنه قال : لَوَدَّ مُعَاوِيَةُ أنه مابق من بنى هاشم نافعُ ضَرَمَةٍ إِلَّا طُعِنَ في نَيْطِهِ^(٢) ، معناه : إلآمات ، قال ابن الأثير : والقياس : النَوْطُ ، لأنه من ناطَ ينوطُ : إذا عُلِقَ ، وقيل : النيط : نياط القلب ، وهو : العِرْقُ الذى يتعلق به القلب ... ومن أسماء الموت : الرَّمْدُ قال أبو وَجْرة السعدي :

صَبَّيْتُ عَلَيْكُمْ حَاصِبِي فَتَرَكْتُكُمْ كَأَصْرَامٍ عَادٍ حِينَ جَلَّلَهَا الرَّمْدُ

« الحاصب . العذاب يكون بالريح الشديدة تحمل الحصباء ، والأصرام : الجماعات

(١) النِّمَاد : الماء القليل الذى لامادة له (٢) الضربة بتحريك الميم : الجرة أو النار نفسها ، ويقال ما بالدار نافع ضربة : أى ما بها أحد .

من الناس ، والرّمادة : الهلاك ؛ ومنه قيل : عام الرّمادة ؛ لأنّ الناس والأموال هلكت فيه كثيرا ^(١) ومن أسمائه : أُمّ قَشَعَم ، قال أبو عبيد : أُمّ قَشَعَم : المنيّة ، ويقال للشيخ الكبير والمسنّ من النّسور والرحم : قَشَعَم ، إطول عمره . وأُمّ قَشَعَم في قول زهير في معلقته :

قَشَدَّ وَلَمْ يُفْرِغْ يُبَوِّتَا كَثِيرَةً لَدَى حَيْثُ أَلَقْتُ رَحْلَهَا أُمّ قَشَعَمِ

قيل : الحرب ، وقيل : المنيّة ، وقيل : الضُّبُع ، وقيل : العنكبوت ، وقيل : الذِّلّة ... ومن أسمائه : أُمّ اللّهِم . قال الخليل بن أحمد : أُمّ اللّهِم : المنيّة ، لأنها تلتهم كل شيء . ومن أسمائه : شَعُوبُ ، قال ابن السكيت : شَعُوبُ : اسم المنيّة ، مؤنثة معرّفة لاتصرف وأنشد :

❖ وَمَنْ تَدُعْ يَوْمًا شَعُوبُ يُجِيبُهَا ❖

قال : وإنما سميت المنيّة شعوبَ لأنها أشعَبُ — أى تُفرّق — يقال : شَعَبَ وأشعَبَ وأنشعبَ : هَلَكَ . . ومن أسمائه : الفَوْدُ ، فَاذْ يَفُودُ فَوْدًا : مات ، قال البيد بن ربيعة يذكّر الحارث بن أبي شمر الغسانی ، وكان كلّ ملك منهم كلما مضت عليه سنة زاد في تاجه خرزة ، يُراد بذلك أن يعلم عدد السنين التي ملكها ، فأراد أنه عمّر حتى صار في تاجه خرزات كثيرة :

رَعَى خَرْزَاتِ الْمُلْكِ سِتِّينَ حِجَّةً وَعِشْرِينَ حَتَّى فَاذَ وَالشَّيْبُ شَامِلُ
ومن أسمائه : الحِجَامُ . يقال نَزَلَ بِهِ حِمَامُهُ : أى مَوْتُهُ وَقَدَرُهُ ، مِنْ حُمٍ كَذَا
أى قَدَرٍ أَنْشَدَ ابْنُ بَرِّى لِحَبَابِ بْنِ عُزَيٍّ :

(١) عام الرّمادة كان سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة من الهجرة أيام أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وَأَرْجَى بِنَفْسِي فِي فُرُوجٍ كَثِيرَةٍ وَلَيْسَ لِأَمْرِ سَمِّهِ اللَّهُ صَارِفٌ
وَمِنْ أَسْمَاءِهِ : الْمُنُونُ ، قِيلَ : الْمُنُونُ تَكُونُ وَاحِدًا وَجَمْعًا ، قَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ
الْهَذَلِيُّ ...

✽ أَمِنْ الْمُنُونِ وَرَئِيهِ تَتَوَجَّعُ ✽

وَمِنْ جَمْعِهِ قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ الْعَبَادِيِّ :
مَنْ رَأَيْتَ الْمُنُونَ خَلَدْنَ أَمَّ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ
وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : الْمُنُونُ وَاحِدٌ لَا يَجْمَعُ لَهُ ، فَأَمَّا قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ فَعَلِيَ
مَعْنَى الْعُمُومِ وَالْكَثَرَةِ فِي الْمَوْتِ ، إِذْ كَانَ أَدْمَى الدَّوَاهِي ، وَقَالَ ابْنُ جَنَى : مَنْ
أَنْتَ الْمُنُونُ ذَهَبَ إِلَى مَعْنَى النِّيَّةِ وَمَنْ ذَكَرَ أَرَادَ الدَّهْرَ ، وَسُمِّيَ الدَّهْرُ مُنُونًا
لَأَنَّهُ يَذْهَبُ بِمَنْقَرِ الْإِنْسَانِ : أَيْ قُوَّتِهِ ... وَمِنْ أَسْمَاءِهِ : الْمَوْتَانُ وَالْمَوْتَانُ ، قَالَ
صَاحِبُ اللِّسَانِ : الْمَوْتَانُ وَالْمَوْتَانُ وَالْمَوَاتُ كُلُّهُ : الْمَوْتُ ؛ وَفِي الْحَدِيثِ :
يَكُونُ فِي النَّاسِ مَوْتَانٌ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ ، فَالْمَوْتَانُ : الْمَوْتُ الْكَثِيرُ الْوَقُوعُ .

✽ ✽ ✽

وَمِنْ صِفَاتِ الْمَوْتِ : مَوْتُ زَوَامٍ : أَيْ كَرِيهِ ، وَقِيلَ : عَاجِلٌ ، وَقِيلَ :
سَرِيعٌ مُجْهِزٌ ، وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ هُوَ الْأَصَحُّ ؛ وَمِنْ أَوْصَافِهِ أَيْضًا : مَوْتُ زُعَافٍ
وَزُعَافٍ وَزُؤَافٍ وَجُحَافٍ ، جُحَافٌ : شَدِيدٌ يَذْهَبُ بِكُلِّ شَيْءٍ يَقَالُ : سِيلَ
جُحَافٌ وَجُرَافٌ : يَذْهَبُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَزُعَافٌ وَزُؤَافٍ وَزُعَافٌ : سَرِيعٌ
وَحَيٌّ ، وَقِيلَ : شَدِيدٌ ، وَمِنْهَا : مَاتَ قَعَصًا : أَيْ مَوْتًا وَحِيًّا ، وَيُقَالُ لِمَنْ مَاتَ
فُجَاءَةً : فَقَسَ يَفْقِسُ فُقُوسًا ، وَفَقَسَ يَفْقِطُ فُقُطُوسًا ، وَيُقَالُ لَعِقَى إَصْبَعُهُ
وَطَنَّ وَتَلَبَّلَ : أَيْ مَاتَ ، وَيُقَالُ أَطْلَى الرَّجُلُ : أَيْ مَالَتْ عُنُقُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ ،
وَيُقَالُ : جَرَضَ بَرِيقَهُ ، وَأَصْلُ الْجَرَضِ : الْغَضَّةُ ، وَالْمُرَادُ : عَانَى غَضَصَ الْمَوْتِ

ومن ذا المثلُ : حالَ الجريضِ دونَ القريضِ ، قاله عبيد بن الأبرص للمنذر حين أراد قتله وقال له : أنشدني من قولك ، فقال عند ذلك : حال الجريض دون القريض ، «الجريض : الغصصُ واختلاف الفكَيْن عند الموت ، والقريض : الجرة»^(١) - لأنه إذا غص لم يقدر على قرض جرته ، والقريض أيضاً : الشجر ، ويقال استأثر الله به ، وانحلَّ تركيبه ، وبخى لما خلق له ، وأناه ما كان يحذر ، وأكل الدهر عليهم وشرب ، وهذا مقلوب ، وإنما هو : أكلوا على الدهر وشربوا ؛ وصفر وطابه ، ومعناه : أن جسمه خلا من روحه ؛ وأجود وصف للبوت قول سيدنا رسول الله : أكثرُوا من ذكرها ذمِّ اللذات^(٢) ... ولنجتزئ بهذا المقدار^(٣)

تعظيم أمر الموت

قال الحسن البصري : إن الموتَ قد فضح الدنيا ...
وكان كثيراً ما يقول : عند الموت يأتيك الخبر ... وقال له رجل يوماً
إن عشتَ تر ما لم تره ، فقال : إن متَّ تر ما لم تره ... وفي الأثر : ما رأيتُ
منظراً فظيماً إلا والموتُ أعظم منه ...

(١) الجرة : ما يخرج البعير وكل ذي كرش ليضعه ثم يياحه
(٢) قرأ هادم بالذال المهملة وبالذال المعجمة ومعناها مزيل الشيء من أصله والرواية بالمعجمة .
(٣) إذا أردت التوسع في أوصاف الموت وأسمائه فإلى الجزء السادس من

المختص لابن سيده

حشهم على تصور الموت

كان الحسنُ البصريُّ إذا خَوَّف من الموت يقول للشَّيرخ : الزرعُ إذا
بانغ ما يُصنَّع به ؟ قالوا : يُحصَد ، ويقول : للشَّبان : يامعشرَ الشَّبان كم
من زرع لم يبلُغ أدركته الآفة !

وقال بعضُ الخلفاء لابن السماك ^(١) : عِظني وأَوْجِزْ ، فقال : اعلمُ أنك أوَّل
خليفة تموت ؛ وهذا كما سأل أَرَدشِيرُ بعضَ الحكماء عن دار بناها وقال : هل
ترى فيها عيباً ؟ قال الحكيم : نعم ، عيباً لا يمكنك إصلاحه ، فقال وما هو ؟
قال : لك منها خُرْجة لا عود بعدها أَرَدخَلَةُ لا خروج بعدها ... وقالوا :
من ضاق به أمرٌ فليذكر الموت فإنه يتسَّعُ عليه ... ونحوه : مَنْ أَحْسَنَ بآنه
يموتُ فليس يَبْنِي أن يَنْتَمَ لِأمرٍ صَعْبٍ ينزل به .

وشكا رجلٌ إلى سيدنا رسول الله قساسة قلبه فقال صلوات الله عليه :
أَكْثَرُ مَنْ ذَكَرَ هَازِمَ اللَّذَاتِ ، فإنه ما ذكره أَحَدٌ في ضيقٍ إلا وَسَّعَهُ عليه
ولا في سَعَةٍ إلا ضَيَّقَهَا عليه ... وقال بعضُ الصالحين : نَعَمْ نصيحةُ القلب
ذِكْرُ الموت ، بطرْدُ فضول الأمل ، وَيُكَفِّفُ غَرْبَ الْمَنَى وَيَهْوِي المصائب ، ويحول
بين القلب وبين الطغيان ... وقال الحسنُ البصريُّ - وقد قعد عند رأس
مَيِّتٍ : إن أمرا هذا آخره لأهلٌ أن يُزَهَّدَ فيما قَبْلَهُ ، وإن أمرا هذا أوله
لَأَهْلٌ أن يُحَذَّرَ ما بعده ، ونظر الحسن إلى صبيَّة بين جنازة أبيها تقول :
يا أَبَتِ مِثْلَ يومك لم أره ، فضمَّها الحسن وقال : أَيْ بُلْبُلَةٍ ، وأبوكِ مثلَ
هذا اليوم لم يره ؛ فبكى الناس ... ومر عليُّ بن أبي طالب رضى الله عنه بقابر

(١) هو أبو العباس محمد بن صباح العابد المحدث المتوفى سنة ١٨٣

الكوفة فقال : السلام عليكم أهل الديار الموحشة ، والمحال المفقرة ، أتم لنا
سلف ونحن لكم تبع ، أما الأزواج فقد نكحت ، وأما الديار فقد سكنت ،
وأما الأموال فقد قُسمت ؛ هذا خبر ما عندنا ، فما خبر ما عندكم ؟ ثم النفث
إلى أصحابه فقال : أما إنهم لو تكلموا لقالوا : إنا وجدنا خير الزاد التقوى .

استدلال الإنسان

على موته بمن مات من أهله

قال أبو نواس من آيات قد أوردناها عليك في باب التقوى :
أيا ابنَ الذين قنوا وماتوا أما والله ما ماتوا لتبقى
وقال بعض الصالحين : إن امرأة ما بينه وبين آدم أب إلا ميت لمعرق في
الموت ... وقال لييد :

فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب لملك تهديك القرون الأوائل
فإن لم تجد من دون عدنان باقيا ودون معية فلتزعك العواذل
وهذان البيتان من قصيدة يرثي بها النعمان بن المنذر ملك الحيرة وأولها :
ألا تسألن المرأة ماذا يجاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل
وفيها يقول :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعم لا تحالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهمته تصفر منها الأنامل
وقوله : فإن أنت لم تصدقك ... أبيت يقول : إن لم تصدقك نفسك عن
هذه الاخبار ، بل كذبتك ، فانتسب : أي قل : أين فلان بن فلان ، فإنك
لا ترى أحدا بقي ، وملك تهديك القرون وتريدك ، وقوله : فإن لم تجد ... أبيت

وَتَزْعَكُ : تَكْفُفُكَ ، وَالْعَوَازِلُ هُنَا : حَوَادِثُ الدَّهْرِ وَزَوَاجِرُهُ ، وَقَالَ
بَعْضُ الشَّرَاحِ : الْعَوَازِلُ : النِّسَاءُ ، يَقُولُ : لَمْ يَبْقَ لَكَ أَبٌ حَتَّى إِلَى عَدْنَانَ
فَكَفَّتْ عَنِ الطَّمَعِ فِي الْحَيَاةِ ، وَمَعْنَى الْبَيْتَيْنِ : إِنْ غَايَةَ كُلِّ حَتَّى الْمَوْتُ ، فَيَنْبَغِي
لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَعَظَّ : بِأَنْ يَلْتَسِبَ نَفْسَهُ إِلَى عَدْنَانَ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ
مِنَ الْآبَاءِ بَاقِيًا فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ يَصِيرُ إِلَى مَصِيرِهِمْ ، فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنْزِعَ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ «
وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

فَبَعْضَ اللَّوْمِ عَازِلَتِي فَإِنِّي سَيَكْفِنِي التَّجَارِبُ وَانْتِسَابِي
إِلَى عِرْقِ الثَّرَى وَشَجَّتْ عُروقي وَهَذَا الْمَوْتُ يَسْلُبُنِي سُبَابِي
« وَشَجَّتْ : اسْتَبَكَتْ » وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَصِيدَةٍ لَهُ يَمْدَحُ مَالِكَ بْنَ طَوِيقٍ
وَيُعْزِيهِ عَنْ أَخِيهِ الْقَاسِمِ :

تَأْمَلْ رُوَيْدًا هَلْ تَعُدُّنْ سَالِمًا إِلَى آدَمِ أَمْ هَلْ تَعُدُّ ابْنَ سَالِمٍ
مَتَى تُرْغِ هَذَا الْمَوْتَ عَيْنًا بِصِيرَةٍ تَجِدُ عَادِلًا مِنْهُ شَيْمًا بِظَالِمٍ
« قَوْلُهُ : مَتَى تُرْغِ أَلْبَيْتَ يَقُولُ : مَتَى أَنْعَمْتَ النَّظَرَ وَأَفَكَّرْتَ فِي أُمُورِ الْمَوْتِ
وَجَدْتَ مِنْهُ عَادِلًا أَشَبَّهَ بِظَالِمٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ يَخْتَرِمُ مَنْ يَكُونُ اخْتِرَامُهُ أَصْلَحَ
لَهُ لَدَى الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ الَّذِي يَعْلَمُ مَصَالِحَ خَلْقِهِ وَقَدْ يَخْفَى عَلَيْكَ وَجْهُ الْحِكْمَةِ
فَتُظَنُّ الْعَدْلَ جَوْرًا ،

وَقَالَ الْبُحْتَرِيُّ

وَمَا أَهْلُ الْمَنَازِلِ غَيْرُ رَكْبٍ مَنَابِهِمُ رَوَاحُ وَابْتِكَارُ
لَنَا فِي الدَّهْرِ آمَالٌ طَوَالُ تُرَجِّبُهَا وَأَعْمَارٌ قِصَارُ
وَالْبَيْتُ الثَّانِي مِثْلُهُ قَوْلُ ابْنِ هَانِي الْأَنْدَلُسِيِّ مِنْ أَيْاتِ يَرْتِي بِهَا وَالِدَةَ
يَحْيَى وَجَعْفَرَ ابْنَيْ عَلِيٍّ صَاحِبِ الْمَدِينَةِ بِالْمَغْرِبِ ، وَهَذِهِ هِيَ الْآيَاتُ :

صَدَقَ الْفَنَاءُ وَكَذَّبَ الْعُمُرُ وَجَلَّ الْعِظَاتِ وَبَالَغَ الذُّذُرُ
 إِنَّا ، وَفِي آمَالِ أَنْفُسِنَا طُولُ وَفِي أَعْمَارِنَا قِصْرُ
 لَنَرَى بِأَعْيُنِنَا مَصَارِعَنَا لَوْ كَانَتِ الْأَلْبَابُ تَعْتَبِرُ
 مِمَّا دَهَانَا أَنْ حَاضِرَنَا أَنْجَانُنَا ، وَالْغَائِبُ الْفَسْكَرُ
 وَإِذَا تَدَبَّرْنَا جَوَارِحَنَا فَأَكْثَرُ الْعَيْنِ وَالنَّظَرُ
 لَوْ كَانَتِ الْأَلْبَابُ تُنْتَحَنُ مَا عُدَّ مِنْهَا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ ^(١)
 أَى الْحَيَاةِ الَّتِي عِيشَتَهَا مِنْ بَدِ عِلَى أَنْتَى بَشَرُ
 خَرِسَتْ لَعَمْرُ اللَّهِ أَلْسُنَا لَمَّا تَكَلَّمَ فَوْقَنَا الْقَدَرُ

الاعتبار بمن مات من الكبار

قال عدي بن زيد العبادي :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعِيرُ بِالْذَّهْرِ رَأَيْتُ الْمُهَيَّرَ الْمُفُورُ ^(٢)
 أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَبِقُ مِنَ الْآيَا إِمَّ بَلْ أَنْتَ جَاعِلٌ مَفُورُ
 مَنْ رَأَيْتَ الْمُنُونِ خَلْدُنَ أَمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ ^(٣)
 ابْنَ كِسْرَى كِسْرَى الْمُلُوكِ أَنْوَشَرُ وَإِنْ أَمْ أَنْ قَبْلَهُ سَابُورُ ^(٤)
 وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْكِرَامُ مِلُوكُ الرُّو إِمَّ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكَورُ

(١) أى ما عُدَّ من المتحنات : السمع والبصر ، لأن السمع يسمع المواعظ فلا يتعظ والبصر يبصر العبر فلا ينزجر

(٢) المفور : يريد الذى لم تصبه نوائب الدهر

(٣) المنون : المنية أو الدهر كما تقدم

(٤) هناك سابور الجنود وهو ابن أردشير ، وسابور ذو الاكتاف وهو سابور ابن هرمز وكلاهما من ملوك العجم قبل كسرى أنوشروان

وأخو الحضِرْ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دَجَّ لَهُ مُجْبَى إِلَيْهِ وَالْخَابُورُ ^(١)
 شَادَهُ مَرَمَرًا وَجَلَّاهُ كَأَنَّ سَا فَالْطَيْرِ فِي ذُرَاهُ وَكُورُ ^(٢)
 لَمْ يَهْبَهُ رَبُّ الْمَذُونِ فَبَادَا مُلْكُ عَنْهُ فَبَاهُ مَهْجُورُ
 وَتَذَكَّرَ رَبُّ الْخَوَرِ نَقِي إِذَا أَصْبَحَ يَوْمًا وَلِلْهَدَى تَفْكِيرُ ^(٣)
 سَرَّهُ حَالَهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمْنَعُ لَكَ وَالْبَحْرُ مُعْرِضًا وَالسَّيْرُ ^(٤)
 فَارْعَوَى قَلْبَهُ فَقَالَ : وَمَا غِيْبُ طُهُ حَيَّ إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ
 ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالنَّعْمَةِ مِثْلَ وَارْتَهُمْ هُنَاكَ الْقُبُورُ
 ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَفَّ فَأَلَوْتُ بِهِ الصَّبَا وَالْدَّبُورُ ^(٥)

وما كان يصح أن يذكر في هذا الباب مرثية الوزير الشاعر الأندلسي عبد المجيد ابن عبدون التي يرثي بها بني الأفطس - من ملوك الطوائف بالأندلس - وذكر فيها عدة من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدهر بحوادثه ونكباته، ووثب عليهم الزمان فاوَّجدوا جنةً نعيمهم من وثباته، ودبت عليهم الأيام بصروفها، وسقطتهم

(١) الحضِرْ : قصر كان بجبال تكريت بين دجلة والفرات ، وأخو الحضِرْ كان صاحب تلك الناحية وسائر أرض الجزيرة : وله حديث طريف انظره في الأغاني ج ٢ في ترجمة عدى بن زيد طبع دار الكتب ، والخابور . اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة

(٢) الكلس : الصاروج أي النورة وأخلاطها تطلّى بها المنازل وغيرها، وذراه : أعاليه ، والوكور : جمع وكز : العش

(٣) صاحب الخورنق - وهو القصر الذي بناه سنار - هو النعمان بن امرئ القيس عامل يزدجرد بن سابور على أرض العرب وله قصة انظرها في الأغاني وهو الذي ساق على وجهه فلم يعرف له خبر

(٤) معروض بمعنى متسع ومنه أعرض الثوب أي اتسع وعرض ، والسدير : نهر

(٥) ألوت به : ذهبت به

الْعَيْنِيَّة بِكَاسُ حُتُوفِهَا ، وَمُطْلَعِهَا :

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالْأُصُورِ
يَدُ أَنَا لَطَوَلُهَا وَأَيْنَا أَنْ نَضْرِبَ عَنْ إِرَادِهَا هُنَا صَفْحَا ، وَتَرَاهَا فِي الْمَجْلَدِ
الخَامِسِ مِنْ نِهَآيَةِ الْأَرْبِ لِلنُّوْبَرِيِّ الَّذِي قَامَتْ بِطَبْعِهِ دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ ...
وَقَدْ شَرَحَهَا ابْنُ بَدْرُونَ ، وَمِنْ أَيْبَاتِهَا :

فَلَا تَغُرِّكَ مِنْ دُنْيَاكَ تَوَمُّتُهَا فَمَا صِنَاعَةُ عَيْنِهَا سِوَى السَّهْرِ
مَالِيَّالِي — أَقَالَ اللَّهُ عَثَرَتَنَا مِنْ اللَّيَالِي وَخَاتَمَتَهَا يَدُ الْغَيْرِ
فِي كُلِّ حِينٍ لَهَا فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مَنَاجِرَاحٍ وَإِنْ زَاغَتْ عَنِ الْبَصَرِ
تَسُرُّ بِالشَّيْءِ لَكِنْ كَيْ تَغُرُّ بِهِ كَالْأَيْمِ^(١) نَارًا إِلَى الْجَانِي مِنَ الشَّمْرِ
وَقَالَ الْمُنْبِي :

أَبْنِي أَيْنَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ أَبَدًا عُرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعِنُ
نَبِيَّ عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ جَمَعْتَهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَنْفَرُقُوا
أَيْنَ الْإِكْثِيرَةِ الْجَبَّارَةِ الْأُتَى كَنَزُوا الْكُنُوزَ فَهَآ بَقِيْنَ وَلَا بَقُوا
مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِحَيْثِهِ حَتَّى قَوَى فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ
حُرْسٍ إِذَا تُودُوا كَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْكَلَامَ لَهُمْ حَلَالٌ مُطْلَقُ
وَالْمَوْتُ آتٍ وَالنَّفُوسُ نَفَائِسُ وَالْمُسْتَغْرِ بِمَا لَدَيْهِ الْأَحَقُّ
وَالْمَرْءُ يَأْمُلُ ، وَالْحَيَاةُ شَهِيَّةُ وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ ، وَالشَّيْبَةُ أَنْزَقُ

« أَبْنِي أَيْنَا : يَا إِخْوَتَنَا ، يَا بَنِي آدَمَ ، وَأَرَادَ بِعُرَابِ الْبَيْنِ : دَاعِيَ الْمَوْتِ
يَقُولُ : نَحْنُ نَازِلُونَ فِي مَنَازِلٍ يَنْفَرَقُ عَنْهَا أَهْلُهَا بِالْمَوْتِ ، فَقَوْلُهُ : نَبِيَّ عَلَى

(١) الْإَيْمُ : الْإِنْفَى .

الدنيا... ألبيت مثله قول جرير يرثى امرأته :

لَا يَلْبَثُ الْقُرْنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا لَيْلٌ يَكُرُّ عَلَيْهِمْ وَنَهَارٌ

وثوى - بالمثلثة : أقام في القبر ؛ وبالمثناة : هلك ، وهذا البيت من قول أشجع :

وَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الْأَرْضِ ضَيْقٌ وَكَانَتْ بِهِ حَيًّا ضَيْقُ الصَّاحِصِ

« الصَّاحِصِ جَمْعُ صَحِصَ : وَأَصْلُهُ مَا اسْتَوَى مِنَ الْأَرْضِ وَكَانَ أَجْرَدَ »

والمستغفر : المغرور ، يقول في هذا البيت : النفوس يأتي عليها الموت وإن

كانت عزيزة نفيسة لا يمنعها ذلك من أخذها ، واللاحق هو المغرور بالدنيا

وبما يجمعه فيها ، أما العاقل فإنه لا يغتر بما جمعه لعله أنه لا يبقى هو ولا ما جمعه ،

وقوله : والمرء يأمل... ألبيت يقول : المرء يرجو الحياة لطيبها لذته ،

والشيب أكثر له وقاراً من الشباب ، يعني : أن المرء يكره الشيب ويحب

الشباب والشيب خير له ، لأنه يكسبه الحلم والآنسة والوقار ، والشباب شر

له ، لأنه يحمله على الطيش والنزق والحُمق ، وقال الشاعر :

رُبَّ قَوْمٍ عَبَرُوا مِنْ عَيْشِهِمْ فِي نَعِيمٍ وَسُرُورٍ وَغَدَقٍ

سَكَتَ الدَّهْرُ زَمَانًا عَنْهُمْ ثُمَّ أَبْكَاهُمْ دَمًا حِينَ نَظَنُّ

« الغدق المراد به الخصب والسعة » وقال مالك بن دينار :

أَتَيْتُ الْقُبُورَ فَنَادَيْتُهُنَّ أَيْنَ الْمَعْظَمِ وَالْمُحْتَقَرِ

وَأَيْنَ الْمُدِلِّ بِسُلْطَانِهِ وَأَيْنَ الْمُرَكِّي إِذَا مَا أَفْتَحَرِ

قال : فتوديت من بينها ولا أرى أحدا :

تَفَاتَرُوا جَمِيعًا فَمَا نُخِيرُ وَمَاتُوا جَمِيعًا وَمَاتَ الْخَبِرُ

تَرُوحُ وَتَغْدُو بَنَاتُ النَّرَى وَتَمَحُّوْ حَاسِنَ تِلْكَ الصُّوَرِ

فِي سَائِلِي عَنْ أَنْاسٍ مَضَوْا أَمَا لَكَ فِيمَا تَرَى مُعْتَبَرًا

« بنات الثرى : الدود » ...

ونزل النعمانُ بنُ المنذرِ ومعه عدىُّ بنُ زيدِ العبادىُّ فى ظلِّ شجرة عظيمةٍ
ليتلُّوها ، فقال له عدى : أتدرى ما نقولُ هذه الشجرة ؟ قال : لا ،
قال : تقول :

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَمْزُجُونَ الْخَمْرَ بِالمَاءِ الزَّلَالِ
نُمُّ أَصْحَوَا عَصَفَ الدَّهْرِ بِهِمْ وَكَذَاكَ الدَّهْرُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ

ونظرتِ امرأةٌ إلى جعفر بن يحيى البرمكى وزير الرشيد ، وهو مصلوب
فقلت : لئن كنتِ فى الحياة غايَةً فلقد صرتِ فى المماتِ آية ... ولما ماتَ
الإسكندرُ المقدونى وَقَفَ عليه أرسطو الفيلسوف فقال : طالَمَا كان هذا
الشخصُ واعظًا بليغًا ، وما وَعَظَ بمَوْعِظَةٍ فى حَيَاتِهِ أَبْلَغَ من عِظَتِهِ فى مَمَاتِهِ ،
أَخَذَ هذا المعنى أبو العتاهية فقال :

وكانت فى حَيَاتِكَ لى عِظَاتٌ وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا

من مات فَقَدْ تَنَاهَى فى البَعْدِ

قال النابغة الذبياني :

حَسْبُ الخَالِئِينَ نَأَى الأَرْضِ بَيْنَهُمَا هذا عليها وهذا تحتها بالي
وقال أبو حية النميرى :

فلا غائبٌ من كان يُرَجَى إِيابُهُ وَلَكِنَّهُ مَن ضَمَّنَ اللَّحْدَ غَائِبُ

غفلة الناس عن الموت

قال أبو العتاهية :

الناس في غفلاتهم ورَحَى الْمَنِيَّةِ تَطْحَنُ
وقال الحسن البصري : مارأيتُ يَقيِنًا لاشكَّ فيه أشبه بِشكِّ لا يقين فيه
مثل الموت ، وقد تقدم ، وقال عمرُ بنُ عبد العزيز في خطبة له : ما هذا
التغافلُ عما أمرُتم به ، والتسرُّعُ إلى ما نُهيتم عنه ! إن كنتم على يقين فأتتم
حَقَّقُ ، وإن كنتم على شكِّ فأتتم هَلَكى ...

وقال شاعر :

ونأملُ من وعْدِ المَنَى غيرَ صَادِقٍ ونأمنُ من وعْدِ المَنَى غيرَ كاذِبٍ
نُراغُ إذا ما شِيكَ لِمَخْصُ بعضنا وأقدأنا ما بين شوكِ العقاربِ
« المَنَى : جَمْعُ المَنِيَّةِ وهو ما يَتَمَنَّاهُ المرءُ ، والمَنَى : الموت ، وأصله القَدَرُ
تقول : مَنَى اللهُ لَكَ ما يَسُرُّكَ : أى قدر الله لك ما يَسُرُّكَ ويسمى الموت بالمَنَى
لأنه قَدَرٌ علينا ، وقيل : مَنْ لم يَرْتَدِّعْ بالموتِ وبالقرآنِ ثم تَطَاوَحَتِ الجِبَالُ
بين يَدَيْهِ لم يَرْتَدِّعْ .

لا ينجو من الموت أحد

قيل : مَنْ لَمْ يَمُتْ عاجِلاً ماتَ آجِلاً ؛ وقال أُمَيَّةُ بنُ أَبِي الصَّلْتِ :
مَنْ لَمْ يَمُتْ عِبْطَةً يَمُتْ هَرَمًا لِلْمَوْتِ كَأْسُ والمرءُ ذائقُها
مالذَّةِ النفسِ في الحياةِ وإن عاشت قليلاً فالموت لآحِقُها
يَقُودُها قَائِدٌ إِلَيْهِ وَيَحْدُوها حَاشِيَةٌ إِلَيْهِ سَانِقُها

« يقال : مات فلان عبطةً : أى شاباً ، وقيل : شاباً صحيحاً ، وأصل العبط من اللحم : ما كان سليماً من الآفات ويقال : عبط الشاة والناقة وكل دابةً : تحرها أو ذبحها من غير داء وهي فتية ،

وقيل لابن المقفع : قد كنت نعت لنا فقال : ما بعد كائن ولا قرب بان ... وقال ابن المعتز :

ألا إنما جسمي لروحي مطيةٌ ولا بد يوماً أن يعرَى من الرّحل

« الرّحل : المنزل ، والسرّج يوضع على ظهر الدابة ، وعرّى منه نزع عنه وهذا على المثل ، وقال محمود الوراق :

وما صاحب السبعين والعشر بعدها بأقرب ممن حنّكته للقوايلُ

ولكن آمالاً يؤملها الفتى وفيهنّ للراجلين حتى وباطلُ

« التوابل جمع قابلة : المرأة تتلقى الولد لدى الولادة « المولدة » وحنّكته

فالتحنّيك : أن تمضغ التمر ثم تدلكه بحنك الصبي داخل فيه ، ...

وقال المتنبي :

وأوفى حياة الغارين لصاحب حياة امرئ خاتته بعد مشيب

« يريد المتنبي : أن الحياة وإن طالت فهي إلى انقضاء ، يقول : أوفى عمر

أن يبق حتى المشيب ثم يخونه عمره بعد ذلك ، وتصاراه الموت ، أو تقول : إذا

عاش المرء إلى بلوغ المشيب ثم خاتته حياته يومئذ فقد تناهت في الوفاء .

ومرّ شيخ من العرب بغلام فقال له الغلام : أحصدت ياعمى ، فقال : يا بني ،

وأنحضرّون « أحصدت : آن لك أن تحصد ، وتختضرون : تموتون خضراً في

شبابكم .

الموت لا يتحرز منه بشيء

ولو كان الطَّبَّ

قال المتنبي :

يموتُ راعي الصَّانِ في جَهْلِهِ مَوْتَهُ جالِينُوسَ في طَبِّهِ
ورُبَّمَا زَادَ على عُمْرِهِ وزادَ في الأَمْنِ على سِرِّهِ ^(١)
وقبل هذين البيتين :

لا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ ضَجْمَةٍ لا تَقْلِبُ المُضْجَعُ عَنْ جَنْبِهِ ^(٢)
يَلْسَى بِهَا مَا كَانَ مِنْ عُجْبِهِ وما أذاقَ المَوْتَ مِنْ كَرْبِهِ ^(٣)
نَحْنُ بنو المَوْتِ فما بَالُنَا نَعَا فَمَا لا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ ^(٤)
تَبَخَّلْ أَيْدِينَا بِأَرْوَاحِنَا على زَمَانٍ هِيَ مِنْ كَسْبِهِ ^(٥)
فهذه الأَرْوَاحُ مِنْ جَوْهٍ وهذه الأَجْسَامُ مِنْ تُرْبِهِ ^(٦)

(١) السرب : النفس (٢) لا بد للإنسان من اضطجاع في القبر يبقى بتلك الضجعة لا يقلبه ذلك الاضطجاع إلى يوم البعث .

(٣) إذ انزل القبر نسي الإعجاب وما ذاق من شدة الموت ، وهكذا الميت .
(٤) نحن بنو الأموات والموت كأس مداراة علينا ولا بد لنا من شربها فما بالنا نكرها !
فكما مات أبائنا فنحن على آثارهم . كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض أصحابه يعزیه في أبيه : أما بعد ، فإيا أمان من أهل الآخرة سكنا في الدنيا ، أموات ، آباء أموات ، أبناء أموات ، فالعجب لميت يكتب إلى ميت يعزیه عن ميت ...

(٥) تبخل أيدينا بأرواحنا ونمسك بها بخلاها على الزمان والأرواح بما أكسبه الزمان اقال حكيم : إذا كان تناثر الأرواح من كرور الأيام فما لنا نعا فرجوعها إلى أما كتبنا !

(٦) الإنسان مركب : من جوهر لطيف وجوهر كثيف ، فالأرواح من الجوهر والهواء ، والأجسام من التراب ، وكل عنصر عائد إلى عنصره

لَوْ فَكَّرَ العَاشِقُ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الذِي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ (١)

لَمْ يُرْ قَرْنُ الشَّمْسِ فِي شَرْقِهِ فَشَكَّتِ الأَنفُسُ فِي غَرْبِهِ (٢)

إِلَى أَنْ قَالَ بَعْدَ الْبَيْتَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ آتِفًا:

وَعَايَةُ الْمُفْرِطِ فِي سِسْلِهِ كَعَايَةُ الْمُفْرِطِ فِي حَرْبِهِ (٣)

فَلَا قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ فَوَادِهِ يَخْفِقُ مِنْ رُغْبِهِ (٤)

وقيل للربيع بن حُثَيْمٍ فِي مَرَضِهِ: أَلَا نَدْعُو لَكَ طَبِيبًا؟ قَالَ: أَنْظِرُونِي، ثُمَّ فَكَّرَ فَقَالَ: وَعَادًا وَنُمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا، لَقَدْ كَانَ فِيهِمْ أَطِبَّاءُ، فَمَا أَرَى الْمُدَاوِي يَبْقَى وَلَا الْمُدَاوِي صَلُحَ

وَدَخَلَ الْفَرَزْدَقُ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ فَسَمِعَهُ يَطْلُبُ طَبِيبًا فَقَالَ:

يَا طَالِبَ الطَّبِّ مِنْ دَاءٍ نَخَوْنَهُ إِنَّ الطَّبِيبَ الَّذِي أَهْلَكَ بِالْءَاءِ

هُوَ الطَّبِيبُ الَّذِي يُرْجَى لِعَاقِبَتِهِ لَا مَنْ يَدُوفُ لَكَ التَّرْيَاقَ بِالْءَاءِ

« الَّذِي أَبْلَى الْمَرِيضَ بِالْءَاءِ وَالَّذِي يَرْجَى لِعَاقِبَةٍ: هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

وَيَدُوفٌ: يَخْلُطُ . وَنَخَوْنَهُ: غَيَّرَ حَالَهُ إِلَى أَسْوَأِهَا، وَيُرْوَى: نَخَوْنَهُ وَالتَّرْيَاقُ:

الدَّوَاءُ هُنَا، وَأَهْلَاهُ: صَنَعَ بِهِ مَا يَمْتَحِنُ بِهِ وَيَخْتَبِرُ

(١) العاشق للشيء المستهان به لو أفكر في منتهى حسن المعشوق وأنه يصير إلى زوال لم يعشقه ولم يملك عشقه إياه عليه أمره . وهذا يطرد في كل شيء .

(٢) لا بد من الفناء فالشمس من رآها طالعة علم أنها غاربة لاحالة، كذلك كل شيء مصيره إلى الزوال .

(٣) إن الذي أفرط وجاوز الحد في السلم كالذي أفرط وجاوز الحد في الحرب، الكل إلى فناء وإذن لا عذر لمن يجزع قال حكيم: آخر إفراط التوق أول موارد

الختوف (٤) من خاف الموت لا أدرك حاجته، بدعو المتنبئ على الجبان - لأنه إذا كان الهلاك متيقناً فلم يخاف الإنسان من الموت ويجزع فزعاً منه !

وقال ابن الرومي :

عَلَطَ الطَّيِّبُ عَلَى غُلْظَةٍ وَوَرِدَ عَجَزَتْ مَوَارِدُهُ عَنِ الْإِصْدَارِ
وَالنَّاسُ يَلْحَوْنَ الطَّيِّبَ وَإِنَّمَا عَلَطَ الطَّيِّبُ لِإِصَابَةِ الْمِقْدَارِ^(١)
وقال أبو ذؤيب الهذلي :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَثْبَتَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
وقال علي بن الجهم :

كَمْ مِنْ عَلِيلٍ قَدْ تَخَطَّاهُ الرَّدَى فَتَجَا وَمَاتَ طَبِيبُهُ وَالْعَوْدُ

وقد أخذ هذا من قول عدى بن زيد :

أَيْنَ أَهْلُ الدِّيَارِ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ثُمَّ عَادُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَمُودُ
بَيْنَمَا هُمْ عَلَى الْإِسْرَةِ وَالْأَزَى مَا طِ أَفْضَتْ إِلَى الثُّرَابِ الْخَدُودُ
ثُمَّ لَمْ يَنْقُضِ الْحَدِيثُ وَلَكِنْ بَعْدَ ذَا الْوَعْدِ كُكَلُهُ وَالْوَعِيدُ
وَأَطْبَاءُ بَعْدَهُمْ لِحَقْوِهِمْ ضَلَّ عَنْهُمْ سَعُوطُهُمْ وَاللَّدُودُ
وَصَحِيحُ أَخِي يَعُودُ مَرِيضًا وَهُوَ أَذْنُ الدَّوْتِ يَمْنُ يَعُودُ

« السَّعُوطُ : الدَّوَاءُ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنَ الْإِنْفِ ، وَاللَّدُودُ : مَا يُؤْخَذُ مِنْ

الدَّوَاءِ بِالْمُسْقَطِ وَيُصَبُّ فِي أَحَدِ شِقَى الْقَمْرِ ، وَيُرْوَى : أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ
هَرَبَ مِنَ الطَّاعُونَ ، فَرَكِبَ لَيْلاً وَأَخْرَجَ غُلَاماً مَعَهُ ؛ وَكَانَ يَنَامُ عَلَى دَابَّتِهِ ،
فَقَالَ لِلْغُلَامِ : حَدِّثْنِي ، فَأَقْلَ وَمَنْ أَنَا حَتَّى أَحْدِثَ لَكَ ؟ فَقَالَ : عَلَى كُلِّ حَالٍ حَدِّثْ
حَدِيثًا سَمِعْتَهُ ، فَقَالَ : بَلْغَنِي : أَنَّ ثَمَلِيًّا يَخْدُمُ أَسَدًا لِيَتَحَمَّيَهُ وَيَمْنَعَهُ يَمْنُ يُرِيدُهُ
فَكَانَ يَحْمِيهِ ، فَرَأَى الثَّمَلِيَّ عُقَابًا ، فَجَاءَ إِلَى الْأَسَدِ ، فَأَقْعَدَهُ عَلَى ظَهْرِهِ ، فَانْقَضَ
الْعُقَابُ وَاخْتَلَسَهُ ، فَصَاحَ الثَّمَلِيُّ : يَا أَبَا الْحَارِثِ ، أَغْنِنِي وَادْكُرْ عَهْدَكَ لِي

(١) يلحون : يلومون ، والمقدار : القدر

فقال الأسد: إنما أقدر على منعك من أهل الأرض، وأما أهل السماء فلا سبيل لي إليهم، فقال عبدُ الملك: وَعَظَمَتْنِي وَأَحْسَنْتَ، انصرفَ ورَضِيَ بالقضاء...

ولمناسبة الحرب من الطاعون نورد هنا ما أوردنا نظيره في قولنا على التوكل، وهو أن عُمرَ بن الخطَّاب رضوانُ الله عليه لما بلغه أن الطاعون وقع بالشام فانصرفَ بالناس: قال له أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم تفر من قدر الله إلى قدر الله؛ أرايت لو أن لك إبلاً هبَّطت بها وادياً له جهتان إحداها خصيبة والأخرى جديبة، أليس لو رعيت في الخصيبة رعيتها بقدر الله، ولو رعيت الجديبة رعيتها بقدر الله؟ وكان عبد الرحمن بن عوف غائباً فأقبل، فقال: عندي في هذا علمٌ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إذا سمعتم به - بالطاعون - في أرض فلا تقدّموا عليها، وإذا وقع في أرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، فحمد الله عُمر ثم انصرف بالناس...

وقال المتنبي:

نُعِدُّ المَشْرِفِيَّةَ والعَوَالِي وَتَقْتُلُنَا المَنُونُ بِلا قِتَالِ
وَنَرْتَبِطُ السَّوَابِقَ مُقَرَّبَاتٍ وَمَا يُنْجِيَنَّ مِنْ حَبِّ اللَّيَالِ
وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيماً؟ وَلَكِنْ لَسَبِيلٌ إِلَى الوَصَالِ

«المشرقية: السيوف -، والعوالى: الرماح، والمنون: الموت، والسوابق جمع سابق وسابقة، والمقربات من الخيل هي الكرام التي ترتبط لكرامتها على أصحابها أو لقرط الحاجة إليها والخب: عدو ولا يستفرغ الجهد؛ يقول المتنبي: نحن نُعِدُّ السُّيُوفَ والرَّماحَ لِمَنَازِلَةِ الأَعْدَاءِ وَمُدَافَعَةِ الأَقْرَانِ؛ والموتُ يَخْتَرِمُ نَفُوسَنَا

دُونِ قِتَالٍ أَوْ نِزَالٍ ، لَا يُمَكِّنُنَا حِذَارُهُ وَلَا يَتِيأُ لَنَا دِفَاعُهُ ، ثُمَّ قَالَ فِي الْبَيْتِ
الثَّانِي : وَنَرْتَبِطُ الْخِيُولَ الْكَرِيمَةَ وَمَعَ هَذَا لَا تُتَجَنَّبُ مِنْ طَلَبِ الدَّهْرِ لِإِيَانَا
وَتَحَبُّبِ لِيَالِيهِ فِي آثَارِنَا :

كَأَنَّا فِي حُرُوبٍ مِنْ حَوَادِثِهِ فَتَنَحْنُ مِنْ بَيْنِ مَجْرُوحٍ وَمَطْعُونٍ
وَقَدْ تَقْدُمُ مَعْنَى الْبَيْتِ الثَّالِثِ .

موت الفجاءة والصحيح يموت

قِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : مَاتَ فُلَانٌ أَصَحَّ مَا كَانَ ! فَقَالَ : أَوْ صَحِيحٌ مَنِ الْمَوْتُ
فِي عُقْفِهِ ! وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ : اللَّهُمَّ اجْرِنِي مِنْ أَنْ أَكُونَ
مُخْتَلِسًا ، أَيْ يَخْتَلِسُهُ الْمَوْتُ عَلَى غَفْلَةٍ ، وَفِي الْحَدِيثِ : بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ مَرَضًا
حَاسِبًا أَوْ مَوْتًا خَالِسًا ، وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : كَيْفَ مَاتَ أَبُوكَ ؟ قَالَ : مَاتَ سِرًّا
« أَيْ بَغَاةً » ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَرُبَّمَا غُوفِصَ ذُو غِرَّةٍ أَصَحَّ مَا كَانَ وَلَمْ يَسْلَمْ
« يَقَالُ : غَافِصَ الرَّجُلُ مُغَافَصَةً وَغِفَاصًا . أَخَذَهُ عَلَى غِرَّةٍ فَرَكِبَهُ بِمَسَاءَةٍ »
وَقِيلَ لِرَجُلٍ : مَا كَانَ سَبَبُ مَوْتِ فُلَانٍ ؟ قَالَ : كَوْنُهُ « أَيْ وَجُودُهُ » ، وَالْبَيْتُ
الْمَشْهُورُ فِي هَذَا :

مَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بَغْيَرِهِ تَنَوَّعَتِ الْأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدٌ

كل إنسان معرض لموته أو موت أحبته

قَالَ حَكِيمٌ : مَنْ طَالَ عُمُرُهُ رَأَى الْمَصَائِبَ فِي إِخْوَانِهِ وَجِيرَانِهِ ، وَمَنْ قَصُرَ
عُمُرُهُ كَانَتْ مَصِيبَتُهُ فِي نَفْسِهِ ؛ وَقَالَ الشَّاعِرُ :

فَمُؤَجَّلٌ يَلْقَى الرَّدَى فِي أَهْلِهِ وَمُعْجَلٌ يَلْقَى الرَّدَى فِي نَفْسِهِ
وقال يزيد بن الحكم النقي :

كُلُّ امْرِئٍ سَتَنِيحُ مِنْهُ الْعِرْسُ أَوْ مِنْهَا يَنْيَمُ
« العرس : الزوجة ، وآمت المرأة من زوجها تَنِيحُ وتَأَيَّمَتْ مات عنها
زوجها أو قُتِلَ وأقامت لا تزوج ، وكذلك الرجل ، »

جهل الإنسان بوقت موته

قال الله جل شأنه : وما تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وما تَدْرِي
نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ... وقيل لجعفر بن محمد بن علي رضي الله عنهم :
كيف يأتي الموت من وجوه شتى ، على أحوال شتى ؟ فقال : إن الله أراد أن
لا يُؤْمَنَ فِي حَالٍ ... وقالوا : أُنْزِلْ لا تَدْرِي مَتَى يَغْشَاكَ إِلَّا تَسْتَعِدُّ لَهُ قَبْلَ
أَنْ يَفْجَأَكَ ! وقال ديك الجن ^(١)

وَالنَّاسُ قَدْ عَمِلُوا أَنْ لَا بَقَاءَ لَهُمْ لَوْ أَنَّهُمْ عَمِلُوا بِمِقْدَارِ مَا عَمِلُوا

الموت يسوي بين الأفاضل والأراذل

قال المتنبي في رثائه أبا شجاع فاتكا :

(١) هو أبو محمد عبد السلام بن رغبان الملقب بديك الجن من شعراء الدولة
العباسية ولد سنة ١٦١ هـ وتوفي سنة ٢٣٦ هـ ومن قوله في الخمر وقد أعجب به
أبو نواس :

ظَلَّلْنَا بِأَيْدِينَا نَتَنَبَّعُ رُوحَهَا فَتَأْخُذُ مِنْ أَقْدَامِنَا الرَّاحُ ثَارَهَا
مُورَدَةٌ مِنْ كَفِّ ظَنِّي كَأَنَّمَا تَنَاوَلَهَا مِنْ خَدِّهِ فَأَدَارَهَا

وَصَلْتُ إِلَيْكَ يَدٌ سَوَاءٌ عِنْدَهَا أَلْبَازُ الْأَشْهَبِ وَالْغُرَابُ الْأَبْقَعُ
 «الباز الأشهب : الذي غلب عليه البياض ، والأبقع : الذي في صدره
 بياض يقول المتنبي : وصلت إليك يدٌ - يريد المنيّة - الشريف والوضيع لديها
 سواء ، فعلمها مع الباز الأشهب مع كرمه كفضلها بالغراب الأبقع مع قبحه
 ودمايته ، وهذا على المثل » ... وَيُرْوَى أَنَّ الْإِسْكَندَرَ الْمَقْدُونِيَّ مَرَّ بِمَدِينَةٍ
 قَدْ مَلَكَهَا غَيْرُهُ مِنَ الْمُلُوكِ ؛ فَقَالَ : انْظُرُوا هَلْ بَقِيَ بِهَا أَحَدٌ مِنْ نَسْلِ
 مُلُوكِهَا ؟ فَقَالُوا : رَجُلٌ يَسْكُنُ الْمَقَابِرَ ، فَأَحْضَرَهُ وَسَأَلَهُ عَنْ إِقَامَتِهِ هَذِهِ ؛
 فَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ أُمَيِّزَ عِظَامَ الْمُلُوكِ مِنْ عِظَامِ عِبِيدِهِمْ فَوَجَدْتُهَا سَوَاءً ،
 فَقَالَ : هَلْ تَتَّبِعُنِي فَأُخْبِيَ لَكَ شَرْكَكَ إِنْ كَانَ لَكَ هِمَّةٌ ؟ فَقَالَ : هِمَّتِي عَظِيمَةٌ
 إِنْ أَنَا لَتَنَيْتُهَا ، فَقَالَ : مَا هِيَ ؟ قَالَ : حَيَاةٌ لَا مَوْتَ مَعَهَا ، وَشَبَابٌ لَا هَرَمَ مَعَهُ ،
 وَغِنَى لَا فَقْرَ مَعَهُ ، وَسُرُورٌ لَا مَكْرُوهَ فِيهِ ، فَقَالَ : لَيْسَ عِنْدِي هَذَا ، فَقَالَ :
 دَعْنِي أَتَمَتِّسَ بِمَنْ هُوَ عِنْدَهُ ، فَقَالَ : مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ حَكِيمًا ؛ ... وَقَالَ مَالِكُ بْنُ
 دِينَارٍ : قَدِمَ عَلَيْنَا بَشْرُ بْنُ مَرْوَانَ أَخُو الْخَافِظَةِ - عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ -
 فَطَعَنَ - أَصَابَهُ الطَّاعُونَ - فَمَاتَ فَأُخْرِجْنَاهُ إِلَى الْقَبْرِ ، فَلَمَّا صِرْنَا إِلَى الْجَبَانِ
 - الْجَبَانَةِ - إِذَا نَحْنُ بِسُودَانٍ يَحْمِلُونَ صَاحِبًا لَهُمْ إِلَى الْقَبْرِ ، فَدَفَنَاهُ وَدَفَنُوا
 صَاحِبَهُمْ ، فَعُدْتُ قَبْلَ الْأَسْبُوعِ فَلَمْ أَعْرِفْ قَبْرَ الْأَسْوَدِ مِنْ قَبْرِهِ ؛ وَفِي هَذَا
 يَقُولُ الشَّاعِرُ :

ولقد مررتُ على القبور فما ميزتُ بين العبدِ والمولى

وقال صالح بن عبد القدوس :

فيامنزلًا سوى البلى بين أهله فلم يستبين فيه الملوك من السوق

انقضاء ناس بعد ناس

ورجوعهم إلى الموت

قال عليّ كرم الله وجهه : إنّ لله في كلّ يوم ثلاث عساكر : عسكر ينزل من الأضلاب إلى الأرحام ، وعسكر ينزل من الأرحام إلى الأرض ، وعسكر ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة ؛ ^(١) وقال الشاعر :

وما نحن إلا رُفقة غير أننا أقمنا قليلا بعدهم ونزوح

وقال آخر :

إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنبها فقذت صديقا والبلاد كما هيّا

وقال : * أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب *

وقيل للبهلول ^(٢) - وقد أقبل من الجبّان - من أين ؟ فقال :

من عسكر الموتى ، ف قيل ما قلت وما قالوا ؟ فقال : سألتهم : متى يرحلون ؟

فقالوا : ننتظر قدر مكم ثم نرحل ... ورووا : أن راهبين دخلا البصرة

من ناحية الشام فنظرا إلى الحسن البصري ، فقال أحدهما : ملّينا إلى

هذا الذي كان سمته سمّ المسيح ، فقد لا إليه ، فألقياه مُقترشا بذقنه ظاهر

كفّه وهو يقول : يا عجبا ^(٣) لقوم قد أمرؤا بالزاد وأذنوا بالرحيل ، وأقام

(١) العسكر : الجماعة من كل شيء . يقال : عسكر من رجال ومن خيل

(٢) كان البهلول هذا مجنونا يمرورا وكان ظريفا وكان يتشيع ، قال له قائل : اشم

فاطمة وأعطيك درهما فقال . بل أشم عائشة وأعطني نصف درهم ! ومز به بعضهم

وهو يأكل خبيصا ، فقال له : أطعمني ، فقال : ليس هو لي ، إنما هو لعاتكة بنت الخليفة

بعته إلى لآكله لها ...

(٣) يا عجبا : لك أن تقرأه بالتووين وبدونه أما بدونه فإنه يريد : يا عجبي قلب يا المختكم

أولهم على آخرهم ، فليْتَ شِعْرى ماذا ينتظرون ! وفي رواية أخرى هذه الزيادة بعد قوله : وأقام أولهم على آخرهم : وآخِرهم قُعود يلعبون ، وقوله : أمِروا بالزاد يعنى زاد الآخرة ، وهو العمل الصالح ، وقوله : وأذنوا بالرحيل : أذنوا : أَعْلِمُوا ، والرحيل يريد به الموت ، وقوله : وأقام أولهم على آخرهم : أَلَعَله يريد : أن أولهم يرضى فعمل آخرهم فلم يُنكَرْ عليه ، ولعله يريد أن موت أولهم كان يجب أن يكون عبرة لآخرهم ، ومن المشهور في هذا آيات قُصِّ بن ساعدة الايادى :

فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا يَمُضِي الْأَصَاغِرُ وَالْأَكَابِرُ
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَى وَلَا مِنَ الْبَاقِينَ غَائِرُ
أَبْقَيْتُ أَنِي لَأَحْمَا لَهَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

« في الزاهبين : متعلق ببصائر في آخر البيت ، وبصائر : عبر ، والقرون جمع قرن والقرن من الناس : أهل كل زمان ، قال :

إِذَا ذَهَبَ الْقَرْنُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِمْ وَخُلِفْتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبٌ
ولعله مأخوذ من الاقتران ، فكأنه المقدار الذى يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم ، ومن هنا اختلفوا في تحديد القرن من الزمان فقيل : أربعون سنة ، وقيل : ثمانون ، وقيل مائة سنة ، والموارد جمع مورد وهو :

ألفاؤا بالتوين فلك أن تجعل عجا منادى منكرا ، ولك أن تجعل ديا ، حرف تنبيه وعجبا مصدر منصوب بفعل محذوف أى تعجبوا عجا وأن تجعل ديا ، حرف نداء والمنادى محذوف أى يا قوم ، وعجبا كذلك ...

محلُّ ورود ، أى الاتيان ، والمصادر جمع مصدر ، وهو : موضع الصدور ،
أى الانصراف والرجوع ، وغابر اسم فاعل من غَبَرَ بمعنى : مكثَ وبقي ،
وبمعنى : مضى أيضا ، فهو من الاضداد ،

من يخاف الموت ولا يستعد له

وحثهم على تعاظم ما بهون أمر الموت

جاء رجلٌ إلى سيدنا رسول الله فقال : يا نبيَّ الله ، ما لى لأحِبَّ الموت ؟
فقال له : هل لك مالٌ ؟ قال : نعم ؛ قال : قدَّمه بين يديك ؛ قال : لا أُطيقُ
ذلك ، فقال سيدنا رسول الله : إنَّ المرءَ مع ماله إنَّ قدَّمه أحبَّ أن يُلحقَ به
وإنَّ آخره أحبَّ أن يتخلَّفَ معه ... وقال الحسن البصرىُّ لشيخ في جنازة :^(١)
أُترى هذا الميت لورجع إلى الدنيا أكان يعمل صالحا ؟ قال : نعم ، قال :
إن لم يكن ذاك فكأن أنت ذاك ... وقال القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز
الجرجاني :

إذا قلت لم يبلغْ بى السنُّ مَبْلَغًا وَعَظْتُ بِطِفْلِ صَارَ قَبْلِي إِلَى التُّرْبِ

وقال على رضى الله عنه لرجل : كيف أنتم ؟ قال : نرجو ونخاف ، قال :
من رَجَا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هَرَبَ منه ... وقال أبو الدرداء : العجبُ

(١) قال علماء اللغة : الجنازة بكسر الجيم : السرير محمولا عليه الميت : أما بفتح
الجيم فالميت قال أبو على الفارسى : لا يسمى جنازة - بالكسر - حتى يكون عليه ميت وإلا
فهو نعش أو سرير قال الليث : وقد جرى فى أفواه الناس جنازة بالفتح والتخاير
ينكرونها ، وقال بعضهم إن اللفظ نبطى وقال آخرون : إنه مشتق من جنز الشيء
يجنزه جنزا ستره وذكروا أن التوار امرأة الفرزدق لما احتضرت أوصت أن
يصلى عليها الحسن البصرى فقبل له فى ذلك فقال : إذا جنزتموها فأذنونى

لَمَنْ يَكْرَهُ الْمَوْتَ لِإِسَاءَتِهِ وَلَا يَكْرَهُ الْإِسَاءَةَ فِي حَيَاتِهِ ... وَقَالَ رَجُلٌ
لِأَبِي الدَّرْدَاءِ : مَا بَالُنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ ؟ قَالَ : لَأَنْكُمْ أَخَّرْتُمْ آخِرَ نَفْسِكُمْ وَغَمَزْتُمْ
دُنْيَاكُمْ فَكِرْتُمْ أَنْ تُتَقَلُّوا مِنَ الْعُمُرَانِ إِلَى الْخَرَابِ ... وَقَالَ أَبُو حَازِمٍ : كُلُّ
عَمَلٍ نَكْرَهُ الْمَوْتَ لِأَجْلِهِ فَدَعَهُ كَيْلًا تَخَافُ مِنْهُ مَتَى أَتَاكَ ...

من أمر ذويه بالبكاء عليه

رَوَى عَنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ : إِنْ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ ... قَالَ
الْعُلَمَاءُ : أَرَادَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِذَا وَصَّى الْمَيِّتُ بِذَلِكَ وَأَمَرَ بِهِ عَلَى نَحْوِ مَا كَانَ
يَفْعَلُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ ، كَقَوْلِ طَرِيقَةَ بْنِ الْعَبْدِ :

إِذَا مِتَ فَانْعَيْتَنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشُقِّي عَلَى الْجَيْبِ بِالْبَتَّةِ مَعْبُودٌ^(١)
وَقَوْلِ الْفَرَزْدَقِ :

إِذَا مِتَ فَانْعَيْتَنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ فَكُلُّ جَمِيلٍ قُلْتُ فِي مَصَدَّقٍ
وَقَوْلِ ابْنِ الْمَعْتَزِ :

إِذَا مِتَ فَانْعَيْتَنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَلَا تَذْخِرِي دَمْعًا إِذَا قَامَ نَائِحٌ
وَقُولِي : تَوَى طُودُ الْمَكَارِمِ وَالْعَلَى وَعُطِّلَ مِيزَانُ مِنَ الْحِلْمِ رَاجِحُ
« تَوَى : هَلَكَ ، وَتَقَرَأَ : تَوَى وَالطُّودُ : الْجَبَلُ الْعَظِيمُ ، وَالْحِلْمُ : الْأَنَاءَةُ وَالْعَقْلُ ،
وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الْأَوَّلَى : أَنْ يُقَالَ فِي تَأْوِيلِ الْحَدِيثِ : يَسْمَعُ صَوْتَ الْبُكَاءِ
هُوَ نَفْسُ الْعَذَابِ ، كَمَا أَنَّا نَعَذَّبُ بِبُكَاءِ الْأَطْفَالِ ، فَالْحَدِيثُ عَلَى ظَاهِرِهِ »

(١) من معلقة طرفة، ومعبود أخوه يوصي ابنة أخيه بأن تشيع خبر هلاكه إذا هو
مات - بالثناء الذي يستحقه وشق جيها عليه وبعد البيت :

وَلَا تَجْعَلَيْنِي كَأَمْرِئٍ لَيْسَ هَمُّهُ كَهَمِّي وَلَا يُغْنِي عَنَّا نِي وَشَهْدِي
وَالْهَمُّ : الْهَمَّةُ وَالطُّمُوحُ إِلَى الْعِلَاءِ ، وَالْغَنَاءُ : الْكَفَايَةُ . وَالْمَشْهَدُ : الشُّهُودُ أَيْ مَلَابِسُهُ

من أظهر الندم عند الموت على ما فرط منه

لَمَّا اخْتُصِرَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بِجَلَدِ يَدِهِ فِي وَضْعِ الْغُلِّ الْقَيْدِ، مِنْ عُنْقِهِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنَا قَقْرَطْنَا، وَنَهَيْتَنَا فَرَكِينَا، اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يَسْعُنَا إِلَّا رَحْمَتُكَ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ هَجِيرَاهُ حَتَّى قُبِضَ ... وَقِيلَ لِبَعْضِ الْمُلُوكِ حِينَ اخْتُصِرَ: مَا حَالُكَ؟ فَقَالَ: مَا حَالُ مَنْ يُرِيدُ سَفَرًا بَعِيدًا بِلا زَادٍ، وَيَنْزِلُ حُفْرَةً مِنَ الْأَرْضِ مُوَحِّشَةً بِلا مُؤْنِسٍ، وَيَقْدُمُ عَلَى مَلِكٍ جَبَّارٍ قَدْ قَدَّمَ إِلَيْهِ الْعُذْرَ بِلا حِجَّةٍ؟ وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ عِنْدَ مَوْتِهِ: وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ غَسَّالًا أَكُلُ كُلَّ يَوْمٍ كَسْبَ يَوْمِي لَا يَفْضُلُ عَنِّي ... فَقِيلَ ذَلِكَ لِأَبِي حَازِمٍ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا بِحَيْثُ يَتَمَنَّى الْمُلُوكُ حَالَتَنَا عِنْدَ الْمَوْتِ وَلَا تَتَمَنَّى حَالَهُمْ ... وَلَمَّا أَذْنَفَ^(١) الْمَسَامُونَ بْنُ الرَّشِيدِ أَمَرَ أَنْ يُفَرَّشَ لَهُ جِلْدٌ - بِسَاطٌ - فُجِعِلَ يَتَمَرَّغُ فِيهِ وَيَقُولُ:

كُلْ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْرًا صَائِرٌ مَرَّةً إِلَى أَنْ يَزُولَا
لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَأَ لِي فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ أَرْعَى الْوُعُولَا^(٢)
وَأُنْغِي عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ وَهُوَ يَقُولُ:

لَيْسَ كَمَا لَيْسَ كَمَا هَا أَنَا ذَا لَدَيْكُمَا

اللَّهُمَّ لَا بَرِيءٌ فَأَعْتَذِرُ وَلَا قَوِيٌّ فَأَتَصَرَّ

ثُمَّ أُنْغِي عَلَيْهِ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ:

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدِكَ لَا أَلْمَا^(٣)

الحروب والوقائع (١) أذنف المريض: نقل مرضه ودنا من الموت.

(٢) الشعر لامية بن أبي الصلت. والوعول: جمع وعل: تيس الجبل

(٣) لامية بن أبي الصلت كذلك وألم الرجل من اللعم وهو مادون الكبار من

الذنوب قال سبحانه: الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللعم وقيل: اللعم:

أن يلم المرء بالمعصية ولم يصر عليها

وقال أبو جعفر المنصور عند موته : اللهم إن كنت تعلم أني قد ارتكبتُ
الأمورَ العظامَ جرأةً مني عليك ؛ فإنك تعلم أني قد أطقمتك في أحبِّ الأشياءِ
إليك : شهادةً إن لا إله إلا أنت ، منّا منك لامتناً عليك ... وكان سببُ إحرامه
من الحضراء أنه كان يوماً نائماً فأتاه آت في منامه فقال :

كَأَنِّي بِهَذَا الْقَصْرِ قَدْ بَادَ أَهْلُهُ وَغُرَى مِنْهُ أَهْلُهُ وَمَنَازِلُهُ
وَصَارَ عَمِيدُ الْقَوْمِ مِنْ بَعْدِنَا إِلَى جَدَثٍ تُشْنَى عَلَيْهِ جَنَادِلُهُ
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا رَشْمُهُ وَحَدِيثُهُ تُبْكِي عَلَيْهِ مَعُولَاتِ حِلَالِنَا^(١)
فاستيقظ مرعوباً ثم نام فأتاه الآتي فقال :

أَبَا جَعْفَرٍ حَانَتْ وَفَاتَكَ وَانْقَضَتْ سِنُوكَ وَأَمْرُ اللَّهِ لَا بَدَّ وَاقِعُ
فَهَلْ كَاهَنُ أَعَدَدَتْهُ أَوْ مَنَجَّمٌ أَبَا جَعْفَرٍ عَنْكَ الْمَنِيَّةُ دَافِعُ
فقال : ياربِّع اتقن بطهوري ، فقام واغتسل وصلى ولبي وتجهز للحج ،
فلما صار في الثلث الأول اشتدَّت عاتهُ ، فجعل يقول : ياربِّع ألقني في حرم
الله ، فمات بيثر ميمون^(٢) ... وقالوا : لقن ميثك - أي لا إله إلا الله - فإذا
قالها فدعه يتكلم بغيرها من أمر الدنيا ولا تُضجره .

من امتنع من التوبة عند موته

أَعْتَلَّ أَعْرَابِيٌّ ، فَقِيلَ لَهُ : لَوْ تُبْتُ ، فَقَالَ : لَسْتُ مِنْ يُعْطَى عَلَى الذَّلِّ ،

(١) تبكى - بالتشديد - مثل تبكى بالتخفيف ، وحلائله : زوجاته ، ومعولات : رافعات
أصواتهن بالبكاء .

(٢) بثر ميمون : بمكة مفسوب إلى ميمون بن خالد بن عامر الحضرمي .

إن عافاني الله تُبْتُ وإلا مِت هكذا ... وقيل للحجاج : ألا تتوب ؟ فقال :
 إن كنتُ مسيئاً فليست هذه ساعة التوبة ، وإن كنتُ مُحسناً فليست ساعة الفزع
 « الفزع : الاستغاثة والاستصراخ ، ولعله يريد : أن وقت الموت ليس وقت
 الحساب والمجازاة وإنما ذلك يوم الفزع الأكبر - يوم البعث - ولعل المعنى :
 مادمت محسناً فليس تمت داع للخوف »

من يحبون الموت

قال عبد الله بن مسعود : ما من نفس حية إلا والموت خيرٌ لها ، إن كان
 برا فإن الله تعالى يقول : وما عند الله خيرٌ للأبرار ، وإن كان فاجراً فإن الله
 تعالى يقول : ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملي
 لهم ليزدادوا إثماً ، ولهم عذابٌ مُّهِين ^(١) وحضر أحد الصالحين الموت ، ففرح
 فقيل له : تستبشر بالموت ؟ فقال : أنجعلون قدومي على خالق أرجوه كقاي
 على مخلوق أخافه ! وسئل حكيم عن الموت ، فقال : هو فرعُ الأغنياء وشهوةُ
 الفقراء ... وقال بعضهم : لا يكون الحكيم حكيماً حتى يعلم أن الحياة تُسْرِقُهُ
 والموت يُعَيِّقُهُ .. وقال المتنبي :

تغرُّ حلاواتُ النفوسِ قلوبنا فتختارُ بهِضَ العيشِ وهوَ حِمَامٌ
 « يقول المتنبي : حُب الحياة يغرُّ القلب حتى يختار عيشاً فيه ذل :

(١) قرئ : ولا تحسبن على أنه خطاب للرسول عليه السلام وقرئ ولا يحسبن
 فالذين فاعل وما في إنما نملي لهم مصدرية وكان حقها أن تفصل في الخط ولكنها وقعت
 متصلة في الإمام - المصحف العثماني - فاتبع ، والإملاء : الإمهال وإطالة العمر ؛ وقيل .
 تخليتهم وشأنهم من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء ، واللام
 في قوله سبحانه ليزدادوا إثماً لام الإرادة وعند المعتزلة لام العاقبة

وَشَرَّ الْحَمَامِينَ الزَّوَامِينَ عِيشَةً يَذُلُّ الذِّى يَخْتَارَهَا وَيُضَامُ ،

وقال أيضا :

وَمَا الدَّهْرُ أَهْلٌ أَنْ تُؤْمَلَ عَنْدهُ حَيَاةٌ وَأَنْ يُشْتَقَ فِيهِ إِلَى النَّسْلِ

« وقد تقدم » ، وفي هذه القصيدة يقول المتنبى :

نُبَكِّى مَوْتَانَا عَلَى غَيْرِ رَغْبَةٍ تَقُوتُ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا مَوْهَبٍ جَزَلٍ

إِذَا مَا تَأَمَّلْتَ الزَّمَانَ وَصَرَفَهُ تَيَقَّنْتَ أَنَّ الْمَوْتَ ضَرْبٌ مِنَ الْقَتْلِ

« يقول : نحن نبكى على موتانا ونحزن لهم ونأسف لفراقهم ونحن على يقين من أنهم لا يفوتهم من الدنيا ما يُرَغَّبُ في مثله ولا يتمتعون منها بما يصح أن يتنافس في نيله ؛ ثم قال في البيت التالى : وأنت إذا ما تأملت وأنعمت النظر فى تصاريف الدهر وخطوبه تيقنت أن الموت المحتوم على المرء كالموت المتوقعه من القتل وإذن لا داعى للجبن والذعر ولا موجب لحُب الحياة والتهافت عليها قال عنتره :

فَأَجِبْتُهَا : إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنَهْلٌ لَا بُدَّ أَنْ أَسْقَى بِذَلِكَ الْمَنَهْلِ

فَأَقَاتَى حَيَاةً لَا أَبَالِكَ وَأَعْلَى أُنِّى أَمْرٌ سَأَمُوتُ إِنْ لَمْ أَقْتَلِ

« فأقَاتَى خبائك : فالزيميه واحفظيه واتخذيه قنينة ، وقال الإمام الجنيد :

مَنْ كَانَ حَيَاتُهُ بِنَفْسِهِ يَكُونُ تَمَاتُهُ بِذَهَابِ رُوحِهِ ، فَتَضَعُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ كَانَ حَيَاتُهُ بِرَبِّهِ فَإِنَّهُ بِلِقَائِهِ مِنَ حَيَاةِ الطَّيْعِ إِلَى حَيَاةِ الْأَصْلِ ، وَهِيَ الْحَيَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ .

تمنى الموت

قال أعرابى : خيرٌ من الحياة ما إذا فَقَدْتَهُ أَبْعَضْتَ لِفَقْدِهِ الْحَيَاةَ ، وَشَرُّ

من الموتِ ما إذا نزلَ بكَ أَحَبَّتْ لنزولِهِ الموتَ ... وقال المتنبّي :
 كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الموتَ شَافِيَا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
 تَمَنِّيَهَا لِمَا تَمَنَّى أَنْ تَرَى صَدِيقًا فَأَعْيَا أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيَا
 وقال المهلبي الوزير ^(١) :

أَلَا مَوْتُ يُسَاعُ فَأَشْتَرِيهِ فَهَذَا الْعِيشَ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ
 أَلَا مَوْتُ لَذِيذُ الطَّعْمِ يَأْتِي يُخَلِّصُنِي مِنَ الْعِيشِ الْكَرْبِيِّ
 إِذَا أَبْصَرْتُ قَبْرًا مِنْ بَعِيدٍ وَدَدْتُ لَوْ أَنَّي مِمَّا يَلِيهِ
 أَلَا رَحِمَ الْمُهْمِينُ نَفْسَ حُرٍّ تَصَدَّقَ بِالْوَفَاةِ عَلَى أَخِيهِ
 وَاعْتَلَّ الشُّبْلِيُّ ثُمَّ بَرَأَ ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ كَيْفَ أَنْتَ : فَقَالَ :
 كُلَّمَا قُلْتُ : قَدْ دَنَا حُلَّ قَيْدِي قَدَّمُونِي وَأَوْثَقُوا الْمِسْمَارَا

الحياة لا تمل

قال حكيم : الحياة وإن طالَّت لا تُملُّ ، وإنما يَمَلُّ المرءُ تكاليفَ الحياة ،

(١) كان وزير معز الدولة البويهى ، وكان أديباً فاضلاً محباً لأهله وكان قبل اتصاله بمعز الدولة فى ضيق شديد وكان قد سافر مرة ولقى فى سفره مشقة عظيمة واشتهى اللحم فلم يقدر عليه فقال هذه الايات ارنجالا ، وكان معه رفيق يسمى عبدالله الصوفى فلما سمع الايات اشترى له بدرهم لحماً وطبخه وأطعمه وضرب الدهر من ضرباته وافترقا حتى تولى المهلبى الوزارة وضافت الاحوال برفيقه هذا فقصده وكتب إليه :

أَلَا قُلْ لِلْوَزِيرِ فَدَتُهُ نَفْسِي مَقَالَةٌ مُذَكِّرٍ مَا قَدْ نَسِيهِ
 أَتَذَكَّرُ إِذْ تَقُولُ لِنُصْنُكَ عِيشَ أَلَا مَوْتُ يُسَاعُ فَأَشْتَرِيهِ

فلما وقف على ذلك هزته أريحية الكرم وأمر له فى الحال بسبعمئة درهم ووقع فى رقعة : مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ، ثم دعا به فخلع عليه وقلده عملاً يرتفق به

ولهذا فُضِّلَ قولُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ :

سَيِّمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَالِكَ يَسَامُ

على قول لبيد :

ولقد سَيِّمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطَوَّلَهَا وَسُؤَالَ هَذَا النَّاسِ : كَيْفَ لَبِيدُ
« تَكَالِيفُ الْحَيَاةِ : مَشَاقِقُهَا وَشِدَائِدُهَا ، أَمَا لَبِيدُ فَإِنَّهُ يَكَادُ يَكُونُ مَعْذُورًا إِذَا
هُوَ مَلَّ الْحَيَاةَ نَفْسَهَا وَلَمْ لَا وَقَدْ عُمِّرَ حَتَّى يَبْلُغَ ثَلَاثِينَ وَمِائَةَ سَنَةٍ ؟ » وَقَالَ الْمُنَبِّيُ :
وَلَذِيذُ الْحَيَاةِ أَنْفُسُ فِي النَّفْسِ وَأَنْشَهُى مِنْ أَنْ يُبْمَلَ وَأَحْلَى
وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أَفِي فَمَاءٍ لِي حَيَاةٌ وَإِنَّمَا الضَّعْفُ مَلَأَ
آلَةَ الْعَيْشِ صَحَّةٌ وَشَبَابٌ فَإِذَا وَلَّيْنَا عَنِ الْمَرِ وَلَّى
« وَقَدْ تَقَدَّمَتْ ، وَدَخَلَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مَسْجِدَ دِمَشْقَ ، فَرَأَى
شَيْخًا ، فَقَالَ : يَا شَيْخُ ، أَيَسْرُكُ أَنْ تَمُوتَ ؟ فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ ، قَالَ : وَلِمَ وَقَدْ
بَلَغْتَ مِنَ السَّنِّ مَا أَرَى ؟ قَالَ : مَضَى الشَّبَابُ وَشُرُّهُ ، وَبَقِيَ الشَّيْبُ وَخَيْرُهُ ،
فَأَنَا إِذَا قَدَعْتُ ذَكَرْتُ اللَّهَ ، وَإِذَا قَتُّ حِدَّتِ اللَّهُ ، فَأُحِبُّ أَنْ تَدُومَ لِي
هَاتَانِ الْحَالَتَانِ ... »

تسلي الناس عمن مات

قالوا : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْظَرَ النَّاسَ مِنْ بَعْدِكَ فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ مَنْ مَاتَ
قَبْلَكَ ... وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :

سَيُعْرِضُ عَنْ ذِكْرِي وَتُنْسَى مَوَدَّتِي وَيَحْدُثُ بَعْدِي لِلْخَلِيلِ خَلِيلُ
وَقَالَ مَنْصُورُ الْفَقِيهِ : ^(١)

(١) هو أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي الفقيه المصري الشافعي

كلُّ مذكورٍ من النَّاسِ إِذَا مَا فَقَدُوهُ
صَارَ فِي حُكْمِ حَدِيثٍ حَفِظُوهُ فَلَسُّوهُ

وقال آخر :

هَالُوا عَلَيْهِ التُّرْبُ ثُمَّ انْتَنَوْا عَنْهُ وَخَلَّوْهُ وَأَعْمَالَهُ
لَمْ يَنْقُضِ النَّوْحُ مِنْ دَارِهِ عَلَيْهِ حَتَّى انْقَسَمُوا مَالَهُ
سَهْمُ الْمَنَايَا بِالذَّخَائِرِ مَوْلَعٌ

قال أبو تمام ^(١)

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَقَفًّا فَإِنِّي رَأَيْتُ الْكَرِيمَ الْحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُمُرٌ
وقال من أبيات يروى بنى حميد أيضا :

إِنْ يَلْتَحِلْ حَدَثَانُ الْمَوْتِ أَنْفُسَكُمْ وَيَسْلُمَ النَّاسُ بَيْنَ الْحَوْضِ وَالْعَطَنِ
فَالْمَاءُ لَيْسَ عَجِيْبًا أَنْ أَعَذَّبَهُ يَفْنَى وَيَمْتَدُّ عُمرُ الْآجِنِ الْآسِنِ
وقال ابن النيه المِصْرِي من أبيات مختارة نوردها عليك :

النَّاسُ لِلْمَوْتِ كَحَيْلِ الطَّرَادِ فَالسَّابِقُ السَّابِقُ مِنْهَا الْجَوَادُ

الضريّر، كان فقيهاً شافعيّاً وكان أديباً شاعراً متقناً توفى بمصر سنة ٤٣٠٦ هـ ومن شعره السائر :

لِي حِيلَةٌ فِيمَنْ يَنْمُ وَلَيْسَ فِي الْكَذَّابِ حِيلَةٌ
مَنْ كَانَ يَخْلُقُ مَا يَكُونُ وَلِخَيْلِي فِيهِ قَلِيلُهُ
ومنه : إِذَا تَخَلَّفْتَ عَنْ صَدِيقٍ وَلَمْ يُعَايَنْكَ فِي التَّخَلُّفِ
فَلَا تُعَذِّبْ بَعْدَهَا إِلَيْهِ فَإِنَّمَا وَدَّهِ تَكْلُفُ

(١) من مرثيته التي يروى بها محمد بن حميد الطوسي وأولها :

كَذَا فَلْيَجَلَّ الْخُطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَا وَهَّاهَا عُذْرُ

والله لا يدعو إلى داره إلا من استصاح من ذى العباد
والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد
والمرء كالظل ، ولا بد أن يزول ذاك الظل بعد امتداد
لا تصالح الأرواح إلا إذا سرى إلى الأجساد هذا الفساد
أرغمت يا موت أنوف الفنا ودنت أعناق السيوف الحداد
وقال شاعر :

فلا تجزعن من موته وهو نائثي ولا ينكرن هذا من جرب الدهرا
فكل طويل المجد يقصر عمره كذاك سباع الطير أقصرها عمرا

إنكارهم السماتة في الموت

قال عدى بن زيد العبادي :

أيها الشامت المعير بالدهر إر أنت المبرأ الموفور
أم لذيالك العهد الوثيق من الأيا م بل أنت جاهل مغرور
« وقد تقدمت هذه الآيات ... » وقال شاعر :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
ولما مات الحسن بن علي بن طالب رضى الله عنهما دخل عبد الله
ابن عباس على معاوية ، فقال له معاوية : يا ابن عباس ، مات الحسن بن علي ؟
قال : نعم ، وقد بلغت مجودك ، أما والله : ما سد جثمانه حفرتك ، ولا زاد

= وقول أبي تمام : إن ينتحل البتين . فينتحل : يأخذ النفوس نحلة أى عطية ، ولك
أن تقرأها ينتحل ، والعطن : مبرك الإبل حول الحوض ، والآجن : الماء المتغير الطعم
واللون ومثله الآسن

انقضاء أجله في عُمرِكَ ، قال : أَحَسْبُهُ تَرَكَ صِغِيَّةً صِغَارًا وَلَمْ يَتْرُكْ عَلَيْهِمْ
كَثِيرَ مَعَاشٍ ؟ فَقَالَ : إِنْ الَّذِي وَكَاهُمُ إِلَيْهِ غَيْرُكَ ، ... وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ :

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفْقُوا سَيْلَقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

وَحَكَى الْمَبْرَدُ عَنْ بَعْضِهِمْ : أَنَّهُ شَهِدَ رَجُلًا عَلَى قَبْرِ وَدُو يُكْثِرُ الْبَكَاءَ ،
فَقُلْتُ : أَعَلَى قَرِيبٍ أَوْ عَلَى صَدِيقٍ ؟ فَقَالَ : أَخَصُّ مِنْهُمَا ، قَدْ كَانَ لِي عَدُوًّا ،
فَخَرَجَ إِلَى الصَّيْدِ ، فَرَأَى ظَبْيًا فَتَبِعَهُ ، فَعَثَرَ بِالسَّهْمِ ، فَخَرَّ هُوَ وَالظَّبْيُ مَيِّتَيْنِ ،
فَدَفِنَ ، فَاتَّيَيْتُ إِلَى قَبْرِهِ شَامِتًا بِهِ ، فَإِذَا عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ :

وَمَا نَحْنُ إِلَّا مِثْلُهُمْ غَيْرَ أَنَّا أَقْمَنَا قَلِيلًا بِمَدَّهِمْ وَتَرَحَّلُوا

فَهَا أَنَا ذَا وَقَفْتُ أَبْكِي عَلَى نَفْسِي ... وَلَمَامَاتِ الْفَرَزْدَقِ بِكَيْ عَلَيْهِ تَجْرِيرُ وَرَثَاهُ ،
فَقِيلَ لَهُ : أَبَعَدَ تِلْكَ الْعِدَاوَةُ ؟ فَقَالَ : لَمْ أَرَأَيْنِي بُلُغَا الْغَايَةِ وَمَاتَ أَحَدُهُمَا إِلَّا وَلِحَقِهِ
الْآخَرُ عَنْ كَتَبٍ ، فَكَانَ كَذَلِكَ ... وَقَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ : لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ
فِي مَا فِيهِ اللَّهُ وَيَتَلَيَّكَ - أَقُولُ : يَبْدُو أَنَّ الشَّمَاتَةَ - وَهِيَ أَنْ تَفْرَحَ بِالْبَلِيَّةِ تَنْزُلُ بِمَنْ
يُعَادِيكَ - مِنَ الْفَرَائِزِ الْإِنْسَانِيَةِ الْثَمِيمَةِ ، وَمَنْ تَمَّ لَمْ يَنْهَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ عَنْ
كُوتِبِهَا - وَجُودِهَا - وَإِنَّمَا نَهَى عَنْ إِظْهَارِهَا ، لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي فِي اسْتِطَاعَةِ الْمَرءِ ،
مِثْلُهَا مِثْلُ الْحَسَدِ وَالظَّنِّ وَالطَّيْرَةِ ، وَلِذَلِكَ وَرَدَ فِي الْإِثْرِ أَيْضًا : إِذَا ظَنَنْتُمْ فَلَا
تَحْقُقُوا ، وَإِذَا حَسَدْتُمْ فَلَا تَبْغُوا ، وَإِذَا تَطَيَّرْتُمْ فَأُضُوا ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا ..
يَقُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : إِذَا حَسَدْتُمْ : أَيْ تَنَزَّيْتُمْ زَوَالَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى مَنْ
أَنْعَمَ عَلَيْهِ فَلَا تَتَعَدَّوْا وَتَفْعَلُوا مَا يَقْضِيهِ هَذَا الْخَلْقُ الذَّمِيمُ ، وَإِذَا ظَنَنْتُمْ سُوءَ
بِمَنْ لَيْسَ مَحَلًّا لِسُوءِ الظَّنِّ بِهِ فَلَا تَحْقُقُوا ذَلِكَ بِاتِّبَاعِ ، وَارِدِهِ وَالْعَمَلِ عَلَى
مَقْتَضَاهُ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ،
وَالظَّنُّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ : وَمِنْ أَسَاءِ الظَّنِّ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ دَلٌّ عَلَى عَدَمِ

استقامته في نفسه كما قال المتنبى :

إذا ساءَ فِعْلُ المرءِ ساءَتْ ظَنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَبْتَاعُهُ مِنْ تَوَهُّمٍ
أما من كان مَظَنَّةً للظن، بأن كان رجلا شريرا فالحزم سوء الظن
والاحتراس والحذر، ثم قال صلوات الله عليه : وإذا تشاءمتم بشيء فامضوا
طَبَائِعَكُمْ ولا يلتفت خاطركم لذلك وسيمر عليك كل هؤلاء في كتاب
طبائع المذمومة ، ... وما يتصل بما نحن فيه من الشبهة بالميت ما يروى :
انه لما أتى عبد الله بن الزبير خبير قَتْلِ مُصْعَبِ أخيه احتجبَ أياما، فُخِّبَ
بمجيء قَوْمٍ للتعزيزِ ، فقال : أكرهُ وُجُوهًا تُعزِي السِدْهُهَا وتَشْمَتُ قُلُوبُهَا .

لا عار بالموت

قالت ليلي الأخيلية :

لَعَمْرُكَ ما بالموت عارٌ على امرئٍ إذا لم تُصِبه في الحياة المعابر
« المعابر : المعايير والمسارب يقال : عازره : إذا عابه ، وتعابر القوم : عَبرَ بعضهم بعضا »

الموت نهاية كل حي

قال أبو بكر العنبري : كنتُ قاعدا في الجامعِ فمر بي مَعْتُوهُ فأقبلَ
عليّ وقال :

فَهَبْكَ مَلَكَتْ هَذَا النَّاسُ طُرَا ودانَ لَكَ العبادُ فـكانَ ما ذا
أَلَسْتَ تَصِيرُ في الحَدِّ وَيَحْوِي تُرَائِكَ عَنْكَ هـذا نِمْ هـذا
وقال الشاعر :

هَبْكَ قد نلتَ كُلَّ ما تَحْمِلُ الأَرَضُ ضُفْ قَهْلُ بَعْدَ ذاكِ إِلَّا العَيْنِيَّةُ

وقال القائل :

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْتُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى ذَهَابٍ ^(١)

وصية الميت

قالوا : كُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ وَلَا تَجْعَلِ الرِّجَالَ أَوْصِيَاءَكَ ، وَأَعْلَمْ صَدَقَ

(١) جاء في الخزانة للإمام البغدادى ما خلاصته : هذا المصراع - لدوا للموت وابتوا للخراب - هو من آيات في الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب وهى :

عَجِبْتُ لَجَازِعِ بَاكِ مُصَابٍ بِأَهْلِ أَوْ حَبِيبِ ذِي اكْتِثَابِ

شَقِيقِ الْجَبِيبِ دَاعِى الْوَبْلِ جَهْلًا كَأَنَّ الْمَوْتَ كَالشَّيْءِ الْعُجَابِ

وَسَوَى اللَّهِ فِيهِ الْخَلْقَ حَتَّى نَسِيَ اللَّهَ عَنْهُ لَمْ يُحِابِ

لَهُ مَلِكٌ يُنَادِى كُلَّ يَوْمٍ لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْتُوا لِلْخَرَابِ

و نبي الله : مفعول مقدم ليحباب بمعنى يخص ، قال : ورأيت في جمهرة أشعار العرب أنه قد روى أن بعض الملائكة قال - وأورد البيت الذى أوردناه ، ثم قال : ولسابق البربرى في هذا المعنى :

فَلِلْمَوْتِ تَغْتَدُو الْوَالِدَاتُ نِزَالَهَا كَمَا لَخَرَابِ الدَّارِ تُبْنَى الْمَسَاكِينُ

هذا : وأما اللام في قولهم للموت فقد سماها الكوفيون لام العاقبة ، مثلها مثل قوله تعالى : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، وأنكر البصريون لام العاقبة قال الزمخشري : والتحقيق أنها لام العلة وأن التعليل فيها وارد على طريق المجاز وذلك أنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوا وحزنا بل المحبة والتبني غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعى الذى يفعل الفعل لاجله واللام مستعارة لما يشبه التعليل كما استعير الأسد لمن يشبه الأسد . انتهى ... وسابق البربرى : هو أبو سعيد سابق بن عبد الله من موالى بنى أمية ، سكن الرقة ووفد على عمر بن عبد العزيز ، وله أشعار حسنة في الزهد وليس منسوبا إلى البربرى وإنما البربرى لقب له ، والسخال في بيته المذكور : جمع سخلة وهى ولد الشاة من الضأن والمعز ، وقد أقام الظاهر مقام الضمير في المصراع الثانى إلا أنه باللفظ المرادف إذ الأصل : كما تبني المساكن لخرابها .

الذى يقول :

ولا يغررك من توصى إليه فقصر وصية المرء الضياع
 « قصره وقصاراه أن يفعل كذا : أى آخر أمره وغاية جهده هو أن يفعل
 كذا » ... وقال مالك بن ضيفم : لما احتضر أبى قلنا له : ألا توصى ؟ قال :
 بلى ، أوصيكم بما أوصى به إبراهيمُ بنيه ويعقوب : « يا بنيَّ إن الله اصطفى
 لكم الدين فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون » ، وأوصيكم بصلة الرحم وحسن
 الجوار وقيل ما استطعتم من المعروف ، وأذفوني مع المساكين ...
 وقيل لهرم بن حبان : أوص ، فقال : قد صدقتنى نفسى فى الحياة ، ما لى
 شئ أوصى فيه ، ولكن أوصيكم بخواتيم سورة النحل ^(١) ...

إنكارهم وصية الميت بما ليس له

عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : جاء النبى صلى الله عليه
 وسلم يعوذنى وأنا بمكة ، وهو يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها ،
 قال : يرحم الله ابنَ عَفْرَاءَ ^(٢) ، قلتُ : يا رسول الله : أوصى بمالى كله ؟ قال :
 لا ، قلتُ : فالفطر ؟ قال : لا ، قلتُ : التلث ؟ قال : فالتلث ، والتلث
 كثير ، إنك أن تدعَ ورثتك أغنياءَ خيرٌ من أن تدعهم عالة يتكففون فى
 أيديهم ، وإنك مهما أنفقتَ من نفقة فإنها صدقة ، حتى اللقمة ترفعها إلى فى
 امرأتك ، وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك ناسٌ ويضرَّ بك آخرون ،

(١) راجع سورة النحل ، ومن آياتها الكريمة ، الآية الأخيرة : إن الله مع الذين اتقوا
 والذين هم محسنون .

(٢) هو سعد بن خولة وعفراء أمه ، وبلاحظ أن قول سعد : وهو يكره الخ
 التفات من التكلم إلى الغيبة كما سيمر عليك

ولم يكن له يومئذ إلا ابنةٌ . . . رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن وغيرهم
 « وإليك شرح هذا الحديث الشريف : لما كان سيدنا رسول الله بمكة في
 حجة الوداع ذهب إلى سعد بن أبي وقاص - وهو الصحابي الجليل الذي
 هاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها الرسول صلوات الله عليه ، وقد شهد
 بدرًا والمشاهد كلها ، وبشره الرسول بالجنة ، وهو أحد رجال الثموري الستة
 الذين رشحهم الفاروق للخلافة : وهو قائد جيوش عمر في فتح العراق ،
 ثم مات بقصره في العقيق على مقربة من المدينة سنة ٥٥ هـ بعد أن كفَّ بصره
 رضى الله عنه - أقول : لما كان الرسول بمكة ذهب إلى سعد يعود له لمرض
 اشتدَّ به حتى أشقَّى على الموت ، وكان سعد يكره أن يموت بالارض التي
 هاجر منها - مكة - كما مات سعد بن خولة ^(١) فلما سمع الرسول اسم سعد
 ابن خولة من ابن أبي وقاص ترحم عليه ، وكان لسعد بن أبي وقاص إذ ذاك
 ابنةٌ واحدة ^(٢) ثم قال سعد لسيدنا رسول الله - كما جاء في بعض الروايات -
 إنه قد بلغ بي من الوجع ما ترى وأنا ذو مال ، ولِي ابنةٌ واحدةٌ ، أنا وصِي
 بمالي كله ؟ قال الرسول : لا ، قل : أفأوصي بالنصف ؟ قال : لا ، قال :
 أفأوصي بالثلث ؟ قال : فالثلثُ توصي به ، والثلث كثير ، ثم قال الرسول :
 - مُبِينًا عن الحكمة في ترك الوصية بالكثير إلى الوصية بالقليل : إنَّ تركَ
 ورثتك أغنياء خيرٌ من تركهم فقراء يمدُّون أكَفَّهم إلى الناس مُسْتَجِدِّين . .

(١) من المهاجرين الأولين الذين شهدوا بدرًا وقد توفى بمكة في حجة الوداع
 وأمه عفراء كما تقدم

(٢) أما بعد أن برئ من هذا المرض بفضل دعوة الرسول فقد عاش كثيرًا كما
 قلنا ورزقه الله من الذرية بضعة عشر ابنًا واثنًا عشرة بنتًا

ثم بين الرسول أن كل ما يُنفقه على زوجته أو ولده أو أقاربه أو خدّمه صدقة ولو كان قليلاً، حتى اللقمة يرفعها إلى فم امرأته، يريد صلوات الله عليه: أن المرء إن استقل أمر الوصية بالثالث أو مادونه فليستكثره بالإنفاق، والأقربون أولى بالمعروف، فإن امتدت به الحياة فليستك هذا الطريق، ثم رجّاهُ الرسول أن يبرأ وتطول حياته ويرتفع شأنه حتى ينتفع به أناس. ويستضرّ به آخرون، وقد تحقق هذا كله حتى عزّ به الإسلام. هذا الوصية بالثالث فأقل قد استقر عليه الإجماع إذا كان هناك ورثة واختلفوا فيمن ليس له وارث «راجع كتب الفقه»... وعن أبي هريرة: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: أن تصدّق وأنت صحيحٌ حريصٌ ناملُ الغنى وتخشى الفقر ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا... وفي الأثر أيضاً: مثل الذي يُعتق ويتصدق عند موته، مثل الذي يهدي إذا شيع... وقال بعض الصالحين عن بعض المترفين: يعصون الله في أموالهم مرتين، يتحلون بها وهي في أيديهم - يعني في الحياة - ويسرفون فيها إذا خرجت من أيديهم - يعني بعد الموت.

من أوصى بِشَرٍّ وكان قاسياً

لما حضرت الحطينة الوفاة اجتمع إليه قومه فقالوا: يا أبا مليكة: أوص؛ فقال: وَيْلٌ لِلشَّعْرِ مِنْ رَاوِيَةِ السُّوءِ؛ قالوا: أوص رحمك الله يا حطّاء قال: مَنْ الذي يقول:

إِذَا أَنْبَضَ^(١) الرّامون عنها تَرَنَّمْتُ تَرَنِّمَ تَسْكَلَى أَوْجَعْتَهَا الْجَنَازُ؟

(١) أنبض القوس وأنضبا: جذب وترها لتصوت

قالوا : الشَّهَاحُ ؛ قال : أبلغوا غَطَفَانُ أنه أشعرُ العرب ؛ قالوا : وَيَحْكُ !
أهذه وصية أُرِصَ بما ينفعك ؛ قال : أبلغوا أهلَ ضَابِيٍّ ^(١) أنه شاعرٌ
حيث يقول :

لِكُلِّ جَدِيدٍ لَذَّةٌ غَيْرَ أَنِّي رَأَيْتُ جَدِيدَ الْمَوْتِ غَيْرَ لَذِيدٍ
قالوا : أُرِصَ ويحك بما ينفعك ؛ قال : أبلغوا أهلَ أَمْرِئِ الْقَيْسِ أنه
أشعرُ العرب حيث يقول :

فِيَالِكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجْمَهُ بِكُلِّ مُغَارٍ الْقَتْلُ شُدَّتْ بِيَذْبُلٍ ^(٢)
قالوا : اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ عَنْكَ هَذَا ؛ قال : أبلغوا الْأَنْصَارَ أَنَّ صَاحِبَهُمْ ^(٣)
أشعرُ العرب حيث يقول :

يُفْشَوْنَ حَتَّى مَاتَهُ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
قالوا : هذا لَا يُفْنِي عَنْكَ شَيْئاً ، فَقُلْ غَيْرَ مَا أَنْتَ فِيهِ ؛ فقال :
الشَّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سَلَلُهُ إِذَا آرَتْنِي فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ
زَلَّتْ بِهِ إِلَى الْحَصِيضِ قَدَمُهُ بَرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهُ ^(٤)
قالوا : هذا مِثْلُ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ ؛ فقال :

قَدْ كُنْتُ أَحْيَاناً شَدِيدَ الْمُعْتَمَدِ وَكُنْتُ ذَا عَرَبٍ ^(٥) عَلَى الْخَصْمِ أَلَدَ

-
- (١) هو ضَابِيٌّ بن الحارثي البرجي الشاعر من بني تميم
(٢) من معلقة ، ومغار القتل : محكمه ، وهو اسم مفعول من أغار الجبل
إغارة : شد قتله ، ويذبل : جبل
(٣) هو حسان بن ثابت الأنصاري شاعر سيدنا رسول الله وقد تقدم شرح هذا البيت
(٤) الفاء هنا للاستئناف ، والمعنى : فإذا هو يعجمه ولا يصح نصبه غطفنا على
قوله « يعربه »
(٥) الغرب : الحد ومنه غرب السيف : حده

لأَحَدِ الْأُمِّ مِنْ حُطْيَةٍ هَاجَا بِلَيْسِهِ وَهَاجَا الْمَرْيَةَ
 * مِنْ لُؤْمِهِ مَاتَ عَلَى فُرْيَةٍ *

« المريه : تصغير مَرَّة - امرأة - يريد : زوجته ، والفريه يريد الفراء
 أى الحمار ،

نهيهم عن الإفراط فى البكاء وإظهار الجزع

دخلت أعرابية الحضَرَ فسمعت بُكَاءً مِنْ دَارِ قَمَالَاتٍ : مَا هَذَا أَرَاهِمُ مِنْ
 رَبِّهِمْ يَسْتَغِيثُونَ ، وَمِنْ اسْتَرْجَاعِهِ يَتَضَجَّرُونَ ، وَمِنْ جَزِيلِ ثَوَابِهِ يَتَبَرَّهُونَ ...
 وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْبَلْخَى . مَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَأَكْثَرَ النِّغَمَ جَمَلَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُ
 غَمًّا مِثْلَهُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : فَأَنَابَكُمْ غَمًّا نَغَمٍ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا ... الْآيَةُ ..
 وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ : لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ...
 « ودعا بدعوى الجاهلية : أى من نحو قولهم : وَالْأَبْنَاءُ ، وَالْأُمَّهَاتُ ، وَالْوُلْدَاءُ ،
 وَامْصِيتَاهُ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ ضُرُوبِ النِّيَاحَةِ وَالنَّدْبَةِ ... ، أَمَّا الْبُكَاءُ وَالْجَزَعُ
 دُونَ إِفْرَاطٍ فَرُخْصٌ فِيهِ ، حَدَّثَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ : دَخَلْنَا عَلَى أَبِي سَيِّفٍ
 الْقَيْنِ ^(١) - وَكَانَ ظَنَرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(٢) ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ ، فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمَ
 يَجُودُ بِنَفْسِهِ ، فَجَمَلَتْ عَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ تَذَرِفَانِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ

(١) هو البراء بن أوس زوج أم بردة خولة بنت المنذر مريض إبراهيم بن سيدنا
 رسول الله . والقفين : الحداد

(٢) الظنر : المرضع وأطلق عليه ذلك لأنه كان زوج المرضعة

﴿ فَوَرَدَتْ نَفْسِي وَمَا كَادَتْ تَرِدُ ﴾^(١)

قالوا : يَا أَبَا مُلَيْكَةَ ، أَلَيْكَ حَاجَةٌ ؟ قال : لا والله ، ولكن أجزع على المديح الجيّد يُمدّح به من ليس له أهلاً . قالوا : فَمَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ ؟ فَأَوْماً بيده إلى فيه وقال : هَذَا الْجَحِيرُ إِذَا طُمِعَ فِي خَيْرٍ (بمعنى قَهْر) وَأَسْتَعْبَرَ بِأَكْيَا ؛ فقالوا له : قل لا إله إلا الله ؛ فقال :

قَالَتْ وَفِيهَا حَيِّدَةٌ وَذُعْرُ عَوْذُ رَبِّي مِنْكُمْ وَحَجْرُ^(٢)

فقالوا له : مَا تَقُولُ فِي عَيْدِكَ وَإِمَائِكَ ؟ فقال : هُم عَيْدٌ قِنْ مَاعَاقِبَ اللَّيْلِ النَّهَارَ ؛ قالوا : فَأَوْصِ لِلْفُقَرَاءِ بِشَيْءٍ ، قال : أَوْصِيَهُمْ بِالْإِلْحَاحِ فِي الْمَسْئَلَةِ فَإِنَّهَا تَجَارَةٌ لَا تُبَوِّرُ ، وَأَنْتَ الْمَسْئُولُ أَضِيقُ^(٣) . قالوا : فَمَا تَقُولُ فِي مَالِكَ ؟ قال : لِلْأَثْنِ مِنْ وَلَدِي مِثْلُ حِظِّ الذِّكْرِ . قالوا لَيْسَ هَكَذَا قَضَى اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ لَهْنً ، قال : لَكِنِّي هَكَذَا قَضَيْتُ . قالوا فَمَا تَوْصِي لِيَتَامَى ؟ قال : كُلُوا أَمْوَالَهُمْ وَانْكَحُوا أُمَّهَاتِهِمْ ؛ قالوا : فَهَلْ شَيْءٌ تَعْهَدُ فِيهِ غَيْرُ هَذَا ؟ قال : نَعَمْ ، تَحْمِلُونَنِي عَلَى أَتَانٍ وَتَتْرَكُونَنِي رَاكِبَتَهَا حَتَّى أَمُوتَ ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يَمُوتُ عَلَى فَرَاشِهِ ، وَالْأَتَانُ مَرَكَبٌ لَمْ يَمُتْ عَلَيْهِ كَرِيمٌ تَطُّ ؛ فحملهوه عَلَى أَتَانٍ وَجَعَلُوا يَذْهَبُونَ بِهِ وَيَجِئُونَ عَلَيْهَا حَتَّى مَاتَ وَهُوَ يَقُولُ :

-
- (١) وردت : أشرفت ، يقال : ورد فلان بلد كذا إذا أشراف عليه وإن لم يدخله ولعله يريد من الوردود : الإشراف على الموت
- (٢) حيدة : من حاد عن الشيء إذا صد عنه أو تغير خوفاته ، وحجر : أى دفع ومنع ، والعرب تقول عند الأمر تنكره : حجراً له ، (بالضم) : أى دفعا
- (٣) هذا كناية عن العجز ، يقال للرجل يستضعف : استك أضيق من أن تفعل كذا ، ويقال للجماعة أنتم أضيق أستاذها من أن تفعلوا كذا .

رضى الله عنه : وأنت يا رسول الله ! فقال : يا ابن عوف ، إنها رحمة ، ثم أتبعها بأخرى - أى أتبع الدفعة الأولى بأخرى - وقال صلوات الله عليه : إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى الله ، وإننا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون ... قوله صلوات الله عليه : ولا نقول إلا ما يرضى الله وفي رواية : ولا نقول ما يخطئ الرب : أى من النياحة والصراخ وما إلى ذلك مما يوجب سُخْطَ الله عز وجل ، وقيل لأعرابي : اصبر فالصبر أجر ، فقال : أعلَى الله أَتَجَلَدُ والله : لِلْجَزَعِ أَحَبُّ إِلَيْهِ ، لَأَن الْجَزَعِ اسْتِكَانَةٌ وَالصَّبْرُ قَسَاوَةٌ ... وقيل لفيلسوف : أَخْرِجِ الْحُزْنَ مِنْ قَلْبِكَ فَقَالَ : لَمْ يَدْخُلْهُ يَأْذَنِي فَأَخْرِجْهُ يَأْذَنِي ... وأقرط امرأة في الجزع على آبنها ، فعوتبت في ذلك ، فقالت : إِذَا وَقَعَ حُكْمُ الضَّرُورِيَّاتِ لَمْ يَقَعْ عَلَيْهَا حُكْمُ الْمَكْتَسَبَاتِ ، فَأَمَّا جَزَعِي فَلَيْسَ فِي الطَّاقَةِ صَرْفُهُ ، وَلَا فِي الْقُدْرَةِ مَنَعُهُ ، وَلِي عُدْرَةٌ لِلضَّرُورَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ...

في البكاء تخفيف من الحزن

قال ابن عباس رضي الله عنه : كنت إذا أصابني مصيبة وأنا شاب لا أبكي ، وكان يؤذيني ذلك ، حتى سمعت أعرابيا يُنشد :
لَعَلَّ انْحِدَارَ الدَّنَعِ يُعْقِبُ رَاحَةً مِنْ الْوَجْدِ أَوْ يَشْفِي شَجَى الْبَلَابِلِ
فسأله لِمَنِ الشعر ؟ فقال : لِذِي الرِّثْمَةِ ، فَكَنتُ إِذَا أَصَبْتُ بِكَيْتٍ ، فَاسْتَرَحْتُ

ضعف بذية الإنسان

سئل جالينوس عن الإنسان فقال : سِرَاجٌ ضَعِيفٌ ، وَكَيْفَ يَدُومُ ضَوْؤُهُ

بين أربع رياح ! » يعنى بالسراج : رُوحه ، وبالرياح الأربع : طبائعه^(١) ، وقال الشاعر كبيد :

وما المرء إلا كالشهابِ وضوئه يحورُ رماداً بعد إذ هو ساطعُ
كل شيء تغير من حال إلى حال فقد حارَ يحور حورا ، وقال أفلاطون :
إذا كانت الطائفة فاسدةً والبينة ضعيفةً ، والطبائع مُتَنَافِيةً ، والعُمُرُ يسيراً ،
والمَنيَّةُ صادقةً ، فالثِقَّةُ باطلة
استنكافهم من أن يموت المرء حتف أنفه

قال خالد بن الوليد : لقد لقيت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسدِي
موضعُ شبرٍ إلا وفيه طائنةٌ أو ضربةٌ أو رميةٌ ثم ها أنا ذا أموتُ على فراشي
حَتَفَ أني ، فلا نامت أعينُ الجبناء . وقال الشنفرى :

(١) قال وهب بن منبه : قرأت في التوراة : أن الله عز وجل حين خلق آدم
ركب جسده من أربعة أشياء ، ثم جعلها وراثته في ولده ، تنمى في أجسادهم وينمون
عليها إلى يوم القيامة : رطب ، ويابس ، وسخن ، وبارد ، قال : وذلك أن الله سبحانه
وتعالى خلقه من تراب وماء ، وجعل فيه نفساً وروحاً ، فيبوسة كل جسد من قبل
التراب ، ورطوبته من قبل الماء ، وحرارته من قبل النفس ، وبرودته من قبل الروح
ثم خلق للجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع أخرى هي ملاك الجسد لا يقوم الجسد إلا بهن ،
ولا تقوم واحدة منهن إلا بالآخرى : المرة السوداء ، والمرة الصفراء ، والدم الرطب
الحار ، والبلغم البارد ، ثم أسكن بعض هذا الخلق في بعض ، فجعل مسكن اليبوسة
في المرة السوداء ، ومسكن الرطوبة في الدم ، ومسكن البرودة في البلغم ، ومسكن
الحرارة في المرة الصفراء ، فأما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع وكانت كل
واحدة فيه وقفاً لا تزيد ولا تنقص ، كملت صحته واعتدلت بيته . فإن زادت واحدة
منهن غلبت وقهرت من ومالت بهن ، دخل على أخواتها السقم من ناحيتها بقدر ما زادت
وإن كانت ناقصة عنهن . ملن بها وعلونما ودخلن عليها السقم من نواحيهن : لفلتها
عنهن حتى تضعف عن طاقتهن وتعجز عن مقاومتهم .

وَلَا تَقْبِرُونِي إِنَّ قَبْرِي مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أُبَشِّرُ أُمَّ عَامِرٍ ^(١)
وقال السموأل أو غيره :

وما مات منا سيد خفف أنفه ولا طلّ منا - حيث كان - قتيل
تسيل على حد السيوف نفوسنا وليس على غير السيوف تسيل
« طلّ » : أهدردمه ، وقيل : أن لا يُثأّر به وتقبل ، بديته وقال أبو تمام :
لَوْلَمْ يَمُتْ تَحْتَ أَسْيَافِ الْعِدَا كَرَمًا لَمَاتَ - إِذْ لَمْ يَمُتْ - مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ
وقال آخر :

إِنَّ مَوْتَ الْفِرَاشِ ذُلٌّ وَغَارٌ وَهُوَ تَحْتَ السَّيْفِ فَضْلٌ شَرِيفٌ
وقال :
وَإِنِّي أَتَعَبُ مَيِّتٍ مِنْ يَمُوتُ بِدَاءِ
وسيمر عليك كثير من عبقرياتهم في هذا المعنى ، في « باب الشجاعة »

تم الجزء الأول

من الذخائر والعبقریات

(٢) أم عامر وأم عمرو : كنية الضبع ، قال الراجز :

يَا أُمَّ عَمْرٍو أُبَشِّرُ بِالْبُشْرَى مَوْتُ ذَرِيعٌ وَجَرَادٌ عَظْلَى
وهم يزعمون أن الضبع من أحق الدواب : لأنهم إذا أرادوا صيدها يحجى الرجل
إلى وجارها فيسد فيه بعد ما تدخله لثلا ترى الضوء فتحمل الضبع عليه فيقول لها :
أبشري يا أم عامر بجراد عظمي وكر رجال قتلى . فتذل له حتى يلقهها ثم يجرها
ويستخرجها جراد عظمي : ركب بعضها بعضا كثرة ؛ وأصل العظام : الملازمة في
السفاد من الكلاب والسباع والجراد ، وقولهم وكر رجال قتلى ، فإنهم يزعمون أن
الضبع إذا وجدت قتيلًا قد انتفخ غرموله ألفته على ففاه ثم ركبته قال عباس بن مرداس :
ولومات منهم من جرحنا لأصبحت ضباع بأعلى الرقبتين عرائسا

فهرس

الجزء الأول من الذخائر والعقريات

المقدمة

الكتاب الأول

في الفضائل وصالح الأخلاق والمثل العليا

الباب الأول في البر والتقوى

البر وألوانه

معنى البر - عبقریاتهم في البر مطلقا - من صفحة ٢ - ١٤

بر الوالدين وصلة الرحم وعبقریاتهم في الآباء والأبناء

والأقارب - من بابات شتى

- بر الوالدين ١٤ - ١٨ - من أخبا البررة ١٨ - العقوق وأحوال
العققة ١٨ - من أقوالهم في الأولاد المتخلفين ٢٥ - حق الولد على الوالد ٢٥ -
احتجاج بعض العققة لعقوقهم ٢٦ - ذم الولد وقلة جدواه ٢٩ - الإشفاق
على الأولاد ٣٠ - صلة الرحم ٣٦ - معاملة الخلفاء الراشدين لذوى قرباهم
في التولية ٣٧ - حث الأقارب على التعاون ٣٨ - العطف على القريب
والحيالة ٤٢ - الشكوى من الأقارب ٤٣ - مظاهرة الاجنبى على القريب ٤٦ -
علاج العداء الذى بين الأقارب ٤٧ - كلامهم في الإخوة ٤٧ و ٤٨ - قطيعة
الإخوة ٤٩ - الناس تجاه البنات ٤٩ - ٥٢ - الحال والخثولة ٥٢ -
مدعو القرابة البعيدة ٥٤ - تفاخرهم بالحسب وكرم المحتد ٥٥ - من يشبه أباه
في علاء ابتناه ٥٦ - لا اعتداد بمن شرف أصله إذ لم يشرف بنفسه ٥٧ - اعتذار
المتخلفين الاندال عن تخلفهم عن آبائهم الاشراف ٥٨ - ذم من قصر عن
آبائه ٥٨ - من لا يعتد بأبيه ٥٩ - الابن يجارى أباه ٥٩ - الاسلام يعد
الشرف والحسب بالتقى ٦٠ - الدعوة - أى ادعاء الولد الدعوى غير أبيه ٦٠ -
الولد ينسل من الأقارب فيخرج ضاويا ضعيفا ٦٢ - الرضاة ٦٣

الإحسان

وعبقریاتهم فی الجود واصطناع المعروف وقری الاضياف

وذم البخل والسؤال

تحفی الاسلام بالإحسان ٦٤ - الناس مجبولون علی البخل ٦٥ - مدح الجود
وذم البخل ٦٨ - طرفة الجندي مع معن بن زائدة ٧٦ - حثهم علی الجود حتى
فی حالة العسر ٧٨ - واجبات ذوی الجاء ٨١ - عبقرية أحمد بن أبي دواد فی
اصطناع المعروف ٨٥ - رسالة للجاحظ ینضح فیها عن الجود ٩٥ - كلمة علوية
لسیدنا رسول الله فی الحث علی الإحسان ١٠٦ - هیات أن أیت ببطاناً: لسیدنا
علی ١٠٩ - کان الخلفاء الراشدون مثلاً علیاً فی الرغبة عن شهوات الحیاة
الدنیا ١١٠ - عظمة الفاروق فی زهده وتقواه ١١٢ - عبقریاتهم فی الجود من
بابات شتی ١١٣ - قرى الاضياف ١١٨ - وصية بخیل لابنه ١٢٤ - بخیل
بیع القرى ١٢٨ - عبقریاتهم فی قرى الاضياف ١٢٩ - محادثة الضیف
والحديث علی الطعام ١٣٢

السؤال وعبقریاتهم فیہ من جمیع نواحيه

ذم السؤال ١٣٥ - عبقریاتهم فی آداب السؤال واستدجاج الحوائج ١٣٩ - المسئول
تجاه السائل ١٤٥ - طلب الكثير والرضا بالقليل ١٤٨ - من یسأل حاجة
یرعها صغيرة ١٤٨ - الحث علی الصبر والناة فی طلب الحاجات ١٤٨ -
العطية لا تجدی فی غیر وقتها ١٤٩ - التأسف علی الحرمان ١٥٠ - تعريضهم بمن
خیبهم ١٥٠ - الهدایا والرشی مدرجة للنجاح ١٥٠ - قطع العادة ١٥١ -
شکری العافین من تفضیل بعضهم علی بعض ١٥٢ - بلاغة المکدین ١٥٢ -

حسن الخلق

حسن الخلق ١٥٤ - نهیهم عن سوء الخلق ١٥٧ - صعوبة تغییر الطباع ١٥٨ -
مدارة الناس ١٥٩

التقوى

- التقوى ١٦١ - معنى التقوى ١٦٢ - الحكمة ١٦٥ - عبقرياتهم
 في التقوى ١٧٠ - كليمه في التوكل ١٧١ - التقوى مع الجهل ١٧٧ -
 التماوت والإفراط في الخشوع ١٧٧ - قلة اليقين في الناس ١٧٨ - إصلاح
 الضمير ١٨٠ - احتمال المكاره في العاجل رجاء المسار في الآجل ١٨١ -
 مراعاة الدين والدنيا معاً ١٨٢ - الجمع بين الرجاء والخوف ١٨٣ - العبادة
 لاطلباً للثواب ولا خوفاً من العقاب ١٨٤ - الرياء ١٨٦ - التوبة ١٨٨ -
 الاستغفار ١٩٢ - عبقریات شتى في الخوف والتقوى ١٩٣

الباب الثاني

في الشكر والحمد والثناء

- معنى الشكر ١٩٨ - حثهم على الشكر ٢٠١ - العجز عن الشكر ٢٠٤ -
 من لا تخفى أباديه ٢٠٦ - الشكر بقدر الاستحقاق ٢٠٦ - من لم يردعه خوفه
 عن الشكر ٢٠٧ - شكر من هم بإحسان ولم يفعل ٢٠٨ - نقل الشكر
 والحمد ٢٠٨ - تفضيلهم الثناء على العطاء ٢٠٨ - تسهيل القول على الشاكرين
 بتوافر ما يشكر عليه ٢١٠ - حب المنعم أن يرى أثر إنعامه ٢١١ - لا يمدحون
 إلا إذا أعطوا ٢١٣ - حثهم على الشكر ولو لم ينل على دينهم ٢١٥ -
 استحياؤهم من المدح ٢١٥ - من يمدح نفسه ٢١٦ - نهيم عن المدح قبل
 الاختبار ٢١٧ - عبقریات شتى في الشكر ٢١٧

الباب الثالث

في الصبر وعبقرياتهم فيه وفي الدنيا وفي المرض وفي هاذم اللذات

- ماذا يراد بالصبر في هذا الباب ٢٢١ - عبقرياتهم في الصبر ٢٢٢ - عود
 إلى أسباب الحزن ٢٢٩ - حثهم على الاستعداد للصائب كي نخف وطأتها ٢٣٠ -
 الغم يورث السقم والحرم ٢٣١ - الحزن يبلى بتقادم العهد ٢٣٢ - التأسي بمن

مصابه كصاحب المصائب وعكس ذلك ٢٣٤ - عروة بن الزبير مثل أعلى للصبر ٢٣٥
 مطرح الموم ٢٣٨ - عبقریاتهم في الدنيا وأنها دار محن ٢٤٥ - أسماء
 الدنيا ٢٤٦ - قلة لبث الإنسان في الدنيا ٢٤٨ - قلة متاع الدنيا ٢٤٨ - الماضي
 والحاضر والمستقبل ٢٤٩ - تحذيرهم من تضييع الأيام ٢٤٩ - الأيام تهدم
 الحياة ٢٥٠ - البقاء في الدنيا سبب الفناء ٢٥١ - فرح الدنيا مشوب بالترح ٢٥٣
 الدنيا هموم وغموم ٢٥٣ - نقصان بعد التمام ٢٥٥ - الدنيا لا بدوم فيها فرح
 ولا ترح ٢٥٦ - الدنيا غزارة ٢٥٧ - حب الدنيا على الرغم من عيوبها ٢٥٨ -
 الدنيا تضر بحبها ٢٥٨ - بنو الدنيا أغراض لضروب المحن ٢٥٩ - الأيام تضي
 في تراذلها ٢٦٥ - حدم ماضى الزمان وذتهم حاضره ٢٦٠ - إنكار ذم
 الدهر ٢٦٣ - المسرة من حيث نخشى المضرة ٢٦٤ - الفرج بعد الشدة ٢٦٦
 - من زال كربہ ففسى صنع الله ٢٦٦ - لا تعرف النعمة إلا عند
 فقدما ٢٦٧ - فضل العافية وسلامة الدين ٢٦٧ - عبقریات شتى في
 الدنيا ٢٦٨ - عبقریاتهم في الموت ٢٧٣ - أسماء الموت ووصفه ٢٧٣ - تعظيم أمر
 الموت ٢٧٦ - حثهم على تصور الموت ٢٧٧ - استدلال الإنسان على موته
 بمن مات قبله ٢٧٨ - الاعتبار بمن مات من الكبار ٢٨٠ - من مات فقد تنهى
 في البعد ٢٨٤ - غفلة الناس عن الموت ٢٨٥ - لا ينجو من الموت أحد ٢٨٥ -
 الموت لا يحرز منه بشئ ٢٨٧ - موت الفجأة والصحيح يموت ٢٩١ - كل
 إنسان معرض لموته أو موت أحبته ٢٩١ - جهل الإنسان بوقت موته ٢٩٢
 الموت يسرى بين الأفاضل والأراذل ٢٩٢ - انقضاء ناس بعد ناس ورجوعهم
 إلى الموت ٢٩٤ - من يخاف الموت ولا يستعد له ٢٩٦ - من أمر ذويه بالبكاء
 عليه ٢٩٧ - من أظهر الندم عند الموت على ما فرط منه ٢٩٨ - من امتنع من
 التوبة عند موته ٢٩٩ - من يحبون الموت ٣٠٠ - تمنى الموت ٣٠١ - الحياة
 لا تمل ٣٠٢ - تسلى الناس عن مات ٣٠٣ - سهم المنايا بالذخائر مولع ٣٠٤
 إنكارهم النشأة في الموت ٣٠٥ - لا عار بالموت ٣٠٧ - الموت نهاية كل
 حى ٣٠٧ - وصية الميت ٣٠٩ - إنكارهم وصية الميت بما ليس له ٣٠٩ -
 من أوصى بشروكان قاسياً حين احتضاره ٣١٢ - نهيمهم عن الإفراط في البكاء
 وإظهار الجزع على الاموات ٣١٤ - ضعف بنية الإنسان ٣١٥ - استكفانهم
 من أن يموت المرء حتف أنفه ٣١٥

تصحیحات واستدراکات

نرجو القارئ الكريم أن يبادر إلى تصحيح هذه الأخطاء
المطبعية التي نلبه إليها هنا

سطر	صفحة	خطأ	صواب
٢٠	٤	فأما	فأما
٢٣	٣	إلا قول خالد لأبي ذؤيب : أنظر الأغاني فقد جاء فيها "ج ٦ ص ٢٧٥ ، أن البيت لأبي ذؤيب وهناك بقية الآيات وهي قصيدة جميلة	
١	٣٣	مع الوضم	على الوضم
٥	٤٢	فرّعت	فرّعت
٤٩٣	٤٣	وقوله ولم تك منهم الخ	وقوله لست منهم يروى
			• إذا كنت في قوم عدى ولم تك منهم •
٥	٤٣	فأما قوم عدى	فأما قوم عدى بمعنى أعداء
٦	٦٠	في الغبار	من الغبار
١١	٧٠	وقال آخر	وقال بشار بن برد
١٢	٧٠	وتهلل	وتفرق
٢	٧١	يَبْسُ	يَبْسُ
١٢	٧٤	مع غير	مع غير
١٤	٧٨	بعض الشعراء	عبيد الله بن عبد الله بن طاهر
١٥	٧٨	وأنفق إذا أنفقت	وأنفق إذا أسرت غير مُقْتَر

سطر	صفحة	خطاً	صواب
	٧٨	» سقط في هذه الصفحة شرح لقول الشاعر سطر ١٦ :	
		على ما خيلت ، وهذا هو الشرح : على ما خيلت : أى	
		شبهت ولونت ، يريد : على أى حال ،	
٦	٨٤	والجود	والجود
١٥	١١٩	تهدده	تهدده
		» أى تصوت كما يهدد البعير ويهدر ،	
٢١	١٤٧	عذرتها	عذرت
٧	١٥٩	صقيل	صقيل
٥	١٩٥	بخوَيْصَة	بخوَيْصَة
		» ويوضع بعد كلمة تصغير	
		خاصة في الشرح هذه الزيادة :	
		قال الزمخشري : الخويصة	
		تصغير خاعة بسكون الياء	
		لأن ياء التصغير لا تكون إلا	
		ساكنة وجوز التقاء الساكنين	
		فيها أن الأول حرف لين	
		والثاني مدغم ،	
١٥	١٩٦	وكل شيء	وكل شيء
١٩	٢٠٢	ما أوليتها	ما أوليتها
٢٠	٢٠٠	قول البحترى قول إبراهيم بن العباس الصولي	
١٩	٢٠٤	مُنْكَشِفًا	مُنْكَشِفًا

سطر	صفحة	خطأ	صواب
٢	٢٢١	وفي هادم اللذات	وفي هادم اللذات وفي المرض
٢٠	٢٢٢	ونضوا ونضوا	ونضوا ونضوا
١٣	٢٢٩	مُسْتَهْدَف	مُسْتَهْدَف
١٨	٢٥٥	والضيف مُرْتَحِل	والضيف مُرْتَحِل
١٩	٢٥٥	ثم ترده	ثم ترده
٦	٢٧٠	أقول لعله	أقول لعله قوله نراع... أبيت لعله
٢	٢٨٣	لَا يَلْبَثُ الْقِرْنَاءُ	لَا يَلْبَثُ الْقِرْنَاءُ
١٣	٢٨٨	ويروى تخونه	ويروى: تخوفه
١٥	٣٠١	خباك	خباك

عبد الرحمن البرنوقى

الذخائر والعقبات مُعْجَمٌ ثَقَافِيٌّ شَامِعٌ

الجزء الثانى

مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
القاهرة/ ت: ٩٣٦٢٧٧ - ٩٢٢٦٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

ومن سبانه نسمد العود والتوفيق

فهو المسدّد إلى سواء الطريق

«وبعد» فإنّا نَفْتَحُ هذا الجزء الثاني من «الذخائر والعقريات» بصَدِّ من عقرياتهم في أكثر المعاني التي أوردنا ما أوردنا من عقرياتهم فيها ، في أبواب الجزء الأول ، وكان المُتَوَقَّعُ أَنْ نَفْتَحَ هذا الجزء بسائر عقرياتهم في التعازي ، وفي المرض ، يَبْدَأُ أَنَا قَدْ اسْتَحْسَنَّا أَنْ نُصَدِّرَ هذا الجزء الثاني بطائفة من عقرياتهم في معاني شَتَّى تَنْدَرِجُ في الأبواب السابقة ، وذلك لأمرين : أما أولهما فلأن في هذا الصَّنِيعِ مُبَادَرَةً بِاسْتِذْرَاكِ ما قد كان يَصْحُحُ إيرادُه هناك ، وأما الآخرُ : فذلك لأننا لم نَسْتَحْسِنْ أَنْ نَفْجَأَ المتصفح لهذا الجزء بما عسى أَنْ يُفْرِغَهُ وَيَنْفِرَ مِنْهُ ، وَتَنْقَبِضَ نَفْسُهُ عَنْهُ ، على أن هذه العقريات وإن جاءت في البَيِّنِ وَاقْصَلَتْ بين عقريات الباب الثالث غير أنها جاءت كالدَّرَّةِ الْفَرِيدَةِ تَفْصِلُ بَيْنَ ذَهَبِ الْقِلَادَةِ ؛ إلى ما في ذلك من استراحة للقارئ وتثقل به من معاني قد تكثُرنا منها إلى معاني أخرى قد يستريح إلى جَدِّهَا ؛ وبعد أن نَفْرُغَ من هذه العقريات نَعِطِفُ على عقرياتهم في التعازي ، وفي المرض ، وقانا الله جميعاً بِحُجَّتِهِ ، وَخَفَّفَ - إِذَا هُوَ قُدِّرَ عَلَيْنَا - وَطَأْتَهُ .

غـبـقـريـات شـتـى

تدرج في الأبواب السابقة

سمو أخلاق الخلفاء الراشدين

ومما يُؤثر في باب حسن الخلق ما حدث به العُتْبِيُّ ^(١) في إسناد ذكره قال: دعا طَلْحَةُ بْنُ عُبيد الله أبا بكر وعمر وعثمان رَحْمَةُ الله عليهم، فأبطأ الغلام - الخادم - عنه بشيءٍ أرادَه، فقال طلحة: يا غلام، فقال الغلام: كَيْيك، فقال طلحة: لا لَيْيك؛ فقال أبو بكر: ما يُسرني أني قُلْتُها وأن لي الدنيا وما فيها، وقال عمر: ما يسرني أني قُلْتُها وأن لي نصف الدنيا، وقال عثمان: ما يسرني أني قُلْتُها وأن لي حُمْر النعم ^(٢)؛ قال العُتْبِيُّ: وصمتَ عليها أبو محمد - هو طلحة - فلما خَرَجُوا من عِنْدِهِ باع ضَيْعَةً بِخَمْسَةِ عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَتَصَدَّقَ بِثَمَنِها ... فهل رأيتَ أو سَمِعتَ بمثل هذا الأدب العُلُوِّ الرَبَّانِيِّ! وأنت إذا نظرت إلى هذا الحديث من أي أقطاره رأيت أدباً باسِقاً وخُلُقاً سامِياً! فهذا الصَّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُنْكَرُ في كِيَاسَةِ وأدب قَوْلِهِ

(١) هو أبو عبد الرحمن محمد بن عبيد الله ... بن عتبة بن أبي سفيان: شاعر أديب راوية للأخبار والأدب ... تنابعت عليه مصائب في أولاده الذكور الستة في الطاعون الذي كان بالبصرة سنة ٢٢٩ هـ فرائم بمرات كثيرة منها قوله:

كَلَّ لِسَانِي عَنْ وَصْفِ مَا أَجَدَ وَذَقْتُ تُكْلًا مَا ذَاقَهُ أَحَدٌ
مَا عَالَجَ الْحُزْنَ وَالْحَرَارَةَ فِي الْأَحْشَاءِ مَنْ لَمْ يَمِتْ لَهُ وَلَدٌ
وَلَهُ مِنَ الْآيَاتِ السَّائِرَةِ:

قالت عهدتك مجنوناً فقلت لها إن الشباب جنون برؤيه الكبر

(٢) النعم: الإبل خاصة والعرب تقول: خير الإبل حرها وصهبها؛ لأن الحرأصهب على المواجر، والصهبأ أحسن حين ينظر إليها

أبي محمد لعلامه : لا ليك ، ثم يحيى بعده عمر فينكر هو الآخر إنكاراً لا حظ فيه
التأدب مع الخليفة أبي بكر ، وكذلك فعل عثمان مع عمر ، وأخيراً يكفر
أبو محمد عن هذه البادرة بخمسة عشر ألف درهم ... لا جرم لقد أدبهم المصطفى
صلوات الله عليه ، الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه .

طلحة بن عبيد الله

وهذا طلحة بن عبيد الله هو الصحابي الجليل أحد العشرة المبشرين بالجنة^(١)
وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلوا على يد
أبي بكر ، وأحد الستة أصحاب الشورى^(٢) وأحد أغنياء الصحابة ، وأحد
أجواد قريش ، بل كان نبي الجود ، إن كان للجود نبي ... وقد كان يقال له :
طلحة الفياض ، وطلحة الجود ، وطلحة الخير ، يقال إنه فرق في يوم
سبعماية ألف ، باع أرضاً له من عثمان بن عفان بسبعماية فحملها إليه ، فبات
ورؤسله تختلف بها في سكك المدينة حتى أسحر^(٣) وما عنده منها درهم
ويروى أنه وصل أعرابياً من أقاربه بشائمائة ألف درهم ؛ وكان لا يدع أحداً
من بني تميم عارلاً إلا كفاه مؤنته ومؤنة عياله وزوج أيامهم^(٤) وأخدم
عائلهم وقضى دين غاريهم ، وكان يرسل إلى السيدة عائشة إذا جاءت غلته كل

(١) وقال له سيدنا رسول الله يوم أحد : إنه قد أوجب : أي أتى بما أوجب
له الجنة .

(٢) أي الذين عهد إليهم الفاروق رضى الله عنه أن يتشاوروا ويختاروا من بينهم
خليفة بعده .

(٣) أسحر : صار في السحر ، والسحر : ما قبل انصداع الفجر

(٤) الأياح جمع أيم والأيم من النساء : التي لازوج لها بكرة كانت أو ثيباً
ومن الرجال : الذي لا امرأة له

سنة بعشرة آلاف ... إلى آخر أنباء جوده وكرمه ؛ ولما انقضى يومُ
الجمال^(١) خرج عليُّ بن أبي طالب في ليلة ذلك اليوم ومعه قنبر^(٢) ، وفي
يده مشعلَةٌ من نار يتصفّح القتلى ، حتى وقف على طاحنة فقال : أُعِزُّ عليَّ
أبا محمد أن أراك مُعَفَّرًا^(٣) تحت نجوم السماء وفي بطون الأودية : شَفِيتُ

نفسى وَقَتَلْتُ مَعْشِرِي ! إلى الله أشكو عُجْرِي وَبُجْرِي^(٤) ثم تمثل^(٥)

قَتَّى كَانَ يُدْنِيهِ الْغَنَى مِنْ صَدِيقِهِ إِذَا مَا هُوَ اسْتَعْنَى وَبُيْعِدُهُ الْفَقْرُ

قَتَّى لَا يَدْعُوَ الْمَالَ رَبًّا وَلَا تُرَى بِهِ جَفْوَةٌ إِنْ نَالَ مَالًا وَلَا كِبَرُ

قَتَّى كَانَ يُعْطَى السِّيفُ فِي الرُّوعِ حَقَّهُ

إِذَا تَوَبَّ الدَّاعِي وَتَشَقَّى بِهِ الْجُزُرُ^(٦)

وَهَوْنٌ وَجِدِي أَنَّنِي سَوْفَ أُغْتَدِي عَلَى إِفْرِهِ يَوْمًا وَإِنْ نَفَسَ الْعُمُرُ

« قوله قَتَّى كَانَ يُدْنِيهِ الْغَنَى مِنْ صَدِيقِهِ ... ألبيت : هو معنى جميل مطروق

وفيه بقول إبراهيم بن العباس الصولي في محمد بن عبد الملك الزيات :

(١) هو تلك الواقعة التي نشبت بين علي وبين عائشة ومن معها ، وكانت عائشة

تمتطي جملا فسمى ذلك اليوم يوم الجمال

(٢) هو خادم علي

(٣) معفراً : أي ملصق الوجه بالتراب ويقال للتراب : العفر . والعفر

(٤) أي ما ظهر من أمرى وما بطن ، وأصل العجر : العروق المنعقدة في الظهر

والبجر : العروق المنعقدة في البطن ، وقال الاصمعي : هو قول سائر في أمثال العرب

يقال : لقي فلان فلانا فأبته عجره وبجره

(٥) هذه الأبيات لسلسلة بن يزيد بن مشجعة الجوفي أحد الصحابة يرثي أخاه لأمه

(٦) توب الداعي ، فالثوب : التلويع بالثوب مع صوت فيه استغاثة وقال عمرو

ابن العلاء : الثوب : الترجيع من ناب يثوب إذا رجع يريد : إذا رجع الداعي دعاه

بعد دعاه ، يصفه بإجابة الصريخ وقوله : وتشقى به الجزر ، يصفه بكرم الضيافة

أَسَدٌ ضَارٍ إِذَا مَانَعَتْهُ وَأَبٌ بَرٌّ إِذَا مَا قَدَّرَا
يَعْرِفُ الْأَبْعَدَ إِنْ أَتَرَى وَلَا
يَعْرِفُ الْآدِنَى إِذَا مَا اقْتَرَا

ويقول الأديب أبو بكر الخوارزمي :

رَأَيْتُكَ إِنْ أَيْسَّرْتَ خَيْمَتَ عِنْدَنَا لَزَامًا وَإِنْ أَعَسَّرْتَ زُرْتَ لِمَامَا
فَمَا أَنْتَ إِلَّا الْبَدْرُ إِنْ قَلَّ ضَوْؤُهُ أَغْبَ وَإِنْ زَادَ الضِّيَاءُ أَقَامَا
وقد تقدمت أبيات لعبد الله بن الزبير الأسدي في هذا المعنى؛ وما أبرع
أبياتاً لابن المعتز يقول فيها :

إِذَا مَا أَرَادَ الْحَاسِدُونَ انْهِيَامَهُ بَنَاهُ إِلَهُ غَالِبُ الْعِزِّ قَاهِرُهُ
وَمَاذَا يَرِيدُ الْحَاسِدُونَ مِنْ أَمْرِي تَزِينُهُمْ أَخْلَافُهُ وَمَا تَرَاهُ
إِذَا مَا هُوَ اسْتَغْنَى اهْتَدَى لَافْتَقَارِهِم

ولا تهتدى يوماً إليهم مفاقرُهُ^(١)

وكانوا كزرايم كوكباً يبصافه قُرْدٌ عليهم وَبُله ومواطرُهُ^(٢)

حادث تلاقى فيه الكرم بالشجاعة والمروءة

والحياء والنبل

تحدث رجلٌ من الأعراب قال : نَزَلْتُ بِرَجُلٍ مِنْ طَيْيٍّ ، فَتَحَرَّ لِي نَاقَةٌ

(١) المفاقر : وجوه الفقر ، أو جمع فقر على غير قياس كاللمايح والمشايبه

(٢) هذا البيت كما قال بعض العرب :

رَمَانِي بِأَمْرِ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيئًا وَمِنْ جَالِ الطَّوِيِّ رَمَانِي
وَالجَالِ وَالْجَوَلِ : الناحية ، والطوى : البئر ، يريد : رماني بما عاد عليه ،

فَأَكَلْتُ مِنْهَا ، فَلَمَّا كَانَ الْعَدُوُّ نَحَرَ أُخْرَى فَقُلْتُ : إِنَّ عِنْدَكَ مِنَ اللَّحْمِ مَا يُغْنِي
وَيَكْفِي ، فَقَالَ : إِنْ وَاللَّهِ لَا أُطْعِمُ ضَيْفِي إِلَّا لَحْمًا عَبِيْطًا ، قَالَ : وَفَعَلَ
ذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ ، وَفِي كُلِّ ذَلِكَ أَكَلْتُ شَيْئًا وَيَأْكُلُ الطَّائِيُّ أَكْلَ جَمَاعَةٍ ،
ثُمَّ نُوتِي بِاللَّبَنِ فَأَشْرَبْتُ شَيْئًا وَيَشْرَبُ عَامَّةُ الْوَطْبِ ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ
الثَّالِثِ ارْتَقَبْتُ غَفْلَتَهُ ، فَاضْطَجَعْتُ ، فَلَمَّا امْتَسَلْنَا نَوْمًا اسْتَقْتُ قَطِيعًا مِنْ إِبِلَيْهِ ،
فَأَقْبَلَتْهُ الْفَجْ ، فَأَنْتَبَهَ ، وَاخْتَصَرَ عَلَى الطَّرِيقِ حَتَّى وَقَفَ لِي فِي مَضِيقٍ مِنْهُ ،
وَأَلْقَمَ وَتَرَهُ فَوْقَ سَهْمِهِ ، ثُمَّ نَادَى بِي : لَتَطْبُ نَفْسُكَ عَنْهَا ، قُلْتُ : أَرِنِي
آيَةً ، فَقَالَ : أَنْظِرْ إِلَى ذَلِكَ الصَّبِّ ، فَإِنِّي وَاضِعٌ سَهْمِي فِي مَغْرَزِ ذَنْبِهِ ، فَرَمَاهُ ،
فَأَنْدَرُ ذَنْبَهُ ، فَقُلْتُ : زِدْنِي ، فَقَالَ : أَنْظِرْ إِلَى أَعْلَى فَقَارِهِ ، فَرَمَاهُ ، فَأَثْبَتَ
سَهْمَهُ فِي الْمَوْضِعِ ، ثُمَّ قَالَ لِي : الثَّالِثَةُ وَاللَّهُ فِي كَيْدِكَ ، فَقُلْتُ : شَأْنُكَ
بِإِبِلِكَ ، فَقَالَ : كَلَّا ، حَتَّى تَسُوْقَهَا إِلَى حَيْثُ كَانَتْ ، قَالَ : فَلَمَّا انْتَهَيْتُ بِهَا
قَالَ : فَكَّرْتُ فِيكَ فَلَمْ أَجِدْ لِي عِنْدَكَ رِزَّةً تُطَالِبُنِي بِهَا ، وَمَا أَحْسِبُ الَّذِي
حَمَلَكَ عَلَى اخْتِذِ إِيْلِي إِلَّا الْحَاجَةُ ، قَالَ : قُلْتُ : هُوَ وَاللَّهُ ذَاكَ ، قَالَ : فَأَعِزُّدْ
إِلَى عَشْرِينَ مِنْ خِيَارِهَا فَخُذْهَا ، فَقُلْتُ : إِذْنُ وَاللَّهِ لَا أَقْسِلُ حَتَّى تَسْمَعَ
مَدْحَكَ ، وَاللَّهُ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَكْرَمَ ضِيَاةً وَلَا أَهْدَى لِسِيلٍ وَلَا أَرْمَى
كَفًا وَلَا أَوْسَعَ صَدْرًا وَلَا أَرْغَبَ جَوْفًا وَلَا أَكْرَمَ عَفْوًا ، مِنْكَ ، قَالَ :
فَاسْتَحْيَا فَصَرَفَ وَجْهَهُ عَنِّي ، ثُمَّ قَالَ : أَنْصَرِفْ بِالْأَقْطَعِ مُبَارَكًا لَكَ فِيهِ ...
• قَوْلُهُ : عَبِيْطًا : يُقَالُ : عَبَطَ فُلَانٌ نَاقَتَهُ : إِذَا نَحَرَهَا مِنْ غَيْرِ دَاءٍ وَلَا كَسِرٍ
وَهِيَ شَابَةٌ سَمِيَّةٌ ، وَالْعَبِيْطُ أَيْضًا : اللَّحْمُ الطَّرِيقِيُّ غَيْرِ النُّضِيجِ ، وَالْوَطْبُ :
سِقَاءُ اللَّبَنِ خَاصَّةٌ مِنْ جِلْدٍ ، وَالْفَجْ : الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، وَالْجَمْعُ :
جُلُوحٌ ، وَاخْتَصَرَ الطَّرِيقَ : سَلَكَ أَقْرَبَهُ ، وَفَوْقَ السَّهْمِ : مَشَقُّ رَأْسِهِ حَيْثُ

يقع الوتر ، وقوله : فَأَنْدَرَ ذَنْبَهُ : أى أَسْقَطَهُ ، وقد نَدَرَ الشئُ يَنْدُرُ ندورا : سقط أو سقط من جوفِ شئ أو من بين أشياء فظهر ، ومنه نوادرُ الكلام وهى ما شذت وخرجت عن جمهوره فظهرت . وقوله : ولا أرغب جوفاً : من الرُغْب وهو : سعة البطن وكثرة الأكل ،

حلم وأدب وسمو خلق

رَوَى المُبَرِّدُ : أَنَّ رجلاً من أهل الشام قال : دخلتُ المدينة ، فرأيتُ رجلاً راكباً على بغلة لم أرَ أحسنَ وجهاً ولا سَمْتاً ولا ثوباً ولا دابةً ، منه ا فقالَ قلبى إليه ، فسألت عنه فقيل لى : هذا الحسن بنُ على بن أبي طالب ، فامتلأ قلبى له بُغْضاً ^(١) وَحَسَدْتُ عالياً أن يكون له ابنٌ مثله ا ففِصِرْتُ إليه ^(٢) ، فقلت له : أأنت ابنُ أبي طالب ؟ فقال : أنا ابنُ ابنه ، فقلت : فبك وبأبيك أُسبُهما ، فلما انقضى كلامى قال لى : أَحَسِبُكَ غريباً ا قلت : أَجَلُ قال : فإِن بِنَا فَإِن احتججتَ إلى منزلٍ أنزلناك ، أو إلى مالٍ آسيناك ، أو إلى حاجةٍ عاوناك ، قال : فانصرفتُ عنه ووالله ما على الأرض أحدٌ أَحَبُّ إلىّ منه ... وقال رجل لرجلٍ من قريش : إني مررتُ بقومٍ من قريش يشتمونك شتما رَحِمْتُكَ منه ا قال القرشى : أفسِمَعْنِي أقول إلا خيراً ؟ قال : لا ، قال : إياهم فارحم ... وقال ابن مسعود : إن الرجلَ لَيُظِلُّهُ فَارْحُهُ ا وقال رجلٌ للشَّعْبِيِّ كلاماً أَقْدَحَ له فيه ، فقال له الشَّعْبِيُّ : إن كنتَ صادقاً فغفر الله لى ، وإن كنتَ كاذباً فغفر الله لك ... وَيُرَوَّى أَنَّهُ أتى مَسْجِداً ، فصادفَ فيه قوماً يَغْتَابُونَهُ ، فأخذ بعِضَادَتِي البابِ ثم تمثل بقول كثير عزة :

(١) لأن الرجل من أشياخ معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه (٢) توجهت إليه

هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَائٍ مُخَامِرٍ لِعَزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ
وقال محمود الوراق :

إِنِّي شَكَرْتُ لِظَالِمِي ظُلْمِي وَغَفَرْتُ ذَاكَ لَهُ عَلَى عِلْمِي
وَرَأَيْتُهُ أَسَدِي إِلَى يَدَا لَمَّا أَبَانَ بِجَهْلِهِ حِلْمِي
رَجَعْتُ إِسَاءَتُهُ عَلَيْهِ وَإِحْسَانِي فَعَادَ مُضَاعَفَ الْجُرْمِ
وَعَدَوْتُ ذَا أَجْرٍ وَمَحْمَدَةٍ وَعَدَا بِكَسْبِ الظُّلْمِ وَالْإِثْمِ
فَكَأَنَّمَا الْإِحْسَانُ كَانَ لَهُ وَأَنَا الْمُسِيءُ إِلَيْهِ فِي الْحُكْمِ
مَازَالَ يَظْلِمُنِي وَأَرْحُمُهُ حَتَّى بَكَيْتُ لَهُ مِنَ الظُّلْمِ

خير ما يرزقه العبد

قال بعض الملوك لبعض وزرائه - وأراد محنته - : ما خير ما يرزقه
العبد ؟ قال : عقلٌ يعيش به ، قال : فإن عديمه ؟ قال : فادبٌ يتحلى به ،
قال : فإن عديمه ؟ قال : فمالٌ يسُتره ، قال : فإن عديمه ؟ قال : فصاعقةٌ تُريحُ
منه العبادَ والبلادَ ...

لاتزال العرب عربا

ما حافظت على زيتها

كان الأحنف بن قيس يقول : لاتزال العربُ عرباً ما لبست العمام ،
وَتَقَلَّدَتِ السِيُوفَ ، ولم تعددِ الحِلْمَ ذُلاً ، ولا التَّوَاهُبَ فيما بينها ضَعَةً ...
« قوله : ما لبست العمام ، يريد : ما حافظت على زيتها ، وقوله : وتقلدت
السيف ، يريد : الامتناع من الضيم ، وقوله : ولم تعدد الحِلْمَ ذُلاً ، يقول :
ما عرفت موضع الحِلْمِ ، وذلك أن الرجل إذا أغضى للسلطان ، أو أغضى

عن الجواب وهو مأثور لم يُقَلْ: حَلِمَ ، وإنما يقال : حَلِمَ ، إذا ترك أن يقول الشيء لصاحبه مُنتصرا ولا يخاف عاقبةً يكرهها . فهذا الحِلْمُ المحض ، فإذا لم يفعل ذلك ورأى أن تركه الحِلْمُ ذُلٌّ فهو خطأ وسَفَهٌ ؛ وقوله : ولم ترك التواهب بينهما ضَعْفٌ ، نحو من هذا ، وهو : أن يَهَبَ الرجل من حَقِّه مالا يُستَكْرَه عليه ... وكان يقال : أحيوا المعروف بإماتته ، ومعنى ذلك : أن الرجل إذا امتنَّ بمعروفه كدَّرَه ؛ وقيل : المِنَّةُ تَهْدِمُ الصَّنِيعَةَ ، وقد قال قيس بن عاصم المِنْقَرِي : يا بني تميم ، اصْحَبُوا مَنْ يَذْكُرُ إِحْسَانَكُمْ إِلَيْهِ وَيَلْسِي أَيْادِيَهُ إِلَيْكُمْ ...

توقير العالم والشريف والكبير

والترفع عن الوضع

كان زياد بن أبيه يقول : أوصيكم بثلاثة : بالعالم ، والشريف - يعني العظيم القدر - والشيخ - يريد : الذي تقدمت به السن - فوالله لأوثق بوضع سب شريفا ، أو شابٍ وثب بشيخ ، أو جاهلٍ امتنَّ عالما ، إلا عاقبتُ وبالفُتُ ... وقال عُمارة بن عَقِيل بن بلال بن جرير لبني أسد ابن خزيمة :

يا أيها السائل عمداً لا أخبره بذاتِ نفسي وأيدى الله فوق يدي
إن تستقيم أسدُ ترشدوا إن شغبْتِ فلا يَلُمُ لائِمٌ إلا بني أسد
إني رأيتمُ يُعَصَى كُبيركم وتكنعون إلى ذى الفَجْرةِ النَّكِدِ^(١)

(١) تكنعون : تخضعون ، من كنع يكنع - بالفتح فيهما - كنوعا : خضع ، والفجرة اسم لكل قبيح ، من فجر الرجل بفجر فجره وفجورا : انبعث في المعاصي ، والنكد : اللئيم ، من النكد - بالتحريك - وهو الشؤم واللؤم

فَبَاعِدَ اللَّهُ كُلَّ الْبُعْدِ دَارَكُمْ وَلَا شَفَاكُم مِنَ الْأَضْغَانِ وَالْحَسَدِ
 فَرَأَى عَصِيَانَهُمَ الْكَبِيرَ مِنْ أَقْبَحِ الْعَيْبِ وَأَدْلَهُ عَلَى ضِغْنٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
 وَحَسَدٍ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَالْوَضِيعُ يَنْقَلِبُ إِلَى الشَّرِيفِ لِأَنَّهُ يَرَى مُقَاوَلَتَهُ غُرَا ،
 وَالْأَجْرَاءُ عَلَيْهِ رُبْحًا ، كَمَا أَنَّ مُقَاوَلَةَ الشَّرِيفِ لِلثِّيمِ ذُلٌّ وَضَعَةٌ قَالَ الشَّاعِرُ :
 إِذَا أَنْتَ قَاوَلْتَ الثِّيمَ فَإِنَّمَا يَكُونُ عَلَيْكَ الْعَتَبُ حِينَ تُقَاوَلُهُ
 وَلَسْتَ كَمَنْ يَرْضَى بِمَا غَيْرُهُ الرِّضَا وَيَمَسُّحُ رَأْسَ الذَّنْبِ وَالذَّنْبُ آكَلُهُ
 قَالَ الْمُبَرِّدُ : وَفِي هَذَا الشَّعْرُ يَتَنَانُ يَقْدَمَانِ فِي بَابِ الْفَتَكِ - وَفِي بَابِ الْغَرَمِ
 وَالشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ - وَهُمَا :

فَلَا تَقْرَنْ أَمْرَ الصَّرِيمَةِ بِأَمْرِي إِذَا رَأَى أَمْرًا عَوَّقَتْهُ عَوَاذِلُهُ (١)
 وَقُلْ لِلْفَوَادِ إِنَّ زَوَابِكَ نَزْوَةٌ مِنَ الرُّوعِ : أَفْرِخُ أَكْثَرَ الرُّوعِ بِأَطْلِهِ (٢)
 قَالَ الْمُبَرِّدُ : وَقَدْ اِمْتَنَعَ قَوْمٌ مِنَ الْجَوَابِ - أَيْ مِنْ مُقَاوَلَةِ الثِّيمِ - تَبَلَا
 - يَرِيدُ تَرْفَعًا - وَوَاضِعُهُمْ تُنْبِئُ عَنْ ذَلِكَ - أَيْ أَنَّ مَرَاكِزَهُمْ تَدُلُّ عَلَى
 أَنَّ اِمْتِنَاعَهُمْ تَرْفَعُ - وَامْتَنَعَ قَوْمٌ عِيًّا بِلَا اِغْتِلَالٍ - يَرِيدُ دُونَ أَنْ يَبْدُوا عِلَّةَ لِهَذَا
 الْإِعْرَاضِ عَنِ الثَّامِ - وَامْتَنَعَ قَوْمٌ عَجَزُوا وَاعْتَلُّوا بِكَرَاهَةِ السَّفَةِ ، وَبَعْضُهُمْ
 مَعْتَلٌّ بِرِفْدَةٍ نَفْسِهِ عَنْ خَصْمِهِ ، وَبَعْضُهُمْ كَانَ يُسَبُّهُ الرَّجُلُ الرِّكِيكُ مِنَ
 الْعَشِيرَةِ ، فَيُعْرِضُ وَيُسَبُّ سَيِّدَ قَوْمِهِ ، وَكَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ رُبَّمَا فَعَلَتْهُ فِي الذُّحُولِ

(١) فَلَا تَقْرَنْ : مِنْ قَرَنَ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ : شَدَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَذَلِكَ قَرَنَهُ إِلَيْهِ ،
 وَالصَّرِيمَةُ : الْعَزِيمَةُ

(٢) إِنَّ زَوَابِكَ نَزْوَةٌ : فَالنَزْوَةُ : الْمَرَّةُ مِنَ النَّزْوِ وَهُوَ الْوُثْبُ إِلَى فَوْقَ ، يَرِيدُ :
 إِنَّ تَسْلُطَ عَلَيْهِ الْفَرْخُ وَالرَّعْبُ فَاضْطَرَبَ ، وَأَفْرِخُ يَرِيدُ : أَفْرِخُ رَوْعَكَ ، وَمَعْنَاهُ : لِيُخْرِجَ
 عَنْكَ رَوْعَكَ وَيَذْهَبَ فَرْخُكَ كَمَا تَفْرِخُ الْبَيْضَةُ إِذَا انْفَلَقَتْ عَنِ الْفَرْخِ فَخَرَجَ مِنْهَا وَقَوْلُهُ :
 أَكْثَرَ الرُّوعِ بِأَطْلِهِ ، يَرِيدُ : لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا تَحَاذَرُ

- جمع دُحْل وهو: الثَّار - قال الراجز:

إِنْ بَجِلاَ كُلِّمَا هَجَانِي مِلْتُ عَلَى الْأَغْطَاشِ أَوْ أَبَانِ
أَوْ طَلَحَةِ الْخَيْرِ قَتَى الْفِتْيَانِ أَوْلَاكَ قَوْمٌ شَأْنُهُمْ كَشَانِ
مَا نِلْتُ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ كَفَانِي وَإِنْ سَكَتُ عَرَفُوا إِحْسَانِي
وقال أحد المحدثين :

إِنِّي إِذَا هَرَّ كُلُّبٌ الْحَيَّ قُلْتُ لَهُ إِسْلَمْ وَرَبُّكَ مَخْنُوقٌ عَلَى الْجِرَرِ ^(١)
وفي مثل اختيار التَّيْلِ لَتَكْفَا الْأَعْرَاضُ قَوْلُ الْأَخْطَلِ :

شَقَى النَّفْسَ قَتْلَى مِنْ سُلَيْمٍ وَعَاسِرٍ وَلَمْ يَشْفِهَا قَتْلَى غَتَّى وَلَا جَمِيرٍ
وَلَا جُشْمٍ شَرَّ الْقَبَائِلِ لَهَا كَيْبِضِ الْقَطَا لَيْسُوا بِسُودٍ وَلَا حَمِيرٍ
وَلَوْ بَنَى ذِيانَهُ بُلْتُ رِمَاحُنَا لَقَرْتُ بِهِمْ عَيْنِي وَبَاءَ بِهِمْ وَثَرِي
وقال رجل من المحدثين وهو حمدان بن أبان اللاحقي :

أَلَيْسَ مِنَ الْكِبَائِرِ أَنْ وَغْدًا لِأَلٍ مُعَذَّلٍ يَهْجُو سَدُوسًا
هَجَا عِرْضًا لَهُمْ غَضًا جَدِيدًا وَأَهْدَفَ عِرْضَ وَالِدِهِ اللَّيْسَا ^(٢)
وقال آخر :

اللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبَرٍ وَوَالِدِهِ وَاللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبَرٍ وَمَا وَلَدَا
قَوْمٌ إِذَا جَرَّ جَانِي قَوْمَهُمْ أَمِنُوا مِنْ أَوْمٍ أَحْسَا بِهِمْ أَنْ يُقْتَلُوا قَوْدَا
اللُّؤْمُ دَاءٌ لَوَبَرٍ يُقْتَلُونَ بِهِ لَا يُقْتَلُونَ بِدَاءٍ غَيْرِهِ أَبَدَا
وقال أحد المحدثين هو - دَعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ الْخَزَاعِي - :

(١) الجرر: جمع جزة وهي: الجذب كالجز والاجترار

(٢) يريد: جعله هدفا يرمى، واللبيس: مستعار من قولهم ثوب لبيس إذا كثر

لبسه فأخلق

أما الهجاءُ فَدَقَّ عِرْضُكَ دُونَهُ والمدحُ غَنَكَ كما عَلِمْتَ جَلِيلُ
فَاذْهَبْ فَإِنَّ عَتِيقَ عِرْضِكَ إِنَّهُ عِرْضُ عَزَزْتَ بِهِ وَأَنْتَ ذَلِيلُ
وقال آخر :

نَبِئْتُ كَلْبًا هَابَ رَمِي لَهُ يَنْبُخُنِي مِنْ مَوْضِعِ نَائِي ^(١)
لَوْ كُنْتُ مِنْ شَيْءٍ هَجَوْنَاكَ أَوْ لَوْ بَدَلْتُ لِلسَّامِعِ وَالرَّائِي ^(٢)
فَقَدْتُ عَنْ شَتْمِي فَإِنِ امْرُؤٌ حَلَمَنِي قَلَّةٌ أَكْفَائِي
وقال دعبل أيضاً :

فلو أَنِي بُلِيتُ بهَا شِعْمِي خُولُّهُ بنو عبدِ المدائنِ
صَبَرْتُ عَلَى عِدَاوَتِهِ وَلَكِنْ تَعَالَى فَأَنْظِرِي بَيْنَ ابْتِلَانِي
وَوَقَفَ رَجُلٌ عَلَيْهِ مُقَطَّعَاتٌ عَلَى الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ يُسَبُّهُ ، وكان عمرو
ابن الْأَثَمِ جَعَلَ لَهُ أَلْفَ دِرْهَمٍ عَلَى أَنْ يُسَفِّهُ الْأَحْنَفَ ، فجعل لا يَأْلُو أَنْ
يُسَبَّهُ سَبًّا يُغْضِبُ ، وَالْأَحْنَفُ مُطَرِّقٌ صَامِتٌ ، فلما رآه لا يُكَلِّمُهُ أَقْبَلَ
الرَّجُلُ يَعْصُ إِبْهَامِيهِ وَيَقُولُ : يَا سَوْآتَاهُ ، وَاللَّهِ مَا يَمْنَعُهُ مِنْ جَوَابِي إِلَّا هَوَانِي
عَلَيْهِ ... وَفَعَلَ ذَلِكَ آخَرُ فَأَمْسَكَ عَنْهُ الْأَحْنَفُ ، فَأَكْثَرَ الرَّجُلُ ، إِلَى أَنْ
أَرَادَ الْأَحْنَفُ الْقِيَامَ لِلْغَدَاءِ فَأَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ فَقَالَ : يَا هَذَا ، إِنَّ غَدَاءَنَا قَدْ
حَضَرَ فَانْهَضْ بِنَا إِلَيْهِ إِنَّ شَتَّ فَإِنَّكَ مُذَ الْيَوْمِ تَحْدُو بِجَمَلٍ نَقَالَ. ^(٣)

عبرة

قال المنصورُ لعمرو بن عُبيد : عِظْنِي قَالَ : بِمَا رَأَيْتُ أَوْ بِمَا سَمِعْتُ ؟

(١) يَنْبُخُنِي : يريد تلحقني شتائمه على سبيل المجاز

(٢) يَرِيدُ : لو أحسن بك الأعمى والبصير

(٣) الثفال من الإبل : البطيء الثقيل الذي لا يكاد يَنْبُحُ ...

قال : بما رأيت ، قال : مات عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَخَلَّفَ أَحَدَ عَشَرَ ابْنًا وَبَلَغَتْ تَرِكَتُهُ سَبْعَةَ عَشَرَ دِينَارًا ، كُفِّنَ مِنْهَا بِخَمْسَةِ ، وَاشْتَرَى مَوْضِعًا لِقَبْرِهِ بِدِينَارَيْنِ ، وَأَصَابَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلَادِهِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ قِيرَاطًا مِنْ دِينَارٍ ... وَمَاتَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ تَخَلَّفَ أَحَدَ عَشَرَ ابْنًا أَصَابَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلَادِهِ أَلْفَ أَلْفٍ دِينَارٍ ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَدْ حَمَلَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ عَلَى مِائَةِ فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ هِشَامِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ يَسْأَلُ الصَّدَقَةَ ...

لا تشكُ إلى غير الله

حَدَّثَ بَعْضُهُمْ قَالَ : سَمِعْتُ شُرَيْحَ الْقَاضِي وَأَنَا أَشْكُو بَعْضَ حَالِي إِلَى صَدِيقٍ لِي ، فَأَخَذَ يَدِي وَقَالَ : يَا ابْنَ أَخِي ، إِيَّاكَ وَالشَّكْوَى إِلَى غَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، الصَّدِيقُ يُخْزِنُهُ ، وَالْعَدُوُّ تُشْمِتُهُ ؛ انْظُرْ إِلَى عَيْنِي هَذِهِ - وَأَشَارَ إِلَى أَحَدِي عَيْنَيْهِ - وَقَالَ : وَاللَّهِ ، مَا أَبْصَرْتُ بِهَا شَخْصًا وَلَا طَرِيقًا مُنْذُ خَمْسِ عَشْرَةِ سَنَةٍ ، وَمَا أَخْبَرْتُ بِهَا أَحَدًا إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ سِوَاكَ ...

نبالة ومروءة

حَدَّثَ الْعَسْجَدِيُّ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي إِسْحَاقَ الْكِسَائِيِّ لِيَلَّا فَقَالَ : مَا جَاءَ بِكَ ؟ قَالَ : رَكِبْتُ دَيْنُ ، فَقَالَ : كَمْ هُوَ ؟ قَالَ : أَرْبَعُمِائَةِ دَرَاهِمٍ ، فَأَخْرَجَ كَيْسًا فَأَعْطَاهُ ، فَلَمَّا رَجَعَ عَنْهُ بَكَى ، فَقَالَ لَهُ أَهْلُهُ : مَا يُبْكِيكَ ؟ فَقَالَ : بُكَائِي أَنِّي لَمْ أَبْحَثْ عَنْ حَالِهِ وَأَلْجَأْتُهُ إِلَى الذَّلِّ ...

دعوة الله

قال أعرابي :

وَإِنِّي لَأُغْضِي مُقَلَّتِي عَلَى الْقَذَى وَالْبُسْ تَوْبَ الصَّبْرِ أَيْضَ أَبْلَجَا
وَإِنِّي لَادْعُو اللَّهَ وَالْأَمْرَ ضَيْقُ عَلَيَّ فَمَا يَنْفَكُ أَنْ يَنْفَرَجَا
وَكَمْ مِنْ قَتَى ضَاقَتْ عَلَيْهِ وَجُوهُهُ أَصَابَ لَهَا فِي دَعْوَةِ اللَّهِ تَخْرَجَا

كلمات في السؤال

قال الأصمعي : سمعت أعرابيا يقول : قَوْتُ الْحَاجَةَ خَيْرٌ مِنْ طَلِبِهَا مِنْ
غَيْرِ أَهْلِهَا... قال : وسمعت آخر يقول : عِزُّ النَّزَاهَةِ أَشْرَفُ مِنْ سُرُورِ الْعَائِدَةِ
قال : وسمعت آخر يقول : حَمْلُ الْمَنِّ أَثْقَلُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى الْعَدَمِ ... وفي
الحديث الشريف : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ ثُمَّ يَذْدُو إِلَى
الْجَبَلِ فَيَحْتَطِبُ فَيَبِيعُ فَيَأْكُلُ وَيَتَصَدَّقُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيهِ
أَوْ يَمْنَعَهُ.

كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الْمُلُوكَ لَا يُسْتَحَى مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ

ولمناسبة السؤال نورد عليك مايلي : كان كبيد بن ربيعة الشاعر المخضرم
شريفا في الجاهلية والاسلام ، وكان نَذَرُ أَنْ لَا تَهَبَّ الصَّبَا ^(١) إِلَّا نَحَرَ
وَأَطْعَمَ حَتَّى تَنْقَضِيَ ، فَهَبَّتْ بِالْإِسْلَامِ وَهُوَ بِالْكُوفَةِ ^(٢) مُقِيرٌ مُمْلِقٌ ،

(١) الصبا : الريح التي تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار وتسمى
القبول لأنها تستقبل الكعبة

(٢) يقال : إنه أقام بالكوفة في عهد عمر بن الخطاب ولم يزل بها حتى مات في
آخر خلافة معاوية عن خمس وأربعين ومائة سنة ، رحمه الله

فَعَلِمَ بِذَلِكَ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ - وَكَانَ وَالِيَهَا لِعُمَيْانَ بْنِ عَفَّانَ - وَكَانَ أَخَاهُ لِأُمِّهِ - فَخَطَبَ النَّاسَ وَقَالَ : إِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ نَذْرَ أَبِي عَقِيلٍ وَمَا وَكَّدَ عَلَى نَفْسِهِ ، فَأَعِينُوا أَهْلَكُمْ ، ثُمَّ نَزَلَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِمِائَةِ نَاقَةٍ وَأَيَّاتٍ يَقُولُ فِيهَا :

أَرَى الْجَزَارَ بِشَحْدُ شَفَرَتَيْهِ إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُ أَبِي عَقِيلٍ ^(١)

أَشْمُ الْأَنْفِ أَصِيدُ عَامِرِي طَوِيلَ الْبَاعِ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ ^(٢)

وَقَى ابْنُ الْجَعْفَرِيِّ بِمَا نَوَاهُ عَلَى الْعِلَاتِ وَالْمَالِ الْقَلِيلِ ^(٣)

بَنَحْرِ السَّكُومِ إِذْ سُحِبَتْ عَلَيْهِ ذُبُولُ صَبَابٍ تَجَاوَبُ بِالْأَصِيلِ ^(٤)

فَلَمَّا أَتَتْهُ قَالَ : جَزَى اللَّهُ الْأَمِيرَ خَيْرًا ، قَدْ عَرَفَ الْأَمِيرُ أَنِّي لَا أَقُولُ شِعْرًا ^(٥) وَلَكِنْ أَخْرَجِي يَا بُلَيْتِي ، فَخَرَجَتْ خُمَاسِيَّةً ^(٦) فَقَالَ لَهَا : أَجِيبِي الْأَمِيرَ ، فَأَقْبَلَتْ وَأَذْبَرَتْ ، وَبَعَثَ النَّاسُ ، فَقَضَى نَذْرَهُ ، فَبَيَّنَ ذَلِكَ تَقُولُ ابْنَةُ لَيْدٍ :

إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُ أَبِي عَقِيلٍ دَعَوْنَا عِنْدَ هَبَّتِهَا الْوَلِيدَا

طَوِيلَ الْبَاعِ أَيْضُ عَبْشَمِيًّا أَعَانَ عَلَى مُرُوءَتِهِ لَيْدَا ^(٧)

(١) الشفرة: السكين ، والشحد: التحديد بالشحد بكسر الميم ، وهو المسن

(٢) الأصيد: الذي يرفع رأسه كبرا لا يلتفت يمينا ولا شمالا

(٣) على العلات: على كل حال أو على ما فيه من الحالات والشئون

(٤) السكوم: العظام الأسنة واحدها كوما

(٥) لأنه حزم على نفسه قول الشعر منذ أسلم

(٦) خماسية: طولها خمسة أشبار ، وكذلك غلام خماسي ولا يقال إذا بلغ ستة

أشبار أو سبعة: سداسي ولا سباعي

(٧) أبيض: إذا قالت العرب: فلان أبيض فالمعنى: نقاء العرض من الدنس والعيوب

لا يريدون بياض اللون وهذا كثير في شعرهم . وعبشمي: من بني عبد شمس بن عبد مناف

بأمثال الهضاب ، كأن ركبا عليها من بني حارم فعودا ^(١)
 أبا وهب جزاك الله خيرا نحرناها وأطعمنا الثريد
 فعد إن الكريم له معاد وظنى بآبن أروى أن يعودا
 فقال لها ليبد : أحسنت يا بليتى لولا أنك سألت ا فقالت : إن الملوك
 لا يستحي من مسألتهم ا ولو كان سوقة لم أفعل ... فقال لها : وأنت في
 هذا أشعر ا

مثل في الرياء

عن وهب بن منبه قال : نصب رجل من بني إسرائيل غفّا ، فجاءت
 عصفورة فنزلت عليه ، فقالت : مالى أراك منحيا ؟ قال : لكثرة صلاتى
 انحنيت ا قالت : فمالى أراك بادية عظامك ؟ قال : لكثرة صيامى بدت
 عظامى ا قالت فمالى أرى هذا الصوف عليك ؟ قال : لزهادى فى الدنيا ليست
 الصوف ا قالت : فما هذه العصا عندك ؟ قال : أتوكأ عليها وأقضى حوائجى ،
 قالت : فما هذه الحبة فى يدك ؟ قال : قربان إن مرنى مسكين ناوئته
 إياه ، قالت : فإنى مسكينة ا قال : فخذها ، فدنت فقبضت على الحبة ،
 فإذا الفخ فى عنقها ، فجعلت تقول : قعى قعى ا تفسيره : لا غرنى ناسك مراء
 بعدك أبدا ...

(١) بأمثال الهضاب : جمع هضبة بسكون الضاد وهو كل جبل خلق من صخرة
 واحدة أو هي كل صخرة ضخمة ، تصف ضخامة الإبل ، وقولها : كأن ركبا الخ تصف
 اسنمتها السود ، وحارم : أحد أولاد نبي الله نوح عليه السلام وهو فيما زعموا أبو السودان

الهم نصف الهرم

من كلمة اسيدنا على بن أبي طالب : والهم نصف الهرم ، وقال حكيم :
الهم يُشيبُ القلب ، ويُعَمِّقُ العقل ، فلا يتولد منه رأى ، ولا تصدُقُ معا
رَوِيَّة ، وقال أبو تمام :

شاب رأيت وما رأيت مشيب الرأ يس إلا من فضل شيب الفؤاد
وكذاك القلوب في كل بُؤس ونعيم طلائع الأجساد
وقال أبو نواس :

وما إن شبت من كبر ولكن لقيت من الحوادث ما أشابا
وقد تقدم قول المتنبي :

والهم يخترم الجسم نحافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم

مثل الدنيا وآفاتا

والخوف من نهايتها

جاء في كتاب كيلة وديمة : وجدتُ مثلَ الدنيا والمغرورِ بها ، مع امتلا:
بالآفات ، مثل رجل أُلْجَاهُ خَوْفٌ فيل هانجٍ إلى بئر ، فتدلى فيها وتعلل
بُغصْنين نابتين على شفير البئر ، فوقعت رجلاه على شيء في طي البئر ، فنظ
فاذا بحيات أربع قد أطلعن رؤسهن من جُحورهن ، ونظر إلى أسفل
البئر فاذا بتنين^(١) فاغرفاه نحوه ، مُلتظِر له ليقع فيأخذه ، فرفع بصره

(١) التنين : ضرب من الحيات

إلى الغُصْنَيْنِ فإذا في أصلهما جُرْدَانُ أَسْوَدُ وَأَبْيَضُ ، وهما يَقْرِضَانِ الغُصْنَيْنِ
دَائِبَيْنِ لَا يَفْتُرَانِ ، فبينما هو في النظرِ لأمره والاهتمام لنفسه ، إذ أَبْصَرَ
قريباً منه كَوَارَةَ فيها عسلٌ نُحْلٌ ^(١) ؛ فذاق العسل ؛ فَشَعَلَتْهُ حلاوته وألَهَتْهُ
لَذَّتُهُ عن الفِكرَةِ في شيءٍ من أمرِهِ ، وأن يَلْتَمِسَ الخلاصَ لنفسِهِ ؛ ولم
يَذْكُرْ أَنَّ رَجُلِيه على حَيَاتٍ أَرْبَعٍ لَا يَدْرِي متى يَقَعُ عليهنَّ ، ولم يَذْكُرْ
أَنَّ الجُرْدَيْنِ دَائِبَانِ في قطعِ الغُصْنَيْنِ ؛ ومتى انْقَطَعَ قَرَعَ على التَّئِينِ . فلم يَزَلْ لَاهِيًا
غَافِلًا مشغولاً بتلك الحلاوة حتى سَقَطَ في قَمِّ التَّئِينِ فَهَلَكَ . فَشَبَّهَتْ
بالبئرِ الدُّنْيَا المملوءةَ آفَاتٍ وَشُرُورًا ، وَخَفَافَاتٍ وَعَافَاتٍ ، وَشَبَّهَتْ بِالْحَيَاتِ
الأربعِ الأَخْلَاطِ الأربعةَ الَّتِي فِي البَدَنِ : فَإِنَّمَا متى هَاجَتْ أَوْ أَحْدَها كانت
كُحْمَةً ^(٢) الأَفَاعِي والسُّمَّ المُمِيتِ ، وَشَبَّهَتْ بالغُصْنَيْنِ الأَجَلَ الَّذِي لَا بُدَّ
مَنْ انْقِطَاعِهِ ؛ وَشَبَّهَتْ بالجُرْدَيْنِ الأَسْوَدِ والأَبْيَضِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ اللَّذَيْنِ هُمَا
دَائِبَانِ فِي إِفْنَاءِ الأَجَلِ ؛ وَشَبَّهَتْ بالتَّئِينِ المَصِيرَ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ ؛ وَشَبَّهَتْ
بالعسلِ هَذِهِ الحلاوةَ القليلةَةَ الَّتِي يَنَالُ مِنْهَا الإنسانُ فَيَقْطَعُ وَيَسْمَعُ وَيَشْمُ
وَيَلْمِسُ ، وَيَتَشَاغَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَيَلْهُو عَنْ شَأْنِهِ ، وَيُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ قَصْدِهِ ...

عمرو بن العاص يصف حاله في احتضاره

قال عبد الله بن عباس : دخلتُ على عمرو بن العاص وقد احتضر ،
فدخل عليه ابنه عبد الله فقال له : يا عبدَ الله ، خُذْ ذَلِكَ الصُّدُوقَ ، فقال :
لا حاجة لي فيه ، قال : إنه مملوءٌ مالا ، قال : لا حاجة لي به ، فقال عمرو :

(١) الكوارة : خلية النحل

(٢) الحمة : آفة النحلة ونحوها

لَيْتَهُ مَمْلُوءٌ بَعْرًا ۱ قال ابن عباس : فقلت : يا أبا عبد الله ، إنك كنت تقول :
أُشْتَمَى أَنْ أَرَى عَاقِلًا يَمُوتُ حَتَّى أَسْأَلَهُ : كَيْفَ يَجِدُ ، فَكَيْفَ تَجِدُكَ ؟
قال : أَجِدُ السَّمَاءَ كَأَنَّهَا مُطَبَّقَةٌ عَلَى الْأَرْضِ وَأَنَا بَيْنَهُمَا ، وَأَرَانِي كَأَنَّمَا أُنْتَفَسُ
مِنْ خَرْتِ إِبْرَةِ ۱ ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ ، خُذْ مِنِّي حَتَّى تَرْضَى ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ :
اللَّهُمَّ ، أَمَرْتُ فَعَصَيْتَا ، وَنَهَيْتُ فَرَكِبْنَا ، فَلَا بَرِيءٌ فَأَعْتَذِرُ وَلَا قَوِيٌّ فَأَنْتَصِرُ
وَلَكِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - ثَلَاثًا - ثُمَّ فَاظَ ... ۱ وقوله : مِنْ خَرْتِ إِبْرَةِ يَعْنِي :
مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةِ ، وَقَوْلُهُ : فَاظَ : أَيْ مَاتَ ،

ماذا قال عبد الله بن الزبير

حين أتاه خبر مقتل أخيه المصعب ^(١)

لَمَّا أَتَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ خَبْرُ قَتْلِ الْمُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ خَطَبَ النَّاسَ
فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : إِنَّهُ أَتَانَا خَبْرُ قَتْلِ الْمُصْعَبِ فُسِّرْنَا بِهِ وَاكْتَأَبْنَا
لَهُ ، فَأَمَّا السُّرُورُ : فَلَبَّأَ قَدَّرَ لَهُ مِنَ الشَّهَادَةِ وَحِيزَ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ ، وَأَمَّا الْكَأَبُ
فَلَوْعَةُ يَجِدُهَا الْحَمِيمُ عِنْدَ فِرَاقِ حَمِيمِهِ ، وَإِنَّا وَاللَّهِ مَائِمُوتٌ حَبِيبًا كَيْتَةَ آلِ
أَبِي الْعَاصِي ، إِنَّمَا نَمُوتُ وَاللَّهُ قَتْلًا بِالرَّمَاكِ وَقَعْصًا تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ ، فَإِنْ
يَهْلِكُ الْمُصْعَبُ فَإِنَّ فِي آلِ الزُّبَيْرِ مِنْهُ خَلْفًا ... ۱ الْحَبِيجُ : أَنْ يَأْكُلَ الْبَعِيرُ
لَحَاءَ الْعَرْفَجِ فَيَتَكَبَّبُ فِي بَطْنِهِ وَيَضِيقُ مَبْعَرُهُ عَنْهُ فَلَا يَخْرُجُ مِنْ جَوْفِهِ
فَيَهْلِكُ ، يُعْرِضُ بَنِي مَرْوَانَ وَيَنْعَى عَلَيْهِمْ كَثْرَةَ أَكْلِهِمْ وَإِسْرَافَهُمْ فِي مَلَاذِ
الشَّمَاهَاتِ وَأَنَّهُمْ يَمُوتُونَ بِاللَّحْمَةِ . وَاللَّوْعَةُ : الْحَرَقَةُ ، وَالْقَعْصُ : الْقَتْلُ الْمَعْجَلُ
وَقَدْ قَعْصَهُ : إِذَا ضَرَبَهُ أَوْ رَمَاهُ فَمَاتَ مَكَانَهُ ، وَأَقْعَصَهُ كَذَلِكَ وَالْمَقْعَصُ : الْمَقْتُولُ ،

(١) عبد الله بن الزبير بن العوام هو خليفة الحجاز ومصعب أخوه

إذا ضيقت شيئاً ضاق جداً

وما يؤثر في باب الصبر قول الشاعر :

إذا ضيقت شيئاً ضاق جداً وإن هونت ما قد عزّ هانا
فلا تملك لشيء فات يأساً فكم أمر تصعب ثم لانا
سأصبر عن رقيق إن جفاني على كل الأذى إلا الهوانا
فإن المرء يجزع في خلاء وإن حضر الجماعة أن يهانا
« يأساً مردود إلى قوله تملك يقول : لاتملك يأساً . وقوله : فإن المرء ...
البيت يقول : إن المرء يجزع أن يهان كان وحده أو في جماعة »

لا تلهفن على ما فاتك

ونورد هنا هذا المثل البديع وإن كانت شهرته قد كادت تبذله ... رَوَى
الشَّعْبِيُّ : أَنَّ رجلاً من بني إسرائيل صَادَ قُبْرَةً ، فَقَالَتْ : مَا تُرِيدُ أَنْ تُصْنَعَ
بِي ؟ قَالَ : أَذْبَحُكَ فَأَكُلُكَ ! قَالَتْ : وَاللَّهِ مَا أَشْفِي مِنْ قَرَمٍ وَلَا أُغْنِي مِنْ
مِنْ جُوعٍ ، أَعْلَمُكَ ثَلَاثَ خِصَالٍ هِيَ خَيْرُكَ مِنْ أَكْلِي : أَمَا الْوَاحِدَةُ فَأَعْلَمُكَهَا
وَأَنَا فِي يَدِكَ ، وَالثَّانِيَةِ إِذَا صَرْتُ عَلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، وَالثَّالِثَةَ إِذَا صَرْتُ عَلَى الْجَبَلِ ،
فَقَالَ : هَاتِي ! قَالَتْ : لَا تَلْهَفَنَّ عَلَى مَا فَاتَكَ ، تَغْلِي عَنْهَا ، فَلَمَّا صَارَتْ فَوْقَ الشَّجَرَةِ
قَالَ : هَاتِي الثَّانِيَةَ ، قَالَتْ : لَا تُصَدِّقْ بِمَا لَا يَكُونُ أَنَّهُ يَكُونُ ، ثُمَّ طَارَتْ فَصَارَتْ
عَلَى الْجَبَلِ ، فَقَالَتْ : يَا شَقِيئِي ! لَوْ ذَبَحْتَنِي لَأَخْرَجْتَنِي مِنْ حَوْصَلَتِي دُرَّةً فِيهَا زَنْةٌ
عَشْرِينَ مِثْقَالًا ! قَالَ : فَتَضَعْ عَلَى شَفَتَيْهِ وَتَلْهَفْ ؛ ثُمَّ قَالَ : هَاتِي الثَّالِثَةَ ،
قَالَتْ لَهُ : أَنْتَ قَدْ نَسِيتَ الْآثَتَيْنِ ، فَكَيْفَ أَعْلَمُكَ الثَّالِثَةَ ! أَلَمْ أَقُلْ لَكَ
لَا تَلْهَفَنَّ عَلَى مَا فَاتَكَ ؟ فَقَدْ تَلْهَفْتَ عَلَى إِذْ فُتِكَ ، وَقُلْتُ لَكَ لَا تُصَدِّقَنَّ بِمَا

لا يكون أنه يكون ا فصدقت ا أنا وعظمي وريشي لأزبن عشرين مثقالا ،
فكيف يكون في حوصلتي ما يزنها ا

ومن قولهم في الحث على التعزى

وما قيل في الحث على الصبر والتعزى قولُ صالح بن عبد القدوس ^(١)
إن يكن ما أصبتُ به جليلا فذهابُ العزاء فيه أجلُّ
كلُّ آتٍ لا شكَّ آتٍ وذو الجَهِّ لِمُعْنَى والغَمِّ والحزنُ فضلُ ^(٢)
وقال عبدُ الله بن محمد بن أبي عُيَيْنَةَ بن المهلب بن أبي صُفْرة لظاهر
ابن الحسين: ^(٣)

لَمَّا رَأَيْتُكَ قَاعِدًا مُسْتَقْبِلًا أَتَيْتُكَ أَنْتَ لِلْهُمُومِ قَرِينُ
فَارْفُضْ بِهَا وَتَعَرَّ مِنْ أَثْوَابِهَا إِنْ كَانَ عِنْدَكَ لِلْقَضَاءِ يَقِينُ ^(٤)
مَا لَا يَكُونُ فَلَا يَكُونُ بِحِيلَةٍ أَبَدًا وَمَا هُوَ كَائِنٌ سَيَكُونُ
بَسَعَى الذُّكْيُ فَلَا يَنَالُ بِسَعْيِهِ حَظًّا وَيَحْظَى عَاجِزٌ وَمَهْمُومٌ
وَكَانَ ابْنُ شُبْرَمَةَ ^(٥) إِذَا نَزَلَتْ بِهِ نَازِلَةٌ يَقُولُ : سَحَابَةٌ ثُمَّ تَنْقَشُ ^(٦) وَكَانَ

-
- (١) كان متهماً بالزندقة ومن ثم قتلته المهدي الخليفة العباسي إذ ضربه بالسيف
فقداه نصفين وعلقه ببغداد
(٢) فضل يريد : زيادة ، أى لا يليق بالعاقل ، إذ لا جدوى من ورائه
(٣) أكبر أعوان المأمون بن الرشيد على أخيه الأمين
(٤) فارفض بها : من رفض الشيء يرفضه (بالكسر والضم) رفضا : تركه ،
والباء زائدة

- (٥) هو عبد الله بن شبرمة بن الطفيل بن المنذر من بني سعد بن ضبة بن أد ، ولى
القضاء لطارق بن زياد خليفة خالد بن عبد الله القسرى لما أقام بواسط
(٦) تنقش : تنجلي

يقال : أربعٌ من كنوز الجنة : كتمانُ المصيبة ، وكتمانُ الصدقة ، وكتمانُ الفاقة ، وكتمانُ الوجع ...

لكل غد طعام

قال أوس بن حَجَر :

ولستُ بخابئٍ أبداً طعاماً حذارَ غدٍ لكلِّ غدٍ طعامٌ
وقبل هذا البيت :

وليس بطارقِ الجيرانِ مني ذُبابٌ لا يُنمِ ولا ينامُ ^(١)
ولستُ بأطلَسِ الثوبينِ يُضَيِّ حليته إذا هَذَا النِّيامُ ^(٢)

ومن كلام سيدنا علي : يا ابن آدم ، لا تحملْ هَمَّ يَوْمِكَ الذي لم يأتِ على يَوْمِكَ الذي أنت فيه ، فإنه إن يُعلم أنه من أجلك يأت فيه رزقك ، واعلم أنك لا تكسبُ من المالِ شيئاً فوق قُوَّتِكَ إلا كنتَ خازناً لغيرك فيه ... والأصل المقدم في هذا المعنى قول سيدنا رسول الله : من كان آمناً في سِرْبِهِ ^(٣) ، مُعافى في بدنِهِ ، عنده قوتُ يَوْمِهِ ، كان كمن حيزت له الدنيا بحذافيرها ... وقد تقدم

(١) كنى بالذباب عن الشر والأذى

(٢) حليته : لا يريد امرأته ولكن أراد جارته التي تحال له في جلته ، وكنى بأطلس الثوبين عن رمية بالقيح من قولهم : رجل أطلَس الثوب : وسخه ، والطلسة : الغبرة تميل إلى السواد

(٣) المراد بالسرب دهننا : مما للرجل من أهل وولد ومال

اللثام مَوْلَعُونَ

بأيذاء الكرام

من أحسن ما قيل في شقاء الكرام باللثام والاختيار بالأشرار قول
الشاعر الطَّرِمَاح بن حَكِيم - شاعر إسلامي ، قال بعض العلماء :
لو تقدمت أيامه قليلاً لَفُضِّلَ على الفرزدق وجير - انظر ترجمته في
الأغانى - قال :

لقد زادني حُباً لنفسى أنى بغيض إلى كل امرئ غير طائل
وأنى شقي باللثام ولا ترى شقياً بهم إلا كريم الشمايل
إذا ما أنى قطع الطرف بينه وبينى فعل العارف المتجاهل
ملأت عليه الأرض حتى كأنها من الضيق في عينيه كفة حائل
أكلت امرئ أنى أباه مقصراً معاد لاهل المكرمات الأوائل
إذا ذكرت مسعاة والده اضطى ولا يضطنى من شتم أهل الفضائل

« قوله : لقد زادني ... أبيت يقول : لقد زادني أنى بغيض إلى كل
رجل لا فضل فيه ولا خير عنده حُباً لنفسى ، لأن التمايز بينى وبينه هو
الذى أداه إلى بُغْضى ، ولو كان بيننا تشاكل لما كان كذلك ، فازددتُ
بذلك حُباً لنفسى ، لأنى لو كنت مثله لأحبنى ؛ وغير طائل قال الخليل بن
أحمد : يقال للشئء الدون : هذا غير طائل ... وقوله : وأنى شقي باللثام ...
أبيت يقول : وزادني حُباً لنفسى أيضاً شقوتى باللثام حتى تنقصونى وأصغوا
إنانى واغتابونى ؛ ثم قال : ولا ترى أحداً يشقى بهم إلا وهو كريم الأخلاق
وقوله : إذا ما أنى ... أبيت يقول : إذا أبصرنى آرتد طرفه عنى وقطع

نظره ، فَمَلَّ من يعرف الشيء ويتكلف جهله ؛ ويقال : ملأت عليه الأرض إذا ضيقَتْها عليه ، أما إذا قلت : ملأتُ منه الأرض فمعناه : أنك قتت وقعدت بِذِكْرِهِ ؛ والحابل : ناصبُ الحِبَالَةِ وهي التي يُصادُ بها ، وكفَّةُ الحابل : حِبَالَتُهُ التي بها يصيد ، وكل ما استدار فهو كِفَّةٌ : يقول في هذا البيت : قد ضاقت به الأرض من عداوتي فكأنني ملأتُها عليه ، ويجوز أن يكون المراد : أنه يخافني في كل مسلك يسلكه ... وفي معنى هذا البيت قول القائل :
كَانَ قَبَاجَ الْأَرْضِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ

على الخائف المطلوبِ كِفَّةُ حَابِلٍ
وقوله : إذا ذُكِرْتَ ... ألبيت فالمسعاة : السَّعْيُ ، وهو العملُ ، واضطني :
اقتل من الضنى ، يقال : ضنى يَضْنِي : إذا دَقَّ وصغرَ جسمه ، ومن ثم سَمِيَ
المرض ضَنًى ، لما يُورِثُ من الهزال ، يقول : إنه يَضْنِي إذا ذُكِرَ صَنِيعُ
والده ، لِقُبْحِهِ ، ومع هذا يَشْتُمُ أهلَ الفضائل ولا يَضْنِي من ذلك ، بصفه
بِالْقَحَّةِ .

أبيات في الصبر والشجاعة والكرم

قال عبدالعزيز بن زرارَةَ السكبي - وقد كان في الجيش الذي بعثه معاوية بن
أبي سفيان لغزو بلاد الروم سنة ٤٩ هـ فاورغولوا فيها حتى بلغوا القسطنطينية ،
فاقتتل المسلمون والروم قتالا شديدا ، ولم يزل عبدالعزيز هذا يتعرض للشهادة
وهو يقول هذه الأبيات ، ثم حَمَلَ على من يليه تقتل خلقا كثيرا وانفدس
بينهم فشجره الروم برءاحهم فقتلوه ؛ والأبيات :
قَدِ عَشْتُ فِي الدَّهْرِ أَلْوَانًا عَلَى طُرُقِ شَيْءٍ وَقَاسَيْتُ فِيهَا اللَّيْنَ وَالْفَطَمَا

كَلَّا بَلَوْتُ فَلَا النَّهَاءُ تُبْطِرُنِي وَلَا تَخْشَعْتُ مِنْ لَأَوَائِهَا جَزَعًا
لَا يَمْلَأُ الْهَوْلُ صَدْرِي قَبْلَ مَوْقِعِهِ وَلَا أَضِيقُ بِهِ ذَرْعًا إِذَا وَقَعَا
«على طرق يروى: على خاق، والفظع: مصدر فُظِع الأمر فظاعة: اشتد
وَشَعُ وجاوز المقدار، وتبطرنى: تَحْمِلُنِي على البطار، وهو: الطغيان فى
النعمة، واللأواء: الشدة والمشقة وضيق العيش، وقوله: لا يملأ الهول...
أليث: من أحسن ما قيل فى الشجاعة، وقال الخطيب من أبيات يمدح بها بعض
الأجواد:

فَتَى غَيْرُ مِفْرَاحٍ إِذَا الْخَيْرُ مَسَّهُ وَمِنْ نَائِبَاتِ الدَّهْرِ غَيْرُ جَزَعٍ
وَذَاكَ فَتَى إِنْ تَأْتَتْ فِي صَنِيعَةٍ إِلَى مَالِهِ لَا تَأْتِيهِ بِشَفِيعٍ
«الصنيع: اسم لكل ما تُسديه من إحسان يد وصلة معروف،
وأشدوا: (١)»

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ وَضَاقَ بِمَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ
وَأَوْطَنْتِ الْمَسْكَارُهُ وَاظْمَأَتِ وَأَرَسَتْ فِي مَكَانِهَا الْخُطُوبُ
وَلَمْ تَرَ لَانْكَشَافِ الضَّرِّ وَجْهًا وَلَا أَغْنَى بِحِيلَتِهِ الْآرِبُ
أَنَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ غَوْثٌ يَمُنُّ بِهِ اللَّطِيفُ الْمُسْتَجِيبُ
وَكُلَّ الْحَادِثَاتِ وَإِنْ تَنَاهَتْ فَفَقُرُونٌ بِهَا الْفَرَجُ الْقَرِيبُ

أبيات حكيمة

وإليك أبياتاً حكيمةً لشاعر جاهلي قديم يسمى: الأضبط بن قريع بن
عوف بن كعب بن سعد، ردهط الزبرقان بن بدر، وهو الذى أساء قومه

(١) رواها أبو بكر بن دريد عن أبي حاتم راوية الأصمى

مُجَاوَرَتِهِ ، فانتقل عنهم إلى آخرين ففعلوا مثل ذلك ، فقال : « إِنَّمَا أَوْجُهُ أُنْقِ
سَعْدًا » ^(١) وقال : « بِكُلِّ وَادٍ بَنُو سَعْدٍ ، وَإِلَيْكَ هَذِهِ الْآيَاتِ :

لِكُلِّ ضَيْقٍ مِنَ الْهَمِّ سَعَةٌ وَالْمُسَى وَالصَّبِيحُ لَافْلَاحٌ مَعَهُ
مَا بَالُ مَنْ غَيْثُهُ مُصِيبُكَ لَوْ يَمْلِكُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ وَزَعَهُ
أَذُودٌ عَنْ حَوْضِهِ وَيَدْفَعُنِي يَأْقُومُ مَنْ عَازِرِي مِنَ الْخُدَعَةِ
حَتَّى إِذَا مَا نَجَلْتَ عَمَائَتَهُ أَقْبَلَ يَلْحَاحِي وَعَيْهُ فَجَعَهُ
قَدْ يَرْفَعُ الثَّوْبَ غَيْرُ لَابِسِهِ وَيَلْبَسُ الثَّوْبَ غَيْرُ مَنْ رَفَعَهُ
فَأَقْبَلَ مِنَ الدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ مَنْ قَرَّ عَيْنًا بِعَيْشِهِ نَفَعَهُ
وَصَلَ جِبَالُ الْبَعِيدِ إِنْ وَصَلَ الْحَدَّ بَلْ وَأَقْصَى الْقَرِيبِ إِنْ قَطَعَهُ
وَلَا تُهَيِّنِ الْفَقِيرَ عِلَّاكَ أَنْ تَرْكَمَ يَوْمًا وَالدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ

« الْمُسَى : اسم من الإسماء ، والصَّبِيحُ : اسم من الإصباح ، والفلاح هنا :
البقاء والعيش قال عبيد بن الأبرص :

أَفْلَحَ بِمَا شِئْتُ فَقَدْ يُدْ رَكَ بِالضَّعْفِ وَقَدْ يُخَدِّعُ الْآرِبُ

يقول : لا بقاء مع كراهة الليل والنهار . والفلاح أيضا : الفوز ومنه قولهم في
الأذان : حَيٌّ عَلَى الْفَلَاحِ ، والغنى : الخيبة والحرمان قال المرقش الأكبر :

فَمَنْ يَلْقُ خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسَ أَمْرُهُ وَمَنْ يَغْوِلَا يَعْدَمُ عَلَى الْغَى لَائِمًا

وجملة : لَوْ يَمْلِكُ ؛ حَالِيَّةٌ ، ووزعه : منعه وكفه ، يقول : ما بال من تتألم
لخيبته وسوء حاله فإذا وجد شيئاً من الخير كفه عنك ، ويروى هذا البيت
على وجه آخر ، وقوله أذود عن حوضه : هو مثل للحماية ودفع المكروه عنه ،
والخدعة : قوم من بني سعد بن زيد مناة بن تميم

(١) يريد : أفر من الأذى إلى مثله

والعناية : الشدة التي تلتبس منها الأمور ، يقال : عَمِيَ عليه الأمر : إذا التبس ، وأقبل : شرع ، ويلجى : يلوم ، وغيه : ضلاله ، وجفمه : أصابه بمكروه وصل جبال البعيد ... ألبيت يعني : تقرب إلى البعيد اللسب إذا طلب قربك واهجر القريب اللسب إذا هجرك ، أخذه الأعشى فقال :

وَلَا تُدْنِ وَضَلًّا مِنْ أَخٍ مُتَبَاعِدٍ وَلَا تُتَنَّا عَنْ ذِي بُغْضَةٍ إِنْ تَقَرَّبَا
فَإِنَّ الْقَرِيبَ مَنْ يُقَرِّبُ نَفْسَهُ لَعَمْرُ أَيْكَ الْخَيْرِ لَا مَنْ تَلَسَّبَا
وقوله ولا تهين الفقير الخ فالإهانة : الإيقاع في الهون (بضم الهاء) والهوان وهما بمعنى الذل والحقارة ، وعلّ : لغة في لعل وهي هنا بمعنى عسى ، والركوع : أراد به الانحطاط في المرتبة والسقوط في المنزلة ، ومثل هذا البيت في المعنى قول القائل :

عَسَى سَائِلٌ ذُو حَاجَةٍ إِنْ مَنَعْتَهُ فِي الْيَوْمِ سُؤلاً أَنْ يَكُونَ لَهُ غَدٌ
وهذا البيت يستشهد به النحاة على أن نون التوكيد الخفيفة تحذف لالتقاء الساكنين والأصل تُهَيِّنَنَّ بالنون الخفيفة ، وىروى : ولا تعاد ، وىروى لا تحقرن الفقير فلا شاهد فيه ؛ وفي معنى هذا البيت أيضا يقول عباد بن عباد بن حبيب بن المهلب :

إِذَا خَلَّةٌ نَابَتْ صَدِيقَكَ فَاعْتَنِنِمْ مَرَمَتْهَا فَالْدَهْرُ بِالنَّاسِ قُلُبُ
وَبَادِرْ بِمَعْرُوفٍ إِذَا كُنْتَ قَادِرًا زَوَالَ اقْتِدَارِ أَوْ غَنَى عَنْكَ يُغِيبُ
« الخلة : الحاجة والفقرو في المثل « الخلة تدعو إلى السلة ، والسلة : السرقة وممرتها : إصلاح ما فسد منها ، وقاب : كثير القلب من حال إلى حال ، وزوال : مفعول لبادر ، وعنك : متعلق بزوال ، ويعقب : صفة له ، يقول : يأتي الزوال عقب الاقتدار والغنى ، ويقول تميم بن مقبل :

فَأَخْلَفَ وَأَتْلَفَ إِنَّمَا الْمَالُ عَارَةٌ فَكَلَّهُ مَعَ الدَّهْرِ الَّذِي هُوَ آكَلُهُ
فَأَهْوَنُ مَفْقُودٍ وَأَيْسَرُ هَالِكٍ عَلَى الْحَيِّ مَنْ لَمْ يَبْلُغِ الْحَيَّ نَائِلُهُ
«وأخلف: يريد استغنى خلف ما أتلفت، وقد أخلف فلان لنفسه: إذا ذهب
له شيء فجعل مكانه آخر، وعارة: معار، والعارة والعارية: ما يتداول بين
الناس، ويقول جرير:

وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِي أَخِي أَنْ أَرَى لَهُ عَلَى مَنْ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَرَى لِيَا
«يقول جرير: إني لأستحي أخى أن يكون له على فضل ولا يكون لى عليه فضل
ومنى إليه مكافأة، فأستحي أن أرى له على حقاً لما فعل لى ولا أفعل إليه ما يكون
لى به عليه حق، قال المبرد: وهذا من مذاهب الكرام ومما تأخذ به أنفسها»

أبيات من لم يروها فلا مروءة له

وهذه أبيات كانوا يقولون: إنه من لم يروها فلا مروءة له. وهى لشاعر
يسمى أَيْمَنَ بْنَ حُرَيْمِ بْنِ قَاتِكِ الْأَسَدِيِّ، شاعر شريف فارس، وكان
يتشيع، وأبوه خريم له حجة، وهو ممن اعتزل الجبل وصفين وما بعدهما من
الاحداث، وقيل: إن هذه الأبيات للأقيشر، وهو شاعر إسلامى، قال:

وَصَهْبَاءُ جُرْجَانِيَّةٍ لَمْ يَطْفُ بِهَا	حَنِيفٌ وَلَمْ تَنْفَرْ بِهَا سَاعَةً قَدَرُ
وَلَمْ يَحْضِرِ الْقَسَّ الْمُهَيِّمُ نَارَهَا	طُرُوقًا وَلَمْ يَشْهَدْ عَلَى طَبِخِهَا حَبْرُ
أَتَانِي بِهَا يَحْيَى وَقَدْ نَمَتُ نَوْمَةً	وَقَدْ غَابَتِ الشَّعْرَى وَقَدْ طَلَعَ النَّسْرُ
فَقُلْتُ: آغْنِنِيهَا أَوْ لَغْنِنِي فَاسْقِهَا	فَمَا أَنَا بَعْدَ الشَّيْبِ وَبَيْكٍ وَالْخُرُ
تَعَفَّفْتُ عَنْهَا فِي الْعُصُورِ الَّتِي خَلَّتْ	فَكَيْفَ التَّصَابِي بَعْدَ مَا كَلَأَ الْعَمُرُ
إِذَا الْمَرْءُ وَفَى الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَكُنْ	لَهُ دُونَ مَا يَأْتِي حَيَاءٌ وَلَا سِتْرُ

فَدَعَهُ وَلَا تَنْفَسَ عَلَيْهِ الَّذِي ارْتَأَى وَإِنْ جَرَّ أَسْبَابَ الْحَيَاةِ لَهُ الدَّهْرُ
 «الصهباء: الخمر، سميت بذلك لونها - والذهب من الألوان: الشقرة - قيل:
 الصهباء هي الخمر التي عُصِرَتْ مِنْ عِنَبٍ أَيْضَ، وقيل: هي التي تكون من
 العنب ومن غيره إذا ضُرِبَتْ إِلَى الْبَيَاضِ، وقال أبو حنيفة الدِّيَنَوْرِيُّ: الصهباء
 اسم للخمر كالْعَلَمِ. وجرجانية: نسبة إلى جرجان، وكانت مشهورة بنوع من الخمر
 والحنيف: المسلم، ونفرت القدر: غلت، والمهيم: الذي يقرأ بصوت خفي غير
 بين لا يفهم، والطروق: الحضور ليلاً، والخبر واحد الأحبار: رئيس من
 رؤساء الدين المسيحي، ورئيس الكهنة عند اليهود، وقوله: وقد غابت الشعرى...
 قال البكري شارح الأملالي: هذه الرواية الصحيحة، أما رواية: وقد غابت الشعرى
 وقد جَنَحَ النسر، فهي خطأ، قال: لأن الشعرى العبور إذا كانت في أفق
 المغرب كان النسر الواقع طالماً من أفق المشرق على نحو سبع درجات، وكان النسر
 الطائر لم يَطْلُعْ، وإذا كانت الشعرى الغميصاء في أفق المغرب كان النسر الواقع
 حينئذ غير مُكَبَّد - كَبَدَ النجم السماء: توسطها - فكيف أن يكون جانحاً؟
 وكان النسر الطائر حينئذ في أفق المشرق طالماً على نحو سبع درجات أيضاً
 قال الشاعر:

وَإِنِّي وَعَبَدَ اللَّهَ بَعْدَ اجْتِمَاعِنَا لِكَالنَسْرِ وَالشَّعْرَى بِشَرْقٍ وَمَغْرِبٍ
 يُلُوحُ - إِذَا غَابَتْ مِنَ الشَّرْقِ - شَخْصُهُ وَإِنْ تَلَوَّحَ الشَّعْرَى لَهُ يَتَغَيَّبُ
 وقال أبو نواس:

وَحَمَارَةٌ تَبْهَتُهُمَا بَعْدَ هَجْعَةٍ وَقَدْ لَاحَتْ الْجُوزَاءُ وَالنَّفَسَ لِلنَّسْرِ
 فَقَالَتْ: بَيْنَ الطَّرَاقِ؟ قُلْتُ: عَصَابَةٌ خِفَافُ الْأَدَاوَى يُبْتَغَى لَهَا الْخَمْرُ
 وَالشَّعْرَى سَابِقَةٌ فِي الطَّلُوعِ لِلْجُوزَاءِ وَلِذَلِكَ سَمِيَتْ كَلَبَ الْجَبَّارِ، وَالْجَبَّارُ

اسم للجوزاء... والاعتباق : شرب العشي ، وويك : ويلك ، وكلا : انتهى
إلى آخره وأقصاه ، ويقال : بلغ الله بك أكلأ العمر : أى آخره ، ولا تنفس :
لا تحسد ، وارتأى : افعل من رأى . وفى هذا المعنى يقول الأعور الشنئى :
إذا ما المرء - قصر ثم مرّت عليه الأربعون - من الرجال
ولم يلحق بصالحهم فدعه فليس بلاحق أخرى الليالى

حكم ومواعظ

قال عبد الله بن عباس : كتب إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه
بموعظة مأثرت بموعظة سُرورى بها ! أما بعد ، فإن المرء يسره درك
مالم يكن ليُفوتَه ، ويسوءه فوت مالم يكن ليُدركَه ، فما نالك من دُنياك
فلا تُكثِرْ به فرحاً ، وما فاتك منها فلا تُتبعه أسفاً ، فليكن سرورك
بما قدّمت ، وأسفك على ما خلقت ، وهمك فيما بعد الموت ... « يقول
على : إن كلَّ شيء يُصيب الإنسان فى الدنيا من نفع وصّر فيقضاء من الله
تعالى وقدره ، غير أن الناس لا ينظرون حقّ النظر فى ذلك ، فَيُسَرُّ الواحد
منهم بما يُصيبه من النفع ، ويُساء بقوت ما يفوته منه ، غير عالم بأن ذلك
النفع الذى أصابه كان لا بُدَّ أن يُصيبه ، وأن ما فاتَه منه كان لا بُدَّ أن
يُفوتَه ، ولو عرّف ذلك حق المعرفة لم يفرح ولم يحزن ، وإنما الأخلق
بالعافل أن يأسف على ما فاتَه ويُسرّ بما قدّمه ، من الخير والعمل الصالح
الذى يُجدى عليه فى العالم الباقي - الآخرة »

ومن كلمة للحسن البصرى : تلقى أحدهم أبيض بضاً يملأ فى الباطل
ملئاً ، ينفض مذرّوئيه ، ويضرب أصدريّه ، يقول : ها أنا ذا فاعرفونى !
قد عرّفناك ففتك الله ومقتك الصالحون ... « قوله : أبيض بضاً

فالبُضُّ : الرقيقُ اللون الصافي الذي يُؤثر فيه كلُّ شيء ، ويروون : أن معاوية بن سفيان قدِمَ على عُمر بن الخطاب رضى الله عنه من الشام وهو أبضُّ الناس - أرْقهم لونا وأحسنهم بَشرة - فَضْرَبَ عمر يده على عَضِدِهِ ، وقال : هذا ، والله ، لَتَشَاغُلَكَ بالحمامات وذوو الحاجات تُقَطِّعُ أنفُسَهُم حشراتٍ على بابك... وقوله : يملخ في الباطل ماخا : أى يَكْثُرُ تردُّده في الباطل ، أو يَمُرُّ فيه مرَّاً سهلاً ، وقوله : يَنْفُضُ مَذْرُوبِهِ ويضرب أصدريه فينفض ويضرب : يحرك ، ومذرواه : جانباه ، وقيل : فرعا الآليتين ، وقيل : طرفا كل شيء ، وأراد الحسن : فرعى المنسكين . ولا واحد لهما ، وهو الصحيح ، والأصدران : عِرْقَانِ يضربان تحت الصُدَغَيْنِ ، لا يفرد لهما واحد كذلك ، ويريد الحسن : منكبيه أيضا ، والعرب تقول : جاء فلان يضرب أصدريه وينفض مَذْرُوبِهِ يريدون : جاء مختالا ، وقد يريدون : جاء باغيا يتهدد كما قال عنتره :

أَحْوَلِي تَنْفُضُ اسْتُكَ وَمَذْرَوَيْهَا لَتَقْتَلَنِي فَهَا أَنَا ذَا عُمَارَا

« عمارا يريد : بأعمارة ،

وقال بعضهم : شَهِدْتُ الحسنَ البَصْرِيَّ فِي جَنَازَةِ أَبُو رَجَاءِ الطَّارِدِيِّ وهو على بَغْلَةٍ والفرزدق يُسَيرُهُ على نَجِيبٍ ، وَكُنْتُ على حِجَارٍ لِي ، فَذَنُوتُ مِنْهَا ، فَسَمِعْتُ الفرزدق يقول للحسن : يَا أَبَا سَعِيدٍ ، أَتَذَرِي مَا يَقُولُ أَهْلُ الْجَنَازَةِ ؟ قال : وما يقولون ؟ قال : يقولون : هذا خيرُ شيخٍ بالبصرة ، وهذا شرُّ شيخٍ بالبصرة ، قال : إِذَنْ يَكْذِبُوا يَا أَبَا فِرَاسٍ أَرُبَّ شَيْخٍ بِالْبَصْرَةِ ، مُشْرِكٌ بِاللَّهِ ، فَذَلِكَ شَرٌّ مِنْ أَبِي فِرَاسٍ ، وَرُبَّ شَيْخٍ بِالْبَصْرَةِ ذِي طَمَرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ

له لو أقسم على الله لأبره^(١) ، فذلك خير من الحسن يا أبا فراس ...
ولهذا الحديث تمة ولكننا نتجراً بهذا الشطر منه لتكون المعاني متصلة
بعضها ببعض .

ونختتم هذا المعنى بأبيات مشهورة ولكنها لا تزال جديدة لأنها بعيدة
الغور موفية على الغاية في الصدق والسداد ، وهي أبيات اختارها أبو تمام
في حماسته ونسبها لعباس بن مرداس الصحابي الشاعر ، وقال أبو رباح : إنها
لمعاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب معود الحكماء^(٢) وهذه هي الأبيات كما
رواها أبو علي القالي في الأمالى :

تَرَى الرَّجْلَ النَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ وَفِي أَثْوَابِهِ أَسَدٌ هَاصِرٌ^(٣)
وَيُعْجِبُكَ الطَّرِيرُ فَتَبْتَلِيهِ فَيُخْلِفُ ظَنَّاكَ الرَّجُلَ الطَّرِيرُ^(٤)
بَغَاثُ الطَّيْرِ أَطْوَلُهَا رِقَابًا وَلَمْ أَطُلْ السُّبْرَةَ وَلَا الصُّقُورُ^(٥)

(١) الطمر : الثوب الخلق البالى . وهذه كلمة الحسن من الحديث : رب ذى طمرين
لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره ، يقول : رب ذى خلقين أطاع الله حتى لو سأل
الله تعالى أجابه

(٢) سمي معود الحكماء بقوله :

سَأَعْقِلُهَا وَتَحْمِلُهَا غَنِيٌّ وَأُورِثُ تَجَدُّهَا أَبَدًا كِلَابًا
أَعُودُ مِثْلَهَا الْحُكَمَاءُ بَعْدِي إِذَا مَا عُضِلُ الْحَدَثَانِ نَابَا

(٣) هصور يروى : مزير ، والحصور : الأسد الشديد الذى يقتل ويكسر
والمزير : الشديد القلب القوى النافذ ومن معانيه : العاقل الحازم

(٤) الطرير : ذو الرواء والمنظر والجمال والهيئة الحسنة

(٥) البغات بفتح الباء رضمها : كل طائر ليس من جوارح الطير ، أى لا يصيد ، ويضرب
بها المثل فى اللزوم والشر ، وفى الضعف ، قالوا : إن البغات بأرضنا يستنسر ، يضرب
مثلا للثيم يرتفع أمره

خَشَاشُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِرَاحًا وَأُمُّ الصَّقْرِ مَقْلَاتٌ نَزُورٌ ^(١)
 ضِعَافُ الْأَسَدِ أَكْثَرُهَا زَمِيرًا وَأَصْرُمُهَا اللَّوَاتِي لَا تَزِيرُ
 وَقَدْ عَظَّمَ الْبَعِيرُ بَغِيرَ لُبٍ فَلَمْ يَسْتَغْنِ بِالْعِظَمِ الْبَعِيرُ
 يُنَوِّخُ ثُمَّ يُضْرَبُ بِالْهَرَاوِي فَلَا عُرْفٌ لَهُ وَلَا نَكِيرٌ ^(٢)
 يَقْوَدُهُ الصَّبِيُّ بِكُلِّ أَرْضٍ وَيَنْحَرُهُ عَلَى الثَّرْبِ الصَّغِيرِ
 فَمَا عَظَّمَ الرِّجَالِ لَهُمْ بَزِينَ وَلَكِنْ زَيْنُهُمْ كَرَمٌ وَخَيْرٌ ^(٣)

في الموت

قال المتنبي في الموت :

وَمَا الْمَوْتُ إِلَّا سَارِقٌ دَقَّ شَخْصُهُ يَصُولُ بِلا كَيْفٍ وَيَسْعَى بِلا رَجَلٍ
 وَمِنْ غَرِيبٍ مَا قِيلَ فِي مَذْحِ الْمَوْتِ قَوْلُ ابْنِ الرَّومِيِّ :

قَدْ قُلْتُ إِذْ مَدَحُوا الْحَيَاةَ فَأَكْثَرُوا لِلْمَوْتِ أَلْفَ فَضِيلَةٍ لَا يَعْرِفُ
 فِيهَا أَمَانٌ لِقَائِهِ بِلِقَائِهِ وَفِرَاقُ كُلِّ مُعَاشِرٍ لَا يَنْصِبُ

أقول : لعل ابن الرومي يريد أن يقول : إن للموت مزايا لا تنحصى ،
 وقل من يعرفها ، ولو لم يكن فيها إلا أننا بلقاء الموت نظنر بلقاء
 المَرْتِي - وناهيك بفضائله - وبفراق غيره من المعاشرين القليل الإنصاف لكان
 في ذلك الفضل كله للموت ، وقال المتنبي :

(١) خَشَاشُ الطَّيْرِ : شرارها ومالا يصيد منها ، كالبغاث ، والمقليات : التي تلد
 واحداً ثم لاتلد بعد ذلك وقيل : التي لا يعيش لها ولد ، والقلت : الهلاك تقول :
 أفلتت المرأة : إذا هلك ولدها ، والنزور : القليلة الأولاد

(٢) ينوخ : يبرك ، نوخ الجمل وأناخه : فاستاخ : أبركه فبرك

(٣) الخير : الكريم ، وهو أيضاً : الشرف

وقد فارقَ الناسَ الأحبَّةَ قبلنا وأعيا دواءُ الموتِ كلَّ طبيب
سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها مُنعنا بها من جنةٍ ودُهب
تمسكها الآتى تملك سائب وفارقها الماضى فراق سليب
ولا فضلَ فيها للشجاعةِ والتدبى وصبرِ الفتى لولا إلقاء شعوب

• يقول فى البيت الرابع : لولا الموت لما كان لهذه المعانى فضل ، وذلك
أن الناس لو أئِنوا الموت لما كان للشجاع فضل على الجبان ، لأنه قد أيقن
بالخلود ، وكذلك لو أئِنوا الموت لاستوى الكريم والبخيل والصابر والجازع ،
وكذلك كلُّ الأشياء ، وقال أيضاً :

إلفَ هذا الهواءِ أوقعَ فى الآنف سِ أنَ الحمامَ مرَّ المذاقِ
والآتى قبلَ فرقةِ الروحِ عجزُ والآسى لا يكونُ بعدَ الفراقِ
قال أبو العلاء المعرى : إن هذين البيتين يفضلان كتب الفلاسفة لأنهما
متناهيان فى الصدق وحسن النظام ، ولولم يقل شاعرهما سواهما لكان له
شرفٌ منهما وجمال ...

يقول المتنبى : إن خوف الموت من أكاذيب النفس ، ومن إلفنا هذا
الهواء ، وإلا فقد علم أن الحزن على فراق الروح قبل فراقه عجز ، وعلم
أيضاً أن الحزن على المفارقة لا يكون بعد الموت ، فلماذا يحزن الإنسان ؟

طائفة من عبقرياتهم في التعازي

ولنطف الآن على الباب الثالث « عبقرياتهم في الصبر والدنيا والموت والمرض » فلنسير فيه ولنورد عليك سائر عبقرياتهم في التعازي ثم نختم الباب بعبقرياتهم في المرض وما يتصل به .

التسليية بعد وقوع المحذور

قالوا: كل شيء يبدو صغيراً ثم يَعْظُم ، إلا المصيبة ، فإنها تبدو عظيمة ثم تَصْغُرُ واشتكى ابنُ لُعمَرَ بن عبد العزيز رضى الله عنه فجَزِعَ عليه ، ثم مات ، فَرَوَى مُتَسَلِّياً ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : إنما كان جَزَعِي رِقَّةً له ورحمةً ، فلما وقع المصائبُ زال المحذور ... ومَرِضَ ابنُ لبعض السلف فجَزِعَ ، ثم مات فلم يَجَزَعْ ، فقيل له ! فقال : أما بعد وقوع الأمر فلم يبق إلا الرضا والتسليم ... وقال البحترى :

صُعُوبَةُ الرِّزْقِ تُتْلَقَى فِي تَوَقُّعِهِ مُسْتَقْبَلًا وَانْقِضَاءُ الرِّزْقِ أَنْ يَقْعَا
وَقَبْلَهُ قَالَ أَوْسُ بْنُ حَجَرٍ :

أَتَيْتُهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا إِنَّ الَّذِي تَحْذَرُ قَدْ وَقَعَا

ومما يتصل بهذا المعنى قول أبي نواس يرفي المأمون :

وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ الْمَوْتِ وَحَدَه فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحَازِرُ

وقال بعضهم : نَزَلَتْ بِامْرَأَةٍ ذَاتِ أَوْلَادٍ وَثَرَةٍ ، فَلَمَّا أَرَدَتْ الْإِرْتِحَالَ قَالَتْ : لَا تُخْلِنِي إِذَا وَرَدَتْ هَذَا الصُّقْعُ ، ثُمَّ أَتَيْتُهَا بَعْدَ أَعْوَامٍ ، فَوَجَدْتُهَا قَدْ أَتَفَرَّتْ وَتَشَكَّلَتْ أَوْلَادُهَا ، وَهِيَ ضَاحِكَةٌ مُسْرُورَةٌ ، فَسَأَلْتُهَا ؟ فَقَالَتْ : لِمَ كُنْتُ ذَاتَ ثَرَةٍ وَجَاهٍ ، وَكَانَتْ لِي أَحْزَانٌ ، فَعَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ لِقَلَّةِ الشُّكْرِ ،

وأنا اليوم بهذه الحالة أضحك شكرا لله تعالى على ما أعطاني من الصبر ...
وقيل : إذا استأثر الله بشيء فإله عنه « إله عنه : أتركه وتسل »

من دواعي التسلي قرب اللوح بالميث

كتب بعضهم : فيم الجزع ونحن على مدرجة المتوفى « المدرجة : الطريق
والمسلك ، ... دخل أحدهم على آخر وقد توفى له أخ فاشتد جزعه عليه ،
فقال : اذكر مصيبتك في نفسك تُنسك فقد غيرك ، واذكر قول الله تعالى :
إنك ميت وإنهم ميتون ، وخذ بقول الشاعر :

وهون ما ألقى من الموت أن ما أصابك منه يا بني مصيبي
وقال إبراهيم بن المهدي :

وإني وإن قدمت قبي لعالم باني وإن أنطأت عنك قريب
وقال آخر :

وهون وجدى أننى سوف أغتدى على إثره يوماً وإن نفس العمر

من تعازي الملوك

وتسليم بأن الناس جميعا مصابون

لما حضرت الإسكندر المقدوني الوفاة كتب إلى أمه : أن اصنعى
طعاما يحضره الناس ، ثم تقدمى إليهم : أن لا يأكل منه محزون ، ففعلت ،
فلم يبسط أحد إليه يده ، فقالت : ما لكم لا تأكلون ؟ فقالوا : إنك تقدمت
إلينا أن لا يأكل منه محزون ، وليس منا إلا من قد أصيب بحميم أو قريب
فقالت : مات - والله - أبني أو ما أوصى إلى بهذا إلا ليغزني به ...

التسلي بأنه معزى

للمعزى به

قال أبو فراس الحمداني في أبيات يعزى بها سيف الدولة بأخته :
 هيأت مافي الناس من خالد لا بد من فقد ومن فائد
 كن المعزى لا المعزى به إذ كان لا بد من الواحد
 وقال المتنبي من أبيات يمدح سيف الدولة ويرثي ابن عمه أبا وائل :
 مهما يعزى الفقى الأمير به فلا يندامه ولا الجود^(١)
 ومن منانا بقاءه أبدا حتى يعزى بكل مولود^(٢)

التسلي عن مضى بمن بقي

قيل لرجل مات امرأته نساء^(٣) : عظم الله أجرك فيما أباد وبارك
 فيما أفاد... وقال المتنبي في مرثية يعزى سيف الدولة بأخته الصغرى
 ويسليه بالكبرى :

قاسمك المنون شخصين جوراً جعل القسم نفسه فيك عدلاً^(٤)

(١) يقول : إذا عزاه معز بهذا الميت فلا عزاء بجوده ولا شجاعته ، أى لا عدهما
 (٢) يقول : أمنتنا الى تمنائها هي بقاءه أبداً حتى يعزى بكل من ولد ، يتقدمونه
 ويبقى هو فيعزى بهم

(٣) النفاس : ولادة المرأة إذا وضعت ، والوالدة نساء

(٤) يقول : قاسمك الموت شخصين فذهب بإحدهما وترك الأخرى ، فكانت
 هذه المقاسمة جوراً لأنه كان من حقه أن يتركهما وليكن هذا الجور عدل فيك
 حيث تركك حياً وكانت المقاسمة في الأختين ، يعنى : إذا كنت أنت الباقي فالجور
 عدل ؛ هذا إذا نصبت القسم وجعلت الفعل للجور ، أما من رفع القسم فيكون
 المعنى : أن القسم جعل نفسه عدلاً في الجور لأنه وإن أخذ الصغرى فقد أبى الكبرى

فَإِذَا قَسَتْ مَا أَخَذْتَ بِمَا أَغَى دَرْنٌ سَرَى عَنْ الْفَوَادِ وَسَلَى^(١)
وَلَمَّا مَاتَ الْأَخْتُ الْكَبْرَى بَعْدَ ذَلِكَ رَثَاهَا فَقَالَ :

قَدْ كَانَ قَاسَمَكَ الشَّخْصَيْنِ دَهْرُهُمَا وَعَاشَ دُرُّهُمَا الْمَقْدِيَّ بِالذَّهَبِ^(٢)
وَعَادَ فِي طَلَبِ الْمَتْرُوكِ تَارِكُهُ إِنَّا لَنَغْفُلُ وَالْأَيَّامُ فِي الطَّلَبِ
مَا كَانَ أَقْصَرَ وَقَتَا كَانَ بَيْنَهُمَا كَأَنَّهُ الْوَقْتُ بَيْنَ الْوَرْدِ وَالْقَرَبِ^(٣)

وفى هذه المراثية الثانية هذان البيتان البديعان :

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبْرٌ فَرِغْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْنُ لِي صِدْقُهُ أَمَلَا شَرِقتُ بِالدمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ بِي

من تسلى بماله من الثواب

وبعض تعازيهم

دخل عمر بن عبد العزيز على ابنه عبد الملك - وكان قد أصابه الطاعون -
فقال : دَعْنِي أَمْسَ قَرَحْتُكَ ، - وكان يقال : إِذَا كَانَ الْقَرْحُ لَيْنًا يُرْجَى ،
وإن كَانَ خَشِنًا لَا يُرْجَى - فامتنع عبد الملك من أن يَسْمَهَا ، فعلم عمر لم
مَتَّعَهُ ! فقال : دَعْنِي أَمْسَهَا ، فوالله لَأَنْ أَقْدَمَكَ فَتَكُونَ فِي مِيزَانِي أَحَبُّ إِلَيَّ
مِنْ أَنْ أَكُونَ فِي مِيزَانِكَ ! فقال : والله ، لَأَنْ يَكُونَ مَا تُرِيدُ أَحَبُّ إِلَيَّ

(١) أغدرون : مثل غادرن أى تركن وأبقين ، وسرى : أذهب ، وسلى : عزى وهذا
البيت يؤيد رواية رفع القسم

(٢) يريد بالشخصين : أخته الكبرى والصغرى وجعل الكبرى كالدر لنفاسته
وجعل الصغرى ذهباً ، وجعل الكبرى كدر فدى بالذهب

(٣) من عاده القوم أنهم يرعون الإبل وهم في ذلك يسرون نحو الماء فإذا بقي بينهم وبين
الماء عشية فتلك الليلة ليلة القرب يقول : ما كان أقصر ما كان بينها من الزمان فكأنه
ما بين القرب إلى الورد ، وهو ليلة

من أن يكون مأريد ! فَلََمَسَهَا ، فقال : يا عبدَ الملك ، الحقُّ من ربِّك فلا
تَكُونَنَّ من المُسْتَرِينَ ... فقال : سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ من الصَّابِرِينَ ...
ولما مات عبد الملك عَزَّى أباه الحسنُ البَصْرِي بهذا البيت :
وَعَوَّضْتَ أَجْرًا مِنْ فَقِيرٍ فَلَا يَكُنْ فَمَيِّدُكَ لَا يَأْتِي رَأْجُكَ يَذْهَبُ
وروى : أن رجلا جزع على ابن له ، فشكى ذلك إلى الحسن ، فقال له :
هل كان ابنك يغيب عنك ؟ فقال : نعم ، كان مَغِيْبَةً عَنِّي أَكْثَرَ مِنْ حُضُورِهِ
قال : فاتركه غائبا ، فإنه لم يَغِبْ عَنْكَ غَيْبَةً الْأَجْرُ لَكَ فِيهَا أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ
الغَيْبَةِ ... وقال أعرابي : وقد مات له ثلاثة بنين في يوم واحد ، فدقهم
وعاد إلى مجلسه ، فجعل يتحدث كأن لم يَفْقِدْ واحدا ، فليمَّ على ذلك ، فقال :
لَيْسُوا فِي الْمَوْتِ بِبِدْعٍ ، وَلَا أَنَا فِي الْمَصِيبَةِ بِأَوْحَدٍ ، وَلَا جَدْوَى لِلجَزَعِ ،
فَعَلَّامٌ تَلَوُّنُونِي !

من مات له كثير من أهله

فَصِيرَ

نظر رجل بالبصرة إلى امرأة فقال : ما رأيتُ مثلَ هذه النَّصَارَةِ ! وما ذاك
إلا من قِلةِ الحزن ! فقالت : ما حزنُ كحزني ! ذبح زوجي شاةً ، ولى صَبيَّانِ
يلعبان ، فقال أحدهما للآخر : تعالْ أريك كيف ذَبَحَ أَبِي الشاةَ ، فذبحه ،
ثم خاف فهُرَّبَ إلى الجبل ، فَرِهَقَهُ ذَنْبٌ ، فافْتَرَسَهُ ، وخرج زوجي في
طَائِفِهِ ، فاشتد عايبه الحرُّ فمات عَطْشًا ! فقيل لها : كيف صَبَرْتَ ؟ فقالت :
لو وجدتُ في الحزنِ دَرْكًا ما اخترْتُ عليه ... « وَهَقَهُ : غَشِيَهُ ، وَدَرَكَا :
تَرَبَّدَ مَدَارِكُهُ لِمَا فَاتَ ،

ومن أدعيتهم لذوى المصيبة

ومن قولهم فى الدعاء لذوى المصيبة : وَهَبَ اللَّهُ لَكَ عُمْرًا طَوِيلًا وَأَجْرًا جَزِيلًا وَصَبْرًا جَمِيلًا ؛ لَقَاكَ اللَّهُ الصَّبْرَ وَوَقَاكَ مَا يُحْبِطُ الْأَجْرَ . وقال رجل لابن عمر : عَظَّمَ اللَّهُ أَجْرَكَ ، فقال : بل جعل الله لى العافية ... « وذلك أن تعظيم الأجر فى تعظيم ما يؤجرُ عليه من المصيبة ، وقالوا : التعزية بعد ثلاث تجديدٌ للمصيبة ، والتهنئة بعد ثلاث استخفافٌ بالمؤدة ... »



« وبعد ، فأما عقرياتهم فى المرائى فإن لها موضعا آخر فى هذا الكتاب كما أن عقرياتهم فى المدح والثناء تراها فى باب قد أفردناه لها .

عقرياتهم فى الطب والمرض وعيادة المرضى

معنى الطب

كلُّ حَازِقٍ بَعْمَلِهِ : طَبِيبٌ عِنْدَ الْعَرَبِ ، وَرَجُلٌ طَبَّ بِكَذَا : أى عالمٌ به ثم صار الطَّيِّبُ اسما للعالمِ بِمَدَاوِةِ أَيْدَانِ النَّاسِ ، وقالوا : حَدُّ الطَّبِّ : معرفة الداءِ وَتَقْيِهِ بِالْإِدْوَاءِ ، أو هو : اسْتِدَامَةُ الصَّحَّةِ وَمَرَمَةُ السَّقَمِ .

وصف طبيب حاذق

قال لِسْرِى الرَّفَاءُ فى طَبِيبٍ حَازِقٍ :

أَوْضَحَ نَهْجَ الطَّبِّ فى مَعْتَبِرٍ مَازَالَ فِيهِمْ دَارِسَ الرَّسْمِ^(١)

كَأَنَّهُ مِنْ لُطْفِ أَفْكَارِهِ يَجُولُ بَيْنَ الدَّمِّ وَاللَّحْمِ

(١) لرسم : الأثر ، ودرس الرسم : عفا

لَوْ غَضِبْتَ رُوحٌ عَلَى جِسْمِهَا أَصْلَحَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجِسْمِ
وقال أيضاً :

يَبْدُو لَهُ الدَّاءُ الْخَفِيُّ كَمَا بَدَأَ لِلَّذِينَ رَضِرَاضُ الْعَدْبِ الصَّافِي ^(١)

الطبيب الجاهل

رأى فيلسوف طبيبا جاهلا فقال : هذا مُسْتَحِثُّ الموت ... وقال الشاعر
المعروف بالخبز أرزى ^(٢) في طبيب اسمه نُعمانُ :

أَقُولُ لِنُعْمَانَ وَقَدْ سَاقَ طِبَّهُ نَفُوسًا نَفِيسَاتٍ عَلَى سَاكِئِي الْأَرْضِ
« أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقِي بَعْضُنَا حَنَاتِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ »
« أَقُولُ : إِنَّ الْبَيْتَ الثَّانِي لَطَرَفَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ « صَمَتَهُ الْخَبَزُ أَرْزَى شِعْرُهُ »
وقال آخر في طبيب :

لَمْ يَأْتِ فِي الْأَرْبَعَا عَلِيلًا إِلَّا دَفَنَاهُ فِي الْخَنَيسِ
وكان رجل يختبر في التصوير ثم تركه وتقلب ، ف قيل له في ذلك ؟ فقال :
الخطأ في التصوير تُدركه العيون ، وخطأ الطبيب تُواريه القبور ...

مدح الحمية وذمها

قال قائل للحارث بن كَلْدَةَ - وكان طبيب العرب - : مَا الطَّبُّ فَقَالَ :
هُوَ الْأَزَمُ ... وَمَرَّادُهُ بِالْأَزَمِ : الْحِمِيَّةُ وَالْإِمْسَاكُ عَنِ الْاِسْتِكْثَارِ مِنَ
الطَّعَامِ ... وَقِيلَ لِلْجَالِيئُوسِ أَوْ لَا بُقْرَاطَ : إِنَّكَ تُقِلُّ مِنَ الطَّعَامِ ! قَالَ :
غَرَضِي مِنَ الطَّعَامِ أَنْ آكُلَ لِأَحْيَا ، وَغَرَضُ غَيْرِي مِنَ الطَّعَامِ أَنْ يَحْيَا

(١) الرضراض : مَادِقٌ مِنَ الْحَصَى

(٢) اسمه نصر وكان شاعرا أُمِيًّا وكان يخبز خبزا الارز ، ترجم له ابن خلكان وباقوت

لِأَكْلِ ... وقالوا: لَا تَأْكُلْ مَا تَشْتَهِي فَيُصِيرُكَ إِلَى مَا لَا تَشْتَهِي ... وفي الحديث: لَا تُتَكَبَّرْهُوَ مَرْضَاكُمْ عَلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَإِنَّ اللَّهَ يُطْعِمُهُمْ وَيَسْقِيهِمْ ... وقالوا: الْحِمْيَةُ لِلصَّحِيحِ ضَارَّةٌ ، كَمَا أَنَّهَا لِلْعَلِيلِ نَافِعَةٌ ... وقال الرشيد للفضل: مَا أَطِيبُ مَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ؟ فقال: رَفُضَ الْحِشْمَةِ وَتَرَكُ عِلْمَ الطَّبِّ ، فَلَا عَيْشَ لِمُحْتَشِمٍ وَلَا لَذَّةَ لِمُحْتَمٍ ... وقالوا: مَنْ عَرَفَ مَا يُضُرُّهُ بِمَا يَنْفَعُهُ فَهُوَ مَرِيضٌ ... وقال أفلاطون: الْمَوْتُ مَوْتَانِ: طَبِيعِي وَإِرَادِي: فَالطَّبِيعِيُّ مَفَارِقَةُ الرُّوحِ لِلْبَدَنِ ، وَالْإِرَادِيُّ مَنَعَ الْإِبْدَانِ مِنَ الشَّهَوَاتِ ... وقالوا: الْإِبْدَانُ الَّتِي اعْتَادَتْ الْحِمْيَةُ آفَتُهَا التَّخْلِيطُ ، وَالْإِبْدَانُ الَّتِي اعْتَادَتْ التَّخْلِيطُ آفَتُهَا الْحِمْيَةُ ...

شرب الدواء

قال سيدنا رسول الله: مَنْ اسْتَقَلَّ بِدَاوَاهُ فَلَا يَتَدَاوَنَ ، فَإِنَّهُ رُبَّ دَوَاءٍ يُورِثُ الدَّاءَ ... وَكَانَتِ الْحِكْمَاءُ تَقُولُ: إِيَّاكَ وَشُرْبَ الدَّوَاءِ مَا حَمَلَتْ صِحَّتُكَ دَائِكَ ... وقالوا: مَثَلُ شُرْبِ الدَّوَاءِ مَثَلُ الصَّابُونِ لِلشُّوبِ ، يُنْقِيهِ وَلَكِنْ يُخَالِفُهُ وَيُبْلِيهِ ... وقال أبقراط: الدَّوَاءُ مِنْ فَوْقَ ، وَالدَّوَاءُ مِنْ تَحْتِ ، وَالدَّوَاءُ لَا فَوْقَ وَلَا تَحْتِ ، وَفَمَرَّ ذَلِكَ مُفَسَّرُوهُ فَقَالُوا: مَنْ كَانَ دَاوَاهُ فِي بَطْنِهِ فَوْقَ سُرَّتِهِ سُقِيَ الدَّوَاءُ ، وَمَنْ كَانَ دَاوَاهُ تَحْتَ سُرَّتِهِ حُقِّنَ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ دَاءٌ لَمْ يَنْفَعْهُ فَوْقٌ وَلَا مِنْ تَحْتِ لَمْ يُسَقِ الدَّوَاءُ ، فَإِنَّ الدَّوَاءَ إِذَا لَمْ يَجِدْ دَاءً يَعْمَلُ فِيهِ وَجَدَ الصَّحَّةَ فَعَمِلَ فِيهَا ...

سياسة الأبدان

بما يصلحها من الطعام وغيره

قال الحجاج بن يوسف الثقفي لِيَأْذُقَ مُتَطَبِّبِهِ ^(١) : صِفْ لِي صِفَةً آخِذُهَا
وَلَا أَعْدُوَهَا ، قَالَ يَأْذُقُ : لَا تَتَزَوَّجُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا شَابَةً ، وَلَا تَأْكُلْ مِنَ
اللَّحْمِ إِلَّا فَتِيًّا ، وَلَا تَأْكُلْهُ حَتَّى يُنْعَمَ طَبْعُهُ ، وَلَا تُشْرِبَنَّ دِرَآءَ إِلَّا مِنْ
عِلَّةٍ ، وَلَا تَأْكُلْ مِنَ الْفَاكِهِةِ إِلَّا نَضِيجَهَا ، وَلَا تَأْكُلْ طَعَامًا إِلَّا أَجَدَّتْ
مَضْغَةً ، وَكُلْ مَا أَحْبَبْتَ مِنَ الطَّعَامِ وَاشْرَبْ عَلَيْهِ ، وَإِذَا شَرِبْتَ فَلَا تَأْكُلْ
عَلَيْهِ شَيْئًا ، وَلَا تَحْبِسِ الْغَائِطَ وَالْبَوْلَ ، وَإِذَا أَكَلْتَ بِالنَّهَارِ فَنَمْ ، وَإِذَا أَكَلْتَ
بَاللَّيْلِ فَتَمَشَّ وَلَوْ خَمْسِينَ خُطْوَةً ... فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ : إِذَا كَانَ الْأَمْرُ
كَذَا تَقُولُ فَيَلَمْ هَلْكَ أَتَبْرَاطُ وَلَمْ هَلْكَ جَالِينُوسُ وَغَيْرُهُمَا وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ
مِنْهُمْ ؟ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، قَدْ احْتَجَجْتَ فَاسْتَمِعْ : إِنْ الْقَوْمَ دَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا
يَمْلِكُونَ ، وَغَلَبَهُمْ مَا لَا يَمْلِكُونَ - يَعْنِي الْمَوْتَ وَمَا يَرُدُّ مِنْ خَارِجٍ ، كَالْحَرِّ
وَالْبَرْدِ وَالْوَقُوعِ وَالْفَرَقِ وَالْغَمِّ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ - ... وَقَالَ يَأْذُقُ أَيْضًا
لِلْحَجَّاجِ : أَرْبَعَةٌ تَهْدِمُ الْعَمَرَ وَدُبًّا قَتَلَنَ : دُخُولُ الْحَمَامِ عَلَى بَطْنَةٍ ، وَالْمَجَامَعَةُ
عَلَى الْإِمْتِلَاءِ ، وَأَكْلُ الْقَدِيدِ الْجَافِ ^(٢) ، وَشُرْبُ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الرَّبْقِ ؛
وَمَا بِمَجَامَعَةٍ الْعَجُوزُ بِبَعِيدَةٍ مِنْهُنَّ ... وَوَجَدَ الْحَجَّاجُ فِي رَأْسِهِ صُدَاعًا فَبَعَثَ
إِلَى يَأْذُقَ وَأَحْضَرَهُ ، فَقَالَ : آغْسِلْ رِجْلَيْكَ بِمَاءٍ حَارٍّ وَادْهَنْهُمَا ، وَخَصِّ
لِلْحَجَّاجِ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ ، فَقَالَ الْخَصِيُّ : وَاللَّهِ ، مَا رَأَيْتُ طَبِيبًا أَقَلَّ مَعْرِفَةً

(١) ترجم له ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء

(٢) القديد : اللحم المجفف

بالبط منك ! شكى الأمير الصداع فى رأسه فتصيف له دواءً فى رجليه !
فقال له : أما إن علامة ماثلتُ فيك بيئته ! قال الحصى : وما هى ؟ قال :
نزعت خُصيتاك فذهب شعُرُ لِحيتِكَ ! فضحك الحجاجُ ومن حضر ...

وقال عبد الملك بن مروان لأعرابي : إنك حسنُ الكِدنةِ ! قال : إني
أذنى رَجُلِي فى الشتاء ، وأَغفلُ غاشيةَ الغمِّ ، وآكلُ عند الشهوة ...

ويقال : ثلاثة أشياء تُورث الهزال : شرب الماءِ على الرِّيق ، والنوم على
غير وِطاءٍ ، وكثرة الكلام برفع الصوت ... وقالوا : الدواء الذى لاداءه معه :
أن تجلس على الطعام وأنت تشتهيه وتقوم عنه وأنت تشتهيه .

وقال أرسطوطاليس : المَطْعَمُ والمشرب إذا كثرا على المَعِدَةِ أظفأ
نارها تجرت الأغذية فى البدن غير نضيجة ، فصارَ ذلك نُقصانا للبدن يورث
الفترة ^(١) ، كالشجرة ، إذا كثُر ماؤها عَفِنَتْ وإن قلَّ جَفَتْ ، وكالسرَّاج ، إذا
قلَّ دهنه أو كثُر انطفأ ... وقال بعضهم : مَنْ تَعَدَّى وتَعَشَّى ولم يأكل
فيما يذمها ، سَلِمَ من الأوجاع ، لِقول الله عز وجل : ولهم رزقهم فيها بُكرة
وعشيًّا ... وقال بعض الأطباء : أحبُّ الناس إلينا : الرغيب البطن ، لكثرة
حاجاتهم إلينا ... وأخيرَ بعض الأمراء بشيخ قد أتت عليه مائة وخمسون
سنة فى اعتدالِ جسمه ونضارة لون ، فاستدعاه وسأله فقال : إن كان ليما ترى
من هذه الموهبة الجميلة سببٌ بعد تقدير الله تعالى فإِصْفُه : ما احتَمَلْتُ مِهمًّا
تَبَعْدُ على مُدافَعَتِهِ ، ولا رأيتُ من زوجة مكروها ، ولا اجتمعَ فى بَطْنِي
طعامان ، وإذا شَرِبْتُ شرابا تناولته رقيقا طيبا لا أتمل منه ^(٢) ، ولا أَسْتدعى

(١) الفترة : الضعف والانكسار (٢) تمل يشمل : أخذ منه الشراب والسكر

الطبيعة من غير عارض ، وما استدعيت للباه^(١) حركة إلا أن يهيج بالطبيعة على القلب ، وإذا فعلت ذلك أقللت الحركة بقية يومى ... وقالوا : أضرت الأشياء للبدن : الفكر والسهر ، وأنتك الأشياء للبدن : الخوف . وقال المأمون : قد أصبت دواء يمرئ ولا يؤكل ولا يشرب اقليل : ماهو ؟ قال : النوم إثر الغداء ... وقالوا : إذا أكلت فاضطجع على جنبك اليسر ، فإن الكبد يقع على المعدة فيضج الطعام فيهضمه ... وقالوا : غشيان المرأة المولية يضعف القوة ويسقم البدن ، لأنها كالشن البالى^(٢) ، ماوها سم قاتل ، تأخذ منك ولا تعطيك ...

من تناول طعاما

وتحقق تولد علة منه

اجتاز رجل بصديق له محموم فسأله عن سبب عيلته ؟ فقال : أكلت فى هذا الصيف فراخا وعسلا وشربت خمرأ صلبا - شديدة - ونمت فى الشمس ! فقال له : على كل ثمين ، لو كانت الحمى من حملة الشمس ورأتك بهذه الحالة لركت عملها ووافقتك ... ونظر طبيب إلى دهقان^(٣) يغرس شجرة مشمش فقال له : ما صنعت ؟ قال : أعمل لى ولك ا ديعنى أن الطبيب ينتفع بالمشمش ، لسوء أثره على آكله ، وحاجتهم إلى الطبيب ، لما يتولد فيهم من الادواء لا كل الطرى منه ، وفى هذا المعنى يقول ابن الرومى :

إدما رأيت الدهر بستان مشمش فأيقن بحق أنه لطيب
يغل له مالا يغل لربه يغل مريضا حبل كل قضيب

(٢) الشن : القرية الخلق

(١) الباه والباهة والباء والباءة : الجماع

(٣) رئيس القرية

« يُغَلَّ له : أى يعطى الطيب من الغلة - وهى الدَّخْل - مالا يُعطيه لصاحبه ،
وذلك أن حَمَلَ الغصن الواحد من كل شجرة مشمش من أشجار ذلك البستان
إذا أكله إنسان فإنه ينقلب مريضاً فيلجأ إلى الطبيب ،

الحمى

قال المتنبى :

وزائرتى كأن بها حياةً فليس تزورُ إلا فى الظلام
بَذَلْتُ لها المطارفَ والحشايا فعاقبتها وباتتْ فى عظامى
يَضِيقُ الجِلْدُ عن نفسى وعنِها فتوسَّعَ بأنواعِ السَّقامِ
إذا ما فارَقْتَنى غَسَلْتَنى كأننا عاكفانِ على حَرَامِ
كَأَنَّ الصُّبْحَ يَطْرُدُها فتَجْرِى مدامُها بأربعةِ سِجَامِ
أراقِبُ وقتها من غيرِ شوق مُرافبةَ المَشْوَقِ المُسْتَهَامِ
ويَصْدُقُ وعُدُّها والصدوقُ شرٌّ إذا ألقاك فى الكَرْبِ العِظَامِ

« وقوله : وزائرتى ... البيت يقول : إن الحمى التى كانت تأتية ليلاً ،
كأنها حَيَّةٌ فليست تزور إلا فى الليل ... والمطارف فى البيت الثانى : جمع
مُطَرَفٍ وهى : أُرْدِيَّةٌ مُرَبَّعةٌ من خَزٍّ فى جنبها عِلمَانِ ، والحشايا
جمع حَشِيَّةٍ : ما حِشَى من الفرش مما يُجْلَسُ عليه ، يقول : إن هذه الزائرة
- الحمى - لا تبيت فى الفراش وإنما تبيت فى عظامى . وقوله : يضيق الجلد .
البيت يقول : يضيق جلده فلا يَسْمُها ولا يَسْمُ أنفاسى التى أتنفَّسُها ، وهى
مع ذلك تذهب بلحمى فتوسَّعَ جلدى بما تورد عليه من ضروب السقم ،
وقوله : إذا ما فارَقْتَنى غَسَلْتَنى ... يقول : إنه يَغْرِقُ عند فراقها ، فكأنه

تغسله لُكُوفهما على ما يوجب الغُسل ، وإنما خَصَّ الحرام لأنه جعلها
 زائرة غريبة ولم يجعلها زوجةً ولا مملوكة ... وقوله : كأن الصبح ... البيت
 يقول : إنها تفارقه عند الصبح فكان الصُّبح يطْرُدُها ، وأنها إذا فارقتَه
 تجرى مدامعُها من أربعة سِجَام ، يريد : كثرة العرق - عَرَقَ الحُمَى - فكانتْها
 تبسكي عند فراقه لِحُبِّها إياه ، وأراد بالأربعة : اللَّحَاطِينَ والمُوقِنِينَ للعَيْنِينَ .
 وقوله : أراقب وقتها الخ يقول : أنتظر وقت تجيئها كما ينتظر المَشُوق مجيء
 حبيبته ، وذلك أن المريض يحزُّ لورود الحى ، فهو يراقب وقتها خوفاً
 لا شوقاً . ثم قال : ويصدق وعدها ، يقول : إنها صادقة الوعد فى الورود
 وذلك الصدق شرٌّ من الكذب ، لأنه صدق بضُرٍّ ولا ينفع كمن أوعده ثم صدق
 فى وعده ... »

وقال المتنبي أيضاً :

ومنازلُ الحِمَى الجسومُ فَقُلْ لَنَا مَا عَذَرُهَا فى تَرْكِهَا خَيْرَاتِهَا
 أعجبتُها شرفاً فَطَالَ وَقُوفُهَا لَتَأْمُلِ الأَعْضَاءُ لا لآذَانِهَا
 « يقول المتنبي لهذا الممدوح - وكان مُصاباً بالحِمَى - إِنَّ جِسْمَكَ خَيْرُ
 الأجسام فلا عُدْرَ للحِمَى فى تَرْكِهِ ، لأن محلَّها الأجسام اثم قال : إن الحِمَى
 لما رَأَتْكَ فى المحلِّ الارتفاع من الشرف والكرم والنبل أعجبتُها فأقانت
 فى بدنِكَ لتَأْمُلِ أَعْضَاءُكَ التى اشتملت على تلك المحامد ، لأنها تريد أن
 تُؤذِيكَ ... » وقال الشاعر أبو الفتح كُشَاجِمُ ^(١) فى عَلى بنِ سَليمانَ الأَخْفَشِ :
 ولفد أخطأ قومٌ زعموا أَنها من فضلِ بَرْدٍ فى العَصَبِ

(١) هو محمود بن الحسين بن السندى بن شامك ، وشامك أمه

هو ذاك الذَّهْنُ أَذْكَى نَارُهُ وَالْمِزَاجُ الْمُفْرِطُ الْحَرَّ النَّهَبُ
 ودخل بختيشوع^(١) على يحيى بن خالد بن برمك بعقب حمى فقال
 له : تَوَقَّ فَإِنْ حَمَى لَيْلَةً يَبْقَى فِي الْبَدَنِ تَأْثِيرُهَا سَنَةً — وعنده وكيع فقال :
 صدق ، فقال يحيى : مَا أَقْرَبَ تَصْدِيقَكَ إِيَّاهُ قَالَ : لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَالَ . حَمَى لَيْلَةً كَفَّازَةً سَنَةً ، فَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا مِنْ ذَلِكَ ...

الرمد

مِمَّا يُسْتَحْسَنُ فِي عَيْنِ مَحْبُوبٍ رَمْدَاءُ قَوْلِ ابْنِ الْمُعْتَزِّ :
 قَالُوا : اسْتَكْتَبَتْ عَيْنُهُ نَقَاتَ لَمْ : مِنْ شِدَّةِ الْفَنَكِ نَالَهَا الْوَصَبُ^(٢)
 حَمَرُهَا مِنْ دِمَاءٍ مَنِ قَتَلَتْ وَالدَّمُ فِي النَّصْلِ شَاهِدٌ عَجَبُ^(٣)
 وَفِي مَعْنَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :
 قَالُوا : الْحَبِيبُ شَكَاهُ جُعِلَتْ فِدَاهُ رَمْدًا أَضْرَّ بَعِينَهُ كَالْعَنْدَمِ^(٤)
 فَأَجَبْتُهُمْ : مَا زَالَ يَفْتِكُ لَحْظُهُ فِي مُهْجَتِي حَتَّى تَلْطَخَ بِالْدَمِ

(١) بختيشوع بن جورجس هو طيب يوناني الأصل ، اتصل بهرون الرشيد
 وخدمه وكانت له منزلة عنده ، وكان أبوه جورجس طيب أبي جعفر المصور ،
 وابنه يدعى جبرائيل بن بختيشوع ؛ كان من أمهر الأطباء اتخذ جعفر بن يحيى البرمكي
 طبيبه الخاص وحظي عند الخلفاء ونال منهم أموالاً لم ينالها أحد غيره منهم
 (٢) الفتك يروى : القتل ، والفتك أحسن ، والوصب : المرض والوجع الدائم
 وقد يطلق على التعب

(٣) النصل : فصل السهم والسيف والرمح وقد يسمى السياف فصلاً

(٤) العندم : صبغ أحمر يختضب به

(٥) النقرس

كان أبو الفضل بن العميد يكثر برجله النقرس ، فقيل له : لا تغتم فإن ذلك يؤذِنُ بطولِ العمر ! فقال : طولِ العمرِ هو أنْ مَنْ به النقرسُ يسهرُ ، فيصيرُ ليلُهُ نهاراً ، فكأنما يتضاءلُ عمره ... وقال المبردُ : ذكر أعرابيُّ رجلاً قد أترى فقال : تنقرس ! كأنه سميعٌ أن النقرس يكون مع النعمة ... ومنه قول الأعرابي :

ألا فاعجبوا من مُفلسٍ حلفَ نقرسٍ أما نقرسٌ في مُفلسٍ بعجيبٍ
« فلان حلف كذا أي : حليفه وملازمه »

عودٌ إلى عبقرياتهم في التداوى والأدوية

قيل لأبقراط : ما بال الإنسان يكون أثورَ ما يكون بدناً إذا شرب الدواء ؟ فقال : مثل البيت تراه أكثر ما يكون غباراً إذا كُندس ... ومن قولهم : مثلُ الدواءِ مثلُ عدوٍّ إلى جانبه صديق ، ترمى العدو فلا تأمنُ أن تُصيب الصديق ... وقالوا : لا تُستعملُ الأدوية فيما تنفع فيه الأغذية .

وفي الحديث الشريف : تداووا فإن الله ما أنزل داءً إلا أنزل له دواء ، إلا الهرم ...

وقالوا : حقُّ الطبيب أن يتأنَّى في المداواة فعشرته لا تقال ... وقالوا المتأنَّى في علاج الداء بعد معرفة الدواء كالمُتأنَّى في إطفاء النار وقد أخذت بحواشي ثيابه

(٥) النقرس : داء معروف يأخذ في الرجل وهو ورم يحدث في مفاصل القدم وفي إبهامها أكثر

شهوة المريض إلى الطعام

قال أبقراط : المريض الذي يَشْتَهِي أَرْجِي عِنْدِي مِنَ الصَّحِيحِ الَّذِي لَا يَشْتَهِي ... وقال المتنبي :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمِ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا
وَقِيلَ لِلْخَلِيلِ بْنِ أَحَدٍ فِي عِلَّتِهِ . أَشْتَهَى شَيْئًا ؟ قَالَ : لَا ! وَبُرْدَى
أَنْ أَشْتَهَى . وَقِيلَ ذَلِكَ لِآخِرٍ فَقَالَ : أَشْتَهَى أَنْ لَا أَمُوتَ .

شكوى العلة

وكان منهم من لا يرى بأساً في شكوى عِلَّتِهِ ، ومنهم من يُنْكِرُ ذَلِكَ
فَمِنْ شَكَاهُ أَبُو نَوَاسٍ إِذْ يَقُولُ :

دَبَّ فِي السَّقَامِ سُفْلًا وَعُلوًا وَأَرَانِي أَمُوتُ عِضْوًا فَعِضْوًا
لَيْسَ يَمِضِي مِنْ سَاعَةٍ بِي إِلَّا تَقْصُصْنِي بِمَرِّهَا بِي جُزْوًا
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى لَيَالٍ وَأَيَّامٍ تَمْتَعْتُهُنَّ لَعِبًا وَلَهْوًا
وَقَالُوا : هـ وَلَا بَدَّ مِنْ شَكْوَى إِذَا لَمْ يَكُنْ صَبْرُهُ

ولما مرض بعض الصالحين وعاده الناس قالوا له : كيف تجدك ؟
قال : بِشَرِّ ، قالوا : هذا كلامٌ مُذَلِّك ! قال : أَجَلْ ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ :
« وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » فالخير الصَّحَّةُ ، والشَّرُّ المرضُ
وَقَالُوا : الشَّكْوَى تُخَفِّفُ الْهَمَّ وَتُزِيلُ الْإِلَامَ ...

ولما وجه الْمُتَوَكِّلُ فِي السَّنَةِ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا أَنْ يُحْمَلَ إِلَيْهِ الْجَاحِظُ مِنَ
الْبَصْرَةِ قَالَ لِمَنْ أَرَادَ حَمْلَهُ : وَمَا يَصْنَعُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَمْرِي لَيْسَ بِطَائِلٍ ،
ذِي شِقِّ مَائِلٍ ، وَلُعَابِ سَائِلٍ ، وَفَرْجِ بَائِلٍ ، وَعَقْلِ حَائِلٍ ! « حَائِلٌ : مُتَغَيِّرٌ ،

وحدث المبرّد قال : دخلت على الجاحظ في آخر أيامه فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حَزَّ بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر مُنْقَرَسٌ ^(١) لو طار الذباب بقربه لآلمه ، وأشدُّ من ذلك ستٌّ وتسعون سنة أنا فيها ، ثم أنشدنا :

أترجو أن تكون وأنت شيخٌ كما قد كنتَ أيامَ الشبابِ
لقد كذبتك نفسك ، ليس ثوبٌ دَرِيسٌ كالجدِيدِ من الثيابِ
« دريس : بال »

وقيل لآخر : ما تشكو ؟ فقال : تمامُ العِدَّةِ وانقضاءُ المُعَدَّةِ ... وقال بعضهم لمن يشكو : أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ؟ وقيل لسعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص وهو مريض : إن المريض يتفرجُ إلى الأَينِ وإلى أن يصف ما به إلى الطبيب ، فقال : أما الأَينِ فوالله إنه لجزع ولا يسمعُ الله مني أينما فأكونَ عنده جزوعا ، وأما الطبيب فوالله لا يحكم غير الله في نفسي ، فإن شاء قبضها إليه وإن شاء منَّ بها عليّ ...

فضل الصحة والعافية

قالوا : شيان لا يعرفُ فضلُهُما إلَّا من فقدَهُما : الشَّبابُ والعافية .
وقالوا : لا يعرفُ طعمَ العافية إلَّا مَنْ نالته يدُ العِلَّةِ ، ولا طعمَ الرِّخاءِ إلَّا من مسَّته يدُ البلاءِ .

(١) منقرس : مصاب بالنقرس وهو ورم أو وجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين وفي إبهامهما أكثر

نفع المرض

اعتَلَّ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ بِخِرَاسَانَ ، ثُمَّ بَرَأَ ، جَلَسَ لِلنَّاسِ فَهَنَّاوَهُ بِالْعَافِيَةِ وَتَصَرَّفُوا فِي فَنُونِ الْكَلَامِ ، فَلَمَّا فَرَّغُوا أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : إِنْ فِي الْعِلْلِ زَيْمًا يَدْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَعْرِفَهَا : تَمْحِصُ الذَّنْبَ ، وَالتَّعَرُّضُ لِلثَّوَابِ ، وَالْإِيقَاطُ مِنَ الْغَفْلَةِ ، وَالْإِذْكَارُ بِالنِّعْمَةِ فِي حَالِ الصَّحَّةِ ، وَالِاسْتِدْعَاءُ لِلنُّوبَةِ ، وَالْحَضُّ عَلَى الصَّدَقَةِ ، وَفِي قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ الْخِيَارُ ...

وَاعْتَلَّ بَعْضُهُمْ فَقَالَ : اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ أَدَبًا لَا عَضْبًا ... وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : إِنْ الْمَرِيضُ تَحَاتُّ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ (١) ... وَذُكِرَتْ الْأَدْوَاءُ عِنْدَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فَقَالَ رَجُلٌ : مَا اشْتَكَيْتُ قَطُّ ، فَقَالَ لَا جَرَمَ أَنْ ذُنُوبَكَ لَمْ تَحْطَ عَنْكَ ...

وصف العلة بأنها تنال الأماثل

قال أبو تمام من أبيات في مرض إلياس بن أسد :

فَإِنْ يَكُنْ وَصَبٌ عَايَلَتْ سَوْرَتَهُ فَالْوَرْدُ حِلْفٌ لِلْيَثِ الْغَايَةِ الْإِضْمِ
إِنْ الرِّبَاحُ إِذَا مَا أَعْصَفَتْ قَصَفَتْ عَيْدَانِ تَجِدُ وَلَا يَبْأَنُ بِالرَّثَمِ
بَنَاتُ نَعَشٍ وَنَعَشٌ لَا كُسُوفَ لَهَا وَالشَّمْسُ وَالْبَدْرُ مِمَّا الدَّهْرُ فِي الرِّقَمِ
قَدْ يُنْعِمُ اللَّهُ بِالْبَلَاوَى وَإِنْ عَظُمَتْ وَيَبْتَغِي اللَّهُ بَعْضَ الْقَوْمِ بِالنَّعَمِ
« الوصب هنا : المرض ، وسورته : شدته ، والورد : الحمى ، والإضم : الغضب ، وعيدان (بالفتح) جمع عيدانة وهي : النخلة الطويلة والشجرة

(١) تحات الشيء : تناثر ، وتحات الورق : سقط عن الغصن

السُّلْبَةُ القديمة . والرَّثَم : نبات من أدق الشجر، وبنات نَعَش كبرى وهي سبعة كواكب أربعة منها نَعَش وثلاث بنات؛ وصُغْرَى : وهي مثلها، ومنها نَأَى من دونها، والرقم : السواد، ويضئ به الخفاء للكسوف والخسوف « وقال البحري :

وما الكلبُ محمومًا وإن طالَ عُمرُهُ ألا إنما الحمى على الأسدِ الوَرْدِ
« قيل للأسد وَرْد لأن لونه أحمر يضرب إلى صُفْرَة ، وفي الحديث الشريف : مثلُ المؤمنِ مثلُ الحامَةِ من الزرع ، نُفِثُهَا الريحُ مرةً وتَعْدِلُهَا مرةً ، ومثلُ الكافرِ مثلُ الأرزَةِ لاتزالُ حتى يكونَ انجِعافُها مرةً واحدة .
« الحامَة : الزرع أول ما ينبت على ساقٍ واحدة ، وقيل : السُّبُلَة ، وقيل : الطاقة الغُضَّة من الزرع ، وقيل : الشجرة الغُضَّة الطرية . ونُفِثُهَا : تحرَّكها ونُمِّيَّاها يُمَيَّا ونُمَّا ، والأرزَة : واحدة الأرز : شجر معتدل صلب لا يحرَّكه هبوب الريح يقال له الأرزَة معروف بلبنان ، وقيل : شجر الصَّنوبر والجمع أرز ، وانجِعافُها : انقلاعُها . ومعنى الحديث : أن المؤمن يلبغي له أن يتلقَى المكارِهَ صابرًا راجيًا الخير من ورائها ، وأن يُعَدَّ نفسه كأوائل الزرع تُمِيلُه الرياحُ يَمَنَةً ويسرةً ، فهو في الدنيا هَدَفٌ تَنَتَضِلُ فيه الرزايا ، فليس له إلا أن يَعْتَصِمَ بالصبر والرضا ، وأن يَعْلَمَ علمًا ليس بالظن أن كل ما يُرْزَوْهُ من فَقْدان مال وولد وما إليهما ، وما يصيبه من مَرَضٍ ووَصَبٍ ، إنما هو مكفَّرٌ ناسِيَّاتِه رافع لدرجاته ؛ أما الكافر ، أما العِفرِيَّة النَّفْريَّة ، فإن كلَّ هَمٍّ أن يَسْتَمْتِعَ بشهوات الدنيا ولذاتها ، فإذا رُزِيَ في ماله وولده ونفسه تَسَخَّطَ ولم يَذْخَرْ لنفسه ما ينفعُه في آجله ومن ثمَّ يموت إذ يموت كما تمعِجُ شجرةُ الأرزَةِ وتُجَثَّت من أصلها فيلقى الله بذنوبه حائلًا . هذا ، ولك أن

تقول : إن المعنى بسبيل من قولهم : المؤمن مُصابٌ ، ومعنى هذا أن المؤمن . لأنه يتقى الله في سائر أسبابه ولا يُقدِّم على ما حَرَّمَ الله ، لا توافيه الدنيا كما توافي من لا يتقى الله فيعيش من كان هذا شأنه مُرَرَّاً وإن كان في آخرته من الفائزين . وهذا في الغالب ، وإلا فهناك من المؤمنين الصادقين من كان إيمانهم مَدْرَجَةً إلى أن يعيشوا عيشة راضية يُحسدون عليها . وعلى أية حال فإن المراد بمثل هذا الحديث هو تعزية المصابين في الدنيا من المؤمنين بأن الآخرة خيرٌ وأبقى ...

عيادة المريض

وجوب عيادة المريض

ورد في الحديث الشريف : حَقُّ المسلم على المسلم ثلاثٌ : عيادةُ المريض وتشميتُ العطاس ، وتشيعُ الجنازة ؛ وفي الحديث أيضاً : من عاد مريضاً لم يَزَلْ في حُرْقَةِ الجنة حتى يرجع ... « الحُرْقَةُ (بضم الحاء وفتحها) : ما يُخْتَرَفُ أى يُجْتَنَى من الثمر ، أى لم يزل في بستانٍ يَجْتَنَى منه الثمر ، شبه صلوات الله عليه ما يحوزُه من يعودُ المريض من الثواب بما يحوزُه المُخْتَرَفُ من الثمر »

أدب عيادة المريض

قالوا : سوءُ العيادةِ تَلْقِيحٌ لِلْعِلَّةِ ... وقال الفضلُ بنُ الربيع : لا تقولوا : كيف حال أمير المؤمنين ، ولا تسألوه عن حاله فتُكَلِّفه الجواب ، ولعله يُثْقَلُ عليه الكلام ، ولكن اجعلوا مسألتكم الدعاء له وقولوا بَدَل كيف يَجِدُ أميرُ المؤمنين نفسه : أنزل الله عليه الشفاء والرحمة ... ودخل قومٌ على

السَّيرَى السَّمَطَى رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ عَظِيمٌ فَأَطَالُوا الْجُلُوسَ وَقَالُوا : ادْعُ لَنَا ،
فَقَالَ : ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ وَقُولُوا : اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ عَلَّمَتْهُمْ عِيَادَةَ الْمَرْضَى ...
وَدَخَلَ قَوْمٌ عَلَى مَرِيضٍ فَأَطَالُوا الْجُلُوسَ ثُمَّ قَالُوا : أَوْصِنَا ، فَقَالَ : أَوْصِيكُمْ
أَلَّا تَطِيلُوا الْجُلُوسَ عِنْدَ الْمَرِيضِ إِذَا عُدْتُمْوهُ ... وَدَخَلَ ثَقِيلٌ عَلَى مَرِيضٍ
فَأَطَالَ الْجُلُوسَ ثُمَّ قَالَ : مَا تَشْتَكِي ؟ قَالَ : قُعُودُكَ عِنْدِي ...

شكاية من لا يعودده إخوانه

قال : سجدة البرمكى (٥) :

مَرِضْتُ فَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ حُرٌّ يُشْرِقُنِي بِبَيْرٍ أَوْ سَلَامٍ
وَضَبُّوا بِالْعِيَادَةِ وَهِيَ أَجْرٌ كَانَ عِيَادَتِي بِذَلِكَ الطَّعَامِ

الاعتذار عن ترك العيادة

قال شاعر :

إِنْ كُنْتُ فِي تَرْكِ الْعِيَادَةِ تَارِكًا حَظَى فَإِنَّ فِي الدَّعَاءِ لَجَاهِدُ
وَلَوْ بَمَّا تَرَكَ الْعِيَادَةَ مُشْفِقٌ وَأَتَى عَلَى غِلِّ الضَّمِيرِ الْحَايِدُ

من عاده ممرضه

قال العوام بن كعب بن زهير في ليلي العطفانية :

وَحُبْرْتُ لَيْلَى بِالْعِرَاقِ مَرِيضَةً فَأَقْبَلْتُ مِنْ أَهْلِ بَصْرَ أُعْوِدُهَا

(٥) هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك ، فهو من ذرية البرامكة كما ترى وكان من ظرفاء عصره وكان أديباً شاعراً صاحب فنون وأخبار ونوادر ومنادمة ، وجعزة لقبه به عبد الله بن المعتز توفي سنة ٣٢٦ و انظر ترجمته في معجم البلدان لياقوت ووفيات الاعيان لابن خلكان ،

فوالله ما أدرى إذا أنا عُدْتُهَا أَأُزِيهُمَا مِنْ دَائِهَا أَمْ أَزِيدُهَا

مريض عاد صحيحاً

قال العباس بن الأحنف :

قالت : مَرِضْتُ فَعُدْتُهَا فَتَبَرَّمْتُ وَهِيَ الصَّحِيحَةُ وَالْمَرِيضُ الْعَائِدُ

والله : لو أَنَّ الْقُلُوبَ كَقَلْبِهَا مَارَقَ لِلْوَلَدِ الضَّعِيفِ الْوَالِدُ

وقال آخر :

إِذَا مَرَضْنَا أَتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمْ وَتُذْنِبُونَ فَنَاتِيكُمْ وَتَعْتَذِرُ

حُثُّمُ الْعَائِدِ عَلَى تَنْشِيطِ الْمَرِيضِ

قال بعضُ الأطباءِ الْقَدَامَى : بَشِّرُوا الْمَرِيضَ بِالْبُرَّةِ ، وَتَشْطُرْهُ لَشُرِّ الدَّوَاءِ ، وَلَا تَصْعَبُوا عَلَيْهِ الْعِلَّةَ ، فَتَخَافَ نَفْسُهُ ، وَيَمُوتَ حِسَّهُ ، وَقَالَ : أَثْقَرَاطُ : حَدِّثُوا الْمَرِيضَ بِحَالِ مَنْ كَانَ فِي أَصْعَبَ مِنْ عِلَّتِهِ قَبْرًا ، وَلَا تَحْدِثُوهُ عَمَّنْ كَانَ فِي مِثْلِ عِلَّتِهِ فَمَاتَ ...

حُثُّمُ عَلَى تَخْوِيفِهِ لِيَتَجَنَّبَ الْمَضَارَّ

قالوا : خَوْفُوا الْمَرِيضَ لِيَتَجَنَّبَ الْمَضَارَّ ، فَمِنْ خَوْفِكَ لَتَأْتِيَ الْإِمْنُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَمْنِكَ لَتَأْتِيَ الْخَوْفُ ... وقالوا : مَنْ أَوْجَرَكَ الْمَرُّ لَتَبْرَأَ خَيْرٌ مِنْ أَوْجَرَكَ الْحُلُو لَتَسْقَمَ .

تَغْيِيرُ اللَّوْنِ

قال الصُّوْلِيُّ : لَمْ يُسْمَعْ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ الْبُحْتَرِيِّ فِي صُفْرَةِ اللَّوْنِ : بَدَتْ صُفْرَةٌ فِي لَوْنِهِ ، إِنَّ حَدَّثَهُمْ مِنْ الدَّرِّ مَا أَصْفَرَتْ نَوَاجِيهِ فِي الْعَقْدِ

وقال أبو تمام :

لَمْ تَشْنِ وَجْهَهُ الْهَيْجَ وَلَكِنْ جَعَلْتَ وَرْدَ وَجْنَتَيْهِ بَهَارًا
« البهار : نبت برى طيب الرائحة له فُقَّاحَةٌ - زهرة - صَفْرَاءُ يَنْبُتُ
تَأْيَامَ الرَّيِّعِ ، يقال له : العَرَارُ وعَيْنُ الْبَقْرِ ... »

تهنئة من برأ من المرض

قال أبو تمام :

سَقَمْتُ أُتِيحَ لَهُ بُرٌّ فَرَزَعَهُ وَالرُّمْحُ يَنَادُ طَوْرًا ثُمَّ يَعْتَدِلُ
قَدْ حَالَ لَوْ أَنَّ فَرْدَ اللَّهِ نَضَرْتَهُ وَالنَّجْمُ يَخْمَدُ حِينًا ثُمَّ يَشْتَعِلُ
يقال : زَعَزَعَ الشَّيْءَ : حَرَّكَهُ لِيَقْلَعَهُ ، والمراد هنا : دفعه وأزاحه ، ويناد :
يَجِيلُ ، وحال لَوْ أَنَّ : تَغَيَّرَ ، والنضرة : الحسن والجمال ،
وقال أشجع بن عمرو السُّلَمِيُّ : ^(١)

لَنْ جَرَحْتَ شَكَائَكَ كُلَّ قَلْبٍ لَقَدْ قَرَّتْ بِصِحَّتِكَ الْعْيُونَ
وقيل لأعرابي برأ من عنته : الحمد لله الذى سلك ، فقال : أَوْ يَسْلُمُ مَنْ
الْمَوْتُ فِي عُنُقِهِ ؟ وقد تقدم

وقال المتنبي :

لِلْمَجْدِ عُوفِي إِذْ عُوِفِيَ وَالْكَرَمُ وَزَالَ عَنْكَ إِلَى أَعْدَائِكَ الْإِلْمُ
صَحَّتْ بِصِحَّتِكَ الْغَارَاتُ وَابْتَهَجَتْ بِهَا الْمَكَارِمُ وَأَنْهَلَتْ بِهَا الدِّيمُ

(١) كان شاعرا خللا ولد في اليمامة ونشأ في البصرة ومدح البرامكة وانقطع إلى
جعفر بن يحيى قهره من الرشيد ومن أبياته السائرة قوله فيه :

وَعَلَى عَدُوِّكَ يَا ابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ رَصْدَانُ ضَوْءِ الصَّبْحِ وَالْإِظْلَامِ
فَإِذَا تَنَبَّهَ رُغْمَتُهُ وَإِذَا غَفَا سَلَتْ عَلَيْهِ سَيُوفُكَ الْإِحْلَامُ

وراجع الشمس نور كان فارقتها كأنما فقدت في جسمها سقم
 قوله : وزال عنك إلى أعدائك الألم : إنما هو خبر وليس دعاء ، يريد :
 أن أعداءه تؤلمهم عافيته لعوده بعد ذلك إلى غزوهم ، كما أشار إلى ذلك
 في البيت التالي . وانتهت : سالت ، والديم جمع ديمة وهي : المطر الدائم في
 سكون . يقول : كانت الغارات على بلاد الروم قد انقطعت فلما شفي وصح
 اتصلت الغارات عليها ، فكان الغارات كانت عيلة بعاته ثم صحت بصحته ،
 وسرت المكارم بصحته لأنه صاحبها ، وكانت الأمطار منقطعة فلما شفي
 صادف اتصالها شفاءه ، ويقول في البيت الثالث : إن الشمس فقدت بهجتها
 في عيون أوليائه لا غناهم لعاته فلما شفي عاد إليها حسناتها

تفدية المريض

قال البُحْتُرى :

بأنفسنا لا بالطوارف والتلذ

نقيق الذي نخفي من الشكوى أو نبدي

بنا معشر العافين ما بك من أذى

فإن أشفقوا بما أقول في وحدي

« الطوارف : جمع طارفة مؤنث طارف وهو المال المستحدث وعكسه التلذ

وهو المال القديم ، والشكو مصدر شكا كالشكوى والشكاة ، والعافى طالب

المعروف ، وأشفقوا : خافوا ،

وقال آخر :

بأيت علته بي غير أن له أجر العليل وأن غير مأجور

عقريات شتى

في الطب والمرض والعبادة

قال جالينوس : المرض هَرَمَ عارض ، والهرم مرض طبعي ؛ وله : مجالسةُ
الثقيل حُمَى الروح .

وقال ثابت بن قُرَّة : ليس شيء أضر بالشيخ من أن تكون له جاريةُ
حسنة ، وطباخ حاذق ؛ لأنه يُكثر من الطعام فينشق ، ومن الجوع فيهرم :
وقال آخر : ليس لثلاث حيلة : فقرٌ يخالطه كسل ، وخصومة يخامرُها
حسد ، ومرض يمازجُه هَرَم ...

وقالوا : ثلاثة يُعذرون على سوء الخلق : المريض ، والمسافر ، والعاصم ...
وقالوا : فرط الغمِّ والسرور يقتلان ، أما الغم فإنه يُجمد الدم . والسرور
يُلهبه حتى تعلو حرارته على الحرارة الغريزية ... وقال كسرى لوزيره يوماً :
أي الفراش ألد ؟ فقال أحدهما : ألدُّ الفراش الخرزُ محشواً ، وقال الآخر :
ألدُّ الفراش الحرير محشواً — وكان بين يديه غلام من الحجاب فقال : أيها
الملك ، أناذن لي في الكلام ؟ فقال : نعم ، قال : ألدُّ الفراش الآمن ، قال :
صدقت ، قال : فما ألدُّ الطعام ؟ قال : ما لا يهيج على طبيعة علة ، ولا يُقَدُّ
في عنق آكلة منته ، فقال : أحسنت ، فما ألدُّ الشراب ؟ فقال : ما لا يُزِيلُ
عقلاً عن محله ولا يهيجُ على طبيعة شيئاً من عِلل ؛ قال : أحسنت ، فما ألدُّ
الريحان ؟ قال : الولد السارُّ ريحانُ أبيه في حياته وخلف له بعد وفاته ؛ فرفع
محله وألقاه بأكابر حشمه ...

ونالت أبا الطيب المتنبى وهو بمصر علة ، فكان بعض إخوانه المصريين

يكثر الإمام به ، فلما أبلّ قطعهُ ، فكتب إليه : وصلّني — أعزّك الله —
مُعْتَلًا ، وقطعتني مُبِلًا ، فإن رأيت أن تُكدر الصّحة عليّ ، وتُجَبِّب العلة
إليّ ، فملت ...

وقال شاعر :

إن الجهولَ تضُرني أخلاقُه ضررَ السُّعالِ لَمَن به استسقاء^(١)
وقال البُستيّ^(٢)

أنا كالورْدِ فيه راحةٌ قَويم ثم فيه لآخرينَ زُكّامُ^(٣)

(١) الاستسقاء لدى الأطباء : تجمع سوائل مصلية في تجويف أو أكثر من
تجاويف الجسد أو في خلاياه .

(٢) هو أبو الفتح علي بن محمد البستيّ الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٤٠٠ هـ
من شعره :

وقد يلبسُ المرءُ خَزَّ الثياب ومن دونها حالةٌ مُضَيَّةٌ
كمن يكتسى خُدَّهُ خُمْرَةً وعِلَّتْها ورمٌ في الرِّيةِ
وله :

تَحْمَلُ أخاك على ما به فإني استقامتِه مطمعُ
وأني له خُفاقٌ واحدٌ وفيه طبائعه الأربعُ

ومن ألفاظه : مَنْ أَصَاحَ فاسِدَه أرغَمَ حاسِدَه . من أطاع غَضِبَه
أضاعَ أدبه . الفهمُ شُعاعُ العقل . المنية تضحك من الأمانة . حدُّ العفاف
الرضا بالكفاف

(٣) قبله :

لا يغرُّنك أني لئن المَسَّ فعزّمي إذا انتضيتُ حُسام

وقال المتنبّي :

لَعَلَّ عَتَبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ وَرُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِاللِّدَالِ

وقال :

أُعِيدَها نَظراتِ مَنكَ صادِقَةً أَنْ تَحْسِبَ الشَّحْمَ فَيَمْنُ شَحْمُهُ وَرُمُ
وقيل لبعض الأطباء وقد نهكته العلة : ألا تتعالج ؟ فقال : إذا كان
الداء من السماء ، يطل الدواء ، وإذا قدر الربُّ يطل حذرُ المربوب ، ونعم الدواء
الآمل ، وبئس الداء الأجل .

ومن أدعيتهم : أغناك الله عن الطّبِّ والأطباء ، بالسلامة والشفاء ، وجعل
علتك تمحيصاً لا تنقيصاً ، وتذكيراً لا تنكيراً ، وأدباً لا غضباً .



الباب الرابع

في

كتمان السر وإفشائه

وعبقرياتهم في ذلك وفيما يجري هذا المجرى
من الشورى والاستبداد بالرأى والنصح والآنسة والعجلة

وهذا كتمان السر هو الآخر لَوْنٌ من ألوان الصبر الذي أسلفنا القول عليه في الباب الثالث ، وهو معنى من المعاني الخُلُقِيَّة التي عُنِيَ بالقول عليها والحث على الاستمساك بعروتها سائر عقلاء الناس في كل جيل من حُكْمَتِهِم النجاريب ، ذاهبين إلى أن إفشاء السر - كان ما كان لونه - آيةٌ من آيات الضعف ودليل على أن في عقل صاحبه عُهْدَةٌ تُغْتَمَزُ فيه ، وأنه ناشئ من قلة الصبر وضيق الصدر ، وأنه من خلائق ضَعْفَةِ الرجال والنساء والصبيان .

ومن السر ما يعد كتماناً من الحزم والاحتياط . وهذا أخص ما يكون بالملوك والساسة ومن إليهم ، وهذا اللون من السر قد يؤدي إفشاؤه إلى سفك الدماء وضياع الممالك والدول والدمار وخراب الديار ... ومن السر ما يحدث من الإنسان مما تستقبح إشاعته ويشنعُ سماعه . وإلى هذا اللون يشير سيدنا رسول الله بقوله صلوات الله عليه : من أتى منكم من هذه القاذورات بشيء فليستتر بستر الله ...

وبعد فإياك إياك يا أخى أن يتخذَكَ عن سرِكَ مثل قول القتاتل :

❖ وأكتمُ السر فيه ضَرْبَةُ العُنُق ❖

وقول الآخر :

وَيْكَا تَمَّ الْأَسْرَارَ حَتَّى إِنَّهُ لِيَصُونَهَا عَنْ أَنْ تَمُرَّ بِبَالِهِ
فَذَلِكَ قَوْلٌ مِنْ يَسْتَنْزِلُكَ عَمَّا فِي نَفْسِكَ حَتَّى إِذَا اسْتَقْصَى مَا عِنْدَكَ لَمْ
يَرَعْ فِيهِ حَقَّكَ ، وَقَدْ قَالُوا : إِنْ الصَّبْرُ عَلَى الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ أَيْسَرُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى
كَتْمَانِ السِّرِّ ...

حفظ اللسان

من قديم ما قيل في حفظ اللسان قولُ امرئ القيس :
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَخْزُنْ عَلَيْهِ لِسَانَهُ فَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ سِوَاهُ بِخَزَّانٍ
« لَمْ يَخْزُنْ عَلَيْهِ لِسَانَهُ : لَمْ يُحَرِّزْ لِسَانَهُ فَيَجْعَلْهُ فِي خِزَانَةِ قَلْبِهِ ، قَالَ صَاحِبُ
اللسان : وَخِزَانَةُ الْإِنْسَانِ قَلْبُهُ ، وَخَازِنُهُ : لِسَانُهُ ، وَقَالَ لَقْمَانَ الْحَكِيمُ لِابْنِهِ :
إِذَا كَانَ خَازِنُكَ حَفِيزًا وَخِزَانَتُكَ أَمِينَةً رَشِدْتَ فِي أَمْرَيْكَ : دُنْيَاكَ
وآخِرَتُكَ ، يَعْنِي : اللسان والقلب ،

وقالوا : من ضاق قلبه اتسع لسانه ...

وقال أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري : لسان العاقل من وراء
قلبه : فَإِنْ عَرَضَ لَهُ الْقَوْلُ نَظَرَ فَإِنْ كَانَ لَهُ أَنْ يَقُولَ قَالَ ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ
الْقَوْلُ أَمْسَكَ ، وَلِسَانُ الْآخِثِ أَمَامَ قَلْبِهِ ، فَإِذَا عَرَضَ لَهُ الْقَوْلُ قَالَ ، كَانَ عَلَيْهِ
أَوْ لَهُ ... وَقَالُوا : مَقْتَلُ الرَّجُلِ بَيْنَ فَسْكَيْهِ .

ومن كلامهم : قِ فَاكْ مَا يَقْرَعُ قَفَاكَ « قِ : فَعَلَ أَمْرًا مِنَ الْوَقَايَةِ ، وَمِنْهُ :
إِنْ لَمْ تَمْلِكْ فَضْلَ لِسَانِكَ ، مَلَسَتْ الشَّيْطَانُ فَضْلَ عَنَانِكَ .
وَفِي اللِّسَانِ وَمَكَاتِهِ يَقُولُ زُهَيْرٌ :

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدم

منع إظهار السر قبل تمامه

قال سيدنا رسول الله : استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود ... « يقول صلوات الله عليه : إنكم إن أظهرتم الناس على حوائجكم حسدوكم فعارضوكم فيما تترامون إلى تضائه ووقفوا في سبيل تحقيقه »

وقالوا : من وهي الأمر لإعلانه قبل إحكامه ؛ وقالوا : من حصن سره فله من تحصينه إياه خلجان : إما الظفر بما يريد ، وإما السلامة من العيب والضرر إن أخطأه الظفر ...

حشم على حفظ السر

قال الشاعر الجاهلي قيس بن الخطيم :
 إذا ما جاوزَ الإثنين سرٌّ فإنه يَبَثْ وإفشاء الحديثِ قمينٌ ^(١)
 وإن ضيَّعَ الإخوانُ سرًّا فإني كَتُومٌ لأمرارِ العشيرِ أمينُ
 يكونُ له عندى إذا ما ضَمَمْتُهُ قَرَّ بسوداءِ الفؤادِ كنينُ
 رَوَّأَ : أن ابن المقفع لما سمع هذا البيت قال : أراد بالإثنين الشفتين كأنه يقول : لا تُفشِ سرَّك إلى أحد ... وهذا لعمري بديع من ابن المقفع

(١) هو معلوم أن الألف في اثنين ألف وصل فإذا جاءت متطوعة في الشعر كما في هذا البيت فإنما ذلك ضرورة شعرية ، والتثنية : نشر الحديث الذي كتمناه أحق من نشره ، وتثنية : خليف وجدير ، وبث متعلق بقمين

وكان عليّ ابن أبي طالب رضى الله عنه كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين :

فلا تُفشِ سِرَّكَ إلا اليك فإن لكل نصيح نصيحاً

وإنى رأيتُ غواةَ الرجا ل لا يتركون أديماً صحيحاً

وقال الصلتان العبدى من أبيات أوردها أبو تمام فى حماسه :

أشاب الصغير وأقى السكب — ير كثر الغداة ومث العشي

إذا ليلة هَرَمَتْ يومها أتى بعد ذلك يومٌ فتى

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تقضى

تموت مع المرو حاجاته وتبقى له حاجة ما يبقى

بني بداً خبّ نجوى الرجال فكن عند سرك خبّ النجى^(١)

وسرك ما كان عند امرئ وسرّ الثلاثة غير الخفى

كما الصمت أذنى لبعض الرشا فبعض التكلم أذنى لى

ومن قولهم : سرك من ديك ، يعنون : أنه ربما كان فى إفشاء السرِّ

سَفْكُ الدم ، وقال آخر لآخر له وحده بحديث : أجعل هذا فى وعاء غير

سَرِبٍ ، السرب : السائل ،

من يُكره أطلاعه على السر

قيل : لا تُظهِروا النساء على سركم تصالح أموركم ، وقالوا : ما كتمته

عدوك فلا تُظهِرْ عليه صديقك

(١) الحب بكر الخاء : المكر وبفتحها : المكار ، والنجوى مصدر ، وهو مستعمل

فيما يتحدث فيه اثنان على طريق السرو والكنان ، يقول : إذا ناجيت صاحبك فكن

خبا فيما تودعه من سرك فإن نجوى الرجال إذا بدا خبا عادت وبالا

المفتخر بحفظ السر

قال المتنبي :

وللسر مني موضع لا يناله نديم ولا يفيض إليه شراب
وقال يسكين الدارمي :

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم على سر بعض غير أني جماعها (١)
لكل امرئ شغب من القلب فارغ وموضع نجوى لا يرأى أطلاعها (٢)
يظنون شئ في البلاد وسرهم إلى صخرة أعيا الرجال انصداؤها

الممدوح بحفظ السر

قال الأحرص - شاعر إسلامي ترجم له صاحب الأغاني في الجزء الرابع - :

كريم يبيت السر حتى كأنه عم بنواحي أمره وهو خاير
وقال قيس بن الخطيم :

(١) أضاف الفتیان إلى الصدق كما يقال : فتیان خیر ، والمعنى : أنهم يصدقون في الود ولا يخونون ؛ والجماع : اسم لما يجمع به الشيء كما أن النظام اسم لما ينظم به الشيء ، والضمير في جماعها : لك أن ترجمه إلى الفتیان أو إلى ما دل عليه الكلام من ذكر الأسرار يقول : رب فتیان هكذا استناموا إلى واستودعوني أسرارهم فكنت أنا نظائرها لا يفوتني من خبيات صدورهم شيء ثم أفردت كلا منهم بالوفاة وكتبان ما أودعني من سره

(٢) يقول : لكل رجل منهم جانب من القلب فرغ له وخص بموضع سره ، والشعب في الأصل : الطريق في الجبل وجمعه شعاب أراد به مكانه من قلبه ، والنجوى اسم السر ، وإطلاعها : علمها يقال : أطلع الشيء وأطلع عليه : علمه ، وأنت الضمير العائد على الموضع لتأنيث المضاف إليه

كُتُومٌ لِأَسْرَارِ الْخَلِيلِ أَمِينُهَا يَرَى أَنْ بَثَّ السَّرَّ قَاصِمَةُ الظَّاهِرِ
وَقَالَ كُشَايِمُ :

وَيُسْكَاتِمُ الْأَسْرَارَ حَتَّى إِنَّهُ لَيُصُونُهَا عَنْ أَنْ تَمُرَّ بِبَالِهِ
« وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنْفَا »

وَدَخَلَ ابْنُ أَبِي مِحْجَنٍ التَّمَقِّيُّ ^(١) عَلَى مُعَاوِيَةَ ، فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ : أَبُوكَ
الَّذِي يَقُولُ :

إِذَا مِتُّ فَادْفِنْنِي إِلَى أَصْلِ كَرْمَةٍ تُرَوِّى عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُرُوقُهَا
وَلَا تَدْفِنْنِي فِي الْفَلَاةِ فَإِنِّي أَخَافُ وَرَاءَ الْمَوْتِ أَنْ لَا أَدْرِقُهَا
فَقَالَ ابْنُ أَبِي مِحْجَنٍ : لَوْ شِئْتَ ذَكَرْتَ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا مِنْ شِعْرِهِ !
فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : قَوْلُهُ :

(١) أَبُو عَجْنٍ التَّمَقِّيُّ هُوَ الصَّحَابِيُّ الشَّاعِرُ الْمَشْهُورُ بِقَصَصِهِ مَعَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ
فِي يَوْمِ الْقَادِسِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ أَتَى بِهِ إِلَيْهِ وَهُوَ سَكْرَانٌ - وَكَانَ صَاحِبَ شَرَابٍ - فَأَمَرَ بِهِ
فَقِيدَ ، وَكَانَ بِسَعْدٍ جِرَاحَةٌ فَاسْتَعْمَلَ غَيْرَهُ ، وَصَعِدَ سَعْدٌ فَوْقَ الْبَيْتِ لِيَنْظُرَ مَا يَصْنَعُهُ
النَّاسُ لَجُعَلِ أَبُو عَجْنٍ يَتَمَثَّلُ :

كُنِيَ حَزَنًا أَنْ تَرْتَدِي الْخَيْلُ بَالِقَنَا وَأَتْرَكَ مَشْدُودًا عَلَى وَثَاقِيَا
ثُمَّ قَالَ لِامْرَأَةِ سَعْدٍ : وَيْلَكَ خَلِينِي وَلَكَ عَلَى إِنْ سَلِمْتَ أَنْ أَرْجِعَ فَأَضَعُ رَجُلِي
فِي الْقَيْدِ وَإِنْ قَتَلْتَ اسْتَرْحَمْتُ مِنِّي ؛ نَفَلْتَهُ وَوَثَبَ عَلَى فَرَسٍ لِسَعْدٍ يُقَالُ لَهَا الْبَلْقَاءُ ، ثُمَّ
أَخَذَ الرِّيحَ وَانْطَاقَ حَتَّى أَتَى النَّاسَ لَجُعَلِ لَا يَحْمِلُ فِي نَاحِيَةِ إِلا هَزَمَ النَّاسَ ، لَجُعَلِ النَّاسَ
يَقُولُونَ : هَذَا مَلِكٌ ، وَسَعْدٌ يَنْظُرُ لَجُعَلِ يَقُولُ : الضُّبْرُ ضَبْرُ الْبَلْقَاءِ ^(١) وَالْطَفَرُ طَفَرُ أَبِي
مِحْجَنٍ وَأَبُو عَجْنٍ فِي الْقَيْدِ ، فَلَمَّا هَزَمَ الْعَدُوَّ رَجَعَ أَبُو عَجْنٍ فَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْقَيْدِ ،
فَأَخْبَرَتْ امْرَأَةُ سَعْدٍ سَعْدًا بِالَّذِي كَانَ فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ لَا أَحْذِرُ الْيَوْمَ رِجْلًا أَيْلَى اللَّهِ الْمُسْلِمِينَ
عَلَى يَدَيْهِ مَا أَبْلَاهُمْ ، نَحْلِي سَبِيلَهُ فَقَالَ أَبُو عَجْنٍ : لَقَدْ كُنْتُ أَشْرَبُهَا إِذْ كَانَ يَقَامُ عَلَى
الْحَدِّ أَطْهَرُ مِنْهَا فَأَمَّا إِذْ بَرَجْتَنِي فَوَاللَّهِ لَا أَشْرَبُهَا أَبَدًا

(١) الضُّبْرُ : عَدُوُّ الْفَرَسِ

لا تسأل القومَ ما مالى وما حسبي وسألتُ القومَ ما حَزَمى وما خُلِّى
 أَلْقَوْمُ أَعْلَمُ أَنى مِنْ سَرَائِمِمْ إِذَا تَطَايَشُ يَدُ الرَّعْدِ بَدَةِ الْفَرِيقِ
 أُعْطِى السَّنَانُ غَدَاةَ الرُّوعِ حِصَّتَهُ وَعَامِلَ الرُّوحِ أَرْوِيهِ مِنَ الْعَلَقِ^(١)
 قَدْ أَطْعَنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلَاءَ عَنْ عُرْضِ وَأَكْتُمُ السَّرَّ فِيهِ ضَرْبُهُ الْعُنُقِ
 فقال معاويةُ : إِنَّ كُنَّا أَشَانَا الذُّوْلَ لَنُحْسِنَنَّ الْفَعْلَ ، وَأَجْزَلَ صِلَتَهُ ..

صعوبة حفظ السر

قالوا : أَصْبِرُ النَّاسُ مِنْ صَبْرٍ عَلَى كِتَابَانِ سَرٍّ فَلَمْ يُبْذَرْ أَصْدِيقٌ فَيُوشِكُ
 أَنْ يَصِيرَ عَدُوًّا فَيُذِيقَهُ

وقالوا : الصبرُ على لَهَبِ النَّارِ أَهْوَنُ مِنَ الصبرِ على رِكَابِ السَّرِّ ...

من لا يحفظ سره ويستحفظه غيره

قال الشاعر :

فَلَا تُودِعَنَّ الدَّهْرَ سِرَّكَ أَحَقَّاقًا فَإِنَّكَ إِنِ أَوْدَعْتَهُ مِنْهُ أَحْمَقُ
 إِذَا ضَاقَ صَدْرُ الْمَرْءِ عَنْ كَتْمِ سَرِّهِ فَصَدْرُ الَّذِي يُسْتَوْدَعُ السَّرَّ أَضْيَقُ
 وقال بشار :

تَبَوَّحَ بِسِرِّكَ ضَيْقًا بِهِ وَتَحَسَّبُ كُلَّ أَخٍ يَكْتُمُ
 وَكِتَابُكَ السَّرَّ مِنْ تَخَافٍ وَمَنْ لَا تَخَافَتُهُ أَحْزَمُ
 إِذَا ذَاعَ سِرُّكَ مِنْ نُخْبَرٍ فَأَنْتَ مَتَى كُنْتَهُ الْوَمُ

ذَمٌّ مِنْ يَفْشَى السَّرَّ

يقولون : فُلَانٌ أَضْيَعُ لِلْأَسْرَارِ مِنَ الْغُرَبَالِ لِلْبَاءِ ، وَقَالَ الْحَطِيطَةُ :

أَغْرَبَالًا إِذَا اسْتُودِعَتْ سِرًّا وَكَانُوا عَلَى الْمُتَحَدِّثِينَ
 « الكانون : الثقل من الناس ، وقيل : الكانون : الذي يجلس حتى
 يَتَحَصَّى الْأَخْبَارَ وَالْأَحَادِيثَ لِيَنْقُهَا ، قَالَ أَبُو دَهْبَلٍ :
 وَقَدْ قَطَعَ الْوَاشُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَنَحْنُ إِلَى أَنْ يُوصَلَ الْحَبْلُ أَحْوَجُ
 فَلَيْتَ كَوَانِنَا مِنْ أَهْلِ وَأَهْلِهَا بِأَجْمَعِهِمْ فِي جُلَّةِ الْبَحْرِ لَجَّوْا ،
 وَقَالُوا : فَلَنْ نَأْتِيَهُمْ مِنَ النَّسِيمِ عَلَى الرِّيَاضِ . وَقَالَ ابْنُ الرَّومِيِّ :
 كَانَ سِرِّي فِي أَحْسَانِهِ لَهَبٌ فَمَا تُطِيقُ لَهُ طَيًّا حَوَاشِيهَا

الأحوال التي يفسد فيها السر

قالوا : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُنْزِلَ الرَّجُلَ عَنْ سِرِّهِ فَتَوَصَّلْ إِلَيْهِ فِي حَالِ
 سُكْرِهِ * فَالْشُّكْرُ يُظْهِرُ سِرَّهُ الْمَكْنُونَا *

المسازرة في المحافل

قال سيدنا رسول الله : إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّالثِ .
 وَكَانَ مَالِكُ بْنُ مُسَمَعٍ إِذَا سَارَهُ إِنْسَانٌ يَقُولُ : أَظْهِرْهُ فَلَوْ كَانَ خَيْرًا لَمْ
 يَكُنْ مَكْتُومًا ، وَهَذَا مِنْ قَوْلِ زَهْرٍ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ :
 وَالسُّتْرُ دُونَ الْفَاحِشَاتِ وَلَا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مَنْ سَتَرَ
 « يَقُولُ : إِنَّ بَيْنَ الْمَمْدُوحِ وَبَيْنَ الْفَاحِشَاتِ سِتْرًا مِنَ الْحَيَاءِ وَالثُّبُتِ ، وَلَا
 سِتْرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَيْرِ يَحْجُبُهُ عَنْهُ »
 وَقَالَ الْخُبَيْرِيُّ أَرْزَى :

إِذَا أَنْتَ سَارَرْتَ فِي مَجْلِسٍ فَإِنَّكَ فِي أَهْلِهِ مُتَّهَمٌ
 فَهَذَا يَقُولُ : قَدْ آغْتَابَنِي وَذَا يَسْتَرِبُ وَذَا يَتَّهَمُ

المتبجح بإظهار أسرار أصدقائه

قال أعرابي :

ولا اكْتُمُ الأسرارَ لكنْ أنْهَما ولا أدْعُ الأمرارَ تَغْلِي على قلبي
ولأنَّ قَلِيلَ العقلِ مَنْ باتَ لَيْسَ نُقَلِّبُهُ الأسرارُ جَنْباً إلى جَنْبٍ

وقال آخر :

ولا تُودِعِ الأسرارَ قلبي فإنما تُصَبِّنُ ماءً في إناءٍ مُسَلَّمٍ
وقال رجل لصديق له : أريدُ أنْ أفْشِيََ إليك سرّاً تحفظه ، فقال : كلا
لستُ أَشْغَلُ قلبي بنجواك ، ولا أَجْمَلُ صدري خزانة شكواك ، إِنْ قُلِقَني
ما أَتْلَقَكَ ، وَيُورِّقُني ما أَرَقَكَ ، فَتَبَّيتَ يافْشائِهِ مُسْتَرِيحاً ، وَبَيْتَ قلبي يَحْزَنُهُ
جريحاً ... وَلَتَعْمِرَني ما أَصْدَقَ هذا وأَكْثَرُهُ انطباقاً على الواقع اوفى الحق
أن هذا وأمثاله يجب أن يكون عظة لمن لا يطبقون كتان أسرارهم

الرخصة في إفشاء السر إلى الصديق

قال بعض الشعراء :

وَأَبْذَلْتُ عَمراً بَعْضَ ما في جِوارِحِي وَجَرَّعْتُهُ مِنْ مُرٍّ ما أَنْجَرُ
فَلَا بَدْءَ مِنْ شَكْوَى إلى ذِي حَفِيفَةٍ^(١) إِذا جَعَلْتَ أسرارُ نَفْسِي تَطْلُعُ

(١) الحفيظة : إما يراد بها : حفظ الأسرار ، وإما أن يراد بها : الغضب لحرمة
تفكك من حرمانك أوجار ذي قرابة يظلم من ذؤيك أو عهد ينكث قال الحطينة :
يَسُوسُونَ أَهْلاً ما بَعِيداً أَنانها وَإِنْ غَضِبُوا جاءَ الحَفِيفَةُ والجِدُّ
والمحفظات : الأمور التي تحفظ الرجل أي تغضبه إذا وتر في حميمه أو جيرانه
قال الفطامي :

أخوك الذي لا تملكُ الحِيسَ نَفْسُهُ وَتَرَفُّضُ عِنْدَ المَحْفَظَاتِ الكِتابُ =

وقال أبو تمام :

شَكَوتُ وما الشُّكوى لِثَلَى عَادَةٍ وليكن تَفْيِضُ الكَأْسِ عِندَ امْتِلَانِهَا
وقالوا : لا يزالُ المرءُ في كُرْبَةٍ ووَحْشَةٍ ما لم يجدْ من يشكو إليه
يتصل بهذا أن يُخَيِّرَ المريضُ طَبِيبَهُ بِكُنْهٍ دَانِهِ .
وقال محمود الوراق :

إذا كَتَمَ الصَّدِيقُ أخاهُ سِرًّا فما نُضِلُّ الصَّدِيقَ على العَدُوِّ

عقريات شتى فى كتمان السر

قال المهلب بن أبي صفرة : أذنى أخلاق الشريف كتمان السر ، وأعلى أخلاقه نسيان ما أسر إليه .

ويروى أن معاوية بن أبي سفيان أسر إلى ابن أخيه عثمان بن عتبة بن أبي سفيان حديثاً ، قال عثمان : فجئت إلى أبي فقلت : إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثاً أفأحدثك به ؟ قال : لا ، إنه من كتم حديثه كان الخيار إليه ومن أظهره كان الخيار عليه ، فلا تحمل نفسك مملوكاً بعد أن كنت مالكا ، فقلت له : أريد أدخل هذا بين الرجل وأبيه ؟ فقال : لا ، ولكنى أكره أن تذلل لسانك بإفشاء السر . قال : فرجعت إلى معاوية فذكرت ذلك له ، فقال معاوية : أعنقك أخى من رِقِّ الخطأ

وكان معاوية يقول : أعنت على على رحمة الله بأربع : كنت رجلاً

= والكنايف : جمع كنيفة وهى السخيمة والحقد والعداوة يقول الفطامى : إذا استوحش الرجل من ذى قرابته فاضطغن عليه سخيمة لإساءة كانت منه إليه فأوحشته ثم رآه يضام زال عن قلبه ما احتقده عليه وغضب له فنصره وانتصر له من ظلمه ،

أَكْتُمُ سِرِّي ، وكان رجلاً ظَهْرَةً ^(١) وكنت في أَطْوَعِ جُنْدٍ وَأَصْلَحِهِ ، وكان في أَخْبَثِ جُنْدٍ وَأَعَمَّاهُ ، وتركته وأصحابَ الجملِ وقلت : إن ظَفِرُوا به كانوا أهونَ عليَّ منه ، وإن ظَفِرَ بهم اعتَدَدْتُ بها عليه في دينه ، وكنتُ أَحَبُّ إلى قريشٍ منه ...

« وجاء رجلٌ إلى القاضي مُرَّحٍ فكلَّمه بشيءٍ وأخفاه ، فلما خرج قال له رجلٌ : يا أبا أمية ، ما قال لك ؟ قال : يا ابنَ أخي ، أو ما رأيته سَتَرَهُ عنك !

وَأَسَرَّ رجلٌ إلى صديقٍ له حديثاً فلما استقصاهُ قال : أَفْهِمْتُ ؟ قال : لا ، بل نَسِيتُ ..

وقال عبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عُتْبَةَ بنِ مسعودٍ الفقيه :
إذا كان لي سِرٌّ خَسَدْتُهُ الْعِدَا وضاق به صدرى فللناسِ أَعَذَرُ
هو السِّرُّ ما اسْتَوْدَعْتَهُ وَكَتَمْتَهُ وليس بَسِيرٍ حينَ يَفْشُو وَيَظْهَرُ
ويقال : إذا انتهى السِّرُّ من الجنانِ إلى عَذْبَةِ اللسانِ فالإِذَاعَةُ مُسْتَوَالِيَةٌ عَلَيْهِ ..

وقال عمر بن عبد العزيز : القلوبُ أوعيةُ الأسرارِ ، والشفاهُ أنفالُها والآلسُنُ مفاتيحُها ، فليَحْفَظْ كُلُّ امرئٍ مِفْتَاحَ سِرِّهِ ..
وقال شاعر :

صَنِ السِّرِّ عَنْ كُلِّ مُسْتَخِيرٍ وحاذِرُ فَا الْحَزْمُ إِلَّا الْحَذَرُ
أَسِيرُكَ يَرْكُ إِنِّ صَلَّتْهُ وأنتَ أَسِيرٌ لَهُ إِنِّ ظَهَرَ
وقال جميل بن مَعْمَر :

(١) ظهرة بضم ففتح : يظهر أمره للناس

أَمُوتُ وَالْقَى اللَّهَ يَا بَنُّنُ لِمَ أُبْحِ بِسِرِّكَ وَالْمُسْتَخْبِرُونَ كَثِيرُ
وقال عمر بن أبي ربيعة :

ولما تَلَقَيْنَا عَرَفْتُ الَّذِي بِهَا كَيْدُ الَّذِي بِي حَذَوَكَ النَّعْلُ بِالنَّعْلِ
فَقَالَتْ وَأَرْنَحْتُ جَانِبَ السَّيْرِ إِنَّمَا مَعِيَ فَتَكَلَّمُ غَيْرَ ذِي رِقْبَةٍ أَهْلِي
فَقُلْتُ لَهَا مَا بِي لَهْمٌ مِنْ تَرْقُبٍ وَلَكِنْ سِرِّي لَيْسَ يَحْمِلُهُ مِثْلِي
«يريد : أنه ليس يحمله أحدٌ مثلي في صيانته وسريه ، أى فلا يُبديهِ لأحد»
وقال شاعر :

أَخْفِضِ الصَّوْتَ إِنْ نَطَقْتَ بَلِيلُ وَالتَفَتُ بِالنَّهَارِ قَبْلَ الْكَلَامِ
وقال مسلم بن الوليد صَرَبُ الغواني فِي الْكِتَابِ يَا تَيْكَ فِيهِ السِّرُ :
الْحَزْمُ تَخْوِيقُهُ إِنْ كُنْتَ ذَا حَذَرٍ وَإِنَّمَا الْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ
إِذَا أَنَاكَ وَقَدْ أَدَّى أَمَاتَهُ فَاجْعَلْ صِيَانَتَهُ فِي بَطْنِ أَرْمَاسِ
« أَرْمَاسِ جَمْعُ رَمَسٍ وَهُوَ الْقَبْرِ ، وَالْمَرَادُ إِخْفَاؤُهُ وَتَغْفِيَتُهُ حَتَّى لَا يَبْقَى
لَهُ أَثَرٌ ،

وقال المقرئ :

فُظُنَّ بِسَارٍ الْإِخْوَانِ شَرًّا وَلَا تَأْمَنُ عَلَى سِرِّ نَوَادِ
وَقَبْلَهُ :

نَلُومُ عَلَى تَبَلْدِهَا قُلُوبًا تَكَايِدُ مِنْ مَعِيشَتِهَا جِهَادًا
إِذَا مَا النَّارُ لَمْ تُنْقَطْمْ وَتَوَدَّ فَأَوْشِكُ أَنْ تَمُرَّ بِهَا رَمَادًا
فُظُنَّ
البيت

وبعده :

نَلَوْ خَبَرَ تَهُمُ الْجَوَزَاءُ خُبْرِي لَمَّا طَلَعَتْ مَخَافَةَ أَنْ تُكَلِّبَا

عقرياتهم في المشورة

والاستبداد بالرأى

المشورة مُشتقة من : شُرْتُ الدابة : إذا أَجَرَيْتَهَا لَتَعْرِفَ قُوَّتَهَا ، وهي : استنباط المرءِ رأى غيره فيما يَعْرِضُ له من الأمور الْمُعْضِلَةِ . حتى يَنْبِثَ له حَاقُّ الأمرِ . . وَنِعْمَتِ الْعُدَّةُ هي إذا كان المستشارُ صديقاً مجرباً حازماً ناصحاً رابطَ الجأشِ غيرَ مُعْجَبٍ بِنَفْسِهِ وَلَا مُتَأَوِّنٍ فِي رَأْيِهِ وَلَا كَاذِبٍ فِي مَقَالِهِ - فَإِنَّ مَنْ كَذَبَ لِسَانُهُ كَذَبَ رَأْيُهُ - فارغ البال حين استشارته :
فَأَنْفَعُ مَنْ شَاوَرْتَ مَنْ كَانَ نَاصِحاً شَفِيقاً فَأَبْصَرَ بَعْدَهَا مَنْ تُشَاوِرُ
وليس بشافيك الشفيقُ ورأيه عزيزٌ ولا ذو الرأى والصدرِ واغِرُ^(١)

* * *

وما كُلُّ ذِي لَبٍّ يُمْوِتُكَ نَصَحَهُ وما كُلُّ مُؤْتٍ نَصَحَهُ بَلِيبٌ
ولكن إذا ما اسْتَجَمَعَا عند واحدٍ فَحَقَّ لَهُ مِنْ طَاعَةِ بِنَصِيبٍ^(٢)

مدح المشورة

أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهٖ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِمَشَاوَرَةٍ مِنْ هُوَ دُونَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)
ذَهَبَ الْمُفَسِّرُونَ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَأْمُرْ نَبِيَّهٖ بِمَشَاوَرَةِ أَصْحَابِهِ لِحَاجَةِ مَنْهُ
إِلَى رَأْيِهِمْ وَلَكِنْ لِيُعْلَمَ مَا فِي الْمَشَاوَرَةِ مِنَ الْبَرَكَةِ وَالنِّمَاءِ ، وَقِيلَ : أَمْرُهُ

(١) عزيز : بعيد غائب

(٢) لابي الاسود الدؤلي وقوله : فحق له من طاعة بنصيب ، يريد : فهو إذن وفي هذه الحالة جدير بأن يطاع ويتنصح بنصحه

بذلك تألفاً لهم وتطبيلاً لنفوسهم ، وقيل : لبستَنَ بذلك المسلمون ... وقال
سبحانه : وأمرهم سُورَى بينهم

وفي الأثر : والمشاورة حصنٌ من الندامة وأمنٌ من الملامة وقالوا : ما هلك
أمرؤ عن مشورة

وقال عمر بن الخطاب : الرأي الفرد كالخيط السحيل ، والرأيان
كالخيطين المبرمين ، والثلاثة مِرارٌ لا يكادُ يُنتقض ...

« السحيل : الخيط غير المفقول ، والمِرار : الحبل الذي أُجيدَ قَتْلُهُ ،
وقالوا : نصنُ رأيك مع أخيك فاستشره ...

حُثُّهم على مشاورة الحازم اللبيب

قال بشار بن بُرْد :

إذا بَلَغَ الرأي المشورة فاستمعن	بعزم نصيح أو بتأييد حازم
ولا تجعلِ الشورى عليك غَضاضَةً	مكان الخوافي نافعٌ للقوادِم ^(١)
وخلَّ الهوينى للضعيف ولا تكن	تؤوماً فإن الحزم ليس بناهم ^(٢)
وما خيرُ كفٍّ أمسَكَ الغلُّ أختها	وما خيرُ سيفٍ لم يؤيدَ بقائم ^(٣)
وأذنٍ مِن القُرْبى المقرب نفسه	ولا تُشهدِ الشورى أمراً غيرَ كاتم
فإنك لا تستطردُّ الهمَّ بالمنى	ولا تبْلُغُ العلنيا بغيرِ المسكارم ^(٤)

(١) الخوافي : ريشات صغار من الجناح إذا ضم الطائر جناحيه خفيت ، والقوادِم :

الريشات الكبار التي في مقدم الجناح يقول : إن الضعيف قد عمد القوى بالمعونة

(٢) الهوينى : تصغير الهوى والهوى تأنيث الالهون يقال : إنك لتعتمد للهويننا

من أمرك : أى لاهونه

(٣) الغل : واحد الاغلال طوق من حديد أو جلد يجعل في اليد أو في العنق

(٤) الهم : ما يهيم به الرجل أو أجال فمكره فيه ليفعله

إِذَا كُنْتَ فَردًا هَرَكِ النَّاسَ مُقْبِلًا وَإِنْ كُنْتَ أَدْنَى لَمْ تَقْرَ بِالْعَزَائِمِ^(١)
 وَمَا قَرَعَ الْأَقْوَامَ مِثْلُ شَيْعٍ أَرِيبٍ وَلَا جَلَى الْعَمَى مِثْلُ عَالِمٍ^(٢)
 قال الأصمعي : قلت لبشار : إني رأيت رجال الرأي يتمحبون من
 أيمانك في المشورة ؛ فقال : أما علمت أن المشاور بين إحدى الحسنين :
 بين صواب يفوز بشمرته أو خطأ يُشارك في مكروهه ؛ فقلت أنت والله
 أشعر في هذا الكلام منك في الشعر .

استشارة الكبار والصغار

ومن يُعتمد على مشورته ورويته .

كانت الدربُ تحمدُ آراء الشيوخ ؛ لتقدمها في السن ، ولما مرَّ عليها
 من التجارب التي عرفت بها عواقب الأمور حتى كأنها تنظرُها عيانًا ،
 وطراً عليها من الحوادث التي أوشحت لها طريق الصواب ويئته تبيانًا ،
 ولما منحتُه من أصالة رأيها ، واستفادته بحمِل مسعِها ، قال علي بن
 أبي طالب رضي الله عنه : رأى الشيخ خيرٌ من مشهد الغلام . ومن أمثالهم
 « زَاحِمٌ يَقُودُ أَوْ دَعٌ »^(٣)

وقال بعض الحكماء : عليك بمشورة من حلب أشطر دهره ، ومررت عليه

(١) يقال : فلان هزه الناس إذا كرهوا ناحيته ، والعزائم : الحاجات التي
 يعزَم المرء فعلها يقول : إذا انفردت برأى نفسك ولم تستعن بآراء ذرى التجارب
 باعدك الناس وأصغروا من شأنك وإن كنت أدنى القوم شأنًا لم تقز بحاجاتك التي
 اعزمت عليها .

(٢) المشيخ : الشجاع كأنه قد شيع قلبه بما يركب من الأحوال أو بقوة قلبه
 (٣) العود : المسن من الإبل أى لا تستعن إلا بأهل السن والتجربة في الأمور

ضروبُ خيره وشره ، وباع من العمرِ أشده ، وأورث التجربة زنده ،
واستشار زيادُ بن أبيه رجلا ، فقال الرجل : حقُّ المستشار أن يكون
ذا عقلٍ وافر ، واختبار مُتَظَاهِر ، ولا أُراني كذلك .

وقال ابن الرومي يمدح يحيى بن علي المنجم :

أَلَمَعِي يَرَى بِأَوَّلِ ظَنِّ آخِرَ الْأَمْرِ مِنْ وَرَاءِ الْمَغِيبِ
لَا يُرَوِّى وَلَا يُقَابُ كِفَاً وَأَكُفُّ الرِّجَالِ فِي تَقْلِيلِ

وقال :

تَرَاهُ عَنِ الْحَرْبِ الْعَوَانِ بِمَعَزِلٍ وَأَرَاهُ فِيهَا وَإِنْ غَابَ سُهْدُ
كَمَا احْتَجَبَ الْمَقْدَارُ وَالْحَكْمُ حُكْمَهُ عَلَى الْخَلْقِ طُرّاً لَيْسَ عَنْهُ مُعَرَّدٌ ^(١)

وقال إبراهيم بن العباس الصولي في الفضل بن سهل :

يُمَضِّي الْأُمُورَ عَلَى بَدِيهِتِهِ وَتُرِيهِ فَكْرَتُهُ عَوَاقِبَهَا
فَيَظَلُّ يُصْدِرُهَا وَيُورِدُهَا فَيَعُمُّ حَاضِرَهَا وَغَائِبَهَا
وَإِذَا الْحُرُوبُ غَلَّتْ بَعَثَتْ لَهَا رَأْيَا تَقُلُّ بِهِ كِتَابَهَا
رَأْيَا إِذَا نَبَتِ السِّیُوفُ تَضَى عَزَمَ بِهَا فَشَقَى مَضَارِبَهَا
وَإِذَا الْخُطُوبُ تَأَثَّلَتْ وَرَسَتْ هَدَّتْ فَوَاصِلَهُ نَوَائِبَهَا
وَإِذَا جَرَتْ بِضَمِيرِهِ يَدُهُ أَبَدَتْ بِهِ الدُّنْيَا مَنَاقِبَهَا

وقبلهما قول أوس بن حجر :

الْأَلَمَعِيُّ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ نَّ كَانَ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا

وقال علي بن أبي طالب في عبد الله بن عباس : إنه لَيَنْظُرُ إِلَى الْغَيْبِ مِنْ

سِتْرِ رَقِيقٍ

(١) ليس عنه معرّد : ليس عنه مهرب

وقال الشاعر :

بَصِيرٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا يَرَى بِصَوَابِ الرَّأْيِ مَا هُوَ وَاقِعٌ
وقال الآخر في مثله :

عَلِيمٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ بِرَأْيِهِ كَأَنَّ لَهُ فِي الْيَوْمِ عَيْنًا عَلَى الْغَدِ
وقال :

بَصِيرٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا يَخَاطِبُهُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَوَاقِبُهُ
وَأَيْنَ مَقَرُّ الْحَزْمِ مِنْهُ وَإِنَّمَا مَرَانِي الْأُمُورِ الْمُشْكِلَاتِ تَجَارِبُهُ
ولقد بالغوا في الْحَثِّ على مُشَاوَرَةِ ذَوِي الرَّأْيِ والتجربة حتى ولو كانوا
أعداء، قال ابنُ المقفَّع في كَلِيلَةِ وَدِئْمَنَةِ : لا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتْرَكَ اسْتِشَارَةَ
عَدُوِّهِ ذِي الرَّأْيِ فِيمَا يَشْرَكَ ذَلِكَ الْعَدُوُّ فِي نَفْعِهِ وَضَرِّهِ ...
وقالوا : اسْتَشِرْ عَدُوَّكَ تَعْرِفْ مَقْدَارَ عِدَاوَتِهِ ...

وقد رأى قومٌ خِلَافَ ذَلِكَ وَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ رَأْيَ الشَّبَابِ هُوَ الرَّأْيُ
الصَّائِبُ، وَفَهَمَهُمْ هُوَ الْفَهْمُ الثَّاقِبُ، إِذْ أَنَّ عَقُولَهُمْ سَلِيمَةٌ مِنَ الْعَوَارِضِ،
وَأَرَائِهِمْ خَصِيرَةٌ نَضِرَةٌ لَمْ يَهْتَصِرْ غَضَنُهَا هَرَمٌ^(١)، وَلَا أَذْرَى زَهْرَتِهَا قَدَمٌ
وَلَا حَبَابٌ مِنْ ذِكَايَهَا يَطُولُ الْمُدَّةَ ضَرَمٌ. قالوا : إِنْ رَأَى الشَّيْخُ كَالزَّائِدِ قَدْ انْتَلَمَ،
أَمَا رَأَى الشَّابَّ فَكَالزَّائِدِ الصَّحِيحِ الَّذِي يُورِي بِأَيْسَرِ اقْتِدَاحِ

وقال الشاعر :

رَأَيْتُ الْعَقْلَ لَمْ يَكُنْ أَتِيهَابًا وَلَمْ يُقَسَّمْ عَلَى عَدَدِ السِّنِينَ
وَلَوْ أَنَّ السِّنِينَ تَقَسَّمَتْ حَوَى الْآبَاءُ أَنْصَبَةَ الْبَنِينَ

(١) يهتصر الفصن : يقطعه ويكسره من غير انفصال

من يجب أن تجتنب استشارته

قال قُتُس بن ساعدة الإيادي لابنه : لا تُشاور مشغولاً وإن كان حازماً ولا جائعاً وإن كان فهِماً ، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً ، ولا مَهموماً وإن كان عاقلاً ، فالهَمُّ يَعْقِلُ العقل فلا يتولَّدُ منه رأْيٌ ولا تصدُقُ به رَويَةٌ ... وقالوا : لا تُدْخِلْ في مَشُورَتِكَ بَخِيلاً فيَقْصُرَ بفعلِكَ ، ولا جَبَاناً فيُخَوِّكَ ، ولا حَرِيصاً فيَعِدَّكَ ما لا يُرْجَى ، وإن البُخْلَ والجُبْنَ والحِرْصَ طَبِيعَةٌ واحدةٌ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بالله ...

وقالوا : لا تُشاور مَنْ ليس في بَيْتِهِ دَقِيقٌ ...

وكان كسرى إذا أراد أن يستشير إنساناً بَعَثَ إليه بنفقَةٍ سنَةٍ ثم يستشيرُهُ .

وقال عليٌّ رضي الله عنه : إِيَّاكَ وَمُشاوَرَةَ النِّسَاءِ قَرَأَيْهِنَّ إِلَى أَفْنٍ وَعَزَمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ ^(١) ... وورد في الأثر : شاوروهنَّ وخالفوهنَّ ...

وجوب نصيحة مستشيرك

قال سيدنا رسول الله : المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ ...

وقال صلوات الله عليه : الدِّينُ النِّصِيحَةُ ، قالوا : لِمَنْ يارسولَ الله ؟

قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمةِ المسلمين وعامتهم ...

« قال ابن الأثير في النهاية : النصيحة كلمة تُعبرُّ عن جملة هي : إزادة الخير للنصوح له ، وإيست كلمة تُعبرُّ عن هذا المعنى سواها ، وأصل النصيح في اللغة . الخُلوص ، يقال : نصحتَه ونصحتُ له .. هذا : والنصيحة لله : الإيمانُ به

(١) الآفن : النقص ، ورجل مأفون : نائص العقل ، والوهن : الضعف

وطاعة أمره واجتناب نهيه ، ومُوالاة من أطاعه ، ومُعاداة من عصاه وما إلى ذلك مما ترجع عائده في الحقيقة إلى العبد ، فهي نصيحة إلى نفسه وكسب خير لها ؛ والنصيحة لكتابه : الإيمان بأنه من عند الله ، وتحليل ما حله وتحريم ما حرّمه ، والاهتداء بما فيه ، إلى أمثال ذلك ؛ والنصيحة للرسول : تصديقه والاستئنان بسنّته ، إلى آخره ؛ والنصيحة لأئمة المسلمين - والمراد بهم أولوا الأمر - إعانتهم على الحق ونصحهم في رفق وعدل ، إلى آخره ، والنصيحة لعامة المسلمين : إرشادهم إلى مافيه خير الدنيا والآخرة . وقال حكيم : لا تُشيرَنَّ على عدوّك وصديقك إلا بالنصيحة ، فالصديق تقضى بذلك حقه والعدوّ يهابك إذا رأى صواب رأيك ...

وقال آخر : إذا استشارك عدوّك فخرّد له النصيحة ، لأنه بالاستشارة قد خرج من عداوتك إلى موالاةك ..

ويروى : أن زياد بن أبيه كتب إلى معاوية : يا أمير المؤمنين ، قد ضبّطت لك العراق بشمال وقرغت يميني لطاعتك ، فولّني الحجاز ، فبأن ذلك الرجل الصالح عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، - وكان مقيمًا بمكة - فقال : اللهم اشغل عنا يمين زياد ، فأصابه الطاعون في يمينه ، فجمع الأطباء واستشارهم ، فأشاروا عليه بقطعها ، فاستدعى القاضي شريحًا وعرض عليه ما أشار به الأطباء ، فقال : لك رزق معلوم ، وأجل مختوم ، وإنى أكره إن كانت لك مدة أن تعيش في الدنيا بلا يمين ، وإن كان قد دنا أجلك أن تلقى ربك مقطوع اليد ، فإذا سألك لم قطعتها قلت : بُغضًا في لفائك ، وفرارًا من قضائك ؛ فأت زياد من يومه ، فلام الناس شريحًا على منعه من القطع ، لبغضهم زيادًا ، فقال : إنه استشارني والمستشار مؤمن ... ولولا

الامانة في المشورة لَوَدِدْتُ أَنْ تُقَطَعَ يَدُهُ يَوْمًا وَرِجْلُهُ يَوْمًا وَسَاوَرُ
جَسَدِهِ يَوْمًا يَوْمًا ...

الحث على قبول النصيحة وإن كان مُرًّا

قالوا: مَنْ أَحَبَّكَ نَهَاكَ ، وَمَنْ أَبْغَضَكَ أَغْرَاكَ
وقال بعض الحكماء: مَنْ أَوْجَرَكَ الْمُرُّ لَتَبَرَّأَ أَشْفَقُ عَلَيْكَ مِنْ أَوْجَرَكَ
الْحُلْوُ لَتَنْسَقَمَ . . . يقال: أَوْجَرَهُ الدَّوَاءُ: سَقَاهُ إِيَّاهُ . وَالْوَجُورُ: الدَّوَاءُ الَّذِي
يَصُبُّ فِي الْفَمِ ،

عتاب من لم يقبل النصيحة

قالوا: مَنْ لَمْ يَقْبَلْ رَأْيَ أَصْحَابِهِ وَإِنْ أَحْزَنُوهُ عَادَ ضَرَرُهُ عَلَيْهِ ، كَالْمَرِيضِ
الَّذِي يَتْرَكُ مَا يَصِفُّ لَهُ الطَّيِّبُ وَيَعْتَمِدُ إِلَى مَا يَشْتَبِيهِ فَيَتَهَلِكُ . وقال الله
تعالى حكايةً عن صالح: «لَقَدْ أَرْسَلْنَاكُمْ رَسُولًا مِنْ بَنِيكُمْ أَنْذَرَكُمْ يَوْمَ الْكُوفَةِ أَنْ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِبُوا يَدَهُمْ
لَيَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ»^(١)
وقال العرجي^(٢):

عَرَضْتُ نَصِيحَةً مِنْي لِيَنْجِيْ فَقَالَ: غَشَشْتَنِي وَالنُّصْحُ مُرٌّ

ضياح النصيحة لمن لا يقبله

قال الشاعر: * وما خيرُ نصيحةٍ قيلَ لا يُتَقَبَّلُ *

(١) هو عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، سمي العرجي
لأنه ولد بالمرج في الطائف وقيل : بل كان له فيه مال فكان يكثر الاختلاف إليه
فشهر به ، شاعر مطبوع في الغزل والنسيب ، ترجم له صاحب الأغاني (ج ٤)

وقال غيره :

إن كان حمدي ضاع في نُصيحكم فإن أجرى ليس بالضائع
وقيل : أخذ رجل ذئباً فجعل يعظه ويقول له : إياك وأخذ أغنام
الناس فيعاقبك الله ، والذئب يقول : خفف واختصر فقد أوى قطيع
من الغنم لثلا يفوتني ...

معاقبة من يستنصح الناس

ويستغش الناصح

قال عبد الله بن همام السلولي^(١) :

وقد يستغش المرء من لا يغشه ويأمن بالغيب أمراً غير ناصح

وقال أيضاً :

ألا رب من تغشاه لك ناصح ومؤمن بالغيب غير أمين

« تغشاه : تعده غاشاً لك »

وقال غيره :

نصحت فلم أفليح وغشوا فأفاحوا فأزلى نصحي بشر مكان

(١) هو القائل :

وأنت أمرؤ إما ائتمنتك خاليا فحنت وإما قلت قولاً بلا علم
فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الحياة والموت
وكان قد وشى به واش إلى زياد بن أبيه وقال له : انه هجاك ، فقال : أجمع
بينك وبينه ؟ قال : نعم ، فبعث زياد إلى ابن همام فأتى به وأدخل الرجل بيتاً فقال
زياد : يا ابن همام ، بلغني أنك هجوتني ، فقال : كلا . أصلحك الله ما فعلت ولا أنت
لذلك أهل ، فقال : إن هذا الرجل أخبرني وأخرج الرجل ، فأطرق ابن همام هنيهة
ثم أقبل على الرجل وقال هذين البيتين :

وقال يزيد بن الحكم الثقي (١) من قصيدة جيدة في بابها (٢) يُعَاتِبُ ابْنَ
عَمِّهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ الْعَاصِ وَأُولَاهَا :
تُكَاثِرُنِي كُرْهًا كَأَنَّكَ نَاصِحٌ

وَعَيْنُكَ تُبْدِي أَنَّ صَدْرَكَ لِي دَوِي (٣)
لِسَانُكَ لِي أَرَى وَغَيْبُكَ عَلَقَمٌ (٤) وَشُرْكَ مَبْسُوطٌ وَخَيْرُكَ مُنْطَوِي (٥)
تُصَارِفُ مَنْ لَا قِيَتَ لِي ذَا عَدَاوَةٍ صَفَاحًا وَغَيٍّ بَيْنَ عَيْنَيْكَ مُزَوِي (٦)
تُقَارِضُ مَنْ أَطْوَى طَوَى الْكَشْحِ دُونَهُ وَبَيْنَ دُونٍ مَنْ صَافِيَتُهُ أَنْتَ مُنْطَوِي (٧)

الناصح منهم

من أمثالهم : المبالغة في النصيحة تهجمُ بك على عظيم الظنة . « الظنة :
الثَّهْمَةُ ، وقال أكنم بن صيفي : إياكم وكثرة التَّنصُّح فإنه يورثُ الثَّهْمَةُ .
« التَّنصُّح : كثرة النصيح ، وقال قائلهم :

« وقد يستفيدُ الظَّنَّةُ الْمُتَنصِّحُ »

(١) شاعر إسلامي غل ، ترجم له صاحب الأغاني ج ١١ ساسي

(٢) انظرها في الأمازي والخرزانة

(٣) يقال : كثر الرجلُ الرجل إذا كثر كل واحد منهم لصاحبه ، وهو أن يبدى
له أسنانه عند التبسم ، وكرهاً : بضم الكاف وفتحها مصدر وضع موضع الحال ،
والدوى وصف من الدوى بالفتح : المرض ردوى صدره : ضعف

(٤) الأرى : العسل ، والعلقم : الحنظل

(٥) وغبي يروي وحمدى ، وزوى ما بين عينيه : قبضا

(٦) فإوضه : أظهر له أمره . وأطوى ضد أنشر ، والطوى : الجوع يقول : تظهر
أمرك لمن أخفى عنه جوعى أى تنبسط في الكلام عند عدول لا أظهره على شيء من
أمرى ، وتقبض عن أصدقائي ولا تظهرهم على شيء من أمرك نكابة في .

وشاور المأمونَ يحيى بن أكرمٍ، فكان الرأي مخالفاً لهوى المأمون، فقال يحيى: ما أحدهُ بالغُ في نصيحة الملوكِ إلا استغشوه، قال: ولمَ يا يحيى؟ قال: لصرفه لهم عما يُحبون إلى ما لعلهم يكرهون في الوقتِ والهوى إلهُ معبودٍ!

وصف غاش في نصحه

من أمثالهم في الذي ينصحُ القومَ وهو غاش: «أنت شولةُ الناصحة»، قال ابن السكيت: كانت شولة أمةً رَعْناءَ تنصحُ ما إليها فتعودُ نصيحَتها وبالا عليهم، لحَمَقِها.

وقال معاويةُ يوماً لعمر بن العاص: هل غَشَشْتَنِي مُذِ اسْتَنْصَحْتُكَ؟ قال: لا، فقال: ولا يومَ أشرتَ عليَّ بمبارزةِ عليٍّ وأنت تعلمُ مَنْ هو؟ فقال: كيف وقد دعاكَ رجلٌ عظيمُ الخطرِ كنتَ من مُبارزَتِهِ إلى إحدى الحُسَيْنَيْنِ! إن قتلته فُزْتَ بالملكِ وازددتَ شرفاً إلى شرفٍ، وإن قتلَكَ تَعَجَّلْتَ من الله تعالى ملاقةَ الشهداءِ والصديقينِ! فقال: وهذه أشدُّ من الأولى! فقال: أو كنتَ من جهادِكَ في شكٍ؟ فقال: دَعْنِي من هذا....

وقال شاعر:

أعاذِلَ إِنَّ نُصْحَكَ لِي عَنَاءٌ خُفْسِيكَ قَدْ سَمِعْتُ وَقَدْ عَصَيْتُ

الاستبداد وكرهه المشورة

ومن الناس مَنْ آثر الاستبدادَ برأيه وكرِهَ أن يستشيرَ، قال المهلبُ ابن أبي صُفْرَةَ: لو لم يكن في الاستبدادِ بالرأى إلا صَوْنُ السُّرِّ وتوفيرُ

العقل لوجب التمسك به ... وقال عبد الملك بن صالح : ما استشرت أحداً قط إلا تكبر عليّ وتصاغرت له ، ودخلته العزة ودخلتني الذلة ؛ فعليك بالاستبداد ، فإن صاحبه جليل في العيون ، مهيب في الصدور ؛ واعلم أنك متى استشرت تضعض شأنك ، ورَجَفَتْ بك أركانك ؛ وما عز سلطان لم يُغْنِه عقله عن عقول وزرائه ، وآراءِ نصحاياه ؛ فإياك والمشورة وإن ضاقت عليك المذاهب ، واشتبهت لديك المسالك .

ورَوَوْا : أن أبا جعفر المنصور كان يستشير أهل بيته حتى مدحا ابن هزيمة ^(١) بقوله :

يُزِنُ امرأً لا يُصْلِحُ القومُ أمره

ولا ينتجى الآذنين فيما يُحاول ^(٢)

فاستوى جالساً وقال : أصبت والله ! واستعاده ، وما استشار بعدها . وقال بعض جلساء هارون الرشيد . أنا قتلُ جعفر بن يحيى البرمكي وذلك أني رأيت الرشيد يوماً وقد تنفس تنفساً مُسْكراً فأنشدت في إثر نفسه :

واستبدت مرةً واحدةً إنما العاجز من لا يستبد ^(٣)

فأصغى إليه واستعاده ، ثم قتل جعفرًا ...

(١) هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن هزمة ، من متقدمي الشعراء ، وعن أدرك الدولتين الأموية والهاشمية ترجم له صاحب الأغاني (ج ٤) ،

(٢) انتباه : إذا أفضى إليه بصره وخصه به

(٣) لعمر بن أبي ربيعة وقوله :

ليت هينداً أنجزتنا ما نعيدُ وشفّت أنفسنا مما نجدُ

وكانت الفُرس والرُّومُ مُخْتَلِفِينَ فِي الاستشارة؛ فقالت الروم : نحن لا نُعْلَمُكَ من يحتاج إلى أن يستشير ، وقالت الفُرس : ونحن لا نُعْلَمُكَ من يستغنى عن المشاورة ؛ وقد فَضَّلَ الفُرسُ لقوله تعالى « وشاورهم في الأمر » .

المتفادى من أن يُستشار

ومن الناس من يكره أن يُشير :

استشارَ عبد الله بن عليّ عبد الله بن المُقَفَّع فيما كان بينه وبين أبي جعفر المنصور ، فقال ابنُ المُقَفَّع : لَسْتُ أَقُوْدُ جِيْشًا ، وَلَا أَثَقَلُ حَرْبًا ، وَلَا أَشِيرُ بِسُفْكِ دَمٍ ، وَعَثَرَةُ الْحَرْبِ لَا تُسْتَمَالُ ، وَغَيْرَى أُولَى بِالْمَشُورَةِ فِي هَذَا الْمَكَانِ ...

واجتمع رؤساءُ بني سعدٍ إلى أَكْثَمَ بْنِ صَيْفِيٍّ يستشيرونه فيما دهمهم يوم الكلاب ، فقال : إِنَّ وَهْنَ الْكِبَرِ قَدْ فَشَا فِي بَدَنِي ، وَلَيْسَ مَعِيَ مِنْ حِدَّةِ الذَّهْنِ مَا أَبْتَدِئُ بِهِ الرَّأْيَ ، وَلَكِنْ اجْتَمِعُوا وَقُولُوا ، فَإِنِّي إِذَا مَرَّ بِي الصَّوَابُ عَرَفْتُهُ .

الأنانة والروية والعجلة

مدح الأنانة والروية وذم العجلة

وكانوا يمدحون الأنانة في الرأي وإجالة الفِكرَةِ فيه وعدم التَّسَرُّع . كان عبدُ الله بنُ وهبٍ الراسبيُّ يقول : إِيَّايَ وَالرَّأْيَ الْفَطِيرَ ! وَكَانَ يَسْتَعِيْذُ بِاللَّهِ مِنَ الرَّأْيِ الدَّيْرِيِّ .

« الفطير : كلُّ ما أُعْجِلَ عن إدراكه ، تقول : فَطَرْتُ الْعَجِينَ ، وَهُوَ

أَنْ تَدْعِيَهُ ثُمَّ تَخْتَبِرَهُ مِنْ سَاعَتِهِ . وَالذَّبْرِيُّ : الَّذِي يَسْنَحُ بَعْدَ الْفَوْتِ
يُقَالُ : شَرُّ الرَّأْيِ الذَّبْرِيُّ ، وَهُوَ الَّذِي يَسْنَحُ آخِرًا عِنْدَ فَوْتِ الْحَاجَةِ ،
أَيُّ أَنْ شَرَّهُ إِذَا أَدْبَرَ الْأَمْرُ وَفَاتَ ، وَهِنْ ذَا قَوْلِهِمْ : عَرَفَ الْأَمْرَ تَدْبِيرًا ،
أَيُّ بِأَخْرَةِ قَالَ جَرِيرُ :

وَلَا تَتَّقُونَ الشَّرَّ حَتَّى يَصِيبَكُمْ وَلَا تَعْرِفُونَ الْأَمْرَ إِلَّا تَدْبِيرًا
وَيُقَالُ : إِنْ فُلَانًا لَوْ اسْتَقْبَلَ مِنْ أَمْرِهِ مَا اسْتَدْبَرَهُ لَهْدَى لَوِجَهُ
أَمْرِهِ ، أَيْ لَوْ عَلِمَ فِي بَدْءِ أَمْرِهِ مَا عَلِمَهُ فِي آخِرِهِ لَا اسْتَرْشَدَ لِأَمْرِهِ ،
وَكَانَ عَامِرُ بْنُ الظَّرِبِ حَكِيمُ الْعَرَبِ يَقُولُ : دَعُوا الرَّأْيَ يَغِيبُ حَتَّى
يَخْتَمِرَ ، وَإِيَّاكُمْ وَالرَّأْيَ الْفَطِيرُ ! يَرِيدُ الْإِنَاءَةَ فِي الرَّأْيِ وَالتَّثَبُّتَ فِيهِ
وَقَالَ الشَّعْبِيُّ — عَامِرُ بْنُ شَرَّاحِيلَ — : أَصَابَ مُتَأَمِّلٌ أَوْكَادًا ، وَأَخْطَأَ
مُسْتَعْجِلٌ أَوْكَادَهُ الْمُتَأَمِّلُ : الْمُتَثَبِّتُ يَقُولُ : تَأَمَّلْ فُلَانٌ : إِذَا تَثَبَّتْ وَنَظَرَ
فِي الْأَمْرِ ،

وَقَالَ شَاعِرٌ :

تَأَنَّ وَشَاوِرْ فَإِنَّ الْأَمْرَ رَمْنًا مُضِيٌّ وَمُسْتَعْمِضٌ

فَرَأْيَانٍ أَفْضَلُ مِنْ وَاحِدٍ وَرَأْيُ الثَّلَاثَةِ لَا يُنْقَضُ

وَقَالَ الْمُنْتَبِي :

الرَّأْيُ قَبْلَ شِجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلٌ وَهِيَ الْمَحَلُّ الشَّانِي

فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ مُرَّةً بَلَغَتْ مِنَ الْعَلِيَاءِ كُلِّ مَكَانٍ (١)

وَلَرَبَّمَا طَفَنَ الْفَتَى أَقْرَانَهُ بِالرَّأْيِ قَبْلَ تَطَاعُنِ الْإِقْرَانِ

(١) لنفس مرة: من المرارة، وتروى مرة بكسر الميم: القوة والشدة، وأصل المرة
لحكم الفتل يقال: أمر الحبل لمرارا، وتروى: حرة

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان^(١)
ولما تفاضلت العقول ودبرّت أيدي الكماة عوالي المران^(٢)
وفي الأثر: ما دخل الرفق في شيء إلا زانه، ولا الحرق إلا شانه.
وقال القطامي:

قد يذكرك المتأني بفص حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل
وقال:

وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تتبعه أتباعا^(٣)
وقبله:

ومعصية الشفيق عليك بما يزيدك مرة منه استماعا^(٤)

مدح العجلة وانتهاز الفرص

وهناك من الخطوب ما تمدح فيه العجلة:

قيل لأبي التيناء: لا تدبجل فالعجلة من الشيطان فقال: لو كان ذلك
كذلك لما قال نبي الله موسى «وعجلت إليك رب لترضى»
وقال معاوية: ما من شيء يعدل التثبث فقال الأحنف بن قيس: إلا
أن تبادر بالعمل الصالح أجلك...

(٢٠١) الضيغم: الأسد والمراد بأدنى ضيغم: أدون وأخس، وأدنى إلى شرف:
أقرب، والعوالي: صدور الرماح، والمزان: الرماح اللينة، والسكاة جمع كى وهو
البطل المشتمل بالسلاح

(٣) يقول: خير الأمر ما قد تدبرت أوله فعرفت إلام تول عاقبه، وشره
ماترك النظر في أوله، وتتبع أو آخره بالنظر

(٤) يقول: إذا عصيت الشفيق عليك الحريص على رشدك تبنت في عواقب
أمرك الزلل فزادك حرصاً على أن تقبل نصحه.

وقالوا: المتأني في علاج الداء، بعد أن عرف الدواء، كلمتاني في إطفاء النار وقد أخذت بحواشي ثيابه ...

وسأل أبو علي البصير بعض الأمراء حاجة: فقال له: رُح إلى وقت العصر، فجاء وقت الظهر، فقال: ألم أعذك وقت العصر؟ فقال: نعم، ولكن رأيت الإفراط في الاستظهار أحمد من الاستظهار في التواني ... والاستظهار هنا معناه: الاحتياط والاستيثاق،

ومن قولهم في انتهاز الفرص: الهيبة خيبة والفرصة تمرُّ مرَّ السحاب ... وقالوا: انتهاز الفرصة قبل أن تعود غصة. وقالوا: الافتراض اقتيناص ...

عقريات شتى في المشورة

قال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب - شاعر ضخم أدرك الدولة العباسية - :

فأرسل حكيمًا ولا تُوصِه	إذا كنت في حاجة مُرسلا
فشاوِرَ كَيِّبًا ولا تَعِصِه	وإن بابُ أمرٍ عليك التوى
حديثًا إذا أنت لم تُحِصِه	ولا تَنطِقِ الدهرَ في مجاس
فإن الوثيقة في نصِّه ^(١)	ونص الحديث إلى أهله
فلا تنأ عنه ولا تُفِصِه	وإن ناصحٌ منك يومًا دنا
وقد تعجب العين من شخصه	وكم من فتى شاخص عقله
ويأتيك بالامر من نصِّه ^(٢)	وآخر تحسبه جاهلا

(١) نص الحديث: رفعه وأسندته؛ والوثيقة في الأمر: إحكامه والاختذ بالثقة

(٢) فص الأمر: أصله وحقيقته تقول: أنا أتيك بالأمر من نصه، يعني: من

مخرجه الذي قد خرج منه

وقال ابن المقفع : لا يُقَدِّفَنَّ في رُوعِكَ أَنْكَ إِذَا اسْتَشَرْتَ الرِّجَالَ
 ظهر للناس منك الحاجة إلى رأى غيرك فتقطع بذلك عن المشورة ، فإنك
 لا تريد الرأى للفسخ ولكن للاتفاف به ، ولو أنك أردت الذكر لكان
 أحسن الذكر عند الألباء أن يُقال : لا ينقرِدُ برأيه دون ذوى الرأى
 من إخوانه ...

ولما سار سيدنا رسول الله إلى قريش في غزاة بدر نزل صلى الله
 عليه وسلم أذن ماء من مياه بدر ، فقال له الحباب بن المنذر : يا رسول
 الله ، أرايت هذا المنزل أمزِلُ أنزلَكَ اللهُ عز وجل ليس لنا
 أن نتقدّمه ولا أن نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال :
 « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » ؛ فقال : يا رسول الله ، فإن هذا
 ليس لك بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأقِ أذن ماء من مياه القوم فنزله ،
 ثم نُعَوِّرَ ^(١) ما سواه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فتملأه ماءً ، ثم
 نقاتل القوم فنشرب ولا يشربوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « لقد أشرت بالرأى » وفعل ما أشار به الحباب .

وفي حديث أبي هريرة : ما رأيتُ أحداً أكثر مشورة لأصحابه من
 النبي صلى الله عليه وسلم ... « أقول : وإنما كان يشاورهم — كما قال
 علماؤنا — فيما ليس فيه نص ، وفي أمور الدنيا ، ومن ظنَّ أنه كان
 يشاورهم في الأحكام فقد غفل غفلةً عظيمةً كما قال الأئمة ، وكذلك إنما
 كانت المشاورة قبل العزم والتبيين ، فإذا عزم الرسول لم يكن لبشرٍ التقدّم
 على الله ورسوله ، قال العلماء : فلقد شاور النبي أصحابه يوم أُحُدٍ في المقام

(١) عور الركبة : كبتها بالتراب حتى تفسد عيونها

والخروج ، فأوَّاه الخروج ، وكان صلوات الله عليه يرى أن يُقيم
 بالمدينة فيقاتلهم فيها ، فما زالوا برسول الله حتى لبسَ لأمته ^(١) فلما لبسها
 ندَّموا وقالوا : يا رسول الله أقم فالرأى رأيك ، فلم يمل إليهم بعد العزم
 وقال : لا ينبغي لنبي لبسَ لأمته أن يضعها حتى يحكم الله ... وكذلك كان
 الخلفاء الراشدون يستشيرون الأمراء من أهل العلم في الأمور التي لم يكن
 فيها نصٌّ بحكم مُتَّينٍ ليأخذوا بأيسرها ، فإذا وضَّح الكتاب والسنة لم
 يتعدَّوه إلى غيره ، فقد كان أبو بكر رضى الله عنه إذا ورد عليه أمرٌ نظر
 فإن وجد في كتاب الله أو سنة رسوله ما يَقْضِي به قضى وإلا دعا رؤس
 المسلمين وعلماءهم واستشارهم ، وكذلك كان يفعل الفاروق وسائر الخلفاء
 رضى الله عن الجميع »

قالوا : وكانت الروم والفرس لا يجمعون وزراءهم على الأمر يستشيرون
 فيه ، وإنما كانوا يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به ؛
 وذلك لمعانٍ منها أن لا يقع بين المستشارين منافسةٌ تذهب بأصالة الرأي
 وصحة النظر ، لأن من طباع المشتركين في الأمر التناؤس والتغالب والطعن
 من بعضهم على بعض ، وربما أشار أحدهم بالرأى الصواب وسبق إليه
 خسده الآخرون فتعقبوه بالإعراض والتأويل والتَّهْجِين وكدروه وأفسدوا
 ومنها أن في اجتماعهم على المشورة تعريض السر للإضاعة والإفشاء والإذاعة
 ولذلك قالت الفرس : إنما يُراد الاجتماع والكثرة والتناصُر في الأمور
 التي يُحتاج فيها إلى القوة ، أما الأمور الغائضة فإن الاجتماع يُفْسِدُها ويُولِّدُ
 فيها التضاغُن والتناؤس ...

وجاء في كتاب للهند : أن ملكا استشار وزراء له ، فقال أحدهم :

(١) أداة الحرب من درع وبيضة وغيرهما من السلاح

الملك الحازمُ يزدَادُ برَأْيِ الوزراءِ الحزَمَةِ كما يزدَادُ البحرُ بموَادِهِ من الأنهارِ
وينالُ بالحزْمِ والرأى ما لا يناله بالقوة والجنود ؛ وللأسرارِ منازلُ : منها
ما يدخلُ الرهْطُ فيه ، ومنها ما يُستعان فيه بقوم ، ومنها ما يُستغنى فيه بواحد
وفي تحصين السر الظفر بالحاجة والسلامة من الخلل ، والمستشير وإن كان
أفضلَ رأياً من المشير فإنه يزداد برأيه رأياً كما تزداد النارُ بالسليط ضوءاً ^(١) ؛
وإن كان الملكُ مُحَصَّنًا لسِرِّه بعيداً من أن يُعرَفَ ما في نفسه مُتَخَيِّراً للوزراءِ
مَهِيّاً في أنفُسِ العامةِ كافياً بحُسنِ البلاء لا يخافُهُ البريء ولا يأمنه المريب
مُقَدَّرًا لما يُفِيدُ وينفِقُ ، كان خليقاً لبقاء مُلكه . ولا يصلحُ لسرنا هذا إلا
لسانان وأربعُ آذانٍ . ثم خلا به ...

(وبعد) فإن دولة الاستبداد قد أدبِلَ منها في هذه الأجيال وشال أمرها في
الميزان ، ورجحت كِفَّةُ الشورى ونفقت سُوْقُهَا ، وخطت في عصرنا هذا
خُطُواتٍ رَغِيبةٌ مُرَفِّقَةٌ ، وعمَّتْ أكثرُ الأممِ التي أعْرَقَتْ في الحضارة ، وظهر
أن مجالسَ الشورى على عِلاتِها هي خَيْرُ ألوانِ الحُكْمِ ، ومَنْ الذي يقول
إن الاستبداد أو الحكم المطلق الذي لا رِقْبَةَ عليه هو أفضلُ من الشورى
أَيَّاماً كان لوْنُهَا ! اللهم إلا رَجُلٌ أحقُّ مَأْفُونٍ ليس بثاقبِ الرأى ، وإذا كانت
الشورى لا تعرى من العيوب فأيُّن لا أين الخيرُ نَحْضاً والكمالُ صرفاً ...

(١) السليط : الزيت والمراد زيت المصباح

عقرياتهم في الوعظ

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ومما يتصل بهذا الباب عقرياتهم في الوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلنورد لك صديقاً من ذلك إن شاء الله

نهي من لم يتعظ عن الوعظ

قال رجلٌ لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : عِظْنِي وَأَوْجِزْ ، فقال :
تَوَقَّ مَا تَعِيبُ .

وجاء رجل إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنه فقال : إني أريد أن أعظ ، فقال : أَوَبَلَّغْتَ ذَلِكَ ؟ إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل ، قال : ما هي ؟ قال : قول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » وقوله تعالى : « وَأَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَوْنَ أَنْفُسَكُمْ » ، وقول العبد الصالح شُعَيْب « مَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنهَاجُ عَنْهُ » أَلَحَكَمْتَ هَذِهِ الْآيَاتِ ؟ قال : لا ، قال : فابدأ بإذن بنفسك .

وقال شاعر :

يَا وَادِظَ النَّاسِ قَدْ أَصْبَحْتَ مُتَّهِمًا إِذْ عِيبَتْ مِنْهُمْ أُمُورًا أَنْتَ تَأْتِيهَا
كُنْ كَمَا النَّاسُ مِنْ عُرْيٍ وَعَوْرَتُهُ لِلنَّاسِ بِأَدِيَّةٍ مَا إِنْ يُوَارِيهَا

حشهم على الوعظ بالفعال دون المقال

قال بعضهم : ليس الحكيم الذي يُلقِّنُكَ الْحِكْمَةَ تَلْقِينًا ، إنما الحكيم

الذى يعملُ القمَلُ الحكيمُ فتَقْتَدِي به .

وقال آخر ؛ أَخْذُ المرءِ نَفْسَهُ بِحُسْنِ الادبِ تَأْدِيبٌ لِأَهْلِهِ .

ومن هذا يقول محمود الوراق :

رَأَيْتُ صَلاَحَ المرءِ يُصْلِحُ أَهْلَهُ وَيُعْدِيهِمْ دَاءُ الفَسَادِ إِذَا قَسَدُ

التلطف واللين في الوعظ

تَقَدَّى رجل للرشيد فقال : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَغْظَ عَلَيْكَ فِي المَقَالِ ،
فهل أنت مُخْتَمِل ؟ قال : لا ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْسَلَ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْكَ إِلَى
مَنْ كَانَ شَرًّا مِنْي ، وَأَمَرَهُ بِاللَّيْنِ ، فَقَالَ تَعَالَى : « قُولُوا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ
يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ،

وقالوا : وَاجِبٌ مَنْ يَعِظُ أَنْ لَا يَعْنِفَ ، وَمَنْ يُوعِظُ أَنْ لَا يَأْتَفَ

الحث على الاعتاض

قالوا : السعيد من وُعِظَ بغيره وَالشَّقِيُّ من وُعِظَ به غيره . وقالوا :
مَنْ لَمْ يَتَعِظْ بغيره وَعَظَ اللهَ به غيره .

وعظ من لا يتعظ

قالوا : لَا يَنْجُحُ الوَعِظُ فِي اللُّوْبِ القَاسِيَةِ ، كَمَا لَا يَزْكُو البَسْدَرُ فِي
الْأَرْضِ الجَاسِيَةِ .

وقالوا : صَفَةُ لَكَ سَيْفًا لَيْسَ لَهُ سِنٌّ^(١) تَعَبٌ ، وَبَذْرُكَ أَرْضًا
سَبِيغَةً نَصَبٌ .

(١) السنخ : الأصل من كل شيء . تقول : رَجِعْ فُلَانٌ إِلَى سِنَخِهِ الكَرِيمِ وَإِلَى سِنَخِهِ الخَيْثِ

وقالوا : من استَشَقْل سماع الحق فهو للعمل به أَكْثَرُ استِثْقَالاً ...

حَثُّهم على قبول وعظ من ليس بمتعظ

قالوا : لَا يَمْنَعَنَّكُمْ سُوءُ مَا تَعْمَلُونَ عَنَّا أَنْ تَعْمَلُوا بِأَحْسَنِ مَا تَسْمَعُونَ مِنَّا .

وورد في الأثر : مُرُّوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ ، وَإِنْ هُوَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تَنْتَهُوا عَنْهُ :

وقال الحسنُ البَصْرِيُّ يوماً لبعض الصالحين : عِظْ أَصْحَابَكَ ، فقال له : إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَقُولَ مَا لَا أَفْعَلُ ، فقال له : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، وَأَيْنَا يَقُولُ مَا يَفْعَلُ ! يَوْذُ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ ظَفِيرَ بَهْزَةٍ مِنْكُمْ فَلَمْ يَأْمُرْ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَمْ يَنْهَ عَنْ مُنْكَرٍ ...

النهى عن الاقتداء بذوى الزلات

قال بعض العلماء : إِيَّاكَ وَالْاِقْتِدَاءَ بِزَلَّاتِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَقُولُ : فَلَانٌ شَرِبَ النَّبِيذَ ، وَفَلَانٌ سَمِعَ الْغِنَاءَ ، وَفَلَانٌ لَبَّ بِالْشَّطْرِ نَجْ فَيُخْرِجُكَ مِنْكَ فَاسِقٌ تَامٌ ... وقالوا : مَنْ أَخَذَ بِرُخْصَةٍ كُلِّ فَقِيهٍ خَرَجَ مِنْهُ فَاسِقٌ ...

الحث على الأمر بالمعروف والحال التي يجوز فيها

قال الله تعالى : « وَتَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »^(١)

(١) قال الإمام البيضاوى في تفسيره : مِنْ فِي مِنْكُمْ لِلتَّبْعِيضِ لِأَنَّ الْأَمْرَ

وقال سيدنا رسول الله : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا وَاسْتَطَاعَ أَنْ يُغَيِّرَهُ
بِيَدِهِ فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ
أَضْعَفُ الْإِيمَانِ .

وفى الأثر : إِنْ النَّاسُ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِهِ عَمَّهِمْ اللَّهُ
بِعِقَابِهِ .

وأما قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ
إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » فقد قال الإمام البيضاوى : قوله : عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، أى احفظوها
والزموا إصلاحها ، ولا يضرركم ... الآية : أى لا يضرُّكم الضلال إذا كنتم
مُهْتَدِينَ ، قال : ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته ، وقال : نزلت
هذه الآية لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة ويتمنون إيمانهم ، وقيل
كان الرجل إذا أسلم قالوا له : سَفَّهْتَ آبَاءَكَ ، فنزلت ،

وقال الراغب الأصبهاني : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
صلوات الله عليه : اتنعروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، وإذا رأيت
شُحًا مُطَاعًا وَهْوَى مُتَّبَعًا وَإِجَابَ كُلِّ امْرئٍ بِرَأْيِهِ فليك بخَوْصَتِهِ نَفْسِكَ

بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفائية ، ولأنه لا يصلح له كل أحد
إذ للتصدى له شروط لا يشترك فيها جميع الأمة ، كالعلم بالاحكام ومراتب
الاحتساب وكيفية إقامتها والتمكن من القيام بها ، خاطب الجميع وطلب فعل بعضهم
ليدل على أنه واجب على الكل حتى لو تركوه رأساً آمنوا جميعاً ، ولكن يسقط بفعل
بعضهم ، وهكذا كل ما هو فرض كفاية ثم قال : والدعاء إلى الخير يعم الدعاء إلى
ما فيه صلاح ديني أو دنيوي ، وعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه عطف
الخاص على العام للإيذان بفضله

وَدَعَ أَمْرَ الْعَوَامِ ^(١) ، ثُمَّ قَالَ الرَّاعِبُ : وَقَالَ أَكْثَرُ الْمُتَكَلِّمِينَ : لَا يَجُوزُ تَرْكُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالْتِمَاسُ مِنَ الْمُنْكَرِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ ، لَكِنْ مَنْ عِلْمُ أَوْظُنَّ أَنَّ قَوْلَهُ يَنْفَعُ وَأَنْ لَا يَنَالَهُ مَكْرُوهُ إِذَا أَمَرَ أَوْ نَهَى فَعَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ ، وَمَنْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ فَعَلَيْهِ أَنْ يُنْكَرَ الْمُنْكَرَ بِقَلْبِهِ دُونَ لِسَانِهِ ...

(١) خويصة : تصغير خاصة بسكون الياء لأن ياء التصغير لا تكون إلا ساكنة وجوز النقاء الساكنين فيما أن الأول حرف لين والثاني مدغم ، وعليك بخويصة نفسك : جاهد نفسك وانكش في الأعمال الصالحة ، ثُمَّ قَالَ : وَدَعَ أَمْرَ الْعَوَامِ يريد : دَعَ السَّوَادَ الْأَعْظَمَ فِيمَا هُمْ فِيهِ سَادِرُونَ

الباب الخامس

في

الحلم وكظم الغيظ

والعفو والغضب والانتقام

وما إلى هذه المعاني

والحلم كذلك لونٌ من ألوان الصبر، أليس هو تجرّع الغيظ أو إمساك النفس عن ثورة الغضب وهيجته وانبعائه ؛ وهو فضيلة عليا ما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم^(١) ومن كلام الثبوة : كادَ الحليم أن يكون نبياً . وهو نتاج العقل والآناة ، أو قول : إنه هما . قال عز وجل يَذُمُّ الْكُفَّارَ مُتَعَجِّبًا مِنْهُمْ : « أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا » ، وسأل علي رضي الله عنه كبير فارس عن الغالب كان على كسرى أنو شروان ؛ قال : الحلم والآناة ، قال : هما توأمان يذتجهما علو الهمة وقال الشاعر :

لَنْ يُدْرِكَ الْمَجْدَ أَقْوَامٌ وَإِنْ كَرُمُوا

حَتَّى يَذِلُّوا — وَإِنْ عَزُّوا — لَا اقْوَامَ

وَيُشْتَمُّوا فَتَرَى الْأَلْوَانَ مُسْفِرَةً لَا صَفْحَ ذَلِكَ وَلَكِنْ صَفْحَ أَخْلَامٍ^(٢)

(١) آية كريمة هي : « وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقَاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ »

(٢) مسفرة : مشرقة مضيئة سرورا

قالوا : ولن يَمَّ حِلْمُ الإنسانِ إلا بِإِمْسَاكِ الجوارحِ كُلِّهَا : اليدِ عن البطشِ ، واللسانِ عن الفحشِ ، والعينِ عن النظرِ الشَّوَرِ ، وأقربُ لفظٍ يقابلُ الحِلْمَ هو التَّدْمُرُ . وقال أبو هلالٍ العسكري : وَمِنْ أَشْرَفِ نُعُوتِ الإنسانِ أَنْ يُدْعَى حَلِيمًا ، لِأَنَّهُ لَا يُدْعَاهُ حَتَّى يَكُونَ عَاقِلًا وَعَالِمًا وَمُضْطَبِّرًا وَعَفْوًا وَصَاحِفًا وَمَحْتَمَلًا وَكَاطِمًا ، وَهَذِهِ شَرَائِفُ الْأَخْلَاقِ وَكَرَامُ السَّجَايَا وَالْخِصَالِ .

والحلمُ : منه ماهو غريزى ، وهو هبةٌ من الله لعبده يَنْفُو عَنْ ظَلَمِهِ ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ ، وَيُحْسِنُ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ ، يَصْدُرُ فِي ذَلِكَ عَنْ نَحِيْزَةِ كَرِيْمَةٍ وَغَرِيْزَةِ سَالِمَةٍ وَصَدْرٍ سَالِمٍ مِنَ الْغَوَائِلِ وَالْأَذَى ، صَافٍ مِنْ شَوَائِبِ الْكَدْرِ وَالْقَدَى ، وَهَذَا هُوَ الْحِلْمُ الَّذِى لَا يُسْتَطَاعُ تَعْلَمُهُ وَلَا يُكْتَسَبُ تَحْلِمًا :

وَإِذَا الْحِلْمُ لَمْ يَكُنْ فِي طِبَاعِ لَمْ يُحْلَمْ تَقَادُمُ الْمِيلَادِ [المتنبى]
رَوَى أَنَّ سَيِّدَنَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَا شَيْءَ عَبْدَ الْقَيْسِ : يَا أَبَا الْمُنْذِرِ ، إِنَّ
فِيكَ تَحْصُلَتَيْنِ يَرْضَاهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ : الْحِلْمُ وَالْإِنَانَةُ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
أَشْيءٌ جَبَلَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْ شَيْءٌ اخْتَرَعْتُهُ مِنْ قِبَلِ نَفْسِي ؟ قَالَ : « بَلْ شَيْءٌ
جَبَلَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى جَبَلَنِي عَلَى خُلُقٍ يَرْضَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ .
وَهُنَاكَ مِنْ يَقُولُ : إِنَّ الْحِلْمَ لَيْسَ غَرِيْزَةً وَلَا طَبِيعَةً بَلْ مُكْتَسَبٌ
مُسْتَفَادٌ ، وَأَيُّمَا كَانَ الْحَالُ فَلَيْسَ مِنْ يُسَكِّرُ أَنَّ مِنَ الْحِلْمِ مَا هُوَ غَرِيْزِيٌّ كَمَا قُلْنَا ،
كَمَا أَنَّ هُنَاكَ حِلْمًا يُكْتَسَبُ بِالتَّحْلِمِ كَمَا أَنَّ الْعِلْمَ بِالْعِلْمِ بِالْعِلْمِ

قال حاتم :

تَحْلِمُ عَنِ الْأَذْنَيْنِ وَاسْتَبَقِي وَدَّهْمُ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْحِلْمَ حَتَّى تَحْلِمِي
يُرَوِّى أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ جَعْفَرِ الصَّادِقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَبْدٌ سَعَى الْخُلُقِ ،
فَقِيلَ لَهُ : أَمَا تَأْتَفُ مِثْلَ هَذَا عِنْدَكَ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَى الْإِسْتِبْدَالِ بِهِ ؟ فَقَالَ :

إنما أتركه لا تعلم عليه الحلم...

وقال الشاعر:

وليس يتمُّ الحلمُ للردِّ راضياً إذا هو عند السُّخطِ لم يتعلم
كما لا يتمُّ الجودُ للردِّ مؤبراً إذا هو عند القترِ لم يتحشم
[يتحشم: يتندم ويستحي]

وهناك حلمٌ حادثٌ عن السَّكْبَرِ والعَجْرَةِ، لا يرى المُسَيءُ أهلاً أن
يُجارِيه، كما أن هناك حلمٌ هَانَةٌ وذِلَّةٌ وعِزٌّ وَضَعْفٌ نفسٍ وصِغَرٌ هَمَّةٍ

الممدوح بالحلم وتمدحهم به

قال مِهْيَارُ الدَّيْلِيِّ:

وإذا الإباءُ المرُّ قال لك: انتقم قالت خلائقُكَ الكرامُ: بل آحلم
شَرُّعٌ من العَفْوِ انْفَرَدَتْ بدينه وفضيلةُ إِسْوَاكٍ لم تتقدَّم
حتى لقد ودَّ البريءُ لو أنه أدلى إليك بفضلٍ جاء المجرم
وقال بعضهم:

فدَّهَرُهُ يَصْفَحُ عن قُدْرَةٍ وَيَغْفِرُ الذَّنْبَ على عِلْمِهِ
كأنه يَأْتِفُ من أن يرى ذَنْبَ امرئٍ أعظمَ من حِلْمِهِ

وقال المتنبي:

وأحلمُ عن خِلِّي وأعلمُ أنه متى أجزه حِلْماً على الجَهِلِ يندم
وقال سالم بن وابصة^(١):

(١) شاعر إسلامي تابعي، وهو صاحب هذه الأبيات: - وهي من أبيات الحامسة
أحبُّ الفتي يَنْفِي الفواحشَ سَمْعُهُ كأنَّ به عن كلِّ فاحشةٍ وقراً

وَيَرْبٍ مِنْ مَوَالِي السُّوءِ ذِي حَسَدٍ يَنْتَاتُ لِحْمِي وَمَا يَشْفِيهِ مِنْ قَرَمٍ ^(١)
 دَارَيْتُ صَدْرًا طَوِيلًا غِمْرُهُ حَقْدًا مِنْهُ وَقَلَّمْتُ أَظْفَارًا بِلَا جَلَمٍ ^(٢)
 بِالْحَزْمِ وَالْخَيْرِ أَسْدِيهِ وَالْحِمَةُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَمَا لَمْ يَرْعَ مِنْ رَحِمٍ ^(٣)
 فَأَصْبَحَتْ قَوْسُهُ دُونِي مُوْتَرَةً تَرْجِي عَدُوِّي جِهَارًا غَيْرَ مُسْكَنَةٍ ^(٤)
 وَإِنَّ فِي الْحِلْمِ ذُلًّا أَنْتَ عَارِفُهُ وَالْحِلْمُ عَنْ قُدْرَةٍ فَضْلٌ مِنَ الْكَرَمِ
 وَقَالَ بَعْنُ بْنُ أَوْسٍ الْعُمَرِيُّ: ^(٥)

وَذِي رَحِمٍ قَلَّمْتُ أَظْفَارَ ضَغْنِهِ بِحِلْمِي عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ

سَلِمٌ دَوَاعِي الصَّدْرِ لَا بِاسْطِمًا أَذَى وَلَا مَانِعًا خَيْرًا وَلَا قَاتِلًا هُجْرًا
 إِذَا شِئْتَ أَنْ تُدْعَى كَرِيمًا مُكْرَمًا أَدِيًّا ظَرِيفًا عَاقِلًا مَاجِدًا حُرًا
 إِذَا مَا أَنْتَ مِنْ صَاحِبٍ لَكَ زَلَّةٌ فَكُنْ أَنْتَ مُحْتَالًا لِرِزْلَتِهِ عُدْرًا
 غِنَى النَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ خَنَةٍ فَإِنْ زَادَ شَيْئًا عَادَ ذَاكَ الْغِنَى فَقَرًا

(١) الزيرب: الشر والنيمة، أراد: وذى نيرب، والقرم: شدة الشهوة إلى اللحم
 يقول: رب ذى نيرب حسود من موالى السوء يقتابنى ويأكل لحى ولا يشفيه ذلك
 من قرم، ويقتات: يفتعل من القوت.

(٢) الغمر: الحقد والغل، والجلم: أحد شقي المقرض وإنما هما جلمان يقول:
 صابرة على مداجاته وانطوائه على حقدى فدفعت شره عن نفسى بطول مداراتى.
 وحقدا: أى حاقدا وداويت صدره: أى مكنون صدره

(٣) بالحزم متعلق بداويت أو قلت وقوله: تقوى الإله يرجع إلى أسديه، وما
 لم يرع من رحم: يرجع إلى ألحه

(٤) يقول: ما زلت أتلطف وأصلح الأمر الفاسد بالرفق قليلا قليلا حتى صار
 يقاتل عدوى مجاهرة بعد أن كان يعادبنى مكاشرة

(٥) شاعر دخل من مخضرمى الجاهلية والإسلام وأبياته هذه من أبيات له طوييلة

نراها فى الامالى ج ٢

يُحَاوِلُ رَغْمِي لَا يُحَاوِلُ غَيْرَهُ وَكَلِمَاتٍ عِنْدِي أَنْ يُحَلَّ بِهِ الرَّغْمُ^(١)
 وَيَشْتِمُ عِرْضِي فِي الْمَغِيبِ جَاهِدًا وَلَيْسَ لَهُ عِنْدِي هَوَانٌ وَلَا شَتْمٌ
 إِذَا شَتَّمْتُهُ وَضَلَّ الْقَرَابَةَ سَانِي قَطِيعَتَهَا ، تِلْكَ السَّفَاهَةُ وَالْإِثْمُ
 فَمَا زِلْتُ فِي لَيْسِي لَهُ وَتَعْطَانِي عَلَيْهِ كَمَا تَحْنُو عَلَى الْوَلَدِ الْأَثْمُ
 وَصَبْرِي عَلَى أَشْيَاءَ مِنْهُ تَرِيْبُنِي

وَكَظَمِي عَلَى غَمَظِي وَقَدْ يَنْفَعُ الْكَظْمُ^(٢)
 لَا أَسْتَلُّ مِنْهُ الضَّغْنَ حَتَّى اسْتَلْتُهُ وَقَدْ كَانَ ذَا ضِغْنٍ يَضِيقُ بِهِ الْحَزْمُ
 فِدَاوَيْتُهُ حَتَّى ارْفَأْتُ نِفَارُهُ نَعُدْنَا كَأَنَّا لَمْ يَكُنْ يَبْنَا صَرْمُ^(٣)
 وَأَطْفَأْتُ نَارَ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَصْبَحَ بَعْدَ الْحَرْبِ وَهُوَ لَنَا سَلْمُ
 وَقَالَ شَاعِرٌ :

لَقَدْ أَسْمَعُ الْقَوْلَ الَّذِي هُوَ كَلَامُ تُذَكِّرُنِيهِ النَّفْسُ قَلْبِي يُصَدِّعُ
 فَأُبْدِي لِمَنْ أَبْدَاهُ مِنِّي بِشَاشَةً كَأَنِّي مُسْرُورٌ بِمَا مِنْهُ أَسْمَعُ
 وَمَا ذَاكَ مِنْ عَجْزٍ بِهِ غَيْرَ أَنِّي أَرَى أَنْ تَرِكَ الشَّرَّ لِلشَّرِّ أَدْفَعُ

فضل كظم الغيظ

يقال : كَظَمَ الرَّجُلُ غَيْظَهُ يَكْظِمُهُ كَظْمًا : رَدَّهُ وَحَبَسَهُ وَتَجَرَّعَهُ . قَالَ تَبَالِي :
 « الرَّكَاطِمِينَ الْغَيْظَ » قَالَ بَعْضُ اللُّغَوِيِّينَ : يَعْنِي أَعَدَّتِ الْجَنَّةُ لِلَّذِينَ جَرَى
 ذِكْرُهُمُ وَلِلَّذِينَ يَكْظِمُونَ الْغَيْظَ ،

(١) الرغْم : الذل والقسر

(٢) رابه فلان وأرابه : إذا رأى منه ما يكره

(٣) ارفأت : سكن مأخوذ من رفا الثوب : لام خرقه وضم بعضه إلى بعض

وفي الحديث : « مامن جُرعة يتجرعها الإنسان أعظم أجراً من جُرعة غيظ في الله عز وجل ،

وقالوا : الكظم يدفع محذور الندم ، كالماء يطفئ حرَّ الضرم وقال بعضهم : كظم يتردد في خلق أحب إلى من نقص أجدّه في خلقه .

وقال : * وأفضل حلم حَسْبَة حلم مغضب *
وقال معاوية : ما وجدت لذة هي عندي ألد من غيظ أتجرعه وسفه بحلم أقمعه . وقال لابنه يزيد : عليك بالحلم والاحتمال حتى تُمكنك الفرصة إذا أمكنتك فليك بالصّبح ، فإنه يدفع عنك مفضلات الأمور ، ويبقي مزارع المحذور .

الغضب وألوانه

وما يسكن به ثورانه

قال الراغب : مثل الغضب مثل نارٍ ما يشتعل ، والناس فيه مختلفون ، فيه ضُهم كالخلفاء^(١) سريع الوقود سريع الخُود ، وبعضهم كالغضا^(٢) بطيء الوقود بطيء الخُود ، وبعضهم سريع الوقود بطيء الخُود ، وبعضهم على العكس من ذلك ، وهو أحمدهم ، ما لم يؤد به ذلك إلى زوال حِمِيته ، وفقدان غِيْرته . واختلاف الناس في الغضب قد يكون مرثه اختلاف الأمزجة ، وقد يكون

(١) الخلفاء : نبت أطرافه محددة كأنها سعف النخل والخص : ينبت في مغايض المياه .

(٢) الغضا : شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب وجره يبق زمناً طويلاً لا يطفئ الواحدة منه غصاة .

العادة ، إذ من الناس من اعتاد السكون والهدوء من جرّاء إلفه الذلّ والانقياد والاستخذاء ، ومنهم من تعود الطيش والانزعاج فيحتد من أدنى ما يلمّ به ، مثله مثل كلب يسمع صوتاً فينبح قبل أن يعرف مصدره : وأكثر الناس غضباً الصبيان والنساء ، وأكثرهم ضجراً الشيوخ ، وأجل الناس شجاعة وأفضلهم مجاهدة وأعظمهم قوة من كظم الغيظ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ، ومرّ صلوات الله عليه بقوم يرفعون حجراً فقال : (ألا أخبركم بأشدكم ؟ : من ملك نفسه عند الغضب) واعلم أن نار الغضب متى كانت عنيفة تاججت واضطربت واحتدّ غليان الدم في القلب وابتلات الشرايين والدماغ دخاناً مظلماً يسوء منه حال العقل ويضعف فعله ، وكما أن الكهف الضيق إذا امتلأ حريقاً واختنق فيه اللهب والدخان وعلا الأجيح صعب علاجه وإطفائه ، وصار كل ما يدنو منه مادة لقوته ، كذلك النفس إذا اشتعلت غضباً غميت عن الرشيد وصمتت عن الموعظة حتى تصير المواقف مادة لغضبها ، وربما أدى الغضب إلى تلف ، وهو اختناق الحرارة في القلب الأمر الذي قد يكون سبباً لأمراض مستعصية تؤدي إلى التلف ؛ ثم قال وحق من يعتربه الغضب أن يفكر ، فإن كان المغضوب عليه تحت يده فلا معنى لاستشاطته ؛ إذ هو متمكن من الانتقام منه مع سكون الجأش ، وإن كان غضبه على من لا سبيل إليه فلا معنى لتعذيبه نفسه في الوقت وإنما الأخلق به أن يصبر حتى يتمكن منه ثم يفعل الواجب ، قال حكيم : سدّ طريق الغضب قبل تلهب ناره في لحيك وديك فإنك إن لم تطفئ نار الغضب

قبل انتشارها صُعب عليك إطفائها بعد أن تنتشر . وقال بعض الملوك
الحكيم : كيف لي أن لا أغضب ؟ فقال : بأن تكون كل وقت ذا كراً أنه
يجب أن تُطيع لأن تُطاع فقط ، وأن تُخدم لا أن تُخدم فقط ، وأن
تتحقق أن الله تعالى يراك دائماً ، فإذا فدات ذلك لم تغضب وإن غضبت
غضبت قليلاً ...

وقالوا : مَنْ غَضِبَ قائماً فَعَدَّ سَكَنَ غَضَبُهُ ، وإن كان قاعداً
فاضطجع سَكَنَ .

وكانت العرب تقول : إِنَّ الرَّيْثَةَ تَنْفُشُ الغَضِبَ : « الرَيْثَةُ : اللبنُ الحامضُ
يُصَبُّ عليه الحليب ، وهو أطيبُ اللبن ، وَتَفْشُ الغَضِبَ : تُسَكِّنُهُ وَتَكْسِرُ حِدَّتَهُ ،
وخطب معاوية يوماً فقال له رجلٌ : كَذَبْتَ ، فَنَزَلَ مُغَضِّباً ، فدخل
منزله ، ثم خرج عليهم تَقَطَّرُ لَحِيَّتُهُ ماءً ، فصعد المنبر فقال : أيها الناس ، إن
الغضبَ من الشيطان ، وإن الشيطانَ من النار ، فإذا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيُطْفِئْهُ
بِالماءِ : ثم أخذ في الموضع الذي بلغه من خُطْبَتِهِ .

وفي الحديث : إن الغضبَ جَرَّةٌ تُوقَدُ في جَوْفِ ابنِ آدَمَ ، ألم تروا إلى
حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وانتفاخِ أوداجِهِ ...

من اجتهد في إغضابه فلم

خَاطَرَ رجلٌ آخرٌ ^(١) على أن يُغَضِبَ الأحنفَ بنَ قيسٍ ، فجاءه فخطب
إليه أمه ، فقال : لَسْنَا نَرُدُّكَ انتقاماً لِحَسَبِكَ ، وَلَا قِلَّةَ رَغْبَةٍ فِي مُصَاهَرَتِكَ
ولكنها امرأةٌ قد علا سِنُّها ، وأنت تحتاج إلى امرأةٍ ولودٍ ودودٍ تأخذُ من
خُلُقِكَ ، وَتَسْتَعِمِدُ من أدَبِكَ ؛ أَرَجِعْ إلى قومِكَ وأخِصِرْهم أنك لم تُغَضِبْنِي .

(١) يقال : خاطره على الأمر : راهنه عليه .

وخطب آخر إلى معاوية أمه : فقال : ما الذى رَغَبَكَ فيها وهى عجوز ؟ فقال : إنها عجوز عنائمه العُجْز ! فقال : لعلك خاطرت على أن تُنْضِبَ سَيِّدَ بنى تميم ؟ قال : نعم ، قال : أَرْجِعْ فليست به .

وَشَتَمَ رَجُلٌ الْأَخْنَفَ وَالْحَّ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا فَرَّغَ قَالَ لَهُ : يَا بَنَ أَخِي ، هَلْ لَكَ فِي الْغَدَاءِ ؟ فَإِنَّكَ مِنْذُ الْيَوْمِ تَحْدُو بِجَمَلٍ فَقَالَ ... « النَّفَالُ : الْبَطْلَى الثَّقِيلُ الَّذِي لَا يَنْبَغُ إِلَّا كَرْهًا »

وَرَوَى أَنَّ رَجُلًا خَاطَرَ آخَرَ عَلَى أَنْ يَقُومَ إِلَى مُعَاوِيَةَ إِذَا سَجَدَ فَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى كَفْلِهِ وَيَقُولُ : سُبْحَانَ اللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! مَا أَشْبَهَ عَجِيزَتَكَ بِعَجِيزَةِ أُمِّكَ هِنْدَ ! فَفَعَلَ ذَلِكَ ، فَلَمَّا انْقَضَتْ مُعَاوِيَةُ عَنْ صَلَاتِهِ قَالَ لَهُ : يَا أَخِي ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى ذَلِكَ مِنْهَا ؛ فَخَذَ مَا جَمَعُوهُ لَكَ ، فَأَخَذَهُ ثُمَّ خَاطَرَهُ آخَرُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَقُومَ إِلَى زِيَادٍ وَهُوَ فِي الْخُطْبَةِ فَيَقُولُ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ مَنْ أُمِّكَ ؟ فَفَعَلَ ؛ فَقَالَ زِيَادُ : هَذَا يُخْبِرُكَ — وَأَشَارَ إِلَى صَاحِبِ الشَّرْطَةِ — فَقَدَّمَهُ وَضَرَبَ عُنُقَهُ ، فَلَمَّا بَاغَى ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ قَالَ : مَا قَتَلَهُ غَيْرِي ، وَارْأَوْا أَدَبَتَهُ عَلَى الْأَوَّلَى مَا عَادَ إِلَى الثَّانِيَةِ ...

وَقِيلَ لِلْأَخْنَفِ : مِمَّنْ أَعْلَمْتَ الْحِلْمَ ؟ قَالَ : مِنْ قَيْسِ بْنِ عَاصِمِ الْعِنْقَرِيِّ ، رَأَيْتُهُ قَاعِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ مُحْتَبِيًا بِجَاهِلٍ سَيْفِهِ يُحَدِّثُ قَوْمَهُ ، حَتَّى أَتَى بِمَكْتُوفٍ وَرَجُلٍ مَقْتُولٍ ، فَقِيلَ لَهُ : هَذَا ابْنُ أَخِيكَ قَتَلَ ابْنَكَ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا حَلَّ حُبُّوْتَهُ وَلَا قَطَعَ كَلَامُهُ ، ثُمَّ التَفْتُ إِلَى ابْنِ أَخِيهِ فَقَالَ : يَا ابْنَ أَخِي أَتَمَتَ بِرَبِّكَ ، وَرَمَيْتَ نَفْسَكَ بِسَهْمِكَ ، وَقَتَلْتَ ابْنَ عَمِّكَ ؛ ثُمَّ قَالَ لِابْنِ لَهُ آخِرُ : قُمْ يَا بَنِي فَوَارِ أَخَاكَ وَحُلِّ كِتَافِ ابْنِ عَمِّكَ وَسُقِ إِلَى أُمِّكَ

مائة ناقة دية ابنها فإنها غريبة ، ثم اتكأ على شقه الأيسر وقال :

إِنِّي أَمْرُو لَا يَعْتَرِي خُلُقِي دَأْسٌ يُفْنِدُهُ وَلَا أَفْنُ (١)

مِنْ مَنَقَرٍ فِي بَيْتٍ مَكْرُمَةٍ وَالْفَرْعُ يَنْبُتُ فَوْقَهُ الْغَضَنُ

حُطْبَاءُ حِينَ يَقُولُ قَاتِلُهُمْ يَبِضُ الْوَجُوهَ أَعْقَةُ لُسنُ

لَا يَفْطِنُونَ لِعَيْبٍ جَارِهِمْ وَهُمْوَا لِحَفْظِ جَوَارِهِ فُطْنُ

وَأَسْمَعُ رَجُلٌ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بَعْضَ مَا يَكْرَهُ ، فقال : لا عليك

إنما أردت أن يستغزني الشيطان بعز السلطان فأنا لك منك اليوم ما تاله

مَنْ غَدًا ، انصرف إذا شئت ...

وأمر محمد بن سليمان برجل أن يطرح من القصر كان قد غضب

عليه فقال الرجل : آتني الله ، فقال : خلوا سبيله ، فإني كرهت أن أكون

من الذين قال الله فيهم : « وَإِذَا قِيلَ لَهُ آتَنِي اللَّهُ أَخَذَتُ الْعِزَّةَ بِالْإِثْمِ » ،

حشهم على ترك الغضب

المؤدى إلى الاعتذار

قال حكيم : إياك وعِزَّة الغضب فإنها تصير بك إلى ذلِّ الاعتذار

وقال شاعر :

مَتَى تُرِيدَ الشَّمَاءَ لِسُكُلٍ غِيْظٍ تَمَكَّنْ مَا يَغِيْظُكَ فِيْ اَزْدِيَادِ

(١) وروى هذا البيت أيضاً هكذا :

إِنِّي أَمْرُو لَا يَطْبِي حَسْبِي دَأْسٌ يُهْجِنُهُ وَلَا أَفْنُ

اطباء : دعاه ، والأفن : النقص ، ويفنده : يكذبه

حَثُّهُمْ عَلَى التَّصَامُمِ عَنِ الْقَبِيحِ

وَتَعْدُحُهُمْ بِذَلِكَ

قال المهلب بن أبي صفرة : إذا سمع أحدكم العوراء فليطأطأ لها
تَنَخَّطَاهُ ... « العوراء : الكلمة القبيحة أو الفعلَةُ القبيحة : ويقال للكلمة
القبيحة عوراء ، وللکلمة الحسنة عينا ، قال الشاعر :
وعوراء جاءت من آخر فرددتها بِسَالِمَةِ الْعَيْنَيْنِ طَالِبَةً عُذْرًا
« بسالة العينين : أى بكلمة حسنة لم تكن عوراء ، وعورانُ الكلام :
ما تنفيه الأذن قال :

وعوراء قد قيلت فلم أستمع لها وما السكلمُ العورانُ لي بقول^(١)
وقال حاتم طي :

وَأَغْفِرُ عَوْرَاءَ الْكَرِيمِ إِذَا جَارَهُ وَأَعْرِضُ عَنْ شَمِّ الْلَّيْمِ تَكْرُمًا^(٢)
وقال ابن علقمة الفزاري من أبيات يمدح بها ابن عمه عميلة :
إِذَا قِيلَتْ الْعَوْرَاءُ أَغْضَى كَأَنَّهُ ذَلِيلٌ بِلا ذَلٍ وَلَوْ شَاءَ لَانْتَصَرَ
وقد تقدم هذا البيت مع أبيات أخرى له جميلة .

حَثُّهُمْ عَلَى الْعَفْوِ مطلقاً

قال الله جل شأنه : « وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ،
والله غفور رحيم » ، وقال سبحانه : « مَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » ،

(١) وصف الكلام بالعوران لانه جمع وأخبر عنه بالقتول وهو واحد لان الكلام
يذكر ويؤنث وكذلك كل جمع لا يفارق واحده إلا بالهاء
(٢) اذخاره : أى لا ذخاره

وقال عزّ وتقدّس : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » ، وقال تعالى
لِنَبِيِّهِ : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ... « خُذِ
الْعَفْوَ ، فالعفو : السهل الميسّر والمعنى : احْتَمِلْ أَخْلَاقَ النَّاسِ وَاقْبَلْ مِنْهَا
مَا سَهْلٌ وَتيسّر ولا تستقص عليهم فيستقصي الله عليك مع ما فيه من
العداوة والبغضاء ، أقول : ولما حقّق سيدنا رسول الله ما أدبه الله به قال
سبحانه في حقّه : (وإنك لعلّى خُلّاني عظيم) »

وقال الأحنف بن قيس : إياك وحيّة الأورغاد ، قيل : وما حيّتهم
قال : يرون العفو مغرماً والتّحمل مغمماً ... « التحمل ههنا : الغضب وقد
جاء في بعض الروايات بدل التحمل : والبخل »

وقيل لبعضهم : هل لك في الإنصاف أو ما هو خير من الإنصاف ؟
فقال : وما هو خير من الإنصاف ؟ قال : العفو ...

وقالوا : العفو زكاة النفس

وقالوا العفو عن المذنب من واجبات الكرم ...
وقالوا : لَذَّةُ الْعَفْوِ أَطْيَبُ مِنْ لَذَّةِ التَّشْقِي ؛ لأن لذة العفو يلحقها حُذُ
الماقبّة ، وَلَذَّةُ التَّشْقِي يُلْحَقُهَا ذُمُّ النِّدَمِ ... وقال الشاعر وقد نظم هذا المعنى :
لَذَّةُ الْعَفْوِ إِنْ نَظَرْتَ بَيْنَ الْـ حَذْلِ أَشَقِّ مِنْ لَذَّةِ الْإِنْتِقَامِ
هَذِهِ تَكْسِبُ الْحَامِدَ وَالْأَجْدَرُ وَهَذِهِ تَجِيءُ بِالْآثَامِ

التحمل عن الخدم

نظر معاوية إلى ابنه يزيد وهو يضرب غلاماً له ، فقال له : اُنْفِسْ
أدبك بأذنيه ! فلم يرَ ضارباً غلاماً له بعد ذلك .

وقيل ليجي بن خالد البرمكي : إنك لا تؤدّب غلمانك ولا تضربهم !
قال : هم أمثاؤنا على أنفسنا فإذا نحن أخفناهم فكيف نأتمهم !

الرحمة ومدح ذويها

قالوا من كَرَّم أَصْلَهُ لَانَ قَلْبُهُ

وقالوا : من أمارات الكرم : الرحمة ، ومن أمارات اللؤم : القسوة
« الكرم نقيض اللؤم »

وفي الحديث الشريف « اَرْحَمْ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكَ مَنْ فِي السَّمَاءِ »
وفيه أيضاً « لَا تُنْزِعِ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ قَلْبٍ شَقِيٍّ »

أما من دَمَّ الرحمة ونعاها على أهلها مثل الوزير محمد بن عبد الملك
الزيات إذ يقول : الرحمة حَوْرٌ فِي الطَّبِيعَةِ ، ومثل غيره من فلاسفة هذا
الجيل كالفيلسوف نيتشه وَمَنْ عَلَى شَاكَاةٍ فَأُولَئِكَ إِنَّمَا يَتَرَامُونَ إِلَى
أَهْدَافٍ أُخْرَى ، وإلى مدح القُوَّة في مواضعها ، وهذه سوف تمر عليك
عقربانهم فيها .

ما يستحسن فيه الحلم من الكبار

وما يُسْتَقْبَح

أغلظ رجلٌ لمعاويةَ فَحَلَمَ عَنْهُ ، فقليل له : تحلّم عن هذا ! فقال : إني
لا أحولُ بين الناس وبين أَسْتِثْمِهِمْ ما لم يحولوا بيننا وبين سُلْطَانِنَا ... وقال
المأمون : يحملُ الحلمُ بالملوك إلا في ثلاثة مواضع ، مُذْبِعٍ لِيَتْرَ ، ومُتَعَرِّضٍ
لِلْحَرَمِ ، وقَادِحٍ فِي مُلْكِهِ ... « حُرِّمَ الرَّجُلُ : عِيَالُهُ وَنَسَاؤُهُ وَمَا يَحْمِيهِ »

وقال السفاح: الحِلْمُ يَحْسُنُ إِلَّا مَا أَوْضَعَ الدِّينَ وَالسُّلْطَانُ .

حُثُّهُمْ عَلَى دَرْءِ الْحُدُودِ

فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : « أَذْرُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ ، وَأَنْفِلُوا الْكِرَامَ عَثَرَاتِهِمْ ، وَإِنَّ الْإِمَامَ لَأَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ ، « اذْرُوا : اَدْفَعُوا ، وَالْحُدُودُ جَمْعُ حَدٍّ ، وَهُوَ لُغَةٌ ، الْمَنْعُ وَشَرْعًا : الْعُقُوبَةُ الَّتِي جَعَلَتْ لِمَنْ يَقْتَرِفْ مَانِئًا عَنْهُ كَحَدِّ السَّارِقِ ، وَهُوَ قَطْعُ يَمِينِهِ فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا ، وَحَدِّ الزَّانِي الْبَكَرِ وَهُوَ جُلْدُهُ مِائَةً وَتَغْرِيبُهُ عَامًا ، وَحَدِّ الْمُحْصَنِ إِذَا زَنَى ، وَهُوَ الرِّجْمُ ، سَمِيَتْ حُدُودًا لِأَنَّهَا تُحَدُّ : أَيْ تَمْنَعُ مِنْ إِتْيَانِ مَا جَعَلَتْ عُقُوبَاتِ فِيهَا ^(١) ، وَالشُّبُهَاتُ جَمْعُ شُبْهَةٍ وَهِيَ الْإِلْتِبَاسُ يَقَالُ : تَشَابَهَتِ الْأُمُورُ وَاشْتَبَهَتْ ، أَيْ التَّبَسُّتُ لَاشْتِبَاهِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، وَالْعَثَرَاتُ : الزَّلَّاتُ وَالْكَرَامُ : خِيَارُ النَّاسِ وَوَجْهُهُمْ حَسَبًا وَنَسَبًا وَعِلْمًا وَدِينًا وَصَلَاحًا ، وَمَعْنَى أَقْبَلُوا عَثَرَاتِهِمْ : لَا تَعَاقِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَلَا تَوَاخِذُوهُمْ بِهَا ، إِلَّا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا تَجُوزُ إِقَالَتُهُمْ فِيهِ إِذَا ثَبَتَ عِنْدَ الْإِمَامِ وَخَلَا عَنِ الشُّبْهَةِ وَلَمْ يَجِدْ إِلَى دَفْعِهِ سَبِيلًا ، وَمَعْنَى اذْرُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ : اَعْمَلُوا مَا وَجَدْتُمْ السَّبِيلَ عَلَى أَنْ لَا تَقِيمُوا الْعُقُوبَةَ عَلَى مُسْلِمٍ إِلَّا بِأَمْرٍ مُتَبَيِّنٍ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ التَّأْوِيلُ .

حَثُّ الْقَادِرِ عَلَى الْعَفْوِ

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : إِذَا مَلَكَتْ فَاسَّجِحْ » قَالَتْ ذَلِكَ لَعَلَّ

(١) وَتَطْلُقُ الْحُدُودُ وَبِرَادِهَا الْمَعَاصِي قَالَ تَعَالَى : وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرِبُوهَا . .

ابن أبي طالب رضى الله عنه يومَ الجمَل حين ظهر على الناس فدنا من هَوْدَجِهَا ثم كلمها بكلام ، فأجابته : ملكت فأَسْجِج ، أى ظَفِرْتَ فَأَحْسِنْ وَقَدَّرْتَ فَسَهِّلْ وَأَحْسِنِ الْعَفْوَ ، فجَهِزَها عند ذلك بأحسنِ الجَهازِ إلى المدينة فالإِسْجَاح : حُسْنُ الْعَفْوَ ،

ومن كلمة لعل رضى الله عنه : إِذَا قَدَّرْتَ عَلَى الْعَدُوِّ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ شُكْرَ قَدَّرْتَكَ .

وقالوا : الْمُقَدِّرَةُ تُذْهَبُ الْحَفِيزَةُ « الحَفِيزَةُ : النَضْبُ ، وقولهم : إِنَّا الْحَفَائِظُ تَذْهَبُ الْإِحْقَادُ فَمَعْنَاهُ : إِذَا رَأَيْتَ حِمِيكَ يُظْلَمُ حِمِيَّتَ لَهُ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ فِي قَلْبِكَ حِقْدٌ ... وَظَفِرَ الْإِسْكَندَرُ الْمُقَدُونِيَّ بِيَعِضِ الْمُلُوكِ ، فَقَالَ لَهُ : مَا أَصْنَعُ بِكَ ؟ قَالَ : مَا يَحْمِلُ بِالْكَرَامِ أَنْ يَصْنَعُوهُ إِذَا ظَفَرُوا ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ وَرَدَّهُ إِلَى مَمْلَكَتِهِ .

ولما ظَفِرَ أَنُو شُرَوَانَ بِبُزُرْ جُجَهَرَ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْفَرَني بِكَ ، فقال : كَافِيَ مِنْ أَعْطَاكَ مَا تُحِبُّ بِمَا يُحِبُّ ...
وقيل لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : بَعَفُوكَ عَنْ إِخْوَتِكَ عِنْدَ قَدَّرْتَكَ رُفِعَ قَدْرُكَ ...

ذم المتشقى من الغيظ

قال معاوية رضى الله عنه : الْعُقُوبَةُ الْأَلَمُ حَالَاتُ ذِي الْقُدْرَةِ ...
وقال حكيم : التَّشَقُّقُ طَرَفٌ مِنَ الْجَزَعِ ، فَمَنْ رَضِيَ أَنْ لَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الظَّالِمِ إِلَّا سِتْرٌ رَقِيقٌ وَحِجَابٌ ضَعِيفٌ فَلْيَتَنَصَّفْ ...

مدح من صفح عن قدرة

قال الاخطل من آيات يمدح بها بنى أمية :

شُئْسَ العداوةِ حتى يُستَقَادَ لهم

وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدَرُوا ^(١)

وقال أشجع السلمي :

يعفو عن الذنبِ المظهِرِ . . . وليس يُعْجِزُهُ انتِصَارُهُ ^(٢)

صَفْحاً عن الجانيِ عَلَيهِ . . . وقد أحاطَ بِهِ اقْتِدَارُهُ

وقال المتنبي :

قَتَى لَا تَسْلُبُ الْقَتْلَى يَدَاهُ . . . وَيَسْلُبُ عَفْوُهُ الْأَسْرَى الْوَثَاقَا

« يقول المتنبي : إذا قتلَ المدحوق قتيلاً لم يأخذْ سلبَهُ ، ترفعاً عن ذلك

ولكنَّ عَفْوَهُ يَسْلُبُ أَسْرَاهُ أَغْلَا لَهُمْ وَيُؤَدِّمُهُمْ ، أى يعفو عنهم ويُطْلِقَهُمْ »

الحث على إقالة من سلم ظاهره

قالوا : لَا تَعْتَدْ بِمَا لَمْ تَسْمَعْهُ أَذْنَاكَ ، فَإِنَّ السَّيِّدَ إِذَا حَضَرَ هَيْبٌ وَإِذَا

غَابِ اغْتِيْبَ .

وقال بعضُ المسلوكِ : إِنَّمَا تَمْلِكُ الْأَجْسَادَ دُونَ النِّيَّاتِ ، وَتَنْفَحُصُ

عَنِ الْأَعْمَالِ لِأَعَنِ السَّرَائِرِ . . . وقال البُخْتَرِيُّ :

إِذَا عَدُوُّكَ لَمْ يُظْهِرْ عِدَاوَتَهُ . . . فَمَا يُضْرِكُ إِنْ عَادَاكَ إِسْرَارَا

(١) شمس : جمع شمس وهو : الصعب العداوة ، وقوله : حتى يستقاد لهم : أى

حتى يؤخذ حقهم ممن اعتدى عليهم ، من قولهم ، استعدت الأمير من القاتل فأقادلى

منه أى قتله (٢) الانتصار : الانتصاف والانتقام

وقال العلاء بن الحضرمي ^(١) يخاطبُ سيدنا رسول الله :

وإن دَحَسُوا بالشرِّ فاعفُ تَكَرُّماً

وإن خَنَسُوا عنك الحديث فلا تَسَلْ ^(٢)

« وإن دحسوا : قال ابن الأثير يريد : إن فعلوا الشر من حيث لا تعلمه .

وخنسوا الحديث يريد : وازدوه وغيوه وأخروه عنك ،

العفو عمن سلم باطنه

قد يهفو المرء ونيتة سليمة ، وبزل وطريقته مستقيمة .

قال إبراهيم بن المهدي في عَيْنَيْتِهِ للأمين وقد عفا عنه :

قسماً وما أدلى إليك بحُجَّةٍ إلا التَّضَرُّعُ من حُبِّ خاشع

ما إن عَصَيْتُكَ وَالْفَوَاةُ تَمُدُّنِي أسبابها إلا بليّة طائِع

وقال الفرزدق :

فلمستَ بما خردِ بلغوِ تقوله إذا لم تَعْمَدْ عَاقِدَاتُ الْعِزَامِ ^(٣)

« تعمد : تتعمد »

(١) صحابي جليل استعمله سيدنا رسول الله على البحرين وأقوه أبو بكر ثم عمر

مات سنة ٢١ هـ

(٢) بعده :

فإن الذي يؤذيك منه استمأه وإن الذي قالوا وراءك لم يُقَلْ

(٣) لعل الفرزدق أخذ هذا المعنى من قوله تعالى : لا يؤاخذكم الله بالغفوي

أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان .

عتب من يحفظ الذنب بعد تقادمه

قال البُحْثَرى :

تناس ذنوب قومك إن حفظ الذُّنوب - إذا قدُمنَ - من الذنوب

العفو عن المقر المعترف

قال بعضهم :

إذا ما مرُّو من ذنبه جاء تائباً إليك فلم تغفر له ، فلك الذنب

ومن قولهم : التوبة تغسل الحوبة ، الحوبة : الخطيئة ،

وقالوا : لا عتب مع إقرار ، ولا ذنب مع استغفار .

وقال بعضهم لصديق له أنكرك ذنباً : إما أن تُقرَّ بذنبك فيكونَ

إقرارك حُجَّةً لنا في العفو ، وإلا فطب نفساً بالانتصار منك ، فإن الشاعر

يقول :

أقرِرْ بذنبك ثم اطلب تجاوزنا عنه فإن جحود الذنب ذنبانِ

ومن كلام لابن المعتز : تجاوز عن مُذنبٍ لم يسلك بالإقرار طريقاً

حتى اتخذ من رجائك رفيقاً .

وقال بعض الأمراء لرجل عاتبه : بلغني أنك تبغضنى ، فلم يُسكِر

الرجل وقال : أنت كما قال الشاعر :

فإنك كاللّنيا نذُمُ صُروفها ونُوسُها ذمّا ونحنُ عبيدها

وقال أبو فراس الحمداني :

إِنْ لَمْ تَجَافَ عَنِ الذُّنُوبِ بِ وَجَدَتْهَا فِينَا كَثِيرَةً ^(١)
 لَكِنَّ عَادَتَكَ الْجَمِيَّةَ أَلَّا أَنْ تَقْضَ عَنِ الْجَرِيرَةِ ^(٢)
 وَقَالَ السَّرِيُّ الرَّقَّاءُ :

فَإِنْ تَعَفَّ عَنِّي تَعَفَّ عَنْ غَيْرِ جَاحِدٍ
 لِمَا كَانَ وَالْإِقْرَارُ بِالذَّنْبِ أَرْوَحُ
 وَقَالَ آخَرُ :

فَلَسْتُ بِأَوَّلِ عَبْدٍ هَفَا وَلَسْتُ بِأَوَّلِ مَوْلَى عَفَا
 وَقَالَ غَيْرُهُ :

صَفَحًا فَلَوْ شَقَّ قَلْبِي مِنْ صَحِيفَتِهِ لَظَلَّ يُقْرَأُ مِنْهُ الْخَوْفُ وَالنَّدَمُ
 وَأَنْتَ أَبُو جَعْفَرِ الْمَنْصُورُ بِرَجُلٍ أَذْنَبَ . فَقَالَ : إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
 وَالْإِحْسَانِ : فَإِنْ أَخَذْتَ فِي غَيْرِي بِالْعَدْلِ تَخَذُ فِيَّ بِالْإِحْسَانِ ...

حسن العفو عن المصّر

سَمِعَ حَكِيمٌ رَجُلًا يَقُولُ : ذَنْبُ الْإِصْرَارِ ، أَوَّلِي بِالْإِغْتِمَارِ ؛ فَقَالَ :
 صَدَقَ وَاللَّهِ ، لَيْسَ فَضْلُ مَنْ عَفَا عَنِ السَّهْوِ الْقَلِيلِ كَمَنْ عَفَا عَنِ الْعَمْدِ
 الْجَلِيلِ ...

استعفاء من خلط إقرارا بإنكار

قَالَ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ :

- (١) تجاف بحذف إحدى التاءين أى تتجافى وتتجافى عن الذنوب : تبتعد وتغض الطرف عنها
 (٢) الجريرة : ما يجره الإنسان من ذنب

هَبْنِي أَسَاتُ كَمَا ظَنَنْتُ فَأَيْنَ عَاقِبَةُ الْآخِرَةِ
وَإِذَا أَسَاتُ كَمَا أَسَا تُ فَأَيْنَ فَضْلُكَ وَالْمَرْوَةُ

وقال آخر :

وهبني — وما أَجْرَمْتُ — أَجْرَمْتُ كُلَّ مَا

أَتَاكَ بِهِ الْوَأَشِي مُجْدُ بِاحْتِمَالِهِ
وقال الشعبي لبعض الولادة — وقد كَلَّمَهُ فِي قَوْمٍ حَبَسَهُمْ — : إِنْ
حَبَسْتَهُمْ بِالْبَاطِلِ فَالْحَقُّ يُخْرِجُهُمْ ، وَإِنْ حَبَسْتَهُمْ بِحَقٍّ فَالْعَفْوُ يَسْعُهُمْ ؛
فَأَمْرٌ بِإِطْلَاقِهِمْ .

معتذر مع إنكار

قال الرشيد لرجل يُرْمَى بِالزُّنْدَةِ : لَا تُضِرَّ بَنَّاكَ حَتَّى تُقَرَّ بِالذَّنْبِ ، فَقَالَ :
هَذَا خِلَافٌ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، لِأَنَّهُ أَمَرَ أَنْ يُضَرَّبَ النَّاسُ حَتَّى يُقَرُّوا
بِالْإِيمَانِ وَأَنْتَ تُضَرِّبُنِي حَتَّى أَقَرَّ بِالْكَفْرِ أَنْفِجِلْ وَعَفَا عَنْهُ .

وكان الرشيد قد حبس عبد الملك بن صالح ، فلما أخرجاه الإهين من
الحبس ، وذكر الرشيد وفعَّلهُ به قال : والله إنَّ الْمَلِكَ لَشَيْءٌ مَا تَوَيْتُهُ
وَلَا تَمَنَّيْتُهُ ، وَلَوْ أَرَدْتُهُ لَكُنَ إِلَى أَسْرَعِ مِنَ الْمَاءِ إِلَى الْخُدُورِ ^(١) ، وَمَنْ
النَّارِ إِلَى يَبَسِ الْعَرَفِجِ ^(٢) ، وَإِنِّي لَمَأْخُودٌ بِمَا لَمْ أَجِنِ ، وَمَسْئُولٌ عَمَّا
لَمْ أَعْرِفْ ، وَلَكِنْ لَمَّا رَأَيْتُ بِالْمَلِكِ قَيْنَا ، وَإِنْ لَمْ أَتَرَشَّحْ لَهُ فِي سِرِّ
وَلَا جَهْرِ ، وَرَأَيْتُ يَحْنُ إِلَى حَنِينِ الْوَالِدَةِ الْوَالِهَةِ ، وَتَمِيلُ مِيلَ الْهَلُوكِ ^(٣)

(١) الخدور بوزن رسول : المكان الذي ينحدر منه

(٢) العرفج : نبات سملي

(٣) الهلوك من النساء : الفاجرة الشبهة

عاقبتى عقاب من سهر في طلبه ، فإن كان إنما حَسِبْتَنِي أَنِّي أَصْلَحُ لَهُ وَيَصْلَحُ لِي فليس ذلك ذنباً فَأَتُوبُ مِنْهُ .

وقال التَّوْحِيّ:

إن كان إقرارى بما لم أجهه يُرضيك عني قُلْتُ إِنِّي ظَالِمٌ

معتذر بتكذيب نفسه

خرج النعمان بن المنذر في غِبِّ سماءٍ فَرَّ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي يَشْكُرَ جالِساً على عَدِيرٍ ماءٍ ، فقال له : أُنَعْرِفُ النعمانَ ؟ قال اليَشْكُرِيُّ : أليس ابنَ سَلَمَى ؟ قال : نعم ، قال : والله لربِّما أَمَرْتُ يَدِي على فَرْجِها ، قال له : وَيَحْكُ ، النعمان بن المنذر ! قال : قد خَبَرْتُكَ ، فما أَتَقَصِّي كَلَامُهُ حَتَّى لِحِقَّتْهُ الحِيلُ وَحَيَّوهُ بِتَحِيَّةِ الْمَلِكِ ، فقال له : كيف قُلْتَ ؟ قال : أَيْتَ اللَّعْنِ ^(١) ، إِنَّكَ وَاللَّهِ مَا رَأَيْتَ شَيْخاً أَكْذَبَ وَلَا أَلَامَ وَلَا أَوْضَعَ وَلَا أَعْصَى يَبْظُرُ أُمَّهُ ^(٢) مِنْ شَيْخٍ بَيْنَ يَدَيْكَ ؛ فقال النعمان : دَعُوهُ ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

تَعْفُو الْمُلُوكُ عَنِ الْعَظِيمِ مِ مِنْ الذُّنُوبِ لِفَضْلِهَا

وَاقْدُ تُعَاقِبُ فِي الْيَسِيرِ رِ وَابِيسَ ذَاكَ لِجَهْلِهَا

إِلَّا لِيُعَرَفَ فَضْلُهَا وَيُخَافَ شِدَّةُ نَكْلِهَا

وانقطع عبدُ الملك بن مروان عن أصحابه . فانتَهَى إِلَى إِعْرَابِيٍّ ، فقال :

(١) كلمة كانت العرب تحي بها ماوكها في الجاهلية ومعناها : أيت أيها الملك أن تأتي ما تلعن عليه ، واللعن : الإبعاد والطرده من الخير

(٢) البظر : هنة بين الاسكتين من المرأة لم تخفص - لم تختن - ومن قولهم في السب : يا ابن مقطعة البظور : جمع بظر ، يريدون أن أمه خائنة وقد يقولونها في معرض الذم وإن لم تكن أمه خائنة

أَنْعِرُفَ عَبْدَ الْمَلِكِ؟ قَالَ: نَعَمْ، جَارٍ بَاثِرٍ، قَالَ: وَيَحْكُ أَنَا عَبْدَ الْمَلِكِ! قَالَ:
لَا حَيَاكَ اللَّهُ وَلَا بَيَاكَ وَلَا قَرَبَكَ، أَكَلْتَ مَالَ اللَّهِ، وَضَيَّعْتَ حُرْمَتَهُ، قَالَ:
وَيَحْكُ أَنَا أَضْرُ وَأَنْفَعُ، قَالَ: لَا رَزَقَنِي اللَّهُ تَفْعَلَ وَلَا دَفَعَ عَنِّي ضَرْكَ؛ فَلَمَّا
وَصَلَتْ خَيْلُهُ عَلَيْهِ صِدْقَتَهُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَكُتِّمُ مَا جَرَى فَالْجَالِسِ
بِالْأَمَانَةِ...

استعفاء من زعم أن ذنبه كان خطأ

قَالَ غُلَامٌ هَاشِمِيٌّ أَرَادَ عُمَهُ أَنْ يُجَازِيَهُ بِسُوءٍ مِنْهُ: يَا عَمُّ، إِنِّي قَدْ أَسَأْتُ
وَلَيْسَ مِنِّي ذَنْبِي فَلَا تُسَيِّئْ وَمَعَكَ عَقْلُكَ...
وَقَالَ الْمُنْبِي:

وَعَيْنُ الْمُخْطِئِينَ هُمْ وَلَيْسُوا بِأَوَّلِ مَعْشَرٍ خَطِئُوا فَتَابُوا
وَأَنْتَ حَيَاتُهُمْ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ وَهَجَرُ حَيَاتِهِمْ لَهُمْ عِقَابُ
وَمَا جَهِلْتُ أَبَادِيكَ الْبَوَادِي وَلَكِنْ رَبِّمَا خَفَى الصَّوَابُ^(١)
وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ:

إِنْ يَكُ حُرْمٌ عَنْ أَوْتِكَ هَفْوَةٌ عَلَى خَطَايَا مَنِي فَعُذْرِي عَلَى عَمْدٍ
وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْمُنْبِي قَوْلُ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ
وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»، وَقَالَ تَعَالَى: وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ
بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا،

(١) أَبَادِيكَ: نَعْمُكَ، وَالْبَوَادِي: خِلَافُ الْحَوَاضِرِ أَيْ أَهْلُ الْبَوَادِي يَقُولُ:
لَهُمْ لَمْ يَجْهَلُوا بِعَصِيَانِكَ سِوَابِقِ نَعْمِكَ وَلَكِنْ قَدْ يَخْفَى الصَّوَابُ عَلَى الْمَرْءِ
فِيَأْتِي غَيْرُهُ

مستعفف سأل أن يقوم ويؤدّب

قال أحمد بن أبي فَنَنْ (١) :

أَحِينَ كَثُرَتْ حُسَادِي وَسَاءَهُمْ جَمِيلُ فَعَلِكْ بِي أَشَمَّتْ حُسَادِي
فَإِنْ تَكُنْ هَفْوَةً أَوْ زَلَّةً سَلَفَتْ فَأَنْتَ أَوْلَى بِتَقْوِيٍّ وَإِرْشَادِي

مستعفف سأل العفو

لفرط خوفه

قال علي بن الجهم من أبيات أرسلها إلى المتوكل وهو محبوس :

وَعَفْوَكْ عَنْ مُذْنِبٍ خَاضِعٍ قَرَنْتَ الْمَقْسِمَ بِهِ الْمُقْعِدَا (٢)
إِذَا ادَّرَعَ اللَّيْلَ أَفْضَى بِهِ إِلَى الصَّبْحِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرْفُدَا
أَلَمْ تَرَ عَبْدًا عَدَا طَوْرَهُ وَمَوَلَى عَفَا وَرَشِيدًا هَدَى
وَمُفْسِدًا أَمَرَ تَلَافِيئَهُ فَعَادَ فَأَصْلَحَ مَا أَفْسَدَا
فَلَا عُدْتُ أَعْصِيكَ فِيمَا أَمَرَ تَ حَتَّى أَزُورَ الثَّرَى مُلَاحِدَا
وَالَا تَخَالَفْتُ رَبَّ السَّمَاءِ وَخُنْتُ الصَّدِيقَ وَعِفْتُ النَّدَى

مستعفف أتكل على سالف حرمة

قال من لا أذكر اسمه :

أَيَذْهَبُ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِنْ أَسَأْتُهُ بِصَالِحِ أَيَّامِي وَخُسْنِ بَلَايَا (٣)

(١) شاعر مجيد من شعراء بغداد شهر بالشعر في أيام المتوكل واستفرغ شعره

في الفتح بن خاقان

(٢) يقال : أخذه المقيم المقعد أى ما يوجب الاضطراب من خوف ونحوه

(٣) أسأته : أسأت فيه

وقال جل شأنه : « إن تجتنبوا كبار ما تنهون عنه نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا » والمراد بالسيئات : الصغائر ، والكبار هن : الذنوب التي رتب الشارع عليها حدوداً أو صرح بالوعيد فيها ،

الاستعفاء لمذنب من قوم محسنين

قال ابراهيم بن العباس الصولي :

أسأوا وفيهم مُحْسِنُونَ فَإِنْ تَتَبَ لِحَسَنِهِمْ أَهْلَ الْإِسَاءَةِ يَصْلَحُوا

متوصل إلى العفو بمراجعة أو حجة

رَوَوْا أَنَّ الْفَارُوقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَعْشَى لَيْلَةً ، فَسَمِعَ غِنَاءَ رَجُلٍ مِنْ بَيْتٍ ، فَتَسَوَّرَ عَلَيْهِ ، فَرَأَاهُ مَعَ امْرَأَةٍ يَشْرَبَانِ الْخَمْرَ ، فَقَالَ : يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، أَظَنَنْتَ أَنَّ يَسْتُرَكَ اللَّهُ وَأَنْتَ عَلَى مَعْصِيَةٍ ؟ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا تَعْجَلْ إِنَّ كُنْتُ عَصَيْتُ اللَّهَ فِي وَاحِدَةٍ فَقَدْ تَصَيَّتُ فِي ثَلَاثٍ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَلَا تَجَسَّسُوا وَقَدْ تَجَسَّسْتَ ، وَقَالَ : وَأَنْتُمْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَقَدْ تَسَوَّرْتُ عَلَى ، وَقَالَ : لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْأَلُوا عَنْ أَهْلِهَا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا وَقَدْ دَخَلْتَ بِغَيْرِ سَلَامٍ ، فَقَالَ عُمَرُ : أَسَأْتُ فَهَلْ تَعْفُو ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَعَلَى أَنْ لَا أَعُودَ ... « وَقَدْ أوردنا هذه الأحاديث كما أوردناها الأدباء ، وإن في النفس منها بعد لأشياء . »

مستعفف ذكر فرط خوفه من الوعيد

قال مسلم الخاسر :

لَقَدْ أَتَنَّى مِنَ الْمَهْدِيِّ مَعْتَبَةً تَظَلُّ مِنْ خَوْفِهَا الْإِحْشَاءُ تَضْطَرِبُ وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا أَحْمَدَ بْنَ أَبِي دُوَادٍ وَيَعْتَذِرُ إِلَيْهِ :

أَتَانِي عَائِرُ الْأَنْبَاءِ تَسْرِي عَقَارُهُ بِدَاهِيَةِ نَادٍ ^(١)
 فَيَاخْبِرًا كَأَنَّ الْقَلْبَ أُمِّي يُجَرُّ بِهِ عَلَى شَوْكِ الْقَتَادِ ^(٢)
 وقال البحرى :

عَذِيرِي مِنَ الْإِيَّامِ رَنْقَنَ مَشْرَبِي وَلَقَيْنِي نَحْسًا مِنَ الطَّيْرِ أَشْمًا ^(٣)
 وَأَكْسَبْنِي سُخْطَ امْرِئٍ بَتُّ مَوْهِنًا أَرَى سُخْطَهُ لَيْلًا مَعَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ^(٤)

من استعفى واستوهب معا

أَخَذَ مُصْعَبُ بْنُ الزَّيْبِرِ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ الْمُخْتَارِ ، فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ ،
 فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، مَا أَقْبَحَ بِكَ أَنْ أَقُومَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى صُورَتِكَ هَذِهِ
 الْحَسَنَةِ ، وَوَجْهِكَ هَذَا الَّذِي يُسْتَضَاءُ بِهِ ، فَأَتَمَلَّقَ بِأَطْرَافِكَ وَأَقُولُ : أَيْ
 رَبِّ سَلِّ مُصْعَبًا فِيمَ قَتَلَنِي ، نَالَ : أَطْلِقُوهُ ، قَالَ : اجْعَلْ مَا وَهَبْتَ لِي مِنْ
 حَيَاتِي فِي خَفَضٍ ، قَالَ : أَعْطُوهُ مِائَةَ أَلْفٍ ، قَالَ : بَابِي أَنْتَ وَأُمِّي ،
 أَشْهَدُ اللَّهَ أَنْ لَابْنِ قَيْسِ الرَّقِيَّاتِ مِنْهُمَا خَمْسِينَ أَلْفًا ، قَالَ : وَلِمَ ؟ قَالَ :
 لِقَوْلِهِ فَيْكَ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّهِ تَجَلَّى عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
 مُلْكُهُ مُلْكُ رَحْمَةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ يُخْشَى وَلَا كِبَرِيَاءُ
 يَتَّقِي اللَّهَ فِي الْأُمُورِ وَقَدْ أَفْدَحَ لِحَ مَنْ كَانَ هَمُّهُ الْإِتْقَانُ

(١) عائر : كقولهم : قصيدة عاثره : أى سائرة ، ويقال : داهية ناد فالناد :
 الداهية تحل .

(٢) فيا خبرا : يروى : ثنا خبر ، وثنى الخبر : أذاعه وأفشاه ، والقَتَاد : شجر
 صلب له شوك كالإبر

(٣) رَنْقَنَ الْمَاءُ : كثره ، والمَشْرَب : موضع الشرب ، والماء

(٤) المَرَهَن : نحومن نصف الليل

نضحك مُصْعَب وقال : أرى فيك موضعاً للصديعة ، وأمره بلزومه
وأحسنَ إليه ، فلم يزل معه حتى قُتِل ...
وقال المتنبي :

فاغفرَ فِدَى لك واحبني مِن بعدها لِتُخَصَّنِي بَعِطِيَةٍ مِنْهَا أَنَا (١)

المتوصل إلى العفو بالتبث إلى حين التبين

قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَدِيلٌ فَتَنِينُوا أَنْ تُصَيِّبُوا
قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَتَقَلَّمْتُمْ نَادِمِينَ ... « قال الإمام البيضاوي :
« فَتَنِينُوا : فتعرفوا وتصفحوا قال : وتنكير الفاسق والنبا للتعميم ؛ وتعلق
الامر بالتبين على فسق المخبر يقتضي جواز قبول خبر العدل ... وأن
تصيبوا : أي كراهة لإصابتكم ،

وغضب الرشيد على رجل ، فقال له جعفر بن يحيى : غَضِبْتَ اللَّهَ ، فَأَطَاعَ
اللَّهُ فِي غَضَبِكَ بِالْوُقُوفِ إِلَى حَالِ التَّبَيُّنِ كَمَا غَضِبْتَ لَهُ .. وقال الشعبي
لعبد الملك بن مروان : إنك على إيقاع ما لم تُوقِعْ أَقْدَرُ مِنْكَ عَلَى رَدِّ
مَا أَوْقَعْتَ ...

نهى العافى عن التثريب

رَضِيَ بَعْضُ الْمُلُوكِ عَنْ رَجُلٍ ، ثُمَّ أَخَذَ يُؤَيِّدُهُ ، فَقَالَ : إِنْ رَأَيْتَ أَلَا

(١) فاغفر أي فاغفر لي ذنبي ، وفدى خبر عن محذوف أي أنا فدى لك ، وحياء :
أعطاء ، ومن بعدها : أي من بعد هذه المغفرة يقول : إذا عفوت عني وأعطيتني
كنت قد خصصتني بعباءة أنا من جلته ، لأنه إذا عفا عنه فقد وهبه نفسه

تَخْدِشَ وَجْهَ رِضَاكَ بِالتَّثْرِيبِ فَافْعَلْ ^(١)
 وقالوا : ما عفا عن الذنب مَنْ قَرَّعَ بِهِ ...
 وقال شاعرُ فِيمَنْ يَمَاقِبُ ثُمَّ يَمَانِبُ :
 إِذَا عُوقِبَ الْجَانِي عَلَى قَدْرِ جُرْمِهِ فَتَعْنِيفُهُ بَعْدَ الْعِقَابِ مِنَ الرَّبِّ

نهيهم عن الاعتذار وصعوبته

جاء في الحديث الشريف : إِيَّاكَ وَكُلَّ أَمْرٍ يُعْتَذَرُ مِنْهُ :
 وفي حديث آخر : إِيَّاكُمْ وَالْمَعَاذِرَ فَإِنَّهَا مَفْجِرٌ ...
 « ومعنى الحديثين : إِيَّاكُمْ أَنْ تَسْكُمُوا أَوْ تَفْعَلُوا مَا تَحْتَاجُونَ إِلَى أَنْ
 تَعْتَذِرُوا عَنْهُ . »

وقال بعضهم : دَغَّ مَا يَسْبِقُ إِلَى الْقُلُوبِ إِسْكَارُهُ ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَكَ
 اعْتِدَارُهُ فَلَسْتَ بِمُوسِعٍ عُدْرًا كُلَّ مَنْ أَسْمَعْتَهُ نُكْرًا ...
 وكتب الحَجَّاجُ إِلَى بَعْضٍ مِنْ أَعْتَذَرَ إِلَيْهِ : إِنْ يَسَلَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ
 نَيْتِكَ تُكْفَ الْمَقَالُ .

وكتب كَاتِبٌ : لَسْتُ أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنَ الذَّنْبِ إِلَّا بِالْإِقْلَاعِ عَنْهُ .
 وكتب آخر : إِنْ تَرَكْتُ الْاعْتِذَارَ فَلَمَّا قَالَ الشَّاعِرُ — هُوَ مُحَمَّدُ
 الْوَرَّاقُ — :

إِذَا كَانَ وَجْهُ الْعُذْرِ لَيْسَ بَيِّنٌ فَإِنْ أَطْرَاحَ الْعُذْرُ خَيْرٌ مِنَ الْعُذْرِ
 وقالوا : الْإِغْرَاقُ فِي الْعُذْرِ يَحَقِّقُ التَّهْمَةَ ، كَمَا أَنَّ الْإِفْرَاطَ فِي النَّصِيحَةِ
 يُوجِبُ الظَّنَّ ...

(١) التثريب : تقييح الفعل والاستقصاء في اللوم

وكتب بعضهم: إن كان ما بلغك حقاً فما تُغني المآذير، وإن كان كذباً
فما تضر الأباطيل.

وقال شاعر:

تعالوا نصطليح وتكون منا معاودة بلا عذ الذنوب
فإن أحببتم قلتم وقلنا فإن القول أشقى للقلوب
وخطب الحجاج يوماً فأطال، فقام رجل فقال: الصلاة، الوقت
لا ينتظر، والرب لا يعذر، فأمر بحبس، فأناه قومه وزعموا أنه مجنون
فإن رأى أن يحل سبيله فقال: إن أقر بالجنون خلتيه، فقبل له ذلك، فقال:
معاذ الله، لا أزعم أن الله ابتلاني وقد عافاني، فبلغ ذلك الحجاج، فعفا
عنه لصدقه ..

تأسف من يعاتب من غير ذنب

من أمثالهم: ربّ علوم لا ذنب له.

وقال البخترى:

إذا محاسني اللاني أدل بها كانت ذنوبي قتل لي كيف اعتذر

عبقرياتهم في ذمّ الحلم

ومدح العقاب

النهى عن الحلم إذا كان يسبب ذلاً أو ضرراً

قال النابغة الجعدي :

ولا خير في حلمٍ إذا لم تكن له بوادرٌ تحمي صفوه أن يكدرًا ^(١)
 ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له حلمٌ إذا ما أورد الأمر أضدرا
 يُروى أنه لما أنشد هذين البيتين سيدنا رسول الله ﷺ قال صلوات الله
 عليه: أجدت لا يفضض الله فاك؛ فعاش مائة وثلثين سنة لم تنفض له
 نيلة ... وأنشد المبرد:

أباحسن ما أقبح الجهل بالفتى وللحلم أحياناً من الجهل أقبح
 إذا كان حلمُ المرء عونَ عدوه عليه فإن الجهل أعق وأروح
 « أقول: إن مرادهم بالجهل ههنا ما قابل الحلم »

وقال المتنبّي:

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم
 وقال:

إذا قيل: رفقاً قال: للحلم موضعٌ وحلمُ الفتى في غير موضعه جهلٌ
 وقال أبو يعقوب الخريبي:
 أرى الحلم في بعض المراتب ذلةً وفي بعضها عزاً يسود صاحبه

(١) البوادر جمع بادرة: ما يدر من الرجل في حال الغضب من قول أو فعل

وقال الأحنف بن قيس : لا حِلْمَ لمن لا سَفِيهَ له . وقال : ما قَلَّ
سَفْهَاءُ قوم إلا ذلوا ...

وقال الجاحظ : من قَابَلَ الإِسَاءَةَ بالإِحْسَانِ فقد خالف الله في
تذْيِيرِهِ ، وظن أن رحمة الله دون رحمة ، فإن الله تعالى يقول : « من يَعْمَلْ
سوءاً يُجْزَ بِهِ » ، وقال : « جزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها » ،

وقال الشعبي : يُعْجِبُنِي الرَّجُلُ إِذَا سِيمَ هَوَانًا دَعَمَتْهُ الْأَثَقَةُ إِلَى الْمَكَافَأَةِ
وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ؛ وَرُفِعَ كَلَامُهُ إِلَى الْحَاجِاجِ فَقَالَ : اللَّهُ دَرَهُ أَيُّ رَجُلٍ
بَيْنَ جَنْبَيْهِ ! وتمثل بقول الشاعر :

ولا خيرَ في عَرَضِ أَمْرِي لا يَصُونُهُ ولا خيرَ في حِلْمِ أَمْرِي ذَلَّ جَانِبُهُ

دفع الجهل بالجهل

قال محمد بن وهيب :

لَنْ كُنْتُ مُتَحَاجًّا إِلَى الْحِلْمِ لِأَنِّي إِلَى الْجَهْلِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أُخَوِّجُ
وَلِي قَرَسٌ لِلْحِلْمِ بِالْحِلْمِ مُلْتَجِمٌ وَلِي قَرَسٌ لِلْجَهْلِ بِالْجَهْلِ مُسْرَجُ
فَمَنْ رَامَ تَقْوِيَّيَ فَإِنِّي مُقَوِّمٌ وَمَنْ رَامَ تَعْوِيَّيَ فَإِنِّي مُعَوِّجُ
وَمَا كُنْتُ أَرْضَى الْجَهْلَ خِدْنًا وَصَاحِبًا وَلَكِنِّي أَرْضَى بِهِ حِينَ أُخْرِجُ
وَإِنْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ : فِيهِ سَمَاجَةٌ قَدْ صَدَقُوا ، وَالذَّلُّ بِالْحُرِّ أَسْمَجُ

وقال إياس بن قتادة - وهو بارع جدا - :

تُعَاقِبُ أَيْدِينَا وَيَحْلُمُ رَأْيُنَا وَتَنْسِمُ بِالْأَفْعَالِ لَا بِالتَّكَلَّمَ

وقال أوس بن حنينة - شاعر إسلامي تميمي وحنيناه أمه - :

إِذَا الْمَرْءُ أَوْلَاكَ الْهَوَانَ فَأُولُهُ هَوَانًا وَإِنْ كَانَتْ قَرِيبًا أَوْ أَمِصْرَةً^(١)

(١) يقول : إذا سامك إنسان ذلا وهو أذل من الذل والهوان ما ترده به =

وإن أنت لم تقدر على أن تهينه فذره إلى اليوم الذي أنت قادرة^(١)
 وقارب إذا ما لم تكن لك حيلة وصمم إذا أيقنت أنك عاقرة^(٢)
 وقالوا: الشر لا يدفعه إلا الشر والحديد بالحديد يفلح^(٣) ...

من نهى عن الاغترار بحلمه

قال المتنبي :

وأطمع عامر البقيعا عليها ونزفها احتمالك والوقار^(٤)
 وقال آخر :

ولا يغررك طول الحلم مني فإبدأ تصادفني حلما
 وقال آخر :

احذر مغايظ أقوام ذوى أنف إن التغيظ جهول السيف مجنون

الحلم مغرٍ وضار مذل

قال الأحف لرجل : ليت طول حلمنا عليك لا يدعو جهل غيرنا
 إليك .

كيدك عنك وتشقى به نفسك وإن كان الذى سامك الحسف يمت إليك بسبب من
 القرابة وقوله قريب خبر كان ولم يقل قريبة على حد قوله تعالى : إن رحمة الله قريب
 من المحسنين

(١) قادره : أى قادر فيه

(٢) عاقره : قاتله

(٣) يفلح : يشقى

(٤) منع عامر من الصرف لأنه أراد القبيلة ، والبقيا اسم من الإبقاء يقول :
 وأطمعهم فى العصيان إبقاؤك عليهم وعدوك عن الإيقاع بهم ، وحملهم على الطيش
 حليك عنهم وامتاعك من الانتقام منهم

وقيل للأخف : ما الحلم ؟ فقال : الرضا بالذلّ ...

وقالوا : الشهرة بالملاينة والخير شرٌّ من الاشتهار بالغِلظة والشرّ ، لأن
مَنْ عُرِفَ بالخير اجترأ عليه الناس ، وَمَنْ عُرِفَ بالشر هابهُ الناس
وتجنّبوه .

وقال معاوية : ما وَلَدَتْ قُرَشِيَّةٌ خيراً إِقْرَشِيٍّ مِنِّي ، فقال رجل كان
حاضراً : بل ما وَلَدَتْ شراً لَمْ منك ، فقال : كيف ؟ قال : لأنك عَوَّدْتَهُمْ عادة
يطلبونها مِنْ بَعْدِكَ فلا يُجِيبُونَهُمْ إِلَيْهَا فَيَحْمِلُونَ عَلَيْهِمْ كَحْمَلِهِمْ عَلَيْكَ وَكَأَنِّي
بِهِمْ كَالزَّفَاقِ الْمَنْفُوخَةِ عَلَى طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ ...

نهيهم عن إكرام اللئام

قال المتنبي :

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا
وَوَضَعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السِّيفِ بِالْعُلَا
مُضِرٌّ كَوْضَعِ السِّيفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

وقبلهما :

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا
وقالوا : استعمالُ الحلم مع اللئيم أضُرُّ مع استعمال الجهل مع الكريم .
وقال يزيد بن معاوية لآبيه : هَلْ ذَمَمْتَ عَاقِبَةَ حِلْمٍ ؟ قال : مَا حِلْمْتُ عَنْ
لئيمٍ وَإِنْ كَانَ وَلِيَا إِلَّا أَعَقَبْتَنِي نَدَمًا ، وَلَا أَقْدَمْتُ عَلَى كَرِيمٍ وَإِنْ كَانَ عَدُوًّا
إِلَّا أَعَقَبْتَنِي أَسْفَا ...

وقال الشاعر :

مَتَى تَضَعِ الْكِرَامَةَ فِي لَتِيمٍ فَإِنَّكَ قَدْ أَصَاتَ إِلَى الْكِرَامَةِ

الاستعانة بالجهل لدى الحاجة إليه

قال العباس بن الأحنف :

وَمَنْ يَحْكُمْ وَلَيْسَ لَهُ سَفِيهٌ يُلَاقِي الْمُعْضَلَاتِ مِنَ الرِّجَالِ
وقال غيره :

وَلَا يَلْبَثُ الْجُهَالُ أَنْ يَتَضَمَّوْا أَخَا الْحِلْمِ مَا لَمْ يَسْتَعِنْ بِجَهُولٍ
وَيَتَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَالِسٌ إِذْ أَقْبَلَ أَعْرَابِيٌّ ،
فَاطْمَنَ ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ نَجَلَدَ بِهِ الْأَرْضَ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : لَيْسَ بِعَزِيزٍ مِنْ
لَيْسَ فِي قَوْمِهِ سَفِيهٌ ...

حث القادر على العقاب قبل فوته

قد أسلفنا كثيراً من عبقرياتهم في هذا المعنى ، وقال أبو أذينة الغساني :
يُحَرِّضُ ابْنَ عَمِّهِ الْأَسْوَدَ بْنَ الْمُنْذِرِ عَلَى قَتْلِ جَمَاعَةٍ مِنْ مُلُوكِ الشَّامِ كَانَ قَدْ
أَسْرَمَ فَأَرَادَ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ :

مَا كُلُّ يَوْمٍ يَسْأَلُ الْمَرْءَ مَا طَلَبَا وَلَا يُسَوِّغُهُ الْمَقْدَارُ مَا وَهَبَا
وَأَنْصَفُ النَّاسِ فِي كُلِّ الْمَوَاطِنِ مَنْ
وَلَيْسَ يَظْلِمُهُمْ مَنْ بَاتَ يَضْرِبُهُمْ
فَالْعَفْوُ إِلَّا عَنِ الْأَعْدَاءِ مَكْرُمَةٌ
قَتَلْتَ عَمْرًا وَتَسْتَبْقِي يَزِيدَ لَقَدْ
لَا تَقْطَعُنْ ذَنْبَ الْأَفْعَى وَتَتَرُكُهَا
وَلَا يُسَوِّغُهُ الْمَقْدَارُ مَا وَهَبَا
سَقَى الْأَعَادِيَ بِالْكَأْسِ الَّتِي شَرِبَا
بِحَدِّ سَيْفٍ بِهِ مِنْ قَبْلِهِمْ ضَرْبَا
مَنْ قَالَ غَيْرَ الَّذِي قَدْ قُلْتَهُ كَذْبَا
رَأَيْتَ رَأْيًا يَجْرُ الْوَيْلَ وَالْحَرْبَا
إِنْ كُنْتَ شَهْمًا فَاتَّبِعْ رَأْيَهَا الذَّنْبَا^(١)

(١) الشهم : الذكي الغواد المتوقد النجد النافذ في الامور

هم جَرَدُوا السيفَ فَاجْعَلُهُمْ به جَزَراً
هم أوقَدُوا النارَ فَاجْعَلُهُمْ لها حَطَباً^(١)

ومنها :

لَا عَفْوَ عَنْ مِثْلِهِمْ فِي مِثْلِ مَا طَلَبُوا لَكِنَّ ذَلِكَ كَانَ الْهَلَكَ وَالْعَطْبَا
عَلَامَ تَقْبِيلُ مِنْهُمْ فِدْيَةً وَهُمْ لَا فِضَّةَ قَبِلُوا مِنَّا وَلَا ذَهَبَا
وكتب يحيى بن خالد البرمكى إلى الرشيد من الحبس : إن كان الذنبُ
خاصّاً . فلا تُعَمِّمَ بالعقوبة ، فمعى سلامة البريء ومودة الولي ؛ فكتب إليه :
قَضَى الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ...

وقال بعضهم لأبي جعفر المنصور : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم
تَسْمَعْ بالعفو ! فقال : لأنّ بني مروان لم تَبَلَّ رِيئُهُمْ ، وآل أبي طالب لم
تَعْمَدُ سِيوفُهُمْ ، ونحن بين أقوام قد رأونا بالأنس سُوقَةً واليومَ خُلَفَاءَ ،
فليس تنمهدُ الهَيْبَةَ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا بِأَطْرَاحِ الْعَفْوِ وَاسْتِعْمَالِ الْعُقُوبَةِ ...

التبجح بقسوة القاب وقلة الرحمة

كان محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والوائق قد انْتَحَذَ تَنْوِيراً
من حديد ، وأطراف مَسَامِيرِهِ قائمة مثل رُؤُسِ الْمَسَالِ ، في أيام وزارته ،
وكان يَعَذِّبُ فِيهِ الْمَصَادِرِينَ وَأَرْبَابَ الدَّوَابِّ الْمَطْلُوبِينَ بِالْأَمْوَالِ ، فيجدون
لذلك أشدَّ الألم ، ولم يَسْبِقْهُ أَحَدٌ إِلَى هَذَا النَّوعِ مِنَ الْعِقَابِ ، وكان إذا قال
له أَحَدٌ مِنْهُمْ : أَيُّهَا الْوَزِيرُ ، ارْحَنِي ، يقول له : الرَّحْمَةُ خَوْرٌ فِي الطَّيْبَةِ ، فلما

(١) اجعلهم جزراً : أى قطعاً ومن ذا قولهم : تركهم جزراً للسباع والطير أى
قتلهم حتى صاروا قطعاً تأكلها السباع والطير

اعتقله المتوكلُ أَمَرَ بِإِدْخَالِهِ فِي التَّنُّورِ وَقِيدَهُ بِخَمْسَةِ عَشَرَ رِطْلًا مِنْ
الْحَدِيدِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، ارْحَمْنِي، فَقَالَ لَهُ: الرَّحْمَةُ خَوْرٌ فِي الطَّبِيعَةِ،
كَأَنَّكَ قَدْ يَقُولُ لِلنَّاسِ: ثُمَّ يَتَمَثَّلُ:

« فَلَا تَجْرَعَنَّ مِنْ سِيرَةِ أَنْتَ سِيرَتَهَا »^(١)

وَوَقَعَ مَرَّةً فِي قِصَّةِ رَجُلٍ: دَغَى مِنْ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ وَالْإِشْفَاقِ، فَمَا هُمَا
إِلَّا لِلنَّسْوَانِ وَالصَّبِيَّانِ ...

وَقَالَ الْمُتَلَبِّي:

يَدْخُلُ صَبْرُ الْمَرْءِ فِي مَدْحِهِ وَيَدْخُلُ الْإِشْفَاقُ فِي تَلْبِيهِ^(٢)

« التَّلَبُّ: الذَّمُّ وَالْعَابُ، يَقُولُ: إِنَّ الصَّبْرَ مِمَّا يَمْدَحُ بِهِ الْإِنْسَانُ وَالْإِشْفَاقُ
مِمَّا يِعَابُ بِهِ »

أَخَذَ الْبَرِيءُ بِذَنْبِ الْجَانِي

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً »
وَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ حَزَلَةَ الْبُشَيْرِيُّ مِنْ مَعْلَقَتِهِ الَّتِي ارْتَجَلَهَا بَيْنَ يَدَيْ عَمْرِو بْنِ هَنْدٍ
مَلِكِ الْحِمْيَرِ فِي شَيْءٍ كَانَ بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلِبَ:

عَنَّا بِاطْلَالٍ وَظُلْمًا كَمَا تُعَدُّ سِتْرٌ عَنْ حَجَرَةِ الرَّيِّضِ الظُّبَاءِ

« الْعِنُّ: الْإِعْزَاضُ يَقَالُ: عَنَّ يَعْنُ وَيَعْنُ عَنَّا وَعُنُونًا وَاعْتَنَّ:

عَرَضَ وَاعْتَرَضَ، وَالْأَسْمُ الْعِنُّ، وَالْحَجَرَةُ: النَّاحِيَةُ، وَالْجَمْعُ: حَجَرٌ

(١) هذا مثل تقدم القول عليه في الجزء الأول صفحة ٢٣

(٢) من قصيدته التي يعزى بها أبا شجاع عضد الدولة بعمته وأولها:

آخِرُهَا الْمَلِكُ مُعَزَّى بِهِ هَذَا الَّذِي أَثَّرَ فِي قَلْبِهِ

وحجرات مثل جَمْرَةٍ وَجَمْرٍ وَحَجَرَاتٍ ، والعتر ، ذبح العتيرة ، وهي ذبيحة كانت تذبح للأصنام في رجب ، والرييض : الغنم الرابضة في مَرَبِضِهَا ، وقد كان الرجل في الجاهلية ينذر : إن بَلَغَ اللهُ غَنَمَهُ مائة ذبح منها واحدة للأصنام ، ثم رُبَّمَا ضَلَّتْ نَفْسُهُ بِهَا فَأَخَذَ ظِيماً وَذَبَحَهُ مَكَانَ الشاةِ الواجبة عليه يقول : الزمتمونا ذنبَ غيرنا عَنَّا باطلا كما يُذبح الظبي لحَقِّ وَجِب في الغنم ،

وقال النابغة الذبياني من أبياته العينية التي يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر :
 أَنَا بِيَّتُ اللَّعْنِ أَنَا كَ لَمَتْنِي وتلك التي تَسْتَكُّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ
 مَقَالُهُ أَن قَدْ قُلْتُ : سَوْفَ أَنَا لَهُ وذلك من تَلْقَاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ
 أَنُوْعِدُ عَبْدًا لَمْ يَخُنْكَ أَمَانَةٌ وتتركُ عَبْدًا ظَالِمًا وَهُوَ ظَالِمُ
 وَحَمَلْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ كَذَى الْعُرِّ يَكْوَى غَيْرُهُ وَهُوَ رَائِعُ
 وَذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَكُنْ لِأَقُولُهُ وَلَوْ كُئِلْتُ فِي سَاعِدَيَّ الْجَوَامِعُ
 أَنَا كَ بِقَوْلٍ لَهْلَهَ الدَّخَسُ كَاذِبًا وَلَمْ يَأْتِ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ نَاصِعُ
 لَعَمْرِي وَمَا عَمْرِي عَلَى بَهَيْنٍ لَقَدْ نَطَقْتُ بِطُلًّا عَلَى الْأَقَارِعُ
 ومنها :

وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهٍ أَنَا بِيَّ وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوَاجِعُ
 فَيْتُ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَبِيلُهُ مِنَ الرَّقَشِ فِي أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَائِعُ
 يُسَهِّدُ فِي لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَلِيِّ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَارِعُ
 تَنَادَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ سُمِّهَا تُطْلِقُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تُرَاجِعُ
 ومنها :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةً وَهَلْ يَأْتِنَنَّ ذُو إِيمَةٍ وَهُوَ طَائِعُ
 فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُتَنَائِي عَنْكَ وَاسِعُ
 « وَإِلَيْكَ شَرَحَ هَذِهِ الْآيَاتِ : أَيْتُ اللَّعْنِ : أَيْتُ أَن تَأْتِي مِنْ

الأخلاق المذمومة ما تُلْعَنُ عليه ، وكانت هذه تحيةً لخم وجُذام ، وكانت منازلهم الحيرة وما يليها ، وكانت تحيةً ملوك غَسَّان : يا خَيْرَ الْفَتَيَانِ ، وكانت منازلهم الشام : وَتَسْتَكُ : تَلْسَدُ وَلَا تَسْمَعُ : ورائع : مُفْرِعٌ وَخَوْفٌ . وإضافة مقالة إلى أن قد قلت من إضافة الأعم إلى الإخص ، وهي من الإضافة البيانية أى مقالة هى هذا القول . وظاليع : مائل . والعَرَّ : قَرَحَ يأخذ الإبل فى مَشَافِرها وأطرافها شديه بالقرع ، وربما تفرَّق فى مَشَافِرها مثل القوباء ، يَسِيلُ منه ماءٌ أَصْفَرُ ، وكان الأعرابُ إذا رَقَعَ العُرُّ فى إبل أحدٍهم اعترضوا بغيراً صحيحاً من تلك الإبل فكَوَّروا مِشْفَرَه وَعُضْدَه وَفَخَذَه يرون أنهم إذا فعلوا ذلك ذهب العُرُّ من إبلهم . وقيل : إنما كانوا يَكْوُونُ الصحيحَ لئلا يَتعلَقَ به الداءُ لا لِيَبْرَأَ السقيم . وكَبَلَتْ : قِيدَتْ . والجوامع : الأغلال ، جمع جامعة . وثوبٌ لَهْلَهُ النسيج وهلهل النسيج : إذا كان رقيقاً ، وناصع : بين واضح . وقوله : لَعَمْرَى ... البيت فالعمر بفتح العين هو العمر بضمها لكن حُصَّ استعمال المفتوح فى القسم ، أى ما قَسَمِى بَعْمَرَى هين على حتى يَهْمَنى منهم بأنى أحلف كاذباً ، والبطل - بالضم : - هو الباطل والاقارع : هم بنو قُرَيْع بن عوف الذين كانوا سَعَوْا به إلى النعمان بن المنذر حتى تَغَيَّرَ له . وأبو قابوس : كنية النعمان بن المنذر . وقوله فى غير كنهه : أى جاءنى وعيده فى غير قدر الوعيد ، أى لم أَكُنْ بَلَغْتُ ما يَغْضِبُ عَلَى فيه . وراكس : واد ، والضواجع جمع ضاجعة وهو مُنْحَنى الوادى . وقوله : فَبِتُّ ... أَلْبَيْتُ فَاَلْمَسَاوِرَ : الموائمة ، والأفعى لا تَلْدَغُ إِلَّا وَثْبًا . وضئيلة : هى الحية الدقيقة القليلة اللحم . والرثس من الحيات : المتقطعة بسواد ، وهى من شِرَارِها ، والسَمُّ مبتدأ وناقع خبر ويجوز فى غير الشعر ناقعاً على الحالية وفى أنيابها هو الخبر . وليل التام بكسر التاء أطول ليلة فى السنة ، والسلام :

اللدبغ ، وسمت العرب الملسوع سليماً تفاؤلاً . وقوله : لحي النساء في يديه
قمايع : فقد كان الملدوغ يُجَمَلُ الحلي في يديه والجلال حتى لا ينام فيدب
السُّم . فيه وتناذرهما الراقون يروى أيضاً : تناذرهما الحاوون ، وهو جمع حار ،
وهو الذي يُمَسِّكُ الحيات ، أى أنذر بعضهم بعضاً بأنها لا تُجيب راقياً
وقوله : تُطَلِّقُهُ : تخف عنه مرة وتشدد عليه مرة ، ومثل ذلك قول
الآخر :

تبيتُ الهمومُ الطارقاتُ يُعدُّني كما تُعْثَرِي الأوصابُ رأسُ المَطْلَقِ
يقال : طَلَّقَ السَّليمُ : رَجَعَتْ إليه نفسه وسكن وجعه بعد العداد^(١)
فهو مُطْلَقٌ ، قال المبرِّد : وهذا هو الذي ذكره النابغة قال : وذلك أن
المنهوش إذا ألحَّ الوجعُ به تارةً وأمسك عنه تارةً فقد قارب أن يُؤَيِّسَ
من بُرئهِ ، وإنما ذكر خوفه من النعمان وما يمتريه من لوعة في إثر
فترة والخائف لا ينام إلا غراراً ، فلذلك شبه بالملدوغ المَسْهُود . والإمة
لغة في الأمة : الدين والخير ثم شبهه في البيت الأخير في حال سخطه
بالليل الشديد الظلمة لا يُهْتَدَى فيه »

ووقف رجلٌ على الحجاج فقال : أصلحَ الله الأمير ، جنى جان في
الحى فأخذتُ بحريته وأُسْقِطَ عطائي ، فقال الحجاج : أما سمعتَ قولَ
الشاعر :

جانيك من يجنى عليك وقد تُعْدى الصَّحاحَ مَبَارِكُ الجُربِ^(٢)

(١) امداد : احتياج وجمع اللدبغ . وأصله من العدد ، وقيل : عداد السليم : أن
تعد له سبعة أيام فإن مضت رجوا له البرء ومالم تمض قيل : هو في عداده

(٢) جانيك من يجنى عليك ، يريد : صاحب جنابتك من يجنى عليك فلا تأخذ

وَرَبِّ مَأْخُودٍ بِذَنْبِ صَدِيقِهِ وَنَجَا الْمُقَارِفُ صَاحِبُ الذَّنْبِ ^(١)
 فَقَالَ : أَعَزَّ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، كَتَابُ اللَّهِ أَوْلَى مَا أَتَّبِعُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :
 «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعِنَا عَنْدهُ» فَقَالَ الْحِجَاجُ : صَدَقْتَ
 يَا غِلَامَ ، رُدَّ اسْمُهُ وَأُثْبِتَ رَسْمُهُ ؛ وَأَسْنِ لَهُ عَطَاءَهُ .

عذر من بدر منه سخط

قال البحتري :

إِذَا أُخْرِجْتَ ذَا كَرَمٍ تَخْطِ إِلَيْكَ بِيَعُضٍ أَخْلَاقُ اللَّثَامِ

طائفة من عبقرياتهم في العداوات

الاحتراس من غرس العداوة

جاء في كيلة ودمته : لا ينبغي للعاقل أن نحمله ثِقَتَهُ بِقُوَّتِهِ عَلَى أَنْ
 يَحْتَرَّ الْعَدَاوَةَ ، كَمَا لَا يَجِبُ لِصَاحِبِ التُّرْيَاقِ أَنْ يَشْرِبَ السُّمَّ انْكَالًا
 عَلَى أَدْوِيَّتِهِ .

وَقَالُوا : احْذَرِ مُعَادَاةَ الرِّجَالِ فَالْنَّاسُ رُجُلَانِ : عَاقِلٌ فَاحْذَرِ خَنَلَهُ ،
 وَأَحْمَقٌ فَاحْذَرِ خُمَقَهُ

بالعقوبة غيره ، قال أبو عبيد : قولهم : جانيك من يحنى عليك يضرب مشلا للرجل
 يعاقب بجناية ولا يؤخذ غيره بذنبه ، إنما يجنيك من جنايته راجعة إليك ، وذلك
 أن الإخوة يحنون على الرجل ، وقال غيره : معناه : الذي تلحقك منفعة هو الذي
 يحنك عاره ، يعنى : الذي يحنى لك الخير هو الذي يحنى عليك الشر ، فقولهم : جانيك
 معناه الجاني لك ، ومباوك الحرب : مواضع بروكها أى : مرايضها ، والجرب :
 المصابة بالحرب .

(١) قارف فلان الخطيئة : خالطها

وسيمر عليك كثير من عقرياتهم في هذا المعنى في كتاب الإخروانيات
والأصدقاء والصدقة .

نهيهم عن الاغترار بالوَدِّ

نُسَبَطْنَ مَعَهُ الْعِدَاوَةُ

دخل سُدَيْفٌ مولى أبي العباس السفاح ^(١) على أبي العباس أمير المؤمنين
وعنده سُليمان بن هِشَام بن عبد الملك وقد أدناه وأعطاه يده فقبلها ، فلما
رأى ذلك سُدَيْفٌ أقبل على أبي العباس وقال :

جَرَّدَ السِّيفَ وَارْفَعَ الْعَفْوَ حَتَّى لَا تَرَى فَرْقَ ظَهْرِهَا أَمْوِيًّا
لَا يَغُرُّكَ مَا تَرَى مِنْ أَنَاسٍ إِنَّ تَحْتَ الضُّلُوعِ دَاءٌ دَوِيًّا
فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ سُليمانُ فقال : قَتَلْتَنِي أَيُّهَا الشَّيْخُ فَتِلْكَ اللَّهُ وَقَامَ أَبُو الْعَبَّاسِ
فَدَخَلَ ، فَإِذَا الْمُنْدِيلُ قَدْ أُلْقِيَ فِي عُنُقِ سُلَيْمَانَ ، ثُمَّ جُرَّ فَقُتِلَ .

ودخل شِبْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مولى بنى هاشم على عبد الله بن علي ، وقد
أجلسَ ثمانينَ رجلاً من بنى أُمَيَّةَ على مُحِيطِ الطَّعَامِ ، فثَلَّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ :
أَصْبَحَ الْمَلِكُ ثَابِتَ الْأَسَاسِ بِالْبَهَائِلِ مِنْ بَنِي الْقَبَّاسِ ^(٢)

(١) ذكر أبو الفرج في الأغاني أنه مولى خزاعة وكان سبب ادعائه ولواء بنى
هاشم أنه تزوج مولاة لآلِى لُحَب وَيُقَالُ : بِلْ أَبُوهُ هُوَ الَّذِي تَزَوَّجَهَا فَوَلَدَتْ لَهُ سُدَيْفًا
وَسُدَيْفٌ شَاعِرٌ مَقْلٌ مِنْ مَخْضَرِى الدَّوْلَتَيْنِ شَدِيدُ التَّعَصُّبِ لِبَنِي هَاشِمٍ مَظْهَرًا لِذَلِكَ
أَيَّامَ بَنِي أُمَيَّةَ

(٢) الْأَسَاسُ وَاحِدُهُمَا أَسْ، وَقَدْ يُقَالُ لِلوَاحِدِ : أَسَاسٌ وَجَمْعُهُ أَسَاسٌ ، وَالْمَهْلُولُ :
الْعَزِيزُ الْجَامِعُ لِكُلِّ خَيْرٍ

طلبوا وَثَرَ هاشِمٍ فَشَفَوْهَا بعد مِيلٍ مِنَ الزَّمانِ وَيَاسُ ^(١)
 لَا تُقَيِّانَ عَبْدَ شَمْسٍ عِثَارًا واقْطَعْنَ كُلَّ رَقْلَةٍ وَأَوَاسِي ^(٢)
 دُحْلًا أَظْهَرَ التَّوَدَّدَ مِنْهَا وبها مِنْكُمْ كَخَزْءِ المَوَاسِي
 وَلَقَدْ غَاطَنِي وَغَاطَ سَوائِي قُرْبُهُمْ مِنْ تَمَارِقِي وَكَرَاسِي ^(٣)
 أَنْزَلُوهَا بِحَيْثُ أَنْزَلَهَا اللهُ بدارِ الهَوَانِ وَالْإِتْعَاسِ
 وَاذْكُرُوا مَصْرِعَ الحُسَيْنِ وَزَيْدًا وَقَتِيلًا بِجَانِبِ المِهْرَاسِ ^(٤)
 وَالْقَتِيلَ الَّذِي بَحْرَانٌ أَضْحَى ثَاوِبًا بَيْنَ غُرْبَةٍ وَتَنَاسِ ^(٥)
 نِعَمَ شِبْلُ الهِرَاشِ مَوْلَاكَ شِبْلُ لَوْنِجَا مِنْ حَبَائِلِ الإِفْلَاسِ
 فَأمر بهم عبد الله ، فشدَّ خروا بالعمد ، وبسطت عليهم البُسْط ، وجلس
 عليها ودعا بالطعام وإنه لَيَسْمَعُ أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً ، ولما فرغ من
 الأكل قال : ما أغلبنِي أَكَلْتُ أَكْلَةً ظُفْراً أَهْنَأُ وَلَا أَطِيبَ لِنَفْسِي مِنْهَا ! وقال

(١) يقال فيك ميل علينا بسكون الياء أما كل منتصب مثل الحائط فيقال : في
 الحائط ميل بالتحريك

(٢) الرقلة : النخلة الطويلة ويقال - إذا وصف الرجل بالطول - : كأنه رقلة ،
 والأوإاسي : جمع آسية وهي : أصل البناء بمنزلة الأساس

(٣) التمارق جمع نمرقة وهي : الوسائد

(٤) زيد هو زيد بن علي بن الحسين ، خرج على هشام بن عبد الملك سنة ٢٢١ هـ
 وقتله يوسف بن عمر الثقفي أمير العراق لحشام وصلبه بالكناسة - محلة بالكوفة -
 عريانا هو وجاعة من أصحابه ، وقوله : وقتيلاً بجانب المهراس فالمهراس : ماء بأحد
 ويريد : حمزة بن عبد المطلب ، وإنما نسب شبيل قتل حمزة إلى بني أمية لأن أباسفيان
 ابن حرب كان قائد كفار قريش يوم أحد

(٥) القتييل الذي بحزان هو إبراهيم بن محمد بن علي ، وهو الذي يقال له الإمام

لِشَبَلٍ : لولا أنك خلطت كلامك بالمسألة لا غنمك جميع أموالهم ^(١) ،
ولقد قدت لك على جميع موالى بنى هاشم .

وقال المتنبى :

فلا تغررك ألسنة موالٍ تغلبهن أفئدة أعادى ^(٢)

وكن كالموت لا يرئى لباك بكى منه ويروى وهو صاد ^(٣)

فإن الجرح ينفر بعد حين إذا كان البناء على فساد

» قوله : فإن الجرح ... البيت : مثله قول البحتري :

إذا ما الجرح رُم على فساد تبين فيه تفريط الطبيب

وفى كيلة ودمنة : لا يغر العاقل سكون الحقد فى القلب مالم يجد محركا

فإنه كالجرم المسكون مالم يجد خطبا ؛ والعداوة إذا وجدت فرصة اشتعلت

فلا يطفئها شيء دون النفس ...

(١) بالمسألة يريد : سؤاله إذ قال :

نعم شبل الهراش مولاك شبل لو نجما من حبال الإفلاس

(٢) موال : جمع مولى وهو الولي والصديق يقول : لا تغتر بما تراه من إظهار

ودم فإن تلك الألسنة الموالية تقاها أفئدة معادية

(٣) لا يرئى : لا يرحم . والصادى : العطشان ، يقول : كن قاسيا عليهم كالموت

لا يرحم الباكي من خوفه ، ويروى وهو صاد كأنه لطلبه الشرب بعد الرى صاد ،
أى لطلب النفوس ، ومعنى يروى : ينال ماله أدركه لروى

• كالموت ليس له رى ولا شبع •

(٤) نفر الجرح : هاج وورم بعد البرء . وقوله : إذا كان البناء على فساد أى

إذا ثبت اللحم على ظاهره وله غور فاسد ، يعنى : أنهم يطوون العداوة فى أنفسهم إلى
أن تمكنهم الفرصة .

نهيهم عن السكون إلى من تقدم

منك إليه إساءة

يُحكي أن رجلاً كان له عبدٌ سِنْدِيٌّ ، فتعرَّضَ لامرأته ، فعلمَ الرجلُ بذلك ، فأخذَه وجبَّه ، ثم تحوَّبَ لذلك ، فداواه ، فلما برأ اتَّفَقَ أن غاب الرجلُ يوماً ، فعَمَدَ السِّنْدِيُّ المَجْبُوبُ إلى ابْنَيْنِ كانا لسيِّدهُ فأخذهما وصعد السُّورَ ، فلما بَصَرَ بالرجُل قال : والله إن لم تَجِبْ نَفْسَكَ كما جَبَّيْتَنِي لَأَقْدِفَنَّهُمَا من السورِ لِيَمُوتَا ، وإن نَفْسِي لَأَهْوَنُ من شربة ماء ، فلما رأى الرجلُ منه الجِدَّةَ جَبَّ نَفْسَهُ ، قرَّمَ العبدُ بالابْنَيْنِ من السور وقال : إن جَبَّكَ نَفْسَكَ قِصَاصٌ لِمَا جَبَّيْتَنِي ، وقتلَ ابْنَيْكَ زِيَادَةً أَنْعَشْتُكُمَا ...

وتزعمُ العرب : أن أَخَوَيْنِ كانا في إِبِلٍ لهما ، فَأَجْدَبَتْ بلادُهُما ، وكان بالقربِ منهما وادٍ خَصِيْبٌ وفيه حَيَّةٌ تحميه من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان ، لو أني أَتَيْتُ هذا الوادِي المَكَايَا فرَعَيْتُ فيه إِبِلِي وأصلَحْتُها ؟ فقال له أخوه : إني أخاف عليك الحَيَّةَ ، ألا ترى أن أحداً لا يَمِيطُ ذلك الوادِي إلا أَهْلَكَتُهُ ، قال : فوالله لأَقْتُلَنَّ ، فهَبَطَ الوادِي ورَعَى به إِبِلَهُ زَمانًا ، ثم إن الحَيَّةَ نَهَشَتْه فقتلته ، فقال أخوه : والله ، ما في الحياة بعد أخِي خير ، فَلَا طُلُبْنَ الحَيَّةَ ولأَقْتُلَنَّها ، أو لَا تَبْعَنُ أَخِي ، فهَبَطَ ذلك الوادِي وطلَّبَ الحَيَّةَ لِيَقْتُلَهَا طلبًا بئارَه ، فقالت له الحَيَّةُ : فهل لك في الصُّلح ، فأدعُك بهذا الوادِي تكون فيه وأعطيك كلَّ يومٍ دينارًا ما بَقِيت ؟ قال : أو فاعلةٌ أَنْتِ ؟ قالت : نعم ، قال : إني أفعل ، فخلَّفَ لهما وأعطاها الموائيق : لا يَضُرُّها ، وجعلت تعطيه كلَّ يومٍ دينارًا ؛ فَكثُرَ ما لَهُ حتى صار من أَحْسَنِ النَّاسِ حالًا ؛ ثم إنه ذكر أخاه فقال : كيف يَنْفَعُنِي العيشُ وأنا

أَنْظُرْ إِلَى قَاتِلِ أَخِي أَفَعَمَدٌ إِلَى فَأْسِهِ فَأَخَذَهَا؛ ثُمَّ رَصَدَ لَهَا، حَتَّى خَرَجَتْ،
فَضْرَبَهَا ضَرْبَةً شَجَّتْ رَأْسَهَا، فَلَمَّا رَأَتْ مَا فَعَلَ قَطَعَتْ عَنْهُ الدِّينَارَ، خَافَ
الرَّجُلُ شَرَّهَا وَتَدَلَّمَ، فَقَالَ لَهَا: هَلْ لَكَ أَنْ تَتَوَاتَّقَ وَتَعُودَ إِلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ؟
فَقَالَتْ: كَيْفَ أَعَاودُكَ وَهَذَا أَتْرُ فَأَسْكَ وَهَذَا قَبْرُ أَخِيكَ! وَقَدْ ذَكَرَ هَذِهِ
الْحِكَايَةَ النَّابِغَةُ الذِّبْيَانِي فِي آيَاتٍ لَهُ لَا دَاعِيَ إِلَى إِيْرَادِهَا وَقَدْ جَاءَ فِي
خَتَامِهَا هَذَا الْبَيْتُ:

أَبَى لَكَ قَبْرُ لَا يَزَالُ مُوَاكِهِي وَضَرْبَةُ فَأْسٍ فَوْقَ رَأْسِي فَاعِزَّةٌ

نهيهم عن احتقار العدو

قال ابنُ بُنَاتَةَ السَّعْدِيُّ:

وَإِذَا عَجَزْتَ عَنِ الْعَدُوِّ فَدَارِهِ وَأَمْرُجْ لَهُ إِنْ الْمِزَاجَ وَفَاقُ
فَالنَّارُ بِالْمَاءِ الَّذِي هُوَ ضِدُّهَا تُعْطَى النَّضَاجَ وَطَبْعُهَا الْإِحْرَاقُ
وَقَالُوا: لَا يُتَّقَى الْعَدُوُّ الْقَوِيُّ بِمِثْلِ الْخُضُوعِ وَاللِّينِ، وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ
الرَّيْحِ الْعَاصِفِ تَقْلَعُ الْأَشْجَارَ الْعِظَامَ، لِتَأْيِيهَا عَلَيْهَا، وَيَنْسَلِمُ مِنْهَا النَّبَاتُ
الَّذِينَ لَتَمَّائِلُهُ مَعَهَا.

وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ: إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهُنَّ

وَقَالَ الْإِمَامُ ثَعْلَبُ: هَذَا مِثْلُ وَمَعْنَاهُ: إِذَا تَدَنَّمَ أَخُوكَ شَاخِحًا عَلَيْكَ
فَالنَّزِيمُ لَهُ الْهُوَانُ؛ وَعِبَارَةُ الْأَزْهَرِيِّ: الْمَعْنَى: إِذَا غَلَبَكَ وَقَهْرَكَ وَلَمْ تَقَاوِمِهِ
فَتَوَاضَعَ لَهُ، فَإِنْ اضْطَرَّابَكَ عَلَيْهِ يَزِيدُكَ ذُلًّا وَخَبَالًا؛ وَقَالَ الرَّجَاجُ: الَّذِي
قَالَهُ ثَعْلَبُ خَطَأً، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ: إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهُنَّ - بِكسر الهاء - وَمَعْنَاهُ إِذَا
اشْتَدَّ عَلَيْكَ فَهُنَّ لَكَ وَدَارِهِ، وَهَذَا مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، كَمَا رَوَى عَنْ

معاوية رضى الله عنه أنه قال : لو أن بيني وبين الناس شعرة يمدونها وأمدتها ما انقطعت ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : كنت إذا أرخوها مددت ، وإذا مدها أرخيت ، فالصحيح في هذا المثل ، فهن بالكسر ، من قولهم : هان يهن : إذا صار هيناً لينا ، كقوله :

هَيْنُونَ لَيْنُونَ أَيْسَارُ ذَوُو كَرَمٍ سَوَاسٍ مَكْرُمَةٍ أَبْنَاءُ أَطْهَارٍ
وإذا قالوا : فهن فهو من الهوان ، والعرب لا تأمر بذلك ، لأنهم أعزة
أبائهم للضم . وقال ابن سيده . وعندى أن الذى قاله ثعلب صحيح لقول
ابن الأحرر - شاعر إسلامي - :

وقارعة من الأيام لولا سليلهم لزاحت عنك جينا
دببت لها الضراء وقلت : أبقي إذا عز ابن عمك أن تهونا^(١)

المتبجح بإظهار اللبان وإضرار العداوة

قال المتنبي :

وجاهل مدّه في جهله ضحكى حتى أتته يدُ فَرَّاسَةٍ وفمٌ
إذا نظرت نُيُوبَ اللَّيْثِ بارِزَةً فلا تظننَّ أنَّ اللَّيْثَ مُبْتَسِمٌ
« مدّه : أمهله وطول له ، وأصل الفرس : دق العتق يقول : ربّ جاهل
خدعته بجاملتى وتركه في خنقه ضحكى منه حتى افترسته وبطشت به بعد زمان
يعنى أنه يُغضى عن الجاهل ويحلم إلى أن يُجازيه ويعصف به ، ثم قال في

(١) الضراء في الاصل : الشجر المذلف في الوادى يقال : فلان يمشى الضراء :
إذا مشى مستخفياً فيما يوارى من الشجر ، والضراء أيضاً : المثى فيما يوارى من
تكيده وتختله يقال : فلان لا يدب له الضراء ، يقال للرجل - إذا ختل صاحبه
ومكر به : هو يدب له الضراء

البيت التالي : إذا كثر الأسد عن نابه فليس ذلك تبسماً ، بل قصداً للاقتراس ، يريد : أنه وإن أبدى بشره ، وتبسّمه للجاهل فليس ذلك رضى عنه ، وفي مثل هذا يقول أبو تمام :

قَدْ قَلَصْتُ شَفَتَاهُ مِنْ حَفِيفَتَيْهِ فَوَيْلَ مَنْ شَدَّةِ التَّعْيِيسِ مُبْتَسِمًا

العدو يكاشرك إذا حضرك

قال المتنبي العبدى - شاعر جاهلى - :

إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَكْشِرُ لِي حِينَ أَلْقَاهُ وَإِنْ غَبْتُ شَتْمُ
وقال ابن الرومى :

يُبِيعُ لِي صَفْحَةَ السَّلَامَةِ وَالسَّلَامِ وَيُخْفِي فِي قَلْبِهِ مَرَضًا
وقال المتنبي :

أَبْدُوا فَيَسْجُدْ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي وَلَا أَعَاتِبُهُ صَفْحًا وَإِهْوَانًا (١)
وبما يصح أن يذكر هنا ما روى : أنه قيل لأعرابي : كيف فلان فيكم ؟ فقال : إذا حَضَرَ هِبْنَاهُ ، وإن غاب اغْتَبْنَاهُ ، قال : ذاك هو السيد فيكم ...

من نظره ينبي عن عداوته

وتحذيرهم من العداوة المستورة

قال شاعر :

سُتُورُ الضَّمَائِرِ مَهْزُوكَةٌ إِذَا مَا تَلَا حَظَّتِ الْأَعْيُنُ
وقال زهير بن أبى سُلَيمى :

وَمَا يَكُ فِي عَدُوٍّ أَوْ صَدِيقٍ تُخْبِرُكَ الْعَيُونُ عَنْ الْقُلُوبِ

(١) يقول : إذا ظهرت لمن يذكرني بالسوء في غيبي عظمى وخضع لى وأنا أعرض عن عتابه إعراضاً عنه واحتقاراً له لأنه لا يقدر أن ينظر إلى فى حضرتى

وقال عُمَيْرُ بْنُ حُبَابٍ :

أَلَا رَبُّ مَنْ تَدْعُو صَدِيقًا وَلَوْ تَرَى
يُسْرَكَ بِأَدْيِهِ وَتَحْتَ أَدِيمِهِ
تُبِينُ لَكَ الْعَيْنَانِ مَا هُوَ كَأْتَمُّ
وَفِينَا - وَإِنْ قِيلَ اصْطَلَحْنَا - تَضَاغُنُّ

(١) مَقَالَتَهُ فِي الْغَيْبِ سَاءَ مَا يَفْرَى
(٢) نَمِيَّةٌ شَرٌّ تَبْتَرَى عَصَبَ الظَّهْرِ
مِنْ الضَّغْنِ وَالشَّجْنَاءِ بِالنَّظَرِ الشَّزْرُ
(٣) كَمَا طَرَأَ أَوْ بَارَ الْجِرَابُ عَلَى النَّشْرِ

وقال أبو نُوَاسٍ :

كَمَنْ الشَّفْنَانُ فِيهِ لَنَا
وَقَبْلَهُ :

وَابْنِ عَمٍّ لَا يُكَاشِفُنَا
وَهِيَ الْآيَاتُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :
لَا أَذُودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ
وقال زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ :

وَقَدْ يَنْبُتُ الْمُرْعَى عَلَى دِمْنٍ أَثَرِي وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَاهِيَا (٦)

(١) يَفْرَى : يَخْتَلِقُ وَيَكْذِبُ ، مِنْ الْاِفْتِرَاءِ

(٢) تَبْتَرَى : تَبْرَى وَتَحْتَ

(٣) جَاءَ فِي اللِّسَانِ : النَّشْرُ : الْكَلَامُ يَهْبِجُ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلُهُ نَدَى أَخْضَرَ تَدْفِي مِنْهُ
الْإِبِلُ إِذَا رَعَتْهُ ، وَاسْتَشْهَدَ بِالْبَيْتِ ثُمَّ قَالَ : يَقُولُ : ظَاهَرْنَا فِي الصَّلَاحِ حَسَنٌ فِي مَرَاةِ
الْعَيْنِ وَبَاطِنُنَا فَاسِدٌ كَمَا تَحْسَنُ أَوْ بَارَ الْجَرَبِي عَنْ أَكْلِ النَّشْرِ وَتَحْتَهَا دَاءٌ مِنْهُ فِي أَجْوَانِهَا .
وَقَالَ أَبُو مَنْصُورٍ الْأَزْهَرِيُّ : وَقِيلَ النَّشْرُ فِي هَذَا الْبَيْتِ نَشْرُ الْجَرَبِ بَعْدَ ذَهَابِهِ وَنَبَاتِ
الرُّبْرِ عَلَيْهِ حَتَّى يَخْفَى ، قَالَ : وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ

(٤) الشَّفْنَانُ : الْبَغْضُ . يَقُولُ : الْبَغْضُ قَدْ كُنَ فِيهِ وَاسْتَرَى مِثْلَ كَمُونِ النَّارِ فِي
الْحَجَرِ الَّذِي يُوْرِيهِ وَيَقْدَحُهُ

(٥) لَا يُكَاشِفُنَا : لَا يُظْهِرُنَا عَلَى الْعِدَاوَةِ ، وَلِبَسْنَاهُ عَلَى غَمْرِهِ : عَاشَرْنَاهُ عَلَى مَا بِهِ
مِنْ حَقْدٍ (٦) الدِّمْنُ جَمْعُ دِمْنَةٍ وَالْمُرَادُ : الْمَوْضِعُ الَّذِي يَتَلَبَّدُ فِيهِ السَّرْقِينِ وَأَبْعَارُ
الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ ، وَفِي الْحَدِيثِ : إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدِّمْنِ ، قِيلَ : وَمَا ذَاكَ . قَالَ صَلَّى اللَّهُ

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الفتن فقال : يكون بعدها هُدنةٌ على دَخْنٍ وجماعةٌ على أُنْدَاءٍ « وأصل الهدنة : السكون بعد الهيج ، ومنه قيل للصالح بعد القتال بين كل متحاربين : هُدنة ، لأنها مُلاينةٌ وفترةٌ سكون بين المتقاتلين ، والدخن : السكْدُورَةُ إلى السوادِ كالِدخان . والمراد سكون على غل ،

ثبات العداوة الذاتية

قالوا في ذلك : الوُدُّ والعداوة يُتَوَارَثَان .

وفي كَلِمَةٍ ودمنة : ليس بين العداوة الجوهرية صلحٌ وإن اجْتُهِدَ ، فالسُّوءُ وإن أُطِيلَ لِسَخَانُهُ فليس يَمْتَنِعُ من إطفاءِ النارِ إذا صَبَّ عليها . ويُحكى : أنَّ أعرابياً أخذ جَرَوْ ذئب ، فرباه بِلَبَنٍ شاةٍ عنده ، وقال : إذا ربيتهُ مع الشاةِ أنيسَ بها ، فيذُبُّ عنها ويكونُ أشدَّ من الكلب ، ولا يعرف طبعَ أجناسه ، فلما قوى وَثَبَ على شاةٍ فافترسها ، فقال الأعرابيُّ :

أَكَلْتُ شَوْهَتِي وَنَشَأْتُ فِيهَا فَا أَدْرَاكَ أَنَّ أَبَاكَ ذِيبُ

حمد المداجاة طلباً للفرصة

قال على كرم الله وجهه : أنسى الأشياءَ لعدوك أن لا تُغلبه أنك اتخذتهُ عدوًّا .

وقال القاضي التتوخي :

أَلَقَى الْعَدُوُّ بَوَجهٍ لَا قُطُوبَ بِهِ يَكَادُ يَقْطُرُ مِنْ مَاءِ الْبَشَاشَاتِ
فَأَحْزَمُ النَّاسِ مَنْ يَلْقَى أَعَادِيَهُ فِي جَسْمٍ حَقْدٍ وَثُوبٍ مِنْ مَوَدَّاتِ

عليه وسلم : المرأةُ الحسناءُ في المنبتِ السوءِ ، شبه المرأةَ بما ينبت في الدمن من الكَلْبِ يرى له غَضارةٌ وهو وبه الموعى منهُنَّ الأصل

الرَّقِيقُ يَمْنُ وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ وَكَثْرَةُ الْمَرْحِ وَفَتْحُ الْعِدَاوَاتِ

المسرة بوقوع العداء بين أعدائك

في كَلِيلَةِ وَدِئْنَةٍ : من حق العاقل أن يرى معاداة بعض عدوه لبعض ظَفَرًا حَسَنًا ، ففي اشتغال بعضهم ببعض خلاصه منهم .

دنى يعاديك بلا سبب

قال المتنبي :

وَأَتَعِبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لَا تَجِيئُهُ وَأَغِيظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لَا تُشَاكِلُ
وَيَقُولُ : أَتَعِبُ مُنَادَاكَ مَنْ نَادَاكَ فَلَمْ تَجِبْ ، لَأَنَّكَ لَا تَشْفِيهِ بِالْجَوَابِ ،
فَيَجْهَدُ فِي النَّدَاءِ ، كَمَا أَنَّ أَغِيظُ الْأَعْدَاءَ لَكَ مَنْ عَادَاكَ وَهُوَ دُونَكَ ، لَأَنَّكَ
تَتَرَفَّعُ عَنْ مَعَارَضَتِهِ فَلَا تَشْتَفِي مِنْهُ ،
وَقَالَ شَاعِرٌ :

يَسْطُرُ بِلَا سَبَبٍ وَتِلْكَ طَبِيعَةُ السَّكَّابِ الْعُقُورِ

تأسف من يعاديه لئيم أو دنى

قال المتنبي في عذر من يخاصم دينيًا ويدافعه :

إِذَا أَتَتْ الْإِسَاءَةُ مِنْ لَيْئِمٍ وَلَمْ أَلَمْ الْمُسِيءَ فَنِ الْوَمُ

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْجَهْمِ فِي تَأْسُفٍ مِنْ يَعَادِيهِ لَيْئِمٍ :

بَلَاءٌ لَيْسَ يُشَبَّهُهُ بَلَاءٌ عَدَاوَةٌ غَيْرُ ذِي حَسَبٍ وَدِينٍ

يُبْسِطُكَ مِنْهُ عِرْضًا لَمْ يُصْنِهِ وَيَرْتَعُ مِنْكَ فِي عِرْضٍ مَصُونٍ

وَيُحْكِي : أَنَّ خَنْزِيرًا بَعَثَ إِلَى الْأَسَدِ وَقَالَ : قَاتِلْنِي ، فَقَالَ الْأَسَدُ :

أَسْتَ بِكَفِّي ، وإن أنا قَتَلْتُكَ لَمْ يَكُنْ لِي ذَلِكَ غُرّاً ، وإن قَتَلْتَنِي لَحَقَنِي عَارٌ عَظِيمٌ ، فقال الخنزير : لَا خَبَرَ السَّبَاعُ بِسُكُوكَ ، فقال الأسد : اِحْتِمَالُ الْعَارِ فِي ذَلِكَ أَيْسَرُ مِنَ التَّلَطُّحِ بِدَمِكَ .

حشهم على العداوة بالقول لا بالفعل

قالوا : غَضِبُ الْجَاهِلِ فِي قَوْلِهِ ، وَغَضَبُ الْعَاقِلِ فِي فِعْلِهِ
وقالوا : « وَنَشْتُمُ بِالْأَفْعَالِ لَا بِالتَّكَلُّمِ » وقد تقدم

طائفة من عبقرياتهم

فِي النَّاسِ وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ
وَسُوءِ الظَّنِّ وَالشَّمَاتَةِ وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى
وَلِمُنَاسِبَةِ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي الْعِدَاوَاتِ نُورِدُ عَلَيْكَ هَاهُنَا صَدْرًا مِنْ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ
فِي النَّاسِ وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ وَسُوءِ الظَّنِّ
وَالشَّمَاتَةِ وَالْمُزَاحِ وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى

الناس

لا يزال الناس بخير ما تباينوا

مِنْ أَرْوَعِ مَا قِيلَ فِي النَّاسِ وَحِكْمَةُ تَبَايُنِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا تَبَايَنُوا ؛ فَإِذَا تَسَاوَوْا هَلَكُوا » ، قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي الْهَيْبَةِ مَعْنَاهُ : أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَسَاوَوْنَ إِذَا دَرَضُوا بِالنَّقْصِ وَرَكُوا التَّنَافُسَ فِي طَلَبِ الْفَضَائِلِ وَدَرَكِ الْمَعَالِي ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ خَاصًّا فِي الْجَهْلِ ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ لَا يَتَسَاوَوْنَ فِي الْعِلْمِ وَإِنَّمَا يَتَسَاوَوْنَ إِذَا كَانُوا كُلُّهُمْ جُهَالًا ، وَقِيلَ :

أراد بالتساوى التحزب والتفرق وأن لا يجتمعوا على إمام ويدعى كل واحد الحق لنفسه فينفرد برأيه . . . وقال أبو عبيد : أَحْسَبُ قَوْلَهُ : فإذا تساؤوا هلكوا ، لأن الغالب على الناس الشر ، وإنما يكون الخير في النادر من الرجال ، لعمري ، فإذا كان التساوى فإنما هو في الشؤ . . . وقال شاعر :

النَّاسُ أَخْيَافٌ وَشَيْءٌ فِي الشَّيْمِ وَكُلُّهُمْ بِجَمْعِهِمْ يَبْتَئِ الْآدَمُ

« أخياف : ضروب مختلفة الاخلاق والأشكال . والآدم : قيل : أراد آدم ، وقيل الأرض ، ولعله يشير بهذا إلى ما جاء في الأثر : كلكم لآدم وآدم من تراب ؛ وقال مسلم بن الوليد :

النَّاسُ كُلُّهُمْ لِضَنْءٍ وَاحِدٍ ثُمَّ اخْتَلَفَ طَبَائِعُ فِي أَنْفُسِ

« الضنء : الأصل » وقالوا : الناس في اختلافهم في خلقهم كاختلافهم في خلقهم . وقال خالد بن صفوان : الناس أخياف ، منهم من هو كالكلب ، لا تراه الدهر إلا هَرَّاراً على الناس ، ومنهم كالخنزير ، لا تراه الدهر إلا قَذِراً ، ومنهم كالقرود ، يضحك من نفسه . وقال بعضهم : الناس أخياف : عِلْقٌ مَضْنَةٌ لَا يُبَاعُ ، وَعِلْقٌ مَظَنَّةٌ لَا يُبْتَاعُ ، وقال أبو العتاهية :

مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَلَيْسَ مَحْضٌ يَخْبَثُ بَعْضٌ وَيَطِيبُ بَعْضٌ

« وقد بما قلت فيما قلت ، في كتابي « الفردوس » : ولم لا يكون هذا الاختلاف

في الحياة الدنيا بين الأفراد والجماعات إنما يُقصدُ به إلى معنى جميل مأمنه بَدْءُ السَّنَا قَدْ نَشْنَأُ كَانْغَامِ آلَاتِ الْمَوْسِيقِ ، هِيَ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ غَيْرُ أَنْ اجْتِمَاعَهَا يُؤَلَّفُ مِنْ هَذَا الْاِخْتِلَافِ نَغْمًا مُوسِيقِيًّا مُتَجَانِسًا بِدِيعًا يُطْرَبُ السَّمْعُ وَيَمْلِكُ عَلَى الْمَرْءِ مَشَاعَرَهُ . ولعل الأصل في هذا كله قوله عز وجل : قُلْ كَلَّا يَفْعَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ قَرَّبَكُمْ أَعْلَمُ مِنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا . . . وقوله :

ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ...

وجدت الناس آخبر ثقله

ومن أبدع ما قيل في ذم الناس ما جاء في حديث أبي الدرداء: وجدتُ الناس آخبر ثقله .. قال ابن الأثير في النهاية: القلي: البغض، يقال: قلاه، يقليه قلى وقلى: إذا أبغضه، قال الجوهرى: إذا فتحت مددت، ويقلاه: لغة طي. يقول جرب الناس فإنك إذا جربتهم قليتهم وتركهم، لما يظهر لك من بواطن سرائرهم. لفظه لفظ الأثر. ومنه الخبر، أى من جربهم أبغضهم وتركهم: والهاء في ثقله: للسكت. ومعنى نظم الحديث: وجدت الناس مقولا فيهم هذا القول.

الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة

وجاء في الحديث الشريف: الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة
« يعنى أن المرضى المنتخب من الناس في عزة وجوده كالنجيب من الإبل القوي على الأحمال والأسفار الذى لا يوجد في كثير من الإبل. وقال الإمام الأزهري: الذى عندي في هذا الحديث: أن الله تعالى ذم الدنيا وحذر العباد سوء مغبتها وضرب لهم فيها الأمثال ليتعبروا، ويحذروا، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحذرهم كما حذرهم الله، فرغب بعض أصحابه بعده فيها وتنافسوا عليها حتى كان الزهد في النادر القليل منهم فقال: تجدون الناس بعدى كإبل مائة ليس فيها راحلة، أى أن الكامل في الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة قليل كقلة الراحة في الإبل، والراحلة هي

البعيرُ القوى على الأسفار والاحمال ، النجيبُ النائمُ الخلقُ الحسنُ المنظرُ ، ويقعُ
على الذكر والآثى ، والهاء فيه للبالغه ،

وقال الشاعر :

الناس يثلُّ ببوت الشعر كم رَجُلٍ منهم بألفٍ وكم يَدَّتْ بديوانٍ
وفى هذا المعنى يقول المعرى :
الناس كالشعر تُلنى الأرض جائشةً بالجمع يُزجى وخيرٌ منهم رَجُلُ

لو تكاشفتُم ما تدافتم

ومن كلمة لسيدنا رسول الله صلوات الله عليه : لو تكاشفتُم ما تدافتم .
يقول : لو علم بعضكم سريرة بعض لاسْتَنَقَلَ تشيعه ودَفَنه . . . ولعل
أبا العتاهية قد أخذ من هذا الحديث قوله :

وفى الناس شرٌّ لو بدأ ما تعاشرُوا ولكن كساهُ الله ثوبَ غطاء

وقالوا فى ذم الناس :

عَوَى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عَوَى

وَصَوَّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيُرُ

وقال المعرى :

يَحْسُنُ مَرَأَى لِبْنَى آدِمٍ وكلهم فى الذَّوقِ لا يَغْدُبُ
ما فيهمُ بَرٌّ ولا ناسِكٌ إلاَّ إلى نَفْعٍ له يَجْدِبُ
أَفْضَلُ من أَفْضَلِهِمْ صَخْرَةٌ لا تَظْلِمُ الناسَ ولا تَكْذِبُ

وقال محمد بن يسير :

سَوَاءٌ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ أَنَا فِي هَذَا مِنْ أَوْلِهِمْ

لَسْتُ تَدْرِي حِينَ تَنْسَبُهُمْ أَيْنَ أَذْنَاهُمْ مِنْ أَفْضَلِهِمْ

وقال بعضهم : كنتُ عند الحسن البصريِّ ، فقال : أَسْمَعُ حَسِيسًا ، ولا أَرَى أَنِيسًا ، صَبِيانُ حَيَارَى ، ما لَهُمْ تَفَاعَدُوا عَقُولَهُمْ ، وَفَرَّاشُ نارٍ ، وَذِبَّانُ طَمَعٍ . وقيل لسفيان الثوري : دُلَّنَا عَلَى رَجُلٍ نَجْلِسُ إِلَيْهِ ، فقال : تلك ضالَّةٌ لا توجد ... وقال فلانٌ : رأيتُ كُثُومَ بنَ عمرو العتابيَّ يَأْكُلُ حُبْرًا فِي الطَّرِيقِ ، فقلتُ لَهُ أَمَا تَسْتَحْيِي أَنْ تَأْكُلَ بِحَضْرَةِ النَّاسِ ؟ فقال : أَرَأَيْتَ لَوْ كُنْتُ فِي دارٍ فِيها بَقْرٌ ، أَمَا كُنْتُ تَأْكُلُ بِحَضْرَتِهِمْ ؟ قلتُ : نَعَمْ ، قال : فَهَؤُلَاءِ بَقَرًا ثُمَّ قال : إِنْ شِئْتُ أَرَيْتُكَ دَلالَةً عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ قامَ وَوعَظَ ، وَجَمَعَ قَوْمًا ثُمَّ قال : رَوَى عَن غَيْرِ وَجْهِ : أَنَّ مَن باعَ لسانَهُ أَرْبَئَةَ أَفْهَةٍ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ ، فلم يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا أَخْرَجَ لسانَهُ يَنْظُرُ هَلْ يَبْلُغُ !

وقال رجلٌ لِأَحَدِ الشُّعْرَاءِ : أَيْنَ سَكَةُ الْخَيْرِ ؟ فقال : اسْلُكْ أَيْ سَكَّةَ شِئْتِ فَكُلَّهَا دَرُوبُ الْخَيْرِ ... ومثل هذا مِنَ النُّوادرِ الْمُسْتَطَرَفَةِ ...

وقال بعضهم : النَّاسُ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ : آسَادُ ، وَذُنَابُ ، وَثُعَالِبُ ، وَضُئَانُ ، فَأَمَّا الْآسَادُ فَالْمُلُوكُ - وَهِيَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْحُكْمِ الْمُسْتَبْدِينَ - وَأَمَّا الذُّنَابُ فَالْتَّجَارُ ، وَأَمَّا الثُّعَالِبُ فَالْقُرَّاءُ الْخِثَّاعُونَ ^(١) . وَأَمَّا الضُّئَانُ فَالْمُؤْمِنُ - يَرِيدُ الطَّيِّبَ الْكَرِيمَ - يَنْهَشُهُ كُلُّ مَن يَرَاهُ . وقال كَثِيرٌ عَزَّةً :

سَوَاسٍ كَأَسْنانِ الْحَمَارِ فَمَا تَرَى لِذِي شَيْبَةٍ مِنْهُمْ عَلَى نَائِيٍّ فَضْلًا

(١) لعل المراد بالقراء : النساك . وقد جاء في الحديث : أَكْثَرُ مَنافِقِي أُمَّتِي قُرَاؤُهَا قال ابن الأثير في النهاية . أَيْ أَنَّهُمْ يَحْفَظُونَ الْقُرْآنَ نَفْيًا لِلنِّمَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُمْ مُعْتَقِدُونَ تَضْيِيعَهُ وَكَانَ الْمُنَافِقُونَ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الصِّفَةِ

«يقال هُم سَوَاسِيَّةٌ وَسَوَاسٌ وَسَوَاسِيَّةٌ : إذا استَوَوْا في اللُّومِ والخِسةِ والشرِّ، وقال آخر :

شِبَابُهُمْ وَشِدْهِمْ سَوَاءٌ سَوَاسِيَّةٌ كَأَسْنَانِ الْحَمَارِ
«وأَسْنَانُ الْحَمَارِ مَسْتَبِيَّةٌ،

وقال طرفة بن العبد :

كَلَّ خَالِيْلُ كُنْتُ خَالَتُهُ لَا تَرَكَ اللهُ لَهُ وَاضِحَةً^(١)
كَلِمَ أَرْوَعُ مِنْ ثَعْلَبٍ مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ
وقال المتنبي :

وَلَمَّا صَارَ وَدَّ النَّاسُ خِبَا جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامٍ
وَصِرْتُ أَشْكُ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ لَعَلِّي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ
وقال ابن الرومي :

أَعْلَمُ بِأَنَّ النَّاسَ مِنْ طِينَةٍ يَصْدُقُ فِي الثُّلُبِ لَهَا الثَّالِبُ^(٢)
وَلَا عِلَاجَ النَّاسِ أَخْلَاقَهُمْ إِذْنُ لَفَاحِ الْحُمَا اللَّازِبِ^(٣)
وقال المتنبي :

أُذِمُّ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْلُهُ فَأَعْلَهُمْ قَدَمٌ وَأَحْزَمُهُمْ وَغَدُ
وقال :

إِنَّمَا أَنْفُسُ الْأَنْبِيَاءِ سِبَاعٌ يَتَفَارَسْنَ جَهْرَةً وَاجْتِيَالًا
مَنْ أَطَاقَ النَّاسَ شَيْءٌ غَلَابًا وَاجْتِصَابًا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالًا
كُلُّ غَادٍ لِحَاجَةٍ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ الْغَضَبُفَرَّ الرَّبَالًا

(١) الواضحة : الأسنان التي تبدو عند الضحك . (٢) الثلب : العيب

(٣) الحما : الطين الاسود الملتين ، واللازب . الذي يلزق ويصلب

وقال :

إِنَّا لِنِي زَمَن تَرَكَ الْقَبِيحَ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِجْمَالٌ
لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسَ كُلُّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَالٌ

وقالوا في أن من شيم الناس أن يَحْمَدَ مَنْ رَشَدَ وَتَلُومَ مَنْ يَغْوِي
وفي ذلك يقول القطامي :

وَالنَّاسُ مَنْ يَلْقَى خَيْرًا قَالُوا لَهُ مَا يَشْتَهِي وَلَا مَ الْخَطِيئِ الْمَبْلُ^(١)

وقد أخذ من قول المُرْقَش الأصغر :

وَمَنْ يَلْقَى خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوِ لَا يَعْدَمُ عَلَى النَّفَى لَا مَأْمَا
وهذا كعمري من عناوين اللوم المركب في الطباع.

وقالوا في انتكاس الأحوال وارتفاع السفلة الأندال والقائل : خِدْلُشْ

بن زهير - شاعر جاهلي من شعراء قيس - وهو ابن عم ليلى :

فَإِنَّكَ لَا تُبَالِي بَعْدَ حَوْلٍ أَظْبَى كَانَ أَمَّكَ أَمْ حِمَارُ

فقد لحق الأسافل بالاعالى وماج اللؤم واختلط النجار

وعاد الفند مثل أبي قُبَيْسٍ وَسِيقَ مَعَ الْمُعْلَهَجَةِ الْعِشَارُ

« النجار : الأصل . والفند : قطعة من الجبل طولاً ، وأبو قُبَيْسٍ جبل

بمكة ، والمراد به : الرجل الشريف ، كما يراد بالفند ، الرجل الوضع ، والمعلهجة :

المرأة اللثيمة الأصل الفاسدة النسب . والعشار : جمع العُشَرَاءِ : الناقة مضى

لحملها عشرة أشهر ؛ يقول هذا الشاعر : أما وقد لحق الأسافل بالاعالى

واختلطت الأصول وماج أمر الناس واضطرب وعظم شأن اللوم ونفقت

(١) المبل : الثكل - الفقد -

سوقه وعاد الحسيس مثل الشريف حتى سبقت الإبل الحوامل في مهر اللئيمة
وتغير بذلك الزمان واطرحت مراعاة الأنساب فلا نبألى بعد قيامك بنفسك
واستغنائك عن أبويك ، من انتسبت إليه ، شريفاً كان أم وضيعاً... وضرب
المثل بالظبي والحمار وجعلهما أمين وهما ذكران لأنه مثل لا حقيقة ، وقصد
قصد الجنسين ولم يحقق أبوة . وذكر الحول ، لذكر الظبي والحمار ، لأنهما
يستغنيان بأنفسهما بعد الحول ؛ فهذا شاعر ساخط كما ترى ،

وقال ابن الرومي :

دَهْرٌ عَلَا قَدْرُ الْوَضِيعِ بِهِ وَهُوَ الشَّرِيفُ يَحْطُهُ شَرَفُهُ
كَالْبَحْرِ يَرْسُبُ فِيهِ لُؤْلُؤُهُ سَفَلًا وَتَطْفُو فَوْقَهُ جِيفُهُ

وقال :

رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَرْفَعُ كُلَّ وَغْدٍ وَيَخْفِضُ كُلَّ ذِي شَيْمٍ شَرِيفَةٍ
كَثَلِ الْبَحْرِ يَغْرَقُ فِيهِ حَيٌّ وَلَا يَنْفَكُ تَطْفُو فِيهِ جِيفَةٍ
أَوْ الْمِيزَانَ يَخْفِضُ كُلَّ وَافٍ وَيَرْفَعُ كُلَّ ذِي زِنَةٍ خَفِيفَةٍ

وقال الوزير المغربي :

إِذَا مَا الْأُمُورُ اضْطَرَبْنَ اعْتَلَى سَفِينُهُ بُضَامُ الْعُلَى بِاعْتِلَاتِهِ
كَذَا الْمَاءِ إِنْ حَرَّ كُنْهُ يَدُّ طَافَا عَكِرْتُ رَاسِبٌ فِي إِيَّاتِهِ

وقال المعري في الناس :

لَقَدْ قَفَّضْتُ عَنْ أَصْحَابِ دِينٍ لَهُمْ نُسْكٌ وَلَيْسَ لَهُمْ رِبَاءُ
فَالْفَيْتُ الْبَهَائِمَ لَا عُقُولَ تُقِيمُ لَهَا الدَّلِيلَ وَلَا ضِيَاءُ
وَإِخْوَانَ الْقَطَانَةِ فِي اخْتِيَالٍ كَأَنَّهُمْ لِقَوْمٍ أَنْبِيَاءُ
فَأَمَّا دَوْلَاءُ فَأَهْلُ مَكْرٍ وَأَمَّا الْأَوَّلُونَ فَأَغْيَاءُ

فإن كان الثقي بَلَّهَا وَعِيًّا فَأَعْيَارُ الْمَذَلَّةِ أَتَقْيَاءُ
« الأعيار : جمع عير ، وهو الحمار يضرب به المثل في الذل قال المتلمس :
ولا يقيم على ضميمٍ أَلَمَّ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانِ عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتِدُ
فَذَا يُخَسَّفُ مَرْبُوطًا بِمَقْوَدِهِ وَذَا يُشَجُّ وَلَا يَرِثِي لَهُ أَحَدٌ
وقال :

بَنِي الدَّهْرِ مَهْلًا إِنْ ذَمْتُ فِعَالَكُمْ فَبَانِي بِنَفْسِي لَا مَحَالَةَ أَبَدًا
مَتَى يَتَقَضَى الْوَقْتُ وَاللَّهُ قَادِرٌ فَتَسْكُنُ فِي هَذَا التُّرَابِ وَنَهْدًا
تَجَاوَرَ هَذَا الْجِسْمُ وَالرُّوحُ بِرَهَةٍ فَمَا بَرَحَتْ تَأْذَى بِذَاكَ وَتَضْدًا
وقال المعري :

جَرَبْتُ دَهْرِي وَأَهْلِيهِ فَا تَرَكْتُ لِي التَّجَارِبُ فِي وَدَّامِرِي غَرَضًا
وقال :

أُولُو الْفَضْلِ فِي أَوْطَانِهِمْ غُرَبَاءُ تَشِدُّ وَتَنَائِي عَنْهُمْ الْقُرَبَاءُ
تَوَاصَلَ حَبْلُ النِّسْلِ مَا بَيْنَ آدَمَ وَبَيْنِي وَلَمْ يُوصَلْ بِبَلَامِي بَاءُ
تَنَاءَبَ عَمْرُو إِذْ تَنَاءَبَ خَالِدٌ يَعْدَوِي فَمَا أَعْدَتْنِي الثُّبَاءُ
وَزَهَدَنِي فِي الْخَلْقِ مَعْرِقِي بِهِمْ وَعَلَيَّ بَأَنَ الْعَالَمِينَ هَبَاءُ
وقال المعري :

أَرَأَيْكَ فَلْيَغْفِرْ لِي اللَّهُ زَلَّتِي بِذَاكَ وَدِينُ الْعَالَمِينَ رِثَاءُ
وَقَدْ يُخْلِفُ الْإِنْسَانُ ظَنَّ عَشِيرِهِ وَإِنْ رَاقَ مِنْهُ مَنَظَرٌ وَرُوءَاءُ
إِذَا قَوْمُنَا لَمْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَحَدَهُ بِنُصْحٍ فَلَنَا مِنْهُمْ بُرُوءَاءُ
وقال :

إِذَا بَكَرْتُ جَنَى فَتَوَقَّ عَمْرًا فَإِنَّ كِلَيْهِمَا لَابٌ وَأُمٌّ

وفي كُلِّ الطَّبَاعِ نَكْرٌ وليس جَمِيعُهُنَّ ذَوَاتِ سُمٍّ
« النكْرُ : تَسْعُ الحَيَّةُ »

رَأَيْتُ الحَقَّ لَوَلُوءَةً تَوَارَتْ يَلْجُ مِنْ ضَلَالِ النَّاسِ جَمٍّ
وقال :

رِيَاءُ بَنِي حَوَاءَ فِي الطَّبَعِ ثَابِتٌ فَهُمْ يُجِدُّ فِي النِّفَاقِ وَهَازِلٌ
سَخَوِ الْيَقُولِ النَّاسُ جَادُوا وَأَقْدَمُوا لِيَذْكُرَ فِي الْهَيْجَاءِ قَرْنَ مُنَازِلٍ
وقال :

النَّاسُ مِثْلُ الْمَاءِ تَضْرِبُهُ الصَّبَا فَيَكُونُ مِنْهُ تَفَرُّقٌ وَتَأَلُّفٌ
وَالْحَيْرُ يَفْعَلُهُ الْكَرِيمُ بِطَبْعِهِ وَإِذَا اللَّئِيمُ سَخَا فَذَاكَ تَكَلُّفٌ
تَشْكُوتُ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ عَذْرَهُمْ

لَا تُنْكَرَنَّ فَعَلَى هَذَا مَضَى السَّافُ
وَقَلَّمَا تَسْكُنُ الْأَضْغَانُ فِي خَلْدٍ إِلَّا فِي وَجْهِ مَنْ يَسْعَى بِهَا كَلْفٌ
أَمْسَى النِّفَاقُ دُرُوعًا يُسْتَجَنُّ بِهَا مِنَ الْأَذَى وَيُقَوَّى بِمَرَدَّهَا الْخِلَافُ
« الخلف : اليمين »

حَسَنَ الْوَعْدِ بِالْإِنْجَازِ تَبِعَهُ إِذَا مَوَاعِدُ قَوْمِ شَانَهَا الْخُلْفُ
وقال :

إِذَا فَرَعْنَا فَإِنَّ الْأَمْنَ غَايَتُنَا وَإِنْ أَمِنًا فَمَا نَخْلُو مِنَ الْقَرْعِ
وَشِمَّةُ الْإِنْسِ مَزُوجٌ بِهَا مَلَلٌ فَمَا تَدُومُ عَلَى صَبْرٍ وَلَا جَزَعِ
وقال :

إِذَا مَا أَسَنَّ الشَّيْخُ أَقْصَاءَ أَهْلِهِ وَجَارَ عَلَيْهِ النَّجْلُ وَالْعَبْدُ وَالْعِرْسُ

« العرس : الزوجة »

يُسَبِّحُ كَيْمَا يَغْفِرَ اللَّهُ ذَنْبَهُ رُوَيْدَكَ فِي عَهْدِ الصَّبَا مُلَى الطَّرْسِ

وقال :

أَهْرُبُ مِنَ النَّاسِ فَإِنْ جِئْتَهُمْ فَنِلَ سَابِ جَرَّهَ السَّاحِبِ ^(١)

يَلْتَفِعُ النَّاسُ بِمَا عِنْدَهُ وَهُوَ لَقِيَ بَيْنَهُمْ شَا حِبِ ^(٢)

وقال :

إِنْ مَازَتْ النَّاسَ أَخْلَاقُ يُعَاشُ بِهَا فَإِنَّهُمْ عِنْدَ سُوءِ الطَّبَعِ أَسْوَأُ

أَوْ كَانَ كُلُّ بَنِي حَوَاءَ يُشْبِهُنِي فَيُنْسَ مَا وَلَدَتْ فِي الْخَلْقِ حَوَاءُ

بُعْدِي مِنَ النَّاسِ بُرَّةٌ مِنْ سَقَامِهِمْ وَقُرْبُهُمْ لِلْحَيِّ وَالَّذِينَ أَدَوَاءُ

كَالْبَيْتِ أَفْرَدَ لَا إِيْطَاءَ يُدْرِكُهُ وَلَا سِنَادَ وَلَا فِي الْإِظْهُاقِ ^(٣)

وقال :

قَدْ حُجِبَ الثُّورُ وَالضِّيَاءُ وَإِنَّمَا دَيْنُنَا رِبَاءُ

يَا عَالَمَ السُّوءِ مَا عَلِمْنَا أَنَّ مُصْلِكَ أَتْقِيَاءُ

كَمْ وَعَظَ الْوَاعِظُونَ مِنَّا وَقَامَ فِي الْأَرْضِ أَنْبِيَاءُ

فَانْصَرَفُوا وَالْبَلَاءُ بَاقٍ وَلَمْ يَزُلْ دَاوُكُ الْعِيَاءُ

« زال يزول : راح وذهب ؛ والعياء : الذي لا يبرأ منه »

حُكْمٌ جَرَى لِلْمَلِكِ فِينَا وَنَحْنُ فِي الْأَصْلِ أَغْيَاءُ

(١) السَّابِ : زق الخمر

(٢) اللقي : الملقى على الأرض ، والشاحب : المهزول المتغير اللون لعارض كعرض ونحوه

(٣) الإيطاء : تكرار القافية بلفظها ومعناها ، والاقواء : اختلاف إعراب القوافي ،

والسناد أنواع وهو كل عيب يحدث قبل الروي كارداف قافية وتجريد أخرى

وهذه من عيوب القافية

وقال :

مُلَّ المَقَامُ فَمَكَّمْ أَعَاثِرُ أُمَّةٍ أَمَرْتُ بِغَيْرِ صِلَاحِهَا أَمْرًاؤَهَا
ظَلَمُوا الرِّعْيَةَ وَاسْتَجَازُوا كَيْدَهَا قَعَدُوا مَصَالِحَهَا وَهُمْ أَجْرَاؤُهَا
وقال بشار بن برد :

خَيْرُ إِخْوَانِكَ الْمُشَارِكُ فِي الْمُرِّ وَأَبْنُ الْمُشَارِكِ فِي الْمَرِّ أَيْنَا
الَّذِي إِنْ شَهِدْتَ سُرَّكَ فِي الْحَمَى وَإِنْ غَبْتَ كَانَ أَذْنَا وَعَيْنَا
مِثْلُ سِرِّ الْيَاقُوتِ إِنْ مَسَّهُ النَّارُ جَلَاهُ الْبَلَاءُ فَازْدَادَ زِينَا
أَنْتَ فِي مَعْشَرٍ إِذَا غَبْتَ عَنْهُمْ بَدَلُوا كُلَّ مَا يَزِينُكَ شِينَا
وَإِذَا مَا رَأَوْكَ قَالُوا جَمِيعَا أَنْتَ مِنْ أَكْزَمِ الْبَرَايَا عَلَيْنَا
مَا أَرَى لِلْأَنَامِ وُدًّا صَحِيحَا عَادَ كُلُّ الْوِدَادِ زُورًا وَمِينَا
وقال ابن الرومي :

ذُقْتُ الطُّعُومَ فَمَا التَّدَذُّتُ بِرَاحَةٍ مِنْ صُحْبَةِ الْإِخْيَارِ وَالْإِشْرَارِ
أَمَّا الصَّدِيقُ فَلَا أَحَبُّ لِقَاءٍ حَذَرَ الْقَلَى وَكَرَاهَةَ الْإِعْوَارِ
وَأَرَى الْعَدُوَّ قَدَى فَأَكْرَهُ قُرْبَهُ وَأَرَى صَدِيقًا لَا يَنْوِي إِسْقَاطَهُ
أَرَى الَّذِي عَاشَرْتَهُ فَوَجَدْتَهُ مُتَغَاضِيًا لَكَ عَنْ أَقْلٍ عِشَارِ
أَحَبُّ قَوْمًا لَمْ يُجِئُوا رَبَّهُمْ إِلَّا لِيَفْرَدُوهُ لَدَيْهِ وَنَارِ

وقال :

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ فَلَا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصَّحَابِ
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ يَحُولُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ
إِذَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ غَدًا عَدُوًّا مُبِينًا وَالْأُمُورُ إِلَى انْقِلَابِ

ولو كان الكثيرُ يَطِيبُ كانتُ صاحِبَةُ الكثيرِ من الصوابِ
وما اللُّجُجُ المِلاحُ بِمُرُوباتٍ وتَلَقَّى الرِّىَّ فى النُّظْفِ العِذابِ
وبعد فإن هذا الباب مُتَّسِعٌ جداً ، وسيمر عليك كثير من عقوباتهم فيه فى باب
الإخوانيات و باب الطبائع ، فلنَجْتَزِى بهذا المقدار .



الغوغاء

ولهم فى السَّقَّاطِ والسَّفِلَةِ وهذه الرِّجَرَةُ من الناس كلام كثير ، فمن ذلك قولُ
واصِلِ ابنِ عَطَاءٍ : أَلَا قَاتَلَ اللهُ هَذِهِ السَّفِلَةَ ، تُؤَادُّ مَنْ حَادَّ اللهَ وَنَبِيَّهَ ، وَتُحَادُّ مَنْ
وَادَّ اللهَ وَنَبِيَّهَ ، وَتَذُمُّ مَنْ مَدَحَهُ اللهُ ، وَتَمْدُحُ مَنْ ذَمَّهُ اللهُ ، عَلَى أَنْ بِهِمْ
عِلْمُ الْفَضْلِ لِأَهْلِ الطَّبَقَةِ الْعَالِيَةِ ، وَبِهِمْ أُعْطِيَتْ الْاَوْسَاطُ حَقَّهَا مِنَ الثُّبُلِ ...
ومنه قول سيدنا على رضى الله عنه . وقد أُتِيَ بِجَنَانٍ وَمَعَهُ غَوْغَاءٌ —
فَقَالَ : لَا تَرْجَبَا بَوَاجُوهَ لَا تُرَى إِلَّا عِنْدَ كُلِّ سَوَاةٍ ... وقوله رضى الله عنه :
هم الذين إذا اجتمعوا ضُرُّوا وإذا تفرقوا نَفَعُوا ؛ فَقِيلَ لَهُ : قَدْ عَلِمْنَا مَضَرَّةَ
اجتماعهم فما منفعةُ انفرادهم ؟ فقال : يَرْجِعُ أَصْحَابُ الْمَهَنِ إِلَى مَهْنِهِمْ ، فَيَنْتَفِعُ
النَّاسُ بِهِمْ ، كَرَجُوعِ الْبِنَاءِ إِلَى بِنَائِهِ ، وَالنَّسَاجِ إِلَى مَنَسَجِهِ ، وَالْحَبَّازِ
إِلَى مَخْبَرِهِ .

وكان الحسن البصرى إذا ذكر الغوغاء والسُّوق يقول : قَتَلَةُ الْأَنْبِيَاءِ ،
وكانوا يقولون : الْعَامَّةُ كَالْبَحْرِ إِذَا هَاجَ أَهْلُكَ رَاكِبُهُ ، وكان المأْمُون الخليفة
العباسى يقول : كُلُّ شَرٍّ وَظَلَمٍ فى الْعَالَمِ فَهُوَ صَادِرٌ عَنِ الْعَامَّةِ وَالْغَوْغَاءِ ؛ لِأَنَّهُمْ
قَتَلَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَالشُّعَاةُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، وَالنَّمَامُونَ بَيْنَ الْأَوْدَاءِ ، وَمِنْهُمْ لِلْاَوْصِ

وَقَطَّاعِ الطَّارِقِ وَالطَّرَارُونَ وَالْمُحْتَالُونَ وَالسَّاعُونَ إِلَى السَّاطَانِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ حُشِرُوا عَلَى عَادَتِهِمْ فِي السَّعَايَةِ ، فَقَالُوا : رَبَّنَا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ، رَبَّنَا وَآتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا... وَقَالَ الْجَاهِظُ : الْغَاغَةُ وَالْبَاغَةُ ^(١) وَالْحَاكَةُ كَأَنَّهُمْ إِعْذَارُ ^(٢) عَامٍ وَاحِدٍ ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَا تَجِدُ أَبَدًا فِي كُلِّ بَلَدَةٍ ، وَفِي كُلِّ عَصْرِ ، هَوْلًا ، إِلَّا بِمَقْدَارٍ وَاحِدٍ وَجْهَةً وَاحِدَةً ، مِنَ السَّخْفِ وَالنَّقْصِ وَالْخَوْلِ وَالْغَبَاوَةِ .

وَمِنْ كَلِمَةِ لِسِيدِنَا عَلَى فِي فَضْلِ الْعِلْمِ عَلَى الْمَالِ وَوَصْفِ الطَّغَامِ — قَالَ كَمِيلُ بْنُ زِيَادٍ النَّخَعِيُّ : أَخَذَ بِيَدِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَأَخْرَجَنِي إِلَى الْجَبَانِ ^(٣) ، فَلَمَّا أَصْحَرَ تَنَفَّسَ الصُّعْدَاءَ ^(٤) ، ثُمَّ قَالَ : يَا كَمِيلُ بْنُ زِيَادٍ ، إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَتْ نَفِيرَهَا وَأَوْعَاهَا ، فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ ، النَّاسُ ثَلَاثَةٌ ، فَقَالِمُ رَبَّانِي ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ ، وَهَمَّجٌ رَعَاغٌ ، أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ ، وَلَمْ يَاجِأُوا إِلَى رَكْنٍ وَثِيقٍ ، يَا كَمِيلُ ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ ، وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ التَّفَقُّةُ وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ ؛ يَا كَمِيلُ بْنُ زِيَادٍ ، هَلَّاكَ خُزَانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءُ ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ . إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْخُطْبَةِ الْعُلَوِيَّةِ الَّتِي تَرَاهَا فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ ...

(١) الَّذِي فِي اللِّسَانِ : وَبُغَاةُ النَّاسِ : سَفَلَتُهُمْ وَطَاشَتُهُمْ وَحَقَامُهُ .

(٢) الْإِعْذَارُ : الْخُتَانُ وَطَعَامُ الْخُتَانِ وَفِي الْحَدِيثِ : كُنَّا إِعْذَارَ عَامٍ وَاحِدٍ ، أَيْ

(٣) الْجَبَانُ وَالْجَبَانَةُ يَرِيدُ الصَّحْرَاءَ .

خَتَانِي فِي عَامٍ وَاحِدٍ ، وَكَانُوا يَخْتُونُ لِسْنِ مَعْلُومَةٍ فِيمَا بَيْنَ عَشْرِ سَنِينَ وَخَمْسِ عَشْرَةٍ

(٤) تَنَفَّسَ الصُّعْدَاءَ : أَيْ تَنَفَّسَ تَنَفُّسًا مَمْدُودًا طَوِيلًا

وقال معاوية لِصُصَّعَةَ بن صوحان : صِفْ لِي النَّاسَ ، فَقَالَ : خُلِقَ
النَّاسُ أَطْوَارًا ، طَائِفَةٌ لِلسِّيَادَةِ وَالْوِلَايَةِ ، وَطَائِفَةٌ لِلْفِقْهِ وَالسُّنَّةِ ، وَطَائِفَةٌ لِلْبَأْسِ
وَالنَّجْدَةِ ، وَرِجْرَةٌ بَيْنَ ذَلِكَ ، يُغْلَوْنَ السَّعْرَ ، وَيُكَدَّرُونَ الْمَاءَ ، إِذَا اجْتَمَعُوا
ضُرُّوا ، وَإِذَا تَفَرَّقُوا لَمْ يُعْرَفُوا ... وَمِنْ طَرِيفِ النِّفَاسِيرِ وَغَرِيبِهَا مَا قِيلَ فِي
قَوْلِهِ تَعَالَى : « قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ » أَيْ مِنْ
السُّلْطَانِ ، أَوْ مِنْ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ ، أَيْ مِنَ السَّفْلِ .

وَقَالَ دُعَيْلُ :

مَا أَكْثَرَ النَّاسَ لَا بِلَى مَا أَقْلَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَقُلْ فَنَدَا
إِنِّي لَأَفْتَحُ عَيْنِي حِينَ أَفْتَحُهَا عَلَى كَثِيرٍ وَلَسْكَنَ لَا أَرَى أَحَدًا
وَهُمْ يَشْبَهُونَ سَوَادَ النَّاسِ بِالْذَّبَا ، وَالذَّبَا مَقْصُورٌ : الْجَرَادُ قَبْلَ أَنْ يُطِيرَ ،
وَفِي حَدِيثٍ عَائِشَةُ قَالَتْ : كَيْفَ النَّاسُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : دَبِّي يَا كُلَّ شِدَادُهُ
ضِعْفَانَهُ حَتَّى تَقْرُمَ عَلَيْهِمُ السَّاعَةُ ...

قِلةُ الْوَفَاءِ فِي النَّاسِ وَشَيْوعُ الْغَدْرِ وَالْمَكْرِ فِي عَامَتِهِمْ

وَقَالُوا فِي قِلةِ الْوَفَاءِ فِي النَّاسِ وَوَصَفَ عَامَتَهُمُ بِالْغَدْرِ ، وَالْمَكْرِ السَّيِّئِ ،
وَمِنْ أَرْوَعٍ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : « وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ
وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ » .. وَقَالَ سُبْحَانَهُ : « الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ
مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ » ...

وَقَالَ : « أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » ، وَقَالَ : وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ

إلا بأهله ... وقال : ومن نكث فإنما ينكثُ على نفسه . وقال : إنما بغيكم على أنفسكم ... وقال المتنبي :

غيري بأكثر هذا الناس يندع
أهل الحفيظة إلا أن تُجر بهم
وفي التجارب بعد الغي ما يزع

وقال أبو فراس الحمداني :

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه
وقد صار هذا الناس إلا أقلهم
ومن أين للحر الكريم صحاب
ذئاباً على أجسادهن ثياب

وقال أبو تمام :

إن شئت أن يسود ظنك كله
فأجله في هذا السواد الأعظم
ليس الصديق بمن يعيرك ظاهراً
متبسماً عن باطن متجهم

« يقول : إن شئت أن لاتظن بأحد خيراً فاختر من شئت من هذا الناس ،

وكان يحيى بن خالد البرمكي إذا اجتهد في يمينه يقول : لا والذي جعل
الوفاء أعز ما يرى . وكان يقول : هو أعز من الوفاء . وقالوا : من عامل الناس
بالمكر كما فاهو بالندر

وكانت العرب إذا غدرَ منهم غادر ، يوقدون له بالموسم ناراً
وينادون عليه يقولون : ألا إن فلاناً غدر ... وقالوا : رب حيلة أهلك
المحتال ، وقال امرؤ القيس :

أحارِ بن عمرو كأنني تخِر
ويعدو على المرء ما ياتِمِر
« رجل تخير : خالطه الداء ، وقوله ويعدو الخ : أراد أن المرء ياتمر لغيره
بسوء فيرجع وبأل ذلك عليه » وقال شاعر لا أذكره :

وكم من حافرٍ لآخيه ليلاً
تردى في حفيرة نهاراً
ومن قولهم في وصف الغادر : فلان يحسوا الأمانات حسواً ، وفلان

أعذر من الذنب، قال : ۞ هو الذَّنْبُ وَلِلذَّنْبِ أَوْقَى أَمَانَةٍ ۞

وقال : ۞ وَالذَّنْبُ يَأْدُو لِلْغَزَالِ بِأَكْلِهِ ۞

۞ يَأْدُو لِلْغَزَالِ : يَخْتَلِه لِأَكْلِهِ ، قال الشاعر :

حَنَنْتَنِي حَانِيَاتِ الدَّهْرِ حَتَّى كَأَنِّي خَائِلٌ يَأْدُو لِصَيْدٍ ،

ويقال : رَكِبَ فُلَانُ السَّخِيرَ : إِذَا غَدَرَ ، قال حسان بن ثابت :

يَا حَارِ مَنْ يَغْدِرُ بِذِمَّةِ جَارِهِ مِنْكُمْ فَإِنْ مُحَمَّدًا لَمْ يَغْدِرْ

إِنْ تَغْدِرُوا فَالْغَدْرُ مِنْكُمْ شِيمَةٌ وَالْغَدْرُ يَنْبُتُ فِي أَصُولِ السَّخِيرِ

قال ابن برى : إِنَّمَا شُبِّهَ الْغَادِرُ بِالسَّخِيرِ ، لِأَنَّ السَّخِيرَ شَجَرٌ إِذَا انْتَهَى اسْتَرْخَى

رَأْسُهُ وَلَمْ يَبْقَ عَلَى انْتِصَابِهِ ، يَقُولُ حسان : أَنْتُمْ لَا تَنْتَبِرُونَ عَلَى وِفَاءِ كَهَذَا السَّخِيرِ

الَّذِي لَا يَنْبُتُ عَلَى حَالٍ ، بَيْنَا يُرَى مُعْتَدِلًا مُنْتَصِبًا ، عَادَ مَسْتَرْخِيًا غَيْرَ مُنْتَصِبٍ ،

وَبَعْدَ فَإِنَّهُمْ عَلَى هَذَا نَصَحُوا بِمُدَارَاةِ النَّاسِ مَا دَامَ الْإِسْتِغْنَاءُ عَنْهُمْ غَيْرَ

مُسْتَطَاعٍ . قَالَ رَجُلٌ لَابْنِ عَبَّاسٍ : ادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ يُغْنِيَنِي عَنِ النَّاسِ

فَقَالَ : إِنَّ حَوَانِجَ النَّاسِ تَتَّصِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ كاتِّصَالِ الْأَعْضَاءِ ، فَتَى يَسْتَغْنِي

الْمَرْءُ عَنْ بَعْضِ جَوَارِحِهِ ؟ وَلَكِنْ قُلْ : أَغْنَى عَنِ شِرَارِ النَّاسِ . وَرَوَى :

أَنْ بَعْضَهُمْ كَانَ يَطُوفُ وَبِقَوْلِهِ : مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي بِضَاعَ عَشْرَةِ آلَافٍ دِرْهَمٍ ؟

فَدَعَاهُ بَعْضُ الْمُلُوكِ وَبَذَلَ لَهُ الْمَالَ فَقَالَ لَهُ : أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقًا

شَرًّا مِنَ النَّاسِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَدٌّ مِنَ النَّاسِ فَانْظُرْ كَيْفَ تَحْتَاجُ أَنْ تَعَاوَلَ

مَا لَا بَدَّ مِنْهُ وَلَا غِنَى بِكَ عَنْهُ ... ثُمَّ قَالَ : هَلْ يَسَاوِي هَذَا الْكَلَامُ

عَشْرَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ ؟ قَالَ : دُونَكَ الْمَالَ ، وَلَمْ يَأْخُذْهُ ... وَقَالُوا :

نَلَسْنَا التَّعَايِشَ ، مُدَارَاةِ النَّاسِ . وَقَالَ النَّظَّامُ - إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَيَّارٍ

أَحَدُ شُيُوخِ الْمَعْتَزِلَةِ - : مَا يُسْرُنِي تَرْكُ الْمُدَارَاةِ وَلِي حُمْرُ النَّعَمِ ،

قيل له : لِمَ ؟ قال : لأن الأمر إذا غَشِيكَ فَشَخَّصْتَ له أَرْدَاكَ ، وإذا طَاطَأَتْ له تَخَطَّاتِكَ ... وقال معاوية : لو كان بيني وبين الناس شَعْرَةٌ ما انقطعت ، لأنهم إذا جذبوها أرسلتها ، وإذا أرسلوها جذبتها ... وقال أكرم بن صَيْفِي : الانقباض من الناس مَكْسَبَةٌ للعداوة ، وإفراط الانس مَكْسَبَةٌ لقرناء السوء ، ومن أمثال العرب : لا تكن حُلُوءًا فَتُسْتَرْطَ ولا مُرًّا فَتُلْغَظَ « استرطه ابتلعه » وجاء في كتاب للهند : بعض المقاربة حزم ، وكل المقاربة عجز ، كالخشب المنصوبة في الشمس ، ثَمَالٌ فيزيد ظلها ، ويُفَرِّطُ في الإمالة فيَنْقُصُ الظَّلُّ ...

وقال الطفرائي في لاميته المشهورة المعروفة بلامية العجم :
وَحُسْنُ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ مَعْجَزَةٌ فَظَنَّ شَرًّا وَكَانَ مِنْهَا عَلَى وَجَلٍ
غَاضُ الْوَفَاءِ وَفَاضَ الْغَدْرُ وَانْفَرَجَتْ مَسَافَةُ الْخُلْفِ بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ
وَإِنَّمَا رَجُلُ الدُّنْيَا وَوَاحِدُهَا مَنْ لَا يَعُولُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلٍ

الأنذال واللاثام

اللَّؤْمُ : ضِدُّ الْعِتْقِ وَالْمَكْرَمِ ، وَاللَّئِيمُ : الدَّنِيُّ الْأَصْلِي الشَّجِيحُ النَّفْسِ .
وَالنَّذَالَةُ : الْحِسَةُ وَالسَّفَالَةُ وَرَكَازُ الْعَقْلِ وَالتَّأَخُّرُ عَنِ الْمَكَارِمِ ، وَالنَّذَلُ :
الْحَسِيسُ الْحَقِيرُ الْفَسَلُ الَّذِي لَا مَرْوَةَ لَهُ . ومن عبقرياتهم في هذا الصنف
من الناس قولُ أَبِي الْأَسَدِ نُبَاتَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التِّيمِيِّ - شاعر كان معاصراً
لأبي تمام : -

إِنْ يَبْخَلُوا أَوْ يَجْبُنُوا أَوْ يَفْدِرُوا لَا يَخْفَلُوا
يَعْدُوا عَلَيْكَ مُرَجِّلِينَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

كَأَبِي بَرَّاقِشَ كُلِّ لَوْنٍ لَوْنُهُ يَتَخَيَّلُ

« وَصَفَ قَوْمًا مشهورينَ بِالْمَقَابِحِ لَا يَسْتَحُونَ وَلَا يَحْتَفِلُونَ بِمَنْ رَأَوْهُمْ عَلَى ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : يَغْدُوا هُوَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : لَا يَحْفِلُوا ، لِأَنَّ غُدُوَّهُمْ مُرَجِّلِينَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَحْزِنُوا . وَالتَّرْجِيلُ : مَشَطُ الشَّعْرِ وَإِرْسَالُهُ . وَأَبُو بَرَّاقِشَ طَائِرٌ صَغِيرٌ أَعْلَى رِيشِهِ أَغْبَرُ وَأَوْسَطُهُ أَحْمَرُ وَاسْفَلُهُ أَسْوَدٌ فَإِذَا انْتَفَشَ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ أَلْوَانًا شَتَّى . وَهَذَا أَبُو بَرَّاقِشَ غَيْرُ بَرَّاقِشَ الَّتِي وَرَدَتْ فِي قَوْلِهِمْ : عَلَى أَهْلِهَا ذَاتُ بَرَّاقِشَ ، فَهَذِهِ اسْمُ كَلْبَةٍ لِقَوْمٍ مِنَ الْعَرَبِ أُغْيِرَ عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ ، فَهَرَبُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ بَرَّاقِشُ فَرَجَعَ الَّذِينَ أَغَارُوا خَائِبِينَ ؛ فَسَمِعَتْ بَرَّاقِشَ وَقَعَّ حَوَافِرِ الْحَيْلِ ، فَتَبَحَّتْ فَاسْتَدَلُّوا عَلَى مَوْضِعِ نَبَاحِهَا ، فَعَظَفُوا عَلَيْهِمْ وَاسْتَبَاحُوهُمْ ، فَذَهَبَتْ مَمْلَأَةً وَقَالُوا : عَلَى أَهْلِهَا تَجْنِي بَرَّاقِشَ ، قَالَ حَمْرَةُ بْنُ بَيْضَ :

لَمْ تَكُنْ عَنْ جَنَابَةِ لِحْفَتِي لَا يَسَارِي وَلَا يَمِينِي جَنَّتِي
بَلْ جَنَّاها أَخٌ عَلَى كَرِيمٍ وَعَلَى أَهْلِهَا بَرَّاقِشُ تَجْنِي

وقال آخر — وهي من أبيات الحماسة — حماسة أبي تمام : —

أَنَاخَ اللُّؤْمُ وَسَطَ بَنَى رَبَاحٍ مَطِيبَتُهُ فَأَقْسَمَ لَا يَرِيمُ
كَذَلِكَ كُلُّ ذِي سَفَرٍ إِذَا مَا تَنَاهَى عِنْدَ غَايَتِهِ يُقِيمُ

« يَقَالُ : أَنْتَحْتُ الْبَعِيرَ قَبْرَكَ ، وَلَا يَقَالُ قَنَاخَ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ مَا اسْتَفْنَى عَنْهُ بِغَيْرِهِ ، وَلَا يَرِيمُ : لَا يَبْرَحُ ، وَقَوْلُهُ : كَذَلِكَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ لِأَنَّ كُلَّ ذِي سَفَرٍ مُبْتَدَأٌ وَمَقِيمٌ خَبْرُهُ ، كَأَنَّهُ قَالَ : رَكَلَ مُسَافِرٌ إِذَا مَا انْتَهَى إِلَى غَايَتِهِ يُبْلَقُ عَصَاهُ كَذَلِكَ ، أَيْ مِثْلَ إِقَامَةِ اللُّؤْمِ فِيهِمْ ، وَقَدْ نَقَلَ الْبُحْتَرِيُّ هَذَا الْمَعْنَى إِلَى الْمَذْحِ فَقَالَ :

إِذَا مَا رَأَيْتَ الْمَجْدَ أَلْقَى رَحْلَهُ فِي آلِ طَالِحَةٍ مُنَّمٌ لَمْ يَتَحَوَّلِ ،

وقال جبرير :

وَكَنتَ إِذَا تَزَلَّتْ بَدَارِ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِخَزِيَّةٍ وَتَرَكَتَ عَارَا
وقال :

تَحِيْمٌ بِطَرَقِ الثُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا وَلَوْ سَلَكَتُ سُبُلَ الْمَكَارِمِ ضَلَّتْ
وقالوا فيمن لا يصلح لخير ولا شر : فُلَانٌ أَمْلَسَ لَيْسَ فِيهِ مُسْتَقَرٌّ
لِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ . وقالوا : فُلَانٌ مَا هُوَ إِلَّا بِرَطْبٍ فَيُعَصَّرُ وَلَا يَبَاسٍ فَيُكْسَرُ .
وقالوا : شَرُّ النَّاسِ الَّذِي لَا يَتَوَقَّى أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ مُسِيئًا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ .
وقال الشاعر :

قَوْمٌ إِذَا خَرَجُوا مِنْ سَوَاءٍ وَاجْتَرَأُوا فِي سَوَاءٍ لَمْ يَخْبَأُوهَا بِأَسْتَارِ

الظن

وَلِتَفَشِّ الْغَدْرَ وَالْمَكْرَ فِي هَذَا النَّاسِ مَدَحُوا الْاِخْتِرَاسَ وَالْحَذَرَ وَسُوءَ
الظَّنِّ بِالنَّاسِ . قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : مَا الْحَزْمُ ؟ قَالَ : سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ . وقال
الشاعر البَغِيَاءُ :

وَأَكْثَرُ مَنْ تَلَقَّى يَسْرُكَ قَوْلُهُ وَلَكِنْ قَلِيلٌ مَنْ يَسْرُكَ فِعْلُهُ
وَقَدْ كَانَ حُسْنُ الظَّنِّ بَعْضَ مَذَاهِبِي

فَأَذْبَنِي هَذَا الزَّمَانُ وَأَهْلُهُ

وقالوا عليك بِسُوءِ الظَّنِّ ، فَإِنْ أَصَابَ فَالْحَزْمُ ، وَإِنْ أَخْطَأَ فَالْإِسْلَامَةُ .
وقال بعضهم : إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : إِنْ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ : دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ جُلَّهُ
صَوَابٌ . وقال عبد الملك بن مُرْوَانَ : فَرَّقَ مَا بَيْنَ عُمَرَ وَعُثْمَانَ أَنَّ عُمَرَ
أَسَاءَ ظَنَّهُ فَأَحْكَمَ أَمْرَهُ ، وَأَنَّ عُثْمَانَ أَحْسَنَ ظَنَّهُ فَأَمْلَأَ أَمْرَهُ . وقيل

لبعضهم : أسأت الظن ! فقال : إن الدنيا لما امتلأت مكارية وجب على العاقل أن يملأها حذراً ...

ولما رأوا أن الظن هو الغالب على الناس وأنه لذلك يكاد يكون غريزة من الغرائز الإنسانية ، وأن تحقيقه ولا سيما بين الأصدقاء يُعَدُّ من الإفراط المفقوت ، وأنه لا يليق بمكارم الأخلاق ، ذمُّوه وتعوَّه على أهله ، قال تعالى : اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ . وقال سيِّدنا رسول الله : ثَلَاثَةٌ لَا يَسْلَمُ مِنْهُنَّ أَحَدٌ : الطَّيْرَةُ ، وَالظَّنُّ ، وَالْحَسَدُ ، قيل : فما المخرجُ مِنْهُنَّ يا رسول الله ؟ قال : إِذَا تَطَيَّرْتَ فَلَا تَرْجِعْ ، وَإِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّقْ ، وَإِذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ ... وقال صلوات الله عليه : إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ . وقال ابن الأثير في النهاية : إِيَّاكُمْ وَسُوءَ الظَّنِّ وَتَحْقِيقَهُ ، دُونَ مَبَادِيِ الظُّنُونِ الَّتِي لَا تُمَلِّكُ وَخَوَاطِرِ الْقُلُوبِ الَّتِي لَا تُدْفَعُ ، وقيل : أراد : الشكَّ يَغْرِضُ لَكَ فِي الشَّيْءِ فَتُحَقِّقُهُ وَتَحْكُمُ بِهِ . وأكذب الحديث : أى حديث النفس ؛ لأنه يكون بإلقاء الشيطان في نفس الإنسان ، وقال المتنبى :

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَقَ مَا يَتَّعَدُهُ مِنْ تَوَهُُّمِهِ
وَعَادَى مُحِبِّهِ بِقَوْلِ عِدَائِهِ فَأَصْبَحَ فِي دَاجٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمِ

وقال شاعر :

مَنْ سَاءَ ظَنًّا بِمَا يَهْوَاهُ فَارَقَهُ وَحَرَّضَتْهُ عَلَى إِبْهَادِهِ التَّهَمُ

وَمِنْ هُنَا مَدَحُوا التَّثَبُّتَ وَالتَّغَافُلَ . وترى سائر عبقرياتهم في الظن في

باب الطبائع وباب الإخوانيات .

الشَّمَاةُ

والشَّمَاةُ : الفرح بِبَلِيَّةٍ تَنْزِلُ بِمَنْ تُعَادِيهِ ، تقول : شَمِيتَ بِهِ يَشْمَتُ شَمَاةً وَشَمَاتًا ، وَأَشْمَتُهُ اللَّهُ بِهِ ، وفي القرآن الكريم : فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ . . . وقد تقدم طَرَفٌ من عبقرياتهم في الشَّمَاةِ بالموت ، ومن عبقرياتهم في الشَّمَاةِ مطلقًا قول الفرزدق :

إِذَا مَا الدَّهْرُ جَرَّ عَلَى أَنَاسٍ حَوَادِثُهُ أَنَاخَ بَاخِرِينَا
فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ إِنَّا أَفِيقُوا سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا
وقيل لِأَيُّوبَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَيُّ شَيْءٍ كَانَ أَشَدَّ عَلَيْكَ فِي بَلَاتِكَ ؟
قال شَمَاةُ الْأَعْدَاءِ .

الحَقْدُ

الحَقْدُ — كما جاء في اللسان — : إِمْسَاكُ الْعَدَاوَةِ فِي الْقَلْبِ وَالزَّبْرِ
لِفِرْصَتِهَا ، قال : والحَقْدُ : الضُّغْنُ . قال : وَحَقَّدَ عَلَى يَحْقِدُ حَقْدًا ، وَحَقَّدَ
— بالكسر — حَقْدًا وَحَقْدًا فَهُوَ حَاقِدٌ ؛ فَالْحَقْدُ : الْفِعْلُ ، وَالْحَقْدُ : الْأِسْمُ ،
وَتَحَقَّدَ : كَحَقَّقَ ، قال جرير :

يَا عَذَنَ إِنَّ وَصَالَهُنَّ خِلَابَةٌ وَلَقَدْ جَمَعَنَ مَعَ الْبِعَادِ تَحَقُّدًا
« وبعد ، فَالْحَقْدُ عَلَى أَنَّهُ خَلَّةٌ لَا تَتَفَقُّ وَالنَّبْلُ وَالسُّودَدُ وَمَكَارِمُ
الْأَخْلَاقِ فَإِنَّهُ دَلِيلُ الْحَيَوِيَّةِ ، وَمَنْ تَمَّ يَكَادُ يَكُونُ خَلَّةً مَرَّ كَوْرَةً فِي الطَّبَاعِ ،
وَإِذَا كَانُوا قَدْ مَدَّحُوهُ فَإِنَّمَا يَتَرَامُونَ — كما قلنا — إِلَى أَنَّهُ عُذْوَانُ الْحَيَوِيَّةِ وَأَنْ
مَنْ لَا يَحْقِدُ لَا يَشْكُرُ ، وَإِذَا هُم ذَهَبُوا ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَدْعُونَ إِلَى تَنَاسِيهِ وَأَنْ
مِنْ سُمُو الْأَخْلَاقِ أَنْ لَا يَحْمِلَ الْمَرْءُ الْحَقْدَ الْقَدِيمَ ، كما قال الْمُقَنَّنُ الْكِنْدِيُّ

واسمُه محمد بنُ عُمَيْرَة ، وهو شاعر كُنْدِيٌّ إِسْلَامِيٌّ ^(١) ، وكان أَحْسَنَ الناس
وَجْهًا فَإِذَا سَفَرَ لُقِيَ ، أَى أَصَابَتْهُ الْعَيْنُ ، فَيَمْرُضُ وَيَلْحَقُهُ عَنَتٌ ، فَكَانَ
لَا يَمْشِي إِلَّا مُقَنَّعًا ، قَالَ مِنْ أَيْيَاتٍ جَيِّدَةٍ تَرَاهَا فِي حِمَاسَةِ أَبِي تَمَامٍ وَغَيْرِهَا :
وَلَا أَحْمِلُ الْحَقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ
وَلَيْسَ رَأْسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحَقْدَا

ذم الحقد ومدحه

أما عبقرياتهم في ذم الحقد : فمن ذلك ما يُروى : أَنَّهُ قِيلَ لِأَخْنَفِ بْنِ
قَيْسٍ : مَنْ أَسْوَدُ النَّاسِ ؟ فَقَالَ الْآخَرُ قُ فِي مَالِهِ الْمَطْرَحُ الْحَقْدُ :
وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ يَذَّمُهُ بَعْدَ أَنْ مَدَحَهُ ، كَمَا سَأَلَنِي :
يَا مَادَحَ الْحَقْدِ مُخْتَلَاً لَهُ شَبْهًا لَقَدْ سَلَكْتَ إِلَيْهِ مَسْلَكًا وَعَثَا ^(٢)
لَنْ يَقْلِبَ الْعَيْبَ زِينًا مَنْ يُزِينُهُ حَتَّى يَرُدَّ كَبِيرًا عَانِيًا حَدَثَا ^(٣)

(١) وهو صاحب هذه الآيات الجيدة في صاحب السوء :
وَصَاحِبُ السُّوءِ كَالِدَاءِ الْعِيَاءِ إِذَا مَا رَفَضَ فِي الْجُوفِ يَجْرِي هَاهُنَا وَهَاهُنَا
يَلْبِي وَيُخْبِرُ عَنْ سَوَاتٍ صَاحِبِهِ وَمَا رَأَى عِنْدَهُ مِنْ صَالِحٍ دَفَنَّا
كَمْهَرٍ سَوْءٍ إِذَا رَفَعْتَ سِيرَتَهُ رَأَى الْجَمَاحَ وَإِنْ خَفَضْتَهُ حَرَنَّا
إِنْ يَخَى ذَاكَ فَكُنْ مِنْهُ بِمَغْزَلَةٍ أَوْ مَاتَ ذَاكَ فَلَا تَعْرِفْ لَهُ جَنَنَّا
« دَاءُ عِيَاءٍ : لَا يُبْرَأُ مِنْهُ ، وَرَفَعْتَ سِيرَتَهُ : حَمَلْتَهُ عَلَى أَنْ يَزِيدَ فِي سُرْعَةِ
سِيرِهِ ، وَالْجَنَنُ - بِالْتَحْرِيكِ - الْقَبْرِ »

(٢) وعث الطريق : تعسر سلوكه والكلام على المثل

(٣) عانيا : جاوز الحد

إِنَّ الْقَبِيحَ ، وَإِنْ صَنَعْتَ ظَاهِرَهُ يَعُودُ مَا لَمْ مِنْهُ مَرَّةً شِعْثًا ^(١)
 كَمْ زَخَرَفَ الْقَوْلُ ذُو زُورٍ وَلَبَّسَهُ عَلَى الْقُلُوبِ وَلَكِنْ قَلَمَّا لَبَسْنَا
 قَدْ أَبْرَمَ اللَّهُ أَسْبَابَ الْأُمُورِ مَعًا فَلَنْ تَرَى سَيِّئًا مِنْهُمْ مُنْتَكِبًا
 يَا دَاغِ الْخُقْدِ فِي ضِعْفِي جَوَانِحِهِ سَاءَ الدِّفْنُ الَّذِي أُمْسَتْ لَهُ جَدْنَا ^(٢)
 الْخُقْدُ دَاءٌ دَرِيٌّ لَا دَوَاءَ لَهُ يَرَى الْمَصْدُورَ إِذَا مَا جَرَّهُ حُرْنَا ^(٣)
 فَاسْتَشْفِ مِنْهُ بِصَفْحٍ أَوْ مُعَاتَبَةٍ فَإِنَّمَا يَبْزَأُ الْمَصْدُورُ مَا نَفَسَا ^(٤)
 وَاجْعَلْ طِلَابَكَ بِالْأَوْتَارِ مَا عَظُمَتْ

وَلَا تَكُنْ لِصَغِيرِ الْأَمْرِ مُكْتَرِنًا
 وَالْعَفْوُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَإِنْ جُرْمٌ مِنْ مُجْرِمٍ جَرَحَ الْإِكْبَادُ أَوْ فَرَا ^(٥)
 يَكْفِيكَ فِي الْعَفْوِ أَنَّ اللَّهَ قَرَّظَهُ وَحِيًّا إِلَى خَيْرٍ مَنْ صَلَّى وَمَنْ بُعِثَا
 شَهِدْتُ أَنَّكَ لَوْ أَذْنَبْتَ سَاءَكَ أَنْ
 تَلْقَى أَخَاكَ حَقُودًا صَدْرُهُ شَرْنَا ^(٦)

(١) شعث : منتشر مفرق

(٢) الجدت : القبر

(٣) حرث : هيج ، ويرى الصدور : يأكلها

(٤) المصدور : الذي يشتكي صدره ، وما في قوله : ما نفثا مصدرية ، ونفث : رمى بالنفثاة وهو ما يلقى المصدور من فيه وفي المثل : لا بد للمصدور أن ينفث وقد يستعار ذلك للبعاني كما هنا وكما ورد أن بعضهم قال لشاعر : متى تقول هذا الشعر ، فقال : أوستطيع المصدور أن لا ينفث ! أى لا يبرق ، شبه الشعر بالنفث لأنهما يخرجان من الفم .

(٥) الفرث : نفثت الكبد بالغم والأذى

(٦) الشرث ههنا : الغليظ الخشن ، من شرث الكف غلظ وشقق ، والشرث أيضا : الخلق البالي من كل شيء فلعله من هذا أيضا .

إِذْنٌ وَمَتْرَكٌ أَنْ يَنْسَى الذُّنُوبَ مَعًا وَأَنْ تُصَادِفَ مِنْهُ جَانِبًا دَيْنًا
لَئِنْ إِذَا خَلَطَ الْأَقْوَامُ صَالِحَهُمْ بِسَيِّئِ الْفَعْلِ جِدًّا كَانَ أَوْ عَيْنًا
جَعَلْتُ صَدْرِي كظَرْفِ السَّبَّكِ حِينَئِذٍ يَسْتَخْلِصُ الْفِضَّةَ الْبَيْضَاءُ لَا الْخَبْنَاءُ
وَلَسْتُ أَجْعَلُهُ كَالْحَرِيزِ أَمْدُوحَهُ بِحِفْظِ مَا طَلَبَ مِنْ مَاءٍ وَمَا خَبْنًا

وقال يمدح الحقد:

حَقَّدْتُ عَلَيْكَ ذَنْبًا بَعْدَ ذَنْبٍ وَلَوْ أَحْسَنْتَ كَانَ الْحِقْدُ سُكْرًا
أَدِيمِي مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ فَاعْلَمْ أَيْمَى الرَّيْعِ حِينَ أُسَى بُذْرًا
وَلَمْ تَمْكُ، يَا لَكَ الْخَيْرَاتُ، أَرْضُ لِيُزْرَعَ خَرْبَقًا فَتُرَيَّعَ بُرًا
أَوْدَى إِنْ فَعَلْتَ الْخَيْرَ خَيْرًا إِلَيْكَ وَإِنْ فَعَلْتَ الشَّرَّ شَرًّا
وَلَسْتُ مُكَافَأًا بِالْثُكْرِ عُرْمًا وَلَسْتُ مُكَافَأًا بِالْعُرْفِ نُكْرًا
يُسَمَّى الْحِقْدُ عَيْيًّا وَهُوَ مَذْحُحٌ كَمَا يَدْعُونَ حُلُوَ الْحَقِّ مُرًّا

« الخَرْبِقُ: نبات كالشَّمِّ ورقه أبيض وأسود، والْبُرُّ: القمح »

وأراد يحيى بن خالد بن برمك وزير الرشيد أن يَضَعَ من عبد الملك ابن صالح فقال له: يا عبد الملك بلغني أنك تحقود فقال عبد الملك: أيها الوزير، إن كان الحقد هو بقاء الخير والشر لهما لباقيان في قلبي، فقال الرشيد: ما رأيت أحداً احتجَّ للحقد بأحسن مما احتج به عبد الملك وقال ابن الرومي يمدح الحقد أيضاً وقد عابه عائب:

لَيْنَ كُنْتَ فِي حِفْظِي لِمَا أَنَا مُودَّعٌ

من الخير والشر انتحيت على عرَضِي

لَمَّا عَبَتْنِي إِلَّا بِفَضْلٍ إِبَانَةٍ وَرُبَّ أَمْرِي يُزِرِّي عَلَى خُلُقِي مُحَضٍ
وَلَا عَيْبَ أَنْ تُجْزِيَ الْقُرُوضُ بِمِثْلِهَا بَلِ الْعَيْبُ أَنْ تَدَّانَ دَيْنًا وَلَا تَقْضِي

وخيرُ سَجِيَّاتِ الرِّجَالِ سَجِيَّةٌ تُؤْفِكُ مَا تُسْدِي مِنَ الْقَرْضِ بِالْقَرْضِ
 إِذَا الْأَرْضُ أَدَّتْ رَيْعَ مَا أَنْتَ زَارِعٌ مِنَ الْبَذْرِ فِيهَا فَهِيَ نَاهِيكَ مِنْ أَرْضٍ
 وَلَوْلَا الْحُقُودُ الْمُسْتَكِنَاتُ لَمْ يَكُنْ لِيَنْقُضَ وَتَرَأَ آخِرَ الدَّهْرِ ذُو نَقِضٍ
 وَمَا الْحَقْدُ إِلَّا تَوَأْمُ الشُّكْرِ فِي الْفَقَى وَبَعْضُ السَّجَايَا يَمْتَهِنُ إِلَى بَعْضٍ
 فَحَيْثُ تَرَى حَقْدًا عَلَى ذِي إِسَاءَةٍ فَتَمَّ تَرَى شُكْرًا عَلَى حَسَنِ الْقَرْضِ
 وَفِي هَذَا الْقَدَرِ مِنْ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي الْحَقْدِ كِفَايَةٌ. وَتَرَى فِي بَابِ الطَّبَائِعِ
 مَا يَنْقَعُ غُلَّتُكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الحسد

الْحَسَدُ وَقَا اللَّهُ شَرُّهُ — دَاءٌ مِنَ الْأَدْوَاءِ الْمُنَاصِلَةِ الْخَبِيثَةِ الشَّامِعَةِ فِي
 هَذَا النَّاسِ إِلَّا مَنْ عَصَمَ رَبُّكَ ، قَالَ عَلِيٌّ : الْحَسَدُ : أَنْ يَرَى الرَّجُلُ لِأَخِيهِ
 نِعْمَةً فَيَتَمَنَّى أَنْ تَزُولَ عَنْهُ وَتَكُونَ لَهُ دُونَهُ ، أَمَا الْغَبْطُ أَوْ الْغِبْطَةُ فَهِيَ :
 أَنْ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُهَا وَلَا يَتَمَنَّى زَوَالَهَا عَنْهُ ، وَهِيَ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ
 الْأَزْهَرِيُّ - : ضَرْبٌ مِنَ الْحَسَدِ ، وَلَكِنهَا أَخْفَ مِنْهُ ، قَالَ : أَلَا تَرَى أَنَّ النَّبِيَّ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا سُئِلَ : هَلْ يُضَرُّ الْغَبْطُ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، كَمَا يُضَرُّ الْخَبْطُ
 فَأَخْبَرَ أَنَّهُ ضَارٌّ وَلَيْسَ كَضَرِّ الْحَسَدِ الَّذِي يَتَمَنَّى صَاحِبُهُ زَوَالَ النِّعَةِ عَنْ
 أَخِيهِ ، وَالْخَبْطُ : ضَرْبٌ وَرَقِ الشَّجَرِ حَتَّى يَتَحَاتَّ عَنْهُ ثُمَّ يَسْتَخْلَفُ مِنْ غَيْرِ
 أَنْ يُضَرَّ ذَلِكَ بِأَصْلِ الشَّجَرَةِ وَأَغْصَانِهَا

وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ...
 قَالَ الْإِمَامُ الْبَيْضاوِيُّ : مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ : أَيُّ مِنَ
 الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ كَالْجَاهِ وَالْمَالِ ، قَالَ : لَا تَتَمَنَّوْهُ . فَلَعَلَّ عَدَمَهُ خَيْرٌ ، قَالَ :

والمقتضى للنفع كونه ذريعة إلى التحاسد والتعادي مُعْرِبةً عن عَدَم الرضا بما قَسَمَ الله له ، وأنه أَشَبَّ لحصول الشيء له من غير طلب ، وهو مذهوم لأن تَمَنَّى ما لم يُقَدَّر له معارضة لحكم القدر وتَمَنَّى ما قدر له بغير كسب ضائع ومحال ؛ وقد نعى الله في غير ما آية على أولئك الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ،

وفي الحديث : لا حسدَ إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آتاء الليل وأطراف النهار ، ورجل آتاه الله قرآنا فهو يتلوه ... قال الإمام الأزهري : هو أن يتمنى الرجل أن يرزقه الله مالا يُنْفِقُ منه في سبيل الخير أو يتمنى أن يكون حافظاً لكتاب الله فيتلوه آتاء الليل وأطراف النهار ، ولا يتمنى أن يُرزَأَ صاحب المال في ماله أو تال القرآن في حفظه . وقال ثعلب : معناه ليس حسد لا يضر إلا في اثنتين ، أقول : ومعنى ذلك أن كل حسد ضار إلا في هاتين أي أن حسد صاحب المال ينفقه في سبيل الخير وحافظ القرآن يتلوه ، غير ضار ، لأن هذين على سبيل سواء يستحقان معه أن يُحَسَدَا ، أي أن يُغْبَطَا ...

وقال حكيم : الحسد من تعادي الطباع واختلاف التركيب وفساد مزاج البنية وضعف عقْدِ العقل . والحاسد طويل الحسرات .

وقال حكيم : الحسد جُرحٌ لا يَبْرَأُ ، وَحَسْبُ الحسود ما يَلْقَى . وقال الحسن البصري : يا ابن آدم ، لِمَ تَحْسُدُ أَخَاكَ ؟ إن كان الله أعطاه لكرامته عليه ، فليَمَ تَحْسُدُ مَنْ أكرمه الله ؟ وإن كان غير ذلك فليَمَ تَحْسُدُ مَنْ صَبَّرَهُ إلى النار أو في الأثر : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وقل على بن أبي طالب : ما رأيت ظالماً أشبهَ بظالم من الحاسد ، نَفَسَ دائم ،

وعقل هائم، وحزن لازم، وقالوا: الحسود لا يسود... قال روح بن زنباع الجذامي: كنت أرى قوماً دُونِي في المنزلة عن الساطان يَدْخُلُونَ مَدَاخِلَ لَا أَدْخُلُهَا، فلما أَذْهَبْتُ عَنِ الحَسَدِ دَخَلْتُ حَيْثُ دَخَلُوا... وقال ابن المقفع: أَقْلُ مَا لَتَارَكَ الحَسَدُ فِي تَرْكِهِ أَنْ يَصْرِفَ عَنْ نَفْسِهِ عَذَابًا لَيْسَ بِمُذْرِكٍ بِهِ حَقًّا وَلَا غَائِظَ بِهِ عَدُوًّا، فَإِنَّمَا لَمْ تَرَ ظَالِمًا أَشْبَهَ بِمُظْلُومٍ مِنَ الحَاسِدِ، طُولُ أَسْفٍ، وَمُخَالَفَةُ كِتَابَةِ وَشِدَّةٍ تَحْرِقُ، وَلَا يَبْرَحُ زَارِيَا عَلَى نِعْمَةِ اللَّهِ وَلَا يَجِدُ لَهَا مَزَالًا، وَيُكَدِّرُ عَلَى نَفْسِهِ مَا بِهِ مِنَ النِّعْمَةِ فَلَا يَجِدُ لَهَا طَعْمًا وَلَا يَزَالُ سَاخِطًا عَلَى مَنْ لَا يَرْضَاهُ وَمُتَسَخِّطًا لِمَا لَنْ يَنَالَ فَوْقَهُ، فَهُوَ مُنْعَصُ الْمَعِيشَةِ دَائِمُ السَّخَطِ مَخْرُومُ الطَّلِبَةِ، لَا بِمَا قُسِمَ لَهُ يَقْنَعُ وَلَا عَلَى مَا لَمْ يُقَسِّمْ لَهُ يَغْلِبُ؛ وَالْحَسُودُ يَتَقَلَّبُ فِي فَضْلِ اللَّهِ مُبَاشِرًا لِلشَّرِّ مُنْتَفِعًا بِهِ مُهْمَلًا بِهِ إِلَى مُدَّةٍ وَلَا يَقْدِرُ النَّاسُ لَهَا عَلَى قَطْعٍ وَاتِّقَاصٍ... وقال أبو تمام:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طَوَيْتُ أَنَا حَاسِدُ لِسَانِ حَسُودٍ
لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرْتُ مَا كَانَ يُعْرِفُ طِيبُ عَرِفِ الْعُودِ
لَوْلَا التَّخَوُّفُ لِلْعَوَائِبِ لَمْ تَزَلْ لِلْحَاسِدِ التَّعْمِي عَلَى الْحَسُودِ
وَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ:

وَلَنْ يَسْتَبِينَ الدَّهْرَ مَوْضِعُ نِعْمَةٍ إِذَا أَنْتَ لَمْ تُدَلِّلْ عَلَيْهَا بِحَاسِدٍ
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمَعْتَرِ:

اصْبِرْ عَلَى كَيْدِ الْحَسُودِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

وقال ابن المقفع أيضا: الحسدُ والحِرْصُ دعامتَا الذُّنُوبِ، فَالْحِرْصُ أَخْرَجَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْحَسَدُ نَقَلَ إِبْلِيسَ مِنْ جِوَارِ اللَّهِ تَعَالَى

وقال الجاحظ : من العدل المحض والإنصاف الصريح - الخالص - أن
تَحْطَ عن الحاسد نصف عقابه ، لأن ألم جسمه قد كفاك دُونَ شطر
غَيْظك ؛ وللجاحظ رسالة مطولة في الحسد تراها في رسائله
وقيل للحسن البصري : أَيَحْسُدُ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ ؟ قال : لا أَبَالِكَ ،
أَنْبَيْتَ إِخْوَةَ يُوسُفَ ؟ وقالوا : الحسود غَضبانُ على القدر ، والقَدْرُ
لا يُعْتَبَرُ - أى لا يزال عَتَبُهُ : أى لا يرضيه - أخذ هذا المعنى منصور
الفيقيه فقال :

أَلَا قُلْ لِمَنْ بَاتَ لِي حَاسِدًا أَتَذَرُنِي عَلَى مَنْ أَسَاءَتِ الْآدِبُ
أَسَاءَتِ عَلَى اللَّهِ فِي فِعْلِهِ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبَ
وقال معاوية : كل الناس يمكنني أن أَرْضِيَهُ ، إِلَّا الْحَاسِدَ الَّذِي لَا يَرُدُّهُ
إِلَى مَوَدَّتِي إِلَّا زَوَالُ نَعْمَتِي . وقال المتنبى :

سِوَى وَجَعِ الْحَسَادِ دَارٍ فَإِنَّهُ إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ بِحَوْلٍ
وقال آخر :

كُلُّ الْعِدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِمَاتَتُهَا إِلَّا عِدَارَةٌ مِنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدٍ
ويقال : إذا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَسْلُطَ عَلَى عَبْدِهِ عَدُوًّا لَا يَرْخُمُهُ سُلْطَانُ عَلَيْهِ
حَاسِدًا ... وقال العُتْبِيُّ - وذكر وَلَدُ الَّذِينَ مَاتُوا - :

وَحَتَّى بَكَى لِي حُسَادُهُمْ وَقَدْ أَتَرَعُوا بِالْأَلْمُوعِ الْعُيُونَا
وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بَا مَرِي يَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِمِينَا
وقالوا : مَنْ دَعَمَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى تَرْكِ الدُّنْيَا فَلْيَنْظُرْ : هَلْ يَحْسُدُ أَحَدًا ، فَإِنْ
حَسَدَ كَانَ تَرْكُهُ عَجْزًا ، لِأَنَّهُ لَوْ زَهَدَ فِيهَا مَا حَسَدَ عَلَيْهَا
وقال البحرى :

مُسْتَرِيحُ الْأَحْسَادِ مِنْ كُلِّ ضَغْنٍ بَارِدُ الصَّدْرِ مِنْ غَلِيلِ الْحُسُودِ

وقيل لسفيان بن معاوية : ما أسرع حسدَ الناس إلى قومِكَ ! فقال :
 إِنَّ العرانيين تلقاها مُحَسَّدَةً ولا ترى للشامِ الناس حَسَاداً ^(١)

وقال آخر :

وترى اللبيب مُحَسَّداً لم يجترِمْ شَتَمَ الرجال وعِزُّهُ مَشْتَوْمُ
 حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالتقوا أعداءُ له وخصومُ
 كضرائر الحسناء فأن لوجهها حسدا وظلماً : إنه لديمُّ

وقال آخر :

إِن تحسدوني فإني لا ألومكم

قَبْلِي مِنَ النَّاسِ أَهْلُ الْفَضْلِ قَدْ حَسَدُوا

فدام لي ولهم مابى وما بهم ومات أكثرنا غيظاً بما يحسدُ
 أنا الذى تجِدُونِي فِي حُلُوقِكُمْ لا أَرْتَقِي صَدْرًا عَنْهَا وَلَا أَرِدُ ^(٢)

وخطب الحجاج يوماً برُسْتَقْبَاز بقولِ سُويْدِ بْنِ أَبِي كَاهِلٍ — شاعر

جاهلي إسلامي — :

كيف يرجون سقاطي بعد ما جَلَّلَ الرَّأْسَ بِيَاضٍ وَصَلَعَ
 رَبٌّ مِنْ أَنْضَجَتْ غِيظًا صَدْرَهُ قَدْ تَمَنَّى لِي مَوْتًا لَمْ يُطْعَمْ
 ويراني كالشَّجَا فِي حَلْقِهِ عَسِيراً تَخْرُجُهُ مَا يُنْسَزَعُ
 مُزِيدًا يَخْطُرُ مَا لَمْ يَرْنِي فَإِذَا أَسْمَعْتُهُ صَوْتِي أَنْقَمْعُ

(١) عرانيين القوم : سادتهم وأشرافهم . وأصل العرنيين الأنف حيث يكون فيه

الشم يقال : هم شم العرانيين

(٢) لا أرتقي صدرأ ولا أريد : أى فأنا كالشجى الدائم الذى لا منجاة لأعدائى منه

لم يَضُرَّنِي غَيْرَ أَنْ يَحْسُدَنِي

فَهُوَ يَزُقُّوْهُ مِثْلَ مَا يَزُقُّوْهُ الضُّوْعُ ^(١)

وَيُحْيِيْنِي إِذَا لَا قِيَّتَهُ وَإِذَا يَخْلُوْهُ لَهْ لِحْيٍ رَّتَعُ

قَدْ كَفَانِي اللهُ مَا فِي نَفْسِهِ وَإِذَا مَا يَكْفِيْ شَيْئًا لَا يُضَعُ

وقال ابن الرومي لصاعد بن مخلد :

وَصِدِّ لَكُمْ لَا زَالَ يَسْفُلُ جَدُّهُ وَلَا بَرَحَتْ أَنْفَاسُهُ تَتَصَعَّدُ ^(٢)

يَرَى زَبْرِجَ الدُّنْيَا يُزِفُ إِلَيْكُمْ

وَيُغْنِي عَنْ اسْتِحْقَاقِكُمْ فَهُوَ يُفَادُ ^(٣)

وَلَوْ قَاسَ بِاسْتِحْقَاقِكُمْ مَا مُنِحْتُمْ لِأَطْفَاءِ نَارٍ فِي الْحَشَا تَتَوَقَّدُ

وَأَنْتَ مِنْ عِقْدِ الْعَقِيلَةِ جِيْدَهَا وَأَحْسَنُ مِنْ سِرْبَالِهَا الْمُتَجَرَّدُ ^(٤)

وقال الأصمعي : رأيت أعرابياً قد أتت له مائة وعشرون سنة ،

فقلت له : ما طَوَّلَ عُمرُكَ ؟ فقال تركتُ الحسدَ فبقيتُ . وكانوا يقولون :

سِتَّةٌ لَا يَخْلُونُ مِنَ الْكَاتِبَةِ : رَجُلٌ افْتَمَرَ بَعْدَ غَيٍّ ، وَغَيٌّ يُخَافُ عَلَى مَا فِيهِ النَّوَى

— الهلاك والضياح — وحقودٌ ، وحسودٌ ، وطالبٌ مرتبةٌ لَا يَبْلُغُهَا قَدْرُهُ

وَمُخَاطِطُ الْأَدْبَاءِ بِغَيْرِ أَدَبٍ .

ومن ألفاظهم في وصف الحسد : قَدْ دَبَّتْ عَقَارِبُ الْحَسَدِ ، وَكُمُنَتْ

(١) زَقَا الدبك والطائر ونحوهما : صاح ، وكذلك الصبي إذا اشتد بكأوه ، والضروع

طائر من طير الليل إذا أحس بالصبح صدح

(٢) جدّه : حظّه

(٣) يفاد : يحرق فؤاده

(٤) يقول : إن جيد العقيلة أجمل من العقد الذي يظن أنه يزينه ، والمتجرد -

أي الجسم العريان - أجمل من السربال ، وهو القميص

أَفَاعِيهِمْ بِكُلِّ مَرَصَدٍ : فَلَانٌ قَدْ وَكَلَ بِي لِحْطًا يَنْتَظِلُ بِأَسْهُمِ الْحَسَدِ ...



ومن وصاياهم في باب الحذر من الأعداء الحُسد قول أعرابي يعض رجلاً : وَيَحْكُ ، إِنَّ فَلَانًا وَإِنْ ضَحِكَ إِلَيْكَ ، فَإِنَّهُ يَضْحَكُ مِنْكَ ، وَإِنْ أَظْهَرَ الشَّفَقَةَ عَلَيْكَ ، إِنَّ عَقَارِبَهُ لَتَسْرِي إِلَيْكَ ، فَإِنْ لَمْ تَتَّخِذْهُ عَدُوًّا فِي عَلَانِيَتِكَ فَلَا تَجْعَلْهُ صَدِيقًا فِي سِرِّيَتِكَ ...

وَحَذَّرَ بعض الحكماء صديقاً له صَاحِبَهُ رجل ، فقال : احْذَرْ فَلَانًا ، فَإِنَّهُ كَثِيرُ الْمَسْأَلَةِ ، حَسَنُ الْبَحْثِ ، لَطِيفُ الْاسْتِذْراجِ يحفظ أوَّلَ كلامك على آخره ، ويعتبر ما أَخْرَجْتَ بما قَدَّمْتَ ، فلا تُظْهِرَنَّ لَهُ الخافَةَ فيرى أَنَّكَ قد تَحَرَّزْتَ . واعلم أَنَّ مِنْ يَقْطَعُ الْفِطْنَةَ إِظْهَارَ الْغَيْلَةِ مع شدة الحذر . فبِائْتِهِ مُبَائِتَةَ الْآمِنِ ، وَتَحْفَظْ مِنْهُ تَحْفَظُ الْخَائِفَ . فَإِنَّ الْبَحْثَ يُظْهِرُ الْخَفِيَّ الْبَاطِنَ ، وَيُبْدِي الْمُسْتَكِنَّ الْكَامِنَ .

هذا ، وقد عقد الإمام الغزالي للحسد باباً زائداً في كتابه الإحياء حال فيه على طريقته هذا الداء - داء الحسد - وبين أسبابه وأعراضه وعلاجه ولما إذا كان شائعاً بين الأقران والإخوة والأقارب فارجع إليه إذا أردت التوسع في هذا الباب ، ولنختار منه هذه الحكاية الطريفة ، قال : كان رجل يغشى بعض الملوك ، فيقوم بحذاء الملك فيقول : أَحْسِنْ إِلَى الْحَسَنِ بِإِحْسَانِهِ ، فَإِنْ أَلْسَيْتَ سَيَكْفِيكَ إِسَاءَتُهُ ، فَحَسَدَهُ رَجُلٌ عَلَى هَذَا الْمَقَامِ ، وَذَلِكَ الْكَلَامُ ، فَسَمِعَ بِهِ إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ : إِنَّ هَذَا الَّذِي يَقُومُ بِحِذَائِكَ وَيَقُولُ مَا يَقُولُ ، زَعَمَ أَنَّ الْمَلِكَ أَبْخَرُ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ يَصِحُّ ذَلِكَ عِنْدِي ؟ قَالَ تَدْعُوهُ إِلَيْكَ ، فَإِنَّهُ إِذَا دَنَا مِنْكَ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى أَنْفِهِ لئَلَّا يَشْمَ رِيحَ الْبَخَرِ ، فَقَالَ لَهُ :

انصرف حتى أنظر ، فخرج من عند الملك ، فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم ، فخرج الرجل من عنده ، وقام بجذاء الملك على عادته ، فقال : أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسيء سيكفيكم إساءته ، فقال له الملك : آذن مني ، فدنا منه ووضع يده على فيه ، مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم فقال الملك في نفسه : ما أرى فلاناً إلا قد صدق ، وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صلة ، فكتب له كتاباً بخطه إلى عامل من عماله : إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذهب به واسألخه وأحش جلدته تبنا وأبعث به إلى ، فأخذ الكتاب وخرج ، فلقى الرجل الذي سعى به فقال : ما هذا الكتاب ؟ قال : خط الملك لي بصلة ، فقال : هبه لي ، فقال : هোক ، فأخذه ومضى إلى العامل ، فقال العامل : في كتابك : أن أذبحك وأسألك ، قال : إن الكتاب ليس هو لي ، فآله الله في أمرى حتى تراجع الملك ، فقال : ليس لكتاب الملك مراجعة فدبحه وسأله وحشا جلدته تبنا وبعث به ، ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته ، وقال مثل قوله ، فعجب الملك وقال : ما فعل الكتاب ؟ فقال : لقيني فلان فاستوهبه مني ، فوهبته له ، قال الملك : إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر ، قال : ما قلت ذلك ، قال : فلم وضعت يدك على فيك ؟ قال : لأنه أطعمني طعاماً فيه ثوم ، فكرهت أن تشمه ، قال : صدقت ، ارجع إلى مكانك فقه . كفى المسيء إساءته ... ومثل هذه الحكايات كثير ويصح أن توضع في باب السعاية والمسكر ، وعاقبة الماكرين .

«وبعد» فإن ما نورده ههنا من عبقرياتهم في الحسد والحقد وما إليهما إنما هو قليل من كثير تراه في باب الطبائع وإنما نورد ما نورد من هذه العبقریات لستوفى باب العداوات ..

المزاح

ولأن المزاح في الكثير الأعم الأغلب مدرجة البغضاء رأينا أن نورد هنا صدرا من عبقرياتهم فيه .

قال الزيدى شارح القاموس : المزاح : المباشطة إلى الغير على جهة التلطف والاستعطاف دون أذية ، حتى يخرج الاستهزاء والسخرية . قال : وقد قال الأئمة : الإكثار منه والخروج عن الحد يحل بالمروءة والوقار ، والتنزه عنه والتقبض يحل بالسنة .

ويقال : مزاح يمزح مَزَاحًا ومزاحًا ومزاحة ، وقد مازحه مُمَازَحةً ومزاحا ، والاسم المزاح بالضم والمزاحة أيضا .

نهيهم عن المزاح

جاء في الأثر : إياك والمزاح فإنه يذهب بهاء المؤمنين ويسقط مروهته ويحجر غضبه .

وقالوا : المزاح مجلبة للبغضاء مثلبة للبهاء ^(١) ، تقطعة للإخاء .

وقالوا : المزاح أوله قرح وآخره ترح ، وهو نقائص السفهاء مثل نقائص الشعراء ^(٢) .

وقالوا : لا تمازح صغيرا فيجتري عليك ، ولا كبيرا فيحقد عليك

(١) مثلبة : منقصة ومسبة

(٢) القبيضة في الشعر : ما ينقض به والجمع النقائص ومن ثم قالوا : نقائص

جرير والفرزدق ، وأصل النقض : إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء ومنه المماقضة في القول وهو أن ينقض الآخر ما قاله الأول

وقال مُسَعَّرُ بْنُ كَذَامٍ لَابْنِهِ :

وَلَقَدْ حَبَّوْهُنَّكَ يَا كِذَامُ نَصِيحَتِي فَاسْتَمِعْ لِقَوْلِ أَبِي عَلِيكَ شَفِيقِ
أَمَّا الْمَزَاحَةُ وَالْمِرَاءُ فَدَعُهُمَا خُلُقَانِ لَا أَرْضَاهُمَا إِصْدِيقِ^(١)
وَلَقَدْ بَلَّوْهُنَّهَا فَلَمْ أَحْمَدْهُمَا لِمُحَاوِرِ تَجَارٍ وَلَا لِرَفِيقِ
وَقَالُوا: الْمَزَاحُ سِبَابُ النَّوْكَى^(٢)

وقال عُمرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: لَا يَكُونُ الْمَزَاحُ إِلَّا مِنْ سَخَفٍ أَوْ بَطَرٍ.
وَقَالُوا: الْغَالِبُ فِيهِ وَاتِرٌ. وَالْمَغْلُوبُ نَائِرٌ. وَقَالَ ابْنُ نَوَاسٍ:

رُبَّمَا اسْتَفْتَحَ بِالْمَزْحِ مَغَالِيقَ الْحِمَامِ

حمدهم القصد في المزح ومزاح الأمثال

جاء في الأثر: إني لَأَمْزَحُ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا...

ومن مُزَاحِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ مَا رَوَى: أَنَّ عَجُوزًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَتْهُ فَقَالَتْ:
يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ لِي بِالْمَغْفِرَةِ، فَقَالَ: أَمَّا عَلِمْتُ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا
الْعَبَّائِرُ؟ فَصَرَخَتْ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ وَقَالَ: أَمَّا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ؟ «إِنَّا
أَنشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا»^(٣)

وَأَتَتْهُ أُخْرَى فِي حَاجَةٍ لَزَوْجِهَا فَقَالَ لَهَا: وَمَنْ زَوْجُكَ؟ فَقَالَتْ:
فُلَانٌ، فَقَالَ لَهَا: الَّذِي فِي عَيْنِهِ بَيَاضٌ؟ فَقَالَتْ: لَا، فَقَالَ: بَلَى، فَانْصَرَفَتْ
عَجَلَى إِلَى زَوْجِهَا، وَجَعَلَتْ تَتَأَمَّلُ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَتْ:

(١) المراء: الجدال وترى عقرياتهم في المراء في كتاب العلم والآداب

(٢) الحق: (٣) عرب جمع عروب وهي: المرأة الحسنة المنجية إلى زوجها

المطبعة له، أو العاشقة، أو المغتلة، أو الغنجة. والأتراب: الأمثال

أخبرني رسول الله أن في عَيْدِكَ بِيَاضًا ، فقال : أَمَا تَرَيْنِ بِيَاضَ عَيْنِي
أَكْثَرَ مِنْ سَوَادِهِمَا !

وقال صلوات الله عليه لُبْنَى كَانَ لِأَبِي طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيِّ ، وَكَانَ لَهُ
نُفَرٌ^(١) فَمَاتَ : مَا فَعَلَ النُّفَيْرُ يَا أَبَا عُمَيْرٍ ؟
وَقَالُوا : النَّاسُ فِي سَبْحٍ مَا لَمْ يَتِمَّازَحُوا .

وقال رجلٌ لِأَبِي عُيَيْنَةَ . الْمَزَاحُ سُبَّةٌ ، فَقَالَ : بَلِ سُنَّةٌ لِمَنْ يُحْسِنُهُ .

يَا سَاعَتِي فِي بُجُونِي قَدْ طَبْتُ فِيكَ وَطَبْتُ

إِنِّي إِذَا ضَاقَ صَدْرِي قَطَعْتُ بِالسُّخْفِ وَقَتِي

وقال سعيد بن العاص لِأَبِيهِ : أَقْتَصِدْ فِي مَزَاحِكَ فَالْإِفْرَاطُ فِيهِ يَذْهَبُ
الْبَهَاءُ وَيُجَرِّئُ عَلَيْكَ السُّفْهَاءَ ، وَتَرْكُهُ يَقْبِضُ الْمَوَارِسِينَ وَيُوحِشُ الْمُخَالَطِينَ

نهيهم عن الغضب في المزح

قال ابن سيرين : لَيْسَ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ الْغَضَبُ مِنَ الْمَزْحِ

الممدوح بأن فيه الجد والهزل

قال شاعر :

أَخُو الْجِدِّ إِنْ جَادَدْتَ أَرْضَاكَ جِدَّهُ

وَدُوَّ بَاطِلٍ إِنْ شَدَّتْ أَلْهَاكَ بَاطِلُهُ

وقال أبو تمام :

الْجِدُّ شَيْمَتُهُ وَفِيهِ فُكَاكُهُ سَجَّحَ وَلَا جِدَّ لِمَنْ لَمْ يَلْقَ^(٢)

(١) النفر : الليل (٢) السجح : اللين السهل

عذر من يضحك وهو محزون

❖ وقد يَضْحَكُ الْمَوْتُورُ وَهُوَ حَزِينٌ ❖

وقال آخر :

وَرُبَّمَا ضَحِكَ الْمَسْكُورُ مِنْ عَجَبِ السَّنِّ أَضْحَكَ وَالْأَحْشَاءُ تَضْطَرُّمُ

نهيهم عن كثرة الضحك

في الآخر : إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الضَّحِكِ فَإِنَّهَا تُمِيتُ الْقَلْبَ وَتُورِثُ الدَّيَّانَ .
وفيه أيضاً : وَيَلُ لِّلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَسْكَذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ ،
وَيَلُ لَهُ ، وَيَلُ لَهُ .

وقال عمرُ بن الخطاب : مَنْ كَثُرَ ضَحِكُهُ قَلَّتْ هَيْبَتُهُ

وقال علي : إِذَا ضَحَكَ الْعَالَمُ ضَحْكَةً مَجَّ مِنَ الْعِلْمِ بَجَّةٌ .

وقالوا : كَثْرَةُ الضَّحِكِ تُورِثُ الرُّعُونَةَ .

وقيل لأبي العيَّان : فَلَانُ يَضْحَكُ مِنْكَ أَفَقَالَ : إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا
كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وهذا من الأجوبة المسكتة ، وكان
أبو العيَّان ذا نواذر .

إيراد جد في مسلك هزل

قال خالد بن صفوان : رَمَانِي بِأَصْلَبَ مِنَ الْجَنْدَلِ ، وَتَشَقَّقِي بِأَحْرَ مِنْ
الْحَرْدَلِ ، ثُمَّ قَالَ إِنِّي أَمَازُحُكَ !

لي صاحب ليس يخلو لسانه من جراحی

يُجِدُّ تَمْزِيقَ عَرْضِي عَلَى سَيْلِ الْمَزَاحِ

صدر من عبقرياتهم في الغيبة والنميمة

ولأن الغيبة والنميمة مدرجتان غالباً لاعداء بادرنا بإيراد صدر من عبقرياتهم في هاتين الخلتين الذميتين .

حقيقة الغيبة والنميمة

الغَيْبَةُ الاسم من الاغتيال وهو : أن يتكلم خلفَ إنسانٍ مُستورٍ بسوءٍ أو بما يُفهمُ لوسمته وإن كان فيه ، فإن كان صدقاً فهو غَيْبَةٌ وإن كان كذباً فهو البُهْتُ والبُهتان . كذلك جاء عن سيدنا رسول الله صلوات الله عليه . وقال بعضُ الفقهاء : الغَيْبَةُ : أن تذكرَ الإنسانَ بما فيه من العيب من غير أن تُحَوِّجَ إلى ذلك ، وفي هذا احترازٌ مما يقوله الشاهد عند الحاكم . والنميمة : نقلُ الحديث من قوم إلى قوم على جهة الإفساد والشر ، ونَمَّ الحديثُ يَنْمُو وَيَنْمُو نَمًّا : نقله ، والاسم النميمة ؛ والنَّمْتُ : تمام ، ويقال للنمام : القاتل يقال : قَتَّ : إذا مشى بالنميمة ، ويقال له : قَسَّاسٌ ودرّاجٌ وغمّازٌ وهمازٌ وماؤسٌ وممّاسٌ .

ذم الغيبة والنميمة

قال الله جل شأنه : وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ، يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ نَمِيئًا فَكَرِهْتُمُوهُ . « قوله سبحانه : يُحِبُّ أَحَدُكُمْ ... الآية : تمثيلٌ وتصور لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أنظع وجه وأخفش ، قال الإمام الزنجشیری : وفيه مُبالغات شتى : منها الاستفهام الذي معناه التقرير ، ومنها جعلُ ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، ومنها إسنادُ الفعل إلى

أجدم والإشعار بأن أحداً من الآخدين لا يحب ذلك ، ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخصاً ، وحتى جعل الآخر ميتاً . قال قتادة : كما تكره إن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها فأكره لحم أخيك وهو حي .

وفي الحديث : « إن الغيبة أشد من الزنا » قيل : كيف ذلك ؟ قال : لأن الرجل يزني فيتوب ، فيتوب الله عليه ، وصاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه ، وفي الحديث المرفوع : أن امرأتين صامتا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس فأخبر النبي بذلك فقال : صامتا عما أحل لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما . واغتاب رجل رجلاً عند قتيبة بن مسلم فقال قتيبة : أمسك أيها الرجل ، فوالله لقد تلبظت بمضغة طالما لفظها الكرام .

وقال علي بن الحسين رضي الله عنه : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب النار وهذا تمثيل جميل ، وقال الشاعر :

لا تهتك من مساوي الناس ما سترتوا فيهلك الله سترتاً من مساويك
واذكروا محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تعيب أحداً منهم بما فيك
وقالوا : الغيبة مرمى اللثام وجهد العاجز .

وقال تعالى « هَمَزَ مَشَاءِ بَنِيمِ »

وقال سيدنا رسول الله : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يرَفَن إلينا عورة أخيه المؤمن ... وقال صلى الله عليه وسلم : لا يَرُاح القَتَات راحة الجنة . والقَتَات : النمام ،

من سمحت نفسه بأن يكون في حلٍّ

ومن لا تسمح نفسه

كان أبو الدرداء رضى الله عنه إذا خرج يقول : اللهم إني قد تصدّقتُ
بِعِرْضِي عَلَى عِبَادِكَ .
وقال كُثَيْرٌ عَزَّة :

هَيْئَتَا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مُخَايِرٍ لِعَزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ
« خَايَرَهُ الدَّاءُ : خَالَطَ جَوْفَهُ ،

وقيل لرجل : فلانُ شَتَمَكَ واغتابَكَ ، فقال : هو في حلٍّ . فقيل : أتَحِلُّ
مِنْ اغْتَابِكَ وَبِهِ يَنْثَلُ مِيزَاؤُكَ ؟ فقال : لَا أَحِبُّ أَنْ أَثْقَلَ مِيزَانِي
بِأَوْزَارِ إِخْوَانِي .

وقال رجلٌ لابن سيرين : قد زلتُ منك فأجعلني في حلٍّ ، فقال : لَا أَحِلُّ
مَاحَرَمَ اللَّهِ عَلَيْكَ . أما ما كان إلى فهو لك .

من قلت مبالاته بمن اغتابه

قيل لحكيم : فلانٌ يَشْتِمُكَ بِالْغَيْبِ ، فقال : لو ضربني بالسيّاطِ في
الغيب لم أبالِ به .

وقال شاعر قديم وأنشد هذا الشعر لسيدنا رسول الله العلاء بن الحضرمي :
حَتَّى ذَوَى الْأَضْغَانِ تَسْبِ قُلُوبُهُمْ تَحِيَّتُكَ الْقُرْبَى فَقَدْ تُرْفَعُ النَّعْلُ
وإن دَحَسُوا بِالْشَّرِّ فَأَعْفُ تَكْرَمَا وإن خَلَسُوا عَنْكَ الْحَدِيثُ فَلَا تَسْلُ
فإن الذي يُؤْذِيكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ وإن الذي قالوا وَرَأَاكَ لَمْ يُقْلُ

«دحس بين القوم : أفسد بينهم ، وخَدَسُوا : أخَفَوْا ، يريد : إن فعلوا الشر من حيث لا تعلمه ، وقد تقدمت هذه الآيات
وقال المتوكلُ الخليفة العباسي لأبي العيناء : مَا بَقِيَ أَحَدٌ إِلَّا آغْتَابَكَ !
فقال :

إِذَا رَضِيتَ عَنِّي كِرَامُ عَشِيرَتِي فَلَا زَالَ غَضَبَانَا عَلَى لثَامِهَا
وقيل لرجل : فُلَانٌ يَغْتَابُكَ : فقال : دَعْنِي يَسْتَرْفَعْنِي اللَّهُ بِذَلِكَ ، فَمَنْ
أَكْثَرَتِ النَّاسُ فِيهِ الْوَقِيعَةَ رَفَعَهُ اللَّهُ ، وَإِنْ بَنَى أُمِّيَّةً مَا زَالُوا يَشْتُمُونَ عَلَى
ابْنِ أَبِي طَالِبٍ سِتِّينَ سَنَةً فَلَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلَّا رِفْعَةً . وَقِيلَ لِأَخْرَ ذَلِكَ فَقَالَ :
* وَلَمْ يَمُحْ مِنْ نُورِ النَّبِيِّ أَبُو جَهْلٍ *
وقيل لِأَخْرَ مِثْلَهُ فَقَالَ : لَا ضَيْرَ ، لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَمْتَحِنَ وَدَّى ...

ذَمُّ نَاقِصٍ يَغْتَابُ فَاضِلًا

قال المتنبي :

وَإِذَا أَتَيْتَكَ مَدْمَمَتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ
وقبله يقول أبو تمام :
لَقَدْ آسَفَ الْأَعْدَاءُ فَضْلُ ابْنِ يُوسُفَ
وَذُو النَّفْثِ فِي الدُّنْيَا بِذِي الْفَضْلِ مُوَلَّعَ
وقبل أبي تمام يقول مَرْوَانُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ :
مَا ضَرَّنِي حَسَدُ اللَّئَامِ وَلَمْ يَزَلْ ذُو الْفَضْلِ يَحْسُدُهُ ذُرُّو النَّفْصِيرِ
وَأَصْلُ هَذَا الْمَعْنَى مِنْ قَوْلِ الطَّرْمَاحِ بْنِ حَكِيمٍ :
لَقَدْ زَادَنِي حُبًّا لِنَفْسِي أَنِّي بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ امْرِئٍ غَيْرِ طَائِلٍ

وَأَنْتَى شَقِيٌّ بِاللَّثَامِ وَلَا تَرَى شَقِيًّا بِهِمْ إِلَّا كَرِيمَ السَّمَائِلِ
وقد تقدم .

وقالوا : كفى بالمرء شراً أن لا يكون صالحاً وهو يقع في الصالحين .
وبلغ الأحنف بن قيس أن رجلاً يغتابه فقال : عُثَيْثَةُ تَقْرِضُ جِلْدًا
أَمْلَسًا « عثيثة تصغير عثة وهي دُويبة تلحس الثياب والصوف وأكثر
ما تكون في الصوف ، وهذا مثل قد يضرب للرجل يجتهد أن يؤثر في
الشيء فلا يقدر عليه »

وَمَا يَتَّصِلُ بِهِذَا قَوْلُهُمْ :

❖ وَمَا زَالَتِ الْأَشْرَافُ تُهْجَى وَتُمدَحُ ❖

❖ إِنَّمَا الْغِيَةُ تَلْقِيحُ الشَّرَفِ ❖ وقولهم :

من رمى غيره بعيه

من هذا قولهم : رَمَيْتُنِي بِدَائِيهَا وَأَنْسَلْتُ ^(١)

وقولهم : عَيْرٌ بُجَيْرٌ بُجْرَةٌ وَلَيْسَ بُجَيْرٌ خَبْرَةٌ . ، قال المُفَضَّلُ الضُّبِّي :
بُجَيْرٌ وَبُجْرَةٌ كَانَا أَخَوَيْنِ فِي الدَّهْرِ الْقَدِيمِ وَلَهَا قِصَّةٌ ذَكَرَهَا ، وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ
بُجَيْرٌ تَصْغِيرُ الْأَبْجَرِ وَهُوَ النَّاتِي الشَّرَّةِ وَالْمَصْدَرُ : الْبُجْرُ فَالْمَعْنَى : أَنْ ذَا
بُجَيْرَةٍ فِي سُرَّتِهِ عَيْرٌ غَيْرُهُ بِمَا فِيهِ « وَقَوْلُ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ مَا مَعْنَاهُ : أُتْبِصَرُ
الْقَدَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيكَ وَتَدَعِ الْجِدْعَ الْمُعْتَرِضَ فِي حَلْفِكَ »

اغتياب المرء غيره يدل على عيبه

قُلُوا : مَنْ وَجَدْتُمُوهُ عَيَابًا وَجَدْتُمُوهُ مَعِيًّا ، لِأَنَّهُ يَعْيبُ النَّاسَ

(١) إذا أردت الوقوف على أصل هذا المثل فإلى أمثال الميداني

بِفَضْلِ عَيْنِهِ . وفي هذا المعنى يقول الشاعر :
وَيَأْخُذُ عَيْنَ النَّاسِ مِنْ عَيْنِ نَفْسِهِ مُرَادُ لَقَمَرِي مَا أَرَادَ قَرِيبُ
وَقَالُوا : أَعَرَفَ النَّاسَ بُعَوَارِ النَّاسِ الْمُعَوَّرِ . « العُوار : العيب ،
والمُعَوَّر : ذو العيب القبيح السريرة »

واعتاب رجل آخر عند بعض الأشراف ، فقال له : يا هذا ، أَوْحَشْنَا
مِنْ نَفْسِكَ ، وَأَيَّاسْنَا مِنْ مَوَدَّتِكَ ؛ وَدَلَلْنَا عَلَى كَثْرَةِ عُيُوبِكَ بِمَا تَذَكَّرُ مِنْ
عُيُوبِ النَّاسِ ، لِأَنَّ الطَّالِبَ لِلْعُيُوبِ إِنَّمَا يَطْلُبُهَا بِقَدْرِ مَا فِيهِ مِنْهَا
وقال شاعر :

وَأَجْرًا مِنْ رَأَيْتُ بَظْهَرَ عَيْنٍ عَلَى عَيْنِ الرِّجَالِ ذُؤُوعُ الْعُيُوبِ
يقول : أجزأ الناس على عيب الناس بظهر العيب هم ذؤو العيوب ،
والظهر : ما غاب عنك ،

ومما يذكر هنا قول بعض الحكماء : الْأَشْرَارُ يَتَتَبَعُونَ مَسَاوِي النَّاسِ
وَيَتَرَكُونَ مَحَاسِنَهُمْ ، كَالذُّبَابِ يَتَتَبَعُ الْمَوَاضِعَ الْفَاسِدَةَ مِنَ الْجَسَدِ وَيَتْرَكُ
الصَّحِيحَةَ .

تشهى الغيبة واستطابتها

قالوا فى ذلك : الْغِيْبَةُ فَاكِهَةُ النَّسَاكِ وَالْقُرَاءِ ...
وَقَصَدَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ مُسْتَرْفِدًا ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا رَجَعَ سُئِلَ ،
فَقَالَ : مَنَعَنِ التَّلَذُّذَ بِالْغِيْبَةِ وَالشُّكُوى .

وقال رجلٌ لبيته : إِذَا اجْتَمَعْتُمْ فَعَلَيْكُمْ حَدِيثُ أَنْفُسِكُمْ وَدَعُوا
الْإِغْيَابَ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : نَحْنُ نَحْتَاجُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ إِلَى كَذَا وَكَذَا ، وَنَفْعُلُ
وَنُصْنَعُ كَذَا وَكَذَا ، فَقَدْ فَرَعْنَا مِنْ حَدِيثِنَا ، فِيمَاذَا نَشْتَغِلُ !

من اغتاب فاغتاب

قيل : مَنْ رَحَى النَّاسَ بِمَا فِيهِمْ رَمَوْهُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ
 وقيل : بَحْثُكَ عَنْ عِيُوبِ النَّاسِ يَدْعُو إِلَى بَحْثِهِمْ عَنْ عِيُوبِكَ .
 وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ
 وقال شاعر ظريف :

تَحَلَّلْتَ بِالسَّبِّ لِمَا رَأَيْتَ أَدِيمَكَ صَحَّ وَمَنْ سَبَّ سُبَّ
 فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِيكَ مِنْ مَغَمَرٍ سَلَكَنَا إِلَيْكَ طَرِيقَ الْكَذِبِ

نهيهم عن الإصغاء إلى المغتاب

قالوا : إِذَا رَأَيْتَ مَنْ يَغْتَابُ النَّاسَ فَاجْهَدْ جُهِدَكَ أَنْ لَا يَمُرَّ فَكَ ، فَأَشَقَّ
 النَّاسَ بِهِ مَعَارِفَهُ .

وقال عمرو بن عُيَيْدٍ لرجل يَسْتَمِعُ إِلَى آخِرِ يَغْتَابِ : وَيَلَّكَ ، نَزَّهُ أَذْنُكَ
 عَنْ اسْتِمَاعِ الْخَنَاءِ كَمَا تَنْزُهُ لِسَانَكَ عَنِ التُّنْقُطِ بِهِ .

وقالوا : * وَالسَّامِعُ الدَّامِ شَرِيكَ لَهُ *

وقال بعضُ الْمُتَصَوِّفَةِ : الرَّجُلُ يَقُولُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَأَخْشَى عَلَيْهِ بِذَلِكَ
 النَّارَ ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَمِئِدُ بِذَلِكَ الْغِيْبَةَ إِذَا سَمِعَهَا ...

الممدوح بصيانة مجلسه عن الغيبة

مَدَحَ بَعْضُهُمْ رَجُلًا فَقَالَ : يَنْزُهُ حِجَابَهُ عَنِ الْغِيْبَةِ وَمَسَامَحَهُ عَنِ النِّيمَةِ .

وقال الشاعر :

إِذَا مَا تَرَاهُ الرِّجَالُ تَحْفَظُوا فَلَمْ تُنْطَقِ التَّوْرَاءُ وَهُوَ قَرِيبُ

« العوراء : الكلمة القبيحة »

حشهم على الثبث فيما يسمع من السعاية

وُشِيَ بِرَجُلٍ إِلَى بِلَالِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ ، فَلَمَّا أَتَى بِهِ قَالَ : قَدْ أَتَاكَ كِتَابٌ
 مِنْ اللَّهِ فِي أَمْرِنَا ، فَاعْمَلْ بِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِلَبٍّ فَتَيَّنُوا
 أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » ، فَقَالَ : صَدَقَ .
 وَأُبْلَغَ أَحَدُ الْمُلُوكَ عَنْ رَجُلٍ مِنْكَرًا ، فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ ، فَقَالَ : إِنْ قَتَلْتَنِي
 وَمَنْ سَعَى بِي كَاذِبٌ يَعْظُمُ وِزْرُكَ ، وَإِنْ تَرَكْتَنِي وَهُوَ صَادِقٌ قَلَّ وِزْرُكَ
 وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ مَا تَرِيدُ ، وَالْعَجَلَةُ مُوَكَّلٌ بِهَا الزَّلَلُ ، فَأَمَرَ بِإِبْقَائِهِ .
 وَقَالَ كَثِيرٌ عَزَّةَ :

وإن جاءك الواشون عني بكذبة فروها ولم يأتوا لها بحويل^(١)
 فلا تعجلي يا عَزَّ أَنْ تَتَفَهَّمِي بِنُصْحِ أَنْيِ الْوَاشُونَ أَمْ بِحُبُولِ^(٢)

وقال عبدة بن الطبيب من أبيات يعظ فيها بنيه :

وَاعْصُوا الَّذِي يُزِجِي النَّمَائِمَ بَيْنَكُمْ مُنْتَضِحًا وَهُوَ السَّهَامُ الْمُنْقَعُ^(٣)
 يُزِجِي عَقَارِبَهُ لِيَتَّبِعَنَّ بَيْنَكُمْ حَرْبًا كَمَا بَعَثَ الْعُرُوقَ الْأَخْدَعُ^(٤)
 حَرَانٌ لَا يَشْفِي غَلِيلَ قَوَادِهِ عَسَلٌ بِمَاءٍ فِي الْإِنَاءِ مُشْعَشِعُ^(٥)

(١) فروها من القرية ، والحويل : المحاولة

(٢) الحبول : الدواهي

(٣) يزجي : يسوق ، والسهم : السم ، والمنقع : المرني

(٤) الأخدع : عرق في العنق في موضع الحجامه

(٥) مشعشع : ممزوج

لَا تَأْمَنُوا قَوْمًا يَشَبُّ صَدِيقُهُمْ بَيْنَ الْقَبَائِلِ بِالْعَدَاوَةِ يُنْشَعُ^(١)
 إِنَّ الَّذِينَ تَرَوْهُمْ إِخْوَانَكُمْ يُشْفِي غَلِيلَ صَدُورِهِمْ أَنْ تُصَدَّعُوا^(٢)
 فَضَلَّتْ عَدَاوَتُهُمْ عَلَى أَحْلَامِهِمْ وَأَبَتْ ضَبَابُ صَدُورِهِمْ لَا تُنَزَّعُ^(٣)
 قَوْمٌ إِذَا دَمَسَ الظُّلَامُ عَلَيْهِمْ هَدَجُوا قَنَافِدَ النَّيْمَةِ تَمَزَّعُ^(٤)

وسعى رجل بالإمام الليث بن سعد إلى والى مصر ، فأحضره ، فقال
 الإمام : إن رأيت أن تسأله : أَسِرَّ آتَمَمْتُهُ عَلَيْهِ خَفَانَهُ ، أَمْ كَذَبَ افْتَرَاهُ ؟
 والخائن والكاذب لَا يُقْبَلُ قولها ...

وَوَثَّى وَاشَّ إِلَى بَعْضِ الْأَمْرَاءِ وَقَالَ : إِنَّ فَلَانًا هَجَاكَ ، فَأَحْضَرَهُ
 وَأَعْلَمَهُ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : كَلَّا ، قَالَ : أَخْبِرْنِي بِذَلِكَ الثِّقَّةَ ، فَقَالَ : الثِّقَّةُ
 لَا يَكُونُ نَمَامًا .

وكان الفضل بن سهل الوزير يُبَغِّضُ السَّعَاةَ ، فَإِذَا أَتَاهُ سَاعٍ يَقُولُ :
 إِنْ كُنْتَ صَادِقًا لَمْ يَنْفَعَكَ ذَلِكَ عِنْدَنَا ، وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا عَاقِبْنَاكَ ، وَإِنْ
 شِئْتَ أَقْلَنَّاكَ .

(١) ينشع من نشع فلان بكذا : أولع به

(٢) هذا البيت من شواهد المستد إليه في علم المعاني والشاهد فيه تنبيه المخاطب
 على الخطأ في ظنه ، إذ في قوله : إِنَّ الَّذِينَ مِنْ التَّنْبِيهِ عَلَى الْخَطَا مَا لَيْسَ فِي قَوْلِكَ
 إِنَّ الْقَوْمَ الْفُلَانِينَ ، وَتَرَوْهُمْ : تَطَوَّنَهُمْ

(٣) الضباب جمع ضب ، والمراد به : الغل الممغن في الصدر إمعان الضب
 في جحره

(٤) دمس الظلام : اشتدت ظلمته ، وَهَدَجُوا : هَشُوا مَشْيَةَ الشُّيُوخِ الرَّاجِفَةِ
 الْمُنْقَارِيَةِ الْخَطِي ، وَهُوَ الْهَدَجَانُ وَرَوَايَةُ الْمَفْضِلِيَّاتِ : هَدَجُوا إِقَالَ شَارِحَهَا هَدَجُوا :
 رَحَلُوا : أَرَادَ : أَنَّهُمْ يَسْهَرُونَ بِالنَّيْمَةِ وَالْإِحْتِيَالِ فِي الشَّرِّ كَمَا يَسْهَرُ الْقَنْفَذُ لِأَنَّهُ يَسِيرُ
 وَلَا يَنَامُ لَيْلَهُ أَجْمَعُ ، وَتَمَزَّعَ ، تَسْرَعَ

وسأل رجل عبد الملك بن مروان الخَلَوَةَ : فقال لأصحابه : إذا شتمت^(١)
فلماً تها الرجل للكلام قال له : إياك وأن تمدحني ، فإنّي أعرف بنفسي منك
أو تكذبني فإنه لا رأي ليكذوب ، أو تسعى بأحدٍ إليّ ، وإن شئت
أن أقيلك أقفلك ، قال : أظنني :

وَوَشَى إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ وَاشٍ فِي أَحَدِ الْكُتَّابِ ، فَوَقَعَ :

أَقِلُّوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لَا يَيْكُم

مِنَ اللَّوْمِ أَوْسُدُوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا^(٢)

وقال الواثق لأحمد بن أبي دواد القاضي : مازال القوم في ثلبك إلى
الساعة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ،
والله وليّ جزائه ، وعقابك من ورائه ، فما الذي قلتَ لهم ؟ قال :
قلت :

وَسَعَى إِلَى بَصْرَمَ عَزَّةَ نِسْوَةٌ جَمَلِ الْمَلِكِ خُدُودَهُنَّ نَعَالُهُنَّ^(٣)

صعوبة التخلص من اغتياب الناس

سأل بعض الأنبياء ربّه عز وجل أن يدفع عنه ألسنة الناس فلا
يغتابوه ، فقال عز وجل : هذه خصلة لم أجعلها لنفسي فكيف
أجعلها لك !

وقالوا : ليس إلى السلامة من ألسنة الناس سبيل . فانظر إلى ما فيه
صلاحك فالزمه .

(١) تلك كانت عادته إذا أراد انصراف أصحابه يقول : إذا شتمت

(٢) للحطبة

(٣) لكنير عزة

وقال شاعر :

إذا كنت مَلْجِئًا مَسِينًا وَمُحْسِنًا فَعِشْيَانُ مَا تَهْوَى مِنَ الْأَمْرِ أَكْبَسُ
« ملجئًا : ملوئًا ، ومسِينًا ومحسنًا : حالان ،

ذم ناقلِ الغيبة

قالوا : من بَلَّغَكَ فقد شتمَكَ . وفي هذا المعنى يقول شاعر :
لَعَمْرُكَ مَا سَبَّ الْأَمِيرَ عَدُوُّهُ وَلَكِنَّمَا سَبَّ الْأَمِيرَ الْمُبَلِّغُ
وقيل لحكيم : فلان عابك بكذا ، فقال : لقد رأيتك تَفَحَّشْتَنِي بما
اسْتَحَى الرجلُ مِنْ استقبالي به .

الموصوف بالنميمة

قال سبحانه : (وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ مَهْمَا زَمَّ شَاءَ بَنِيمٍ)
وقال بعضهم لآخر : فلان نَمَّ بك ، فقال : إن فلانًا لو كان بينك
وبين الله واسطة لَسَعَى بك إليه .

وقال السري الرفاء :

أَنَّمْ بِمَا اسْتَوْدَعْتُهُ مِنْ زُجَاجَةٍ تَرَى الشَّيْءَ فِيهَا ظَاهِرًا وَهُوَ بَاطِنُ
وقال العباس بن الأحنف :

أَنَاسُ أَمِنَّا فَنَمُوا حَدِيثَنَا فَلَمَّا كَتَمْنَا السِّرَ عَنْهُمْ تَقَوَّلُوا

من اغتاب غيره فرآه

اغتاب أعرابي رجلا ، فالتفت فرآه ، فقال لو كان خيرا ما حضرته .

من لا يحرم اغتيابه

قال الحسن البصري : لا غيبة في ثلاثة : فاسق مجاهر ، وإمام جائر ،
وصاحب بدعة .

حُثُّهم على التحرز

ما يقتضى الغيبة

قال الحسن البصري : من دخل مداخلَ التُّهْمَةِ لم يكن له أجرُ الغيبة .
وقالوا : من عَرَّضَ نفسه للتُّهْمَةِ فلا يلومنَّ مَنْ أساءَ به الظنُّ
واغتابه .

الباب السادس

في التواضع والكبر

وما إليهما

ولما كان التواضعُ مجلبةً للودّة ، والكبرُ مَذَرَجَةً للعداوّة ، حتّى قال بعضهم — وقد قيل له : ما التواضع ؟ فقال : اكتساب المودّة ، فقيل : ما الكبر ؟ فقال : اكتساب البغض — لما كان ذلك كذلك الحَقَّقْنَا عبقرياتهم فيهما بباب الحلم وما إليه .

حدّ التواضع والكبر

التواضع فضيلة بين الضّعة والكبر ، قال الراغب : التواضع مُشْتَقٌّ من الضّعة وهو : رضا الإنسان بمنزلةٍ دون ما يستحقّه فَضْلُهُ ومنزِلَتُهُ ، وهو فضيلة لا تكاد تظهر في أفاء الناس ، لانحطاط درجتهم ، وإنما يتّسّينُ ذلك في الملوّك وأجلاء الناس وعلماؤهم . وهو من باب التفضّل ، لانه يتركُ بعض حقّه ، قال : وهو بين الكبر والضّعة : فالضّعة : وضعُ الإنسان نفسه بمحلٍّ يُزَيَّرُ به ، والكبر : وضعُ نفسه فوق قدره ، أو هو : ظَنُّ الإنسان أنّه أكبر من غيره ، والتكبر : إظهار ذلك . وهذه صفةٌ لا يستحقّها إلا الله عز وجل ، ومن ادّعاها من المخلوقين فهو فيها كاذب ، وكذلك صارَ مدحاً في البارئ تعالى ، وذماً في البشر ، وإنما شرف المخلوق في إظهار العبوديّة كما قال تعالى : لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ

ولا الملائكة المقربون ، تنبيها على أن ذلك لهم رفعة لا ضعة : قال : والتكبر يتولد من الإعجاب ، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن ، والجهل رأس الانسلاخ من الإنسانية ، ومن الكبر الامتناع من قبول الحق ، وأتبع كبر ما كان معه بُخل ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : خَصَّاتَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ : الكبر والبخل ، واستحسن قول الشاعر :

جَمَعَتْ أَمْرَيْنِ ضَاعَ الْحَزْمُ بَيْنَهُمَا نَفْسُ الْمُلُوكِ وَأَخْلَاقُ الْمَمَالِكِ

ومن تكبر لرياسة نالها دل على دناءة عُصْرِهِ ، ومن تكبر لِقُنْيَتِهِ جهل أن ذلك ظل زائل وعارية مُسْتَرْدَّةٌ ، ومن تفكّر في ذاته فعرف مَبْدَأَهُ وَمُنْتَهَاهُ وَأَوَاسِطَهُ عرف نفسه وروض كِبَرِهِ ، وقد نبّه الله على ذلك بقوله : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الثَّلَاجِ وَالتَّرَائِبِ) ^(١) ، وقال : (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ) ، وقال : (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ) ^(٢) ، ثم قال : وَأَمَّا الْعِزَّةُ فَهِيَ : الترفع بالنفس عما ياحقه منه غَضَاضَةٌ ، والعزة منزلة شريفة ، وهي نتيجة معرفة الإنسان بقدر نفسه وإكرامها عن الضراعة للأعراض الدنيوية ، قال الله تعالى : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) ، وفي الحديث : لا ينبغي المؤمن أن يُذِلَّ نفسه ، ولذا قالوا : التكبر على الأغنياء تواضع ، تنبيها على أن هذا التكبر عزّة

(١) الترائب موضع القلادة من الصدر ، وقيل : الترائب : أربع أضلاع من بطن الصدر وأربع من يسره وقال الفراء : يعني صلب الرجل - العظم من لدن الكاهل إلى العجب - وترائب المرأة

(٢) الأمشاج : الإخلاط : ماء الرجل وماء المرأة أو النطفة

نفس ، وقال ابن مسعود : من خضع لغنى فوضع نفسه عنده طمعاً فيه ذهب ثلثا دينه وشطرُ مِرْوَتِهِ . أقول ولهذا باب سيمر عليك .

حُثُّهم على التواضع

قال سيدنا رسول الله : « طُوبَى لِمَن تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ مُنْقَصَةٍ ، وَذَلَّ فِي نَفْسِهِ فِي غَيْرِ مَسْكَنَةٍ . » في غير منقصة : بأن لا يضع نفسه بمكان يُزرى به ، ويُودى إلى تضييع حق الحق — الله سبحانه — أو الخلق ، فإن القصد بالتواضع خفضُ الجناح للثومين مع بقاء عزة الدين . روى أن رجلاً مر على عمر وقد تخشع وتذلل وبالع في ذلك ، فقال عمر : ألسنتُ مُسْلِماً ؟ قال بلى ، قال : فارفع رأسك وامتدِّ عنقك فإن الإسلام عزيز منيع ؛ أما كلمة طوبى فللمعلماء فيها كلام كثير فمن ذلك قول بعضهم : طوبى : اسم الجنة بالهندية ، قال الصاغاني : فعلى هذا يكون أصلها توبى ، بالتاء ، فإنه ليس في كلام العرب طاء ، وقال قتادة : طوبى كلمة عربية تقول العرب : طوبى لك إن فعلت كذا وكذا ؛ قالوا : ومعنى طوبى لفلان : الحسنى والخير له . وكان رسول الله صلى عليه وسلم مثلاً أعلى للتواضع ، قال أبو أمامة رضى الله عنه : خرج علينا رسول الله مُسْكِنًا على عصا ، فقمنا له ، فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يُعَظَّمُ بعضهم بعضاً ، وقال : إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد^(١) وكان صلوات الله عليه يركب الحمار ويُردف خلفه ،

(١) اختلف العلماء في القيام للتنظيم المعتاد ، فقيل : مكروه استدلالاً بهذا الحديث ونظائره ، وذهب بعضهم إلى حرمة وقال بعض الأئمة : إنه مستحب لأهل العلم والصلاح

ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم ، حيثما انتهى به المجلسُ جلس... ومن حديث عمر عنه صلى الله عليه وسلم : لا تُظَرُونِي كما أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ^(١) ، إنما أنا عبدٌ ، فقولوا : عبدُ الله ورسوله .

وعن عائشة رضى الله عنها : أنه صلوات الله عليه كان في مَهْنَةِ أهله — خِدْمَتِهِمْ — يَفْقَى ثوبه ، وَيَحْلِبُ شاته ، وَيَرْقَعُ ثوبه ، وَيَخْصِفُ نعلَه ؛ وَيُقِمُّ البيت — يَكْفِسُه وَيَزِيلُ قِمامَه — وَيَخْدُمُ نفسه ، ويعقل البعير — يربطه من رجله بالعقال — ويملف ناضجه — الجمل الذى يُسْتَقَى عليه الماء — ويأكل مع الخادم ، وَيَعِجُنُ معها ، ويحمل بضاعته فى السوق . وأخبره فى تواضعه صلوات الله عليه كثيرة متوافرة تراها فى كتب الشئائل والحديث .

وفى المثل : تواضعُ الرُّجُلِ فى مرتبته ذَبٌّ للشَّيْطَانَةِ عند سَقَطَتِهِ .
وقال عروة بن الزبير : التواضع أحد مصايد الشرف ، وفى لفظ :
«سَلَّمَ الشرف»

وقال عبد الله بن المعتز : مُتَوَاضِعُ الْعُلَمَاءِ أَكْثَرُمْ عِلْمًا ، كما أن المكان المنخفض أكثر الأماكن ماءً .

وللحكام العدول ، بل قد يجب إذا خشى من تركه ضرر كجسارة الملوك ، ويستحب لمن قدم من سفر ولذوى الأرحام تذكيراً لهم وبراً بهم ، والمنهى عنه إنما هو ما كان على سبيل الرياء والتكبر ، وإنما نهام صلوات الله عليه لئلا يظنوه سنة

(١) الاطراء : مجاوزة الحد فى المدح والكذب فيه وبذلك فر الحديث وفى معنى الحديث قال الأبوصيرى :

دَعِ مَا دَعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ وَأَحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ وَاحْتِكِمْ

وقالوا: من وضع نفسه دون قدره رفعه الناس فوق قدره، ومن رفعها عن حده وضعه الناس دون قدره.

وقال جعفر بن محمد: رأس الخير التواضع، فقليل له: وما التواضع؟ فقال أن ترضى من المجلس بدون شرفك، وأن تُسَلِّمَ على من لقيت، وأن تترك المراءَ وإن كنت مُحِقًّا، وأن تكسر الرِّياءَ والسُّمعةَ.

وقالوا: التَّوَّاضَعُ نِعْمَةٌ لَا يَفْطِنُ لَهَا الْحَايِدَ.

وقالوا: التَّوَّاضَعُ كَالْوَهْدَةِ يَجْتَمِعُ فِيهَا قَطْرُهَا وَقَطْرُ غَيْرِهَا.

وقال عمر: أريد رجلا إذا كان في القوم وهو أميرهم كان كبعضهم، فإذا لم يكن أميراً فكأنه أميرهم.

وقال رضى الله عنه حين نظر إلى بض السراة مُبْتَدِلًا لِأَصْحَابِهِ: هَذَا رَجُلٌ يَفِرُّ مِنَ الشَّرَفِ وَالشَّرَفُ يَتَّبِعُهُ.

وقد مدح الشعراء المتواضعين فن ذلك قول أبي تمام:

مُتَبَدِّلٌ فِي الْقَوْمِ وَهُوَ مُبْجَلٌ مُتَوَاضِعٌ فِي الْحَيِّ وَهُوَ مُعْظَمٌ

وقال آخر:

مُتَوَاضِعٌ وَالنُّبْلُ يَحْرُسُ قَدْرَهُ وَأَخُو النَّبَادَةِ بِالنَّبَاهَةِ يَنْبُلُ

وقال البحتري:

دَنَوْتَ تَوَاضِعًا وَعَلَوْتَ بَجْدًا فَشَأْنُكَ انْحِدَارٌ وَارْتِفَاعٌ

كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تُسَامَى وَيَدْنُو الضَّوُّ مِنْهَا وَالشُّعَاعُ

وقال أبو محمد التيمي:

تَوَاضَعَ لِمَا زَادَهُ اللَّهُ رِفْعَةً وَكُلُّ رَفِيعٍ قَدْرُهُ مُتَوَاضِعٌ

وقال أبو بكر الخوارزمي :
عَجِبْتُ لَهُ لَمْ يَلْبَسِ الْكِبَرُ حُلَّةً وَفِينَا إِذَا جُرْنَا عَلَى بَابِهِ كِبَرُ

ذَمُّهُمُ التَّكْبِيرُ

قال الله تعالى : إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ . وقال سبحانه : كَذَلِكَ نَطْبَعُ
عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ . وقال : فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
فِيئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ . وقال : سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .

ودخل الفضل بن يحيى ذات يوم على أبيه وهو يتَبَخَّرُ في مِشْيَتِهِ ، فقال له
يحيى : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، إِنَّ الْبُخْلَ وَالْجَهْلَ مع التَّوَاضُّعِ ، أَزِينُ بِالرَّجُلِ مِنَ
الْكِبَرِ مع السَّخَاءِ وَالْعِلْمِ ، فَيَالِهَا مِنْ حَسَنَةِ غَطَّتْ عَلَى عَيْنَيْنِ عَظِيمَيْنِ ، وَيَالِهَا
مِنْ سَيِّئَةِ غَطَّتْ عَلَى حَسَنَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ ، ثُمَّ أَوْمَأَ إِلَيْهِ بِالْجُلُوسِ وَقَالَ : احْفَظْهُ
يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ فَإِنَّهُ أَدَبٌ كَبِيرٌ أَخَذَنَاهُ عَنِ الْعُلَمَاءِ ...

وهذا كما قال حكيم : وَجَدْنَا التَّوَاضُّعَ مع السَّخَاءِ وَالْبُخْلَ أَمْتَدَّ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ
مِنَ الْكِبَرِ مع الْإِدَبِ وَالسَّخَاءِ ، فَأَنْبَلُ بِحَسَنَةِ غَطَّتْ سَيِّئَتَيْنِ ، وَأَقْبَحُ
بَسِيئَةِ غَطَّتْ عَلَى حَسَنَتَيْنِ !

وقال علي بن أبي طالب : عَجِبْتُ لِلتَّكْبَرِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ نَظْفَةً
وَهُوَ غَدًا جِيفَةً . وقال بعض الشعراء :

يَا مُظْهَرَ الْكِبَرِ إِعْجَابًا بِصُورَتِهِ انْظُرْ خَلَاءَكَ إِنْ النَّتْنُ تَشْرِيبُ
لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ فِيمَا فِي بُطُونِهِمْ مَا اسْتَشْفَرَ الْكِبَرُ شُبَّارًا وَلَا شَيْبُ
هَلْ فِي ابْنِ آدَمَ غَيْرَ الرَّأْسِ مَكْرَمَةٌ وَهُوَ بِخَمْسٍ مِنَ الْأَفْئَاتِ شَرِيبُ

أَنْفٌ يَسِيلُ وَأُذُنٌ رِيحُهَا سَهْكَ وَالْعَيْنُ مُرْمَصَةٌ وَالْفَرْعُ مَلْعُوبٌ
يَابِنُ الثَّرَابِ وَمَا كُولُ الثَّرَابِ غَدًا أَقْصَرُ فَإِنَّكَ مَا كُولٌ وَمَشْرُوبٌ
وَقَالُوا : دَعِ التَّكْبِيرَ ، فَتَى كُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّبْلِ لَمْ يَضُرْكِ التَّبَذُّلُ ، وَمَتَى
لَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ لَمْ يَنْفَعَكَ النَّبْلُ .

بعض دواعي التكبر

قال المأمون : ما تكبر أحدٌ إلا لِنَقْصٍ وَجَدَهُ فِي نَفْسِهِ .
وقال حكيم : ما تعظم أحدٌ على مَنْ دُونَهُ إِلَّا تَصَاغَرَ لِمَنْ فَوْقَهُ
وَقَالُوا : مَا نَأَى إِلَّا وَضِيعٌ ، وَلَا فَاخِرَ إِلَّا سَقِيطٌ ، وَلَا تَعْظَمُ إِلَّا
لَقِيطٌ . « السقيط : اللاحق الناقص العقل ، واللقيط : الطفل الذي يُوجَدُ
مَرْمِيًّا عَلَى الطَّرِيقِ لَا يُعْرِفُ أَبُوهُ وَلَا أُمُّهُ ،
وقال يحيى بن خالد بن برمك : لَنْتَ تَرَى أَحَدًا تَكْبُرُ فِي إِمَارَتِهِ
إِلَّا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي نَالَ هُوَ فَوْقَ قَدْرِهِ ، وَلَسْتَ تَرَى أَحَدًا يَضَعُ
نَفْسَهُ فِي إِمَارَةٍ إِلَّا وَهُوَ فِي نَفْسِهِ أَكْثَرُ مِمَّا نَالَ .
وقيل لبعضهم : فَلَانٌ غَيْرَتُهُ الْإِمَارَةُ فَقَالَ : إِذَا وَلَّى الرَّجُلُ
وَلَايَةً فَرَأَاهَا أَكْثَرَ مِنْهُ تَغْيِيرٌ ، وَإِذَا وَلَّى وَلَايَةً بَرَى أَنَّهُ أَكْثَرُ مِنْهَا
لَمْ يَتَغَيَّرْ .

وَقَالُوا : مَنْ نَالَ مَنْزِلَةً فَأَبْطَرَتْهُ دَلَّ عَلَى رِدَاءَةِ أَصْلِهِ وَعُضُورِهِ .
وقال بعض المتصوفة : اللثام إِذَا تَمَوَّلُوا اسْتَطَالُوا ، وَإِذَا افْتَقَرُوا تَوَاضَعُوا
وَالْكَرَامُ إِذَا تَمَوَّلُوا تَوَاضَعُوا ، وَإِذَا افْتَقَرُوا اسْتَطَالُوا .
وقال الجاحظ من كلمة له : والكبر في الأجناس الذليلة أرسخ ، ولكن

الْقِلَّةَ وَالذِّلَّةَ مَانِعَتَانِ مِنْ ظُهُورِ كِبَرِهِمْ ، وَمَنْ قَدَرَ مِنَ الْوَضْعَاءِ أَدْنَى قُدْرَةٍ
ظَهَرَ مِنْ كِبَرِهِ مَا لَا خِفَاءَ بِهِ ، وَلَمْ أَرَ ذَا كِبَرٍ قَطُّ عِلًّا مِنْ دُونِهِ إِلَّا وَهُوَ
يَبْدُلُ لِمَنْ فَوْقَهُ بِمَقْدَارِ ذَلِكَ وَوِزْنِهِ ...

متكبر دنيء أو فقير

قالوا : أَبْغَضَ النَّاسُ ذُو عُسْرٍ يَخْطُرُ فِي رِءَاءِ كِبَرٍ .
وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي ذَلِكَ : أَنْفٌ فِي السَّمَاءِ وَأَسْتُ فِي الْمَاءِ

مدحهم معرفة الرجل قدر نفسه

وذمهم الصلف

وبعض نوادر المزهوين

قال علي بن أبي طالب : لَنْ يَهْلِكَ امْرُؤٌ عَرَفَ قُدْرَهُ .
وقال المتنبي :

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قُدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى
وقال سيدنا رسول الله : ثَلَاثٌ مَهْلَكَاتٌ : شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ،
وإِعْجَابُ الْمَرءِ بِنَفْسِهِ .

وقالوا : عَجِبُ الْمَرءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَادِ عَقْلِهِ .

وقال أعرابي لرجل مهجَّبٍ بِنَفْسِهِ : يُسَرُّنِي أَنْ أَكُونَ عِنْدَ النَّاسِ مِثْلَكَ
فِي نَفْسِكَ ، وَعِنْدَ نَفْسِي مِثْلَكَ عِنْدَ النَّاسِ ...

وكان رجل يسمى أبا ثَوَابَةَ أَقْبَحَ النَّاسِ كِبَرًا ، بِمَعْنَى فِي الصَّلَافِ ،
رَوَى أَنَّهُ قَالَ لِفُتْلَامِهِ : أَتَسْقِي مَاءً ، فَقَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : إِنَّمَا يَقُولُ « نَعَمْ » ،

من يقدر على أن يقول «لا»، وأمر بضربه ... ودعا أكاراً فكلمه ، فلما فرغ دعا بماء وتمضمض ، استنظراً لمخاطبته ...

ومن المعجبين بأنفسهم المغالين في العزة وإن كان إلى ذلك من الشخصيات الضخمة الكريمة النبيلة المحترمة عمارة بن حمزة^(١)، روى : أنه دخل على المهدي الخليفة العباسي ، فلما استقر به الجلوس ، قام رجل كان المهدي قد أعد له ليتكئ به ، فقال : مظلوم يا أمير المؤمنين قال : من ظلمك ؟ قال : عمارة غصبني ضيقتي ، وذكر ضيعة من أحسن ضياع عمارة وأكثرها خراجاً ، فقال المهدي لعمار : قم فاجلس مع خصمك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما هو لي بخصم ، إن كانت الضيعة له ، فلست أنازعه فيها ، وإن كانت لي فقد وهبتها له ، ولا أقوم من مجلس شرفي به أمير المؤمنين ، فلما انصرف المجلس سأل عمارة عن صفة الرجل ، وما كان لبأسه ، وأين كان موضع جلوسه ... وكان من تيهه أنه إذا أخطأ يمر على خطئه ، تكبراً عن الرجوع ويقول : نقض وإبرام في ساعة واحدة ! الخطأ أهون من ذلك ...

ومن المفرطين في التكبر رجل يسمى عبيد الله بن زياد بن ظبيان ، قال له رجل من قومه وقد رأى منه ما أعجبه : كثر الله فينا مثلك ، فقال : لقد كلمتم الله شططاً ...

وهناك من نوادر المتكبرين المستطرقة ما لا يتسع له معجمنا هذا .

(١) ترجم له ياقوت في معجم الادباء ترجمة وافية

معتذر لعجبه وعزته

قيل لإياس بن معاوية ^(١) : ما فيك عيب غير أنك مُعَجَّبٌ ، فقال :
 « يُعْجِبُكُمْ مَا أَقُولُ ؟ » قالوا : نعم ، فقال : فأنا أحتق أن أُعْجَبَ به ...
 وقال بعض المعجبين :

يقولون : ذو كِبَرٍ ولو خُصَّ بعضهم ببعضِ خِصَالِي ما استفاق من الكبر
 وقال رجل لبعض المزهوين : ما أعظمك في نفسك ! فقال : لست
 بعظيم ، ولكني عزيز ، لقوله تعالى : والله العزةُ ولسوله وللبؤمنين . وفي
 هذا المعنى يقول بعضهم :

وما أنا مَزْهُوٌّ ولكني فتى أَبَتْ لِي نَفْسٌ حُرَّةٌ أَنْ أُذِيلَهَا
 « أذيلها : أهينها » وهذا من قبيل قول القائل :
 وَأَكْرِمُ نَفْسِي أَنِّي إِنْ أَهَنْتَهَا وَحَقَّقْتُ لَمْ تَكْرُمْ عَلَى أَحَدٍ بَعْدِي
 والمثل هذا المعنى باب سلتوعب عقرياتهم فيه .

التكبر على ذوى الكبر

سئل الحسن البصري عن التواضع ، فقال : هو التكبر على الأغنياء
 « يريد : الترفع وعدم التذلل لهم طمعاً في ما لهم أو جاههم »
 وأنشد المبرد :

إِذَا تَاهَ الصَّدِيقُ عَلَيْكَ كِبَرًا فَتَهُ كِبَرًا عَلَى ذَاكَ الصَّدِيقِ

(١) الذى يضرب به المثل فى الذكاء والفطنة ، ولأه عمر بن عبد العزيز قضاء
 البصرة ، ترجم له ابن خلكان .

فإنجابُ الحقوق لغير راعٍ حُقُوقَكَ رأسُ تضييع الحقوقِ
وقال الأصمعي : قال رجل : ما رأيت ذا كبر قط إلا تحول داؤه
في . « يريد : أنى أتكبر عليه » ، وقال آخر : مائه أحدٌ قط على مرتين
« يريد : أنه إذا تاه مرة لم أعاوده وتركته وأعرضت عنه »
وقال عدى بن أرطاة وهو أمير لو كيع بن الأسود : سَوَّ على ثيابي ،
فقال : * ذَكَرْتَنِي الطعنَ وَكُنْتُ نَاسِيَا * ^(١) في خَفِي ضَيْقِي فَلَيْمَدَهُ الْأَمِيرُ حَتَّى
أَنْزَعَهُ ، فقال له عدى : إن الجليسَ لَيَلِي من جلسه أكثر من هذا ، فقال
ياعدى ، إذا عُرِيتَ عَنَّا فَكَلَّفْنَا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا ، أَمَا وَأَنْتَ تَرَى لَكَ عَلَيْنَا
بسطة فلا ...

ذمهم الإفراط في التواضع

قالوا : مِنَ التَّوَاضِعِ مَا يَضَعُ
وقال عبد الله بن المقفع : الإفراط في التواضع يوجب المذلة ، والإفراط في
المؤانسة يوجب المهانة .

حمد تعظيم الكبار

قَدِمَ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ الْمِنْقَرِي سَيِّدَ أَهْلِ الْوَبَرِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) قال الميداني - وأورده في أمثاله - : أصله أن رجلا حمل على رجل ليقتله ،
وكان في يد المحمول عليه رمح ؛ فأنساه الددش والجزع ما في يده ، فقال له الحامل :
ألقى الرمح ، فقال الآخر . وأن معنى رمحا لا أشعر به ؟ ذكرتنى الطعن ... المثل وحمل
على صاحبه فطعنه حتى قتله . يضرب في تذكر الشيء بغيره .

وسلم ، فبسط له رداءه ، ثم قال : إذا أناكم كريم قوم فأكرموه .
 ورُوي أن مجوسياً دخل على رسول الله . فأخرج صلوات الله عليه
 من تحته وسادةً حشوها ليف ، وطرحها له ، وأقبل عليه يحدثه ، فلما نهض
 قال عمر : إنه مجوسى ! فقال عليه الصلاة والسلام : قد علمت ، ولكن
 جبريل يأمرنى أن أكرم كل كريم قوم إذا أتى ، وهذا سيد قومه .
 وركب زيد بن ثابت رضى الله عنه ^(١) ، فدنا منه عبد الله بن عباس
 بأخذ بركابه ، فقال : ما تفعل يا ابن عم رسول الله ؟ فقال . هكذا أمرنا
 أن نفعل بأمرائنا ^(٢) ، فقال زيد : أرني يدك ، فأخذها وقبلها ، وقال : هكذا
 ررنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

(١) هو الصحابي العالم الجليل ، كاتب الوحي ، وجامع القرآن في عهد أبي بكر
 وقال فيه أبو بكر : إنك شاب عاقل لا تهتك ، وكان أحد فقهاء الصحابة الجدة
 الفراض — علماء المواريث — مات في عهد مروان بن الحكم
 (٢) ورد أن النبي صلوات الله عليه ، سلم زيد بن ثابت الراية في إحدى الغزوات
 وأمره على الجيش فيها

الباب السابع

في الشجاعة وعقرياتهم فيها

وفي الصبر في القتال

وسائر ما يتصل بالحرب

ودونك ما وقع عليه الاختيار من عقرياتهم في الشجاعة والصبر في الحروب، وسائر ما ينعطف على هذه المعاني وينشعب به القول فيها وأنت فقد علمت مما أسلفنا عليك في باب الصبر أن الشجاعة لون من ألوانه . ومن ثم أردفنا القول على الأبواب السابقة — وهي جميعاً من ألوان الصبر — بالقول على الشجاعة وما إليها .

حقيقة الشجاعة

قالوا : الشجاعة : فضيلة بين التهور والجبن .

وفي الأثر : الشجاعة غريزة يضعها الله فيمن يشاء من عباده .

وسُئِلَ بعضهم عن الشجاعة فقال : جِسْلَةُ نَفْسٍ أَيْبَةٍ .

وقيل لبعضهم : ما الشجاعة ؟ فقال : صبر ساعة .

وقال بعض المجريين : الرجال ثلاثة : فارس ، وشجاع ، وبطل ؛ فالفارس

الذي يَشُدُّ إِذَا شَدُّوا ، والشجاع : الداعي إلى البراز والمُجِيب داعيَهُ ،

والبطل : الحامى لظهور القوم إذا ولّوا ...

ويروى أن زياد بن أبيه كتب إلى ابن عباس : أن صف لي الشجاعة والجهن والجود والبخل ، فكتب إليه : كتبت تسألني عن طبائع رُكبت في الإنسان تركيب الجوارح ، اعلم أن الشجاع يقاتل عمن لا يعرفه ، والجبان يفر عن عرسه — زوجه — وأن الجواد يعطي من لا يلزمه وأن البخل يمسك عن نفسه .

الأسباب المشجعة

قال الجاحظ : الأسباب المشجعة قد تكون عن الغضب ، والشراب ^(١) والهوج ^(٢) ، والغيرة ، والخمية ، وقد تكون مرقوة النفج ^(٣) وحُب الأحدثوة ؛ وربما كان طبعاً ، كطبع الرحيم ، والسخي ، والبخل ، والجزوع والصبور ؛ وربما كان للدين ، ولكن لا يباغ الرجل للدين ما لم يشيعه بعض ما تقدم ، لأن الدين يجتلب مكتسب ، ولا يكاد يباغ الطبيعة . وقالوا : لا يصدق القتال إلا ثلاثة : متدين ، وغديران ، ومتمعض من ذل .

(١) المراد : الخمر

(٢) الهوج : الطيش والحق والتسرع

(٣) النفج : افتخار المرء بما ليس فيه .

حثهم على الثبات والإقدام

ونهيهم عن الإحجام والفكر في العواقب

قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا
فَلَا تُؤَاوِمُوا الْآدِبَارَ) ... « زحفاً حال من الذين كفروا ، والزحف :
الجيش الكثير الذي يُرى لِكَثْرَتِهِ كَأَنَّهُ يَزْحَفُ ، : أى يدبُ ديباً ،
من زحف الصبي : إذا دب على آسته قليلاً قليلاً ؛ سُميَ بالمصدر ، والجمع :
زُحُوف ، والمعنى : إذا لقيتُموم للقتال وهم كثير متوافرون وأنتم قليل
فلا تَفِرُّوا ، فضلاً أن تُتَدَاوِمُوا فِي الْعَدَدِ ، أَوْ تُسَاوِمُوا » ... وقال سبحانه :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ
تُفَاحِشُونَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) ... « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً : إِذَا حَارَبْتُمْ جَمَاعَةً ،
فَاثْبُتُوا : لَا تَفِرُّوا ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا : اذْكُرُوهُ سُبْحَانَهُ فِي مَوَاطِنِ
الْحَرْبِ ، مُسْتَظْهِرِينَ بِذِكْرِهِ مُتَرَقِّبِينَ لِنَصْرِهِ ، وَفِي هَذَا إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ عَلَى
الْإِنْسَانِ أَنْ لَا يَفْتَرُ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ أَشْغَلَ مَا يَكُونُ قَلْبًا وَأَكْثَرَ مَا يَكُونُ
هَمًّا ، وَأَنْ تَكُونَ نَفْسُهُ مُجْتَمِعَةً لِذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ مُتَوَزِّعَةً عَنْ غَيْرِهِ ، وَفِشَلُ
يَفْشَلُ : ضَعْفٌ وَجَبُنٌ وَذَهَبَتْ قُوَاهُ ؛ يَقُولُ سُبْحَانَهُ : إِذَا اخْتَلَقْتُمْ
ضَعُفْتُمْ وَإِذَا اتَّفَقْتُمْ كُتِمَ أَقْوِيَاءُ ، وَالرَّيْحُ : الدَّوْلَةُ ، شَبَّهَتْ فِي نَفْوذِ أَمْرِهَا
وَتَمَثُّلِهِ بِالرَّيْحِ وَهَوْبِهَا ، وَمَنْ ذَا يَقَالُ : هَبَّتْ رِيحُ فُلَانٍ : إِذَا دَالَتْ لَهُ
الدَّوْلَةُ وَنَفَذَ أَمْرَهُ »

وقال أبو بكر الصديق لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة :

أَحْرِصْ عَلَى الْمَوْتِ تَوَهَّبْ لَكَ الْحَيَاةَ .

وقالوا : من فَكَّرَ فِي الْعَوَاقِبِ لَمْ يَشْجَعْ .

وقالوا : السَّلَامَةُ فِي الْإِقْدَامِ ، وَالْحَمَامُ فِي الْإِحْجَامِ .

وتقول الدرب : الشَّجَاعُ مُؤَمِّى . وَأَيُّ تَنْهَيْبَةِ الْأَقْرَانِ فِيهِ حَامُونُهُ
فَيَكُونُ ذَلِكَ وَفَايَةً لَهُ «

وَأَسْتَشِيرُ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ فِي حَرْبٍ أَرَادَوْهَا فَقَالَ : أَقِلُّوا الْخِلَافَ
لَا مَرَاتِنَكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ كَثْرَةَ الصَّيَاحِ مِنَ الْفُشْلِ ، وَالْمَرءُ يَعْجِزُ لِاحْوَالِهِ^(١)
وَأَدْرِعُوا اللَّيْلَ فَإِنَّهُ أَخْفَى لِلرَّيْلِ .

وقال هَانِئُ بْنُ مَسْعُودٍ الشَّيْبَانِيُّ بِرِمَ ذِي قَارٍ يُحَذِّرُ قَوْمَهُ : إِنْ الْحَذَرَ
لَا يُنْجِي مِنَ الْقَدَرِ ، وَالصَّبْرُ مِنْ أَسْبَابِ الظُّفْرِ ، وَالْمَنِيَّةُ وَالْأَلَدْنِيَّةُ ، وَاسْتِقْبَالُ
الْمَوْتِ خَيْرٌ مِنْ اسْتِدْبَارِهِ ، وَالطَّعْنُ فِي ثَغَرِ النُّحُورِ أَكْرَمُ مِنْهُ فِي الْأَعْجَازِ
وَالظُّهُورِ ، وَهَالِكٌ مُعْذُورٌ خَيْرٌ مِنْ نَاجٍ فُرُورٌ ...

وقال أَبُو مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِيُّ لِبَعْضِ قَوَّادِهِ : إِذَا عَرَضَ لَكَ أَمْرٌ نَازِعٌ
فِيهِ مَنَازِعَانِ ، أَحَدُهُمَا يَبْعَثُ عَلَى الْإِقْدَامِ وَالْآخَرُ عَلَى الْإِحْجَامِ ، فَاقْدُمْ ،
فَإِنَّهُ أَدْرَكَ النَّارَ ، وَأَنْفَى لِلْعَارِ .

وقالت الْخَنَسَاءُ :

نُهِنَ النُّفُوسُ وَهَوُنَ الثَّفَوُّ سِيسَ يَوْمَ الْكَرْبَةِ أَوْقَى لَهَا
وَقِيلَ لِلْمَهْلَبِ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ : إِنَّكَ كَتَلْتَنِي نَفْسَكَ فِي الْمَهَالِكِ ، فَقَالَ :
إِنْ لَمْ آتِ الْمَوْتَ مُسْتَرِيلاً ، أَتَانِي مُسْتَعِجِلاً ، إِنِّي لَسْتُ آتِيَ الْمَوْتَ مِنْ

(١) مثل معناه : لَا تَضِيقُ الْحَيْلَ وَمَخَارِجَ الْأُمُورِ إِلَّا عَلَى الْعَاجِزِ ، وَالْحَالَةِ :

حُبِّهِ وَإِنَّمَا آتِيهِ مِنْ بُغْضِهِ ، ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْحَصِينِ بْنِ الْحَمَامِ الْمُرِّي^(١) :
تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَ
« وَهِيَ آيَاتٌ مَشْهُورَةٌ يَقُولُ فِيهَا :

فَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُّوْنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدَّمَا
نُفْلَقُ هَامًا مِنْ رِجَالِ أَعِزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَى وَأَظْلَمًا
« وَمَعْنَى تَأَخَّرْتُ ... أَلْبَيْت : لَمَّا تَأَخَّرْتُ طَمَعْتُ فِي الْعَدُوِّ ، وَظَنَنْتِي
جَبَانًا فَاجْتَرَأْتُ عَلَى ، لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَطْمَعُ فِي الْجَبَانِ ، وَمَنْ ثُمَّ كَانَ الْقَتْلَ
إِلَى الْجَبَانِ أَسْرَعَ ، فَتَقَدَّمْتُ ، فَكَانَ التَّقَدُّمُ أَنْجَى لِي ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ
الْمَعْنَى : أَحْبَبْتُ مُسْتَبْقِيًا لِحَيَاتِي ، فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً كَمَا يَكُونُ فِي الْإِقْدَامِ
وَذَلِكَ أَنَّ الْأُحْدُوثةَ الْجَمِيلَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِالنَّقْدِ لَا بِالتَّأَخُّرِ . وَمَعْنَى فَلَسْنَا
عَلَى الْأَعْقَابِ ... أَلْبَيْت : نَحْنُ لَا نُؤَلِّي فَنُجَرِّحَ فِي ظَهْرِنَا فَتَقْطُرَ دِمَاؤُنَا
عَلَى أَعْقَابِنَا ، وَلَسَكُنَّا نَسْتَقْبِلُ السِّيفَ بِوُجُوهِنَا ، فَإِنْ أَصَابَنَا جَرَّاحٌ
قَطَرَتْ دِمَاؤُنَا عَلَى أَقْدَامِنَا ، وَقَوْلُهُ نَفْلَقُ هَامًا ... أَلْبَيْتُ فَالْهَامُ جَمْعُ هَامَةٍ ،
وَهِيَ : الرَّأْسُ يَقُولُ : تُشَقُّ هَامَاتٌ مِنْ رِجَالٍ يَكْرُمُونَ عَلَيْنَا ، لِأَنَّهُمْ مَنَا
وَهُمْ كَانُوا أَسْبَقَ إِلَى الْعُقُوقِ : وَيُقَالُ : عَقَّ الرَّحِمُ كَمَا يُقَالُ : قَطَعَهَا .

وَقَالَ الْكَلْبَتِيُّ الْيَرْبُوعِيُّ — شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ — :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَغْشَ الْكَرْبَةَ أَوْشَكَتْ جِبَالُ الْهُوَينِ بِالْفَتَى أَنْ تَقْطَعَا
« الْغَشْيَانُ : الْإِتْيَانُ ، وَالْكَرْبَةُ : الْحَرْبُ ، وَقِيلَ : شَدَّهَا ، وَقِيلَ
الْإِزَالَةُ ، وَأَوْشَكَتْ : قَارَبَتْ وَدَنَتْ ، وَالْجِبَالُ جَمْعُ جَبَلٍ ، بِمَعْنَى : السَّبَبُ ،
اسْتَعْبِرَ لِكُلِّ شَيْءٍ يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ ، وَالْهُوَينِ : الْخَفْضُ وَالرَّاحَةُ

(١) شاعر فارس جاهلي كان يقال له : مانع الضمير

والباء في بالفتى : للمصاحبة فيكون حالا ، أو بمعنى عن فيتعلقن بها بعدما
 وجاز لأنه ظرف ، وتقطعا بحذف إحدى التائين والفاعل ضمير حبال ،
 وقوله : بالفتى فقد كان يجب أن يقول بدل الفتى : به ، أو : بالمرء واسكنه
 عدل عن المضمر والمظهر إلى انظر آخر لأنه أشبه المضمر ، وقال ابن
 رشيقي : قوله بالفتى حشو وكان الواجب أن يقول : به لأن ذكر المرء قد
 تقدم ، إلا أن يريد بالفتى معنى الزراية والأطنوزة — الشخرية — فإنه
 محتمل . وهذا تخيل دقيق من ابن رشيقي ،

المبادر إلى الحرب غير مبال بها

قال البُحْتَرِيُّ :

تَسْرَعُ حَتَّى قَالَ مَنْ شَهِدَ الْوَعْيَ لِقَاءَ أَعَادٍ أَمْ لِقَاءَ حَبَائِبِ

وَقَالُوا : أَشْجَعُ بَيْتٍ قَالَتْهُ الْعَرَبُ قَوْلَ الْعَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ :

أَشْدُّ عَلَى الْكَتِيبَةِ لَا أَلْبَالِي أَخْتِنِي كَانَ فِيهَا أَمْ سِوَاهَا

ووصف أعرابي قوماً فقال : ما سألوا قط كم القوم ؟ وإنما يسألون :

أين هم ؟

وسأل رجلٌ يزيد بن المهلب فقال : صف لي نفسك ، فقال : ما بارزت

أحداً إلا ظننت أن رُوْحَهُ في يدي ...

ولما بلغ قتيبة بن مسلم حدود الصين قيل له : قد أوغلت في بلاد

الترك ، والحوادثُ بين أجنحة الدهر تُقبلُ وتُديرُ ، فقال : يَهْتَقِي بِنَصْرِ

الله توغلتُ ، وإذا انقضت المدة لم تنفع العدة ، فقال الرجل : أَسَأَلُكَ حَيْثُ

شدت ، فهذا عزمٌ لا يَفْضُلُهُ إِلَّا اللهُ ...

حث من دعى إلى المبارزة على الإجابة

قال علي بن أبي طالب لبعض بنيهِ : لَا تَدْعُونَ أَحَدًا إِلَى الْمُبَارَزَةِ ،
وَلَا يُدْعَوَنَّكَ أَحَدٌ إِلَّا أَجَبْتَهُ ، فَالدَّاعِيَ بَاغٌ ، وَالْبَاغِي مَصْرُوعٌ .

وقال طَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ :

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا : مَنْ قَتَى ؟ خِلْتُ أَنَّنِي

عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدْ ^(١)

وقال بَشَّامَةُ بْنُ حَزْنِ النَّهْشَلِيِّ - شاعر إسلامي - :

إِنَّا لَمِنْ مَعْشَرٍ أَقْنَى أَوَائِلَهُمْ قَوْلُ السَّكَاةِ : أَلَا ابْنَ الْمُحَامُونَا ؟

لو كان في الألف مِئَاوِاحِدٌ فَدَعَا مَنْ فَارِسٌ خَالَهُمْ إِيَّاهُ يَعْنُونَا

المنازل وقت المنازلة

قال زهير بن أبي سُلي من قصيدة يمدح هَرِمًا :

لَيْثٌ بِمِشْرِ يَضْطَّادُ اللَّيْثَ إِذَا

مَا اللَّيْثُ كَذَّبَ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقًا

يَطْفَنُهُمْ مَا ارْتَمَوْا حَتَّى إِذَا آطَمَسُوا

ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا آغْتَنَقَا

« عَثَرَ : موضع باليمن ، وقيل : مأسدة بناحية تبالة . وقوله : كَذَّبَ

أَي لَمْ يَصْدُقَ الْحِمْلَةُ ، يقال : كَذَّبَ الرَّجُلُ عَنْ كُنَّا : إِذَا رَجَعَ عَنْهُ ،

(١) من تعليقه ، يقول : إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا : مَنْ قَتَى يَكْفِي مَهْمَا أُوْدِفَعَ شَرًّا ؟ خِلْتُ

أَنَّنِي الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ ، فَلَمْ أَكْسَلْ فِي كِفَايَةِ الْمَهْمِ وَدَفَعْتُ الشَّرَّ ، وَلَمْ أَتَبَلَّدْ فِيهِمَا

يقول : إذا رجع الشجاع عن قرنه ولم يَصْدُقِ الحلة عليه فهذا الممدوح يَصْدُقُهَا . واعتق : التزم قرنه ، يقول : إذ ارتمى الناس في الحرب بالنبل دَخَلَ هو تحت الرمي فحملَ يُطَاعِنُهُمْ ، فإذا تطاعنوا ضاربَ بالسيف ، فإذا تضاربوا بالسيوف اعتقنَ قرنه والتزمه ، أى أنه يزيد عليهم في كُلِّ حالٍ من أحوال الحرب »

صدر من عبقرياتهم في الصبر

من أحسن ما قيل في الصبر يوم اللقاء قولُ نَهْشَلِ بْنِ حَرْيٍّ بْنِ ضَمْرَةَ (١) :

ويوم كانَ الْمُضْطَلِّينَ بِحِرَّةٍ - وإن لم تكن نارٌ - قيامٌ على الجمرِ
صَبَرْنَا له حتى يَبُوحَ وإنما تُفَرِّجُ أيامُ الكَرِيهَةِ بالصَّبْرِ
« باخت الحرب والنار تبوخُ بُوخًا وبُووخًا وبُوخًا : سكنت وفترت
وكذلك الحرُّ والغضب والحُمَى »
وقال مَنْ لا أذكر اسمه :

بكى صاحبي لما رأى المَوْتَ فوقنا مُطَلًّا كإِطْلَالِ السَّحَابِ إِذَا اكْتَهَرُ
فقلت له : لا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا يَكُونُ غَدًا حُسْنُ الشَّاءِ لِمَنْ صَبَرَ
فأُخِّرَ الإِحْجَامُ يَوْمًا مُتَجَلًّا ولا تَحْجَلِ الإِقْدَامُ مَا أُخِّرَ الْقَدَرُ

(١) شاعر شريف مشهور من المخضرمين بقي إلى أيام معاوية وكان مع علي في حروبه ، وأبوه شاعر شريف وجده ضمرة ضخم الشرف وكان من خير بني دارم ، دخل على النعمان بن المنذر فقال له : من أنت ؟ قال : أنا حمزة ، قال النعمان : تسمع بالمعدي لا أن تراه فقال : أبيت اللعن ، إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، إن نطق نطق ببيان وإن قاتل قاتل بجنان الخ .

فَأَسَى عَلَى حَالٍ يَقِلُّ بِهَا الْأَمَى وَقَاتَلَ حَتَّى اسْتَبْتَهُمُ الْوَرْدُ وَالصَّدْرُ
وَكَرَّ حِفَاطًا خَشِيَّةَ الْعَارِ بَعْدَمَا رَأَى الْمَوْتَ مَعْرُوضًا عَلَى مَنَهِجِ الْمَسْكَرِ
وَقَالَ قَطْرِيُّ بْنُ الْفَجَّاءَةِ : (١)

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شِعَاعًا مِنَ الْإِبْطَالِ : وَيَحْكُ أَنْ تُرَاعِيَ
فَإِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الْأَجْلِ الَّذِي لَكَ لَنْ تُطَاعِيَ
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا فَمَا نِيلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ
وَلَا ثَوْبُ الْبَقَاءِ بِثَوْبِ عِزٍّ فَيُطَوَّى عَنْ أَخِي الْخَنْعِ الْبِرَاعِ
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ فِدَاعِيهِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ دَاعِي
وَمَنْ لَا يُعْتَبِطُ بِسَأْمٍ وَيَهْرَمُ وَتُسَلِمُهُ الْمَنُونُ إِلَى انْقِطَاعِ
وَمَا لِلْمَرءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ إِذَا مَا عُدَّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ

« أَقُولُ لَهَا ، أَيْ لِلنَّفْسِ ، وَالشِّعَاعِ : الْمُتَفَرِّقِ ، وَهَذَا مِثْلُ ، وَمَعْنَاهُ الْمُبَالَغَةُ فِي الْفَرْعِ ، وَلَنْ تُرَاعِيَ مِنَ الرُّوحِ ، وَهُوَ : الْفَرْعُ . يَذْكُرُ تَشْجِيعَهُ نَفْسَهُ وَتَعْرِيفَهُ بِهَا — بَعْدَ مَا اسْتَشْعَرَتْ الْفَرْعَ — أَنَّ الْأَجَلَ مُقَدَّرٌ وَأَنَّ الزِّيَادَةَ لَا تَلْحَقُهُ كَمَا بَيَّنَّ ذَلِكَ فِي الْبَيْتِ التَّالِي . وَأَخُو الْخَنْعِ : الذَّلِيلُ ، وَالْخَنْوَعُ : الذَّلَّةُ ، وَلَا يَكَادُ الْخَنْوَعُ يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي ذَلَّةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ، وَالْبِرَاعُ : الْقَصْبَةُ الَّتِي لَا جَوْفَ لَهَا ، وَالرَّجُلُ الْجَبَانُ لَا قَلْبَ لَهُ ؛ فَكَأَنَّهُ لَا جَوْفَ لَهُ ، فَوْضِعَ الْبِرَاعِ مَكَانَ الْجَبَانِ ، لِأَنَّهُ بِمَعْنَاهُ . وَالْإِعْتِبَاطُ : الْمَوْتُ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ يَقُولُ : مَنْ لَمْ يَمُتْ شَابًّا مَاتَ هَرَمًا ، وَبِسَأْمٍ : أَيْ بِسَأْمٍ مَا يَعْتَرِيهِ مِنْ تَكَالِيفِ

(١) فَارِسُ شَاعِرٌ مَشْهُورٌ ، وَشَخْصِيَّةٌ ضَخْمَةٌ فِي الْإِسْلَامِ ، كَانَ رَأْسًا مِنْ رُؤُوسِ الْخَوَارِجِ ، وَسَلِمَ عَلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ ثَلَاثَ عَشْرَةِ سَنَةً .

الحياة ولا بُدَّ أن تُسَلِّمَهُ المَوْتُ يوماً إلى الانقطاع، أى لا بد في النهاية من الموت ،

وقال عَمْرُو بْنُ الإِطَنْبَةِ - شاعر جاهلي ، والإِطَنْبَةُ : أمه - :

أَبَتْ لِي عِفَّتِي وَأَبَى بِلَاقِي وَأَخَذَنِي الْحَمْدَ بِالشَّمَنِ الرِّيحِ (١)

وإِقْدَامِي عَلَى الْمَكْرُوهِ نَفْسِي وَضَرَبَنِي هَامَةُ الْبَطْلِ الْمُشِيحِ (٢)

وقولي كلما جَشَّاتُ وَجَاشْتُ مَكَانَكَ تُحَمِّدِي أَوْ تُسْتَرِيحِي (٣)

لِإِدْفَعٍ عَنْ مَأْثَرِ صَالِحَاتٍ وَأَحْيَى بَعْدُ عَنْ عَرِضٍ صَحِيحٍ -

يروى أَنَّ معاوية قال : اجْعَلُوا الشَّمْرَ أَكْبَرَ قَهْمِكُمْ وَأَكْثَرَ آدَابِكُمْ فَإِنْ

فِيهِ مَأْثَرُ أَسْلَافِكُمْ وَمَوَاضِعُ إِرْشَادِكُمْ ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي لَيْلَةَ الْهَرِيرِ وَقَدْ عَزَمْتُ

عَلَى الْفِرَارِ فَارْتَدَى لِأَقُولُ ابْنَ الْإِطَنْبَةِ ، وَأُنْشِدُ الْآيَاتِ .

وقيل لبعض بني المهلب : بِمَ نَلْتُمُ مَا نَلْتُمْ ؟ قال : بِصَبْرِ سَاعَةٍ

(١) بِلَاقِي : بأسى في الحروب ، واستعار الثمن لما يبذله في المكارم على طريق

التصريح ، والرَّيحُ الزَّائِدُ مِنْهُ

(٢) وإِقْدَامِي يروى : وإِجْشَامِي ، ويروى بدل هذا السطر

• وَإِعْطَانِي عَلَى الْإِعْدَامِ مَالِي •

والهامة : الرأس ، والمشيح : المبادر المنكش الجاد في القتال ،

(٣) وقولي كلما جَشَّاتُ وَجَاشْتُ يروى • وقولي كلما جَشَّاتُ لِنَفْسِي •

وهي رواية جيدة ومعنى : جَشَّاتُ وَجَاشْتُ : كلما تطلعت ونهضت جزعا وفرعا وعن

بعضهم : جَاشَتْ نَفْسُهُ : غَشَتْ أَوْ دَارَتْ لِلغَيَانِ : فَإِنْ أُرِدْتَ أَنَّهَا ارْتَفَعَتْ مِنْ حُزْنٍ

أَوْ فَرَحٍ قُلْتَ جَشَّاتُ . وَمَكَانَكَ اسْمُ فِعْلٍ أَيْ : الزَّمَى بِأَنْفُسِ مَكَانَكَ بِحَمْدِكَ النَّاسِ

أَنْ ظَفَرْتَ أَوْ تُسْتَرِيحِي إِنْ مِتْ

الخُدعة والحيلة والتحرز في الحرب

قال سيدنا رسول الله : (الحرب خدعة) « خُدعة و خُدعة ، والفتح أفصح ، و خُدعة مثل هُمزة ، قال علماءنا : ورُويت عن النبي صلى الله عليه وسلم : خُدعة ، ومعناها : من خُدِعَ فيها خُدعة فزَلَّتْ قَدَمُهُ وعِطِبَ فليس لها إقالة ؛ قال ابن الأثير : و خُدعة . أفصح الروايات وأصحها ، ومن قال خُدعة أراد . هِيَ تُخدَع ، كما يقال : رجلٌ لَعْنَةٌ : يُلْعَنُ كثيراً ، وإذا خُدِعَ أَحَدُ الفريقين صاحِبُهُ في الحرب فكأنما خُدِعَتْ ؛ ومن قال : خُدعة أراد أنها تُخدَع أهلها ، كما قال عمرو بن مَعْدِيكَرِب ^(١)

الحربُ أولَ ما تَكُونُ فِتْنَةٌ تَسْعَى بِزِيادَتِها لكلِّ جهول
حتى إذا اسْتَعَرَّتْ وشَبَّ ضَرَامُها

عادت عجوزا غيرَ ذاتِ خليلٍ

شَمْطاءَ جَزَتْ راسُها وتَسَكَّرَتْ مَكرومةً للشَّمِّ والتَّقِيلِ
وقالوا : إذا لم تَغْلِبْ فَاخْلُبْ « أى إذا أعياك الأمرُ يُغالبُهُ فاطْلُبْهُ
تُخادَعُهُ » .

وقال بعضهم : كُنْ بِحِيلَتِكَ أَوْثَقَ مِنْكَ بِشِدَّتِكَ ، وبِحَذَرِكَ أَفْرَحَ مِنْكَ بِتَجَدُّتِكَ ، فإن الحربَ حربٌ لِلْمُتَهَوَّرِ وَغَنِيمةٌ لِلْمُتَحَذِّرِ
وقالوا : حازمٌ في الحربِ خيرٌ مِنْ أَلْفِ فارسٍ ، لأنَّ الفارسَ يَقْتُلُ عشرةً وعشرين ، والحازمَ قد يَقْتُلُ جيشاً بِخِيَمِهِ وتُدِيرُهُ .

(١) هو الفارس المشهور صاحب الغارات والوفائع في الجاهلية والإسلام وهو صحاد . رضى الله عنه .

وقالوا : القائد العظيم ينبغي أن تكون فيه خصالٌ من أخلاق الحيوان :
شجاعة الديك ، وتحنن الدجاجة ، وقلب الأسد ، وحملة الخنزير ، وروغان
الثعلب ، وتختل الذئب ، وجمع الذرة ، وبكور الغراب .

وقال المهلب بن أبي صفرة لبيده : عليكم في الحرب بالمكيدة فإنها
أبلغ من النجدة ... وسئل بعض أهل التمرس بالحروب : أى المكاييد
فيها أحزم ؟ فقال : إذكاء العيون ، — بث الجواسيس — وإفشاء الغلبة
واستطلاع الاخبار ، وإظهار السرور ، وإمالة الفرق — الخوف —
والاحتراس من البطانة ، من غير إقصاء المستنصح ولا استنصاح
لمستغش ، وإشغال الناس عما هم فيه من الحروب بغيره .

وكان مالك بن عبد الله الحنعمي وهو على الصافية — الجماعة تُقام
وتُصف للحرب — يقوم في الناس — إذا أراد أن يرحل — فيحمد الله
ويثنى عليه ، ثم يقول : لئن دأرت بالعداة درب كذا : فيتفرق الجواسيس
عنه بذلك ، فإذا أصبح سلك بالناس طريقاً غيرها ، فكانت الروم تُسميه :
الثعلب ...

وقال حكيم : اللطف في الحيلة ، أجدى للوسيلة .

وقالوا : من لم يتأمل الامر بعين عقله لم يقع سيف حياته إلا على مقاتله
والثبث يُسهل طريق الرأي إلى الإصابة ، والعجلة تضمن العثرة .

«وبعد» فإن هذا الباب متسع جداً ، ومن أحب التوسع فيه والوقوف
على أخبارهم في المكاييد ، وأساليبهم العجيبة فيها فعلية بالموسوعات — مثل
نهاية الأرب للنويري ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، وبكتب التاريخ ،
فتلك مجالاتها .

ما ينبغي أن يتصف به

أمرأء الجيوش

من أجود ما قيل فيما ينبغي أن يتصف به أمرأء الجيوش قول لقيط
ابن يعمر الإيادي - وهو شاعر جاهلي قديم مُقِلٌّ - كان كاتباً في ديوان
كسرى سابور بن هرمز الملقب بذي الأكتاف - وكانت إياد غلبوا على
سواد العراق ، وقتلوا من كان به من الفرس ، فلما بلغ خبرهم سابور أجمع
على غزو إياد فكتب إليهم لقيط قصيدة ينذر قومه غزو سابور إيادهم ،
فوقع الكتاب بيد كسرى فقطع لسان لقيط وغزا إيادا وهي قصيدة جيدة
جداً يقول فيها :

أبلغ إياداً وخللٌ في سرائرهم إنِّي أرى الراي إن لم أعص قد نصصاً^(١)
يا لهف نفسي إن كانت أموركم شتى وأحكيم أمر الناس فاجتمعا
إنِّي أراكم وأرضاً تُعجبون بها مثل السفينة تغشى الوعث والطيمات^(٢)
ألا تخافون قوماً لا أبالكم أمسوا إليكم كأمثال الدببا سیرعا^(٣)

(١) خلل في سرائرهم : خصب يقال : خلل في دعائه ، أى خصب ، قال :

كانك لم تسمع ولم تك شاهداً غداة دعى الداعي فعم وخللا
والسراة جمع سرى ، وقيل : اسم جمع والجمع سرواء وأسرياء . وهم الأشراف أولوا
المروءة ، ونصصاً : وضع من نصع اللون نصوعاً ونصاعة : اشتد ياضه

(٢) الوعث من الرمل : ما غابت فيه قوائم الدواب . والطبع في الأصل : ما يغشى
السيف من الصدا ، استعاره لما يعلو الماء من الغطاء والزبد ، شبه سرورهم وهم
بأرضهم غير مفكرين فيما يحوطها وفيما يحفظها من العدو بالسفينة تغشى - وهي سائرة -
ما يمنع حركتها ويصد جريتها

(٣) الدبب : الجراد قبل أن يطير : وسرعا : مصدر سماعي لسرع سراعاً وسرعة :

أبناء قوم تآيؤكم على حنق لا يشعرون أضل الله أم نفعا^(١)
أحرار فارس أبناء الملوك لهم من الجوع جوع تزدهي القلعا^(٢)
إلى أن يقول :

خزر عيونهم كأن لاحظهم^(٣) حريق غاب ترى منه السنأ قطعاً^(٤)
لا الحرث يشغلهم بل لا يرون لهم من دون يئضتكم ريباً ولا شبعاً^(٥)
وأتم تحرثون الأرض عن سفه في كل معتمل تبغون مزدرا^(٦)
وتلبسون ثياب الأمن ضاحية لا تفزعون وهذا الليث قد جمعا^(٧)

إذا عجل ، يريد : أمسوا مسرعين

(١) تآيؤكم : تعمدوكم وقصدوكم ، يقال : تأتيته بوزن ففاعلته ، وتأييته - بالتشديد - إذا تعمدت آيته ، وآيته : شخصه .

(٢) تزدهي : تستخف ، وقد زهاه زهواً وازدهاه : استخفه وتهاون به . والقلع جمع قلعة - بالتحريك - : صخرة عظيمة صعبة المرتقى تتقلع عن الجبل

(٣) خزر عيونهم من الخزر - بالتحريك - وهو : ضيق الجفون لتحديد النظر ، والغاب جمع غابة وهي . أجمة القصب أو ذات الشجر المتكاثف ، سميت بذلك لأنها تغيب من فيها ، والسنأ : ضوء النار ولعان البرق

(٤) يئضتكم : مجتمعكم وموضع عزمكم ، على المثل بيضة الدجاجة إذا سلمت سلم ما فيها من طعم أو فرخ ، وفي الحديث : ولا تسلط عليهم عدواً فيستريح يئضتهم ، يريد : موضع سلطانهم ومستقر عزمهم ، واستباحتها : استصاها

(٥) معتمل : موضع اعتمال ، وهو أن يعمل الرجل لنفسه كاختدم إذا خدم نفسه وأنشدوا :

إن الكريم وأيك يعمل إن لم يجد يوماً على من يتكل
و أراد من يتكل عليه لحذف عليه هذه وزاد على متقدمة أي أنه يعمل إن لم يجد من يتكل عليه

(٦) ضاحية : علانية

مالى أراكم نياهاً فى بلهنية وقد ترون شهاب الحرب قد سَطَمَا^(١)
 فاشفُوا غليلى برأى منكم حصيدٍ يُصَيِّحُ نَوَادى له رِيَانٌ قد نَقَعَا^(٢)
 ولا تكونوا كمن قد بات مَكْتَنِعَا إذا يُقَالُ له : افرُجْ نَعْمَةً كُنْعَمَا^(٣)
 يسعى ويحسب أن المالَ يُخْلِدُهُ إذا استفادَ طريقاً زادَه طَمَعَا^(٤)
 فاقنوا جِيادكم واحموا ذِمَاركم

واستشعروا الصبر لا تستشعروا الجزعا^(٥)

الى أن قال :

لأنهم إيلٌ ليست لكم إيلٌ إن العدوَّ يعظم منكم قرعاً^(٦)
 لا تُشعروا المالَ الأعداءِ منهم إن يظهروا يحتوكم والبلادَ معاً

(١) بلهنية : رخاء وسعة عيش وغفلة من حوادث الدهر

(٢) الغليل فى الاصل : شدة العطش وحرارته ، أراد : شدة الحزن وحرارته
 وحصيد - بكسر الصاد - : محكم ، من الحصد - بالتحريك - وهو فى الاصل : اشتداد
 قتل الحبال واستحكام الصناعة فى الاوتار والدروع ، وكذلك رأى حصيدو مستحصد ،
 ونقع الماء العطش : أذهب وسكنه ، محتم على توحيد رأى لا تختلف بهم الاهواء
 (٣) مكتنعاً : منقبضاً مجتمعاً ، وكنع الرجل : قبض واجتمع ، وقال ابن الاثير :
 جبن وهرب .

(٤) الطريف من المال : ما استطرفته واستحدثته كالطارف ، خلاف التليد
 والتلاد والتالد ، وهو : ما ورثته عن الآباء قديماً

(٥) فاقنوا جِيادكم : الزموا ، والذمار : ما يلزم حفظه وحمايته من مال وأهل
 وعسيرة ، واستشعروا الصبر : مستعار من استشعر الثوب : لبسه على شعر جسده ،
 وهو الشعار دون الدثار ، يقول : وطنوا أنفسكم على الصبر ولا تضمروا الجزع
 فى أنفسكم

(٦) إن العدو الخ يريد : إن قرع العدو عظمكم ، والقرع : الضرب ، كنى
 بذلك عن إذلالهم وإهانتهم

والله ما انفكت الأموال منذ أبد
يا قوم إن لكم من إرث أولكم
ماذا يرث عليكم عز أولكم
يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيراً
يا قوم يفضتكم لا تفجعن بها
هو الجلاء الذي يجتث أصلكم
قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم
ثم قال يصف أمير الجيش - وهو شاهدنا - :
وقلدوا أمركم لله دركم رجب الذراع بأمر الحرب مضطلعا^(٥)

(١) غير - بضمين - جمع غيور ، من الغيرة وهي : الحمية والألفة
(٢) تقدم معنى البيضة آنفاً ، والأزلم الجذع في الأصل : الوعل ، وهو تيس
الجليل ، وذلك أن له زلتين . وهما هتان معلقتان في حلقة ، وهو مادام حياً جذع
لا تسقط له سن . استعير ذلك للدهر الشديد ، وذلك أن البلايا منوطة به تابعة له
وأنه باق على حاله لا يتغير على طول إناه كأنه قى لم تسقط له سن ، ومن كلاهما :
أودى به الأزلم الجذع يريدون : أمكله الدهر

(٣) يجتث أصلكم : يقتله ويستأصله ، ومعنى اجتث في اللغة : أخذت جثته
(٤) أمشاط جمع مشط - بضم الميم - وهي : سلاميات ظهر القدم ، وهي
العظام الرقاق المفترشة فوق القدم دون الأصابع ، وقوله : ثم افزعوا يريد : هبوا
وانتهبوا كما يفزع النائم ، وكأنه من الفزع - الخوف - لأن الذي يهب وينتبه لا يخلو
من فزع ما

(٥) رجب الذراع كناية عن إطاقته وسعة قوته ، ومضطلع مفتعل من الضلعة
وهي قوة الأضلاع ، وقد اضطلع بحمله : قوى عليه ونهض به

لا مُتَرَفًّا إِنْ رَخَاءُ الْعَيْشِ سَاعَدَهُ وَلَا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهُ بِهِ خَشَعَا ^(١)
 لَا يَطْعَمُ النَّوْمَ إِلَّا رَيْثَ يَبْعَثُهُ هَمٌّْ يَكَادُ شَبَاهُ يَفْصِمُ الضَّلْعَا ^(٢)
 مُسَهِّدُ النَّوْمِ تَغْنِيهِ أُمُورُكُمْ يَرُومُ مِنْهَا إِلَى الْأَعْدَاءِ مُطْلَعَا
 مَازَالَ يَحْلُبُ هَذَا الدَّهْرَ أَشْطَرُهُ يَكُونُ مُتَّبِعًا طَوْرًا وَمُتَّبِعَا ^(٣)
 حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَرْزٍ مَرِيرَتُهُ هُسْتَحْكِمُ الرَّأْيِ لَا قَحْمًا وَلَا ضَرَعَا ^(٤)
 وَلَيْسَ يَشْغَلُهُ مَالٌ يُشْمَرُهُ عَنْكُمْ وَلَا وَلَدٌ يَبْنِي لَهُ الرَّفْعَا
 إِلَى أَنْ قَالَ :

(١) المترف : المتنعم المتوسع في ملاذ شهواته

(٢) ريث يبعثه : مقدار ما يبعثه ، يقول : لا يطعم النوم إلا يسيراً حتى يبعثه
 الهم الماضي ، والشبا جمع شباة وهى حد كل شئ. وطرفه كحد السيف والسنان ، تخيل
 أن لهما حداً ، ويفصم من الفصم - بالقاء - وهو أن ينصدع الشئ من غير أن يبين
 خلاف القصم - بالقاف - وهو كسر الشئ الشديد حتى يبين ، والضلع والضلع لغتان
 وهى : مخنية الجنب

(٣) يجلب هذا الدهر أشطره يريد : خبر ضروبه ، يعنى أنه مر به خيره وشره
 وشدة ورخاؤه : تشبيهاً يجلب جميع أخلاف الناقة ما كان فيها حفلاً وغير حفل وداراً
 وغير دار ، وأصله من أشطر الناقة ، ولها خلفان قادمان وآخران كأنه حلب القادمين
 وهما الخير والآخرين وهما الشر ، وكل خلفين شطر ، وجعل الأشطر موضع - الشطرين
 كما تجعل الحواجب موضع الحاجبين ، وقوله : يكون متبعاً طوراً ومتبعاً ، أى قد
 اتبع الناس فعلم ما يصلح به أمر الناس ، واتبع فعلم ما يصلح الرئيس ، كما قال عمر بن
 الخطاب رضى الله عنه : قد ألنا وإبل علينا ، أى : سسنا وسيس علينا فأصلحنا أمور
 الناس وأصلحت أمورنا ، وكل ذلك كناية عن جودة رأى وإحكام الأمر

(٤) المريرة من الحبل : ماطال واشتد قتلها والجمع المرائر ، واستمرت : استحكمت
 والشزر : القتل ، ضرب ذلك مثلاً لاستجماع قوته واستحكام عزيمته ، والقحم : الكبير
 المنسن ، والضرع هنا : الصغير السن الضعيف

لقد بَدَلْتُ لَكُمْ نُصِيحِي بِلا دَخَلٍ فَاسْتَيْقِظُوا إِن خَيْرَ الْعِلْمِ مَا نَفَعَا
 هَذَا كِتَابِي إِلَيْكُمْ وَالنَّذِيرُ لَكُمْ لِمَنْ رَأَى رَأْيَهُ مِنْكُمْ وَبَيْنَ سَمِيعَا
 وَلِمَا أَوْفَدَ الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ كَعْبَ بْنَ مَعْدَانَ الْأَشْقَرِيَّ حِينَ
 هَزَمَ عَبْدَ رَبِّهِ الْأَصْغَرَ وَأُجْلَى قَطْرِيَّ بْنَ الْفُجَاءَةِ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ كَرِمَانَ
 نَحْوِ أَرْضِ خِرَاسَانَ إِلَى الْحِجَاكِ بْنِ يَوْسَفَ ، قَالَ لَهُ الْحِجَاكِ : كَيْفَ كَانَتْ
 مُحَارَبَةُ الْمُهَلَّبِ لِلْقَوْمِ ؟ قَالَ : كَانَ إِذَا وَجَدَ الْفُرْصَةَ سَارَ كَمَا يُسُورُ اللَّيْثُ ، ^(١)
 وَإِذَا دَهَمَتْهُ الطَّخْمَةُ ^(٢) رَاغَ كَمَا يَرُوحُ الثَّعْلَبُ ، وَإِذَا مَادَّهُ الْقَوْمُ صَبَرَ صَبْرَ
 الدَّهْرِ . قَالَ : وَكَيْفَ كَانَ فِيكُمْ ؟ قَالَ : كَانَ لَنَا مِنْهُ إِشْفَاقُ الْوَالِدِ الْحَرِيبِ
 وَلَهُ مِنَّا طَاعَةُ الْوَلَدِ الْبَرِّ . قَالَ : وَكَيْفَ أَطْلَقْتُمْ قَطْرِيَّ ؟ قَالَ : كَادَنَا يَبْعُضُ
 مَا كَدَنَاهُ بِهِ ، وَالْأَجَلَ أَحْصَنُ جُنَّةً وَأَنْفَذُ عُدَّةً . قَالَ : فَكَيْفَ اتَّبَعْتُمْ
 عَبْدَ رَبِّهِ وَتَرَكْتُمُوهُ ؟ قَالَ آثَرْنَا الْحَدَّ عَلَى الْقَلِّ ^(٣) ، وَكَانَتْ سَلَامَةُ الْجُنْدِ
 أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ شَجَبِ الْعَدُوِّ ^(٤) . فَقَالَ لَهُ الْحِجَاكِ : أَكُنْتُ أَعْدَدْتُ هَذَا
 الْجَوَابَ قَبْلَ لِقَائِي ؟ قَالَ : لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ...

حُثِّمُوا عَلَى التَّفَكِيرِ قَبْلَ التَّقَدُّمِ

قَالُوا : مَنْ قَاتَلَ بِغَيْرِ نَجْدَةٍ ، وَخَاصَّمَ بِغَيْرِ حُجَّةٍ ، وَصَارَعَ بِغَيْرِ قُوَّةٍ
 فَقَدْ أَعْظَمَ الْخَطَرَ ، وَأَكْبَرَ الْفَرَرِ ... الْفَرَرُ : الْخَطَرُ ،

(١) سار : وثب وثار

(٢) الطخمة : جماعة الناس ، يريد جند العدو

(٣) القل : القوم المنهزمون

(٤) الشجب : الهلاك

وقالوا :

إذا ما أردت الأمر فاذرعه كله وقسه قياس الثوب قبل التقدّم
لعلك تنجو سالماً من ندامة فلا خير في أمر أتى بالتندّم

من يؤثر الموت في العز على الحياة في الذل

قال المتنبي :

عش عزيزاً أومت وأنت كريم بين طعن الفنا وخفق البنود
فروّس الرّماح أذهب للغيث بظ وأشفي لغل صدر الحمود
لا كما قد حيث غير حميد وإذا مت مت غير فقيد
فاطلب العز في لظى وذّر الذل ولو كان في جنان الخلود

وقال أبو تمام :

يرى العلقم المأدوم بالعز أريّة يمانية والأري بالضم علقماً^(١)
ونظر عبد الله بن علي العباسي إلى قتي عليه أبهة الشرف وهو يقاتل
مُسْتَبْسِلًا^(٢) ، فناداه : يا قتي ، لك الأمان ولو كنت مروان بن محمد - آخر
الدولة الأموية - فقال : إلا أكنه ، فليست بدونه ، قال : فلك الأمان
من كنت ؛ فأطرق ثم قال :

(١) المأدوم : المخلوط ، والأريّة : واحد الأري ، وهو : العسل ، وقلبا تستعمل
واحدة ، ووصفها باليمانية لأن النحل تعسل في جبال الشراة وهي بالين
(٢) المستبسّل الذي يطرح نفسه في الحرب : يريد أن يقتل أو يقتل لا محالة

أُدِّلَ الحَيَاةِ وَكُرَّةَ المَاتِ وَكُلًّا أَرَاهُ طَعَامًا وَبَيْلًا
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرُ إِحْدَاهُمَا فَسِيرًا إِلَى المَوْتِ سِيرًا جَمِيلًا
ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ؛ قَالَ : فَإِذَا هُوَ ابْنُ كَلَسَكَةَ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ
مِرْوَانَ .

نهيهم عن مخافة القتل

وَحَثُّهُمْ عَلَى تَصَوُّرِ المَوْتِ

وَتَمْدَحُهُمْ بِذَلِكَ

قِيلَ لَعَلِّي بْنُ أَبِي طَالِبٍ : أُنْقَاتِلُ أَهْلَ الشَّامِ بِالْغَدَاةِ وَتُظَاهَرُ بِالْعَشِيِّ
فِي ثَوْبٍ وَرَدَاءٍ ؟ فَقَالَ : أَبَا المَوْتِ أَخْشَوْفُ ! وَاللَّهِ ، مَا أَبَالِي أَسْقَطْتُ عَلَى
المَوْتِ أَمْ سَقَطَ المَوْتُ عَلَى ! وَكَثِيرًا مَا كَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَتَمَثَّلُ :
أَيُّ يَوْمِي مِنَ المَوْتِ أَفْزَرُ يَوْمَ لَمْ يُقَدَّرْ أَمْ يَوْمَ قُدِّرَ ^(١)

(١) هذا البيت من أبيات نسبها السيوطي في شواهد المغني لشاعر اسمه الحارث
ابن منذر الجرمي ونسبها ابن سيده - اللسان مادة عفر - لشاعر آخر اسمه ضباب بن
واقد الطهوي وقد أورد السيوطي بعده هذه الأبيات :

إِنْ أَخَوَالِي جَمِيعًا مِنْ شَقِيرٍ كَبِسُوا لِي عَمَسًا جِلْدَ النَّمِرِ
تَحْتَوْا أَذَلَّتْنَا بَغِيًّا وَلَمْ يَرْهَبُوا غَبَّ الوَبَالِ المُسْتَعِرِ
فَلَيْتَ طَأْطَأْتُ فِي قَتْلِهِمْ لَتَهَاضَنَ عِظَامِي عَنْ عُفْرِ
وَلَيْتَ غَادَرْتُهُمْ فِي وَرْطَةٍ لَأَصِيرَنَّ نَهْرَةَ الذُّبِّ القَفْرِ
وَلَيْتَ أَعْرَضْتُ عَنْهُمْ بَعْدَمَا أَوْهَنْتُنِي لِتُصِيبَنِي بِقُرِ

يُورِدُ ابْنُ هِشَامٍ وَغَيْرُهُ هَذَا الْبَيْتَ هَكَذَا :

يَوْمَ لَمْ يُقَدَّرَ لَا أَرْهَبُهُ وَمِنَ الْمَقْدُورِ لَا يُنْجِي الْخَذَرُ
وَقَالَ الْمَتَنِّي :

إِذَا غَامَزْتَ فِي شَرِيفٍ مَرُومٍ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ صَغِيرٍ كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ
« يَقُولُ : إِذَا حَاوَلْتَ الشَّرَفَ وَخَاطَرْتَ بِنَفْسِكَ فِي سَبِيلِ الْحَصُولِ
عَلَيْهِ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ أَعْلَاهُ ، وَلَا تَرْضَ بِالْيَسِيرِ مِنْهُ ، فَإِنَّ طَعْمَ
الْمَوْتِ فِي الْأَمْرِ الْهَيْنِ كَطَعْمِهِ فِي الْأَمْرِ الصَّعْبِ ، وَإِذْنٌ فَلَا سَبِيلَ لِلْغَامِرِ
إِلَّا أَنْ يَقْصِدَ إِلَى أَسْمَى الْأُمُورِ »
وَقَالَ :

يَرَى الْجُبْنَاءُ أَنَّ الْعِجْزَ عَقْلٌ وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبَعِ اللَّثِيمِ

فِي أَيِّ يَوْمٍ مِنَ الْمَوْتِ أَفْرَ أَيُّ يَوْمٍ لَمْ يُقَدَّرَ أَمْ يَوْمٌ قُدِّرَ
بِفَتْحِ رَاءٍ يَقْدَرُ شَاهِدًا عَلَى أَنْ لَمْ يَنْصَبْ بِهَا الْمُضَارِعَ فِي لُغَةٍ وَأُورِدَ ابْنُ هِشَامٍ كَلَامًا لِأَمَةِ
النَّحَاةِ فِي تَخْرِيجِ الْبَيْتِ عَلَى نَصَبِ يَقْدَرُ « رَاجِعُهُ فِي الْمَغْنَى فِي الْكَلَامِ عَلَى لَمْ ، وَفِي اللِّسَانِ
مَادَّةُ قَدَرٍ ، وَالْآنَ لِنُشْرَحِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْجَمِيلَةَ فَنَقُولُ : قَوْلُهُ : لَبَسُوا إِلَى عَمْسٍ جِلْدَ
النَّمْرِ ، فَالْعَمْسُ : الشَّدَّةُ يَقُولُ : أَبْطَنُوا إِلَى الْعِدَاوَةِ ، وَأَثَلَةٌ كُلُّ شَيْءٍ : أَصْلُهُ ، وَيُقَالُ :
فُلَانٌ يَنْحَتُ أَثَلَتَنَا : إِذَا قَالَ فِي حَسْبِهِ قَيْحًا ، وَطَاطَأَ فِي قَتْلِهِمْ : أَسْرَعَ وَاشْتَدَّ ، وَقَوْلُهُ
« لَتَهَاضُنَّ عَطَامِي عَنْ عَفْرِ »

أَيُّ : عَنْ بَعْدٍ مِنْ أَخَوَالِي لِأَنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا أَقْرَبَاءَ فَلَيْسُوا فِي الْقَرَبِ مِثْلَ الْأَعْمَامِ ، وَالْوَرِطَةُ
الْأَمْرُ تَقَعُ فِيهِ مِنْ هَلَكَةٍ وَغَيْرِهَا أَوْ هِيَ الْهَلَكَةُ ، وَنَهْزَةٌ : أَيُّ صَيْدٍ وَفِي الْأَصْلِ :
اسْمُ الشَّيْءِ الَّذِي هُوَ لَكَ مَعْرُوضٌ كَالْغَنِيمَةِ ، وَالْفُرْصَةُ تَجِدُهَا مِنْ صَاحِبِكَ وَيُقَالُ :
نَهْزَةُ الْمُخْتَلَسِ أَيُّ : هُوَ صَيْدٌ لِكُلِّ أَحَدٍ ، وَالذَّنْبُ التَّفَرُّقُ : الْمُنْسَرِبُ إِلَى التَّفَرُّقِ - الْمَفَازَةُ
لِأَنْبَاتِهَا وَلَا مَاءٍ - وَقَوْلُهُ : لَتَصِيبَنِي بَقْرٌ فَإِنَّهُ يُقَالُ لِلشَّدَّةِ إِذَا نَزَلَتْ : صَارَتْ بَقْرٌ
أَيُّ : صَارَتْ الشَّدَّةُ فِي قَرَارِهَا ، وَقَالَ أَبُو عِيْدٍ : إِنَّمَا هُوَ مِثْلُ ، وَبِمَا قَالُوا : وَقَعَتْ
بَقْرٌ . وَقَالَ ثَعْلَبٌ مَعْنَاهُ : وَقَعَتْ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يَنْبَغِي

وقال : من قطعة جيدة نوردما كُلَّها لبراعتها :

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمانِ وَعَنَّاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَّا
وَتَوَلَّوْا بُغْضَهُ كُلُّهُمْ مِنْهُ وَإِنْ سَرَّ بَعْضُهُمْ أَحْيَانَا
رَبِّمًا تُحْسِنُ الصَّنِيعَ لِيَالِيهِ وَلَكِنْ تُكَدِّرُ الْإِحْسَانَا
وَكأنَّ الْمَ يَرْضَ فَيَنْأَبِيبُ الدَّهْرَ رَحَى أَعَانَهُ مِنْ أَعَانَا ^(١)
كَلِمَا أَتَيْتَ الزَّمانُ قَنَاءَ رَكِبَ الْمَرْءُ فِي الْقَنَاءِ سِنَانَا ^(٢)
وَمُرَادُ الثَّفَوسِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ تَتَعَادَى فِيهِ وَأَنْ تَتَفَانَا
غَيْرَ أَنْ الْفَتَى يَلَاقِي الْمَنِيَا كَالْحَاتٍ وَلَا يُلَاقِي الْهُوَانَا ^(٣)
وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبْقَى لِحَيِّ لَعَدَدْنَا أَضْلَلْنَا الشُّجْعَانَا ^(٤)
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ فَمَنْ الْعَجْزُ أَنْ تَكُونَ جَبَانَا ^(٥)

(١) في د يرض ، ضمير هو فاعل يرض بفسره ومن أعانا ، وأضره قبل الذكر على شريطة التفسير ، أو قول : إن د من أعانا ، فاعل يرض وأعانه على التاراع ، يقول : هذا الذي أعان على الدهر كأنه لم يرض بما يصيبني من محنة حتى أعانه على كما قال الآخر :

أَعَانَ عَلَى الدَّهْرِ إِذْ حَكَ بَرَكُهُ كَفَى الدَّهْرُ لَوْ وَكَلَّتُهُ بِي كَافِيَا
و البرك : لكل البعير و صدره الذي يدوك به الشيء تحته ،

(٢) القنأة : عودالرح ، والسنان : زجه الذي يطعن به يقول : إذا انتدب الزمان للإساءة بما جبل عليه صارت عداوة المعادى مدداً لقصدته نحوك ، فجعل القنأة مثلاً لما في طبع الزمان وجعل السنان مثلاً للعداوة
(٣) كالحات : عابسات .

(٤) يقول : لو كانت الحياة باقية لكان الشجاع الذي يتعرض للقتل أضل الناس ، يعني أن الحياة فانية وإن جبن الإنسان ولزم عقر داره وحرص على البقاء ثم أكد هذا بالبيت التالي يقول : إذا كان الموت لا يحيص عنه ولا ينجو منه شجاع ولا جبان فإن الجبن يكون من ضعف الهمة وعجزها .

كُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ فِي الْأَنْفِ

س سهلٌ فيها إذا هو كانا ^(١)

وبعثتُ بنو حنيفةً بِالْفَنْدِ الزَّمَانِ ^(٢) حين طلبتُ بكرُ بنُ وائلٍ إليهم
يَسْتَنْصِرُونَهُمْ، وقالوا - بنو حنيفة - : قد بعثنا إليكم ألف فارس - وكان
يقال له : عديد الألف - فلما ورد قالوا له : أين الألف ؟ قال : أنا ، فلما
كان الغدُ وبرزوا حمل على ألف فارس مُرَدِّفٍ فانتَظَمَهُمْ ...

(١) كل : مبتدأ ومن الصعب خبرها وسهل خبره ثان ويكن تامة وكذا وكانا ،
يقول : إنما يصعب الأمر على النفس قبل وقوعه فإذا وقع سهل وهان كما قال
البحري :

لَعَمْرُكَ مَا الْمَكْرُوهُ إِلَّا ارْتِقَابُهُ وَأَبْرُحُ نِمْمَا حَلَّ مَا يُتَوَقَّعُ

(٢) الفند الزمانى - واسمه شهل بن شيان بن ربيعة ... بن بكر بن وائل - شاعر
جاهلى قديم ، وفارس من فرسان ربيعة المشهورين المعدودين ، شهد حرب بكر وتغلب
وهو صاحب هذه الابيات الحماسية المشهورة ، قالها فى حرب البسوس وأنا لنوردها
هنا على شهرتها :

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذُهَلٍ	وَقُلْنَا : الْقَوْمُ إِخْوَانُ
عَسَى الْآيَامُ أَنْ يَرْجِعَ	بَنَ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
فَلَمَّا صَرَخَ الشَّرُّ	فَأَمْسَى وَهُوَ عُرْيَانُ
وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدْوَا	بِذَنَابِهِمَا كَمَا دَانُوا
مَشِينًا مِشِيَةَ اللَّيْثِ	غَدَا وَاللَّيْثُ غَضِبَانُ
بِضَرْبٍ فِيهِ تَوْهِينُ	وَتَخَضِيعُ وَإِقْرَانُ
وَطَعْنٍ كَقَمِّ الرِّقِّ	غَدَا وَالرِّقُّ مِلَانُ
وَبَعْضُ الْجِلْمِ عِنْدَ الْجَهْ	لِ لِلذَّلَّةِ إِذْ عَانَ

... ..

وفي الشر نجاة ح بين لا يُنجيك إحسان

و الصفح : العفو ، ويقال : أعرضت عن هذا الأمر صفحا : إذا تركته ، ويقال : أصفحته عنه كما يقال : أضربت عنه ، ويقال : أبدى لي صفحته : إذا أمكنك من نفسه يقول : صفحنا عنهم فلم نؤاخذهم بما كان منهم لأنهم إخواننا عطفنا عليهم الرحم . ويرجعن : يرددن ، يقال رجع فلان ورجعت فلانا يقول : صفحنا عنهم للرحم فعسى أن تردم الأيام إلى ما كانوا عليه من قبل من التواذ . وصرح الشر : انكشف ويقال صرح الشيء : إذا كشفه وصرح هو ، كما تقول : بين الشيء وبين هو : أى تبين وقيل : صرح : خلص ، شبه باللبن الصريح وهو الذى قد ذهب رغوته وإذا ذهب الرغوة فاللبن عريان ، وقوله : فأمسى وهو عريان : أى منكشف لاستردونه ، ويروى : فأضحى ، بدل فأمسى ، وهو أحسن وإن كان أصبح وأمسى وأضحى وظل يراد بها فى مثل هذا الموضع معنى صار . وقوله : دناهم كما دانوا : جواب لما فى قوله : فلما صرح الشر : أى فعلناهم مثل فعلهم بنا . يقول : صفحنا عنهم وقعدنا عن ضربهم وذكرنا الرحم والقراية بيننا وظننا أن حالهم ترجع إلى الحسن فلما أبوا إلا الشر ركبناه معهم وقوله : مشينا مشية الليث يروى :

ه شدنا شدة الليث ه وعلى هذه الرواية يكون عدا بدل غدا وتوهين تفعليل من الوهن وهو الضعف ، وتخضع تفعليل من الخضوع وهو اللذل والاقران : اللين والاسترخاء ، والباء فى بضرب تتعلق بمشيئنا أى مشينا بضرب فى ذلك الضرب تضعيف للضروب وتذليل ، قال بعض النقاد . والاجود أن يقول ما معناه : بضرب يفلق الهام ويتر العظم مثلا فأما أن يقول : ضرب يوهى ويرخى فإن أدنى الضرب يوجب هذا ، وإذن فمن الجائز أن يكون المعنى : فيه توهين وصوت فى القطع وكسر العظام ويكون معنى إقران : غلبة أو مواصلة لا فتور فيها ويكون تخضع من الخضعة وهو اختلاط الصوت فى الحرب ، ويروى الليث :

بِضْرِبٍ فِيهِ تَفْجِيعٌ وَتَأْيِيمٌ وَإِرْنَانٌ

أى يفتح الأخ بالأخ والولد بالولد ، والتأيم قتل الأزواج ، والإرنان : من الرنين وهو رفع الصوت بالبكاء . وغذا بالذال المعجمة : سأل وصف الطمن بالسعة وذكر أن الدم يسيل من موضع الطعنة كما يسيل الماء من فم القربة .

الجود بالنفس

وحب الموت في الوغى
وأنفتَهُمْ من الموت على الفراش

قال أبو تمام :

يَسْتَعِذُّونَ مِنِّيائِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَبْأَسُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قُتِلُوا

وقال :

وَحَنَ لِلْمَوْتِ حَتَّى ظَنَّ مُبْصِرُهُ كَأَنَّهُ حَنَّ مُشْتاقًا إِلَى وَطَنِ
لَوْ لَمْ يَمُتْ تَحْتَ أَسْيَافِ الْعِدَا كَرَمًا
لَمَاتَ إِذْ لَمْ يَمُتْ مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ

وقال :

قَوْمٌ إِذَا لَبَسُوا الْحَدِيدَ حَسِبْتُهُمْ لَمْ يَحْسِبُوا أَنَّ الْمَنِيَّةَ تُخْلَقُ
انْظُرْ بِحَيْثُ تَرَى السِّيفَ لَوَائِمًا أَبَدًا وَفَوْقَ رُؤُسِهِمْ تَتَأَقُّ
وَقَالَ بِشَامَةُ بْنُ حَزْنِ النَّهْشَلِيِّ :

إِنَّا لَنُرْخِصُ يَوْمَ الرُّوحِ أَنْفُسَنَا وَلَوْ نُسَامُ بِهَا فِي الْأَمَنِ أَغْلَيْنَا (١)

(١) يقول : إذا كان يوم الروح تهدمنا للقاء ، فإن ذهبنا أنفسنا ذهب رخيصة
لأننا بذلناها بالاندام ولم نغنها بالإحجام ، وإلّا كما يوم الأمن غالية ، والالف في
أغلينا : للاطلاق ، والون ضمير النفس ، ومعنى أغلين وجدت غالية وليس يريد أنهم
مع الغلاء يمكنون منها بل المراد قطع المقدرة عنها كما قال القائل :

نُعَرِّضُ لِلْسِّيفِ إِذَا اتَّقَيْنَا نَفُوسًا لَا تُعَرِّضُ لِلْسَّبَابِ
وكما قال الأجدع والدمسروق للفتية .

وقال عبد الله بن محمد بن أبي عيينة بن المهلب بن أبي صفرة :
 وإني من قوم كأن أنفهم بها أنف أن تسكن اللحم والدم
 وقال عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي — شاعر إسلامي — :^(١)
 ومامات منا سيدٌ حَتَفَ أنفه ولا طُلَّ يوماً حيثُ كان قتيلٌ^(٢)

لقد عَلِمَتْ نِسوانُ همدانَ أن:
 لهنَّ غَدَاةَ الرُّوعِ غَيْرُ بَذُولٍ
 وأبْذُلُ في الهِجاءِ وجهي وإني له في سوى الهِجاءِ غَيْرُ بَذُولٍ
 (١) تروى هذه الآيات للسموأل بن عادي اليهودي الجاهلي ، قال الخطيب
 التبريزي : وإذا كانت هذه الآيات جاهلية - أي للسموأل - فتروى :
 • وما مات منا سيد في فراشه •
 أي بدل • وما مات منا سيد حَتَفَ أنفه • أي لأن النبي صلى الله عليه
 وسلم هو أول من قال : مات حَتَفَ أنفه
 (٢) قلنا : إن أول من قال : حَتَفَ أنفه هو سيدنا رسول الله ، قال ابن الأثير :
 هو أن يموت على فراشه ، كأنه سقط لآفه فمات ، والحَتَفَ : الهلاك ، قال : كانوا
 يتخيلون أن روح المريض تخرج من أنفه ، فإن جرح خرجت من جراحته ؛ وعبرة
 غير ابن الأثير كما في اللسان : إنما قيل للذي يموت على فراشه : مات حَتَفَ أنفه
 — ويقال : مات حَتَفَ أنفيه — لأن نفسه تخرج بنفسه من فيه وأنفه ، قال : ويقال
 أيضاً : مات حَتَفَ فيه ، ومن قال : حَتَفَ أنفيه أراد سَمِيَ أنفه وهما : منخراه ، ويحتمل
 أن يراد : أنفه وفمه ، فغلب أحد الاسمين على الآخر ، وعبرة الخطيب التبريزي :
 والمعنى : كان حَتَفَه - أي هلاكه - بأنفه ، أي بالانفاس التي خرجت من أنفه عند
 نزوع الروح ، لا دفعة واحدة ، قال : ويقال : خص الأنف بذلك لأنه من جهته
 يتقضى الرَّمق وقوله :

• ولا طُلَّ يوماً حيثُ كان قتيل •
 فانه يقال : طُل دمه : إذا بطل ولم يطلب به يقول : لا يبطل دم قتيل منا وحاصل

تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الطَّبَاتِ نَفُوسُنَا وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ الطَّبَاتِ تَسِيلُ^(١)
وقال عَنَرَةُ :

بَكَرْتُ تُتَخَوَّفُنِي الْخُتُوفُ كَأَنِّي أَصْبَحْتُ عَنْ عَرَضِ الْخُوفِ بِمَعَزِلٍ
فَأَجِبْتُهَا : إِنْ الْمَنِيَّةُ مَنَهَلٌ لَا بَدَّ أَنْ أُسْقَى بِكَأْسِ الْمَنَهَلِ
فَأَنَّنِي حَيَاءُكَ لَا أَبَالِكَ وَأَعْلَمِي أَنِّي أَمْرُؤُ سَأَمُوتُ إِنْ لَمْ أُقْتَلِ
إِنْ الْمَنِيَّةُ لَوْ تُمَثَّلُ مُثَلَّتٌ مِثْلِي إِذَا نَزَلُوا بِضْنِكَ الْمَنْزِلِ
« الختوف : المكاره والمتآلف ، و « عن عرض » أى ما يمرض منها
وبمعزل ، أى فى ناحية منعزلة عن ذلك ، و : منهل : مورد ، وقوله :
فَأَنَّنِي حَيَاءُكَ ، أى احفظيه ولا تُضيعه ، والضنك : الضيق يقول : إن
المنية لو حُلِقَتْ مِثَالًا لَكَانَتْ فِي مِثْلِ صَوْرَتِي ...



وقال خالد بن الوليد وهو فى مرض الموت : لَقَدْ لَقِيتُ كَذَا وَكَذَا
رَحْفًا ، وَمَا فِي جَسَدِي مَوْضِعُ شِبْرِ إِلَّا وَفِيهِ طَائِمَةٌ أَوْ ضَرْبَةٌ أَوْ رَمِيَّةٌ ،
ثم دأبنا إذا أموت على فراشي حتف أنفي ! فلا نامت أعين الجبناء ...
« وقد تقدم ذلك »

وقال الْمُفَضَّلُ بْنُ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ :

معنى البيت : نحن لأموت ولكن نقتل ، ودم القتل مالا يبطل
(١) نفوسنا : أرواحنا أو دماؤنا ، والطبات جمع طبة : وهى حد السيف وفى
إضافة الحد إلى الطبات إما أن يكون المراد بالطبات السيوف كلها ثم أضاف الحد
إليها وأما أن تكون إضافة الحد إلى الطبات من إضافة البعض إلى الكل ويكون
التقدير : يسيل على الحد من الطبات وتكون الطبات مضارب السيوف ، والمصراع
الأول يدل على الشجاعة والثانى على العز والمنعة

هل الجود إلا أن تجودَ بأنفسِ على كل ماضى الشفرَينِ قُضِبِ
ومن هَرَّ أطرافَ القناخِشَةِ الرَدَى فليس لِمَجِدٍ صالِحٍ بِكُسُوبِ
وماهى إلا رَقْدَةُ تُوْرِثُ العُلَى لِرَهْطِكَ مَا حُنْتُ رَوَائِمُ نِيبِ
« هر أطراف القنا يقال : هر الشيء يهر - بالكسر والضم - هرا
وهريراً : كرهه يقال : هر فلان الكأس والحرب هريراً : أى كرهها قال
عنزة :

حَلَفْنَا لَهُمُ وَالْحَيْلُ تَرْدَى بِنَامِعَا نَزَا يَلِكُمْ حَتَّى تَهْرُوا الْعَوَالِيَا ^(١)
عَوَالِي زَرْفًا مِنْ رِيحِ رُدْبِنَةٍ هَرِيرِ الْكِلَابِ يَتَقِينَ الْأَفَاعِيَا
وقوله : وماهى إلا رقدة ... أليت قال المبرد : مأخوذ من قول
أخيه يزيد بن المهلب ، وذلك أنه قال فى يوم العقر ، وهو اليوم الذى
قُتِلَ فيه - : قاتل الله ابن الأشعث - عبد الرحمن بن الأشعث -
ما كان عليه لو غَمَضَ عينيه ساعةً للوْتِ ولم يكن قَتِيلَ نفسه ... وذلك
أن ابن الأشعث قام فى الليل وهو فى سَطْحٍ للَبُولِ ، فزعموا أنه رَدَى
نَفْسَهُ ، وَغَيْرُ أَهْلِ هَذَا الْقَوْلِ يَقُولُونَ : بَلْ سَقَطَ مِنْهُ بَسَنَةُ النُّوْمِ . وقوله
تُوْرِثُ العُلَى لِرَهْطِكَ ، فالمعنى : تورث العلى رهطك ؛ ومثله قوله تعالى :
(إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) والذئب جمع ناب وهى : المُسْتَنَّة من الإبل
سَمَّوْهَا بِذَلِكَ حِينَ طَالَ نَابُهَا وَعَظُمَ ، والروائىم : العاطفات على أولادها »

(١) الرديان : ضرب من السير وهو أن يرجم الفرس الأرض رجماً يحوافره
من شدة العدو ، وقوله : نزا يلكم أى لانزايلكم لحذف لا على
حد قولهم نالته أبرح قاعداً : أى لا أبرح ، ونزايلكم : نبارحكم يقال : ما ذيلته : أى
ما بارحته ، والعوالى جمع عالة : الرمح وهى مادون السنان بقدر ذراع

من يخوض الحرب لا بد أن يُوطن نفسه على الموت

قالت الخنساء :

ومن ظَنَّ مَنْ يُلاقى الحروب بأن لا يصاب فقد ظَنَّ عجزاً
وقالوا : * إن الشجاعة مقرون بها القُطْبُ * ^(١)

وقال تأبط شراً من أبيات اختارها أبو تمام في حماسه :

ومن يُغَرِّ بالاعداء لا بدُّ أنه سَيَلْقَى بهم من مَضْرَعِ الموت مَضْرَعاً

في القتل حياة

قال المهلب بن أبي صفرة : ليس شيء أنتمى من سيف ! ولقد صدق
فما نال السيف أنتمى عدداً وأكرم ولداً من ولد المهلب ... وقال الحجاج
لامرأة من الخوارج : والله لأحصدنكم حصداً ، فقالت : أنت تحصد
والله يزرع ، فانظر أين قُدْرَةُ المخلوق مع قدرة الخالق !
ومما يصح أن يورد هنا وإن كان من وادٍ آخر قوله تعالى : « ولكم

(١) من أبيات لشاعر جبان يكنى أبا الغمر :

أضحت تُشجِّعُنِي هندٌ وقد علمت أن الشجاعة مقرون بها القُطْبُ
لا والذي مَنَعَ الأبصارَ رُؤْيَتَهُ ما يَشْتَهِي الموت عندى من له أَرْبُ
لِلْحَرْبِ قَوْمٌ أَضَلَّ اللهُ سَبِيلَهُمْ إِذَا دَعَوْهُمْ إِلَى نِيرَانِهَا وَثَبُوا
وَلَسْتُ مِنْهُمْ وَلَا أَبْنَى فِعَالَهُمْ لَا الْقَتْلُ يُعْجِبُنِي مِنْهَا وَلَا السَّلْبُ

في القصاص حياةٌ يا أولى الألباب ، ^(١)

تأثير الخوف والخوف منه

والموفى على الجماعة

قيل لعلي بن أبي طالب : بهم غلبت الاقران ؟ قال : بتمسكن هيبتي في قلوبهم ... وبعث أمير في طلب قوم رجلاً ، فلما لبث أن جاءه برجل أطول مايكون ، فقال : كيف تمكنت منه ؟ فقال : وقع في قلبي أن آخذه ، ووقع في قلبي أنه مأخوذ ، فنصرني عليه خوفاً وجُرأتى ... ونظر رجل إلى علي بن أبي طالب وقد شق العسكر ، فقال : قد علبت أن ملك الموت في الجانب الذي فيه علي .

ومن المأثور عن المصطفى صلوات الله عليه قوله : « نُصرت بالرعب مسيرة شهر » ... قال ابن الأثير : كان أعداء النبي صلى الله عليه وسلم قد أوقع الله في قلوبهم الخوف منه ، فإذا كان بينه وبينهم مسيرة شهر هابوه وفرّوا منه .

(١) قال الزمخشري : كلام فصيح لما فيه من الغرابة ، وهو أن القصاص قتل وتقويت للحياة وقد جعل مكاناً وظرفاً للحياة ، ومن إصابة محز البلاغة بتعريف القصاص وتسكير الحياة لأن المعنى : ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة ، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة ، وكل قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفني بكر بن وائل وكن يقتل بالمقتول غير قاتله فتشور الفتنة ويقع بينهم التناحر ، فلما جاء الإسلام شرع القصاص كانت فيه حياة أي حياة ، أو نوع من الحياة وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل ، لأنه إذا هم بالقتل فلم أنه يقتص منه فارتدع سلم صاحبه من القتل وسلم هو من القود فكان القصاص سبب حياة نفسه ...

وقال المتنبي : * وَيُسْتَغْطَمُونَ الْمَوْتَ وَالْمَوْتُ خَادِمُهُ *

وقال سلم الخاسر : * كَانَ الْمَنَايَا جَارِيَاتُ بَأْمَرِهِ *

وقال الفرزدق :

تَلَطَّ السَّيْفُ مِنْ شَوْقٍ إِلَى أَنَسٍ

فَالْمَوْتُ يَلْحَظُ وَالْإِقْدَارُ تَلْتَظُرُ

أَظْلَهُ مِنْكَ حَتْفٌ قَدْ تَجَلَّاهُ حَتَّى يُؤَامِرَ فِيهِ رَأْيُكَ الْقَدْرُ ^(١)

وقيل للأسكندر : إن في عسكر دارا ألف مقاتل ، فقال : إن القصاب

الحاذق وإن كان واحداً لا يهوله كثرة الغنم ... وقال شاعر :

فَوَاحِدُهُمْ كَالْأَلْفِ بِأَسَا وَنَجْدَةٌ وَالْفُهُمُ لِلْعُجْمِ وَالْعُرْبِ قَاهِرُ

وقال أبو تمام يمدح أبا سعيد الطائي ويذكر ما صنع بالخرزمية :

أَقَيْتَهُمُ وَالْمَنَايَا غَيْرُ دَافِعَةٍ لِمَا أَمَرَتْ بِهِ وَالْمُلْتَقَى كَبَدُ ^(٢)

فِي مَوْقِفٍ وَقَفَ الْمَوْتُ الزَّوَامُ بِهِ

فالمجدد يوجد والأرواح تُفْتَقَدُ ^(٣)

مُسْتَضِجَانِيَّةٌ قَدْ طَالَمَا ضَمِنَتْ لَكَ الْخُطُوبَ فَأَوْقَتْ بِالذِي تَعُدُّ

وَرُحْبَ صَدْرِ لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ وَاسِعَةٌ

كَوَسْعِهِ لَمْ يَضِقْ عَنْ أَهْلِهِ بَلَدُ ^(٤)

صَدَعَتْ جَرَيْتَهُمْ فِي عُصْبَةٍ قُلُلُ

قَدْ صَرَحَ الْمَاءُ عَنْهَا وَأَنْجَلَى الزُّبْدُ

(١) يؤمره : يشاوره فيأتمر وينفذ رأيه ويروى بدل رأيك : ربه

(٢) الكبد : الشدة والمشقة

(٣) الزوام : الكريه أو السريع

(٤) رحب صدر : سعة صدر

مِنْ كُلِّ أَرْوَغٍ تَرْتَمِيعُ الْمَنُونُ لَهُ

إذا تجرد، لا ينكس ولا يجحد^(١)

يكاد حين يلاقى القرن من حنق

قبل السنان على حوائيه يرد^(٢)

قلوا ولكنهم طابوا فأنجدهم

جيش من الصبر لا يحصى له عدد

المتبرم بالحرب والسخرية منه

قال سعد بن مالك أحد سادات بكر بن وائل في الجاهلية وفرسانها^(٣)

يأبؤس للحرب التي وضعت أراهم فاستراحوا

وهو من أبيات جيدة اختارها أبو تمام في حماسه وبعده :

(١) النكس : الضعيف ، والجحد : القليل الخير

(٢) الحوابة : النفس والجمع حوباوات

(٣) قال سعد هذه الأبيات في حرب البسوس حين هاجت الحرب بين بكر وتغلب لقتل كليب واعتزل الحارث بن عباد وقال هذا أمر لا ناقة لي فيه ولا جل فعرض سعد في هذا الشعر بعود الحارث . وهذا الحارث بن عباد كان من حكام ربيعة وفرسانها المعدودين ، وكان قد اعتزل حرب ابني وائل ثم حدثت أمور أفضت به إلى خوضه هذه الحرب ، وهو القائل من أبيات :

قرباً مَرِيطَ النِّعَامَةِ مِنِّي لَقِيتُ حَرْبُ وَاثِلٍ عَنْ حِيَالِ

لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عِلْمَ اللَّهِ وَإِنِّي بِحَرْبِهَا الْيَوْمَ صَالِي

ولما فعل ما فعل قال لسعد بن مالك : أتراني عن وضعته ا - يشير إلى قول

سعد : التي وضعت أراهم - قال سعد : لا ، ولكن لا غباً لعطرب بعد عروس ،

ومعناه : إن لم تنصر قومك الآن فلن تدخر نصرك ...

والحربُ لا يَبْقَى لِحِمَا جَمِيعِهَا التَّخِيلُ والمِرَاحُ
إِلَّا الْفَتَى الصَّبَّارُ فِي النَّجْدَاتِ وَالْفَرَسُ الْوَقَّاحُ
مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَّاحُ
الْمَوْتُ غَايَتُنَا فَلَا قَصْرَ وَلَا عَنْهُ رِجَاحُ
وَكَاثِمًا وَرَدُّ الْمَنِيَةِ عِنْدَنَا مَاءٌ وَرَاحُ

« قوله يَا بُؤْسَ لِلْحَرْبِ ، أصله : يَا بُؤْسَ الْحَرْبِ ، فَأُفْحِمَتِ اللَّامُ
بَيْنَ الْمُتَضَافَيْنِ ، يَدْعُو عَلَى الْحَرْبِ وَيَذَمُّ نَكَبَاتَهَا سَخَرِيَّةً ؛ وَمَعْنَى وَضَعَتْ
أَرَاهُطُ : حَطَّطَتْهُمْ وَأَسْقَطَتْهُمْ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ذِكْرٌ وَلَا شَرَفٌ فِي هَذِهِ الْحَرْبِ
فَاسْتَرَا حُوا مِنْ مَكَابِدَتِهَا كَالنِّسَاءِ ، قَالَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ لِرَجُلٍ : إِنَّهُ قَدْ وَضَعَ
الْمَكْرَامَ فَاسْتَرَا حَ ، وَقَالَ رَجُلٌ لِلْأَحْنَفِ : لَا أَبَالِي أَهْجَيْتُ أُمَّ مُدِحَتِ ،
فَقَالَ : اسْتَرَحْتَ مِنْ حَيْثُ تَعَبَ الْكِرَامِ ، وَأَرَاهُطُ إِمَّا جَمَعَ أَرَاهُطُ جَمْعَ
رَهْطٍ وَإِمَّا جَمَعَ رَهْطٍ عَلَى خِلَافِ الْقِيَاسِ ، وَالرَّدْطُ : النِّفَرُ مِنْ ثَلَاثَةِ إِلَى
عَشْرَةٍ ، وَالْجَاحِمُ : الْمَكَانُ الشَّدِيدُ الْحَرِّ ، مِنْ جَحَمَتِ النَّارِ فَهِيَ جَاحِمَةٌ ؛
إِذَا اضْطَرَمَّتْ ، وَمِنْهُ الْجَحِيمُ ، وَالتَّخِيلُ : التَّكْبِيرُ ، مِنَ الْخَيْلَاءِ . يَقُولُ :
لِئِنْهَا لَا تُبْقَى عَلَى نَخْوَةِ الْمُتَخَوِّ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَوَّلِي الْغَنَاءِ يَتَكَبَّرُونَ عَنْ
الْخَيْلَاءِ . وَيَحْتَالُ الْمَغْرُورُ فَإِذَا جُرِبَ فَلَمْ يُحَمَّدَ أَفْتَضَحَ وَسَقَطَ ، أَوْ تَقُولُ
مَنْ كَانَ ذَا خَيْلَاءٍ وَمَرَحٍ ثُمَّ بُلِيَ بِالْحَرْبِ شَغَلَتْهُ عَنْ خَيْلَائِهِ وَمَرَحِهِ .
وَالْمِرَاحُ بِكَسْرِ الْمِيمِ : النَّشَاطُ ، أَيْ أَنَّهَا تَكْفُفُ حِدَّةَ الْبَطَرِ النَّشِيطِ ، وَهَذَا
تَعْرِيفٌ بِالْحَارِثِ بْنِ عَبَادٍ بِأَنَّهُ صَاحِبُ خَيْلَاءٍ وَمَرَحٍ . وَالصَّبَّارُ مَبَالِغَةٌ صَابِرٌ
وَالنَّجْدَةُ : الشَّدَّةُ وَالْبَاسُ فِي الْحَرْبِ ، وَالْوَقَّاحُ : الْفَرَسُ الَّذِي حَافِرُهُ صُلْبٌ
شَدِيدٌ ، وَمِنْهُ الْوَقَّاحَةُ .

وقوله : فأنا ابنُ قيس لا براح ، أى : أنا المشهور فى النجدة كما سمعت
وأضاف نفسه إلى جدّه الأعلى لشهرته به ، وجملة لا براح حال مؤكدة
لقوله : أنا ابن قيس كأنه قال : أنا ابن قيس ثابتاً فى الحرب ، والبراح
مصدر يَرِح الشيء بَراحاً : إذا زال من مكانه . وقوله : فلا أَصْرُ هناك
ولا جماح فالقصر . الحبس ، والجماح مصدر جَمَحَ : إذا انفلت وهرب يريد :
لا يمكن حَبْسُ نفس عن الموت ولا مهرب عنه . والورد : الورد وهو دخول
الماء ، وقيل : حُضُوره وإن لم تَدْخُلْه .

وقال شاعر :

ما ذاقَ همًّا كالشَّجَاعِ ولا خَلا بِمَسْرَةٍ كالعَاجِزِ المَتَوَانِ

الممدوح بقوة نفسه دون جسمه

قال أبو تمام :

والصَّبْرُ بِالْأَرْوَاحِ يُعْرَفُ أَفْضَلُهُ صَبْرُ الْمُلُوكِ وَلا يَسَّ بِالْأَجْسَامِ

وقال شاعر :

وَإِنِّ لِلْقَوَى عَلَى الْمَعَالِ وما أنا بالقوى على الصِّراعِ

وقال معاوية رضى الله عنه : ما كان فى الشَّبانِ شيء إلا وكان فى منه

مُسْتَمْتَع ، إلا أنى لم أكن نُكْحَةً ولا صُرْعَةً . « رَجُلٌ نُكْحَةٌ : كثير

النِّكاح — الوطء — ورجل صُرْعَةٌ : يصرع الناس ،

وأورد أبو تمام فى حماسه لبعض الشعراء :

لَا قُوَّةَ قُوَّةُ الرَّاعِي فَلَائِصُهُ يَاوَى فَيَاوَى إِلَيْهِ الْكَلْبُ وَالرُّبْعُ

مِنَّا الْإِنَاءُ وَبَعْضُ الْقَوْمِ يَحْسَبُنَا أَتَا بِطَاءُ وَفِي إِبْطَانِنَا سَرَعُ

« يقول : ليس غَنَائِي فِي الْمُهَيَّمَاتِ غَنَاءَ الرِّعَاءِ الَّذِينَ سَعِيَهُمْ مَقْصُورٌ عَلَى ضَمِّ الْقُلَاصِ وَحِفْظِهَا فِي مَرَاعِيهَا فَإِذَا أَوَى إِلَى مَوْضِعٍ أَوَى إِلَيْهِ كَلْبُهُ الَّذِي يَحْرُسُهُ وَرُبْعَهُ ، وَهُوَ مَا يُنْتِجُ فِي الرَّبِيعِ ، وَالسَّرْعُ : السَّرْعَةُ »

القصد إلى العدى مجاهرة

قال السَّريُّ الرَّفَاءُ : مِنْ أَيْبَاتِ يَمْدَحُهَا سَيْفُ الدَّوْلَةِ بْنِ حَمْدَانَ :
وَيَجْعَلُ بَشْرَهُ نُذْرَ الْأَعَادِي قِيَمَتُهُ جَنْدُوبًا أَوْ شِمَالًا
وَلَمْ يُنْذِرْهُمْ مِقَّةً وَلَكِنْ تَرَفَّعَ أَنْ يُصِيبَهُمْ اغْتِيالًا ^(١)
وَأَشَارَ عَلَى الْإِسْكَانْدَرِ الْمُقْدُونِيِّ أَصْحَابَهُ أَنْ يُبَيِّتَ الْفُرسَ ^(٢) ، فَقَالَ :
لَيْسَ مِنَ الْإِنْصَافِ أَنْ أَجْعَلَ غَلَبَتِي سِرَّةً ...

المقاتل عن حريمه

لَيْمَ الْإِسْكَانْدَرُ عَلَى مُبَاشَرَتِهِ الْحُرُوبِ بِنَفْسِهِ ، فَقَالَ : لَيْسَ مِنَ الْإِنْصَافِ
أَنْ يَقْتُلَ قَوْمِي عَنِّي وَأَتْرِكَ الْقِتَالَ عَنْهُمْ وَعَنْ أَهْلِي وَنَفْسِي ...
وَقِيلَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ : يَا أَبَا سَعِيدَ ، إِنَّا نَكُونُ فِي هَذِهِ الْبَعُوثِ
وَالسَّرَايَا فَنُصِيبُ الْمَرْأَةَ مِنَ الْعَدُوِّ ، وَهِيَ ذَاتُ زَوْجٍ ، أَفَتَحِلُّ لَنَا مِنْ قَبْلِ
أَنْ يُطْلَقَ زَوْجُهَا ؟ وَكَانَ الْفَرَزْدَقُ حَاضِرًا ، فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ : قَدْ قُلْتَ أَنَا

(١) المَقَّةُ : الْحَبَّةُ

(٢) تَبَيَّتِ الْعَدُوُّ : أَنْ يَقْصِدَ فِي اللَّيْلِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمَ فَيُؤْخَذُ بَغْتَةً ، وَالْإِسْمُ :
الْيَاتِ ، وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : بَيْتُ الْأَمْرِ فَعَنَاءُ : دَبْرُهُ بَلِيلٌ قَالَ تَعَالَى : إِذْ يَبْتَئِنُّونَ مَا لَا يَرْضَى
مِنَ الْقَوْلِ ، قَالَ الزَّجَّاجُ : كُلُّ مَا فُكِّرَ فِيهِ أَوْ خِيضَ فِيهِ بَلِيلٌ فَقَدْ بَيَّتَ ، يُقَالُ : هَذَا
أَمْرٌ دَبَرَ بَلِيلٌ وَبَيَّتَ بَلِيلٌ ، بِمَعْنَى وَاحِدٍ .

في مِثْلِ هذا شِعْراً ، وأنشد :

وَذَاتِ حَلِيلٍ أَنْكَحَتْهَا رِمَاحُنَا حَلَالًا لِمَنْ يَبْنِي بِهَا وَلَمْ تُطَلَّقِ (١)
فَقَالَ الْحَسَنُ : أَصَبْتَ ، كُنْتُ أَرَى أَنَّكَ أَشْعَرُ مِنِّي فَإِذَا أَنْتَ أَفْقَهُ
قَالَ ابْنُ رَشِيقٍ فِي الْعَمْدَةِ : وَمَا أُعْطِنُ الْفَرَزْدَقَ إِلَّا أَرَادَ مَذْهَبَ الْجَاهِلِيَّةِ فِي
السَّبَايَا ...

وَقَالَ زِيَادُ الْأَعْجَمِ مَنْ كَلَّمْتَهُ الَّتِي يَرِثُ بِهَا الْمَغِيرَةَ ابْنَ الْمُهَلَّبِ بْنِ
أَبِي صُفْرَةَ :

صَفْمَانِ مُحَمَّدَانِ حِينَ تَلْقَا أَبَا بُوَيْحٍ مُطَلَّقِي أَوْ نَكِحِي

المستنكف من السلب

قَالَ أَبُو نَمَامٍ مِنْ بَانِيَةِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي يَبْنِي فِيهَا الْمَعْتَصِمُ بِفَتْحِ عَمُورِيَّةَ :
إِنَّ الْأُسُودَ أُسُودَ الْغَابِ هِمَّتُهَا يَوْمَ الْكُرْبَةِ فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّلْبِ
وَقَتْلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا فَأَرَادَ قَنْبَرُ أَنْ يَأْخُذَ سَلْبَهُ ،
فَقَالَ : يَا غِلَامَ ، لَا تُعَرِّ فَرَائِي ... وَقَالَ عَنُوتَةُ فِي مَعْلَقَتِهِ :

هَلَّا سَأَلْتَ الْحَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي (٢)
يُنْخِرُكَ مِنْ شِهْدِ الْوَقِيعَةِ أَنِّي أَغْشَى الْوَعْيَ وَأَعْفَى الْعَنَمِ

هـ جهاًراً بأيدينا ولما تطلق

(١) يروي العجز هكذا :

(٢) الحيل يريد : الفرسان

الشبان والكهول في الحرب

قال رجلٌ لآخر : لَاغْزَوْنَكَ بِمُرْدٍ عَلَى جُرْدٍ^(١) ، فقال له : لَا لَقَيْنَكَ
بكهول على فحول .

وقال المتنبي :

سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالقَنَا وَمَشَايِخِ كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا النَّشْمُوا مُرْدٌ^(٢)

يُقَالُ إِذَا لَاقُوا خِفَافٍ إِذَا دُعُوا

كَثِيرٍ إِذَا شَدُّوا قَلِيلٍ إِذَا عُدُّوا^(٣)

وَطَائِنٍ كَأَنَّ الطَّعْنَ لَا طَائِنَ عِنْدَهُ

وَضَرْبٍ كَأَنَّ النَّارَ مِنْ حَرِّهِ يَرُدُّ^(٤)

(١) الجرد جمع أجرد والاجرد من الخيل : السابق .

(٢) يقول : سأطلب حقى بالرماح وبصحب لى لا يفارقون الحروب فلا يفارقهم اللثام ولا ترى لحام فكأنهم مرد ، والثام فى الحرب عادة العرب لثا تسقط عماثهم وقال الواحدى : كنى بالقنا عن نفسه وبالمشاىخ عن أصحابه يعنى : أنه يطلب حقه بنفسه وبغيره ، وأراد : أنهم محنكون مجربون ولذلك جعلهم مشايخ

(٣) مراده بكوتهم ثقالا : شدة وطائهم على العدو أو ثباتهم لدى اللقاء ، وكنى بالحقفة عن سرعة الإجابة إذا دعوا للنجدة ، وبالكثرة عن سد الواحد مسد الجماعة أى أنهم على قاتهم فى العدد يغنون غناء السواد الأعظم

(٤) وطعن : عطف على القنا والضمير فى عنده يعود إلى الطعن الأول يقول : وأطلب حقى بطعن شديد كأن كل طعن غيره بالقياس إليه لا شىء ، وبضرب حاز كأن حر النار بالإضافة إليه برد

إِذَا شِئْتُ حَفَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَاحِجٍ

رِجَالُ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي فِئْهَا شَهِدٌ ^(١)

وهم يفضلون الثُّبَاتَ على السُّكُوتِ في الحروب ، وقد أورد الراغب في محاضراته أبياتاً عزاه إلى طاهر بن الحسين ، في هذا المعنى ^(٢) ، والابيات وإن كانت في معناها قد أصابت مقطع الحق والسداد بَيِّنَةٌ أن مضاهها ليس من الجمال في شيء ومن ثمَّ استحسنَّا أن ننشرها ونوردها عليك منشورةً بألفاظنا مع المحافظة على المعنى ، وهاتكها : مِنْ عَائِبِ الرَّأْيِ أَنْ تَسْتَظْهِرَ فِي تَدْبِيرِ حَرْبِكَ بِالشُّيُوخِ الْمُحَنِّكِينَ الَّذِي تَمَرَّسُوا بِالْأَيَّامِ حُلُوهَا وَمُرَّهَا ، وَالَّذِينَ تُغْنِي آرَاؤُهُمْ غَنَاءَ الْعَمَلِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْشَى الْوَعْيَ إِلَّا بِحَدِيثِ السَّنِّ مُقْتَبِلِ الشَّبَابِ ، فَإِنَّ السُّكُوتَ الَّذِي تَنْقَسُ بِهِمُ الْعُمُرُ وَاقْتَرَبُوا مِنْ مَنَهِلِ الْمَوْتِ تَرَاهُمْ يَتَمَثَّلُونَ الْمَوْتَ أَبَدًا بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ خَوْفًا وَجَزَعًا ، وَمِنْ جَرَاءِ ذَلِكَ يَجْهِنُونَ ، أَمَا حَدِيثُ السَّنِّ فَإِنَّ لَهُ شَأوًا بَعِيدًا يُرِغُهُ ، وَأَمَّا لَا عِرَاضًا يَحَاوِلُ تَحْقِيقَهَا ، وَمِنْ هُنَا كَانَ جَرِيئًا طَمُوحًا بَعِيدًا مُرْتَقَى الْهَمَةِ فَهُوَ لَا يَبَالِي أَسْقَطَ عَلَى الْمَوْتِ أَمْ سَقَطَ الْمَوْتُ عَلَيْهِ ، لِأَنَّ الْمَوْتَ لَيْسَ مِنْهُ عَلَى بَالٍ ...

(١) في فئها أراد : في أفواهها فأوقع الواحد موقع الجماعة ، والساحج : الفرس

السريع الجرى كأنه يسبح

(٢) هو والد عبد الله بن طاهر ، وكان من أكبر أعوان المأمون وهو الذي

تولى محاربة الأمين حتى قتله وهو وإن كان أديباً يحب الشعر إلا أنه لم يرد له شعر

فلعل هناك تحريفاً في المحاضرات ولعل الأبيات لابنه عبد الله بن طاهر الذي كان له

شعر مليح .

العاجز أعاديه عن إصلاح ما أفسده

وعكس ذلك

قال علي بن جبلة المعروف بالعكوك من أبيات يمدح بها أبا غانم حميد بن عبد الحميد الطوسي :

يَرْتُقُ مَا يَفْتُقُ أَعْدَاؤُهُ وليس بأسو فتنه آسى ^(١)
فالناس جسمٌ وإمام الهدى رأسٌ وأنت العينُ في الرأسِ

وقال الكُميت :

لَا يَهْدِمُ النَّاسُ مَا تَنْبِي أَكْثُهُمْ مِنَ الْفَعَالِ وَلَا يَنْتُونُ مَا هَدَمُوا ^(٢)
وقال أشجع السلمي من قصيدة يمدح بها جعفر بن يحيى البرمكي وزير

الرشيد :

وَلَا يَرْفَعُ النَّاسُ مَنْ حَطَّهُ وَلَا يَضْمُونُ الَّذِي يَرْفَعُ

وبعده :

تَرِيدُ الْمُلُوكَ مَدَى جَعْفَرٍ وَلَا يَصْنَعُونَ كَمَا يَصْنَعُ
وَلَيْسَ بِأَوْسَعِهِمْ فِي الْغِنَى وَلَكِنْ مَعْرُوفُهُ أَوْسَعُ

وهذا البيت الثالث من قول ابن زياد الأعرابي :

وَلَمْ يَكْ أَكْثَرُ الْفَتَيَانِ مَالًا وَلَكِنْ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعًا

(١) ارتق ضد الفتق وهو : لام الفتق وإصلاحه ، وبأسو فتنه مجاز من أساء الجرح بأسوه : داواه . والآسى : الطيب المداوى
(٢) الفعّال : الفعل الحسن

وقال المتنبي :

لا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ ولا يَهَيِّضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَائِرُهُ^(١)

من تصحبه الطيور والسباع في القتال

أول من وَصَفَ المحاربَ تَصَحَّبَهُ الطيورُ والسباعُ رِقَّةً بانتصاره ،
وبالشَّعْبِ من فرائسه : النابغة الذبياني إذ يقول في قصيدة له يمدح بها عمرو
ابن الحارث الأصغر من ملوك غسان بالشام :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم	عصائب طير تهتدي بعصائب
يُصَاحِبُهُمْ حتى يُغْزَنَ مُغَارَهُمْ	من الضاريات بالدماء الدَّوَارِبِ
تراهن خلف القوم خُزراً عيونها	جلوس الشيوخ في ثياب المرائب
جوانح قد أيقن أن قبيله	إذا ما التقى الجمعان أول غالب
لهنَّ عليهم عادة قد عرفنها	إذا عرَّض الخطي فوق الكواثب

«العصائب : الجماعات . وقوله : يصاحبهم يقول : تسير جماعات
الطير معهم كأنما تغير ياغارتهم على الأعداء ، وهذه الطيور من المتدربات
الضاريات المولعات بدماء القتلى . والخزر جمع أخزر وخزراء أى : ضيقة
العيون خلقة ؛ أو أنها تتخازر ، أى تقبض أجفانها ، لتحدّد النظر ، وقوله
جلوس الشيوخ ، أى أنها لدى اشتداد القتال تقع على أعالي الأرض والهضاب
كأنها في ريشها ووقوفها وتحديد النظر ترقب القتلى جالسة جلوس
الشيوخ إذا التفوا بأكسية المرائب يحدّدون النظر إلى شيء بعيد ، والمرائب

(١) هاض العظم : كسره بعد الجور

جمع مَرَبَّاتِي ، وهو الثوب المبطن بفراء الارانب . وجوانح : مائلات
 للوقوع . والخطي : أى القنا المذسوبة إلى الخط - بلد بالبحرين - والكواثب
 — بالشاء المثانة — جمع كاثبة ، وهى من جسم الفرس ماتحت الكاهل إلى
 الظهر بحيث إذا نُصِبَ عليه السرجُ كانت أمام القَرَبُوسِ يَضَعُ الفارس
 عليها رُفْحَهُ مُسْتَعْرِضًا ، يقول : اعتادت الطير أن الرماح إذا عُرِضَتْ على
 الكواثب كان ذلك لِرِزْقٍ يُسَاقُ إليها .
 وقال أبو تمام :

وَقَدْ ظَلَّلَتْ عِقْبَانُ أَغْلَامِهِ ضَحَى بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدِّمَاءِ نَوَاهِلِ^(١)
 أَقَامَتْ مَعَ الرَايَاتِ حَتَّى كَانَهَا مِنْ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهُمْ تَفَارَتِلِ
 وَقَالَتْ جَنْوَبُ آخَتْ عَمْرِو ذَى السَّكَبِ تَرْتِيهِ :

تَمْشِي الدَّوْرُ إِلَيْهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ مَشَى الْعَذَارَى عَلَيْهِنَ الْجَلَابِبُ
 « الْجَلَابِبُ : ثَوْبٌ أَوْسَعُ مِنَ الْخِمَارِ دُونَ الرِّدَاءِ تُغَطِّي بِهِ الْمَرْأَةُ رَأْسَهَا
 وَقِيلَ : الْمَلَأَةُ الَّتِي تَشْتَمِلُ بِهَا ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ : أَنَّ النُّسُورَ
 آمَنَهُ مِنْهُ لَا تَفَرِّقُهُ لِكَوْنِهِ مَيْتًا فَهِيَ تَمْشِي إِلَيْهِ مَشَى الْعَذَارَى ، وَأَوَّلُ هَذِهِ
 الْمَرْثِيَةِ :

كُلُّ أَمْرِي بِطَوَالِ الْعَيْشِ مَكْذُوبُ
 وَكُلُّ مَنْ غَالَبَ الْإِيَّامَ مَغْلُوبُ

وقال المتنبي :

(١) العقبان الأولى جمع عقاب : الراية الضخمة ، والثانية جمع عقاب أيضاً :
 سباع الطير .

تَرَكْتَ جَمَاجِمَهُمْ فِي النَّقَا وَمَا يَتَخَلَّصْنَ لِلنَّاحِلِ ^(١)
فَأَنْبَتَ مِنْهُمْ رِبْعَ السَّبَاعِ فَأَنْبَتَ يَا حَسَانِكَ الشَّامِلِ

وقال :

سَحَابٌ مِنَ الْعِقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا سَحَابٌ إِذَا اسْتَسَقَتْ سَقَتَهَا صَوَارِمُهُ
وقال في صفة جيش وقد ألم بهذا المعنى :

وَذِي لَجَبٍ لَا ذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ بَنَاجٍ وَلَا الْوَحْشُ الْمُنَارُ بِسَالِمِ ^(٢)
تَمَرٌ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ تَطَالَعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيشِ الْقَشَاعِ ^(٣)
إِذَا ضَوْؤُهَا لَا قِيَّ مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةٌ

تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ ^(٤)

وقال :

يُطْمَعُ الطَّيْرَ فِيهِمْ طُولُ أَكْلِهِمْ حَتَّى تَكَادَ عَلَى أَحْيَانِهِمْ تَقَعُ

(١) النقا : الكتيب من الرمل يقول : دست رؤسهم بحوافر الخيل فطحنها وامتزجت بالرمل حتى لو نخل الرمل لم يتخلص من رؤسهم شيء ، ثم قال في البيت التالي : تركنهم جزراً للسباع فأخصبت بكثرة القتلى فكأنك أنبت لها ربيعاً فلو قدرت السباع لأنبت عليك بما شملتها من إحسانك

(٢) اللجب : اختلاط الأصوات ، والمنار : الذي أثاره الخوف من مكمنه يقول إذا طار ذو الجناح وسأيره فليس بناج لكثرة الرماة في الجيش ، وإن نار وحش أخذ

(٣) القشاع : النور يقول : تمر الشمس على هذا الجيش وهي ضعيفة من كثرة عقابنه التي تخيم عليه وتبعه ولا ينفذ ضؤؤها إليه إلا في خلال النور كما ذكر في البيت التالي

(٤) البيض جمع بيضة وهي : الحوذة ، شبه ما يتساقط من الضوء في فرج أجنحة الطير فوقه بالدراهم يقول لكثرة اشتباك الطير لا يصل إليه ضوء الشمس إلا من منافذ ضيقة فبقع مستديراً

وقال أبو نواس :

تَأْيَا الطَّيْرُ عُذْرَتَهُ رَفْعَةً بِالشَّبْعِ مِنْ جَزَرِهِ
« تَأْيَا الشَّيْءُ : قصد آيته ، أى شخصه . والجزر : قَطَعَ اللحم »

عذر من يلبس الدروع

ونحوها فى الحرب والمستغنى بشجاعته وبقينه عنها

قال أبو تمام فى المستغنى بجلادته عن الدروع :

إِذَا رَأَوْا لِلنَّبَايَا عَارِضًا لَبَسُوا مِنْ الْيَقِينِ دُرُوعًا مَالَهَا زَرَدُ
وُسَيْلَ بَعْضِ الْإِبْطَالِ : فى أىِّ الجُنِّ يُحِبُّ أَنْ تَلْقَى عَدُوَّكَ ؟
قال : فى أَجَلٍ مُسْتَأْخِر ... وقيل لآخر : لو احْتَرَسْتَ فَقَالَ : كَفَى
بِالْأَجَلِ حَارِسًا ...

ومما يؤثر فى كثرة لبس الدروع والاستعداد للحرب أبداً قول مسلم بن
الوليد من قصيدته التى يمدح بها يزيد بن يزيد الشيبانى وهو ابن أخى معن
ابن زائدة :

تَرَاهُ فِي الْأَمْنِ فِي دِرْعٍ مُضَاعَفَةٍ
لَا يَأْمَنُ الدَّهْرُ أَنْ يُدْعَى عَلَى عَجَلٍ

وبعده :

لَا يَنْبَغُ الطَّيْبُ حُدَيْهِ وَفَرَقَهُ وَلَا يُسَمُّ عَيْلِيهِ مِنَ الْكَحْلِ
يُرَوَّى أَنَّ عَمَّهُ مَعْنَ بْنِ زَائِدَةَ كَانَ يُقَدِّمُهُ عَلَى أَوْلَادِهِ فَعَاتَبَتْهُ امْرَأَتُهُ
فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهَا : فَأَرِيكِ مَا تَبْسُطِينَ بِهِ عِذْرِي ، يَا غَلَامَ ، اذْهَبْ فَادْعُ
حَسَّاسًا وَزَائِدَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ وَفُلَانًا وَفُلَانًا حَتَّى أَتَى عَلَى جَمِيعِ أَوْلَادِهِ لَمْ تَسْأَلْهُ

أن جاؤا في الغلائل المطيية والنعال السندية ، وذلك بعد هداة من الليل ، فسلبوا وجلسوا ، ثم قال معن ، يا غلام ، ادع يزيد ، فلم يلبث أن دخل عجلاً وعليه سلاحه ، فوضع رُمحه بباب المجلس ، ثم دخل ، فقال معن له : ما هذه الهيئة يا أبا الزبير ، فقال : جاءني رسول الأمير فسبق و همي إلى أنه يريدني لهم فليست سلاحي وقلت : إن كان الأمر كذلك مَضَيْتُ ولم أُعْرَجْ وإن كان غير ذلك فَنَزَعُ هذه الآلة عني من أيسر الأشياء ، فقال معن : انصرفوا في حفظ الله ، فلما خرجوا قالت زوجته قد تبين لي عذرك ، فأنشد مَثَمَلًا :

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكُر والإقداما
وصيرته ملوكا هماما

وإلى ذلك أشار مسلم بالبيتين المذكورين : ويروى : أن مُسْلِمًا لما انتهى في إنشاد هذه القصيدة إلى البيت الأول قال له يزيد المددوح : هلا قلت كما قال أعشى بكر بن وائل في مدحه قيس بن معديكرب ^(١) وإذا تجيء كتيبة ملومة ^(٢) شهباء تجتلب الكماة ^(٣) نزالها كنت المقدم غير لابس جنة بالسيف تضرب معلما أبطالها ^(٤)

(١) هذا قيس هو والد الأشعث بن قيس الكندي الصحابي

(٢) الكتيبة : القطعة العظيمة من الجيش ، وكتيبة ملومة : مجمعة مضموم بعضها إلى بعض ، وشهباء : لما فيها من بياض السلاح والحديد في حال السواد ، والكماة : الأبطال مدججين بالسلاح

(٣) رحل معلم : يعلم مكانه في الحرب بعلامة جعلها لنفسه وهو شأن الشجعان وأبطالها مفعول تضرب .

فقال مسلم : قولى أحسن من قوله لأنه وَصَفَهُ بِالْحُرْقِ وَأَنَا وَصَفْتُهُ
بِالْحَزْمِ . وَيُرْوَى مِثْلَ هَذَا لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ مَعَ كَثِيرٍ عِزَّةً ...

تحريم الملاهى على المحارب

قال معاوية رضى الله عنه : مَا ذُقْتُ أَيَّامَ صِفِّينَ ^(١) لِحْمًا وَلَا حَلْوَاءً
بَلْ أَتَقَصَّرْتُ عَلَى الْخُبْزِ حَتَّى فَرَعْتُ .

وَكَتَبَ عَامِلُ الْيَمَنِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فِي وَقْتِ مُحَارَبَتِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
ابْنَ الْأَشْعَثِ : إِنِّي قَدْ وَجَّهْتُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِجَارِيَةٍ اشْتَرَيْتُهَا بِمَالٍ عَظِيمٍ ،
وَلَمْ يُرَ مِثْلُهَا قَطُّ ، فَلَمَّا دُخِلَ بِهَا عَلَيْهِ رَأَى وَجْهًا جَمِيلًا وَخَلْقًا نَبِيلًا ،
فَأَتَقَى إِلَيْهَا قَضِييَا كَانَا فِي يَدِهِ فَتَنَكَّسْتُ لَتَأْخُذَهُ ، فَرَأَى جِسْمًا قَدْ بَهَرَهُ ،
فَلَمَّا قَمَّ بِهَا أَعْلَمَهُ الْإِذْنُ أَنَّ رَسُولَ الْحِجَابِ بِالْبَابِ فَأِذْنَ لَهُ ، وَنَحْنُ
الْجَارِيَةُ ، فَأَعْطَاهُ كِتَابًا مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ كِتَابًا ، ثُمَّ
بَاتَ يُقَلِّبُ كَفَّ الْحَارِيَةِ وَيَقُولُ : مَا أَفَذْتُ فَائِدَةً أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْكَ ، فَقَالَ :
فَمَا بِأَنَّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا يَمْنَعُكَ ؟ فَقَالَ : يَمْنَعُنِي مَا قَالَهُ الْأَخْطَلُ ، لِأَنِّي
إِنْ خَرَجْتُ مِنْهُ كُنْتُ أَلَّامَ الْعَرَبِ :

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا شَدُّوا مَا زَرَمَ دُونَ النِّسَاءِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارٍ
فَمَا إِلَيْكَ سَبِيلٌ أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَدُوِّ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشْعَثِ ،
فَلَمْ يَقْرَبْهَا حَتَّى قَتَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَوْلَ الْأَخْطَلِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارٍ ،

(١) صِفِّينَ : مَوْضِعٌ بِقَرْبِ الرِّقَّةِ عَلَى شَاطِئِ الْفُرَاتِ مِنَ الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ وَأَيَّامُ
صِفِّينَ : أَيَّامُ الْحَرْبِ بَيْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَكَانَتْ مَدَّتْهَا مِائَةٌ يَوْمًا وَعَشْرَةٌ
أَيَّامًا وَكَانَتْ وَقَائِعُهَا تَسْعِينَ وَقَعَةً وَكَانَتْ فِي سَنَةِ ٣٧ هـ .

يعنى : أنه يَجْتَبِيها في طُهرِها وهو الوقت الذى يَسْتَقِيم له غِشْيائُها فيه
 وفي هذا المعنى يقول الأعشى من كلمة له يمدح بها هُوَذَة بن على الحننى :
 وفى كلِّ عامٍ أنتَ جاشِمٌ غَزْوَةً تُشَدُّ لَأَقْصاها عَزِيمٌ عَزائِكَا
 مُورَثَةٌ مالا وفى الحىِّ رِفْعَةٌ لِمَا ضاعَ فيها من قُرُوءِ نِساكِنا

« جاشم اسم فاعل جَشِمَ الأمر - بالكسر - تكلفه على مَشَقَّة ،
 والعزيم كالعزيمة مصدر عَزَمَ على الأمر : جدَّ فى عَمَلِه ، والعزاء : الصبر
 يقول الأعشى : أنت فى كلِّ عام تُكَلِّفُ نَفْسَكَ الغَزْوَ واقتحام مكارِهه
 تُشَدُّ وتوثَّقُ عزيمة صبرك لأَقْصاها ، أى أبْعِدِها وأَعْلَها ، أو غايتها
 ومُنْتَهَها ، وهذه الغزوات تُورَثُك مالا كثيرا بقتنائها ، ورفعة لك فى
 الحىِّ . والقروء جمع قَرء وهو : الطهر هنا ، وقوله تعالى : والمطلقات
 يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ اختلف العلماء فقال الحجازيون القروء :
 الأطهار ، وقال أهل العراق الحِيض ، أما فى قول الأعشى فالقروء : الأطهار
 لا الحيض لأن النساء إِنَّمَا يُؤْتَيْنَ فى أطهارِهِنَّ لافى حِيضِهِنَّ فإنما ضاع
 بفزوه وغلبته عنهن أطهارُهُنَّ . هذا واللام فى قوله : لما ضاع فيها لام
 العاقبة مثلها مثل اللام فى قوله تعالى : وما خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إِلَّا
 لِيَعْبُدُون ، وقوله تعالى : ليكون لهم عِدْوًا وَحَزَنًا . هذا وقوله تعالى ثَلَاثَةَ
 قُرُوءٍ قال الأصمى : جاء هذا على غير القياس والقياس : ثَلَاثَةَ أَقْرَءٍ ولا
 يجوز أن يقال : ثَلَاثَةَ فَلُوسٍ ، إِنَّمَا يقال : ثَلَاثَةَ أُنَاسٍ فإذا أَكْثَرَتْ فهِى
 الفلوس ، ولا يقال : ثَلَاثَةَ رِجالٍ إِنَّمَا هِىَ ثَلَاثَةُ رَجُلَةٍ ، ولا يقال ثَلَاثَةَ
 كِلابٍ إِنَّمَا هِىَ ثَلَاثَةُ أَكْلَبٍ . وقال النحويون : فى قوله تعالى : ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ
 أراد : ثَلَاثَةَ مِنَ الْقُرُوءِ ،

طائفة من عبقرياتهم في الصلح

والتحذير من الحرب

قال عز وجل : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا . » السِّلْمُ : الصِّلح ، بفتح السين وكسرها ، وتذكّر وتؤنث ، وقال : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . » نزلت هذه الآية الكريمة في قتال حَدَثَ بَيْنَ الْأَوْبُسِ وَالْحَزْرَجِ في عهده عليه الصلاة والسلام بالسَّعَفِ وَالنَّعَالِ ، والجمع في اقتصلا باعتبار المعنى فإن كل طائفة جمع ، وبغت : تعدت ، وتفيء : ترجع ، وأقسطوا : أعدلوا ،

ومن كلامهم : الحربُ صَغْبَةٌ مُرَّةٌ ، والصلحُ أَمْنٌ وَمَسَرَّةٌ ومنه : إياك والمعادة ، فإنك لنْ تعدمَ مَكْرَ حليم ، أو مُفاجأة لثيم . ومنه : لا تَسْتَثِيرُوا السَّبَاعَ من مَرَايِضِهَا فتندموا ، وداروا الناس في جميع الأحوال

ومنه : الفِتْنَةُ نَائِمَةٌ ، فمن أيقظها فهو طعامُها « الفتنه هنا : ما يقع بين الناس من القتال والحروب . »

وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته :

وما الحرب إلا ما عُلِمَتْ وَذُقْتُمْ وما هو عنها بالحديثِ المُرْجَمِ
مَنْ تَبَعْتُمْهَا تَبَعْتُمْهَا ذَمِيمَةً وَتَضَرَّ إِذَا ضَرَّيْتُمُوهَا فَتَضَرَّمِ
فَتَمَرُّكُمْ عَرَّكَ الرَّحَى بِفِئَالِهَا وَتَلَامَحَ كِشَافًا ثُمَّ تُلْتَمِجُ فَتُسَيِّمِ

فَتُنْتَجِ لَكُمْ غِلْمَانٌ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ كَأَنَّهُمْ عَادٌ ، ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَقْطِعُ .
فَتُغْلِلُ لَكُمْ مَا لَا تُغِلُّ لِأَهْلِهَا قَرَى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَفِيزٍ وَدِرْهَمٍ .

إِنْ أَنْ قَالَ :

وَمَنْ يَعِصِ أَطْرَافَ الرَّحَاجِ فَإِنَّهُ يُطِيعُ الْعَوَالِي رُكِبَتْ كُلُّ لَهْذَمٍ
« المرحم من الحديث : المَقُولُ بطريق الظَّنِّ لَا عَنْ تَحْقِيقٍ ، يقول :
وما حديثي عن الحرب وتخويفكم أهوالها بالحديث المُفْتَرَى ، وإنما أنتم قد
علمتم ويلات الحرب وذقتموها فلا تقرّبوها ؛ وَضَرِي يَضْرِي : اشتد حرّهُ
والنضرية : الحمل على الضراوة . وَضَرِمَتْ النَّارُ تَضْرِمُ : التَّهَبَتْ يقول :
مَتَى تَهْجُوا الحرب تهيجوها مَذْمُومَةٌ ، أَيْ تُذْثَمُونَ عَلَى إِثَارَتِهَا ، وَيَشْتَدُّ
حَرُّهَا إِذَا حَمَلْتُمُوهَا عَلَى شِدَّةِ الْحَرَصِ فَيَشْتَدُّ حَرُّهَا وَتَلْتَهَبُ نَارُهَا ، يُحْثَثُّهُمْ
عَلَى التَّمَسُّكِ بِالصُّلْحِ وَيَنْذِرُهُمْ بِسُوءِ عَاقِبَةِ إِيقَادِ نَارِ الْحَرْبِ . وَقَوْلُهُ : فَتَعْرَكُكُمْ
الْبَيْتُ ، فَالْعَرَكُ : الدَّلْكُ ، وَالثَّقَالُ : الْجِلْدُ أَوْ الْحِزْقَةُ تَوْضَعُ تَحْتَ الرَّحَى
لِيَقَعَ عَلَيْهَا الطَّحِينَ ، وَالْبَاءُ فِي « بَشْفَالِهَا » بِمَعْنَى مَعَ ، وَاللَّقَاحُ : حَمْلُ الْوَلَدِ
يَقَالُ : لَقِحتِ النَّاقَةُ تَلْقَحُ : إِذَا حَمَلَتْ ، وَتَلْقَحُ كِشَافًا : أَيْ تَلْقَحُ لِقَاحًا
كِشَافًا ، بَأَن تَحْمِلَ فِي عَامَيْنِ مُتَوَالَيْنِ ، وَتُثْمِمْ : أَيْ تَأْتِي فِي كُلِّ مَرَّةٍ
بِتَوَّءَيْنِ ، يَقُولُ : إِذَا هَجَمَ الْحَرْبُ طَحَنْتُكُمْ طَحْنِ الرَّحَى الْحَبَّ مَعَ ثِقَالِهَا
وَتَطُولُ شِدَّتُهَا وَوَيَلَاتُهَا وَتَتَوَلَّدُ مِنْ جَرَائِمِهَا صَنُوفٌ وَضُرُوبٌ مِنَ الْأَهْوَالِ
وَالشُّرُورِ ، وَمَثَلُهَا فِي ذَلِكَ مَثَلُ النَّاقَةِ تَحْمِلُ حَمْلَيْنِ فِي عَامَيْنِ مُتَوَالَيْنِ ثُمَّ
لَا تَلِدُ إِلَّا تَوْءَمَيْنِ ، جَعَلَ إِفْنَاءَ الْحَرْبِ إِيَّاهُمْ بِمَنْزِلَةِ طَحْنِ الرَّحَى الْحَبَّ
وَجَعَلَ صَنُوفَ الشَّرِّ تَتَوَلَّدُ مِنَ الْحَرْبِ بِمَنْزِلَةِ الْوِلَادِ النَّاشِئَةِ مِنَ الْأَمْهَاتِ
وَبَالِغٍ فِي وَصْفِهَا بِاسْتِبْعَابِ الشَّرِّ شَيْئَيْنِ : أَحَدُهُمَا جَعَلَهُ إِيَّاهَا لَاقِحَةً كِشَافًا ،

والآخر إنآمها . وأشأم مصدر من الشؤم ، على وزن أفعل ، أو صفة
 لمحذوف ، واحمر عاد : لقب لعافر ناقة صالح عليه السلام نبي ثمود وأسمه
 قَدَار ، وكان عقره لهذه الناقة إشؤماً على قومه ، ويريد بعاد ثمود إما توأما
 وخطأ وإما لأن ثمود من عاد ، يقول : إن هذه الحرب تطول ويلاتها
 وشُرورها وتلتج لكم غلبان شؤم أو غلبان أب أشأم شؤم قدار
 عافر الناقة ، ثم تعيش هذه الغلبان فتترضهم الحرب وتقطمهم ، وكل
 ذلك كناية عن طول ويلات الحرب وطول شرورها . وقوله : فتغلل
 لكم ... أليت يقول : فتغلل لكم هذه الحرب ضرورياً من الغلات ليست
 كغلات قري العراق من الحب الذي يكال بالقفيز ، أو من ثمن الغلة وهي
 الدراهم ، يعنى : أن المضار المتولدة من هذه الحرب تُربى على المنافع المتولدة
 من هذه القري ، وكل هذا حث منه لهم على الاعتصام بقرى الصلاح وزجر
 عن إيقاد نار الحرب التي تلك أذاعيلها وأعوالها . وقوله : ومن يعص ...
 أليت فالزجاج جمع زج وهو الحديد المركب في أسفل الرح ، واللهزم : السنان
 الطويل يقول : من يعص أطراف الزجاج أطاع عوالي الرماح التي ركبت فيها
 الأسنة الطوال الحادة والمعنى : من أبى الصلاح ذللت الحرب وليقته ، وكانت
 العرب إذا التقت فبتان منهم سددت كل طائفة منهما نحو صاحبها زجاج
 الرماح وسعى الساعون في الصلاح ، فإن أبنا إلا التادى في القتال قلبت كل
 واحدة منهما الرماح واقتلتا بالأسنة . ، وقال كثير :

رَمَيْتْ بِأَطْرَافِ الزَّجَاجِ فَلَمْ يُفَقْ مِنْ الْجَهْلِ حَتَّى كَلَّمْتُهُ نِصَالَهَا
 وَخَطَبَ بَعْضُهُمْ خُطْبَةً طَوِيلَةً لِصُلْحِ أُمَّةٍ ، يُقَالُ لَهُ رَجُلٌ : أَنْتَ مُدْ
 الْيَوْمَ تَرَعَى فِي غَيْرِ مَرَعَاكَ ... أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى الْمَقَالِ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، فَقَالَ :

«أما بعد» فإن الأصاح بقاء الآجال، وحفظ الأموال، والسلام. فلما سمع القوم ذلك تعانقوا وتواهبوا الديات.

وكتب سـلم بن قتيبة بن مسلم إلى سعيد المهلبى لما تحاربا بالبصرة:
خُذُوا حَظَّكُمْ مِنْ سَلِينَا إِنْ حَزَبْنَا

إذا زبلته الحرب : ناره تسعر (١)

وإني وإياكم على ما يسوءكم ليمثلان أو أنتم إلى الصلح أفقر
وقال حكيم : دارفـع بالحـرب ما أمكن ، فإن النفقة في كل شيء من
الأموال ، إلا الحرب ، فإن النفقة فيها من الأرواح ، علاوة على
الأموال .

وقال النابغة الجعدي :

وَتَسْتَلِبُ الْمَالَ الَّذِي كَانَ رُبُّهَا ضَلِيلًا بِهِ وَالْحَرْبُ فِيهَا الْحِرَابُ
وقد تبعه أبو تمام فقال :

✽ وَالْحَرْبُ مُشْتَقَّةُ الْمَعْنَى مِنَ الْحَرْبِ ✽

« الحرب : أن يسلب الرجل ماله »

وقال شاعر يسمى حلحلة بن قيس الكنانى (٢)

دعاني أشب الحرب بيني وبينه فقلت : لا ، بل هلم إلى السلم
ومهلا عن الحرب التي لا أديمها صحیح وما تنفك تأتي على سُقم
فإن يظفر الحزب الذي أنت منهم وآبوا بدنهم من سباء ومن غنم

(١) زنبته : دفعته وصدمته ، وحرب زبون : شديدة يدفع بعضها بعضاً من
الكثرة . (٢) هذه الايات تراها كاملة في حماسة البحرى

فَلَا بُدَّ مِنْ قَتْلَى لَعَلَّكَ فِيهِمْ وَإِلَّا فَجَرْحٌ لَيْسَ يَكْنِي عَنِ الْعَظْمِ^(١)
فَلَمَّا أَبِي أَرْسَلْتُ فَضْلَةً تَوْبِهِ إِلَيْهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِعِزِّمْ وَلَا حِزْمِ
فَلَمَّا رَمَانِيَا رَمَيْتُ سَوَادَهُ وَلَا بُدَّ أَنْ تَرْمِيَ سَوَادَ الَّذِي يَرْمِي
فَبَيْتُنَا عَلَى لَحْمٍ مِنَ الْقَوْمِ غَوِذَتْ أَسْتَنْتُنَا فِيهِ وَبَاتُوا عَلَى لَحْمِ
وَكَانَ صَرِيحَ الْجَهْلِ أَوَّلَ وَهْلَةٍ فَبُعْدًا لَهُ مَخْتَارَ جَهْلٍ عَلَى عِلْمِ

الحرب تصيب جانبيها وغير جانبيها

العرب تقول : الحرب غشومٌ ، لأنها قد تنال غير جانبيها .
وتقول : * وليس يَصْلَى بنارِ الحرب جانبيها *
* وأصبحَ مَنْ لم يَجْنِ فيها كَذَى الذَّنْبِ * .

وقال الحارث بن عَبَّاد :

قَرَّبَا مَرْبِطَ النَّعَامَةِ مِنِّي لَقِيتُ حَرْبَ وَائِلٍ عَنْ حِيَالِ
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عَظِيمَ اللَّهِ وَإِنِّي بِحَرْبِهَا الْيَوْمَ صَالِ
قَرَّبَاها بَانَ كَفِّي رَهْنُ أَرْتَزُولُ الْجِبَالُ قَبْلَ الرِّجَالِ
« النعامة : فرسه ، وَلَقِيتُ : حَمَلْتُ ، وَحَرْبُ لَانِجٌ : مَثَلٌ بِالْأَثَى الْحَامِلِ ،
وَعَنْ حِيَالٍ : بَعْدَ حِيَالٍ ، أَيْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَحْمِلْ ، وَصَلَى بِالنَّارِ : قَاتَى حَرْبَهَا
أَوْ احْتَرَقَ بِهَا »

وقال ابن الرومي :

رَأَيْتُ جُنَاةَ الْحَرْبِ غَيْرَ كِفَاتِهَا إِذَا اخْتَلَفَتْ فِيهَا الرِّمَاحُ الشَّوَاكِجُ

(١) ليس يكنى عن العظم لعله يريد : إن جروح الحرب ليست من الجروح المعروفة ولكنها جروح تصمى وتقتل

كذلك زِنَادُ النَّارِ عَنْهَا بِنَجْوَةٍ وَلَكِنَّا يُصَلِّي صِلَاهَا الْمَسَاعِرُ
« المساعر : جمع مسعر ، وهو : ما تحرك به النار من خشب ونحوه ، ومُسْعَرُ
الحرب : موقدها »

الممتنع من الصلح

قال أبو زيد الطائي — شاعر مخضرم ، كان في الجاهلية مقبياً في أخواله
بنى تغلب بالجزيرة ، وفي الإسلام منقطعاً إلى الوليد بن عتبة بن أبي مُعَيْطٍ
في ولاية الجزيرة وولاية الكوفة ، ولم يزل به الوليد حتى أسلم ، وقد كان
نصرانياً ، والأكثر على أنه مات على نصرانيته — :

بَعَثُوا حَرْبَنَا إِلَيْهِمْ وَكَانُوا فِي مَقَامٍ لَوْ أَبْصَرُوا وَرَخَاءَ
ثُمَّ لَمَّا تَشَدَّرَتْ وَأَنَافَتْ وَتَصَلَّوْا مِنْهَا كَرِيهَ الصَّلَاةِ
طَلَبُوا صُلَحْنَا وَلَاتَ أَوَانَ فَأَجَبْنَا أَنْ لَيْسَ حِينَ بَقَاءِ
فَلَحَا اللَّهُ طَالِبَ الصُّلْحِ مِنَّا مَا أَطَافَ الْمَيْسُ بِالْأَمْسَاءِ

« لو أبصروا فلو للتمنى ، ورخاء : عطف على مقام ، وتشدَّرت يقال :
تشدَّر فلان إذا تهيأ للقتال ، وتشدَّر القوم في الحرب : أى تناولوا
واشرأبوا ، وأنافت : زادت ، وتَصَلَّوْا : من صَلَّى النار صَلاً ، من باب
تعب : قاسى حرَّها ، والصَّلَاة ككتاب : حرُّ النار ، وطلبوا صلحنا :
جواب لما ، وقوله : ولاتَ أَوَانَ فللنحويين في تخريجها كلام كثير
وأوجهها أن أصلها : ولاتَ أَوَانَ صُلْحٍ ، نُحَذِفُ الْجُمْلَةَ وَبُنِيَ أَوَانَ
على الكسر ، وليس حين بقاء : أى ليس الحين حين بقاء ، والبقاء :
اسم من قولهم أُنْقِيت على فلان إبقاء : إذا رَحِمْتَهُ وَتَلَطَّفْتَ بِهِ ، والمشهور

أن الاسم منه : البقياء والبقوى ، ولما الله : أى قبَّحَ الله ، وما أطف :
 فما مصدرية ظرفية ، وأطف وطف : بمعنى دارَ على الشيء ، والمُبْسُ
 حادى الإبل ، وهو فى الأصل اسم فاعل من أبْسَسْتُ الإبل : إذا زَجَرْتَهَا
 والدهناء : موضع فى بلاد بنى تميم ،

وقال الزبرقان :

فَلَنْ أَصَالِحُهُمْ مَا دُمْتُ ذَا فَرْسٍ وَاشْتَدَّ قَبْضًا عَلَى الْأَسْيَافِ إِبْهَامِي

ضارع يطلب الصلح

قال المتنبي :

مَنْ أَطَاقَ التَّمَّاسَ شَيْءٌ غَلَابًا وَاغْتَصَابًا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالَا

التحذير من صغير يفضى إلى كبير

قال الفرزدق :

تَصَرَّمْ عَنِّي وَدُّ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ وَمَا كَادَ عَنِّي وَدُّهُمْ يَتَصَرَّمُ
 قَوَارِصُ تَائِبِي وَتَحْتَقِرُونَهَا وَقَدْ بَلَأُ الْقَطْرُ الْإِنَاءَ فَيُفْعَمُ
 « يفعم : يمتلئ ، والقوارص جمع قارصة : الكلمة المؤذية »

وقال آخر :

ذَرُوا الْأَمْرَ الصَّغِيرَ وَزَمِّلُوهُ فَتَلْقِيحُ الْجَلِيلِ مِنَ الدَّقِيقِ
 « زَمِّلُوهُ : أخفوه »

وقال آخر :

قَدْ يَحْفَرُ الْمَرْءُ مَا يَهْوَى فَيَرُكِبُهُ حَتَّى يَكُونَ إِلَى تَوْرِيظِهِ سَبِيَا

وقال آخر:

إِنَّ الْأُمُورَ دَقِيقُهَا بِمَا يَهِيْجُ بِهِ الْعَظِيمُ

ومن كلامهم: مَنْ الْحَبِيَّةُ تَنْبَتُ الشَّجَرَةَ الدَّمِيمَةَ؛ وَمِنْ الْجُرَّةِ تَكُونُ
النَّارُ الْعَظِيمَةَ. وَالتَّمْرَةُ إِلَى التَّمْرَةِ تَمْرٌ، وَالذُّودُ إِلَى الذُّودِ إِبِلٌ.

و * أَوَّلُ الْغَيْثِ قَطْرٌ ثُمَّ يَنْسَكِبُ *

و * كَمْ بِذِي الْأَثَلِ دَوْحَةٌ مِنْ قَضِيبٍ *

طائفة من عبقرياتهم في التهديد والوعيد

قلة غناء الوعيد

من أمثالهم: الصَّدَقُ يُبَيِّئُ عَنْكَ لَا الْوَعِيدُ، أَيْ: إِنَّمَا يُذَيِّئُ عُدُوكَ
عَنْكَ أَنْ تَصْدُقَهُ فِي الْفِتَالِ، لَا أَنْ تُوعِدَهُ وَلَا تُنْفِذَ مَا تُوَعِدُهُ بِهِ «

وقالوا: مِنْ عِلَامَاتِ الْعَاقِلِ تَرْكُ التَّهْدِيدِ قَبْلَ إِمْكَانِ الْفُرْصِ، وَعِنْدَ
إِمْكَانِهَا الْوُثُوبُ مَعَ الثِّقَةِ بِالظَّافِرِ.

وقالوا: * إِنَّ الْوَعِيدَ سِلَاحُ الْعَاجِزِ الْحَمِيْنِ *

« الْحَقُّ: الْأَحَقُّ »

وقالوا: * إِنْ الْكَتَائِبَ لَا يُهْزَمَنَّ بِالْكَتُبِ *

من يتهدد بظهر الغيب ولا يغني غناءً

قال عنتره في معلقته:

وَلَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَكُنْ

لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي ضَمُصَمٍ

الشامتى عَرَضَى ولم أَشْتِهُمَا والناذِرِينَ إِذَا لَمْ أَلْقَهُمَا دى
« الدائرة : اسم للحادثة ، سميت بها لأنها تدور من خير إلى شر ومن
شر إلى خير ، ثم استعملت في المكرومة دون المحبوبة ، والدائرة : الهزيمة
والسوء يقال : عليهم دائرة السوء ، وفي الحديث : فيجعل الدائرة عليهم ،
أى الدولة بالغلبة والنصر ، وقوله سبحانه : ويتربص بكم الدوائر . قيل :
الموت أو القتل ، وقوله : والناذرين يقول : والموجبان على أنفسهما سفك
دى إذا لم ألقهما ، يريد : أنهما يتوعدانه حال غيبته أما في حال حضوره
فلا يتجاسران على ذلك ،

وقال القَرْمَطِيُّ :

تَتَمَنَّانِ إِذَا لَمْ تَرَنِي فَإِذَا جِئْتُ قَطَعْتَ الْقَنْطَرَةَ
يَا بَنِي الْعَبَّاسِ مَنْ يَنْصُرْكُمْ أَصْبَى أَمْ خَصَى أَمْ مَرَّةً
وقال آخر :

كَأَنَّ صَدَى يُسْمَعُ مِنْهُ صَوْتُهُ فَإِذَا طَالَبْتَهُ لَمْ يَسْتَجِبْ
« الصدا : ما يُجِيبُكَ مِنْ صَوْتِ الْجَبَلِ وَنَحْوِهِ بِمِثْلِ صَوْتِكَ ،

من لا يبالى بتهديده

قال جرير :

زَعِمَ الْفَرَزْدَقُ أَنَّ سَيْفُ قُلُومٍ مَرَبَّعًا

أَبْشَرُ بِطُولِ سِلَاحِهِ بِأَمْرِ بَعِ

وقال مقاتل بن مِسْمَعٍ لِعَبَّادِ بْنِ الْحَصِينِ : لَوْلَا شَيْءٌ لَأَخَذْتُ رَأْسَكَ

فقال : أَجَلُ ، ذَلِكَ الشَّيْءُ سَيْفِي ...

وقال ابن أبي عُيَيْنَةَ :

فَدَعَ الوَعِيدَ فَمَا وَعِيدُكَ ضَارِي أَطِينُ أَجْنَحَةِ الذَّبَابِ يَضِيرُ

وقال الفرزدق :

مَاضِرٌ تَغْلِبُ وَائِلٌ أَهْجَوْتَهَا أَمْ بَلَتْ حَيْثُ تَنَاطَحَ الْبَحْرَانِ

وَأَبْرَقَ رَجُلٌ لآخر وَأَرْعَدَ فَلَمَّا زَادَ أَنْشَدَ :

قَدِ هَبَّتِ الرِّيحُ طُولَ الدَّهْرِ وَاخْتَلَفَتْ عَلَى الْجِبَالِ فَمَا نَالَتْ رِوَاسِهَا

طائفة من عبقرياتهم

في الهزيمة والخوف وأن الفرار لا يقي من الموت

قال جل شأنه : قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَنْ لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا . « يقول سبحانه : إِنْ يَنْفَعُ النَّاسَ الْفِرَارُ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ لِكُلِّ شَخْصٍ مِنْ خَتَفِ أَنْفٍ أَوْ قَتْلٍ فِي وَقْتٍ مَعَيَّنٍ سَبَقَ بِهِ الْقَضَاءُ وَجَرَى عَلَيْهِ الْقَلَمُ ، ثُمَّ قَالَ جَلَّ شَأْنُهُ : وَإِنْ نَفَعَكُمْ الْفِرَارُ مِثْلًا فَمَتَّعْتُمْ بِالتَّأْخِيرِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ التَّمَتُّعُ إِلَّا تَمَتُّعًا وَزَمَانًا قَلِيلًا . » وقال سبحانه : أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ . « البروج : الحصون ، والمُشِيدَةُ المرتفعة . »

وقال عليُّ يوم الجمل : إِنْ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ ، لَا يُعْجِزُهُ الْمُقِيمُ وَلَا يَفُوتُهُ الْمَارِبُ ، وَإِنْ لَمْ تُقَتِّلُوا تَمُوتُوا ، وَإِنْ أَثَرَفَ الْمَوْتُ الْقَتْلُ .
ومن أمثال العرب : فَلَانٌ أَجْرَأُ مِنْ فَارِسٍ خَصَافٍ . « وَخَصَافٍ كَقَطَايِمِ فَرَسٍ قَالَ الدَّسَابُونَ : كَانَ مَالِكُ بْنُ عَمْرِو النَّسَائِيُّ يُقَالُ لَهُ : فَارِسُ خَصَافٍ ، وَكَانَ مِنْ أَجْبَنِ النَّاسِ ، فَغَزَا يَوْمًا ، فَأَقْبَلَ سَهْمٌ حَتَّى وَقَعَ

عند حافرٍ فريسه فانغرزَ في الأرض وجعل يَهْتَزُّ حيناً فقال : إن لهذا السَّهمَ سبباً يَنْجُثُهُ — يُحَرِّكُهُ — فاخفى عنه ، فإذا هو قد وقع على نفق يَرْبُوع فأصاب رأسه ، فتحرك اليربوع ساعةً ثم مات ، فقال : هذا في جوفِ جُحْرٍ جاءه سَهْمٌ فَقَتَلَهُ ، وأنا ظاهرٌ على فرسٍ مالِئٍ في شيء ولا اليربوعُ ، ولا أَقْتُلُ إلا بأجلى ، ثم شدَّ عليهم فأنكى في القوم ، فكان بعد ذلك من أشجعِ الناس ... وكان معاوية يتمثل بهذين البيتين كثيراً :

أكانَ الجبانُ يرى أنه سَيُقْتَلُ قبلَ انقضاءِ الأجلِ
فقد تُدْرِكُ الحادِثاتُ الجبانَ وَيَسْلَمُ منها الشجاعُ البَطْلُ

تفضيل القتل على الهرب

قال سُقراط لرجل هَرَبَ من الحرب : الهرب من الحرب فضيحة ! فقال الرجل : شر من الفضيحة الموت ، فقال سُقراط : الحياة إذا كانت صالحة فمُسَلِّمٌ ، وإذا كانت رَدِيئَةً فالموت أفضلُ منها .

ولما قتل الاسكندرُ المقدونيُّ ملكَ الهند قال لحكَّامه : لِمَ مَنَعْتُمُ الملكَ من الطاعة ؟ قالوا : ليموتَ كريماً ولا يعيشَ تحت الذُّلِّ .

الممتنع من الفرار

قالت امرأة من عبد القيس :

أَبَوْا أَنْ يَفِرُّوا والقنا في نُحُورِهِمْ ولم يَبْتَغُوا من خَشْيَةِ الموتِ سُلْماً
ولو أَنَّهُمْ قَرُّوا لكانوا أَعَزَّةً ولكن رَأَوْا صَبْرًا على الموتِ أَكْرَمًا

و لم يَبْتَغُوا يَرَوِي : ولم يرتقوا ،

المعير بانهرزاه

من كلام الحجاج : وَلَيْسَ كَالْإِبِلِ الشَّوَارِدِ إِلَى أوطانها ، النوازغ إلى أعطانها ، لا يُلَوِي الشَّيْخُ على بنيه ، ولا يسأل المرء عن أخيه ... وقال أبو تمام من قصيدته البائية التي يمدح بها المعتصم ويذكر فتح عمورية :
وانهرزاه ملك الروم :

وَلَى وَقَدْ أَلْجَمَ الْخَطِيئَةَ مَنْطِقُهُ بِسَكْنَةِ تَحْتَهَا الْأَحْشَاءُ فِي صَخَبٍ ^(١)
أَحْذَى قَرَابَتَهُ صَرْفَ الرَّدَى وَمَضَى يَحْتَثُّ أَنْجَى مَطَايَاهُ مِنَ الْهَرْبِ ^(٢)
مُوكَلَّأَ بَيْفَاعِ الْأَرْضِ يُشْرِفُهُ مِنْ خِفَّةِ الْخَرْفِ لَا مِنْ خِفَّةِ الطَّرَبِ ^(٣)
وقال البحترى من أبيات يمدح بها أحمد بن طولون :

تَخْطَى حُزُونَ الْأَرْضِ رَاكِبَ وَجْهِهِ لِيَمْنَعَ مِنْهُ الْبُعْدُ مَا يَبْذُلُ الْقُرْبُ
ولو كان حُرَّ النَّفْسِ وَالْعَيْشِ مُدْبِرُ لِمَاتِ وَطْأَمُ الْمَوْتِ فِي فَوْهِ عَذْبُ
وقال أبو جعفر المنصور لبعض الخوارج : عَرَفْنِي : مَنْ أَشَدُّ أَصْحَابِي
إِقْدَامًا ؟ فقال : لا أعرفهم بوجوههم ، فإني لم أرَ إلا ألقاءهم ...

وقال ابن الرومي في سليمان بن عبد الله بن طاهر :
قَرْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ أَضَرَّ بِهِ شَوْقُ إِلَى وَجْهِهِ سَيُسْذِقُهُ
لا يَمُرُّ الْقَرْنُ وَجْهَهُ وَيَرَى قَفَاهُ مِنْ فَرَسِهِ فَيَغْفِرُ لَهُ
وقال المتنبي لما أوقع سيف الدولة بيني عقيل وفشير وبني العجلان

(١) ولَى : أى ملك الروم ، وألجم الخطى منطقة : أخرسه السيف
(٢) أحذى : أعطى ، وقرايته : المقربون له جمع قربان وهو جليس الملك الخاص يقول : أن ملك الروم قدم المقربين إليه هدية للبوت وفر على أحسن مطاياها وأنجها .
(٣) البفاع ما ارتفع من الأرض ، ويشرفه : يعلوه .

وبنى كلاب ويذكر إجفأهم من بين يديه :

فَلَزَهُمُ الطَّرَادُ إِلَى قِتَالٍ أَحَدُ سِلَاحِهِمْ فِيهِ الْفِرَارُ
مَضَوْا مُتَسَابِقِي الْأَعْضَاءِ فِيهِ لَا رُؤُسَهُمْ بَارُجُهُمْ عِشَارُ

• لَزَهُ إِلَى الشَّيْءِ : أَلْجَأَهُ إِلَيْهِ وَأَدْنَاهُ مِنْهُ يَقُولُ : أَوْجَاهُهُمْ طَرَادُكَ
لِيَأْخُذُوا إِلَى قِتَالٍ شَدِيدٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سِلَاحٌ يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ غَيْرَ الْفِرَارِ ، ثُمَّ قَالَ
فِي الْبَيْتِ الثَّانِي : لِإِسْرَاعِهِمْ فِي الْهَرَبِ وَالْهَزِيمَةِ خَوْفًا مِنْ الْقَتْلِ كَانَتْ
أَعْضَاؤُهُمْ كَأَنَّمَا يَسَابِقُونَ بَعْضُهَا بَعْضًا ، الْأَرْجُلُ تَسَابِقُ الرُّؤُسَ وَالرُّؤُسُ
تَسَابِقُ الْأَرْجُلَ ، وَكَأَنَّ الرُّؤُسَ تَتَعَثَّرُ بِالْأَرْجُلِ حِينَ تَرِيدُ الرُّؤُسُ
الْإِسْرَاعَ فَتَقْتَمِعُهَا الْأَرْجُلُ .

وقال زيد بن علي بن الحسين حين خرج من عند هشام مُغَضَّبًا :
مَا أَحَبَّ أَحَدُ الْحَيَاةِ إِلَّا ذَلَّ ، وَتَمَثَّلَ :

شَرَّدَهُ الْخَوْفُ فَازْرَى بِهِ كَذَاكَ مَنْ يَكْرَهُ حَرَ الْجِلَادِ
قَدْ كَانَ فِي الْمَوْتِ لَهُ رَاحَةٌ وَالْمَوْتُ حَتْمٌ فِي رِقَابِ الْعِبَادِ

• شَرَّدَهُ : جَعَلَهُ شَرِيدًا طَرِيدًا وَيُقَالُ : شَرَّدَهُ : إِذَا سَمِعَ بِهِ ، وَأَزْرَى بِهِ :
قَصْرَبَهُ وَحَقَرَهُ وَهَوَّنَهُ ، وَحَرَ الْجِلَادَ : شَدَّتْهُ ، وَالْجِلَادُ : الْقِتَالُ بِالسَّيْفِ ،

ترك اتباع المنهزم

قيل لعلي بن أبي طالب : أَنْتَ رَجُلٌ مُحَرَّبٌ وَتَرْكُبُ بَذْلَةً ، فَلَوْ اتَّخَذْتَ
الْحَيْلَ فَقَالَ : أَنَا لَا أَفِرُّ مِنْ كَرٍّ وَلَا أَكْرُرُ عَلَى مَنْ قَرَّ . • مُحَرَّبٌ
شَدِيدُ الْحَزْبِ مُشْجَاعٌ ، وَكَرَّ عَلَى الْعَدُوِّ يَكْرُرُ : عَطَفَ ،

وَأَوْصَى الْإِسْكَندَرُ صَاحِبَ جَيْشِهِ فَقَالَ : حَبِّبْ إِلَى أَعْدَائِكَ الْهَرَبَ .

قال : كيف أصنع ؟ قال : إذا ثبتوا جِدًّا في قتالهم وإذا انهزموا لا تتبّعهم .
وعاتبَ الحجاج المهلبَ بن أبي صُفرة في تركه اتباعَ الخوارج لما
انهزموا ، فكتب إليه : أما عَلِمْتَ أَنَّ الكلب إذا أجمر عقر ...
« أجمر : دخل الجحر » ،

الفارّ وقت الفرار والثابت وقت الثبات

قالوا : الحربُ في وقته خير من الصبر في غير وقته .
وقالوا : من هرب من معركة فعرف مصيره إلى مستقرّه فهو شجاع .
وقال معاوية يوماً : لقد علِمَ الناسُ أَنَّ الخيل لا تجرى بمثلي ، فكيف
قال النجاشي : (١)

ونجى ابنَ حَرْبٍ سابقٌ ذو عِلالةٍ أجشُ هزيمٌ والرماحُ دَوَانِي (٢)
فقال عمرو بنُ العاص له : لقد أعياني أَنَّ أعْلَمَ أَجْبَانُ أَنْتَ أم
شجاع ؟ فقال :

شجاعٌ إذا ما أمكنتني فُرْصَةٌ وإلا تكن لي فُرْصَةٌ فجبانٌ
وقال المهلبُ بن أبي صُفرة : الإقدامُ على الهَلَكَةِ أَضْيَعُ ، كما أَنَّ

(١) هو قيس بن عمرو بن مالك ... أحد بني الحارث بن كعب ، نسب إلى أمه
وكانت من الحبشة ، وكان من أشراف العرب ، إلا أنه كان فاسقاً ، وهو الذي أتى
به على رضى الله عنه وهو سكران في شهر رمضان ، فضربه ثمانين وزاد عشرين ،
فقال : ماهذه العلالة يا أبا حسن ؟ قال : لجرأتك على الله وشربك في رمضان ، ولأن
ولدانا صيام وأنت مفطر . وبينه هذا من آيات تراها في مجموعة المعاني طبع الجوائب

(٢) يقال لأول جرى الفرس : بداهته وللذى يكون بعده : علالته وفرس
أجش : غليظ صهيل وهو مما يحمى في الخيل ، والمزيم من الخيل : الشديد الصوت

الإحجام عن الفرصة عجز .

وقال المتوكل الخليفة العباسي لأبي العيناء : إني لَأَفَرِّقُ من أسائك !
فقال : يا أمير المؤمنين ، الكريم ذو فَرَقٍ وإحجام ، واللئيم ذو وقاحة وإقدم .
وقال الشاعر :

أَفَاتِلُ حَتَّى لَا أَرَى لِي مُقَاتِلًا وَأُنْجُو إِذَا غَمَّ الْجَبَانُ مِنَ الْكَرْبِ

المتفادى من حضور الحرب

والمحتج لانتهائه بالخوف من القتل

قيل لأعرابي : أَلَا تَفْزُو فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْذَرَكَ ؟ فقال : والله إني لأبغض
الموتَ على فراشي فكيف أنْضِي إليه رَكْضًا !

ورأى المعتصم الخليفة العباسي في بعض مُتَنَزِّهَاتِهِ أَسَدًا ، فنظر إلى
رجلٍ أُعْجِبَهُ زِينَةُ وَقَوَائِمِهِ وَسِلَاحُهُ فقال له : أفيك خيرٌ ؟ فعلم الرجل
مُرَادَهُ ، فقال : لا ، فقال : لَا قَبِيحَ اللَّهِ سِوَاكَ .

واجتازَ كِسْرَى فِي بَعْضِ حُرُوبِهِ بِرَجُلٍ قَدْ اسْتَظَلَ بِشَجَرَةٍ وَأَلْقَى
سِلَاحَهُ وَرَبَطَ دَابَّتَهُ فَقَالَ لَهُ : يَأْنِذُلُ ، نَحْنُ فِي الْحَرْبِ وَأَنْتَ بِهَذِهِ الْحَالَةِ !
فقال : أَتَيْهَا الْمَلِكُ ، إِنَّمَا بَلَغْتَ هَذِهِ السَّنَّ بِالتَّوَقُّي ، فقال : زِهْ ،
رَأْعُظَاهُ مَا لَا ...

وقيل لرجل : إِنَّكَ أَنْهَزْتَ أَقَالَ : غَضِبُ الْأَمِيرِ عَلَيَّ وَأَنَا حَيٌّ خَيْرٌ مِنْ
أَنْ يَرْضَى وَأَنَا مَيِّتٌ .

وقال أبو دلامة :

قَالُوا : تَقْدِمُ قَتْلُ : لَسْتُ بِفَاعِلٍ أَخَافُ عَلَى فَنَاءَاتِي أَنْ تَحْطَأَ

فلو كان لي رأسان أتلفتُ واحداً ولكنّه رأسٌ إذا زال أعقما
ولو كان مُبتاعاً لدى السوقِ مثله فقلتُ ولم أخفِ أن أتقدّمَا
وقال :

يقول لي الأميرُ بغير نُصجٍ : تقدّم حين جدّ بنا المراسُ
ومالي إن أطمعتك من حياةٍ ومالي بعد هذا الراس رأسُ
وقيل لجبان : لم لا تُقاتِل ؟ فقال : عند النّطاح يُغلبُ الكبشُ الأجمُ
« الأجم » : الذي لا قرَن له ، وهذا مثل يُضرب لمن غلبه صاحبه بما أعدّه له ،
وقالوا : الشّجاع ملقّى والجبان مُوقى ، وقال البديع الهمداني :
ماذا قَ ما كالثّجّاع ولا خلا بمسرةٍ كالعاجِزِ المتواني
وهرب سليمان بن عبد الملك من الطّاعون ف قيل له : قُلْ لَنْ ينفَعكم
الفرارُ إن فررتم من الموت أو القتلِ وإذا لا تُتمتّعون إلا قليلا . فقال
ذلك القليلُ تُريد .

هارب يعتذر عن هربه

بأنه نبوة أو قدر

قال زُفر بن الحارث وقد فرّ يوم مَرَجِ راهط عن رفيقه :
أيندُهبُ يومٌ واحدٌ إن أسأتهُ بصالحِ أيامي وحُسينِ بلاتيا
فلَمْ تُرَ مِنِّي زَلَّةٌ قبلَ هذه فرارى وتركى صاحبي ورأيا
وقديماً قال عمرو بن معديكرب — وكان قد فرّ من بني عبس :
وليس يُعابُ المرءُ من جُبنِ يومه إذا عرِفَتْ منه الشّجاعة بالأمس
وقد تقدّم قول الشاعر الجبان :

قَامَتْ تُشَجِّعُنِي هِنْدُ فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ الشَّجَاعَةَ مَقْرُونٌ بِهَا الْعَطَبُ
 لَا وَالَّذِي مَنَعَ الْأَبْصَارَ رُؤْيَاهُ مَا يَشْتَهِي الْمَوْتَ عِنْدِي مَنْ لَهُ أَرْبُ
 لِلْحَرْبِ قَوْمٌ أَضَلَّ اللَّهُ سَعِيَهُمْ إِذَا دَعَّاهُمْ إِلَى نِيرَانِهَا وَثَبُّوا
 وَلَسْتُ مِنْهُمْ وَلَا أَهْوَى فِعَالَهُمْ لَا الْقَتْلُ يُعِجِبُنِي مِنْهَا وَلَا السَّلْبُ
 وَجَاءَ فِي كَلِيلَةِ دِمْنَةٍ : إِنَّ الْحَازِمَ يَكْرَهُ الْقِتَالَ مَا وَجَدَ بُدًّا مِنْهُ ،
 لِأَنَّ النَّفَقَةَ فِيهِ مِنَ الْأَنْفُسِ وَالنَّفَقَةَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَالِ . وَفِي هَذَا الْمَعْنَى
 يَقُولُ أَبُو تَمَّامٍ :

كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ إِنَّمَا تَفَقَّاهُمْ مَالٌ وَقَوْمٍ يُفِيقُونَ نُفُوسًا

المتخلف عن قومه

قَالُوا : الشُّجَاعُ يُقَاتِلُ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ ، وَالْجَبَانُ يَقِرُّ مِنْ عَرِسِهِ ، وَالْجَوَادُ
 يُعْطَى مَنْ لَا يَسْأَلُهُ ، وَالْبَخِيلُ يَمْنَعُ مِنْ نَفْسِهِ . وَقَالَ الشَّاعِرُ :
 يَقِرُّ جَبَانُ الْقَوْمِ عَنْ أُمَّ نَفْسِهِ وَيَحْمِي شُجَاعُ الْقَوْمِ مَنْ لَا يُنَاسِبُهُ
 وَيُرْزَقُ مَعْرُوفَ الْجَوَادِ عَدُوَّهُ وَيُجَرِّمُ مَعْرُوفَ الْبَخِيلِ أَقَارِبُهُ
 وَقَالَ حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعَيِّرُ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ حِينَ
 قَرِىَوْمَ بَدْرَ :

إِنْ كُنْتَ كَاذِبَةً الَّذِي حَدَّثَنِي فَتَجُوتِ مَنْجَى الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ
 تَرَكَ الْأَحِبَّةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ وَنَجَا بِرَأْسِ طِمْرَةٍ وَلِجَامٍ
 مَلَأَتْ بِهِ الْفَرَجَيْنِ فَأَرَمَدَتْ بِهِ وَتَوَسَّى أَحِبَّتُهُ بِشَرِّ مُقَامٍ
 « الطَّمْرَةُ : الْفَرَسُ الْكَثِيرُ الْجَرَى ، وَالْفَرَجَانِ : مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا
 وَمَلَأْنَاهُمَا : مَلَأْنَاهُمَا جَرِيًا . وَارَمَدَتْ : أَسْرَعَتْ ، وَتَوَسَّى : أَقَامَ ،

وقال أبو تمام من قصيدة يمدح بها المعتصم ويذكر هزيمة بابك
الخرمي :

ونجا ابنُ خاتنة البعولة لو نجا بمهفهِفِ الكَشْحَيْنِ والآطالِ
تركَ الأحبَّةَ سَالِيًا لا نَاسِيًا عُذْرُ الدَّسِيِّ خِلافُ عُذْرِ السَّالِيِ
« خاتنة البعولة : كناية عن الزانية ، والكشحان : جانبنا البطان من
ظاهر وباطن ، والمهفهِف : الضامر الدقيق ، والآطال جمع إطل وإطل كإبل
ولأبل : الحاصرة ، والدسي : الناسي ،

من نجا وقد استولى عليه الخوف

قال أبو تمام من قصيدة يمدح بها أبا دُلَفَ ويذكر هزيمة بابك
الخرمي كذلك :

ظَلَّ القَا يَسْتَقِي من صَفِّهِ مُهَجًّا إِمَّا ثِمَادًا وإِمَّا ثَرَّةً خُسْفَا
مِنْ مُشْرِقِ دَمِهِ فِي وَجْهِهِ بَطْلٌ وَوَاهِلٍ دَمُهُ لِلرَّعْبِ قَدْ نُزِفَا
فَذَاكَ قَدْ سَقَيْتَ مِنْهُ القَنَا جُرْعَا وَذَاكَ قَدْ سَقَيْتَ مِنْهُ القَنَا نُظْفَا
« من صَفِّهِ : من صف بابك ، والمهج جمع هجة : دُم القلب ، والتماد :
الماء القليل ، والثرة : من قولهم : عينٌ ثرة : كثيرة الماء ، والخسف
جمع خَسِيف وخسوف : البئر لا ينقطع ماؤها ، والواهل : الخائف جداً ،
ونزف : ذهب دمه ، وبطل إِمَّا قرأته بالرفع على أن دمه مبتدأ وبطل خبر
ولك أن تقرأه بالخفض على أنه مردود إلى مُشرق ويكون دمه فاعل مُشرق
وقوله : فذاكَ ... ألبت أراد أبو تمام أن يقول : البطل الذي دمه في
وجهه سَقَيْتَ الرماح منه جُرْعَا ، أى كثيراً ، والجبان الذي طار دمه من

الفرع سقيت منه نطفاً أى قليلاً، وقد يدبر عن الكثير بالنطفة فيكون :
الاولُ مراداً به الجبان والثاني مراداً به البطل ،

وقيل لرجل تعرض له الاسد خراً في سراويلي ...
سَلِمْتُ غير أن الاسد خراً في سراويلي ...
وقالت امرأة من بنى المُهَلَّب :

فإن ثَبُّتُوا فَعُمُرُهُمْ قَصِيرٌ وإن هَرَبُوا فَوَيْلُهُمْ طَوِيلٌ

تسليّة المنهزم

قال المتنبي يعتذر عن سيف الدولة في هزيمة وقعت لجماعة من جيشه
قُلْ لِلدَّمْسَقِيِّ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَكُمْ خَانُوا الْأَمِيرَ فَجَازَاهُمْ بِمَا صَنَعُوا
وَجَدْتُمُوهُمْ نِيَامًا فِي دِمَائِكُمْ كَأَن تَتَلَاكُمُ إِيَّاهُمْ فَجَعَلُوا
لَا تَحْسَبُوا مِن أَسْرَتِهِمْ كَانَ ذَا رَمَقٍ

فليس يأكل إلا المَيْتَ الضَّبُعُ

وإنما عَرَضَ اللَّهُ الْجُودَ بِكُمْ لِكَيْ يَكُونُوا بِلَاقِصٍ إِذَا رَجَعُوا
فَكُلُّ غَزْوٍ إِلَيْكُمْ بَعْدَ ذَا فَلَهُ وَكُلُّ غَازٍ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ التَّبَعُ

و الدمسقي : قائد جيش الروم ؛ و : المسلمون — بفتح اللام — :

الذين أسلَّهُم سيف الدولة للعدو لتخاذلهم عنه ، وقوله : وجدتموهم ... ألبيت

هو بيان لما صنعوا ، وقوله : في دمائكم : أى في دماء قتلاكم وذلك أنهم

تخلَّلوا قتلى الروم فتلطخوا بدمائهم ، وألقوا أنفسهم بينهم تشبها بهم خوفاً

من الروم ، ثم قال : كأنهم كانوا مفجوعين بقتلاكم فهم فيما بينهم يتوجعون

لهم . وقوله : لا تحسبوا من أسرتهم ... ألبيت ، يقول : ليس لكم أن تفخروا

بهؤلاء الذين أسرتهم ولا تظنّوهم كان فيهم رَمَقٌ - بقية حياة - وإنما هم أموات، من الجبن والخوف، وأنتم إِيْحَسْتِكُمْ ودناءة نفوسكم لا تقدرون إلا على أمثالهم، كما أن الضبُع لا تفترس إلا الجثث الميتة. وقوله: وإنما عَرَّضَ الله... ألبت يقول: إنما خذل الله هؤلاء الجنود وجعلهم لكم عرضة ليطهر الله عسكر سيف الدولة من أمثالهم فيعود إليكم بجنود أبطال ليس فيهم قَسْلٌ ولا نذل. وقوله: فكل غزو إليكم... ألبت يقول فكل غزوة إليكم بعد اليوم تكون له لا عليه لأن الأدياء من جنوده قد أسروا ولم يبق إلا المختارون من الأخيار، وكل غاز تبع له لأنه سيّد الغزاة..

ولما انهزم بعض القواد دخلَ عليه بعض الأفاضل فقال: الحمد لله الذي نظر لنا عليك ولم ينظر لك علينا، فقد تقدّمت للشهادة بجَهْدِكَ ولكن عَلمَ الله حاجتنا إليك فأبقاك لنا.

صدر من عبقرياتهم في الجبن

قال سبحانه وتعالى: يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو... وقالت عائشة رضي الله عنها: إن الله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير، كلما خَفَقَتِ الرِّيحُ خَفَقَتْ معها، نَأْفٍ لِلْجَبَنَاءِ، أَفٍ لِلْجَبَنَاءِ..
وما قيلَ في الجبن من الشعر القديم قول القائل:
ولو أنها عصفورةٌ لحسبتُها مُسْرَومةً تدعو عُبيداً وأرثما
«يقول لورأيت عصفورة لحسبتُها من جُبنِكَ خيلاً مُسَومةً؛ وعبيد وأرثم: قيلتان،

ومثله قول عروة بن الرزد :

وَأَشْجَعُ قَدْ أَدْرَكْتُهُمْ فَوَجَدْتُهُمْ
يَخَافُونَ خَطْفَ الطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

وقال الآخر :

مَلَزَاتِ تَحَسَّبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ
وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ :

وَفَارِيسُ أَجْبَنَ مِنْ صِفْرِدٍ
يُحُولُ أَوْ يَغُورُ مِنْ صَفْرَةٍ

لَوْ صَاحَ فِي اللَّيْلِ بِهَ صَاحُ
لَكَانَتِ الْأَرْضُ لَهُ طَافِرَةً

يَرْحَمُهُ الرَّحْمَنُ مِنْ جُبْنِهِ
فَيَرْزُقُ الْجُنْدَ بِهِ النُّصْرَةَ

« الصَّفْرِدُ : طائر جبان يقال له : أبو المليح ،

وقال أبو تمام :

حَيْرَانٌ يَحْسَبُ يَخْجَفُ النَّقْعَ مِنْ دَهْشٍ

طَوْدًا يُحَاذِرُ أَنْ يَنْقُضَ أَوْ جُرْفًا

« السجف : الستر ، والنقع : غبار الحرب ، والطود : الجبل ، والجرف :

جانب الجبل الأملس ،

وقال دُعبل :

كَأَنَّ نَفْسَهُ مِنْ طُولِ حَيْرَتِهَا
مِنْهَا عَلَى نَفْسِهِ يَوْمَ الْوَعَى رَصْدُ

وَأَتَى الْحِجَاجُ بِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ الْأَشْعَثِ ، فَقَالَ لِلْحِجَاجِ : أَسْأَلُكَ

أَنْ تَقْتُلَنِي وَتُخَلِّصَنِي ، فَقَالَ لَهُ الْحِجَاجُ : لِمَ ؟ فَقَالَ : إِنِّي أَرَى كُلَّ لَيْلَةٍ

فِي الْمَنَامِ أَنَّكَ تَقْتُلَنِي ، وَتَقْتُلُهُ وَاحِدَةً خَيْرٌ ، فَضَحِكَ وَخَلَّى سَبِيلَهُ .

من يظهر الشجاعة خارج الحرب

ويجبن فيها

قالوا : فلان يتشعلُ في الهيجاء ويتنمر في الرخاء .

وقال دِعْبِل :

أسودُّ إذا ما كان يومُ كرهيةٍ ولكنهم يوم اللقواءِ ثعالبُ

وقال :

عيرُ رأى أسدَّ العرينِ فراعهُ حتى إذا ولي تولى ينهئُ

وقال آخر :

يفرُّ بحيثُ تختلفُ العوالى وإن يأتى فذر كبروتيه

عقريات شتى

في الشجاعة والحرب

قالوا : أحسن ما قيل في وصف الحرب والمتحاربين قول الأول :

كانَ الأفقُ محفورٌ بنارٍ وتحتَ النارِ أسـادُ زيرٌ ^(١)

ومما يتصل بذلك ما قيل في ليالى صفين :

الليلُ داجٍ والكباشُ تلتطـيحُ نطاحَ أسدٍ ما أراها تصـطـلحُ

فمن يُقاتِلُ في وغانها مانجا ومن نجا برأسه فقد ربح ^(٢)

(١) تصيح غضباً. وأصله مهموز من زار الأسد يزير وبزار : صاح وغضب

(٢) في أمثال الميداني : قال أبو عبيد : وهذا الشعر أراه قيل في ليالى صفين ثم

وكان يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراقين من قبل بنى أمية لا يمد
نصر بن سيار والى خراسان من قبله بالرجال ، ولا يرفع ما يرد عليه
من أخبار خراسان إلى مروان بن محمد آخر الدولة الأموية ، فلما كثر
ذلك على نصر كتب إليه كتاباً وفيه هذه الآيات :

أرى خلل الرّماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام^(١)
فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أولها الكلام^(٢)
فإن لم يطفئها عقلاء قوم يكون وبودها جثث وهام
فقلت من التّمجّج لست شعري أأيقاظ أمية أم نيام
« قوله : وإن الحرب أولها الكلام نحوه قول بعضهم : إن الفتنة تلهج
بالنجوى وتنتج بالشكوى ... »

ومما قيل في كثرة الجيش من قديم الشعر قول الأندلس بن شهاب
التغلبى وهو عن حضر حرب البسوس :

يجأواء ينفى وزدّها سرعانها كأن وميض البرق فيها كواكب
« الجأواء : الكتيبة يضرب لونها إلى المكلفة — اللون الكدر —
وذلك من صدأ الحديد ، والسرعان : الأوائل ، يقول : إن المياة لا تسهم
والأماكن تضيق بهم فكلما زلت فرقة منهم رحل من تقدّهم ،
وقول أوس بن حجر :

قال : وقوله « ومن نجا برأسه فقد ربح »
هو مثل يضرب في إبطاء الحاجة وتعذرها حتى يرضى صاحبها بالسلامة منها .

(١) خلل الرماد : خلاله

(٢) تذكى : تلهب وتضرم

تري الأرض منا بالفضاء مريضة

معضلة منا بجمع عزمهم

« عضلت الأرض بأهلها : إذا ضاقت بهم لكثرتهم ، وعضلت المرأة بولدها تعضيلاً : إذا تشب الولد بفرج بعضه ولم يخرج بعضه فبقي معترضاً ، وقال أبو نواس :

أمام تحميس أذجوان كأنه قيس محوك من قنا وجياد
« الأذجوان : الأسود ، واشتقاقه من الذجي ، وبروي : أرجوان ، وهو : الأحمر .

وقال ابن الرومي :

فلو حصبتهم بالفضاء سخابة لظل عليهم حصبها يتدحرج
وهو من قول قيس بن الخطيم :

لو أنك تلقى حنظلاً فوق بيضنا تدحرج عن ذي سامه المتقارب

« البيض جمع بيضة : الخوذة ، سميت بذلك لأنها على شكل بيضة النعام ، والحنظل ثمر يشبه البطيخ لكنه أصغر منه جداً ويضرب المثل بمرارته ، وقوله : عن ذي سامه ، أي على ذي سامه ، فمن فيه بمعنى على والهاء في سامه يرجع إلى البيض الممّوه به ، أي البيض الممّوه بالسام ، والسام : عروق الذهب والنضة ، وهو هنا الطرائق المذهبة في البيض ، قال الإمام ثعلب : معناه : أنهم تراصوا في الحرب حتى لو وقع حنظل على رؤسهم على إملاسه واستواء أجزائه لم ينزل إلى الأرض ،

وقال أبو عمرو بن العلاء : أحسن ما قيل في صفة الجيش قول النابغة :

إني لأخشى عليكم أن يكون لكم من أجل بفضائكم يوم كأيام

أَوْ تَزْجُرُوا مُكْفِهَرًا لَا كِفَاءَ لَهُ كَاللَّيْلِ يَخْلُطُ أَصْرَامًا بِأَصْرَامٍ
تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ نُورًا بِنُورٍ وَإِظْلَامًا بِإِظْلَامٍ
« أَوْ تَزْجُرُوا عَظْفَ عَلَى مَا قَبْلَهُ ، وَالْمُكْفِهَرُ : الْجَيْشُ الْعَظِيمُ ، وَلَا
كِفَاءَ لَهُ : لَا نَظِيرَ لَهُ ، وَيَخْلُطُ أَصْرَامًا بِأَصْرَامٍ إِمَّا جَعَلَتْهُ صِفَةُ اللَّيْلِ وَالْأَصْرَامُ
جَمْعُ صَرِيمٍ وَهُوَ اللَّيْلُ الْمُظْلَمُ فَيَكُونُ الْمَعْنَى يَخْلُطُ مُظْلَمًا بِمُظْلِمٍ ، وَإِمَّا جَعَلَتْهُ
صِفَةُ لِلْجَيْشِ فَيَكُونُ الْمَعْنَى : يَخْلُطُ كُلٌّ حَتَّى بِقَبِيلَاتِهِ خَوْفًا مِنَ الْإِغَارَةِ عَلَيْهِ ،
وَقَوْلُهُ : تَبْدُو كَوَاكِبُهُ ... الْبَيْتُ يَرِيدُ : شِدَّةَ الْهَوْلِ وَالْكَرْبِ ، وَهَذَا كَمَا
تَقُولُ الْعَامَّةُ : أَرَيْتَهُ النُّجُومَ وَسُطَّ النَّهَارَ .

قَالَ الْفَرَزْدَقُ : * أَرَيْكَ نَجُومَ اللَّيْلِ وَالشَّمْسَ حَيَّةً *
وَقَالَ طَارِقُ : * وَتُرِيكَ النُّجُومَ يَجْرِي بِالْأَظْهَرِ *
وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ جَرِيرُ :

وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ تَبْشِي عَلَيْكَ نَجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا
يَقُولُ : إِنَّ الشَّمْسَ طَالِعَةٌ وَلَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ نَجُومَ اللَّيْلِ ، شِدَّةَ الْغَمِّ
وَالْكَرْبِ الَّذِي فِيهِ النَّاسُ ، فَتَجْرِمُ مَفْعُولُ كَاسِفَةٍ ،

قَالُوا : وَأَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ النَّابِغَةِ قَوْلُ زَيْدِ الْخَيْلِ :

بَنِي عَامِرٍ دَلَّ تَعْرِفُونَ إِذَا غَدَا أَبُو مَكْنَفٍ قَدَّ شَدَّ عَقْدَ الدَّوَابِرِ
بِجَيْشٍ تَضَلَّ الْبُلُقَى فِي حَجَرَاتِهِ تَرَى الْأُكُمَ مِنْهُ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ
وَجَمْعُ كُنْثِلِ اللَّيْلِ مُرْتَجِسُ الْوَعَى كَثِيرٍ تَوَالِيهِ سَرِيعِ الْبَوَادِرِ
« قَوْلُهُ : قَدَّ شَدَّ عَقْدَ الدَّوَابِرِ أَرَادَ : شَدَّ دَوَابِرَ الْبَيْضَةِ — أَيْ
مَآخِرَهَا — بِالذَّرْعِ لَثَلًا تَسْقُطُ إِذَا رَكَضَ الْفَارَسُ : وَقَوْلُهُ : تَضَلَّ الْبُلُقَى
فِي حَجَرَاتِهِ لُحْجَرَاتِهِ : نَوَاحِيهِ جَمْعُ حَجَرَةٍ يَقُولُ لِكَثْرَتِهِ لَا يُرَى بِهِ إِلَّا بَلَقٌ

والأباق مشهور المنظر لاختلاف لونه — السواد والبياض — وكان رؤساء العرب لا يركبون البلق في الحرب لئلا تنيم عليهم فيقتصدوا بشره ، وقوله : ترى الآكم منه سجداً للجوافر يقول : لكثرة الجيش يطحن الآكم حتى ياصقها بالارض : * يدع الآكام كأنهن صحارى * وقوله : كمثل الليل يريد : ظلمة يكاد سواده لكثرتيه يسد الأفق ، والوغى : الأصوات ، والارتجاس : صوت الشيء المختلط العظيم كالجيش والرعد ، والتوالى : اللواحق ،

ومن بارع ما قيل في الكيد في الحرب قول أبي تمام :
هَزَزْتَ لَهُ سَيْفًا مِنَ الْكَيْدِ إِنَّمَا تُجَدُّ بِهِ الْأَعْنَاقُ مَا لَمْ يُجَرِّدْ
يُسْرَ الَّذِي يَسْطُو بِهِ وَهُوَ مُغْمَدٌ وَيَفْضَحُ مَنْ يَسْطُو بِهِ غَيْرَ مُغْمَدٍ
« يقول : إن أخفيت الكيد ظفرت وسررت ، وإن أظهرته اففضحت وخبت ، وقال يصف أفاعيل رُمح الممدوح في أعدائه :

أَنْهَيْتَ أَرْوَاحَهُ الْأَرْوَاحَ إِذْ سَرِعَتْ فَمَا تُرَدُّ لَرَيْبِ الدَّهْرِ عَنْهُ يَدُ (١)
كَأَنَّهَا وَهِيَ فِي الْأَوْدَاجِ وَالْعَنَّةِ وَفِي السَّكَلَى تَجِدُ الْغَيْظَ الَّذِي تَجِدُ
مِنْ كُلِّ أَرْزَقٍ نَظَارَ بِلَا نَظَرٍ إِلَى الْمَقَاتِلِ مَا فِي مَتْنِهِ أَوْدُ (٢)
كَأَنَّهُ كَانَ خِذْنَ الْحُبِّ مَذْزَمِينَ فَلَيْسَ يُعْجِزُهُ فَلَبٌ وَلَا كَيْدُ

(١) أرواحه : أرواح بابك الحزى ومن معه ، وقوله فما ترد الدهر عنه يد : إن الحزى يعد هذه الوقعة وما نزل به من أفاعيلك ستوالى عليه نوب الدهر فلا ترد يد لريب الدهر عنه (٢) أود : اعوجاج

ماغزى قوم قط فى عقر دارهم

إلا ذلّوا

ومن حُطبة لعلّى بن أبى طالب رضى الله عنه وقد انتهى إليه : ^(١)
 أن خيلاً لمعاوية ^(٢) وردّت الأنبار فقتلوا عاملاً له يُسمّى حسان بن
 حسان ، فخرج مُغضباً يُحرّثونه حتى أتى الثخيلة ^(٣) ، وأتبعه الناصر فرّق رّبارة من
 الأرض ^(٤) فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم
 قال : «أما بعد ، فإن الجها بابٌ من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه
 الله الذلّ ، ورسيم الخسف ، ودُيْتُ بالصغار ، وقد دعوتكم إلى حرب
 هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلناً وقلت لكم : أغزوه من قبل أن
 يغزوكم فالذى نفسى بيده : ماغزى قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلّوا ، فتخاذلتم
 وتواكلتم وثقل عليكم قولى واتخذتموه وراءكم ظهيراً ، حتى شدت عليكم
 الغارات ، هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار وقتلوا حسان بن
 حسان ورجالا منهم كثيراً ونساء ، والذى نفسى بيده : لقد بلغت أنه كان
 يَدْخُل على المرأة المسلمة والمعاودة ^(٥) فتتزعج أحجأهما ورعتهما ثم أنصرفوا

- (١) أنهماء إليه عاج من الأنبار ، وكان على يومئذ بالكوفة وقد تفرقت أصحابه
 عنه بعد حرب صفين وحكومة الحكيم (٢) يروى أنه وجه سفيان بن عوف
 ابن المغفل الغامدى فى ستة آلاف وأمره أن يتحدّر إلى هيت ، ثم إلى الأنبار ،
 فيوقع بأهلها فقتل من أصحاب على حسان عامله عليها وثلاثين رجلاً واحتمل ما فيها
 من الأموال ؛ وهيت - بكسر الهاء - بلد على شاطئ الفرات ، والأنبار : مدينة
 بالعراق كذلك على شاطئ الفرات غربى بغداد بينهما عشرة فراسخ
 (٣) اسم موضع خارج الكوفة (٤) اسم لكل مرتفع من الأرض كالربوة
 (٥) المرأة الذمية ذات العهد

مؤثرين لم يُكَلِّمْ منهم أحدَ كَلَمًا ، فلو أن امرأً مُسَلِّمًا مات من دون هذا أسفًا ما كان فيه مَلُومًا بل كان به عندي جديرًا . يا عجباً كلَّ العجب ، عَجِبُ يُمِيت القلبَ وَيَشْغَلُ الفَهْمَ وَيُكْثِرُ الاحزانَ ، من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم وفشلهم عن حَقِّكم حتى صبحتم غَرَضًا تَرْتَوْنَ ولا تَرْمُونَ ، وَبُعَارُ عَلَيْكُمْ ولا تُغَيِّرُونَ ، وَيُعَصِّى اللهُ عز وجلَّ فيكم ولا تَرْضَوْنَ ، إذا قلتُ لكم : اغزَوْهم في الشتاء قاتم : هذا أو أن قُرُوصَ ، وإن قلتُ لكم : اغزَوْهم في الصيف قاتم : هذه سَمَارَةُ الْقَيْظِ أَنْظِرْنَا يَنْصِرُمُ الْحَرُّ عَنَا ، فإذا كنتم من الحر والبرد تَفِرُّونَ فأنتم والله من السَّيْفِ أَفْرُ : يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ ولا رِجَالٍ ، وَيَا طِفَامَ الْإِحْلَامِ ، وَيَا عُقُولَ رَبَاتِ الْحِجَالِ ، والله لقد أَفْسَدْتُم على رأي بالعِصيان ، ولقد ملأتم جوفى غِيظًا ، حتى قالت قريش : ابنُ أبي طالب رجل شُجاعٌ ولكن لا رأى له في الحرب ! الله دَرَّثُم ، وَمَنْ ذَا يَكُونُ أَعْلَمَ بِهَا مِنِّي أَوْ أَشَدَّ لَهَا مِرَاسًا ! فوالله لقد تَهَضَّتْ فيها وما بَلَغَتْ العِشْرِينَ . ولقد نَبِغْتُ اليوم على السَّتين ولكن لا رأى لمن لا يُطَاع ... « وإليك شرح بعض ألفاظ هذه الخطبة الخالدة ، قوله : وَسِمَ الخَسفَ معناه : كَلَّفَ وَالزَّمَ وَجَشَّمَ قال تعالى : يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ . أى يُجَشِّمُونَكُمْ أَشَدَّ الْعَذَابِ ، فسيم : كَلَّفَ وَالزَّمَ ، والخسف : الذل والهوان ، وأصله أن تُحْبَسَ الدَّابَّةُ على غير عَلفٍ ثم استعير فوضع موضعَ الهوان : وَدِيثٌ : دُلِّلَ . ومنه اشتقاق الدِّيُوثِ وهو : الرجل الذى لا غيرةَ له . وقوله : فى عُقْرِ دَارِهِم : أى فى أصل دارهم ، والعقر : أصل كلِّ شئ ، ومن ثم قيل . لفلان عَقَارٌ : أى أصل مالٍ يَعْتَمِدُ عليه من منزل وَضِيعَةٍ ونخيل ونحو ذلك . وقوله : وتواكلتم يقال : وَكَلْتُ

الامر إليك ورَكَتَهُ أَنْتِ إِلَى : أَى لَمْ يَتَوَلَّهُ وَاحِدٌ مِنَّا دُونَ صَاحِبِهِ
وَالسَّنَ أَحَالَ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا عَلَى الْآخَرِ : وَقَوْلُهُ : وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ
ظَهْرِيًّا : أَى رَمَيْتُمْ بِهِ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ، أَى لَمْ تَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ ، وَيُقَالُ فِي الْمَثَلِ :
لَا تَجْعَلْ حَاجَتِي مِنْكَ يَظْهَرُ : أَى لَا تَطْرَحْهَا غَيْرَ نَازِلٍ إِلَيْهَا ، وَقَوْلُهُ : حَتَّى
شُدَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ : أَى صُبَّتْ وَبُذَّتْ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ وَجْهِ . وَقَوْلُهُ :
فَتَنْتَزِعُ أَحْبَابَهُمَا يَعْنِي : الْخَلَائِلَ وَاحِدَهُمَا حِجْلٌ . وَالرُّعْتُ : جَمْعُ رَعَاثٍ
جَمْعُ رَعْنَةٍ وَالرَّعْنَةُ : الشَّنْفُ أَى الْقُرْطُ الَّذِي يَوْضَعُ فِي الْأُذُنِ : وَقَوْلُهُ :
وَانصَرَفُوا مَوْفُورِينَ أَى : لَمْ يَرْزَوْا ، أَى لَمْ يُصَابُوا وَلَمْ يُنَلَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ
فِي بَدَنِهِ وَلَا مَالِهِ . وَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَى لَمْ يُخَدِّشْ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَدِشًا .
وَكُلُّ جُرحٍ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ فَهُوَ كَلِمٌ . وَقَوْلُهُ : مَاتَ مِنْ دُونِ هَذَا أَسْفًا يَرِيدُ :
تَحَسَّرًا . وَقَوْلُهُ : مَنْ تَصَافَرُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ عَلَى بَاطِلِهِمْ أَى : مَنْ تَعَاوَنَهُمْ
وَتَظَاهَرَهُمْ . وَيُقَالُ : قَتَلَ فُلَانٌ عَنْ كَذَا : إِذَا هَابَهُ جُبْنًا وَفَزَعًا فَأَحْجَمَ
عَنْهُ وَامْتَنَعَ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ . وَالْقَرَّ — بَضْمُ الْقَافِ — الْبَرْدُ أَمَا الْقَرَّ
— بِالْفَتْحِ — فَهُوَ الْيَوْمُ الْبَارِدُ . وَالصَّرَّ — بِكسْرِ الصَّادِ — شِدَّةُ الْبَرْدِ
قَالَ نَعَالِي : كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ . وَالْقَيْظُ : الصَّيْفُ ، وَحَمَارَتُهُ : اشْتِدَادُ حَرِّهِ
وَاحْتِدَامُهُ . وَالطَّغَامُ : مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ وَلَا مَعْرِفَةَ عِنْدَهُ . وَقَوْلُهُ : وَيَاعَقُولُ
رَبَّاتِ الْحِجَالِ : فَالْحِجَالُ جَمْعُ الْحَجَلَةِ وَهِيَ كَالْقُبَّةِ وَيَدُوتُ لِلْعُرُوسِ يُزَيْنُ بِالثِّيَابِ
وَالشُّتُورِ ، يُنْسَبُهُمْ إِلَى ضَعْفِ النِّسَاءِ ،



وَمِنْ رَائِعِ الشُّعْرِ الْقَدِيمِ فِي بَابِ الْحَثِّ عَلَى الْإِقْدَامِ وَالذُّودِ عَنِ الذَّمَّارِ
وَوَصْفِ الْأَبْطَالِ وَالْمُتَخَذِلِينَ الْمُتَبَاطِلِينَ قَوْلُ شَاعِرٍ مِنْ بَنِي الْعَنْبَرِ اسْمُهُ

قُرِيطُ بْنُ أُنَيْفٍ — شاعر إسلامي — وكان ناس من بني شيبان قد أغاروا عليه فأخذوا له ثلاثين بعيراً فاستنجد قومه فلم يُنجدوه فأتى مازن تميم فركب معه نفرٌ فأطردوا لبني شيبان مائة بعير فدفعوها إليه فقال هذه الآيات التي افتتح بها أبو تمام حماسه :

لو كنتُ من مازنٍ لم تستبجِ إِبِلِي	بنو الشَّقيقة من ذُهَلِ بنِ شيبانا
إذا لَقَامَ بَنَصْرِي مَعَشْرُ خُشْنٍ	عند الحَفِيطَةِ إِنْ ذُو لُوثَةٍ لَنَا
قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِدِيهِ لَهْمٌ	طارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوَحْدَانَا
لَا يَسْأَلُونَ أَهَامَ حِينَ يَنْدُبُهُمْ	فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَتْ بُرْهَانَا
لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ	لِيسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا
يَحْزُونُ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفَرَةٌ	وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانَا
كَانَ رَبُّكَ لَمْ يَخْلُقْ لِحَشِيَّتِهِ	يَسْأَلُهُمْ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ إِنْسَانَا
فَأَيَّتَ لِي بِهِمْ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا	شَنُّوا الْإِغَارَةَ فَرَسَانًا وَرُكْبَانَا

« بنو الشقيقة هي الرواية الصحيحة وإن كانت رواية شراح الحماسة : بنو اللقيطة ، والشقيقة : امرأة من بني ذهل بن شيبان ، وبنوها كانوا سيارة مَرْدَةً ليس يأتون على شيء إلا أفسدوه ، وأما اللقيطة فهي امرأة من فزارة ، هكذا زعم أبو محمد الأعرابي . والاستباحة : في معنى الإباحة وهي شبه النهي ، استباحه : انتهبه حتى لكانه مباح لا تبعه عليه فيه ، وخشن جمع أخشن وهو من صفات الرجال مثل يُراد به امتناع الجانب وإباء الضيم . ورجل ذو لؤثة : بطيء متمكك ذو ضعف واسترخاء ، يقول : لولم أكن من بني العنبر وكنت من بني مازن ثم نالني من بني الشقيقة مانالني من استباحتهم إيلي لكان لي منهم من ينصرتني عليهم ويأخذ بحقي انفساراً منهم »

إذا لَانَ ذُو الضَّعْفِ وَالْوَهْنُ فَلَمْ يَدْفَعْ ضِيًّا وَلَمْ يَحْمِ حَقِيقَةً ، وَمُرَادُ الشَّاعِرِ تَهْيِيجُ قَوْمِهِ عَلَى الْإِتْقَامِ لَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ لِأَنَّ ذَمَّهُمْ ، وَالْحَفِيزَةَ : الْغَضَبَ وَالْحِمَاةَ وَالْمَنْعَ لِلشَّيْءِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهِ . وَقَوْلُهُ : قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذِيهِ لَهُمْ فَيَبْدَأُ الشَّرَّ نَوَاجِذَهُ مِثْلُ لَشِدَّتِهِ وَصَوْلَتِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ السُّبْعَ إِذَا صَالَ أَوْ شَدَّ كَثُرَ عَنْ أَنْيَابِهِ ، فَشَبَّهَ الشَّرَّ بِهِ فِي حَالِ شِدَّتِهِ ، وَطَارَوْا إِلَيْهِ يَرِيدُ : أَسْرَعُوا إِلَيْهِ ، وَوُحْدَانًا جَمَعَ وَاحِدَ كِرَاكِبٍ وَرُكْبَانٍ ، وَالزَّرَافَاتُ : الْجَمَاعَاتُ ، يَقُولُ فِي هَذَا الْبَيْتِ . لَأَنَّهُمْ لِلْجَرِّصِمْ عَلَى الْقِتَالِ وَحُبُّهُمْ إِيَّاهُ لَا يَنْتَظِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، لِأَنَّ كَلًّا مِنْهُمْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْإِجَابَةَ تَعَيَّنَتْ عَلَيْهِ ، فَإِذَا سَمِعُوا بِذِكْرِ الْحَرْبِ أَسْرَعُوا إِلَيْهَا مُجْتَمِعِينَ وَمُتَفَرِّقِينَ ؛ وَمِثْلُهُ قَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ ثَوْرٍ الْهَلَالِيُّ الصَّحَابِيُّ :

قَوْمٌ إِذَا هَتَفَ الصَّرِيخُ رَأَيْتُهُمْ مَا بَيْنَ مُلْحِمٍ مُهْرَةٍ أَوْ سَافِعٍ^(١)
 وَقَوْلُهُ : لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ... أَلَيْتَ يَقُولُ : إِذَا دُعُوا إِلَى الْحَرْبِ أَسْرَعُوا
 إِلَيْهَا غَيْرَ سَائِلِينَ مَن دَعَاهُمْ لَهَا ، وَلَا بَاحِثِينَ عَنْ سَبَبِهَا ، لِأَنَّ الْجَبَانَ رُبَّمَا
 تَعَلُّ بِذَلِكَ قَتَابًا عَنْ الْحَرْبِ . وَنَحْوُهُ قَوْلُ سَلَامَةَ بْنِ جَنْدَلٍ :
 إِنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِيخٌ فَرِغْ كَانَ الصَّرَاخُ لَهُ قَرْعُ الظَّنَائِبِ
 « يَقُولُ سَلَامَةُ : إِذَا دَعَانَا إِلَى إِعَانَتِهِ أَجَبْنَاهُ إِلَيْهَا مُجِدِّينَ ، وَالظَّنْبُوبُ :
 عَظْمُ السَّاقِ ، يَقَالُ : قَرَعَ لِهَذَا الْأَمْرِ ظُنْبُوبُهُ : إِذَا جَدَّ فِيهِ »

(١) هتف : صاح وبرى وقع : أى ارتفع والصريح : الصباح أو بمعنى الصارخ وبرى
 إذا سمعوا الصريح . وسافع : أخذ بناصية فرسه ، من قوله تعالى : لنسفعا بالناصية ،
 يقول : هم قوم إذا ارتفع الصباح للحرب أسرعوا إليه فترام دائرين بين ملحم مهرة
 وقابض بناصية مهرة يجذبه إليه بسرعة .

وقوله : لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَرِيَّ عَدَد ... أَلَيْتَ وَصَفَ قَوْمَهُ
بأنهم يُؤْثِرُونَ السَّلامَةَ والتَّعَفُّوْا عَنِ الْجُنَاةِ ما وَجَدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، وَلَوْ
أَرَادُوا الْإِنْتِقَامَ لَقَدَرُوا بِعَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ . هَذَا إِذَا كَانَ الشَّاعِرُ لَا يَرِيدُ كَمَا
قُلْنَا هِجَاءَ قَوْمِهِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ حَشَّهْمَ عَلَى الْإِنْتِقَامِ ، أَمَا إِذَا كَانَ يَرِيدُ ذَمَّهُمْ
فَإِنَّهُ يَهْجُوهُمْ وَيُعَيِّرُهُمْ بِالْجُبْنِ فِي هَذَا الْبَيْتِ . وَقَوْلُهُ : كَأَنَّ رَبَّكَ ... الْبَيْتِ
تَهْكُمُ مِنْهُ وَسُخْرِيَّةٌ . وَمَعْنَى قَوْلِهِ : فُرْسَانًا وَرُكْبَانًا : أَنَّهُمْ كَانُوا يُقَاتِلُونَ
عَلَى الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ ، وَمِنْ ذَا قَوْلِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ
فِي حَرْبِ الْقَادِسِيَّةِ : أَخْبِرْنِي : أَيُّ فَارِسٍ كَانَ أَشْجَعُ ؟ وَأَيُّ رَاكِبٍ كَانَ
أَشَدَّ غَنَاءً ؟ وَأَيُّ رَاكِبٍ كَانَ أَصْبَرَ ؟ فَذَكَرَهُمْ لَهُ وَمَيَّزَهُمْ .



وَمِنْ طَرِيفِ آيَاتِ الْحَمَاسَةِ الَّتِي أَوْرَدَهَا أَبُو تَمَّامٍ فِي حِمَاسَتِهِ وَالْمَبْرَدُ فِي
الْكَامِلِ آيَاتٌ قَالَ الْمَبْرَدُ : إِنَّهَا لِأَعْرَابِيٍّ مِنْ بَنِي سَعْدِ ^(١) وَنَسَبَهَا أَبُو تَمَّامٍ
إِلَى الْهَذُلُولِ بْنِ كَعْبِ الْعَنْبَرِيِّ - وَكِلَاهُمَا شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ - وَكَانَ هَذَا
الْقَائِلُ مُنْمَاكِكًا - أَيُّ عَقِدَ لَهُ عَلَى امْرَأَةٍ وَلَمْ يَبْتَنِ بِهَا - فَزَلَّ بِهِ أَضْيَافٌ
فَقَامَ إِلَى الرَّحَى فَطَحَنَ لَهُمْ ، فَمَرَّتْ بِهِ زَوْجَتُهُ فِي إِسْرَاقَةٍ ، فَقَالَتْ لَهُنَّ :
أَهَذَا بَعْلِي ؟ فَأَعْلِمَ بِذَلِكَ فَقَالَ :

قَوْلُ : وَصَكَّتْ نَحْرَهَا يَمِينًا : أَبْعَلَى هَذَا بِالرَّحَى الْمُتَقَاعِسُ ؟
فَقُلْتُ لَهَا : لَا تَعْجَلِي وَتَبَيَّنِي فَقَالَتْ إِذَا التَّفَّتْ عَلَى الْفَوَارِسِ
أَلَسْتُ أَرُدُّ الْقِرْنَ بِرُكْبٍ رَدَّاهُ

وَفِيهِ سِنَانٌ ذُو غِرَارَيْنِ نَائِسٌ

(١) قَالَ ابْنُ بَرِّي : هُوَ نَعِيمُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ يَزِيدِ السَّعْدِيِّ

وَأَحْتَمِلُ الْأَوْقَ الثَّقِيلَ وَأُمْتَرِي
 حُلُوفَ الْمَنَايا حِينَ فَرَ الْمَغَامِسُ
 وَأَقْرِى الْهُمُومَ الطَّارِقَاتِ حَزَامَةً
 إِذَا كَثُرَتْ لِلطَّارِقَاتِ الْوَسَاوِسُ
 إِذَا خَامَ أَقْوَامٌ تَقَحَّحْتُ غَمْرَةً
 يَهَابُ حُمَيَّاهَا الْأَكْثُ الْمُدَاعِسُ
 لَعَمْرُ أَيْكَ الْخَيْرِ إِنْ لَخَّادِمُ
 لِضَيْفِي وَإِنِّي إِنْ رَكِبْتُ لِفَارِسُ
 وَإِنِّي لِأَشْرِى الْجَدِّ أَبْغَى رَبَّاحُهُ
 وَأَتْرُكُ قَرْنِي وَهُوَ خَزْيَانُ نَاعِسُ

« الْقَعَسُ : دخول الظهر وخروج الصدر ، وهو نقيض الحدب ،
 وقول المرأة : أبغى هذا ؟ إشارة تحقير ، تعجب مما رأت ، وقوله : بالرحى
 المتقاعس فإن « بالرحى » تبيين ومعنى ذلك أن كلمة « المتقاعس » تدل على
 أن هناك تقاعساً ولما قال بالرحى دل ذلك على أن التقاعس حدث
 بالرحى ، ولم يرد أن يعمل المتقاعس في قوله بالرحى لأن ذلك على
 ما قال النحاة ممنوع ، لأن أل في المتقاعس اسم موصول كالذى وبالرحى
 صلة ولا يجوز أن تتقدم الصلة على الموصول . وقوله : ألسن أرد القرن
 يركب رذعه ، فالقرن : من يقاوهك في قتال ، وقوله : يركب رذعه ،
 قيل : الرذع ههنا : الدم على سبيل التشبيه برذع الزعفران ، ومعنى ركوبه
 دمه : أنه جرح فسأل دمه فسقط فوقه متشجاً به ، وقيل : الرذع : العنق
 أى سقط على رأسه فاندقت عنقه ، وقيل معناه : صرع منكوساً رأسه

أَسْفَلَهُ ، مِنْ ارْتَدَّعَ الْمَهْمُ : إِذَا رَجَعَ النُّصْلُ مُتَأَخَّرًا فِي السَّنَخِ .
 وَذُو غَرَارَيْنِ : ذُو حَدَّيْنِ ، وَنَائِئُسٌ : مُضْطَرَبٌ ، مِنْ نَائَسَ يَنْوَسُ : إِذَا
 تَحَرَّكَ وَاضْطَرَبَ ، وَتُرْوَى : يَابَسُ وَمَعْنَاهُ : صُلْبٌ ذَكَرُ لَا تَأْنِيثَ فِيهِ .
 وَالْأَوْقُ : الثَّقَلُ وَقَدْ آقَى عَلَيْهِ يَوْقُ : مَالٌ بِثِقَلِهِ ، وَوصفه بِالثَقِيلِ مَبَالِغَةٌ .
 وَالْخُلُوفُ جَمْعُ خِلْفٍ — بِالْكَسْرِ — وَهُوَ فِي الْأَصْلِ : ضَرْعُ النَّاقَةِ ،
 وَأَمْتِرَاؤُهُ : اسْتِخْرَاجُ مَا فِيهِ مِنَ اللَّبَنِ . يَرِيدُ : أَنَّهُ يَسْتَخْرِجُ خَبِيثَاتِ الْمَنَابِإِ
 بِأَفَاعِيلِهِ الْمُدْهِشَةِ وَقَدْ جَدَّ الْخَطْبُ وَاشْتَدَّتْ الْحَرْبُ ، وَالْمَغَامَسُ : الَّذِي
 يَنْغَمَسُ فِي لُجَّةِ الْحَرْبِ لَا يَبَالِي أَصَابَ أَمْ أُصِيبَ ، وَقَوْلُهُ : وَأَقْرَى الْهَمُومِ
 الطَّارِقَاتِ حَزَامَةً ... أَلَيْتَ يَقُولُ : أَحْزَمُ عِنْدَهَا إِذَا اشْتَدَّتْ وَكَثُرَتْ
 أَحَادِيثُ النَّفْسِ بِهَا . وَخَامٌ : جَبْنٌ وَنَكَصَ يَقَالُ : خَامَ عَنِ الْقِتَالِ يَخِيْمُ
 خَيْمًا وَخِيَانًا : جَبْنٌ . وَالْحِيَا : صَدْمَةُ الشَّرِّ ، وَالْأَلْدُ فِي الْأَصْلِ : الشَّدِيدُ
 الْخُصُومَةُ الَّتِي يَحِيدُ عَنِ الْحَقِّ ، وَالْمَرَادُ هُنَا الَّذِي لَا يَلْتَنِي عَنِ الْحَرْبِ .
 وَالْمَدَاعِسُ : الْمَطَاعِنُ يَقَالُ : دَعَسَهُ بِالرَّحِ : إِذَا طَعَنَهُ . وَالرَّيَّاحُ مَصْدَرٌ كَالرَّيْحِ
 وَقَوْلُهُ : وَأَتْرَكَ قَرْنِي الْخَ يَقُولُ : أَهَيْئُهُ فَأَكْسِرُهُ حَتَّى يَبْقَى مَطْرَقًا مُتَنَدِّمًا
 كَمَنْ غَلَبَهُ النَّعَاسُ ، وَقِيلَ مَعْنَى نَاعَسَ : مُشْرِفٌ عَلَى الْمَوْتِ يَقَالُ طَعَنْتُ
 صَاحِبِي فَأَمَتَّهُ : أَيِ قَتَلْتَهُ .



وَقَالَتْ لَيْلَى الْأَخْيَلِيَّةُ وَهِيَ مِنْ أَيْبَاتِ الْحَمَاسَةِ :
 لَا تَفْزُونَ الدَّهْرَ آلَ مُطَرِّفٍ لَا ظَالِمًا أَبَدًا وَلَا مَظْلُومًا
 قَوْمُ رِبَاطِ الْخَيْلِ وَسَطِ يَوْمِهِمْ وَأَسِنَّةُ زُرْقٍ تُخَالُ نَجُومًا
 وَتُخَرِّقُ عَنْهُ الْقَمِيصُ تَخَالُهُ وَسَطِ الْيُبُوتِ مِنَ الْحَيَاءِ سَقِيمًا
 (١٩ - ٢)

حتى إذا رُفِعَ اللَّوَاءُ رَأَيْتُهُ تَحْتَ اللَّوَاءِ عَلَى الْخَيْسِ زَعِيمًا
 « قَوْلُهَا : لَا تَغْزُونَ بِرُؤْي لَا تَقْرَبَنَّ وَقَوْلُهَا : لَا ظَالِمًا أَبَدًا وَلَا مَظْلُومًا
 تَرِيدُ : لَا يُبْتَدِئًا لَهُمْ بِالْحَرْبِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحَارِبُوكَ وَلَا مُنْتَقِمًا مِنْهُمْ إِنْ
 حَارِبُوكَ ، لِأَنَّهُمْ أُولُوا بَأْسَ شَدِيدٍ لَا يَظَافُونَ عَلَى أَنْ حَالًا ، وَيُرْوَى :
 « لَا ظَالِمًا فِيهِمْ وَلَا مَظْلُومًا »

قال البكري شارح الأملاني : وهذه الرواية هي الجيدة لوجهين أحدهما :
 أنها أفادت معنى حسنًا ، لأنه قد يكون ظالمًا أو مظلومًا من غيرهم فيستجير
 بهم لرد ظلامته ، أو لاستدفاع مكروه عقوبته فلا بد لهم من إجارته ،
 والوجه الثاني أن قوله : لَا تَقْرَبَنَّ الدهر قد أغنى عن قوله : أَبَدًا ، فصار
 حشواً لا يُفيد معنى ، وقولها : قومٌ رِبَاطُ الخيل ... ألبت تقول : إنهم
 أصحابُ خيل ورماح مستعدون أَبَدًا لِدَفْعِ الأعداء والذود عن حياضهم ،
 وأسِنَّةُ زُرُقٍ : صافيةٌ لَامِعَةٌ كأنها نجوم في الصفاء واللبنان ، وقولها :
 وَخَرَّقَ عَنْهُ القميص فيه قولان : أحدهما : أَنْ ذَلِكَ إشارةٌ إِلَى جَذْبِ
 الْعِفَافَةِ لَهُ ، والثاني : أَنَّهُ يُؤَثِّرُ بِجِدِّ ثِيَابِهِ فَيَكْسُوهَا وَيَكْتَفِي بِمَعَاوِزِهَا
 — أَيْ الثِيَابِ الْبَالِيَةِ مِنْهَا لِأَنَّهَا ثِيَابُ الْمُعْزِزِينَ — وقولها : تَحَالَهُ مِنَ الْحَيَاءِ
 سَقِيمًا تَرِيدُ أَنَّهُ لِإِمْعَانِهِ فِي الْكَرَمِ وَالسَّخَاءِ تَظَنَّهُ سَقِيمًا مِنَ الْحَيَاءِ تَخْشِيَةً أَنْ
 لَا يَكُونَ قَدْ بَلَغَ مِنْ إِكْرَامِ الضَّيْفِ مَا يَنْبَغِي ، تَمْدَحُهُ بِالْجُودِ كَمَا تَمْدَحُهُ
 بِالشَّجَاعَةِ . وَالْخَيْسُ : الْجَيْشُ ، وَالزَّعِيمُ : الْكَفِيلُ وَالرَّئِيسُ .

وقال بعضُ بني مازن :

وقد علموا بأن الحربَ ليست لأصحابِ المجاميرِ والتخلفِ
 ضربناكم على الإسلامِ حتى أقنناكم على وَضَحِ الطريقِ

« المجامر : المباخر ، أى التى توضع فيها النار والبُحُور لِيَتَبَخَّرَ بها
وَيُطَيَّبَ ، والخلوق : طيبٌ معروف يُتخذ من ألوانِ شَتَّى من الطيب ،
وقيل : الزعفران »

وقال أبو تمام فى مرثيته المشهورة لمحمد بن حميد الطوسي التى أولها :
كذا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأمرُ
فليس لِعَيْنٍ لم يَفِضْ مأوئها عُذر

قال :

فَوَيْ ماتَ بينَ الطغين والضربِ مِيتَةً
تقوم مقام النصرِ إذ فاته النصرُ
وما مات حتى ماتَ مَضْرِبُ سَيْفِهِ
من الضربِ ، واعتَلَّتْ عليه القنا السُّمُرُ
وقد كان فوتُ الموتِ سهلاً فَرَدَّهُ
إليه الحِفاظُ المرُ والخُلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تعافى العارَ حتى كأنما
هُوَ الكُفْرُ يومَ الرُّوعِ أو دُونَهُ الكُفْرُ
فَأَنْبَتَ فى مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلَهُ

وقال لها : من تحت أَخِصْكِ الحُشْرُ

غدا غُدُوَّةَ والحمدُ تَسْجُ رَدَائِهِ فلم يَنْصَرِفْ إلّا أوْ كَفَانَهُ الأَجْرُ
تَرَدَّى ثيابَ الموتِ حُرّاً فادَّجَا لها الليلُ إلّا وهى من سُندُسٍ حُضْرُ
« قوله : تقوم مقام النصر : لأنه قُتلَ قِتْلَةً بطلِ شجاع ، إذ لم يُقْتَلْ
حتى تَشَلَّمَ حَدَّ سَيْفِهِ من شِدَّةِ ما ضَرَبَ به وحتى أَقْصَفَتِ الرماحُ فى يديه

كما قال في البيت التالي ، قال نَقْدَةُ الشعر : إن أبا تمام نظر في هذا المعنى إلى قول عُروَةَ بن الرُّرد :

ومن بكٍ مثلي ذا عيالٍ ومُقْتَرَأٍ من المالٍ يطرحُ نفسه كلَّ مَطْرَحٍ .

لِيَبْلُغَ عُذْرًا أو يَبَالَ رَغِيْبَةً ومُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مثلُ مُنْجِحٍ .

قالوا : إن عُروَةَ جعل اجتِهَادَه في طلب الرزق عُذْرًا يقوم مقام النجاح وأبو تمام جعلَ الموتَ في الحرب الذي هو أَفْصَى اجتِهَادِ المجتهد في إلقاء الأعداء قائمًا مقام النصر . هذا ، ومضربُ السيف : حُدُّه ، وقوله : واعتلت عليه القنا السَّمُرُ فعني اعتلال القنا أن العلة أصابها فلم تستطع العمل معه وتحقيق مطالبِ همته من الصُّمود للأعداء ، أو تقول : معنى اعتلالها : أنها تجتعت عليه الذنوب واتخذت ذلك ذريعة إلى العصيان والخلاف عليه ، وما ذنبه عندها إلا كثرة تكاليفها الطعن لا يُريحها من ذلك ، والحفاظ : التَّحِيْمَةُ والغَضَبُ محافظة على الحُرمة وكل ما يجب على المرء حمايته ، والخلق الوعر : الشديد الانفة ، ولا يُمدح به إلا في العداوة . قال المازني :

تُعَاتِبُنِي فيما ترى من شراستي وشِدَّةِ نَفْسِي أُم سَعْدٍ وما تدرى

فقلت لها : إن الكريم وإن حلا لِيُوجِدُ أحيانًا أَمْرًا من الصبر

« الروع هنا : الحربُ وفي الأصل : الخوف . وقوله : فأثبت في مُسْتَنْقِعِ الموتِ رجله ... ألبيت . جعلَ للبوتِ مُسْتَنْقِعًا كَمُسْتَنْقِعِ الماء ، وهو : مُجْتَمِعُهُ في بطن الوادي ، وأُنْخِصُ القدم : مالا يُصيب الأرض من باطنها يقول : إنَّه لشجاعته قد صَمَدَ للبوت فلا تتحول رِجْلُهُ إلى أن يموتَ حتى كأن الحشر — يوم يُحْشَرُ الناس إلى ربهم يوم القيامة — من

تحت أخمصه . وقوله : غدا غدوة ... ألبيت يقول : إنه عاش محموداً مشكوراً
ومات مثوباً مأجوراً . وقوله : تردى ثياب الموت ... ألبيت يقول : إنه
ارتدى الثياب المأطخة بالدم فلم ينقض يوم قتله ولم يدخل في ليلته إلا
وقد صارت الثياب خضراً من سندس الجنة . قال علماء البيان : في هذا
البيت الطباق المسمى بالتدريح ، وهو أن يذكر الشاعر أو الناثر في معنى من
المدح أو غيره ألواناً لقصيد الكناية أو التورية ، ويسمى تدريح الكناية
أيضاً ، فإنه هنا ذكر لون الحمر والخضرة والمراد من الأول الكناية عن
القتل ومن الثاني الكناية عن دخول الجنة ،

وقال البحتري :

مَعَشَرُ أَنْسَكْتْ حُلُومُهُمُ الْآرَ ضَ وَكَادَتْ لَوْلَاهُمْ أَنْ تَمِيدَا
فَإِذَا الْجَدْبُ جَاءَ كَانُوا غَيْرَتَا وَإِذَا التَّفْعُ نَارَ ثَارُوا أَسُودَا
وَكَأَنَّ الْإِلَهَ قَالَ لَهُمْ فِي الْ حَرْبٍ كَرُونَا حِجَارَةً أَوْ حديدَا

وقال مسلم بن الوليد :

لَوْ أَنَّ قَوْمًا يَخْلُقُونَ مَنِيَّةً مِنْ أَبْيِهِمْ كَانُوا بَنَى جِبْرِيلَا
قُورُ إِذَا حَمَى الْوَطِيسُ لَهُمُ جَمَلُوا الْجَاهِمُ لِلشَّيْءِ مَقِيلَا

وقيل للهلب بن أبي صفرة : إنك لتلقى نفسك في المهالك ا قتال :

إِنْ لَمْ آتِ الْمَوْتَ مُسْتَرْسِلًا ، أَنَانِي مُسْتَعْجِلًا ، إِنِّي لَسْتُ آتِي الْمَوْتَ مِنْ
حُبِّهِ ، وَإِنَّمَا آتَيْهِ مِنْ بُغْضِهِ ، وَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْحَصِينِ بْنِ الْحَمَامِ :

تَأَخَّرْتُ أَسْتَقْبِلُ الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَ

وقد تقدم

وقال المتنبي :

شجاعٌ كَانَ الحربَ عَاشِقَةً لَهُ إِذَا زَارَهَا فَدَّتْهُ بِالْخَيْلِ وَالرَّجُلِ
« المراد بالخيـل : الفرسان ، والرجل جمع راجل يقول : هو شجاع يُقْتَلُ
ولا يُقْتَلُ فكأن الحرب تعشقه فإذا زار الحرب استبقتته وأفتت مَنْ سواه
من الفرسان والرجال ، فكأنما جعلتهم فداء له . »

وقال :

وكم رجالٌ بِلَا أَرْضٍ لِكثرتِهِمْ تَرَكْتُ جَمْعَهُمْ أَرْضاً بِلَا رَجُلٍ
ما زال طَرَفُكَ يَجْرِي فِي دِمَائِهِمْ حَتَّى مَشَى بِكَ مَشَى الشَّارِبِ الشَّمْلِ
« قوله : وكم رجال ... ألبت يقول : كم جمع الأعداء لك جموعاً
تَغِيبُ الأَرْضُ من كثرتهم وتخفى على الأبصار حتى كأنهم رجالٌ بِلَا أَرْضٍ
فقتلتهم وأنيتهم حتى خَلِيتْ أَرْضهم فَبَقِيتْ ولا رجل فيها ، وفي هذا البيت
نظر من ناحية كثرة الجيش إلى قول أبي تمام في صفة جيش :
مَلَأَ الْمَلَأَ عُصْباً فَكَادَ أَنْ يُرَى لَا خَلْفَ فِيهِ وَلَا لَهُ قُدَامُ
وقوله : ما زال طرفك ... ألبت ، فالطرف : الفرس الكريم ، والشمل
السكران ، يقول ما زلت تخوض دماءهم بفرسك حتى تعدثر بالقتلى وأمالته
دماؤهم عن سَنَنِ جَرِيهِ وَأَزَلَّتْهُ حَتَّى مَشَى بِكَ مَشَى السَّكَرَانِ ،
وقال الشاب الظريف من قصيدة له يمدح بها ابن عبد الظاهر :

وَمُعْشِرٍ لَمْ تَزَلْ لِلْحَرْبِ يَضُمُّ
حُمُرَ الْخُدُودِ وَمَا مِنْ شَأْنِهَا الْحَجَلِ^(١)

(١) البيض : السيوف ، وجعلها حمر الخدود لما يسيل فوقها من دماء الأعداء.

إذا انتَضَرُها بُروقًا صُيِّرَتْ سُجْبًا

يَسِيلُ مِنْ جَانِبَيْهَا عَارِضٌ قَطِلُ^(١)

يَثْنِي حَدِيثُ الرِّغَى أَعْطَافَهُمْ طَرْبًا

كَأَنَّ ذِكْرَ الْمَنَايَا بَيْنَهُمْ غَزَلُ^(٢)

كَمْ نَارٍ حَرَبَ بِهِمْ شُبَّتَ وَهُمْ سُجْبُ

وَأَرْضُ قَوْمٍ فَاضَتْ وَهُمْ شَعْلُ^(٣)

وقال الشاعر أبو الفَرَجِ البَغْهَاءُ شاعر البَيْتِمة :

يَسْعَى إِلَى الْمَوْتِ وَالْقَنَّا قَصْدُ وَخَيْلُهُ بِالرُّؤْسِ تَلْتَمِعُ

كَأَنَّهُ وَاقِقُ بَأَنَّ لَهُ عُمْرًا مُقِيمًا وَمَالُهُ أَجَلُ

« وَالْقَنَّا قَصْدُ : أَيْ قَطْعُ ، وَالْمَفْرَدُ : رِقْدَةٌ وَهِيَ : الْقِطْعَةُ مِنَ الشَّيْءِ »

إذا انكسر ،

وقال آخر :

كَأَنَّ سَيُوفَهُ صِيغَتْ نَقُودًا تَجُولُ عَلَى التَّرَائِبِ وَالنُّحُورِ

وَسُمِّرَ رِمَاحُهُ جُعِلَتْ هُمُومًا فَمَا يَحْظَرْنَ إِلَّا فِي ضَمِيرِ

ومن كلام علي بن أبي طالب : رَبُّ حَيَاةٍ سَابِقِهَا التَّعَرُّضُ لِلْمَوْتِ ،

وَرَبُّ مَنِيَّةٍ سَابِقِهَا طَلَبُ الْحَيَاةِ .

« وَبِمَدِّ ، فَإِنَّ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي الشَّجَاعَةِ وَالتَّمَدُّحِ بِهَا لَا تَتَكَادُ تُنْهَضِي كَثْرَةً ،

وإن النَّاطِرَ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ وَلَا سِيَّما الْمَنْظُومِ مِنْهُ يَتَحَقَّقُ مِنْ أَنَّ الشَّجَاعَةَ

(١) انتضى السيف : استله من غمده ، والعارض السحاب والمراد هنا الدماء

(٢) الأعطاف جمع عطف وهو الجانب

(٣) وهم سحب أى فى الكرم ، وهم شعل أى كالنار فى استئصال أعدائهم .

والإشادة بها تكاد تكون أحد شطري ما يتمدحون به ويتوهون بفضله ،
أما الشطر الآخر فهو الجود والكرم ، وبحبك بهاتين الخلتين ، وإنهما
دعامتا سائر الفضائل ، ولنجزئ بهذا المقدار وإن كان قطراً من بحر ،

صدر من عبقرياتهم في وصف آلات الحرب

قال البُحْتُرى يَصِفُ السيف :

يَتَنَاوَلُ الرُّوحَ البَعِيدَ مَنَالُهُ عَفْوَاً ، وَيَفْتَحُ فِي الْقَضَاءِ الْمُقْفَلَ
مَاضٍ وَإِنْ لَمْ تُنْمِضْهُ يَدُ فَارِسٍ بَطْلٍ ، وَمَصْقُولٌ وَإِنْ لَمْ يُصْقَلِ
يَغْشَى الْوَعَى فَالْتَرُسُ لَيْسَ بِجَنَّةٍ مِنْ حَدِّهِ وَالْدَّرْعُ لَيْسَ بِمَعْقِلِ
مُضْغٍ إِلَى حُكْمِ الرَّدَى ، فَإِذَا مَضَى

لَمْ يَلْتَفِتْ ، وَإِذَا قَضَى لَمْ يَغْدِلِ

مُنَاقَلٌ يَفْرِى بِأَوَّلِ ضَرْبَةٍ مَا أَذْرَكَتْ وَلَوْ أَنَّهُ فِي يَدِ بِلِ
وَإِذَا أَصَابَ فَكُلُّ شَيْءٍ مَقْتَلٌ وَإِذَا أُصِيبَ فَمَالُهُ مِنْ مَقْتَلِ
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمَعْنَى يَصِفُهُ :

وَلِي صَارِمٌ فِيهِ الْمَنَايَا كَوَامِنٌ فَمَا يُبْتَضَى إِلَّا لِسَفْكِ دِمَاءِ
تَرَى فَوْقَ مَتْنِيهِ الْفِرْنْدَ كَأَنَّهُ بَقِيَّةُ غَيْمٍ رَقَّ دُونَ سَمَاءِ^(١)
وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ :

خَيْرٌ مَا اسْتَعَصَمَتْ بِهِ الْكَفُّ عَضْبٌ ذَكَرَ هَزَهُ أُنَيْثُ الْمَهْزِ^(٢)

(١) فرند الشيف : وشية

(٢) الذكر من السيوف : الشديد الجيد الصارم ، وهزه أنيث المهز يريد : أنه
لين منقاد مطواع مع شدته

مَا تَأَمَّلْتَهُ بِعَيْنِكَ إِلَّا أُرْعِدْتَ صَفْحَتَاهُ مِنْ غَيْرِ هَرٍّ^(١)
 مِثْلُهُ أَفْرَعَ الشُّجَاعَ إِلَى الدَّرِّ عَ فَعَالَيَ بِهَا عَلَى كُلِّ بَرٍّْ^(٢)
 مَا يُبَالِي أَصَمَّتْ شَفَرَتَاهُ فِي تَحَزٍّ أَمْ حَادَتَا عَنْ تَحَزٍّ^(٣)
 وَلَمَّا صَارَ الصَّمَامَةُ سَيْفُ عَمْرُو بْنِ مَعْدِيكَرَبَ إِلَى مُوسَى الْهَادِي
 أَذِنَ لِلشُّعْرَاءِ أَنْ يَصِفُوهُ ، فَبَدَأَ ابْنُ يَامِينَ فَقَالَ :

حَازَ صَمَامَةَ الزُّبَيْدِيِّ مِنْ دُونِ جَمِيعِ الْأَنَامِ مُوسَى الْأَمِينُ
 سَيْفُ عَمْرُو وَكَانَ فِيهَا سَمِعْنَا خَيْرَ مَا نَعْمِدَتْ عَلَيْهِ الْجُفُونُ
 أَخْضَرَ الْمَتْنِ بَيْنَ حَدِيدِهِ نُورٌ مِنْ فِرْنِدٍ تَمْتَدُّ فِيهِ الْعُيُونُ
 أَوْقَدَتْ فَوْقَهُ الصَّوَاعِقُ نَارًا ثُمَّ شَابَتْ بِهِ الدُّعَافُ الْقُيُونُ^(٤)
 فَإِذَا مَا سَلَسَلْتَهُ بَرَزَ الشَّمْسَ ضِيَاءُ فَلَمْ تَكُذْ تَسْتَبِينُ
 يَسْتَطِيرُ الْأَبْصَارَ كَالْقَبَسِ الْمُشْعَلِ مَا تَسْتَقِرُّ فِيهِ الْعُيُونُ
 وَكَانَ الْفِرْنِدُ وَالرُّوْنُقُ الْجَا رَى فِي صَفْحَتَيْهِ مَاءٌ مَعِينُ
 وَكَانَ الْمَنُونُ نِيْطَتْ إِلَيْهِ فَهُوَ مِنْ كُلِّ جَانِبَيْهِ مَنُونُ
 مَا يُبَالِي مَنْ اتَّضَاءَ لَضَرْبِ أَشْمَالٍ سَطَتْ بِهِ أَمْ يَمِينُ
 قَالَ أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ : وَقَدْ أَخَذَ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَشْبِيْهُهُ
 السَّيْفَ بِالشَّمْسِ ثُمَّ بِالْقَبَسِ ، لِأَنَّهُ قَدْ حَطَّهُ دَرَجَاتٍ ...^(٥) ،

ولمناسبة عمرو بن معديكرب وصمصامته يروى أن عمر بن الخطاب
 بعث إلى عمرو أن يبعث إليه بسيفه الصمصامة هذا ، فبعث إليه به ، فلما

(١) يقول : إن هذا السيف بلعج الشجاع إلى أن يتقيه بأجود الدروع ، والبر :
 السلاح يدخل فيه الدرع والمغفر والسيف (٢) الذعاف : السم الذي يقتل من
 صاعته ، والقيون جمع قين وهو الحداد وكل صانع (٣) القبس : الجذوة من النار

ضَرَبَ به وَجَدَه دون ما بَلَغَه عنه ، فكتب إليه في ذلك ، فأجابه يقول :
 إِنَّمَا بَعَثْتُ إِلَى أمير المؤمنين بالسيف ولم أَبْعَثْ له بالساعدِ الذي يَضْرِبُ به .
 وسأله عمر يوماً عن السلاح فقال : ماتقول في الرُّحْم ؟ قال : أخوك
 ورُبَّمَا خَانَكَ فَأَنْقَضَفَ ؛ قال : فما تقول في السُّتْرَس ؟ قال : هو الحِجْنُ
 وعليه تدور الدَّوَار ، قال : فالنَّيْل ؟ قال : منايا تُخْطِئُ وتُصِيب ، قال :
 فما تقول في الدرع ؟ قال : مَثْقَلَةٌ للراجل مَشْغَلَةٌ للراكب ، وإنها لِحِصْنُ
 حصين ؛ قال : فما تقول في السيف ؟ قال : هُنَا لك قَارَعَتُكَ أَمَك عن
 الثُّكْلِ ^(١) ؛ قال : بَلْ أَمَكَ أَقَالَ : بَلْ أَمَكَ يَا أمير المؤمنين ! فَقَلَاهُ أمير المؤمنين
 بالدَّرَّة ، وقيل : بَلْ قَالَ له — لَمَّا قَالَ عمر بَلْ أَمَك — قال : أُمِّي
 يَا أمير المؤمنين « الْحُمَّى أَضْرَعَتْنِي لك » أراد : أن الإسلام قَيْدَتْنِي ، ولو
 كنت في الجاهلية لم تُكَلِّمْنِي بهذا الكلام ، وهو مَثَلٌ تَضْرِبُهُ العرب إذا
 اضْطَرَّتْ لِلخُضُوع .

وَمَثَلُ ذَلِكَ قول الأغر النهشلي لابنه لَمَّا بَعَثَهُ لحضور ما وقع بين
 قومه فقال : يَا بُنَيَّ ، كُنْ يَدًّا لِأَصْحَابِكَ عَلَى مَنْ قَاتَلَهُمْ ، وَإِيَّاكَ وَالسِّيفَ
 فَإِنَّهُ ظِلُّ الْمَوْتِ ، وَاتَّقِ الرُّحْمَ فَإِنَّهُ رِشَاءُ الْمَنِيَةِ ، وَلَا تَقْرَبِ النَّهَامَ فَإِنَّهَا
 رُسُلُ تَعَصَى وَتُطِيع ، قال : فِيمَ أَقَاتِلُ ؟ قال : بِمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

جَلَامِيدُ أَمْلَاءُ الْأَكْمَفِ كَانَهَا رُؤُوسُ رِجَالٍ حُلِقَتْ فِي الْمَوَائِمِ

(١) الشكل : الفقد ، ولعله يريد : أن يصف السيف بأنه أفنك أنواع الأسلحة
 وأروعها فـلـك إلى ذلك — بـيـل الـكـتـابـة فـعـبـر بـجـمـلـة لـازـمـها يـدل عـلـى ما يـريد أـبـلـغ دـلـالـة
 إذ يقول : هُنَا لك — أى إذا ذكر السيف أو تقارعت السيوف ، قارعته أَمَك ودافعت
 عن الشكل والهلاك إشفاقاً عليه ، فإن الإشفاق أعظم ما يكون على المنازل إذا كان
 السلاح السيف ، لأن ضرباته صائبة قاتلة .

فعليك بها وألصقها بالأعقاب والسوق . و قوله : جلاميد أملاء
الأكف ... البيت هو أحد أبيات أوردها المبرد وهي :

تُغَطِّي ثُمَيْرٌ بالعمائم لَوْنَهَا وكيف يُغَطِّي الثُّومَ طَيُّ العمامم
فَإِنْ أَتَضَرَّبُونَا بِالسَّيَاطِ فَإِنَّا ضَرَبْنَاكُمْ بِالْمُرَهَفَاتِ الصَّوَارِمِ
وإن تَحْلِقُوا مِنَّا الرُّؤْسَ فَإِنَّا حَلَقْنَا رُؤْسًا بِاللَّهْمَا وَالْغَلَاصِمِ
وإن تَمْنَعُوا مِنَّا السِّلَاحَ فَعِنْدَنَا سِلَاحٌ لَنَا لَا يُشْتَرَى بِالْدَّرَاهِمِ
جَلَامِيدُ أَمْلَاءُ الْأَكْفِ كَأَنهَا رُؤْسُ رِجَالٍ حُلِقَتْ بِالْمَوَاسِمِ

و قوله : حلقنا رؤسا : يريد أزلناها بالسيوف ، واللها بفتح اللام
جمع لهاة وهي لحمه مشرقة على عكدة اللسان ، والغلاصم جمع الغلصمة وهي
لحمه بين الرأس والعنق ، والجلاميد جمع جليود وهو الحجر تأخذه بيدك
وهو بيان لقوله سلاح لنا لا يشتري بالدرهم ،

وقال المعري :

كَأَنَّ أَرَاقِمًا نَفَثَتْ سِمَامًا عَلَيْهِ فَعَادَ مُبْيَضًّا نَجِيمًا
وَمَنْ تَعَلَّقَ بِهِ حُمَةُ الْأَفَاعِي يَعِشُ — إِنَّ قَاتَهُ أَجَلٌ — عَلِيلًا
كَأَنَّ فِرْنْدَهُ وَالْيَوْمَ حَمَتْ أَفَاضَ بَصْفِجِهِ تَجِيلًا تَجِيلًا
تَرَدَّدَ مَآوُهُ عُلُوًّا وَسُفْلًا وَهَمَّ فَمَا تَمَكَّنَ أَنْ يَسِيلًا
يَسْكَادُ سَنَاهُ يُحْرِقُ مَنْ فَرَاهُ وَيُغْرِقُ مَنْ نَجَا مِنْهُ كُلُّوَلَا

و كأن أراقما ... البيت يقول : كأن الحيات نفخت السموم على هذا

السيف فصار أبيض نارجلا ، وذلك أن الثم موصوف بالبياض ، ومن
نكزته الحية ونفثت فيه سمها تحل جسمه ، فجعل البياض في السيف لونا
للمم والنحافة فعلة ، وقوله : ومن تعلق به : البيت لما وصف السيف

بالتحول لما نفثت الأراقم عليه سماءها حَقَّقَ وَجَهَ نَحْوَهُ ، وهو أن مَنْ
خالطهُ سُمُّ الأفاعي هلك في غَايِبِ الأمر ، وإنْ فَاتَهُ الهلاك عاش عَيْسِيلاً ،
والعَيْسِلُ نَحِيلُ الجِسمِ لِمَحَالَةٍ ؛ وقوله : كَانَ فِرْنَدَهُ ... البيت فالْفِرْنَدُ :
جَوْهَرُ السِّيفِ وَمَاؤُهُ ، وَيَوْمَ خَمْتُ : شَدِيدُ الْحَرِّ ، وَالسَّجْلُ : الدَّلْوُ ،
إِذَا كَانَ فِيهَا مَاءٌ ، وَلَا يُقَالُ لَهَا وَهْيَ فَارِغَةٌ : سَجَلٌ وَلَا ذَنْوَبٌ ، وَالسَّجِيلُ :
الضَّخْمُ الْعَظِيمُ ، يَصْفُ بِضَ السِّيفِ وَبَرِيقِهِ ، أَيْ كَانَ جَوْهَرُ السِّيفِ
وَقَدْ صُتِبَ بِوَجْهِهِ دَلْوٌ مِنَ الْمَاءِ فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الْحَرِّ ، فَهُوَ أَيْضٌ بِرَاقٌ
كَأَنَّهُ مَاءٌ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ شِدَّةَ الْحَرِّ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الْيَوْمُ شَدِيدَ الْحَرِّ كَانَتْ الْحَاجَةُ
إِلَى الْمَاءِ أَشَدَّ ، أَوْ لِأَنَّ الْمَاءَ مَعَ إِشْرَاقِ الشَّمْسِ أَشَدُّ بَرِيقًا وَلَمَعَانًا .
وقوله : تَرَدَّدَ مَاؤُهُ ... البيت لَمَّا شَبَّهَ فِرْنَدَةَ السِّيفِ بِالْمَاءِ وَصَفَهُ بِأَنَّ
الْمَاءَ كَأَنَّهُ يَتَرَدَّدُ فِيهِ مِنْ أَعْلَاهُ إِلَى أَسْفَلِهِ وَمِنْ أَسْفَلِهِ إِلَى أَعْلَاهُ ، وَيَهُمُّ
الْمَاءُ أَنْ يَسِيلَ مِنْ صَفْحَتِهِ فَلَا يَتِمَكَّنُ مِنَ السَّيْلَانِ ، لِأَنَّهُ مُحْصُورٌ فِي
أَجْزَائِهِ ، وَقَوْلُهُ : يَكَادُ سَنَاهُ ... البيت فَالْسَّنَا : الضُّوءُ ، وَقَرَّاهُ : قَطَعَهُ ،
وَكَلَّ السِّيفُ وَالرَّيْحُ يَكِلُّ كَلُولًا : إِذَا تَبَا عَنْ الْعَمَلِ ، يَقُولُ : إِنْ هَذَا
السِّيفُ جَمَعَ بَيْنَ النَّارِ وَالْمَاءِ فَهُوَ يُحْرِقُ مِنْ قَطْعِهِ وَيُغْرِقُ بِمِائِهِ مَنْ كَلَّ
السِّيفُ عَنْهُ قَتْلًا مِنْهُ .

وقال إسحاق بن خَلَفٍ :

أَلْقَى بِجَانِبِ تَحْصَرِهِ أَهْضَى مِنَ الْأَجْلِ الْمُنَاحِ
وَكَأَنَّمَا ذَرُّ الْهَبَا عَلَيْهِ أَنْفَاسُ الرِّبَاحِ

وقال النابغة :

أَطِيرُ فِضَاضًا بَيْنَهُمْ كُلِّ قَوْنَسٍ وَيَتَّبِعُهَا مِنْهُمْ قَرَأْسُ الْحَوَاجِبِ

تَقْدُ السَّلُوقِ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتَوْقِدُ الصَّفَاحِ نَارَ الْحَبَابِ
 « نَضَضْتُ الشَّيْءَ أَفْضَهُ فُضًّا فَهُوَ مَفْضُوضٌ وَفَضِيزٌ : كَسَرْتُهُ وَفَرَّقْتُهُ ،
 وَفَضَاظُهُ وَفَضَاظُهُ : مَا تَكَسَّرَ مِنْهُ وَتَفَرَّقَ ، وَالْقَوْنُسُ : مُقَدَّمُ الرَّأْسِ ،
 وَقَوْنُسُ الْبَيْضَةِ مِنَ السَّلَاحِ : أَعْلَاهَا ، وَالْفَرَّاشُ : عَظْمُ الْحَاجِبِ ، أَوْ وَشْرَةُ
 تَكُونُ عَلَى الْعَظْمِ دُونَ اللَّحْمِ ، وَيُقَالُ : ضَرَبْتُ فَاظَارَ فَرَّاشَ رَأْسِهِ وَذَلِكَ
 إِذَا طَارَتِ الْعِظَامُ رِقَاقًا مِنْ رَأْسِهِ ، وَالسَّلُوقُ : الدَّرْعُ الْمُنْسُوبَةُ إِلَى سَلُوقٍ ،
 وَهِيَ قَرِيبَةٌ بِالْيَمَنِ تُعْرَفُ بِسَاقِيَّةٍ وَإِلَيْهَا تَنْسَبُ أَيْضًا الْكَلَابُ السَّلُوقِيَّةُ ،
 وَالصَّفَاحُ جَمْعُ صَفَاحَةٍ وَهِيَ : كُلُّ عَرِيضٍ مِنَ الْحِجَارَةِ وَنَحْوِهَا ، وَالْحَبَابِ :
 الشَّرَرُ الَّذِي يَسْقُطُ مِنَ الزَّنَادِ يَقُولُ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي : إِنَّ هَذِهِ السُّيُوفُ
 تَقْدُ — تَقْطَعُ — الدَّرْعَ الَّتِي ضَوْعَفَ نَسْجُهَا وَالْفَارَسَ وَالْفَرَسَ وَتَصِلُ
 إِلَى الْأَرْضِ فَتَقْدَحُ النَّارَ بِالصَّفَاحِ . »

وَقَالَ الْبُحْتَرِيُّ بِصِفِ الدَّرْعِ :

يَمْشُونَ فِي زَرْدٍ كَانَ مُتَوْنًا فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ مُتَوْنٍ نِهَاءً
 بَيْضٌ تَسِيلُ عَلَى السُّكَاةِ فُضُولُهَا سَيْلَ السَّرَابِ بِقَفْرَةٍ بَيْدَاءَ
 وَإِذَا الْأَرِسَّةُ خَالَطَتْهَا خِلَّتْهَا فِيهَا خِيَالٌ كَوَاكِبٍ فِي مَاءِ
 « نِهَاءُ جَمْعُ نَهْنٍ ، وَالنَّهْنُ : الْغَدِيرُ »

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ :

كَمْ بَطَلٍ بَارَزَنِي فِي الْوَعْيِ عَلَيْهِ دِرْعٌ خِلَّتْهَا تَطَرِدُ
 كَأَنَّهَا مَاءٌ عَلَيْهِ جَرَى حَتَّى إِذَا مَا غَابَ فِيهِ جَمْدُ

وَقَالَ الْمُتَنَبِّي :

تَرُدُّ عَنْهُ قَنَا الْفُرْسَانِ سَابِقَهُ صَوْبُ الْأَرِسَّةِ فِي أَثْنَانِهَا دِيمُ

تَحُطُّ فِيهَا الْعَوَالِي لَيْسَ تَنْفُذُهَا كَأَنَّ كُلَّ سِنَانٍ فَوْقَهَا قَلَمٌ
 « يقول في البيت الأول : تمنع الرياح من النفوذ في عدو الممدوح
 درع سابعة قد تلتاخت بالدماء التي تسيل من الآسنة عليها ، أو أن وقع
 الآسنة في هذه الدرع كديممة المطر تتابعا . ويقول في البيت الثاني : إن
 الرياح تؤثر في درعه ، أي تجرحها ، ولا تنفذها إلى جسمه ، حتى كأن
 أسننتها أقلام تحط في القراطيس ولا تخرقه » . وقال المعري :

إِذَا طَوِيَتْ فَالْقَعْبُ يَجْمَعُ شَمْلَهَا وَإِنْ نُثِلَتْ سَالَتْ مَسِيلَ رِمَادٍ
 وَمَا هِيَ إِلَّا رَوْضَةٌ سَدِكَ بِهَا ذُبَابُ حُسَامٍ فِي السَّوَابِغِ شَادٍ
 عَلَى أَنَّهَا أُمُّ الْوَعْيِ وَابْنَةُ اللَّظَى وَأَخْتُ الظُّبَى فِي كُلِّ يَوْمٍ جِلَادٍ
 « القعب : القدح الصغير ، ونثل الدرع ينثلها : إذا ألقاها على نفسه
 وصبها عليه ، والرماد جمع ثمد وهو : الماء القليل . يقول : إذا طويت
 صغر حجمها بالطي حتى يسعها القعب . وإن لبست سالت على البدن
 كالماء . وقوله : وما هي إلا روضة ... البيت ، فسدك بالشئ : لزمه ، وشدا
 يشدو فهو شاد : إذا رفع صوته بالغناء ، شبه هذه الدرع بالروضة ،
 والذباب يجتمع في الرياض ويصوت فيها ، يقول : إن هذه الدرع روضة
 قد أولع بها ذباب السيف ، وهو : حذو الذي يتغنى في الدرع ، أي أنها
 درع لا تزال على بطل محارب تردها سيوف الأقران وتقارعها فيسمع
 صوت وقعها . وقوله : على أنها ... البيت فالجلاد : الضراب بالسيف ،
 وجعل الدرع أم الوعي — أي الحرب — إذ أنها تجري تجري الأصل
 والملجأ الذي يلجأ إليه ، وجعلها ابنة اللظى — أي النار — لأنها إنما
 تحمى بالنار ، وأخت الظبي — جمع ظبة وهي حذو السيف — إذ لا تزال

تَرِدُهَا ظُبَاتُ السُّيُوفِ وَتَقَارِنُهَا وَلَا تَوُثِّرُ فِيهَا ، وَصَفَهَا بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْمُنْبِتَةِ
عَنِ الْقَرَابَاتِ مُرِيداً بِهَا مَا يَنْسِبُهَا مِنَ الْمَعْنَى .

وَلَأَبَى الْعِلَاءُ الْمَعْرَى فِي الدَّرُوعِ مَقْطُوعَاتُ كَثِيرَةٍ ، لَقَدْ آفَنَ فِيهَا افْتِنَانًا ،
وَأَبْدَعَ مَا شَاءَتْ عِبْقَرِيَّتُهُ تَرَاهَا فِي سَقَطِ الزَّيْتِ .

وَإِذَا أُرِدْتَ التَّوَسُّعُ فِي وَصْفِ آلَاتِ الْقِتَالِ مِنَ السُّيُوفِ وَالدَّرُوعِ
وَالرَّمَاكِ وَالْقَسَى وَالنَّبَالِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى الْمَوْسُوعَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَدَوَابِّ
الشُّعْرَاءِ فَسَوْفَ تَرَى فِيهَا الظُّمَّ وَالرَّمَّ ، مِمَّا لَعَلَّه يَنْقَعُ عِلْمُكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

نَمَّ الْجُزْءُ الثَّانِي وَيَلِيهِ الْجُزْءُ الثَّالِثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ



استدراكات وتصويبات أخرى

لما وقع في المجلد الأول من الأخطاء

جاء في صفحة ٤٢ من المجلد الأول من ذخائر هذا البيت هكذا :

إذا ظلم المولى فزعت لظلمه فحرك أحشائي وهزت كلابيا

وقد نهنا في تصويبات المجلد الأول : إلى أن فزعت صوابها فزعتُ
وهنا نحاول أن نشرح هذا البيت شرحا آخر علاوة على الذى أوردناه هناك في

شرحه فنقول : قال التبريزي : فرك أحشائي يروى « وحرك أحشائي »

وهذا كما يقال : هذا أمرٌ قد حرك مني : إذا اضطربت له ، وقوله :

حرك أحشائي يجوز أن يكون تحركت أحشاؤه لوجيب قلبه وخفقانه ،

ونبت كلابه لتهيئته للانتقام وتدججه في السلاح وتجمع أصحابه ، والكلب

ينسكِرُ أصحابه إذا رآهم بهذه الحال ، وأنشد الأصمعي في مثله :

أناس إذا ما أنسكِرَ الكلبُ أهله

حَمَوْا جَارَهُمْ مِنْ كُلِّ شَنْعَاءٍ مُظْلِمٍ

ووجه آخر ، وهو أن يكون تحركت أحشاؤه لإعداد ما يعده .

والمتسرع يلحقه ذلك

وجاء في صفحة ٦٠ : ورأى عمرُ بنُ الخطاب رجلاً يقول : أنا ابن

بطحاء مكة ... الخ وصحة هذه الجملة كما جاء في الأغاني ج ٤ ص ٢١٨

طبعة دار الكتب هكذا : وسمع عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه رجلاً يقول

لآخر يفخرُ عليه : أنا ابنُ مُسلَطِطِحِ البطّاح ، وابن كذا وكذا ، فقال له

عمر : إن كان لك عقل فلك أصلٌ ، وإن كان لك خُلُقٌ فلك شرفٌ ،
وإن كان لك تقوى فلك كرمٌ ، وإلا فذاك الحمار خيرٌ منك : أحبسكم إلينا
قبل أن نراكم أحسنكم سَمَنًا ، فإذا تكَلَّمْتُمْ فَأَبَيْتُكُمْ مَنَظِقًا . فإذا اخْتَبَرْنَاكُمْ
فَأَحْسَنُكُمْ فِعْلًا .

وجاء في صفحة ٧٩ من المجلد الأول : وقال حمادٌ عَجَرِدٍ في ذلك
من أبيات : بُثَّ النِّوَالُ وَلَا تَمْنَعُكَ قِلَّتُهُ الْحَ ، وصوابه هكذا : وقال بشار
ابن بُردٍ يهجو العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان قد
سَمَنَ نَحْه فلم يَمْنَحْه :

ظَلَّ الْيَسَارِ عَلَى الْعَبَّاسِ تَمْدُودُ	وَقَلْبُهُ أَبَدًا فِي الْبُخْلِ مَعْقُودُ
إِنَّ السَّكْرِيَّ لَيُخْفِي عَنْكَ عُسْرَتَهُ	حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ بِجَهْدِ
وَلِلْبَخِيلِ عَلَى أُمُوَالِهِ عِلَلُ	زُرْقُ الْعَيُونِ عَلَيْهَا أَوْجَهُ سَوْدُ
إِذَا تَكَرَّهْتَ أَنْ تُعْطِيَ الْقَلِيلَ وَلَمْ	تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرْ الْجُودُ
أَوْ رِقَ بِخَيْرٍ تُرْجَى لِلنِّوَالِ فَمَا	تُرْجَى الثَّمَارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْعُودُ
بُثَّ النِّوَالُ وَلَا تَمْنَعُكَ قِلَّتُهُ	فَكُلُّ مَا سَدَّ فَقْرًا فَهُوَ مَحْمُودُ

وجاء في صفحة ١٢١ هذا البيت هكذا :

وما خَبِرْهُ إِلَّا كَعَقْنَاءٍ مُغْرِبٍ تَصَوَّرُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ وَفِي الْمَثَلِ
وصوابه هكذا :

وما خَبِرْهُ إِلَّا كَعَقْنَاءٍ مُغْرِبٍ تَصَوَّرُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ وَفِي الْمَثَلِ

وهو أحد أبيات لآبي نواس يهجو بها إسماعيل بن سهل وقيل هذا البيت :

على مُحَبِّزِ إسماعيلَ وافيتُ البُخْلَ فقد حَلَّ في دارِ الأمانِ من الأكلِ

وبعده :

يُحَدِّثُ عَنْهَا النَّاسُ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ سِوَى صُورَةٍ مَا إِنْ تُمِرُّ وَلَا تُحَلِي
إلى آخر الأبيات . والمُثَلُّ هُوَ المَثَلُّ جمع ، مِثَالٌ وهو : مَا يُفْتَرَسُ مِنْ مَفَارِشِ
الصُّوفِ المُلَوَّنَةِ ، وقوله : يُحَدِّثُ عَنْهَا النَّاسُ ... نَضَمِيرٌ عَنْهَا لِنَقَاءِ مُغْرِبِ ،
وقوله : مَا إِنْ تُمِرُّ وَلَا تُحَلِي : قَمَرٌ : تَجَلَّه مُرًا وَتَحَلَّى : تَجَعَلَهُ حُلُوا والمعنى :
لَا تَأْتِي هَذِهِ الصُّورَةُ بِطَائِلٍ إِذْ أَنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لِنَقَاءِ مُغْرِبٍ فِي الْوَاقِعِ وَهَذَا
عَلَى حَدِّ قَوْلِهِمْ : فَلَا أَنْتَ حُلُوٌّ وَلَا أَنْتَ مُرٌّ : أَيْ لَسْتَ هُنَاكَ »

وجاء في صفحة ١٢٤ : هُوَ حَقٌّ أَرِيدُ بِهَا بَاطِلٌ ، وَصَوَابُهَا : هُوَ حَقٌّ أَرِيدُ
بِهِ بَاطِلٌ .

وجاء في صفحة ١٥٩ : وَلِيَّ حُمُرِ النَّعَمِ . وَصَوَابُهَا . وَلِيَّ حُمُرِ النَّعَمِ

وجاء في صفحة ٣١٥ : لَمْ يَدْخُلْهُ يَأْذَنِي فَأُخْرِجُهُ يَأْذَنِي . وَصَوَابُهَا :
لَمْ يَدْخُلْهُ يَأْذَنِي فَأُخْرِجُهُ يَأْذَنِي .

وجاء في هذه الصفحة : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَصَوَابُهَا قَالَ ابْنُ
عِيَّاشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، « وَهَذَا ابْنُ عِيَّاشٍ هُوَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عِيَّاشٍ الْمُحَدِّثُ
الْمُتَرَفِّقُ سَنَةَ ١٩٣ هَجْرِيَّةً وَقَدْ تَرَجَّمْ لَهُ يَاقُوتٌ فِي مَعْجَمِ الْأَدْبَاءِ (ج ٧) ،

وقد وردت فيه حكايتنا هكذا : قال أبو بكر بن عياش : كنت إذا أنا شاب إذا أصابتنى مُصيبةٌ ، تَصَبَّرْتُ وَرَدَدْتُ البكاء ، فكان ذلك يرجعنى ويزيدنى ألمًا ، حتى رأيت بالكناسة — محلة بالكوفة — أعرابياً واقفاً وقد اجتمع الناس حوله فأنشد :

خَلِيلِيَّ عَوْجًا مِنْ صَدُورِ الرُّوَاهِلِ بِجَهْوَرِ حُزُونِي وَأَبْكِيَا فِي الْمَنَازِلِ
لَعَلَّ انْحِدَارَ الدَّمْعِ يُعْقِبُ رَاحَةً مِنْ الْوَجْدِ أَوْ يَشْفِي نَجَى الْبَلَابِلِ
فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَتَقِيلُ : ذُو الرُّمَّةِ ، قَالَ : فَأَصَابَتْنِي بَعْدَ ذَلِكَ صَائِبٌ فَكَنْتُ أَبْكِي
فَأَجِدُ رَاحَةً ، فَقُلْتُ : فِي نَفْسِي : قَاتِلُ اللَّهِ الْأَعْرَابِي ، مَا كَانَ أَبْصَرَهُ وَأَعْلَمَهُ !



أغلاط مطبعية

في هذا الجزء الثاني

صواب	ص سطر خطأ
وفي باب العزم	٧ ١٢ وفي باب الغرم
فِيصِيرُكَ	١ ٤٤ فَيُصِيرُكَ
حَسَنُ الكِدْنَةِ - بكسر الكاف	٤ ٤٦ حَسَنُ الكِدْنَةِ
وضمها - : أى السَّمَن	
فَكَأَنَّا	٢٠ ٤٨ فَكَأَنَّهُ
عَلَّتْهُ	٢٠ ٦٠ عَلَّتْهُ
عُلُوُّ	١٢ ١٠٠ عُلُوُّ
فَإِنْ يَكُ جُرْمٌ	١٤ ١٢١ فَإِنْ يَكُ حُرْمٌ
قال زُفَر بن الحارث	١٥ ١٢٢ قال من لا أذكر اسمه
١٦٢ ١٩ و ١٨ ١٩	١٦٢ ١٩ و ١٨ ١٩
سطر أجنبي عنهما	
الشاعر البَيْغَاء	١٣ ١٦٨ الشاعر البَيْغَاء
نهيهم عن الغضب من المرح	١١ ١٨٤ نهيم عن الغضب في المرح
أَيَّ يَوْمَى	١٠ ٢٢٩ أَيَّ يَوْمَى
وَانْجَلَى الزُّبْدُ	١٧ ٢٤٠ وَاِنْجَلَى الزُّبْدُ
إِنَّ العَدُوَّ	٨ ٢٤٤ إِنَّ العَدُوَّ
بيد أن ميناها	٥ ٢٤٧ بيد أن ميناها
سحاب	٤ ٢٥١ سحاب

فهرس الجزء الثاني

من الذخائر والعقريات

عقريات شتى

تندرج في الابواب السابقة

سحر أخلاق الخلفاء الراشدين ٢ طلحة بن عبيد الله ٣ حادث تلاقى فيه الكرم بالشجاعة والمروءة
والحياء والنبل ٧ سلم وأدب وسمو خلق ٩ خير ما يرزقه العبد ١٠ لانزال العرب عربا ماحافظت
على زبها ١٠ توفير العالم والشريف والكبير ١١ عبرة ١٤ لانتك إلى غير الله ١٥ نبالة
وسرورة ١٥ دعوة الله ١٦ كلمات في السؤال ١٦ كما ويرون أن الملوك لا يستحي من مسألهم ١٦
مثل في الرياء ١٨ ألم نصف الحرم ١٩ مثل الدنيا وآفتها ١٩ عمرو بن العاص يصف حاله في
احتضاره ٢٠ ماذا قال عبد الله بن الزبير حين آتاه خبر مقتل أخيه المصعب ٢١ إذا ضيق شينا
ضاق جدا ٢٢ لا تلظن على ما فاكك ٢٢ ومن قولهم في الحث على التعزى ٢٣ لكل غد طعام ٢٤
اللتام مولعون بايذاء الكرام ٢٥ آيات في الصبر والشجاعة والكرم ٢٦ آيات حكيمة ٢٧
آيات من لم يروها فلا مروءة له ٣٠ حكم ومواعظ ٣٢ في المروت ٣٥

طائفة من عقرياتهم في التعازى

التسليية بعد وقوع المحذور ٣٧ من دواعى التسلى قرب الماحوق بالميت ٣٨ من تعازى الملوك
وتسليمهم بأن الناس جميعا مصابون ٣٨ التسلى بأنهم معزى لامعزى به ٣٩ التسلى عن معنى بمن بقى ٣٩
من تسلى بماله من الثواب وبعض تعازيهم ٤٠ من مات له كثير من أهله فصبر ٤١ ومن ادعيتهم
لذوى المصيبة ٤٢

عقرياتهم في الطب والمرضى وعيادة المرضى

معنى الطب ٤٢ وصف طبيب حاذق ٤٢ الطبيب الجمال ٤٣ مدح الحية وذمها ٤٣ شرب
الدواء ٤٤ سياسة الأبدان بما يصلحها من الطعام وغيره ٤٥ من تناول طعاما وتحقق تولدعة
منه ٤٧ الحى ٤٨ الرمد ٥٠ التفرس ٥١ عود إلى عقرياتهم في الشداوى والأدوية ٥١
شهرة المريض إلى الطعام ٥٢ شكوى العلة ٥٢ فضل الصحة والعافية ٥٣ نفع المرضى ٥٤
وصف العلة بأنها تنال الأمان ٥٤ وجوب عيادة المريض ٥٦ أدب عيادة المريض ٥٦ شكاية
من لا يعود إخوانه ٥٧ الاعتذار عن ترك العيادة ٥٧ من عاده مريض ٥٧ مريض عاد صحيحا ٥٨
حتم العائد على تنقيط المريض ٥٨ حتم على تخوفه ليتجنب الضل ٥٨ تغير اللون ٥٨ شهنة
من برأ من المرض ٥٩ نفدية المريض ٦٠

عقريات شتى ٦١ { في الطب والمرض والعيادة

الباب الرابع في كتمان السر وإفشائه

وعقرياتهم في ذلك وفيما يجري هذا المجرى

من الشورى والاستبداد بالرأى والنصح والإناة والعجلة

تمهيد ٦٤ حفظ اللسان ٦٥ منع إظهار السر قبل تمامه ٦٦ حثهم على حفظ السر ٦٦ من يكره اطلاعه على السر ٦٧ المفتخر بحفظ السر ٦٨ المدح بحفظ السر ٦٨ صموبة حفظ السر ٧٠ من لا يحفظ سره ويحفظه غيره ٧٠ الأحوال التي يفشو فيها السر ٧١ المسارة في المحافل ٧١ المتجسس باظهار أسرار أصدقائه ٧٢ الرخصة في إفشاء السر إلى الصديق ١٢ عقريات شتى في كتمان السر ٧٣ عقرياتهم في المشورة والاستبداد بالرأى ٧٦ مدح المشورة ٧٦ حثهم على مشاورة الخازم اللبيب ٧٧ استشارة الكبار والصغار ومن يعتمد على مشورته ورويته ٧٨ من يجب أن نجنب استشارته ٨١ وجوب نصيحة مستشيرك ٨١ الحث على قبول النصيحة وإن كان مرأ ٨٣ عتاب من لم يقبل النصيحة ٨٣ ضياع النصيحة لمن لا يقبله ٨٣ معاتبة من يستصح الناس ويستنشر النصيحة ٨٤ الناصح منهم ٨٥ وصف غاش في نصحه ٨٦ الاستبداد وكره المشورة ٨٦ المتفادى من أن يستشار ٨٨ مدح الإناة والروية وذم العجلة ٨٨ مدح العجلة وانتهاز الفرص ٩٠ عقريات شتى في المشورة ٩١

عقرياتهم في الوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

نهي من لم يعظ عن الوعظ ٩٥ حثهم على الوعظ بالفعال دون المقال ٩٥ التلطف واللين في الوعظ ٩٦ الحث على الانعاط ٩٦ وعظ من لا يعظ ٩٦ حثهم على قبول وعظ من ليس يعظ ٩٧ النهي عن الاقتداء بذوى الزلات ٩٧ الحث على الأمر بالمعروف والمحال التي يجوز فيها ٩٧

الباب الخامس

في الحلم وكظم الغيظ والعفو والغضب والانتقام وما إلى هذه المعاني

تمهيد ١٠٠ المدح بالحلم وتمدحهم به ١٠٢ فضل كظم الغيظ ١٠٤ الغضب وألوانه وما يمكن به ثوراته ١٠٥ من اجتهد في إغضابه فعلم ١٠٧ حثهم على ترك الغضب المؤدى إلى الاعتذار ١٠٩ حثهم على انتصام عن الفبيح وتمدحهم بذلك ١١٠ حثهم على العفو مطلقاً ١١٠ التحمل عن الخدم ١١١ الرحمة ومدح ذويها ١١٢ ما يستحسن فيه الحلم من الكبار وما يستقبح ١١٢ حثهم على درء الحدود ١١٣ حث القادر على العفو ١١٣ ذم المتشقي من العيظ ١١٤ مدح من صفيح =

قدرة ١١٥ الحث على إقالة من سلم ظاهره ١١٥ العفو عن سلم باطه ١١٦ عتب من يحفظ الذنب
بعد تقادمه ١١٧ العفو عن المقر المترف ١١٧ حسن العفو عن المص ١١٨ استعفاء من خلط
إقرارا بإنكار ١١٨ معذور مع إنكار ١١٩ معذور بتكذيب نفسه ١٢٠ استعفاء من زعم أن
ذنبه كان خطأ ١٢١ مستعفى سأل أن يقوم ويؤدب ١٢٢ مستعفى سأل العفو لفرط خوفه ١٢٢
مستعفى اتكل على سالف حرمته ١٢٢ الاستعفاء للذنب من قوم محسنين ١٢٣ متوصل إلى العفو
بمراجعة أو حجة ١٢٣ مستعفى ذكر فرط خوفه من الوعيد ١٢٣ من استعفى واستوهب مآ ١٢٤
المتوصل إلى العفو بالتثبت إلى حين التبيين ١٢٥ نهى العاقب عن اتئيب ١٢٥ نهيم عن الاعتذار
وصعوبته ١٢٦ تأسف من يعاتب بغير ذنب ١٢٧ التهي عن الحلم إذا كان يسبب ذلا أو ضرا ١٢٨
دفع الجهل بالجهل ١٢٩ من نهى عن الاغترار بعلمه ١٣٠ الحلم مغر وحار مذل ١٣٠ نهيم
عن إكرام اللتام ١٣١ الاستعانة بالجهل لدى الحاجة إليه ١٣٢ حث القادر على العقاب قبل
فوته ١٣٢ التبعج بقسوة القلب وقلة الرحمة ١٣٣ أخذ البريء بذنب الجاني ١٣٤ عذر من
بدر منه سخط ١٣٨ الاحتراس من غرس العداوة ١٣٨ نهيم عن الاغترار بالود تستيقظ معه
العداوة ١٣٩ نهيم عن السكون إلى من تقدم منك إليه إساءة ١٤٢ نهيم عن احتقار العدو ١٤٣
التبعج باظهار اللبان وإضمار العداوة ١٤٤ العدو يكاشرك إذا حضرك ١٤٥ من نظره ينبى
عن عداوته ١٤٥ ثبات العداوة الذاتية ١٤٧ حمد المداجة طبا للفرصة ١٤٧ المسرة بوقوع
العداء بين أعدائك ١٤٨ ذنب يعاديك بلا سبب ١٤٨ تأسف من يعاديه لثيم أو ذنب ١٤٨
حشم على العداوة بالقول لا بالفعل ١٤٩

طائفة من عبقریاتهم

في الناس وما جبل عليه السواد الأعظم
من الحقد والحسد وسوء الظن والشناعة وما جرى هذا المجرى

الناس - لا يزال الناس بخير ما عابونا ١٤٩ وجدت الناس أخبر قله ١٥١ الناس كابل مائة لا تجد
نهارا حلة ١٥١ لوتكاشفت ما تدافتم ١٥٢ تفريق في الناس وألوانهم ١٥٢ الفوغاء ١٦١ قلة
الوفاء في الناس وشروع الغدر والمكر في عامتهم ١٦٣ الاندال واللتام ١٦٦ الظن ١٦٨
الشناعة ١٧٠ الحقد ١٧٠ ذم الحقد ومدحه ١٧١ الحسد ١٧٤ المزاح ١٨٢ نهيم عن
المزاح ١٨٢ حدم القصد في المزح ومزاح الأمان ١٨٣ نهيم عن الغضب من المزح ١٨٤ المدح
بأن فيه الجد والمزول ١٨٤ عذر من يضحك وهو يحزون ١٨٥ نهيم عن كثرة الضحك ١٨٥
إيراد جد في مسلك هول ١٨٥ صدر من عبقریاتهم في الغيبة والهمة - حقيقة الغيبة ١٨٦ ذم الغيبة
والهمة ١٨٦ من سمحت نفسه بأن يكون في حل ومن لا تسمع نفسه ١٨٨ من قلت مبالاة بمن
اغتابه ١٨٨ ذم ناقص بغتاب فاضلا ١٨٩ من رمى غيره بعيه ١٩٠ اغتاب المرء غيره يدل على
عيه ١٩٠ تشهي الغيبة واستطابتها ١٩١ من اغتاب فاعتب ١٩٢ نهيم عن الاصفا إلى
الغتاب ١٩٢ المدح بصيانة مجلسه عن الغيبة ١٩٢ حشم على التثبت فيما يسمع من السعاية ١٩٢
صعوبة التخلص من اغتاب الناس ١٩٥ ذم ناقص الغيبة ١٩٦ الموصوف بالغيرة ١٩٦ من اغتاب
غيره فرآه ١٩٦ من لا يعوم اغتيابه ١٩٧ حشم على التحرز عما يقتضى الغيبة ١٩٧

الباب السادس

في التواضع والكبر وما إليهما

حدالتواضع والكبر ١٩٨ حشم على التواضع ٢٠٠ ذمهم التكبر ٢٠٣ بعض دواعي التكبر ٢٠٤
متكبر ذنى أو فقير ٢٠٥ مدحهم معرفة الرجل قدر نفسه وذمهم الصلف وبعض نوادر المزهوين ٢٠٥
معتذر لعجه وعزته ٢٠٧ تكبر على ذوى الكبر ٢٠٧ ذمهم الافراط في التواضع ٢٠٨ حمد
تعظيم الكبار ٢٠٨

الباب السابع

في الشجاعة وعقوباتهم فيها

وفي الصبر في القتال وسائر ما يتصل بالحرب

حقيقة الشجاعة ٢١٠ الأسباب المدججة ٢١١ حشم على الثبات والاقدام ونهيهم عن الاحجام
والفكر في العواقب ٢١٢ البادر إلى الحرب غير مبال بها ٢١٥ حث من دعى إلى المبارزة على
الاجابة ٢١٦ المنازل وقت المنازلة ٢١٦ صدر من عقوباتهم في الصبر ٢١٧ الخدعة والحيلة
واتحز في الحرب ٢٢٠ ما ينبغي أن يتصف به أمراء الجيوش ٢٢٢ حشم على التفكير قبل
اتقدم ٢٢٧ من يؤثر الموت في العز على الحياة في الذل ٢٢٨ نهيمهم عن مخافة القتل وحشم على تصور
الموت وتمدحهم بذلك ٢٢٩ الجود بالنفس وحب الموت في الوغى وأنفتهم من الموت على الفرائش ٢٣٤
من يحوض الحرب لا بد أن يوطن نفسه على الموت ٢٣٨ في القتل حياة ٢٣٨ تأثير الخوف والخوف
منه والموافى على الجماعة ٢٣٩ المدح بقوة نفسه دون جسمه ٢٤٣ اتقصد إلى العدى بمجاهرة ٢٤٤
المقاتل عن حريمه ٢٤٤ المستنكف من السلب ٢٤٥ الشبان والكهول في الحرب ٢٤٦ العاجز
أعادي عن إصلاح ما أفسده وعكس ذلك ٢٤٨ من تصبه العليور والسباع في القتال ٢٤٩ عذر من
يلبس الدروع ونحوها في الحرب والمستغنى بشجاعته وبثينه عنها ٢٥٢ تحريم الملاهي على المحارب ٢٥٤
طائفة من عقوباتهم في الصلح والتحذير من الحرب ٢٥٦ الحرب تصيب جانبا وغير جانبا ٢٦٠
المتع من الصلح ٢٦١ ضارع طلب الصلح ٢٦٢ المعير بانهمزاه ٢٦٧ ترك اتباع المنهمز ٢٦٨
الفار وقت الفرار وثبات وقت الثبات ٢٦٩ المتفادى من حضور الحرب والمحتج لانهمزاه بالخوف من
اقتل ٢٧٠ حارب يعتذر عن هربه ٢٧١ التخلف عن قومه ٢٧٢ من نجا وقد استولى عليه
الخوف ٢٧٣ تسلية المنهمز ٢٧٤ صدر من عقوباتهم في الجبن ٢٧٥ من يظهر الشجاعة خارج
الحرب ويحجب فيها ٢٧٧ عقوبات شتى في الشجاعة والحرب ٢٧٧ ما غزى قوم قط في عذر دارم
إلا ذلوا ٢٨٢ صدر من عقوباتهم في وصف آلات الحرب ٢٩٦ استدراكات أخطأ في الجزء الأول ٣٠٤
استدراكات أخطأ في الجزء الثاني ٣٠٧ الفهرس ٣٠٨